

أحزان الإمبراطورية

النزعة العسكرية، والسرية، ونهاية الجمهورية



تأليف

تشارلز جونسون

ترجمة

صلاح عويس

فى هذا الكتاب يرى البروفيسور تشالمرز جونسون أن فرض الهيمنة الأمريكية على العالم هو شكل جديد لإمبراطورية كونية تحيط العالم بنظام واسع النطاق من القواعد العسكرية المزودة بأحدث ما أنتجته آلة الحرب الأمريكية. ورغم انهيار الاتحاد السوفيتى زادت واشنطن من وتيرة اعتمادها على الحلول العسكرية للمشكلات السياسية والاقتصادية. ويستعرض الكتاب كيف أن النزعة العسكرية الأمريكية تتلازم مع النزعة الإمبراطورية حتى أنه يصفهما بأنهما توأمان سياميان ملتصقان لا يمكن الفصل بينهما. ويدلل على ذلك بالسلوك الإمبراطورى مثل خوض الحروب الانتقائية، والتدخل فى شئون الدول منذ عقود، والإطاحة بنظم حكم لا تستجيب للنزوات الإمبراطورية والعسكرية وفرض نظم عميلة وديعة، وعسكرة الفضاء، والعمل الأحادى فى الشئون الدولية وانتهاك الشرعية الدولية دون العودة الى الأمم المتحدة، وحتى انتهاك الدستور الأمريكى فى الشئون الداخلية وفرض عمليات التجسس والتنصت على المواطنين الأمريكين، وغير ذلك. ويحذر المؤلف من أنه إذا استمرت الولايات المتحدة فى توجهاتها، فإنها سوف تتعرض لمخاطر تهاوى الجمهورية الأمريكية والإفلاس وازدياد كراهية العالم لها والتورط فى حروب لا تتوقف وخسارة الديمقراطية والحقوق الدستورية، وهى ما يسميها المؤلف جميعها "أحزان الإمبراطورية".

أحزان الإمبراطورية

النزعة العسكرية، والسرية، ونهاية الجمهورية

المركز القومي للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: 1796

- أحزان الإمبراطورية: النزعة العسكرية، والسرية، ونهاية الجمهورية

- تشالمرز جونسون

- صلاح عويس

- الطبعة الأولى 2011

هذه ترجمة كتاب:

The Sorrows of Empire:

Militarism, Secrecy & the End of the Republic

By: Chalmers Johnson

Copyright © 2004 by Chalmers Johnson

First Published by Henry Holt & Company

Translation rights arranged by Sandra Dijkstra Literary Agency

Arabic Translation © The National Center for Translation, 2011

All Rights Reserved

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة

شارع الجبلابية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

أحزان الإمبراطورية

النزعة العسكرية، والسرية، ونهاية الجمهورية

تأليف: تشالمرز جونسون

ترجمة: صلاح عويس



2011

جونسو، تشالمرز.

أحزان الإمبراطورة: النزعة العسكرية والسرية
ونهاية الجمهورية/ تأليف: تشالمرز جونسون؛
ترجمة: صلاح عويس .. القاهرة : الهيئة
المصرية العامة للكتاب، ٢٠١١.

٤٣٢ ص : ٢٤ سم. - (المركز القومي للترجمة)

تدمك ١ ٩٨٤ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - العالم - تاريخ.

١ - عويس، صلاح. (مترجم)

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٤٣٩ / ٢٠١١

I. S. B. N 978 - 977 - 421 - 984 - 1

ديوى ٩٠٩

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية
المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات
أصحابها فى ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

محتويات الكتاب

7 مقدمة المترجم
13 مقدمة المؤلف
27 الفصل الأول: الإمبراطوريات القديمة والحديثة
53 الفصل الثاني: جذور النزعة العسكرية الأميركية
83 الفصل الثالث: نحو روما الجديدة
115 الفصل الرابع: مؤسسات النزعة العسكرية الأميركية
155 الفصل الخامس: الجنود البدلاء والمرتزقة
179 الفصل السادس: إمبراطورية القواعد
217 الفصل السابع: غنائم الحرب
251 الفصل الثامن: الحريان المراقبتان
295 الفصل التاسع: ماذا حدث للعملة؟
327 الفصل العاشر: أحزان الإمبراطورية
363 مسرد لأهم العبارات والمصطلحات
373 الهوامش

مقدمة المترجم

يتساءل عدد كبير من المفكرين الأميركيين هذه الأيام: هل يمكن أن تكون دولة ما ديموقراطية وإمبراطورية مستبدة فى وقت واحد؟ أليس من المفروض أن تكون الدولة إما ديموقراطية أو إمبراطورية؟ وإذا اختارت أن تكون الأخيرة أليس من المحتم أن تأخذ نفس مسار الإمبراطوريات القديمة التى انتهت بها الحال إلى الانهيار؟

ويحللو لمعظم الكتاب الأميركيين أن يستذكروا ما جاء فى خطبة الوداع التى وجهها جورج واشنطن. أول رئيس للولايات المتحدة. إلى الأمة الأميركية فى نهاية فترة رئاسته والتى قال فيها إن الجيوش العاملة هى العدو الأكبر للجمهورية. وكان يرمى بذلك إلى أنها هى التى تقضى على مبدأ الفصل بين السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية الأمر الذى يؤدى بالبلاد إلى السقوط فى براثن الديكتاتورية والاستبداد.

ويفسر المفكرون المهمومون بمصير الولايات المتحدة الأميركية - وعلى رأسهم البروفيسور تشالمرز جونسون مؤلف هذا الكتاب - مخاوفهم بأن تلك الجيوش ونزعة التسلط العسكرى. والمؤسسة العسكرية. والمجمع العسكرى - الصناعى، ينتزعون كل السلطات ويعهدون بها إلى رئاسة الجمهورية ليقيموا بذلك ما يسميه جونسون "الرئاسة الإمبراطورية". كذلك تتطلب المحافظة على الإمبراطورية استمرار وجود قوة مسلحة خارقة وإهدار أموال طائلة على التسليح من خلال إنشاء مجمع عسكرى - صناعى، وبذلك تصبح البلاد أسيرة لدائرة شريرة من المصالح التى تقود إلى سلسلة لا نهاية لها من الحروب.

ومن الغريب أن يبادر الرئيس الأميركي الأسبق دوايت أيزنهاور هو أيضا فى خطاب الوداع عام ١٩٦١ إلى التحذير من تنامى صناعة الأسلحة الضخمة التى كانت قد بدأت فى التمرد على أى نوع من الرقابة، وواضح أنه كان يقصد على وجه التحديد المجمع العسكرى - الصناعى، ولكن وجه الغرابة أو المفارقة فى تحذيره أن كُتَّاباً أميريكين مثل البروفيسور جونسون يصفونه بأنه "جزار مذبحه جواتيمالا"، وأنه الشخص الذى أمر بتنفيذ أول عملية سرية تعتبر من أكثر العمليات المأساوية التى قامت بها أميركا وهى الإطاحة بالدكتور محمد مصدق رئيس الوزراء الإيرانى عام ١٩٥٣ من أجل عيون الشركة البريطانية للبترول "بريتيش بتروليم"، كذلك كان هو الذى قاد النمو الخرافى للمجمع العسكرى - الصناعى والإنتاج الجنونى المفرط للأسلحة النووية وتَفَوُّل سلاح الجو. ويبدو أنه أفاق قبل مغادرته البيت الأبيض - كسلفه جورج واشنطن - على هول وجود هذه المؤسسة العسكرية المخيفة، ولكن بعد فوات الأوان.

ويرى عدد لا بأس به من الباحثين والكتَّاب الأميركيين وغيرهم أن الحكومة الحقيقية فى الولايات المتحدة هى تحالف المجمع العسكرى - الصناعى - التكنولوجى. ويشير الباحث والكتّاب المصرى سمير مرقص فى كتابه: الإمبراطورية الأميركية: "ثلاثية الثروة والدين والقوة" إلى أن هذا التحالف هو الصانع الأول للقوة والدافع نحو التوسع المستمر والمحدد لمصالحها القومية العليا. ولعل أصدق وصف لهذا التوسع أنه يمثل التوسع من الداخل إلى الخارج، فضلا عن أن السياسة الخارجية الأميركية هى مجرد استجابة لأمرين اثنين هما: القوة الأميركية المتنامية باطراد، والمصالح التوسعية الأميركية وفق ما تفرضه مصالحها، وهو ما يتفق مع ما ذكره بول كينيدي فى كتابه: "صعود وسقوط القوى الكبرى" إذ يتوقع الأفول النسبى والمطلق للولايات المتحدة، ويرجع ذلك أيضا إلى التوسع العسكرى المفرط والإنفاق على العجز قائلًا: "أصبح لدينا من الحروب أكثر مما لدينا من نقود".

وعلى مدى السنوات الخمسين الماضية كان البعض يعتبر الولايات المتحدة آخر وأقوى قوة إمبراطورية فى العالم، ومع ذلك إذا عدنا إلى أيام الحرب الباردة سنجد إمبراطوريتين متنافستين هما الإمبراطورية الأميركية والإمبراطورية السوفيتية. ولم تلبث أن انضردت الإمبراطورية الأميركية بالعالم بعد انهيار الاتحاد السوفيتى.

غير أن وجهة نظر جديدة بدأت تظهر فى السنوات الأخيرة وتتلخص فى أنه لم تعد هناك إمبراطوريات فى العالم، ولكن برزت بدلا منها طبقة كونية حاكمة فى سبعينيات القرن الماضى، ولم تعد الولايات المتحدة إمبراطورية فى حد ذاتها، ولكنها أصبحت المنفذ الرئيسى لإدارة الطبقة الكونية الحاكمة. ويقول أصحاب هذا الرأى إننا مازلنا نمر بمرحلة التحول من الإمبراطورية الأميركية إلى حكم الطبقة الكونية التى خرجت من رحم الإمبراطورية الأميركية. ومن بين أبرز أصحاب هذه النظرية الكاتبان مايكل هاردت وأنطونيو نيجرى اللذان يعبران فى كتابهما: "السلطة الإمبراطورية" عن نظرية تقول إن الطبقة الكونية الحاكمة ظهرت وتطورت على مدى نصف القرن الماضى وإنها هى التى تحكم العالم الآن. وتستند هذه النظرية إلى فرضية أساسية هى أن "السيادة أخذت شكلا جديدا وأصبحت تتكون من سلسلة نظم وطنية وفوق الوطنية اتحدت تحت منطق واحد للحكم. وهذا الشكل الكونى الجديد للسيادة هو ما تسميه النظرية "السلطة الحاكمة". وعلى عكس النزعة الإمبراطورية فإن السلطة الإمبراطورية لا تقيم مراكز سلطة إقليمية ولا تعتمد على حدود أو حواجز ثابتة. وسوف نرى كيف يخالف تشالمرز جونسون هذا الرأى ويتحدث بإسهاب عن "إمبراطورية القواعد العسكرية" فى كتابه الذى بين أيدينا، فضلا عن أن رأى اصحاب تلك النظرية يتعارض مع وجهة النظر التقليدية التى تضع السلطة الأساسية التى تتحكم فى عمليات العولة والنظام العالمى الجديد فى أيدي الولايات المتحدة.

ويطرح الكاتبان ويليام روبنسون وجيرى هاريس نظرية مماثلة فيقولان إن طبقة رأسمالية متجاوزة للحدود القومية برزت باعتبارها ذلك الجزء من البورجوازية العالمية التى تمثل رأس المال المتجاوز للحدود القومية، وهم مُلأكَ أدوات الإنتاج العالمية القائدة التى تتجسد فى المؤسسات المتجاوزة للحدود القومية والمؤسسات المالية الخاصة العابرة للقارات. وهذه الطبقة الرأسمالية هى التى يمكن أن نسميها الطبقة الكونية الحاكمة. ويمكن تفسير العديد من السياسات الدولية المعاصرة على ضوء الصراع الناشئ بين الإمبراطورية الأميركية والطبقة الكونية الحاكمة التى خرجت من تحت عباءتها. وقد كان الدافع الواضح لغزو العراق هو المصالح الإمبراطورية لجانب من الطبقة الحاكمة فى الولايات المتحدة، وهو ما يتفق تماما مع رأى البروفيسور جونسون الذى يذكر بصراحة بعض عناصر هذه الطبقة من الشركات والمؤسسات الكبرى فى الولايات المتحدة وخاصة تلك العاملة فى مجال النفط وصناعة السلاح. ويمكن ملاحظة هذا الصراع بين النخبة المتجاوزة للحدود القومية والإمبراطورية الأميركية حتى فى

الأحداث التالية للغزو وأثناء الاحتلال. وهذا الصراع لا يتضح من خلال العراق وحده، بل من خلال جوانب كثيرة فى السياسة الدولية مثل رفض الولايات المتحدة للمحكمة الجنائية الدولية، ورفض الرئيس السابق جورج دبليو بوش لاتفاقيات كيوتو. وعودة بوش إلى الممارسات الإمبراطورية القديمة من خلال ما سُمى "دبلوماسية الدولار".

ولو عدنا إلى كتاب "أحزان الإمبراطورية" نجد أن البروفيسور تشالمرز جونسون يرى أن النزعة العسكرية الجديدة فى الولايات المتحدة تعمل على تغيير أميركا ودفع شعبها إلى تحمل أعباء الإمبراطورية. وعندما ينتقل إلى الحديث عن الوقت الحاضر فإنه يرسم خارطة لإمبراطورية القواعد العسكرية الآخذة فى التوسع ولشبكة الخدمات الهائلة التى تدعمها. ويلفت الأنظار إلى طبقة العسكريين المحترفين التى اخترقت عدداً كبيراً من المناصب المدنية فى فروع الحكومة، والتى تطبع كل ما تفعله بطابع السرية، والتى تعتمد مصالحها الحيوية على استغلال الميزانيات العسكرية الضخمة.

ويؤيد المؤلف آراءه بالإحصائيات والبيانات وخاصة تلك التى تعترف بها المصادر الحكومية فى بلاده، كما يؤكد أن النزعة الإمبراطورية ليست جديدة وإنما تعود إلى القرن التاسع عشر، ويستعرض مظاهر الإمبراطورية الأميركية مثل التدخل فى شؤون الدول الأخرى الذى يعود إلى عقود عديدة من الزمان، وعسكرة الفضاء، وتحويل وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية إلى ما يسميه "جيش الرئاسة الخاص" مما سمح لإدارة الرئيس بوش بتولى "سلطات ديكتاتورية" تحميها مؤسسات يفترض أن تدين بالديموقراطية مثل مجلسى الكونجرس اللذين يطالب البروفيسور جونسون بإصلاحهما ومحاربة الفساد فيهما ويتهمهما بأنهما أصبحا مثل "السينيت" الرومانى القديم فى خضوعه لقيصر.

وفى مقابلة تليفزيونية أجرتها معه الكاتبة والصحفية إيمى جودمان حول ثلاثيته يتحدث عن القواعد الأميركية المنتشرة فى أنحاء العالم والتى سوف يتعرف عليها القارئ فى كتابه بالتفصيل، ولكن يهمنى أن أشير هنا إلى الأمر الذى اعتبره الدليل الحديث على إمبراطورية القواعد الأميركية، وهو قرار البنتاجون، بموافقة رئاسية، على إنشاء قيادة إقليمية أخرى فى إفريقيا. وربما تكون هذه القيادة فى القاعدة الأميركية فى جيبوتي فى القرن الإفريقى أو فى خليج غينيا حيث تنقب الولايات المتحدة عن النفط وحيث يؤيد السلاح البحرى الوجود الأمريكى هناك.

ويضيف قائلاً: "النزعة الإمبراطورية هى شكل من أشكال النظام الاستبدادى، وهى لا تحكم مطلقاً من خلال الشعب الذى تحكمه ولا تسعى إلى الحصول على رضاه،

ونحن نتحدث عن نشر الديمقراطية، ولكننا نتكلم عن نشر الديمقراطية على فوهة مدفع مهاجم، وهذا تناقض فى الكلام ولن ينجح. وأى شخص يحترم نفسه ممن فرضت عليهم الديمقراطية بهذه الطريقة سوف يسعى إلى الانتقام".

ومع أنه لم يتحدث طويلا فى كتابه عن مقاومة شعوب العالم لوجود القواعد العسكرية الأميركية فى بلادها، إلا أنه فى هذا اللقاء التليفزيونى يجب على الصحفية المحاورة بشئ من الإسهاب، ويسلم بأن هناك مقاومة حقيقية منذ زمن طويل، فى جزيرة أوكيناوا كانت هناك ثلاث انتفاضات تاريخية على الأقل ضد الوجود الأمريكى. وهناك تعاون بين الحكومة اليابانية والبنجاجون بشأن استخدام هذه الجزيرة التى تعتبر نسخة من بورتوريكو. وهذه هى الطريقة اليابانية لصناعة الكعكة وأكلها أيضا، فهم يحبون التحالف مع أميركا، ولكنهم لا يريدون وضع الجنود الأمريكيين فى أى مكان قريب من المواطنين على الأرض اليابانية الأم. وهكذا يقومون بدور أساسى فى إلقاءهم أو الحجر عليهم بعيدا فى هذه الجزيرة حيث يدفع سكانها الثمن. ويقول تشالمرز جونسون: "فى الحقيقة هناك مقاومة هائلة فى إيطاليا حيث توجد عدة قضايا ضد السى آى إيه ذات صلة بخطط أشخاص ونقلهم جوا إلى دول أخرى تتولى تعذيبهم. وهناك الآن نحو خمسة وعشرين ضابطا من السى آى إيه معروفون بالاسم ومطلوبون أمام القضاء الإيطالى حيث تتهمهم الحكومة الإيطالية بارتكاب جنایات فى إيطاليا. كذلك نرى المقاومة فى شخص رئيس الوزراء ثاباتيرو فى إسبانيا حيث كان قد وعد الشعب بالانسحاب من العراق إذا تسلم السلطة، ولكنه على الأقل خفض الوجود العسكرى الأمريكى فى إسبانيا إلى حد كبير. وتستمر المقاومة حول العالم بينما يسود قلق كبير من استعراض العضلات العسكرية الأميركية فى أنحاء العالم وخاصة مع وجود أربع مجموعات عمل مع حاملات الطائرات فى الخليج الفارسى. وإذا عدنا إلى التاريخ ربما كان أكثر بلد مناهض للديموقراطية الأمريكية هو اليونان. ولن ينسى اليونانيون دورنا فى جلب الجنرالات إلى حكم البلاد فى أواخر الستينيات وبدايات السبعينيات من القرن الماضى، وبالطبع مع إقامة عدة مواقع عسكرية أميركية - ويستمر الحال على هذا النحو فى كل مكان فى أميركا اللاتينية وفى إفريقيا اليوم - ولعل أهم منطقة بالنسبة لأصحاب النزعة العسكرية الإمبراطورية هى منطقة أوراسيا الجنوبية التى أصبحت مفتوحة للضغوط الإمبريالية الأجنبية بعد انهيار الاتحاد السوفيتى".

ويرى معظم المراقبين الذين استقالوا من مهامهم الموكلة إليهم من البنتاجون أن التفسير الأساسى للحرب فى العراق هو أن يصبح بالتحديد بديلا عن الدعامتين القديمتين للسياسة الخارجية الأميركية فى الشرق الأوسط. والدعامة الأولى هى إيران بعد الثورة الإسلامية عام ١٩٧٩. والدعامة الثانية هى المملكة العربية السعودية وقد وضعت البنتاجون قوات مسلحة برية وجوية هناك بعد حرب الخليج عام ١٩٩١. ويقول البروفيسور جونسون: " لم يكن ذلك ضروريا بل كان تصرفا يدل على الغباء والعجرفة. وقد تسبب فى إثارة العداء بين عدد كبير من السعوديين الوطنيين وأولهم على الإطلاق زميلنا ورصيدنا السابق أسامة بن لادن ".

وكتاب " أحزان الإمبراطورية " هو الجزء الثانى من ثلاثية البروفيسور جونسون. ويتناول الجزء الأول نفقات وعواقب الإمبراطورية الأميركية، أما الجزء الثانى الذى بين أيدينا " أحزان الإمبراطورية " فموضوعه النزعة العسكرية وتمسكها بطابع السرية، ومؤشرات نهاية الإمبراطورية، ويتناول الجزء الثالث الأيام الأخيرة للجمهورية الأميركية. والناشر: " متروبوليتان بوكس - هنرى هولت آند كومبانى - نيويورك ".

وفى الختام، أرجو أن يسمح لى القارئ الكريم بأن أبدى ملاحظتين شخصيتين:

الأولى: هى رجاء أن يفرض لى حرصى - كمترجم - على نقل ما يراه مؤلف الكتاب بأمانة حتى وإن خالفته رأى أحيانا، من ذلك مثلا إصرار المؤلف - شأن كثير من كتاب الغرب - على تسمية الخليج العربى بالخليج الفارسى. وقد حافظت على مسمياته كلها على غير رغبة منى فى بعض الحالات.

والثانية: هى أننى جاهدت أن أنقل - بقدر ما أسعفتنى به لغتنا العربية الثرية - روح السخرية الأدبية التى استعان بها المؤلف فى الحديث عن السياسة والساسة وبعض مؤسسات بلاده، فقد كان يلجأ إلى اللعب بالألفاظ والمعانى أحيانا إذا ابتعد عن لغة البيانات والإحصائيات والأرقام الجامدة، راجيا أن أكون قد حققت بعض مقاصده.

صلاح عويس

القاهرة - ٢٠١٠

مقدمة المؤلف

كشف القناع

عن الإمبراطورية الأميركية

" امتنا هي اعظم قوة أبدية في التاريخ "

الرئيس جورج دبليو بوش

كروفورد، تكساس، ٣١ أغسطس ٢٠٠٢

مع الشعور بالتميز عن الشعوب الأخرى لا يدرك معظم الأميركيين - أو لا يريدون أن يدركوا - أن الولايات المتحدة تهيمن على العالم من خلال قوتها العسكرية. وهم غالبا ما يجهلون حقيقة أن حكومتهم تنشر حامياتها العسكرية في الكون، كما أنهم لا يعرفون أن هناك شبكة واسعة من القواعد العسكرية الأميركية على أراضى كل قارة، باستثناء القارة القطبية الجنوبية لتؤسس شكلا جديدا لإمبراطورية. إن بلادنا تنشر فعلا ما يزيد على نصف مليون من الجنود والجواسيس والتقنيين والأجراء والمقاولين المدنيين في دول أخرى، بالإضافة إلى ما يقرب من نحو اثنتى عشرة حاملة طائرات تمثل قوات العمل في جميع محيطات وبحار العالم. ونحن ندير العديد من القواعد السرية خارج أراضينا لمراقبة ما تقوله شعوب العالم لبعضها البعض وما تتبادله من رسائل الفاكس والبريد الإلكتروني بمن فيهم المواطنون الأميركيين. وتجلب

منشأتنا العسكرية والاستخبارية التى تطوق العالم الأرباح للصناعات المدنية التى تقوم بتصميم وصناعة الأسلحة للقوات المسلحة، أو تتولى تنفيذ عقود الخدمات لبناء وصيانة قواعدها العسكرية واسعة الانتشار. ومن بين مهام هؤلاء المقاولين أن يحرصوا على توفير غذاء جيد وبرامج ترفيهية وتسهيلات لإجازات رخيصة وممتعة لكل من يرتدى الزي العسكرى من أعضاء الإمبراطورية الذين يتم إيواءهم فى مساكن مريحة. ولقد أصبحت قطاعات بأكملها من الاقتصاد الأمريكى تعتمد على المبيعات العسكرية، وفى عشية حربنا الثانية على العراق على سبيل المثال، أمرت وزارة الدفاع بتوريد ٢٧٢ ألف زجاجة من السائل الواقى من أشعة الشمس (من عيار 15 SPF) وهذه الكمية تبلغ ثلاثة أضعاف ما سبق طلبه عام ١٩٩٩، كما تعتبر نعمة بالنسبة للشركة الموردة لها واسمها "كونترول ساپلاى كومبانى" فى تولسا بولاية أوكلاهوما، وممثلا الفرعى شركة " صن فن برودكتس " فى ديتونا بيتش بفلوريدا^(١).

ولقد كانت الإمبراطورية الأمريكية الجديدة فى طور التكوين منذ زمن بعيد؛ إذ تعود جذورها إلى بدايات القرن التاسع عشر عندما أعلنت الولايات المتحدة أن جميع بلاد أميركا اللاتينية تدخل ضمن مجال نفوذها، وعملت بنشاط على توسيع أراضيها على حساب سكان شمال أميركا الأصليين والمكسيك المجاورة مثلما فعل الاستعماريون البريطانيون والفرنسيون والإسبان. وبذل الأميركيون جهد طاقتهم فى انتزاع السكان الأصليين فى القارة الأمريكية الشمالية وسلموا أراضيهم لمستوطنين جدد. وبهذا كان الأميركيون على شاكلة معاصريهم فى أستراليا والجزائر وروسيا القيصرية. وعلى مشارف القرن العشرين قامت فى الحكومة جماعة من الإمبرياليين المفرطين فى الثقة بذواتهم باستغلال الحرب الأمريكية - الإسبانية لزرع بذور قواعد عسكرية فى أميركا الوسطى والبحر الكاريبى وهاواى وجوام وجزر الفلبين، بالضبط مثلما فعلت جماعات مماثلة من المحافظين الذين سموا بعد قرن لتنفيذ أجنداتهم التوسعية تحت غطاء " الحرب على الإرهاب ".

ومع الحرب العالمية الثانية برزت أمتنا باعتبارها الأغنى والأقوى على وجه الأرض، والورث المرشح لتقائيا للإمبراطورية البريطانية، غير أن الشعب الأمريكى لم يكن متحمسا لذلك مثل الرئيس فرانكلين د. روزفلت. وطالب الشعب الأمريكى بأن يتم تسريح الجيوش وتحويل اهتمام الأمة إلى توفير التوظيف الكامل والتنمية المحلية. ولم

يدم السلام طويلا على أية حال. ومع الحرب الباردة وتنامى الاقتناع بأن المصالح الحيوية، وحتى التمسك الوطنى بالبقاء، يتطلب " احتواء " الاتحاد السوفييتى، كل ذلك ساعد على تحول الإمبراطورية غير الرسمية، التى بدأت أثناء الحرب العالمية الثانية، إلى مئات المنشآت فى أنحاء العالم من أجل أضخم قوات مسلحة احتفظنا بها فى زمن السلم. وخلال ما يقارب الخمسين عاما من امتلاك مكانة القوة الأعظم. كانت الولايات المتحدة تتكرر أن أنشطتها تشكل نوعا من الإمبريالية وتدعى أنها مجرد رد فعل لخطر " إمبراطورية الشر "، أى الاتحاد السوفييتى والدول الدائرة فى فلكه. وببطء شديد أصبحنا نحن الأمريكيين نعى أن دور القوات المسلحة أخذ فى النمو فى بلدنا، وأن " الفرع التنفيذى ": "الرئاسة الإمبراطورية " ينخر فى الأساسات الديموقراطية لجمهوريتنا الدستورية. وحتى فى زمن حرب فيتنام وإساءة استخدام السلطة المعروفة باسم ووترجيت لم يحظ وعينا أبدا بالقدرة الكافية على فرض الاتجاه المعاكس لنقل السلطة إلى البنتاجون ووكالات الاستخبارات العديدة وخاصة وكالة الاستخبارات المركزية.

وعندما انهار الاتحاد السوفييتى عام ١٩٩١ وجرف معه المبرر الأساسى لسياسات الاحتواء الأمريكية كان زعمائنا قد اعتادوا على الهيمنة على نصف الكرة الأرضية حتى أن فكرة التخلّى عنها أصبحت غير متصورة. وببساطة توصل كثير من الأمريكيين إلى نتيجة مؤداها أنهم " كسبوا " الحرب الباردة وبذلك فهم يستحقون ثمار النصر الإمبراطورية. وبدأ عدد من الأيديولوجيين يقولون إن الولايات المتحدة كانت فى حقيقة الأمر "إمبراطورية طيبة " وبناء على ذلك فإن عليها أن تتصرف فى عالم يحتوى على قوة مهيمنة واحدة فقط. ورددوا أن تسريح الجنود وتحويل مواردنا إلى الغايات السلمية سوف يقود إلى الإثم قديم الطراز وهو " الانعزالية ".

وفى السنوات العشر الأولى بعد الحرب الباردة قمنا بأعمال كثيرة لإدامة ونشر قواتنا الكونية بما فى ذلك الحروب والتدخلات " الإنسانية " فى بنما والخليج الفارسى والصومال وهاييتى والبوسنة وكولومبيا والصرب، بينما أبقينا على عمليات نشر قواتنا الخاصة بالحرب الباردة فى شرق آسيا والمحيط الهادئ دون تغيير. وظلت الولايات المتحدة تبدو فى عيون شعبنا على أنها إمبراطورية غير رسمية خاصة وأنها فى نهاية الأمر ليست لديها مستعمرات، وأن قواتها المسلحة الضخمة نشرت حول العالم للحفاظ

على "الاستقرار" أو لضمان " الأمن المتبادل " أو لدعم نظام عالمي ليبرالي يقوم على أساس انتخابات حرة و" أسواق مفتوحة " على النمط الأميركي.

ويحلو للأميركيين القول إن العالم قد تغير نتيجة هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ الإرهابية على المركز التجارى العالمى والبنтажون. والأكثر دقة أن يقال إن الهجمات أدت إلى تغيير خطير فى تفكير بعض زعمائنا الذين بدأوا يرون فى جمهوريتنا إمبراطورية حقيقية، أو روما جديدة، هى أضخم صرح فى التاريخ ولم تعد مقيدة بالقانون الدولى، ولا بهوم الحلفاء، ولا بأية قيود على استخدامها للقوة العسكرية. وما زال الشعب الأمريكى يعيش فى ظلام دامس بالنسبة إلى سبب تعرضه للهجوم أو لماذا أخذت وزارة خارجيته تحذره من السياحة فى دول أجنبية مدرجة فى لائحة أخذة فى التزايد: (" لماذا يكرهوننا ؟ كانت تلك هى الشكوى الشائعة التى تتردد فى برامج المناقشات، وكانت أكثر الإجابات شيوعا هى : الغيرة ") غير أن عددا متزايدا من الأميركيين بدأ يدرك فى النهاية ما كان قد عرفه وخبره معظم غير الأميركيين على مدى نصف قرن، ومفاده بالتحديد هو أن الولايات المتحدة شئ مغاير لما تظاهرت به، وأنها فى الحقيقة قوة ساحقة مصممة على السيطرة على العالم.

ولعل الأميركيين ما زالوا يفضلون استخدام عبارات ملطفة مثل "القوة العظمى الوحيدة"، ولكن بلادنا تعرضت منذ الحادى عشر من سبتمبر للتحويل من جمهورية إلى إمبراطورية قد تبرهن على أنها غير قابلة للتراجع. وفجأة أصبحت تهمة " انعدام الوطنية " توجه إلى كل أميركى يبدى شكوكه فى إعلان إدارة بوش " الحرب على الإرهاب "، ناهيك عن الحرب على العراق أو " محور الشر " بأكمله أو حتى على ما يقرب من الستين دولة التى أعلن الرئيس ووزير دفاعه أنها تؤوى خلايا للقاعدة، وبهذا أصبحت أهدافا مفتوحة لتدخل أميركى من جانب واحد. وقد سمحت وسائل الإعلام لنفسها أن تستغل لترويج عبارات معقمة مثل "الدمار غير المباشر " و" تغيير النظام " و" المقاتلون غير الشرعيين " و" الحرب الوقائية " وكأن هذه العبارات كانت كافية لإيضاح وتبرير أفعال البنтажون. وفى نفس الوقت كانت الحكومة تبذل جهودا مضنية لحرمان المحكمة الجنائية الدولية من مجرد خيار النظر فى أية اتهامات بارتكاب جرائم حرب توجه إلى مسؤولين أميركيين.

وهذا الكتاب دليل للإمبراطورية الأميركية فى الوقت الذى بدأت فيه نشر أجنحتها الإمبراطورية علنا وأصبح مداها عالميا، فبحلول شهر سبتمبر ٢٠٠١ اعترفت وزارة

الدفاع بوجود مالا يقل عن ٧٢٥ قاعدة عسكرية أميركية خارج الولايات المتحدة. والواقع أن هناك المزيد إذ توجد قواعد حازتها بعقود إيجار أو باتفاقيات غير رسمية أو بوسائل تموية متعددة. وقد أقيم المزيد من القواعد منذ أن تم الإعلان عن هذا الأمر. وبدا منظر هذه الإمبراطورية العسكرية غربيا وبحجم لا يصدق في عيون الأميركيين اليوم مثلما كانت التبت أو تمبوكتو بالنسبة للأوروبيين في القرن التاسع عشر. ومن بين الإضافات الأخيرة هناك قاعدة العديد الجوية الأميركية في صحراء قطر حيث يعيش عدة آلاف من العسكريين الأميركيين رجالا ونساء في خيام مكيفة الهواء. والمحطة البحرية - الأميركية في جزيرة مصيرة في خليج عمان حيث لا تسلية إلا لعبة تسمى "وادي بول" وهي لعبة هجين من الكرة الطائرة وكرة القدم. ويتضمن المنظر أيضا حاميات دائمة باهظة التكلفة أنشئت بين عام ١٩٩٩ وعام ٢٠٠١ في أماكن مختلفة في كوسوفو وكرجيزستان وأوزبكستان. وتتوفر في قواعد الإمبراطورية الحديثة أيضا وسائلها الترفيهية الخاصة ونقاط الانطلاق الشبيهة بتلك البلدات الهندية على التلال التي كان مديرو الحكم البريطاني للهند يستخدمونها للراحة والاستجمام في فصل الصيف القاتظ. والمواقع الحديثة المماثلة لمناطق دارجيلنج وكاليمبونج وسريناجار الهندية، هي مراكز التزلج وأجازات القوات المسلحة في جارميش بجبال الألب البافارية. وفندق ومنتجع في قلب مدينة طوكيو، و٢٣٤ ملعبا للجولف تديرها القوات المسلحة في جميع أنحاء العالم، فضلا عن الإحدى وسبعين طائرة نفثة من طراز ليرجت. وثلاثين من طراز جلف ستريم. وسبع عشرة من طراز سيسنا الفاخرة التي تستخدم في رحلات الأدميرالات والجنرالات إلى تلك المواقع. ويبلغ ثمن الطائرة الواحدة طراز جلف ستريم خمسين مليون دولار أمريكي. وتتسع الطائرة لاثني عشر راكبا بالإضافة إلى اثنين من الملاحين ومهندس طيران واحد وفني لتشغيل نظم الاتصالات ومرافق في الرحلة.

وكما هو الحال في الإمبراطوريات القديمة فإن لدى إمبراطوريتنا نواب قناصلها(*) وهم في هذه الحالة الضباط ذوو الرتب العالية في القوات المسلحة الذين يفرضون "اتفاقيات الحالة القانونية للقوات" خارج حدود الدولة على الحكومات المضيفة لضمان عدم تحميل الجنود الأميركيين مسؤولية الجرائم التي يرتكبونها ضد السكان المحليين. إن إمبراطوريتنا التي تمت عسكرتها هي حقيقة ملموسة مع أسلوب حياة

(*) كان لدى الإمبراطورية الرومانية منصب يسمى نائب القنصل وهو من المناصب الرفيعة في تلك الإمبراطورية. (المترجم)

واضح، ولكنها أيضا شبكة من المصالح الاقتصادية والسياسية المرتبطة بألف طريقة مختلفة بالمؤسسات والجامعات والجماعات الأميركية، غير أنها ظلت منفصلة عما يعتبر من الحياة اليومية التي تعود إلى ما عرف مؤخرا بأنها من أمور " الوطن "، ومع ذلك بدأ يختفى ذلك الإحساس بالانفصال لأن الطبيعة المتغيرة للإمبراطورية تعمل على تغيير مجتمعنا أيضا ومثال ذلك أن وزارة الدفاع تقوم ببطء، ولكن بإصرار بإزاحة وحجب وزارة الخارجية باعتبارها الوكالة الأساسية المنوط بها وضع وإدارة السياسة الخارجية. ولكننا نقوم الآن بوضع أعداد لا حصر لها من الضباط العسكريين العاملين تفوق عدد الدبلوماسيين المدنيين أو موظفي المعونة أو أخصائيي البيئة في الدول الأجنبية، وهذه مسألة ليست مجهولة في البلاد المكلفين بمهامهم فيها. وتبعث حامياتنا العسكرية رسالة يومية مؤداها أن الولايات المتحدة تفضل التعامل مع الدول الأخرى من خلال التهديد باستخدام القوة بدلا من المفاوضات أو التجارة أو التفاعل الثقافي. ومن خلال العلاقات بين العسكريين والعسكريين لا بين المدنيين والمدنيين. وقد تم إيضاح هذه المسألة في خطبة ألقاها الرئيس جورج دبليو بوش في الأكاديمية العسكرية في وست بوينت في الأول من يونيو ٢٠٠٢، عندما قال إن على الولايات المتحدة أن تستعد لشن " حرب الإرهاب " ضد نحو ستين دولة. وقال: " يجب أن ننقل تلك المعركة إلى العدو لتحطيم خططه ومواجهة أسوأ المخاطر قبل ظهورها ". وأضاف قوله: " يجب على الأميركيين الاستعداد لعمل استباقي إذا دعت الضرورة للدفاع عن حريتنا وعن حياتنا ... والطريق الوحيد إلى السلامة في العالم الذي دخلنا فيه هو طريق المعركة. وهذه الأمة سوف تخوض المعركة ".

وكما ذكر آرثر شليسنجر جونيور مستشار الرئيس جون كنيدي في الذكرى الأولى لهجمات ٩ / ١١ فإن " أحد الأحداث المثيرة للدهشة في الشهور الأخيرة لتقديم الحرب الوقائية على أنها أداة مشروعة وأخلاقية للسياسة الخارجية الأميركية ... وأثناء الحرب الباردة كان دعاة الحرب الوقائية منبوذين وموصومين بأنهم جماعة من المخبولين ... لقد كسبت سياسة الاحتواء إضافة إلى الردع الحرب الباردة. وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي حمد كل شخص الرب لأن المهووسين بالحرب الوقائية لم يصلوا إلى السلطة أبدا في أية دولة كبرى . أما اليوم، ويا للأسف، يبدو أنهم تقلدوا زمام السلطة في الولايات المتحدة "(٢). وكان شليسنجر يشير بوجه خاص إلى ديك تشيني وزير الدفاع في إدارة بوش الأولى ، والذي أصبح بعد ذلك بالطبع نائبا للرئيس. ويشير كذلك

إلى دونالد رامسفيلد وزير الدفاع فى إدارة بوش الثانية . والمرة الأولى التى تمكن فيها مدنيون وعسكريون من دعاة الحرب من الهيمنة على الحياة السياسية . هى عندما أخذ روبرت ماكنمارا وزير الدفاع يملى السياسة إزاء فييتنام.

ومثل غيرى من الأميركيين الذين لم يرتبطوا كثيرا بالقوات المسلحة، كنت أولى اهتماما ضئيلا بإمبراطورية قواعدنا العسكرية حتى شهر فبراير ١٩٩٦ عندما قمت بأول زيارة لى لمستعمرة الأمر الواقع العسكرية الأميركية فى أوكليناوا تلك الجزيرة اليابانية الصغيرة التى ظللنا نحتلها باستمرار منذ عام ١٩٤٥ . وكانت آخر صلة لى بالقوات المسلحة قد انتهت قبل أربعين عاما فى صيف ١٩٥٥ عندما تركت خدمتى العاملة كضابط فى البحرية غرب المحيط الهادئ. وفى عام ١٩٩٦ وفى أعقاب قيام اثنين من جنود المارينز وبحار أميركى باغتصاب فتاة من أوكليناوا فى الثانية عشرة من عمرها، دعانى ماساهايد أوتا محافظ الجزيرة لكى أتحدث عن مشاكل قواعدنا. وقد قمت بزيارة قرية كين التى ابتلع معظم مساحتها معسكر هانسن حيث وقعت جريمة الاختطاف والاغتصاب. وهناك أجريت مقابلات مع المسؤولين المحليين وخرجت من الزيارة بشعور عميق من الانزعاج أولا بسبب كرم ضيافة أهل أوكليناوا. وثانيا بسبب حقيقة مؤداها أنه ليست هناك أية استراتيجية أميركية جدية تستطيع توضيح مبررات نشر ثمان وثلاثين قاعدة منفصلة على نسبة من أفخر الأراضى تبلغ ٢٠٪ من مساحة الجزيرة. وكان من الواضح من العديد من الشواطئ وملاعب الجولف والتسهيلات الترفيهية الأخرى. أنها محجوزة لاستعمال قواتنا المسلحة. وهناك صورة أخرى مستنسخة منها لدى القوات المنفصلة مثل القوة الجوية ، والقوة البحرية ، ومطارات سلاح المارينز التى فرختها القواعد العسكرية طوعا وكرها مع بداية الحرب الباردة دون أى اعتبار للإنصاف فى استخدام الأراضى أو لحياة ١,٣ مليون نسمة هم أهل أوكليناوا. وقد صدمنى موقف القوات المسلحة فى الجزيرة بمثل ما صدمنى موقف القوات السوفييتية فى ألمانيا الشرقية بعد هدم حائط برلين. وفى الحالتين فضل الجنود البقاء مدة أطول حيث هم، لأن مباهاج الحياة كمحاربين فى ثكنات إمبراطورية تفوق كثيرا ما فى حياتهم إذا عادوا إلى "وطنهم". وكان الجنود وعائلاتهم سعداء بنواديهم ومساكنهم وصلاتهم الرياضية ومسابحهم ومراكز تسوقهم المعروفة فى لغو العسكريين باسم "مقايضات القاعدة" ولا ريب فى أنهم يفضلون "أوكليناوا" على احتباسهم فى بلدات صغيرة فى الولايات المتحدة أو بقربها مثل أوشانساييد بكاليفورنيا

القريبة من قاعدة سلاح المارينز فى كامب بندلتون. وإذا لم توجد أية مزايا أخرى لأصبح كافيا أن عقوبة جريمة الاغتصاب فى كاليفورنيا أشد إلى حد كبير من العقوبة الموقعة على الجنود الأميركيين عن نفس الجناية فى أوكيناوا. ووفقا لبنود اتفاقية الحالة القانونية للقوات التى فرضتها الولايات المتحدة على اليابان عام ١٩٥٢. فإن اليابانيين مطالبون حتى بتقديم وجبات خاصة للقليل من الجنود الأميركيين الذين يسلمون للسلطات اليابانية ويسجنون بالفعل. وكانت الوجبات المقدمة للسجناء اليابانيين تحتوى فى المتوسط على ٢٨٠٠ سعر حرارى. ولكنها كانت تصل إلى أربعة آلاف سعر حرارى فى الوجبات التى تقدم إلى الاثنى عشر جنديا أمريكيا الذين كانوا قد سجنوا فى نهاية عام ٢٠٠١ (٣).

وبعد زيارة أوكيناوا بدأت فى البحث والكتابة عن تاريخ قواتنا المسلحة هناك بدءا من المعركة الدموية النهائية فى الحرب العالمية الثانية ضد الجيش اليابانى. وحتى محاولات كبار ضباط الولايات المتحدة ومسؤولى وزارة الدفاع الأمريكية التهوين من شأن جريمة الاغتصاب التى وقعت فى ٤ سبتمبر ١٩٩٥ (٤). وكانت رؤيتى هى رؤية باحث أكاديمى قضى حياته أستاذًا جامعيًا يدرس سياسات واقتصاديات اليابان والصين. ولكن ليس كأحد محللى السيطرة العسكرية الكونية الأمريكية. ولما كان الأمر صحيحا صحة مطلقة فى نظر كثير من اليابانيين غير المقيمين فى أوكيناوا، فقد أصبحت أميل إلى رؤية الموقف فى تلك الجزيرة - فى أسوأ الأحوال - على أنه موقف فريد وقضية رضا ذاتى وإهمال من جانب البنتاجون. وبدا أن الحل بديهى وهو إغلاق بعض القواعد الزائدة عن الحاجة وإعادة جانب كبير من القوات البرية إلى الأراضى الأمريكية وخفض الأعباء التى تثقل كاهل أهل أوكيناوا. وبهذا تنعكس بعض الكراهية الموجهة للولايات المتحدة والواضحة فى كل مكان على الجزيرة. وخطر فى بالى لو أن وزارة الدفاع فرضت أولويات حقيقية لاستطاعت أن تحتفظ حتى ببعض منشآتها هناك مثل قاعدة كادينا الجوية التى قد تثبت فائدتها فى عالم ما بعد الحرب الباردة. وبدا لى أنه إذا لم يتحقق ذلك فإن سكان أوكيناوا قد يثورون إن عاجلا أو آجلا ويطردوننا خارج الجزيرة مثلما فعل الشعب الفلبينى عام ١٩٩٢. وكما هدد الكوريون الجنوبيون بذلك عام ٢٠٠٣. وكما فعل أهل برلين الشرقية بالضبط ضد الاتحاد السوفيتى عام ١٩٨٩ .

ولم أتوصل - إلا بعد لآى - إلى إدراك أن مسألة أوكيناوا كانت نسخة مطابقة لا وضعًا فريدًا، فالأحوال فى الجزيرة هى صورة طبق الأصل لمثلها فى كل مكان توجد فيه

حاميات عسكرية أميركية. ومثال ذلك نزع ملكية أئمن أراضي الجزيرة وتخصيصها للقواعد، ومنح الحصانة للجنود الأميركيين الذين يرتكبون جرائم ضد السكان المحليين المدنيين، وزحام البارات وبيوت الدعارة وانتشارها حول بوابات القواعد الرئيسية. والحوادث التي لا حصر لها، والضجيج، والعنف الجنسي. وحوادث التصادم التي يسببها السائقون المغمورون. وتناول المخدرات. وتلوث البيئة. وباستثناء عدد القواعد المقطعة من مساحة الجزيرة فإن أوكيناوا ليست أمرا غير عادي إذا ما قورنت بالعديد من القواعد المقامة على الجزء الرئيسي من أراضي اليابان، وبأكثر من مائة منشأة في كوريا الجنوبية، وجبهات الانتشار الضخمة في ألمانيا وبريطانيا وإيطاليا والبلقان والخليج الفارسي وأميركا اللاتينية وأماكن أخرى. ولما كان نواب قناصل أميركا العسكريون يمتنون الإعلان عن وجودهم أصبح من النادر أن تقوم الصحافة الأميركية بأية زيارات لإمبراطورية القواعد الأميركية، أو بكتابة تقارير إخبارية عنها. وقد قدمت لى لمحة عن جوانب الحياة الأميركية المعاصرة التي لم يرها معظم الأميركيين على الإطلاق.

وعلى ضوء تلك التجارب في أواخر تسعينيات القرن العشرين كرست نفسى لتأليف كتاب عن السياسة الخارجية الأميركية عنوانه " الانفجار المرتد " مستخدما مصطلح وكالة المخابرات المركزية الأميركية الخاص بالنتائج غير المتوقعة لعمليات غير معترف بها في بلاد شعوب أخرى. وكان قصدي أن أنبه رفاقي الأميركيين إلى سلوك سياستنا الخارجية عبر نصف القرن السابق مع التركيز بوجه خاص على زوال الاتحاد السوفييتي والموقف السياسى المتطور فى شرق آسيا. وقد ظهر الكتاب فى بدايات ربيع عام ٢٠٠٠ وفيه ذكرت أن جوانب كثيرة مما فعلته الحكومة الأميركية خارج البلاد شجعت فى الواقع ضحايا هذه الأفعال من الدول والشعوب على شن هجمات انتقامية. وقد بدأ الانفجار المرتد فى النصف الثانى من القرن العشرين. ويعتبر كتاب " الانفجار المرتد " إلى حد ما وسيلة للقول بأن الأمة تحصد ما تزرعه. ورغم أن بعض الأفراد الأميركيين يعرفون ما يزرعون فمن النادر أن يحصلوا على نفس المعرفة على المستوى الوطنى مادام الكثير مما يفعله مديرو إمبراطوريتنا قد أحيط بالسرية.

ومع أننى أصبحت مهتما بشواهدنا فى الخارج عندما قمت بزيارة أوكيناوا، إلا أن بصيرتى نفذت إلى منظمات الإمبريالية الأميركية وعملياتها السرية. ومن عام ١٩٦٧

حتى عام ١٩٧٣ عملت مستشارا لمكتب التقديرات الوطنية التابع لوكالة المخابرات المركزية الأميركية^(٥). وقد طُلب منى الانضمام إلى جماعة من نحو عشرين إخصائيا فى العلاقات الدولية من خارج الوكالة لقراءة مسودات تقديرات الاستخبارات الوطنية وتقديم بحوث انتقادية لها وغير بيروقراطية. والتقديرات الاستخبارية هى تحليلات رسمية واستنتاجات مجمعة من معلومات استخبارية خام نظرا لأن مديرى السى آى إيه كلفوا بالتنسيق مع وكالات الاستخبارات الأخرى ومن ثم تقديم المعلومات إلى رئيس الجمهورية ومستشاريه. وهذه التقديرات، التى لا تشير إلى مصادر المعلومات تحت البحث، تكتب بأسلوب بيروقراطى غير مسيء لأحد ويقصد به تبسيط الاختلافات فى التفسير، على سبيل المثال، بين مكتب استخبارات وزارة الخارجية ووكالة استخبارات الدفاع. وقد دعانى ريتشارد هيلمز لأكون مستشارا. وهو المدير الذى أدين بعد سنوات قليلة بالكذب على الكونجرس بعد حلف اليمين عندما شهد بأن الوكالة لم يكن لها دخل بالإطاحة بالرئيس سلفادور ألييندى رئيس تشيلى. وهكذا بدأ تقديمى إلى العالم السرى.

وفى عام ١٩٦٧ اشتهرت بأننى إخصائى أكاديمى فى شؤون الصين، وكانت الوكالة مهتمة بأرائى فى عدة مسائل كبرى آنذاك مثل الحرب فى فيتنام، والانشقاق الصينى - السوفييتى، وحملة التطهير الماوية للحزب الشيوعى التى عرفت بالثورة الثقافية. فضلا عن التمرد والتمرد المضاد وما أسماه الصينيون حرب الشعب وهو الموضوع الذى استولى على اهتمام واشنطن. وكانت اجتماعات المستشارين الخارجيين تعقد مرتين فى السنة فى بيت ألان دالاس المدير السابق لسى آى إيه والذى يقع ضمن ممتلكات كامب ببرى الذى كان آنذاك قاعدة تدريب " سرية " فى فيرجينيا تابعة لوكالة الاستخبارات المركزية. ورغم فوزى بتحريرات أمنية لصالحى وتقرير أمنى بالغ الجودة، سرعان ما اكتشفت أننى لست فى حاجة إلى القلق من إفشاء الأسرار الوطنية عن غير قصد. وكما قلت لزوجتى ذات مرة: إن أفضل سبب للحفاظ على سرية التقديرات الاستخبارية الوطنية هو تفاهتها المطلقة، ولعلها صُنفت بطابع السرية البالغة لأنه مما يدعو للخلج أن يعرف أن مثل هذه المعلومات الصحفية التقليدية تم تمريرها إلى مركز الفكر الاستراتيجى فى المكتب البيضاوى. وكانت الاجتماعات مرحلة ومثيرة للنشاط. ولكن ندر أن تنشأ عن الصحافة العادية لأصحاب النزعة العسكرية فى زمن حرب فيتنام (من ناحية أخرى كان محللو السى آى إيه العاملون بفيتنام جيدا يمتدحون فى السر نشر

دانييل إلسبرج المسماة " أوراق فييتنام " لأنهم كانوا مقتنعين باستحالة تحقيق انتصار فى تلك الحرب(*)).

وكانت هناك ميزة واحدة ترتبط بعملى مستشارا فى مكتب التقديرات الوطنية. وهى أننى اكتنزت الكثير من المعرفة من مكتبة دالاس الزاخرة بأحدث تقارير السى آى إيه فى موضوعات ليست على جدول الأعمال. ونسخ سابقة من تقديرات استخبارية قديمة. وسجلات يومية سرية مخصصة لأساليب التجسس. وكانت المكتبة مفتوحة طوال الليل وسمح بالجلوس فيها وتصفح مجموعة الوثائق لكل من يستطيع البقاء يقظا طوال الليل ممن لا يرغبون فى قضاء الأمسيات فى لعب البوكر أو يروون لبعضهم البعض حكايا الجرأة الخارقة فى الحرب الباردة. وأذكر كيف كنت أقضى معظم الليلة الواحدة فى قراءة تفاصيل مذهشة عن كيفية نجاح الروس فى تهريب جاسوسهم جورج بليك من سجن وورمود سكريز فى لندن.

وفى سياق هذا النشاط الليلى الذى أنار بصيرتى بدأت أتحقق ببطء من أن الأمر يصبح المأمور فى وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية. وأن شغل أميركا الشاغل هو العمليات السرية لا جمع المعلومات الاستخبارية وتحليلها. وأثناء الحرب العالمية الثانية أنشأ ويليام جى. دونوفان مكتب الخدمات الاستراتيجية السابق على السى آى إيه. ولم أعرف إلا مؤخرا أن التاريخ الداخلى لدى السى آى إيه يقول إن " دونوفان محلل معلومات استخبارية باعتبار ذلك غطاء ملائما للعمليات التخريبية خارج البلاد. وقد أثبتت هذه الحيلة فائدتها عبر السنين^(٦). وبقدر ما كانت مساهماتى قيمة فى عملى الاستشارى. زاد عليها أن هذه التجربة شفتنى من أى ميل إلى تصور أن الحكومة تحتفظ بالأسرار باعتبارها مسائل تخص الأمن القومى، فالوكالات تدمغ الأمور بطابع السرية لحماية نفسها من التعرض لتدقيق الكونجرس أو المنافسين السياسيين أو البيروقراطيين داخل الحكومة. وببساطة تحكم القيادات الحذرة الاحتفاظ بهذه الأسرار. ويكفى لإثارتنا أن نعرف أنه فى سبتمبر ٢٠٠٢. وبينما كانت إدارة بوش تثير زعر العالم يوميا ببيانات عن أسلحة صدام حسين السرية والحاجة إلى غزو وقاى العراق. كشفت وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية عن عدم وجود تقدير استخبارى

(*) دانييل إلسبرج محلل عسكري و موظف سابق فى البنتاجون و قد سرب وثائق سرية تحمل معلومات تكشف أكاذيب الحكومة الأميركية فى حرب فييتنام. و قد وصفه بعض الأميركيين بأنه أخطر رجل فى أميركا. (المترجم)

وطنى عن العراق، وأن الوكالة لم تفكر فى تجهيز تقدير من هذا النوع طوال أكثر من سنتين^(٧).

وكجزء لا يتجزأ من تنامى النزعة العسكرية فى الولايات المتحدة، تحولت السى آى ايه إلى جيش خاص للرئيس الأمريكى لكى يستخدمه فى المشروعات السرية التى يرغب هو شخصيا فى تنفيذها (مثال ذلك ما حدث فى نيكارا جوا وأفغانستان فى ثمانينيات القرن الماضى) ولذا يدرك الإنسان سبب تعطش الرئيس السابق جون إف كنيدي لمشاهدة أفلام المؤلف إيان فليمنج عن جيمس بوند، ففى عام ١٩٦١ أدرج كنيدي رواية " من روسيا مع حبى " ضمن قائمة الكتب المفضلة لديه، ولأشك أنه كان يحسد " دكتور نو " ورئيس سميرش(*) وكان لدى كل منهما قوات خاصة شبه عسكرية تحت تصرفه ليقوما بأى عمل يريدانه. وقد وجد كنيدي ضالته الأولى فى وكالة الاستخبارات المركزية إلى أن جلبت له المهانة فى عملية خليج الخنازير الفاشلة فى كوبا ثم أصحاب البيريهات الخضر التابعين للجيش. واليوم أصبحت الوكالة مجرد واحدة من وحدات الكوماندوز السرية العديدة التى تحتفظ بها حكومتنا. وفى حرب أفغانستان عام ٢٠٠١ تعاون أعضاء السى آى ايه تعاوننا وثيقا مع قوات العمليات الخاصة التابعة للجيش: (أصحاب البيريهات الخضر، وكوماندوز دلتافورس... إلخ) إلى درجة أن أصبح من المستحيل التفرقة بينهم. وقد أقرت الولايات المتحدة متفاخرة بأن أول ضحايا غزو أفغانستان كان واحدا من العاملين فى السى آى ايه. وخلال شهر أغسطس ٢٠٠٢ كشف دونالد رامسفيلد وزير الدفاع عن وجود خطط لتوسع قوات العمليات الخاصة ضمن القوات البرية ودمجها مع قسم الأنشطة الخاصة التابع لوكالة الاستخبارات المركزية (الذى يضم عناصر العمليات السرية). وتعتبر قصة الجيوش الخاصة المتعددة لحكومتنا جزءا لا يتجزأ من تنامى النزعة العسكرية الأمريكية وطابع السرية الذى يرافقها. رغم أنه يبدو من غير المحتمل أن تستطيع تلك الجيوش التغلب على المنافسات البيروقراطية والمتداخلة فيما بينها^(٨).

ويبدأ الكتاب الذى بين أيدينا من حيث انتهى الكتاب السابق : " الانفجار المرتد " وفيه اعتبرت أن الحكومة الأمريكية مازالت تتصرف تقريبا بنفس أسلوبها أثناء الحرب الباردة. وأكدت على احتمال نشوب صراع فى شرق آسيا، ولكننى لم أركز على مدى

(*) دكتور نو فيلم سينمائى. أما سميرش فهى الحروف الأولى لاسم الوكالة الروسية للتجسس المضاد كما صورتها أفلام جيمس بوند، الشخصية التى ابتكرها الكاتب الصحنى إيان فليمنج. (الترجم)

اتساع النزعة العسكرية فى أميركا، ولا على إمبراطورية القواعد العسكرية الضخمة التى انبثقت دون أن تكتشف تقريبا. والتى أصبحت اليوم حقيقة جيوسياسية من حقائق الحياة. وفى أعقاب ١١ سبتمبر ٢٠٠١ لم يعد ضروريا إطلاق التحذيرات وبدلا من ذلك كان التشخيص. أو حتى التشريح أمرا أكثر ملاءمة. وفى رأى أن من المحتمل تعذر إلغاء تنامي النزعة العسكرية والسرية الرسمية والاعتقاد بأن الولايات المتحدة لم تعد ملزمة بالفقرة الشهيرة فى إعلان الاستقلال التى تنص على التمسك بـ " الاحترام اللائق لآراء البشر ". وقد يتطلب الأمر اندلاع ثورة تهدف إلى إعادة وزارة الدفاع تحت السيطرة الديمقراطية أو إلغاء وكالة المخابرات المركزية أو حتى التفكير فى فرض تنفيذ المادة ١. القسم ٩. البند ٧ من الدستور التى تنص على عدم السماح بسحب أية أموال من الخزانة العامة إلا وفقا للمخصصات المحددة بحكم القانون، ووجوب إصدار بيان حسابى بانتظام للواردات والنفقات الخاصة بجميع الأموال العامة ونشره من وقت لآخر.

وهذه المادة هى التى تدعم الكونجرس وتجعل من الولايات المتحدة دولة ديمقراطية. وتضمن إطلاع نواب الشعب على ما يقوم به جهاز الدولة بالفعل. وتخويلهم الكشف الكامل عن تلك الأنشطة. غير أن تلك المادة لم تطبق على وزارة الدفاع أو وكالة الاستخبارات المركزية منذ إنشائهما، وبدلا من ذلك كانت هناك سياسة دائمة مفادها: " لا تسأل ... لا تخبر ". وظل البيت الأبيض يحتفظ دائما بسرية ميزانيات وكالات الاستخبارات. ويعود تاريخ عمليات الخداع فى ميزانية الدفاع إلى أيام مشروع مانهاتن أثناء الحرب العالمية الثانية، والقرارات السرية بصناعة القنابل النووية واستخدامها ضد اليابانيين. وفى عام ١٩٩٧ اقترح السيناتور الديمقراطي روبرت توريسيلي آنذاك إجراء تعديل على تفويضات مشروع قانون ١٩٩٨ لوزارة الدفاع وطالب الكونجرس بالكشف عن مصروفات الاستخبارات. ورغم هزيمة اقتراح السيناتور فإنه استطاع أن يلفت الأنظار إلى أن وكالات الاستخبارات تنفق أكثر من مجموع الناتج الوطنى الإجمالى لكل من كوريا الشمالية وليبيا وإيران والعراق مجتمعة. وهذه الوكالات تفعل ذلك باسم الشعب الأمريكى، ولكن دون مشورته أو إشرافه.

ويتناول موضوع هذا الكتاب النزعة العسكرية الأميركية، ووجودها المادى الملموس فى العالم فى الوقت الحاضر. ونمو " القوات الخاصة " باعتبارها جيشا خاصا لرئيس الجمهورية، والسرية التى تسمح حتى للمزيد من مؤسسات سرية تمت عسكرتها بأن تعيش وتزدهر. ولا يعتبر ذلك تقريرا متفانلا. وكما توصل ماكس ويبر عالم الاجتماع

العظيم في الدولة الحديثة، فإنه يقول " كل بيروقراطية تسعى إلى زيادة تفوق أولئك المحترفين العالمين ببواطن الأمور عن طريق الحفاظ على سرية معارفهم ونواياهم. وتميل الإدارة البيروقراطية دائما إلى أن تكون إدارة " دورات سرية " بقدر ما تستطيع. وتخفي تصرفاتها وما لديها من معرفة عن المنتقدين ... إن مفهوم " السر الرسمي " هو بالذات اختراع البيروقراطية، وليس هناك أي موقف آخر يلقي من البيروقراطية مثل ذلك الدفاع المتعصب. وفي مواجهة البرلمان وبدافع من غريزة سلطوية راسخة، يحارب النظام البيروقراطي كل محاولة يبذلها البرلمان للحصول على معرفة ما يجري بوسائله الخاصة كالخبراء أو جماعات المصالح. وطبيعي أن ترحب البيروقراطية ببرلمان هزيل المعلومات وضعيف القوة بالتالي. وبقدر ما يعتوره من جهل فهو يوافق بشكل ما على مصالح النظام البيروقراطي فهو يوافق بشكل ما على مصالح النظام البيروقراطي" (٩). ولو وجد ويبر اليوم لوصف الحكومة الأميركية الحاضرة بنفس الأوصاف. وفي الحرب ضد أفغانستان نجد أن المعلومات الوحيدة المتاحة للجمهور وممثليه تأتي من وزارة الدفاع. لقد أصبح العسكريون خبراء في إدارة الأخبار. وبعد هجمات ١١ سبتمبر بدأت الحكومة. على كافة مستوياتها. تضع القيود على المعلومات المتاحة للجمهور بما في ذلك التهم الموجهة للأشخاص الذين كانت تجيء بهم بعد اعتقالهم في أفغانستان وأماكن أخرى وتزج بهم في زنازين منفردة في سجن البنتاجون في كوبا. وأخذت صحفنا تبدو وكأنها نشرات رسمية. واستسلمت أخبار التليفزيون ببساطة واتبعت أوامر الشركات المالكة. واتفق الحزبان السياسيان فيما بينهما في إبداء الخنوع للبيت الأبيض. وأخشى أن نفقد بلدنا حيث أصبح جلياً أن النزعة العسكرية. وعجرفة السلطة. والتعبيرات اللطيفة المستخدمة لتبرير الإمبريالية. تتعارض حتما مع البنية الديمقراطية الأميركية للحكومة، وتشوه ثقافتها وقيمها الأساسية. وإذا كنت أبالغ في الحديث عن الخطر فإنني متأكد من الصفح عنى لأن حكومات المستقبل سوف يسعدها كثيرا أن أكون مخطئا. ولكن الخطر الذي أتوقعه هو أن الولايات المتحدة وُضِعَتْ على مسار لا يختلف عن مسار الاتحاد السوفييتي السابق في ثمانينيات القرن العشرين. فقد انهار الاتحاد السوفييتي لثلاثة أسباب رئيسية هي: التناقضات الاقتصادية الداخلية بدفع من الجمود الأيديولوجي. والتمدد الإمبراطوري. والعجز عن الإصلاح. ولما كانت الولايات المتحدة أكثر ثراء فقد تستغرق وقتا أطول حتى تفعل الأمراض المماثلة فعلها. ولكن أوجه التشابه واضحة ولم يُسَجَلْ في أي مكان أن الولايات المتحدة. المتكررة كإمبراطورية تحكم العالم. سوف تستمر إلى الأبد.

الفصل الأول

الإمبراطوريات القديمة والحديثة

- ماذا كان اسم ذلك النهر الذى عبره يوليوس قيصر؟ ألم يكن يسمى روبيكون؟
وبالأمس ربما عبر مستر بوش نفس النهر.

روبرت فيسك

مراسل صحيفة إندبندنت اللندنية فى الشرق الأوسط

من تقرير له من الأمم المتحدة - ١٣ سبتمبر ٢٠٠٢

يحلو للقادة الأميركيين الآن أن يقارنوا أنفسهم بأباطرة الرومان رغم أنهم لا يعلمون الكثير عن التاريخ الروماني. والدرس الأساسى للولايات المتحدة الذي يجب أن تعرفه هو كيف تحولت الجمهورية الرومانية إلى إمبراطورية فى عملية تدمير نظامها الانتخابى لاختيار قنصليهما (المسؤولان التنفيذيان الرئيسيان) وتحويل مجلس الشيوخ (السينيت) إلى مجلس عقيم. والقضاء إلى الأبد على المجالس الشعبية الثانوية والجمعيات التشريعية التى كانت تشكل جوهر الحياة الجمهورية. الأمر الذى أدى إلى قيام ديكتاتورية عسكرية دائمة.

وعلى قدر كبير من التشابه مع الولايات المتحدة اليوم، حازت الجمهورية الرومانية ببطء إمبراطورية بالغزو العسكرى. وبحلول القرن الأول قبل الميلاد هيمنت على بلاد الغال ومعظم أيبيريا وساحل شمال إفريقيا واليونان والبلقان وأجزاء من آسيا الصغرى. ويرى الكاتب الكندى مانويل مايلز أنه " لا يوجد قانون تاريخى يمنع جمهورية ما من امتلاك إمبراطورية. وهناك اتجاه نحو عمليات استيلاء أوتوقراطية على جمهوريات إمبراطورية وخاصة بعد وصولها إلى مرحلة معينة من النمو. وهذه العملية تأخذ مجراها فى الولايات المتحدة الأمريكية حتى فى الوقت الحاضر إذ يقرر رئيس الجمهورية - مثل أوائل الأباطرة الرومانيين - متى وأين يشن الحرب ويبصم مجلس الشيوخ بالموافقة وانتزاع الاعتمادات المالية للإنفاق على مغامراته الإمبراطورية مثلما كان يفعل النموذج الأسمى فى زمن قيصر وأوكتافيان^(١). وقد أدى مجلس الشيوخ الروماني - مثل الكونجرس تماما - دوره بكفاءة على مدى قرنين من الزمان. ولكن بحلول القرن الأول قبل الميلاد فاقت متطلبات الإمبراطورية وجيوشها التى تصونها قدرات المجلس والقناصل. وفى العام التاسع والأربعين قبل الميلاد خرق يوليوس قيصر القانون الروماني بدفع جيشه إلى عبور نهير صغير اسمه روبىكون فى شمال إيطاليا

وإغراق البلاد فى حرب أهلية بين أباطرة وجنرالات جيوش روما الضخمة. وبعد معركة أكتيوم عام ٣١ قبل الميلاد برز أوكتافيان كأقوى الجنرالات وتولى سلطات ديكتاتورية لإنهاء الحروب الأهلية العسكرية. وفى عام ٢٧ قبل الميلاد تخلى مجلس الشيوخ عن معظم سلطاته له ومنحه لقب أوغسطس. وكان أول إمبراطور امتد حكمه من عام ٢٧ قبل الميلاد حتى عام ١٤ ميلادية. وخلال عقود قليلة من الزمن تضخم مجلس الشيوخ حتى زاد أعضاؤه عن الألف عضو بينما تقلص المجلس إلى ما يزيد قليلا على أحد نوادى الأرستقراطيين العجائز وعائلات العسكريين. وقد حكمت روما جميع أنحاء العالم المعروف آنذاك عدا الصين، ولكن بمرور الوقت استأصلت الديكتاتورية ديموقراطية روما. وفى النهاية غرق الرومان فى عالم الأعداء الذى أقاموه. وأخيرا تظاهرت الجيوش الرومانية بأنها تتحدث باسم " مجلس الشيوخ والشعب الرومانى "، وأخذت تقوم باستعراضات عسكرية حاملة رايات زُيّنتَ بشعارات تحتوى على الحروف الأولى اللاتينية لعبارة تقول: " شيوخ الشعب الرومانيون " وأصبحت الإمبراطورية تحمل عوامل فنانها فى ذاتها.

وبينما كانت الإمبراطورية الرومانية تتفسخ. لم يذعن جميع مواطنيها بهدوء لفقد حقوقهم الديموقراطية. وفى إحدى مسرحيات شكسبير الشهيرة التى تتناول السياسة فى تلك الأيام يسأل كاسيوس أحد المواطنين، الشخصية المسرحية الأخرى: بروتس قائلا: " بأى نوع من اللحوم يتغذى قيصرنا هذا حتى أنه أصبح بهذه الضخامة ؟ ". وبشكل ما يحاول هذا الكتاب الإجابة على هذا السؤال فى سياق السلطة الإمبراطورية الأميركية. ولنأخذ كبداية مجرد فرضية واحدة زادت بها سمعة أصحاب النزعة الإمبراطورية هذه الأيام الذين تسممت نفوسهم بالزهو الكاذب وتمجيد ذواتهم بادعاءات كاذبة. وأنا أشير هنا إلى نتيجة خطر التضليل التى تفيد بأن الولايات المتحدة هى التى تسببت فى انهيار الاتحاد السوفييتى ومن ثم فقد "كسبت" الحرب الباردة. إن العقلية التى فرضت هذه النتيجة توفر مفتاحا لمعرفة كيف أن الولايات المتحدة وضعت على مسار يوجهها نحو النزعة العسكرية والإمبراطورية مثلها مثل روما القديمة.

وقد شاعت خرافة بين مدعى الانتصار والمعجبين المخلصين برونالد ريجان والمتحمسين لحرب النجوم القديمة. وتقول هذه الخرافة إن رعاية الرئيس ريجان لما

أسماءها "مبادرة الدفاع الاستراتيجي" هي التي فجرت المنافسة مع الاتحاد السوفييتي على الإنفاق الدفاعي مما أدى في النهاية إلى سقوط الأخير، مع أن المبادرة لم تكتمل وهي غير قابلة للانتشار على الإطلاق، كما تعتبر خطة دفاع ضد الصواريخ الباليستية العابرة للقارات وتحتاج إلى قواعد فضائية على نطاق واسع. ويزعم مدعو الانتصار أن مقترحات ريجان بشأن حرب النجوم أجبرت الاتحاد السوفييتي على خوض سباق تسلح قصم ظهره اقتصاديا . بالرغم من أن تلك المقترحات لم تر النور. وتمضى هذه المجادلة إلى القول بأن خطة ريجان حول " إمبراطورية الشر" ودعمه لحرب العصابات ضد السوفييت في أفغانستان، ودعمه غير القانوني لمتردى الكونترا ضد الحكومة المنتخبة في نيكاراغوا، كل ذلك خلق مناخا أصبحت فيه مبادرة الدفاع الاستراتيجي حاسمة. ورغم سجل لا ينقطع من التقديرات الخاطئة والنصائح المضللة بشأن قوة ومشاكل الاتحاد السوفييتي خلال عقده النهائي، يخلص روبرت جيتس مدير وكالة الاستخبارات المركزية في عهد إدارة جورج هـ. دبليو بوش: إلى القول في مذكراته: " في رأيي أن البعث الجديد واسع النطاق في الغرب، والذي ترمز إليه مبادرة الدفاع الاستراتيجي، هو الذي أفتق حتى بعض الأعضاء المحافظين في القيادة السوفييتية بالحاجة الماسة إلى إجراء تغييرات داخلية في الاتحاد السوفييتي. وبمجرد اتخاذ هذا القرار أصبح المسرح مهيا للأحداث الدراماتيكية داخل الاتحاد السوفييتي في السنوات العديدة التالية" (٢).

و بالإضافة إلى ذلك يرى أناتولي دوبرينين، السفير السوفييتي لدى واشنطن لسنوات طويلة، أن الرئيس الروسي ميخائيل جورباتشوف توصل مبكرا، في فبراير ١٩٨٠، إلى استنتاج مؤداه أن " الولايات المتحدة تعتمد على استعدادنا لبناء نفس النوع من النظام المكلف (مبادرة الدفاع الاستراتيجي)، ويأمل الأميركيون أن يكسبوا هذا السباق بمرور الوقت مستخدمين تفوقهم التكنولوجي، ولكن علماءنا أخبروني بأن علينا إنفاق ١٠٪ فقط مما قد ينفقه الأميركيون على خططهم إذا أردنا تدمير أو تحييد نظام المبادرة الأميركية" (٣). ولم يكن من بين المستشارين العلميين لجورباتشوف من هو أكثر أهمية من أندريه زخاروف الذي ساهم في إنجاز القنبلة الهيدروجينية وأصبح بعد ذلك الناقد الشجاع لسجل حقوق الإنسان في بلاده، والفائز بجائزة نوبل للسلام عام ١٩٧٥. وفي ٢٣ ديسمبر ١٩٨٥ أمر جورباتشوف بإعفاء زخاروف وزوجته يلينا بونر من منفاهما الداخلي في مدينة جوركي حيث كان المكتب السياسي قد أرسلهما بسبب

انتقاد الغزو السوفييتي لأفغانستان. وكان الإفراج عن زخاروف واحدا من أوائل وأبكر أعمال " الجلاسنوست " أو الانفتاح " باللغة الأهمية التي أدت في النهاية إلى تفكك النظام السوفييتي بينما كان جورباتشوف يريد أيضا مشورة زخاروف بشأن " مبادرة الدفاع الاستراتيجي ". وفي عدة اجتماعات سرية عقدت في موسكو في فبراير ١٩٨٧ قدم زخاروف تحليلا جلياً مفاده أن " مبادرة الدفاع الاستراتيجي لن تكون على الإطلاق فعالة من الناحية العسكرية ضد خصم جيد التسليح، بل على العكس قد تكون نوعا شبيها بخط ماجينو. ولكن في الفضاء بالغ التكلفة، ولكنه هش أمام الهجمات المضادة. ولن تصلح كوسيلة دفاع واق للسكان أو كدرع يمكن شن الضربة الأولى من خلفه لسهولة الدفاع عنه. ومن المحتمل أن أنصار المبادرة في الولايات المتحدة يُعَوَّلون على أن يؤدي سباق تسلح متسارع إلى تدمير الاقتصاد السوفييتي، ولكن إذا كان الأمر كذلك فهم مخطئون لأن اتخاذ إجراءات مضادة لن يكون مكلفا " (٤).

و كان السوفييت يقومون بالفعل بعملية تقليص للنفقات بدلا من زيادة الاستثمارات في تصنيع أسلحة جديدة. وفي منتصف ثمانينيات القرن العشرين أشارت تقديرات السى آى إيه المعدلة عن الإنفاق السوفييتي على التسليح إلى أن معدل الزيادة الحقيقي بلغ نسبة تافهة قدرها ٣, ١٪. سنويا، وليس نسبة ٤ إلى ٥٪ التي كانت وكالة الاستخبارات قد أبلغتها للرئيس الأميركي سابقا. وأشارت التقديرات أيضا إلى أن مخصصات الأسلحة الهجومية الاستراتيجية الروسية تناقصت بالفعل بنسبة ٤٠٪. غير أن كاسبر واينبرجر وزير الدفاع رفض نظريا هذه التقديرات وأعادها إلى وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية فأمر روبرت جيتس مديرها آنذاك مكتب تحليل الشؤون السوفييتية التابع للوكالة بإرسال مذكرة إلى واينبرجر تركز على نواحي القوة في الاقتصاد السوفييتي (٥).

وفي حقيقة الأمر لم تدرك وكالة الاستخبارات الأميركية أزمة الاتحاد السوفييتي الوشيكة. ولم تقدم أبدا لقادتنا السياسيين تقديرا دقيقا للمبادرات التي شرع فيها ميخائيل جورباتشوف. وفي ١٩ أغسطس ١٩٩١ خضع الاتحاد السوفييتي أخيرا لانقلاب داخلي بفضل عملية إسقاط شرعية النظام الداخلية التي كان جورباتشوف نفسه قد بدأها. ولم يكن لدى الولايات المتحدة ما تفعله إزاء ذلك. وبينما كان جورباتشوف يحاول تنفيذ بريسترويكا داخلية (إعادة البناء الاقتصادي) والجلاسنوست

(نهاية السرية والإفراج عن السجناء السياسيين) وقع الحدث الحاسم عشية يوم ٩ نوفمبر ١٩٨٩ والذي أوضح للعالم المدى الذى وصلت إليه عملية الإصلاح... لقد سقط حائط برلين. وهنا للمرة الثانية لم تكن الجهود الحاسمة أميركية بل كانت ألمانية غربية. وفى دراسة علمية تحليلية (بتكليف من البوندستاج الألمانى) لما أسماه العالم هانز هيرمان هيرتل " أحد أكبر النزاعات الأبوية فى أى زمان " ، يقول هيرتل : " بناء على اتفاقية سرية مع بون فتحت المجر حدودها إلى النمسا يوم ١٠ سبتمبر ١٩٨٩ أمام مواطنى جمهورية ألمانيا الديمقراطية (ألمانيا الشرقية). ومقابل ذلك منحت جمهورية ألمانيا الفيدرالية المجر مبلغ ٥٠٠ مليون مارك ألمانى ووعدت بتعويض أية خسائر تلحق بها نتيجة أية إجراءات انتقامية قد تتخذها جمهورية ألمانيا الديمقراطية. وقد رحل عشرات الآلاف من الألمان الشرقيين إلى جمهورية ألمانيا الفيدرالية (ألمانيا الغربية) عبر أراضى النمسا فى الأيام والأسابيع التى تلت فتح الحدود. وعانت ألمانيا الديمقراطية أضخم موجة رحيل منذ بناء حائط برلين فى عام ١٩٦١. وأظهرت تلك الهجرة الجماعية ضعف قيادة حزب الوحدة الاشتراكى الألمانى (الحزب الشيوعى) إزاء هذه المسألة ، وزعزعت سلطة نظام الحكم بطريقة غير مسبقة " (٦).

وبدئى فى تدريس العلاقات الدولية القول بأن الإمبراطوريات لا تتخلى طواعية عن المناطق الخاضعة لسيطرتها. ويعتبر الاتحاد السوفييتى استثناء نادرا من ذلك الحكم العام. فقد اعتقد بعض دعاة الإصلاح من النخبة السوفييتية أن إقامة علاقات ودية مع الدول الأوروبية الغربية يمكن أن تساعد روسيا على استئناف عملية تحديثها الموقوفة. وكان هؤلاء الدعاة يستلهمون فى ذلك مثالية جورباتشوف والرغبة فى أن يصبحوا أعضاء فى " البرلمان الأوروبي " وفى حصول روسيا على اعتراف دولى بأنها دولة " عادية ". ويقول المؤرخ الروسى فلاديسلاف زوبوك: " عند نقاط معينة... أصبحت الروابط السياسية السوفييتية بفرنسا وألمانيا الغربية أكثر أهمية وربما أكثر دفئا على المستوى الشخصى من العلاقات مع بعض الدول الأعضاء فى حلف وارسو " (٧).

وقد تحول جورباتشوف إلى العداء ضد المفهوم الإمبريالى - الثورى للاتحاد السوفييتى الموروث عن ستالين. وتشابه جورباتشوف فى ذلك إلى حد كبير مع موقف إيمرى ناجى زعيم الحزب الشيوعى المجرى فى الثورة ضد الاتحاد السوفييتى فى بودابست عام ١٩٥٦. ومع ألكسندر دوبتشك السكرتير العام للحزب الشيوعى التشيكى

فى انتفاضة براغ عام ١٩٦٨. وعن طيب خاطر تخلى جورباتشوف عن الإمبراطورية السوفييتية فى أوروبا الشرقية ثمنا لإعادة إنعاش نظام الاتحاد السوفييتى الاقتصادى. ولم يكن لدى القيادة الأميريكية لا المعلومات ولا الإدراك لفهم ما كان يجرى آنذاك ، إذ كانت مفتونة تماما بالفكر " الواقعى " الأكاديمى وبذلك فاتها واحد من أعظم التطورات فى التاريخ الحديث واستخرجت منه نتائج خاطئة تماما فى معظمها. وفى لحظة ما بعد هدم حائط برلين ذكر السفير الأمريكى لدى الاتحاد السوفييتى أن السوفييت قد يتدخلون عسكريا فى أوروبا الشرقية للحفاظ على "استقرار" المنطقة^(٨). وبعد تردد قررت الحكومة والدوائر العسكرية الأميريكية عدم السماح بوقف الحروب الباردة الشرسة المماثلة فى شرق آسيا وأميريكا اللاتينية^(٩)، وبدلا من الاتحاد السوفييتى أصبح الأعداء الجدد هم " الخطر الصينى "، وفيدل كاسترو، وأمراء المخدرات، و" عدم الاستقرار ". وحديثا جدا الإرهاب وأسلحة الدمار الشامل و" محور الشر ": إيران والعراق وكوريا الشمالية. وفى نفس الوقت بذلت الولايات المتحدة قصارى جهدها لدعم هياكل وتحالفات الحرب الباردة القديمة . وحتى بدون وجود خطر الاتحاد السوفييتى أخذت تمدد حلف شمال الأطلسى (الناتو) إلى أوروبا الشرقية واستخدمته فى ضرب البلد الشيوعى السابق. وبدورها طالبت وزارة الدفاع الأميريكية (البنتاجون) بإبقاء الإنفاق العسكرى على نفس المستويات الأساسية للحرب الباردة. وسعت إلى ابتكار أساس منطقى طويل المدى لأنشطتها الكونية.

وبنفس بطاء واشنطن فى إدراك ما كان يحدث فى الاتحاد السوفييتى، وتأخر الشخصيات الرئيسية فى مجلس الأمن القومى حتى شهر مارس ١٩٨٩ التى حذرت من "المبالغة فى تقدير ضعف السوفييت" وأخطار هوس توجهات جورباتشوف المسمى " جوربى مانيا ". تحركت القيادة الأميريكية بسرعة ملحوظة لضمان ألا يؤثر الانهيار على ميزانية البنتاجون أو على " موقفنا الاستراتيجى " على الكرة الأرضية التى أقمنا حاميات عسكرية عليها باسم مناهضة الشيوعية. وبعد لحظات قليلة من سقوط حائط برلين. وحتى أثناء تفكك الاتحاد السوفييتى أخذ ديك تشينى وزير البنتاجون يحث على زيادة الإنفاق العسكرى. وقد قام مايكل جوردون المراسل العسكرى لصحيفة نيويورك تايمز بكتابة تقرير صحفى يتحدث فيه عن ميزانية الدفاع الجديدة فى يناير ١٩٩٠ فيقول: " تتلخص وجهة نظر تشينى، التى يشاركه فيها الرئيس جورج ه. دبلو بوش، فى أن الولايات المتحدة سوف يستمر احتياجها إلى سلاح بحرى كبير (وقوات تدخل

على وجه العموم) للتعامل مع المناوشات والمخاطر ضد المصالح الأميركية في أماكن مثل أميركا اللاتينية وآسيا". وبعد شهرين كشف البيت الأبيض أمام الكونجرس عن استراتيجية جديدة للأمن القومي، ووصفت العالم الثالث بأنه بؤرة محتملة للنزاع قائلة: "في عصر جديد نتوقع أن تبقى قوتنا العسكرية دعامة أساسية للتوازن الكوني، ولكن بدرجة أقل من الظهور وبوسائل مختلفة، ونحن نرى أن متطلبات استخدام قواتنا العسكرية الأكثر احتمالا قد لا تشمل الاتحاد السوفييتي وقد تكون في العالم الثالث حيث يتطلب الأمر قدرات وسبلا جديدة"^(١٠). ويجب ملاحظة أن البنتاجون والبيت الأبيض قدما هذه الخطط العسكرية قبل غزو العراق للكويت والأزمة التي نشأت عنه والتي تسببت في حرب الخليج عام ١٩٩١. كذلك توقعت استراتيجية الأمن القومي الجديدة عام ١٩٩٠ حاجة البلاد إلى "تعزيز وحدتنا المنتشرة في مواقع متقدمة أو لإظهار القوة في مناطق ليس لنا وجود دائم فيها" وبشكل خاص في منطقة الشرق الأوسط بسبب "اعتماد العالم الحر على إمدادات الطاقة من تلك المنطقة المحورية". وتحتاج الولايات المتحدة أيضا إلى أن تكون مستعدة لمواجهة "نزاع محدود" ينطوي على مخاطر ذات نسق منخفض كالإرهاب والنشاط الهدام والتمرد وتهريب المخدرات، التي تهدد بأساليب جديدة الولايات المتحدة وعامة مواطنيها ومصالحها... ويستدعى النزاع المحدود نشوب صراع بين مبادئ وأيديولوجيات متنافسة أدنى من مستوى الحرب التقليدية" وتذكر استراتيجية الأمن القومي عام ١٩٩٠ أن "على قواتنا المسلحة أن تكون قادرة على التعامل بفاعلية مع سلسلة كاملة من المخاطر بما في ذلك حالات التمرد والإرهاب". ومن خلال مثل هذه التنبؤات التي تحققت كما هو متوقع سعت المؤسسة العسكرية إلى مواجهة نهاية الحرب الباردة عن طريق مباشرة مشروع جديد متعاظم تلعب فيه دور الشرطي العالمي.

وفي نفس الوقت عمد المنظرون الأميركيون إلى إقناع الجماهير بأن زوال الاتحاد السوفييتي هو دليل الانتصار الأميركي العظيم. وبدوره ولّد هذا الزهو بالنصر تحولا دقيقا في موقف الولايات المتحدة الذي ثابرت عليه طوال الحرب الباردة، ولم تعد تصور نفسها باعتبارها قوة دفاعية تسعى فحسب إلى ضمان أمنها وأمن الدول المتحالفة في مواجهة اعتداء سوفييتي أو شيوعي محتمل. وفي ظل عدم وجود قوة عظمى عدوة برزت الملامح الأولى للدور الإمبراطوري العلني المتفطرس الذي ستقوم به الولايات المتحدة في القرن الجديد عندما بدأت البنتاجون في سبر أغوار المياه في مجموعة من

القدرات التى قد توسع مدى بعضها، وتترك بعضها الآخر للسنوات القادمة، وذلك بدلا من إعلان الانتصار وتسريح القوات. والآن وبالتدريج وببطء أخذت الولايات المتحدة على عاتقها مسؤوليات التدخل الإنسانى ونشر " ديموقراطية السوق " على الأسلوب الأمريكى عبر العوالة، وشن حرب مفتوحة على كارتلات المخدرات الأمريكية اللاتينية، وعلى حركات الإصلاح السياسى فى بلادها، وفرض الحصار على ما يسمى " الدول المارقة "، وقيادة حرب لا نهاية لها على الإرهاب، وأخيرا التدخل " الوقائى " ضد أية قوة يمكن أن تكون غير صديقة فى أى مكان وتهدد بامتلاك أنواع أسلحة الدمار الشامل التى كانت الولايات المتحدة أول من صنعها وما تزال تريد احتكارها. وخلال عقد من انتهاء الحرب الباردة فى أوروبا تعرض موقف الولايات المتحدة فى العالم لتحول أساسى. ويرى ويليام جالستون، نائب مساعد الرئيس بيل كلينتون للسياسة الداخلية من ١٩٩٣ إلى ١٩٩٥، أنه " بدلا من الاستمرار فى العمل باعتبارها الأولى بين أنداد فى النظام العالمى ما بعد الحرب، تصرفت الولايات المتحدة باعتبارها فوق القانون حتى على نفسها وفرضت قواعد جديدة للالتزامات الدولية دون موافقة الدول الأخرى " (١١) ولم يعد يبدو على الولايات المتحدة أنها تهتم بعدد الأعداء الذين تسبب فى عدائهم.

وقد تضمنت الفترة مابين سقوط حائط برلين والذكرى السنوية الأولى لهجمات ١١ سبتمبر ثلاث عشرة سنة وثلاثة رؤساء. ومن عام ١٩٨٩ حتى عام ٢٠٠٢ قامت ثورة فى علاقات أميركا مع بقية دول العالم. ففى بداية تلك الفترة كان مسار السياسة الخارجية ما زال يعتبر عملية مدنية إلى حد كبير نفذها رجال ونساء تمارسوا بالعمل الدبلوماسى وتعودوا على الدفاع عن الأفعال الأمريكية بلغة القانون الدولى مستندين إلى تحالفات قائمة منذ زمن طويل مع دول ديموقراطية أخرى. ولقد كان هناك على الدوام عنصر عسكرى فى الممارسة التقليدية للسياسة الخارجية وكثيرا ما لعب أشخاص من ذوى الخلفية العسكرية أدوارا بارزة كرجال دولة مدنيين. ومن وقت لآخر تجاوز بعض العسكريين ما توقعه الجمهور منهم مثلما حدث فى الدعم السرى والتمويل غير المشروع للجيش اليمينية فى أميركا الوسطى إبان إدارة ريجان، ولكن كان يتم بشكل عام الحفاظ على التوازن لصالح القيود الدستورية على القوات المسلحة واستخدامها. وبحلول عام ٢٠٠٢ تغير كل هذا ولم تعد هناك " سياسة خارجية " للولايات المتحدة. وبدلا منها أصبح لديها إمبراطورية عسكرية ومع نهاية الحرب

الباردة أصبح إقليم أوراسيا الهائل الواقع بين دول البلقان وباكستان مفتوحا أمام التوسع الإمبراطورى. وقد كان سابقا منطقة محظورة لوقوعها ضمن مجال نفوذ الاتحاد السوفييتى. وقامت الولايات المتحدة بنشر قواتها المسلحة على وجه السرعة فى تلك المنطقة الحساسة. وأبدت استعدادها لخوض معارك حربية ضد أنظمة الحكم التى وقفت فى طريقها. وأثناء هذه الفترة التى جاوزت العقد بقليل نسجت معا وحدة مركبة كبيرة من المصالح والالتزامات والمشروعات إلى أن برزت للوجود ثقافة سياسية موازية للمجتمع المدنى. هذه الوحدة المركبة التى أسميها إمبراطورية لها جغرافيا طبيعية واضحة وحتى محددة وتم تملُّك الجزء الأكبر منها خلال الحرب العالمية الثانية والحرب الباردة، ولكن لم يُعترف بها لأنها توارت خلف منطلق احتواء الاتحاد السوفييتى. وتتكون هذه الإمبراطورية من قواعد بحرية دائمة ومطارات حربية وثكنات للجيش ومراكز تجسس للتصمت ومواقع استراتيجية محاطة بأراضٍ أجنبية. وكل ذلك ينتشر فى كل قارة على وجه الأرض.

وطبيعى أن القواعد العسكرية والمستعمرات كانت من المعالم الشائعة للنظم الإمبراطورية منذ العصور القديمة. ولكنها كانت فى الماضى تقوم دائما بتأمين أو الدفاع عن الأراضى المهزومة واستغلالها اقتصاديا. وقد بدأت الولايات المتحدة كإمبراطورية تقليدية. فقد قمنا باحتلال واستيطان القارة الأمريكية الشمالية وأقمنا قواعد عسكرية أمامية من الساحل إلى الساحل سميت بالحصون (forts) مثل فورت أباتشى، وفورت ليفنوورث، وفورت ساتر وفورت سام هوستون، وفورت لارامى، وفورت أوسيج. ولكننا لم نضم أراضى فى الزمن الأكثر حداثة على عكس ما فعلته إمبراطوريات أخرى عديدة، وبدلا من ذلك أخذنا - أو استأجرنا أحيانا - مناطق عسكرية تقع ضمن الأراضى وبذلك أقمنا إمبراطورية مستعمرات لا إمبراطورية قواعد. وترتبط هذه القواعد بمنظومة من القيادات تحت إشراف البنتاجون دون أى رقابة مدنية ذات شأن، ومن ثم ألحقت بالمجمع الصناعى العسكرى المتنامى وأثرت تأثيرا عميقا على الثقافات الأصلية لأهل تلك الأراضى اتجه بها نحو الأسوأ بثبات. وقد أدت كذلك إلى تحويلنا إلى نوع جديد من الإمبراطورية العسكرية: إلى سبارطة استهلاكية. وثقافة المحارب التى تتباهى بالمساكن مكيفة الهواء وقاعات العرض السينمائية ومحلات السوبر ماركت وملاعب الجولف وحمامات السباحة المخصصة وهنا خاصية خطيرة أخرى تميز الإمبراطورية الأمريكية عن إمبراطوريات الماضى

وهى أنه لا حاجة لأن تخوض القواعد حروباً، ولكنها تتواجد باعتبارها تعبيراً خالصاً عن النزعة العسكرية والإمبراطورية. إن التمييز بين القوات المسلحة ونزعة التسلط العسكرى مسألة مهمة. فعندما أذكر الأولى فإننى أعنى بها جميع الأنشطة والنوعيات والمؤسسات التى تطلبها دولة لى تخوض حرباً تدافع بها عن نفسها. ويجب أن توجه القوات المسلحة اهتمامها إلى تأمين الاستقلال الوطنى وهو الشرط الضرورى لصيانة الحرية الشخصية. غير أن امتلاك القوات المسلحة يقود بأى حال من الأحوال إلى نزعة التسلط العسكرى وهى الظاهرة التى تؤدى بقوات الدولة المسلحة إلى ترجيح الحفاظ على هذه النزعة على تحقيق الأمن الوطنى أو حتى على التزامها إزاء وحدة الهيكل الحكومى التى تعتبر هذه القوات جزءاً منه. ويقول المؤرخ العسكرى الكبير ألفرد فاجتس: " إن الجيش العامل فى زمن السلم هو الأعظم بين جميع المؤسسات العسكرية^(١٢) " وإضافة إلى ذلك فإن القوات المسلحة عندما تتحول إلى مؤسسة لنزعة التسلط العسكرى، من الطبيعى أن تبدأ فى إزاحة جميع المؤسسات الأخرى داخل الحكومة المكرسة لإدارة العلاقات مع الدول الأخرى. ومن علامات وجود تلك النزعة أن تتولى قوات الدولة المسلحة عدداً كبيراً من المهام التى يجب تكليف المدنيين بها.

وتأتى القواعد الخارجية، التى تقر وزارة الدفاع بأن عددها نحو ٧٢٥ قاعدة، فى نطاق الجيش العامل فى زمن السلم وتشكل عبئاً دائماً على موارد الأمة بينما هى فى الغالب غير قابلة للتغير وغير كافية بالفعل لخوض حرب. فالقواعد الضخمة على أراضٍ أجنبية مثل تلك التى فى أوكيناوا أو ألمانيا لم تشترك فى قتال منذ الحرب العالمية الثانية. وليس المقصود منها فى الحقيقة أن تضيف شيئاً إلى قدرات القتال فى الحروب. وإنما هى مراكز قيادة رئيسية لقناصلنا ومظاهر مرئية للمدى الإمبراطورى لنا. وعلى سبيل المثال لم تستخدم الولايات المتحدة قواعدها فى الخليج الفارسى وآسيا الوسطى أثناء حرب العراق الثانية فيما عدا إطلاق القاذفات لقصف المدن العراقية وهو نشاط أشبه ما يكون بالتدريب فى ظل التفوق الجوى الأمريكى لا بأى شئ يمكن أن يسمى قتالاً. والواقع أن جميع القوات القتالية الفعلية جاءت من " أرض الوطن ": فرقة المشاة الثالثة من فورت ستيوارت بجورجيا، وفرقة المشاة الرابعة من فورت هود بتكساس، وفرقة مشاة البحرية الأولى من كامب بندلتون بكاليفورنيا، والفرقة ١٠١ المحمولة جواً من فورت كامبل بكنيتاكي. أما القواعد الموجودة فى قطر والمملكة العربية السعودية والبحرين والإمارات العربية المتحدة وعمان وفى أماكن أخرى. فقد خدمت

أساسا باعتبارها منتجعات ومواقع مريحة لأصحاب الرتب العالية من كبار الضباط يستخدمونها فى مراكز قيادتهم بالريموت كونترول. ولا تعتبر شبكة القواعد الأميركية علامة على الجاهزية العسكرية، ولكن على نزعة التسلط العسكرى وهى الرفيق الذى لا مفر منه للنزعة الإمبراطورية. والتمويل هو المشكلة الكبرى فى هذه الشبكة، ولقد كانت معظم الإمبراطوريات القديمة تدفع عن نفسها أو كانت تحاول ذلك على الأقل. وقد أثرت الإمبراطوريات الإسبانية والهولندية والبريطانية أوطانها من خلال الاستغلال الاستيطاني، ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة لإمبراطورية القواعد. ونظرا لكونها معسكرة ومن طرف واحد فإنها تميل إلى تقويض التجارة والعولة لأنها تضعف القانون الدولى وقواعد المعاملة بالمثل التى تعتمد التجارة عليها. وهى بذلك تضيف إضافة ضخمة إلى الأعباء الاقتصادية غير المباشرة التى تعانىها سلطتنا الإمبراطورية. وهو موضوع سأعود إليه فيما بعد فى هذا الكتاب. ومن حين لآخر تكسب إمبراطورية قواعدا بعض المال لأن الولايات المتحدة تضغط على الحكومات الأجنبية لتدفع من أجل مشاريعها الإمبراطورية مثلما كانت عصابات ثلاثينيات القرن العشرين تجبر الناس والمتاجر الواقعة فى طريقها على دفع أموال الحماية. وأثناء حرب العراق الأولى انتزعت الولايات المتحدة ١٢ بليون دولار من اليابانيين ثم تفاخرت بعد ذلك بأنها لم تحصل إلا على ربح صاف ضئيل من وراء النزاع، ولكن كلما زادت صراحتنا وإصرارنا على مزاعمنا بالهيمنة على العالم ضعفت جاذبية خطط " الأمن المتبادل " القديمة بالنسبة لدول أخرى غنية، ولكنها عاجزة عسكريا. إن تقلص التجارة وتحويل رعوس الأموال، والدعم المالى المباشر سوف تقوض إمبراطورية القواعد الأميركية بأسرع كثيرا مما كانت عليه الحال فى إمبراطوريات التمويل الذاتى الأقدم.

وتوحي الحياة فى إمبراطوريتنا من نواح معينة بما كان عليه الحكم البريطانى للهند بطقوسه العسكرية وعنصريته وتنافساته وتكلف العظمة وهيكله الطبقي. وبمجرد وجود قناصل أميركا المحدثين فى قواعدهم فإنهم هم ومساعدتهم الأدنى لن يختلطوا مع أى من " مواطنيهم " أو الأميركيين المدينين. وهذه المدن - الدولة تعلم الشباب الأميركي العجرفة والعنصرية وتغرس فيهم عناصر التفوق العنصرى مثلما فعلت مع شباب القرن التاسع عشر الإنجليز والفرنسيين. وتتضمن مرافق القاعدة الموفرة للحياة الرغبة أشباها عسكرية دائمة التوسع كما فى دنزى لاند كما أن غرف " كلب مد " وهى سلسلة الفنادق والمنتجعات محجوزة للاستخدام الحصرى للعاملين فى

الخدمة العسكرية الفعلية من الرجال والنساء، إلى جانب الإسكان والتسهيلات الرياضية والكنائس والمدارس المتوفرة بدون مقابل أو مقابل أسعار ثابتة ضئيلة. وهذه المنشآت تشكل تقريبا شبكة عالمية سرية قد تكون لبعضها استخدامات استراتيجية مؤقتة، ولكنها تطورت منذ وقت طويل إلى مخافر أمامية دائمة. وقد حدث كل هذا بشكل غير رسمي وبغير قصد على حد علم جانب عريض من الجمهور. ولم يشر أحد إلى الإمبراطورية إلا في حدود الحديث عن تحرير الجنود الأميركيين للنساء الأفغانيات من سيطرة الأصوليين الإسلاميين أو مساعدة ضحايا كارثة طبيعية في الفلبين أو حماية أهل البوسنة أو كوسوفو أو الأكراد العراقيين من حملات " التطهير العرقي " (ولكن لا حديث عن الروانديين أو الأكراد الأتراك أو الفلسطينيين).

ومهما يكن السبب الأصلي لدخول الولايات المتحدة دولة ما وإقامة قاعدة فيها، فإنها تبقى هناك لأسباب إمبراطورية مثل السيطرة الإقليمية أو الكونية، ورفض ترك أراض تحت سيطرة منافسين، وإتاحة المجال لدخول الشركات الأميركية. والحفاظ على " الاستقرار " أو " الصديقة " كقوة عسكرية أو جمود الحركة ببساطة. ويرى بعض الناس أن قواعدها تثبت صحة أسلوب الحياة الأميركية و" انتصارنا " في الحرب الباردة. أما مدى قدرة الولايات المتحدة على أن تحمل التواجد في كل مكان وإلى الأبد فإنه لم يعتبر موضوعا ملائما للمناقشة على المستوى القومي. ولا من الملائم الإسهاب في تناول مفصل لما تتحمله الإمبراطورية من نفقات أو كيف تنتهى وذلك في ظل الأجواء الدعائية التي طوقت البلاد في الألفية الجديدة. وليست الإمبراطورية الجديدة مجرد كيان مادي بل هي أيضا موضع تحليل ومداينة يعتز به جيش جديد من " المفكرين الاستراتيجيين " الذين عينوا أنفسهم للعمل في أديرة وطنية حديثة تدعى " مستودعات الأفكار ". وهى كذلك بثورة جماعات المصالح القديمة والجديدة مثل أولئك المعنيين بإمدادات وأسعار النفط، وأولئك الذين يجنون الأرباح من إنشاء وصيانة الحاميات العسكرية في أماكن بعيدة الاحتمال. وهناك مصالح كثيرة جدا غير تلك الخاصة بالمسؤولين العسكريين الذين ينعمون بأفضل ما في الإمبراطورية لدرجة أن هناك إصرارا مفرطا وواضحا على وجودها إلى حد أنه من الصعب تخيل خروج الولايات المتحدة بإرادتها من " إمبراطورية البيزنس ". وبالإضافة إلى قواتها العسكرية وعائلاتها تدعم الإمبراطورية المجمع الصناعى العسكرى. ومراكز البحوث والتنمية الجامعية. ومصافى البترول وموزعيه، والأعداد التى لا حصر لها من جيوش الضباط

الأجانب الذين تولت تدريبهم، وصناع المركبات الرياضية المبسطة وذخائر الأسلحة الصغيرة، والمؤسسات متعددة الجنسيات والعمالة الرخيصة التي تستخدمها لصناعة منتجاتها، والبنوك الاستثمارية، وصناديق التحوط وجميع أنواع المضاربين، والمدافعين عن "العولة". والمنظرين المعنيين الذين يريدون إجبار جميع الدول على فتح أبوابها للاستغلال الأميركي والرأسمالية على الأسلوب الأميركي. وتتضمن قيم ومؤسسات الإمبراطورية نعمة الرجولة العسكرية، والاستقامة الجنسية، وإدارة الخدمات الطبية لصالح قلة مختارة، والضمانات من المهد إلى اللحد، والأجر المنخفض، والعلاقات العائلية المضنية (بما في ذلك قتل الزوجات أو الأزواج) والموقف السياسى المحافظ. والإلحاح على السلوك كمحارب رغم أن الكثير من الحروب التي نشبت في العقد الأخير أو يزيد حملت سمات أدنى تشابها في القتال الجسدى التقليدى من سلسلة ألعاب الكومبيوتر.

وهناك قصة من بين آلاف صفحات الدعاية التي توزعها البنتاجون احتفالاً بالانتصار على طالبان في أفغانستان. وتدور القصة حول سيدة برتبة نقيب في سلاح الطيران كانت تجلس في مركز قيادة في باكستان وتراقب طائرة بدون طيار من طراز بريديتور أطلقت فوق أفغانستان. وفجأة لاحظت وجود مجموعة من الأفغان تتجمعر حول مركبة طراز تويوتا وقررت أنهم "إرهابيون" فأمرت بتحليق إحدى طائرات البحرية الأميركية المسلحة بقنبلة تقليدية ألحقت بها أداة تعمل عبر نظام كوني لتحديد الموقع بواسطة الأقمار الاصطناعية وهي موجهة بالقصور الذاتي ومبرمجة لكي تقصف القنبلة في نطاق ثلاثين إلى خمسة وأربعين قدماً من هدفها. وبينما كانت تسقط قنبلتها لم تتمالك الضابطة نفسها من أن تصرخ منادية الرجال المشتبه بهم الظاهرين على شاشة الكومبيوتر قائلة: "أهريوا... ابتعدوا عن الطريق... سوف تقتلون" وبعد ثوان قليلة كانوا فعلاً قد ماتوا. ومن الممكن أن القصد من توزيع هذه القصة هو إظهار الشعور الإنساني الفطري لدى سلالة محاربينا الجديدة، حتى ولو كانوا يقاتلون على بعد مئات الأميال أو من ارتفاع يصل إلى ٢٥ ألف قدم على متن قاذفة من طراز ستيلث. غير أن م. فرانكلين روز المتخصص في علم تصميم الروبوت في الجيش لا يعتقد أن مثل وخزات التقمص الوجداني هذه سوف تستمر طويلاً إذ يقول: "لقد تربى هؤلاء الجنود الشبان على ألعاب الفيديو وأجهزة الكومبيوتر. وقد نشأوا وهم يثقون في الآلات" (١٢). والموت الماحق، كما يبدو في ألعاب الفيديو، أصبح

الآن أمرا محتما في العمليات التي تخوضها قواتنا المسلحة ذات التقنيات العالية، كما أصبح من الشائع عدم خضوعها لأية قيود يفرضها القانون الدولي أو المحلي من أى نوع كان. وعلى سبيل المثال ، فى يوم ٤ نوفمبر ٢٠٠٢ ، اعترفت الحكومة بأنها وجهت ضربة فى اليمن مماثلة لتلك التى وصفناها سابقا فى أفغانستان، بطائرة استطلاع بدون طيار من نفس الطراز تتم مراقبتها فى هذه الحالة عن طريق العاملين فى السى آى إيه فى منشأة فرنسية عسكرية فى جيبوتى وفى قيادة وكالة الاستخبارات فى فرجينيا. وأطلقت الطائرة صاروخا دمر سيارة قيل إن عضوا إرهابيا كبيرا فى القاعدة كان على متنها^(١٤). ولم يقتصر الأمر على احتراق السيارة بالكامل إلى درجة حالت دون تأكيد ذلك الادعاء. ولكن طبيعة الضربة نفسها لابد أن تدفع حكومات أخرى إلى التفكير لأنها وقعت بعد أن عرف أن الحكومة اليمنية رفضت التصرف بناء على معلومات تم تمريرها إليها بواسطة وكالة الاستخبارات الأميركية ... لماذا لا تقوم طائرة موجهة بالريموت كونترول بإطلاق صاروخ طراز هيلفاير لتدمير إرهابيين معروفين فى الفلبين أو فى سنغافورة أو فى ألمانيا مهما كان رأى أو رغبة الحكومة المحلية ؟

وأثناء فترة ما بعد الحرب الباردة تولت مجموعة من المديرين زمام الأمور فى المؤسسة العسكرية وكانوا أكثر اهتماما من أسلافهم بالحرب التى تستخدم أسلحة يتم إطلاقها من ارتفاعات شاهقة أو من فوق خط الأفق أو من الفضاء الخارجى. وكانوا مصممين على تفضى إيقاع خسائر فى أرواح جنودهم بهدف جعل التطوع فى الالتحاق بالقوات المسلحة أكثر جاذبية وعدم تخويف المواطنين الذين يمدون القوى العاملة ويدفعون ثمن الأنشطة العسكرية وأسلوب الحياة. وقد أدى هذا الأسلوب الحربى إلى استمرار ممارسات الحرب العالمية الثانية لقصف مناطق سكانية والعجز عن تجنب قتل غير المشاركين فى القتال والناس الأبرياء وذلك رغم الإسراف فى إطرء قدرة الأسلحة على " دقة التصويب ". ولا شئ جديد فى هذا الأمر فقد قتل الرومان أو استعبدوا أسراهم ونهبوا ودمروا مدن أعدائهم وذبحوا جميع سكانها دون تمييز بين المقاتلين وغير المشتركين فى القتال. أما " الحرب الشاملة " فى القرن العشرين التى ترافقها قوة جوية فوق كل شئ فقد عرفت فى القرون الوسطى باسم " الحرب الرومانية ". وبشكل عام يقول سفن ليند كويست فى كتابه: " تاريخ القصف بالقنابل " : " إن قوانين الحرب تحمى الأعداء من نفس الجنس والطبقة والثقافة. وتترك قوانين الحرب الغرب والدخيل دون حماية " ^(١٥) وتعتبر هيروشيما ونجازاكي مثالا على ذلك. والتوجه

الطريف اليوم هو نفاقنا بشأن الذخائر " دقيقة التوجيه " وتصمم البروباجندا الأميركية على تجاهل المجازر التي ترتكبها قواتنا الحربية ذات التكنولوجيا العالية ضد السكان المدنيين ، وتعلن أن نوايانا بالتحديد طيبة، وأن عمليات القتل والتشويه هي مجرد "ضرر جانبي". ومثل هذا التضليل سمة ذاتية للعالم الإمبراطوري وخادمته أى النزعة العسكرية.

ويصعب تعريف النزعة الإمبراطورية، ولكن يسهل التعرف عليها. ويقول عالم الاقتصاد السياسى الإنجليزى جون هوبسون إن " أصحاب النزعة الإمبراطورية هم "طفيليات وعالة على الوطنية" (١٦) وهم الذين يبادرون إلى " الأعمال المربحة والوظائف التى تدر أموالا وفيرة " فى سياق إنشائهم إمبراطورية والعمل على استغلالها، كما يستولون على المناصب العسكرية والمدنية فى السلطة الإمبراطورية، وعلى التجارة مع الشعوب التى تهيمن عليها ضمن شروط تمت هيكلتها لصالحهم، ويصنعون الأسلحة والذخائر للحروب ونشاط الشرطة، ويقدمون ويديرون رعوس الأموال لاستثمارها فى المستعمرات وشبه المستعمرات والدول التى تدور فى فلكهم والتى تنشئها النزعة الإمبراطورية.

ويتلخص التعريف البسيط للنزعة الإمبراطورية فى أنها هيمنة الدول القوية على الدول الضعيفة واستغلالها. وتعقب أحزان كثيرة هذه الظاهرة القديمة والتى تسهل ملاحظتها . فالنزعة الإمبراطورية على سبيل المثال هى السبب الجذرى لأحد أسوأ الأمراض التى أصابت بقية العالم عن طريق الحضارة الغربية وأعنى بها: العنصرية. ويقول دافيد إيبرنثى أحد الثقاة فى دراسة النزعة الإمبراطورية الأوروبية : " احتاج الأمر إلى قفزة ذهنية قصيرة لكى يستنتج الشعب المتفوق فى القوة أنه متفوق فى القوة الذهنية ومبادئ الأخلاق والحضارة أيضا. واستخدمت عقدة التفوق فى تبرير الحكم الاستعماري، باعتباره حقا يستحقونه عن جدارة مع التخفف من هواجس الريبة فى عدالة السيطرة على شعب آخر" (١٧).

ووفقا لتقليد طويل فى الكتابة عن النزعة الإمبراطورية فإنه إذا لم تتضمن سيطرة دولة قوية " استعمار " دولة ضعيفة فهى إذن ليست ذات نزعة إمبراطورية. وقد استخدم بعض الكتّاب مصطلح " السيطرة السياسية " كبديل للنزعة الإمبراطورية الخالية من المستعمرات، وأصبحت تلك السيطرة فى عصر القوى العظمى بعد الحرب

العالمية الثانية تتداخل مع فكرة "المعسكرين" الشرقى والغربى. وكان تعقيد الأمور على الدوام حافزا أميريكيا ثابتا للعثور على وسائل لتلطيف النزعة الإمبراطورية وتهوين وإخفاء النسخة الأميركية من تلك النزعة عن عيون الأميركيين الآخرين على الأقل. وعلى سبيل المثال اعترف تيودور روزفلت بأنه "توسعى" وليس "إمبرياليا". وتعلل بشأن ضم جزر الفلبين بقوله: "لا يوجد أى إمبريالى فى البلاد ... توسع ... نعم... لقد كان التوسع قانون نمونا الوطنى"^(١٨).

ولقد كان إبيرنثى يعبر عن ذلك تماما فى إصراره على أنه فى الإمبراطورية الحقيقية يجب أن تطرح الدولة القوية مطالبة رسمية بالدولة الأضعف. وكتب إبيرنثى يقول: "الاستعمار هو مجموعة من سياسات رسمية وممارسات غير رسمية. وأيديولوجيات توظفها حاضرة كبيرة فى تولى السيطرة على مستعمرة والانتفاع بهذه السيطرة. والاستعمار هو تعزيز للإمبراطورية وهو الجهد المبذول لتوسيع وتعميق مطالب الحكم التى طرحت فى فترة مبكرة من عملية بناء الإمبراطورية"^(١٩). وطبيعى أن الإمبريالية الأوروبية ارتبطت فى الحقيقة بالمستعمرات ارتباطا وثيقا وكرست لتنمية الهجرة إلى ممتلكاتها على نطاق مذهل. وقد هاجر ملايين الأوروبيين إلى الجماعات التى أنشأتها الإمبريالية الأوروبية فى أميركا الشمالية والجنوبية وأستراليا ونيوزيلندا وجنوب إفريقيا. وعلى التعاقب نقل ملايين الأفارقة كعبيد إلى المستعمرات الأميركية والكاريبية. وبينما تمدد الأوروبيون عالميا، دفع قادتهم السياسيون ومديرو المستعمرات الأموال لملايين الصينيين والهنود، أو خدعهم. لكى يهاجروا - أحيانا كخدم متعاقدين - إلى المستعمرات الأوروبية والأميركية وأقاليم فى جنوب شرق آسيا والمحيط الهندى والبحر الكاريبى وإفريقيا والولايات المتحدة. كذلك استخدمت الشعوب الأوروبية مستعمراتها بانتظام باعتبارها مقالب نفايات لجرميها ومعارضها السياسيين. وذلك فى محاولات واعية للحيلولة دون اندلاع ثورة محلية. وفرضت بعض الحكومات أحكاما " بالترحيل " للتخلص من الذين تخشى أن يصبحوا راديكاليين أو ثوريين. وبعد انتفاضة العمال فى باريس عام ١٨٤٨ دفعت الحكومة الفرنسية أموالا لأكثر من خمسة عشر ألفا من أهل باريس لكى ينتقلوا إلى الجزائر المُستعمَرة. كذلك اعتاد البريطانيون على ترحيل الراديكاليين الأيرلنديين وغيرهم إلى سجون المستعمرات فى أميركا الشمالية ثم إلى أستراليا بعد الثورة الأميركية. وفى مقابل هذه الخلفية من الطبيعي أن يبرهن

إيبرنثى أن مفهوم الإمبريالية ذاته يصبح غير منطقي بمجرد إزاحة الاستعمار والاستعماريين من الصورة.

غير أن هذه وجهة نظر مقيدة تاريخياً. فبعد مرور الزمن أصبحت الهجرة والنزعة الاستعمارية أقل تلازماً متكرراً مع الإمبريالية. واليوم تسفر الإمبريالية عن وجهها فى أشكال عديدة مختلفة ومتطورة. ولا تستطيع مؤسسة بعينها - باستثناء القوة العسكرية - أن تحدد الظاهرة الأكبر. فالإمبريالية والنزعة العسكرية لا تفرقان وتهدف كلتاهما إلى بسط هيمنتها. وكما يقول ألفرد فاجتس: " أينما تطلعت إحداها إلى المزيد من الأراضي فى المقام الأول. انتهت الأخرى تملك المزيد من الرجال والمال "(٢٠) ومن المؤكد أن هناك أنواعا كثيرة من الإمبريالية لم تُستغل فى إنشاء المستعمرات، فالمؤسسة المميزة لما تسمى "النيوكولونيالية" هى الشركة متعددة الجنسيات المدعومة علانية بقوة إمبريالية. وهذا الشكل من الإمبريالية يؤدى إلى تخفيض التكلفة السياسية والالتزامات النيوكولونيالية بواسطة الاحتفاظ بواجهة كاذبة لاستقلال سياسى صورى للدولة الواقعة فى براثن الاستغلال. ويقول الثائر الكوبى تشى جيفارا إن النيوكولونيالية "هى الشكل الأشد بأسا من الإمبريالية بسبب أشكال التنكر والخداع التى تنطوى عليها وخبرة القوى الإمبريالية الطويلة فى هذا الطراز من المواجهة" (٢١). وتتطابق الشركة متعددة الجنسيات إلى حد ما مع واحدة من مؤسسات الإمبريالية المبكرة وهى شركة الامتياز. وفى مثل هذه المنظمات التجارية الكلاسيكية تمنح الدولة الاستعمارية امتيازاً لشركة خاصة لاستغلال - وأحيانا لحكم - إقليم أجنبى على أساس احتكارى على أن يتم تقاسم الأرباح بين المسؤولين الحكوميين ومستثمرى القطاع الخاص. وأفضل الأمثلة المعروفة فى هذا المجال هى شركة الهند الشرقية الإنجليزية التى تأسست عام ١٦٠٠. وشركة الهند الشرقية الهولندية التى أنشئت عام ١٦٠٢. وشركة الهند الشرقية الفرنسية فى عام ١٦٦٤، وشركة هدسون باى فى عام ١٦٧٠. وتختلف شركة الامتياز عن الشركة متعددة الجنسيات الحديثة فى أن الأولى لم تدع أبدا أنها تؤمن بمبدأ التجارة الحرة بينما تستغل الشركات متعددة الجنسيات " التجارة الحرة " وكأنها تعويذتها. ولم تؤد الكولونيالية الرسمية ولا الكولونيالية الجديدة لشركات الامتياز أو الشركات متعددة الجنسيات، إلى إنهاك القدرات المؤسسية للإمبريالية. ومثال ذلك أن الهيمنة النيوكولونيالية لا تحتاج إلى أن تكون اقتصادية، بل يمكن أن تؤسس على نوع من خدعة الحماية الدولية مثل معاهدات الدفاع المتبادل ، والمجموعات الاستشارية

العسكرية . وتمركز قوات مسلحة فى دول أجنبية " للدفاع " ضد مخاطر غير محددة بدقة . أو أخذة فى الانحسار ، أو لا وجود لها . وتنتج هذه التدابير دولا تابعة تبدو مستقلة فى الظاهر بينما تدور علاقاتها الخارجية وجاهزيتها العسكرية فى فلك قوة إمبريالية . كان هذا هو الحال أثناء الحرب الباردة بالنسبة لدول أوروبا الشرقية التابعة للاتحاد السوفييتى السابق . ودول شرق آسيا التابعة للولايات المتحدة والتي شملت ذات يوم تايوان والفلبين وفيتنام الجنوبية وتايلاند ، ولكنها تقلصت الآن إلى اليابان وكوريا الجنوبية إلى حد ما . أما دول الدومينيون التابعة للإمبراطورية البريطانية والمتمتعة بالحكم الذاتى فقد كانت البديل . وتتميز كندا وأستراليا ونيوزيلندا عن مستعمرات التاج البريطانى الأخرى تميزا كاملا فى اتجاهات عنصرية . فقد حُشدت فى المقام الأول بالمهاجرين الأوروبيين البيض . ومازال هناك نوع بديل آخر هو " الدولة - العميلة " وهى الدولة العالة التى تعتمد على قوة إمبريالية ، والتي قد تمنحها مواردها وموقعها الاستراتيجى ونفوذها أحيانا فرصة لكى تملئ نهجا سياسيا على القوة المسيطرة بينما تستمر فى الاعتماد على دعمها غير المحدود . ومن الأمثلة على تلك الدول : إسرائيل فى مواجهة الولايات المتحدة ، والصين وفيتنام فى مواجهة الاتحاد السوفييتى قبل الانشقاق الصينى - السوفييتى ، وكوريا الشمالية بين عامى ١٩٦٠ و ١٩٩٠ عندما استطاعت أن تتلاعب بالاتحاد السوفييتى والصين ضد بعضهما البعض .

وأثناء الحرب الباردة زعمت كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى أنهما تعارضان الإمبريالية الأوروبية القديمة وبذلك فهما ليستا قوتين إمبرياليتين . ومع ذلك وقبل الحرب العالمية الثانية بوقت طويل أقامتا إمبراطوريتين : الولايات المتحدة فى أميركا اللاتينية والمحيط الهادئ ، والروس فى القوقاز وآسيا الوسطى ، وحصلت كل منهما على أراض جديدة فى سياق خوضهما تلك الحرب ، ولكن كان على كل منهما أن تموه ممارساتها الإمبريالية قديمة العهد باعتبارها أمرا حميدا جدا . وعمدت كل دولة فى الحرب الباردة إلى ترويج مجموعة محكمة من الأساطير حول خطر الطرف الآخر والحاجة إلى الاحتفاظ بقوات عسكرية " فى مواقع متقدمة " تكون مستعدة على الدوام لصد " الضربة الأولى " . واتفقت القوتان الأعظم فى العالم على أمر واحد على الأقل وهو أن وجودهما العسكرى مطلوب فى جميع قارات العالم للحيلولة دون نشوب حرب قوى عظمى .

وأصبحت القواعد العسكرية الأجنبية للقوتين العظميين مؤسسات مميزة لشكل جديد للنزعة الإمبراطورية. وتبنت كلتا الدولتين بحماس فكرة أن كل واحدة تواجه خطرا داهما من الأخرى حتى رغم أنهما كانتا حليفين في الحرب العالمية الثانية. وقد سهلت الحرب الباردة وتعادل الطرفين في آسيا الوسطى بشكل خاص تحديد الهدف من وجود ١٧٠٠ منشأة عسكرية أميركية في نحو مائة دولة في تلك الفترة^(٢٢). وانهمكت جميع القوات المتواجدة في هذه القواعد في مشروع كبير من أجل " احتواء التوسع السوفييتي"، كما قيل إن قوات الاتحاد السوفييتي تقوم بإحباط " العدوان الأمريكي"^(٢٣). وفي عام ١٩٨٩ وبينما كان الاتحاد السوفييتي قد بدأ في منح الحرية للدول الدائرة في فلكه ثم تمزق في سياق الجلاسنوست، كانت الولايات المتحدة ما تزال منشغلة بالقمع الوحشي للمتمردين أو النظم المتمردة في دول أميركا الوسطى الصغيرة باسم منع استيلاء السوفييت على العالم الجديد .

وأدت بارانويا الحرب الباردة العسكرية إلى تعزيز المجمعات الصناعية العسكرية الهائلة في كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، وساعدت على الحفاظ على مستويات عالية من التوظيف من خلال تطبيق نوع من " المبادئ الكينزية" (*) في المجالات العسكرية، أي الإنفاق الحكومي الضخم على الذخيرة والجاهزية للحرب. كذلك أنعشت الحرب الباردة الوظائف في القوات المسلحة نفسها، وفي أجهزة إدارات التجسس والأنشطة السرية. ومعاهد البحوث العلمية والاستراتيجية في الجامعات التي أقيمت لخدمة آلة الحرب. وأهدرت كلتا الدولتين مواردهما الداخلية. وعملت على بتر الديمقراطية حيثما بدت مزعجة لهما في الخارج، وعلى دعم الانقلابات والتدخلات الدموية ضد كل من يقاوم خططهما، كما دمرت البيئات بمصانع إنتاج الأسلحة النووية دون رقابة تذكر. وأخذ مروجو البروباغندا الرسميون يبررون الجرائم والقهر اللذين ترتكبهما كل إمبراطورية بادعاء أنها أدت على الأقل إلى تجنب حرب نووية كارثية. وأحبطت أو احتوت النوايا الشريرة لدى الإمبراطورية الأخرى.

ولكن هل كان هناك خطر حقيقي؟ على الإطلاق؟ ففي عام ١٩٤٥ وفي الاجتماع الشهير في يالطا وتوقعا لاستسلام ألمانيا بعد شهور قليلة، قام روزفلت وستالين بتقسيم أوروبا إلى "غرب" ومناطق نفوذ روسية عند نهر الإلبى، واتفقا على الغنائم في شرق

(*) يشير المؤلف هنا إلى نظرية الاقتصادى البريطانى الشهير مينارد كينز. (المترجم)

آسيا بعد هزيمة اليابان. وعلى مدى السنوات الخمس والأربعين التالية لم يبد أى جانب أبدا أية رغبة جادة فى تخطى حدود اتفاقية يالطا. وعلى الرغم من عمليات جس النبض العسكرية فى برلين وكوريا، وقرار أميركا إقامة دولة منفصلة فى نصف ألمانيا الذى تحتله، والمنافسة الشرسة بين إدارات الاستخبارات لدى القوتين العظميتين، والحروب المريرة بالوكالة فى فيتنام وأفغانستان. ورغم اللحظة الوحيدة عام ١٩٦٢ عندما بدا أن حريقا نوويا على وشك الاندلاع، أصبحت الحرب الباردة. مثلها مثل أى شىء آخر، مبررا متبادلا مقبولا لبقاء العالم مقسما على نطاق واسع عند المواقع التى توقفت عندها الجيوش المنتصرة فى الحرب العالمية الثانية.

وقد طرح الصحفيان ديانا جونستون وبن كيرمر المسألة على هذا النحو: "إذا كان خطر حرب سوفيتية - أميركية لا وجود له فى الحقيقة على الإطلاق، عندئذ يمكن القول إن المهمة الأساسية للقوات الأميركية فى أوروبا كانت فى حقيقتها الإبقاء على ادعاء وجود الخطر السوفيتي. ومادامت القوات الأميركية على هذا الانتشار الواسع فى أوروبا الغربية وفى موقف الهجوم (أو الهجوم المضاد) على الاتحاد السوفيتي، فإن الاتحاد السوفيتي نفسه سيبقى فى موقف الهجوم (أو الهجوم المضاد) على القوات الأميركية فى أوروبا. لقد حافظت "المخاطر" السوفيتية والأميركية على بعضهما البعض و من ثم على سيطرتهم العسكرية المزدوجة على القارة الأوروبية" (٢٤). ولقيت هذه الأفكار تأييدا مذهلا بعد الحرب الباردة من مصدر غير عادى هو الرئيس جورج دبليو بوش ومستشارته للأمن القومى كوندوليزا رايس. وفى بيان بوش حول الأمن القومى الصادر فى ١٧ سبتمبر ٢٠٠٢، قال هو ورايس: "أنشاء الحرب الباردة، وخاصة فى أعقاب أزمة الصواريخ الكوبية (عام ١٩٦٢)، واجهنا أمرا واقعا بشكل عام هو عدو كاره للمخاطرة" و تلك كلمات لم تكن لتصدر عن البيت الأبيض قبل سقوط حائط برلين عام ١٩٨٩.

لقد استغل كل طرف الخطر المزعوم الذى وصف به الطرف الآخر لتبرير احتلالهما واستغلالهما لأراض أجنبية: ففى حالة الولايات المتحدة فى شرق آسيا كانت الحجة "خطر" الصين الشيوعية. وطبقت الولايات المتحدة نفس المبرر فى أميركا اللاتينية لتصف حكومة جواتيمالا المنتخبة ديموقراطيا عام ١٩٥٤، وحكومة كوبا الثورية عام ١٩٥٩. وحكومة ساندينستا فى نيكاراغوا عام ١٩٧٩، بأنها تمثل أخطارا شيوعية. واستخدمت هذه الحجة كغطاء لسلسلة طويلة الأمد من التدخلات الأميركية

والانقلابات ضد الحكومات اللاتينية الأميركية التي اعتبرتها عدوة لمصالح أميريكيا . وكان قيام وكالة المخابرات المركزية الأميركية بالإطاحة بحكومة جاكوبو أربنيز في جواتيمالا . و كارثة غزوها لخليج الخنازير في كوبا ، مجرد خطوة قصيرة نحو " قطع الدومينو المتهاوية " في شرق آسيا والتدخل المدمر في فييتنام .

وكان التأثير الأولي للحرب الباردة توفير المبرر لإحكام قبضة كل من القوتين العظميين على مناطق عديدة كانت قد دافعت عنها أو حررتها أثناء الحرب العالمية الثانية : السوفييت في وسط أوروبا ابتداء ، والأميركيون في إنجلترا وشمال الأطنطى وألمانيا الغربية وإيطاليا واليابان . وفي عام ١٩٥٣ - على سبيل المثال - أجبرت الحكومة الأميركية سرا جانبا من سكان جزيرة جرينلاند الأصليين على الانتقال من أراضيهم وأعطتهم إنذارا مدته أربعة أيام فقط وهددتهم بهدم منازلهم بالبلدوزرات بعدها . ويبلغ حجم هذه الجزيرة نحو ثلاثة أضعاف مساحة ولاية تكساس ، وكانت مستعمرة دانماركية منذ عام ١٧٢١ . وكان سبب الاستيلاء على تلك الأرض وإخلائها إجراء توسعات كبيرة في قاعدة ثول الجوية التي تحتل رقعة استراتيجية مساحتها ٢٢٤ , ٠٢٢ إيكرا (*). وتم تمويلها منذ الحرب العالمية الثانية على أنها " محطة أرصاد جوية " . والحقيقة أن قاعدة جرينلاند أصبحت في الحرب الباردة موقعا للتزود بالوقود بالنسبة للقاذفات المقرر أن تحلق عبر ممرات جوية إلى الاتحاد السوفييتي في حالة اندلاع حرب عالمية ثالثة (وقد اعتبرت موقعا خطيرا لخطة إدارة بوش الدفاعية للصواريخ الباليستية)^(٢٥) . وبعد أكثر من خمسين عاما لم يبد سلاح الجو أية بادرة لمغادرة القاعدة رغم الاحتجاجات العديدة للإسكيمو الأميركيين في الجزيرة . والقضايا الكثيرة التي رفعت أمام المحكمة العليا في الدانمارك ، ذلك أن القوات المسلحة تحجم تماما عن إخلاء أية قاعدة بمجرد أن تستولى عليها وبدلا من ذلك تبتكر لها أغراضا جديدة . ومثال ذلك أن الوجود الأميركي في أوكيناوا كان يُبرر في البداية بحجة الحاجة إلى غزو الجزر اليابانية الأساسية (الذي لم تصبح له ضرورة بعد استخدام القنابل النووية واستسلام اليابان) ، ثم بحجة استخدام أرض آمنة لشن الحرب في كوريا . ثم باعتبارها قاعدة متقدمة لنشر القوات ضد الصين ، وبعد ذلك باستخدامها قاعدة للقاذفات من طراز بي - ٥٢ ومنطقة حشد عسكري من أجل حرب فييتنام ، ومنطقة تدريب لحرب الغابات ،

(*) الإيكرا مساحة من الأرض قدرها أربعة آلاف متر مربع (المترجم).

وأخيرا جدا قاعدة رئيسية للقوات والطائرات التي قد تستخدم فى مكان آخر فى آسيا أو الشرق الأوسط. وقد كتب باتريك لويد هاتشر المؤرخ والكولونيل المعتزل فى الجيش الأمريكى، يقول : " إن للعقارات الأجنبية جاذبية بالنسبة لوضعى خطط الدفاع الأمريكيين مثل الجاذبية التى يشعر بها الأدميرالات إزاء حاملات الطائرات من طراز نيميتز ، والتى يشعر بها أيضا الجنرالات إزاء طائرات ستليث بى - ٢ ودبابات إبرامز ... وجميع هؤلاء العسكريين لا يشبعون أبدا " (٢٦).

وبإيجاز فإن إمبريالية القوى العظمى خلال الحرب الباردة تركزت على نشر القوات العسكرية فى دول شعوب أخرى. وقد أخذت شكلا خاصا بإنشاء قواعد عسكرية أجنبية وتبنى دولاً تابعة طيّعة تدور فى فلك كل قوة عظمى ومجال نفوذها .

ومع أن المواقع العسكرية الأمريكية فى بلاد أجنبية تختلف من حيث هيكلها وقانونيتها ومفهومها عن المستعمرات، إلا أنها بذاتها شئ يشبه مستعمرات مصفرة من حيث إنها لا تخضع إطلاقا للسلطة القانونية للدولة الخاضعة للاحتلال، إذ تقوم الولايات المتحدة فى الواقع بإبرام ما يسمى " اتفاقية الحالة القانونية للقوات " مع الدولة " المضيفة " المستقلة ظاهريا . وهذا الأمر هو تراث حديث من القرن التاسع عشر يعود إلى الممارسة الإمبريالية فى الصين لما يسمى الحصانة الدولية أى حق الأجنبى المتهم بارتكاب جريمة ما فى تسليمه لمحاكمته على أيدي الممثلين الدبلوماسيين لوطنه ووفقا لقوانين بلده لا أمام المحاكم الصينية وقوانينها. وقد انتزع هذا المبدأ من الصينيين تحت تهديد السلاح فضلا عن ادعاء الأجانب أن القانون الصينى بربرى ولا ينبغى إخضاع " البيض " له. والحقيقة هى أن القانون الصينى كان أكثر اهتماما بالنتائج الاجتماعية الناشئة عن الجريمة منه بالنسبة لإثبات الإدانة الفردية أو براءة المجرمين وخاصة أولئك الذين فرضوا حضورهم فى الصين دون رغبة أهلها. وبعد حرب الأفيون الأنجلو - صينية بين عامى ١٨٣٩-١٨٤٢ كانت الولايات المتحدة أول من طالب بالحصانة لمواطنيها، ثم طالبت جميع الدول الأوروبية الأخرى بنفس الحقوق مثل الأمريكيين. وباستثناء الألمان الذين فقدوا مستعمراتهم الصينية فى الحرب العالمية الأولى، ظل الأمريكيون والأوروبيون يعيشون فى ظل " الحصانة الدولية " إلى أن ألغاهها اليابانيون فى عام ١٩٤١، وأوقف تطبيقها على يد الكومينتانج بزعامة تشيانج كاي شيك فى عام ١٩٤٢ فى " الصين الحرة " .

وينتهي اثنان من الثقة في شؤون اتفاقيات الحالة القانونية للقوات هما ريتشل كورنويل وأندرو ويلز إلى أن "معظم تلك الاتفاقيات كتب بحيث لا تستطيع المحاكم الوطنية تطبيق السلطة القانونية على أفراد القوات المسلحة الأميركية الذين يرتكبون جرائم ضد السكان المحليين إلا في حالات خاصة توافق فيها السلطات العسكرية الأميركية على نقل السلطة القانونية^(٢٧). ولما كان العسكريون العاملون يتمتعون بالإعفاء أيضا من مراقبات الجوازات والهجرة المعتادة، يصبح لديهم الخيار في أن يسمحوا بالسفر جوا لشخص متهم بالاغتصاب أو بالقتل وخروجه من البلاد قبل أن تستطيع السلطات المحلية تقديمه للمحاكمة. وهي حيلة ابتدعها ضباط القيادة في قواعد المحيط الهادئ وكانوا يلجأون إليها مرارا وتكرارا. وفي الوقت الذي وقعت فيه الهجمات الإرهابية في نيويورك وواشنطن في سبتمبر عام ٢٠٠١، أقرت الولايات المتحدة علنا بوجود اتفاقيات الحالة القانونية للقوات مع ثلاث وتسعين دولة على الرغم من أن بعض هذه الاتفاقيات مشينة جدا للدول المضيفة إلى درجة أنها احتفظت بسريتها وخاصة في العالم الإسلامي، ومن ثم فإن عددها الحقيقي لم يعرف علنا^(٢٨).

ولا تخضع القواعد العسكرية الأميركية فيما وراء البحار لرقابة بعض مكاتب المستعمرات أو وزارة الخارجية، بل هي تخضع لوزارة الدفاع، ووكالة الاستخبارات المركزية، ووكالة الأمن القومي، ووكالة استخبارات الدفاع، وحشد من دوائر رسمية أخرى في الدولة و إن ظلت سرية أحيانا. وهذه الوكالات تقوم بإنشاء القواعد وإمدادها بالموظفين والإشراف عليها، وهي تقع في مواقع على أراض أجنبية ومحصنة بالسياج وتخضع لوسائل الدفاع عنها، ويتم بناؤها في الغالب لتحاكي الحياة في أميركا. ولما كان بعض أعضاء القوات المسلحة في الخارج لا ترافقهم عائلاتهم أو لا يريدون ذلك - باستثناء الدول الإسلامية - فإن هذه القواعد تؤدي في العادة إلى اجتذاب صفوف من الحانات والمواخير. والعناصر الإجرامية التي تديرها، بالقرب من البوابات الرئيسية لهذه القواعد. ولا مناص من أن وجود هذه القواعد ينتهك ويشوه ويخرب أية مؤسسات قد توجد لدى حكومة ديموقراطية في المجتمع المضيف للقواعد. كما أن جلب عدة آلاف من الشباب الأميركي الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشر والرابعة والعشرين من العمر، إلى ثقافات غريبة عليهم ويجعلونها تماما، يعتبر طريقة لنشر سلسلة لا تنتهي من " الحوادث " لتصبح كالوباء الذي يصيب الدول التي وافقت على استضافة تلك القواعد. ويتعلم السفراء الأميركيون بسرعة مراسم زيارة وزارات خارجية تلك

الدول لتقديم الاعتذارات عن سلوك جنودنا. ويشعر السكان المحليون بالإرهاق والملل من الاعتداءات الجنسية والسائقين المخمورين من الأجانب حتى في الدول وثيقة التحالف مع أميركا والناطقة باللغة الإنجليزية. وأثناء الحرب العالمية الثانية كان البريطانيون يسخرون من جنودنا ويصفونهم بأنهم : " ذوو رواتب مفرطة، وذوو ميول جنسية مفرطة، وذوو وجود مفرط هنا " ولاشئ قد تغير!!

وقبل أن نقوم بجولة في هذه القواعد لننتفد كيف نمت وانتشرت، نحتاج إلى دراسة الفكر العسكري المعاصر في الولايات المتحدة وجنوره. إن القواعد تدعم القوات المسلحة وهي مناطق نفوذها، ولكن تلك القوات ونموها أثناء وبعد الحرب الباردة، هي نفسها التي تسببت في تحويل هذه القواعد الحاسم من كونها مناطق حشد لمواجهة صراعات مسلحة متعددة إلى حصون دائمة لحراسة إمبراطورية.

وفي الزمن الذي عسكر فيه قيصر في رافينا وأخذ يفكر في التقدم جنوبا عبر نهر روبيكون مخالفا بذلك أوامر مجلس الشيوخ الروماني حدث شيء بدا وكأنه حملة على التصرف رغما عنه. ووفقا للمؤرخ وكاتب السيرة سويتونيوس فإن الرعاية والجنود أغرتهم أصوات عازفي المزامير فاندفعوا إلى ضفة النهر. وكان من بينهم بعض عازفي الأبواق، فقام واحد منهم لأسباب غامضة بعزف لحن التقدم الذي فهمته القوات على أنه إشارة للتقدم بجسارة إلى الجانب الآخر من النهر. وقيل إن قيصر قال عندئذ : " فلنذهب إلى حيث تدعونا نذر الآلهة وجرائم أعدائنا ... لقد نفذ السهم ". وعلى نفس المنوال يبدو أن أصحاب النزعة العسكرية الأميركيين بعد الحرب الباردة قد نفذ سهمهم وأن الشعب الأميركي سار مغمض العينين لعبور نهرهم " الروبيكون " لكي يصبحوا إمبراطورية ذات تطلعات كونية(٢٩).

الفصل الثانى

جذور النزعة العسكرية الأميركية

- إن النمو المضطرب للمؤسسات العسكرية فى ظل أى شكل من أشكال الحكومة هو نذير شؤم للحرية، ويجب اعتبارها معادية للحرية الجمهورية بشكل خاص.

الرئيس جورج واشنطن

فى خطبة الوداع. ١٧ سبتمبر ١٧٩٠

- إن الارتباط بين مؤسسة عسكرية هائلة وصناعة أسلحة ضخمة أمر جديد فى التجربة الأميركية... وفى مجالس الحكومة علينا أن نحذر من امتلاك المجمع الصناعى نفوذا غير مصرح به سواء سعى إليه أو لم يسع. إن احتمال الصعود المدمر لقوة فى غير مكانها موجود ومثابر ويجب ألا نسمح أبدا لثقل هذه المجموعة المؤتلفة بأن يعرض للخطر حرياتنا وعملياتنا الديمقراطية. ونحن لا نسلم بشيء.

الرئيس دوايت أيزنهاور

فى خطبة الوداع. ١٧ يناير ١٩٦١

ظهرت الميول العسكرية الأولى فى الولايات المتحدة فى نهاية القرن التاسع عشر. وقبل إنشاء الحرب الإسبانية - الأميركية عام ١٨٩٨ سخرت الصحافة لإشعال حمى حرب شعبية بينما أخفّت عن المشهد العام الأعمال الوحشية والجرائم التى ارتكبتها القوات الأميركية فى جزر الفلبين. ونتيجة للحرب تملكّت الولايات المتحدة أولى ممتلكاتها الاستعمارية وألفت أول هيئة أركان عامة عسكرية. فى تلك الفترة استوحت النزعة القومية المتطرفة الناشئة عن الشعور بالتفاخر والشوفينية العدوانية، وجودها من ميول مماثلة، فى إنجلترا الإمبريالية. وحتى عبارة " النزعة القومية المتطرفة " استخرجت من أغنية وطنية بريطانية عام ١٨٧٨ واستخدمها أولئك الذين أيدوا إرسال الأسطول البريطانى إلى المياه التركية لمواجهة تقدم روسيا.

وفى عشية يوم ١٥ فبراير ١٨٩٨، وفى ميناء هافانا الذى كان جزءا من مستعمرة كوبا الإسبانية، وقع انفجار غامض دمر وأغرق البارجة الأميركية المسماة يو.إس.إس مين. وأدى الانفجار إلى مصرع ٢٦٢ من بين طاقمها البالغ ٣٧٤ فردا. وكانت البارجة قد وصلت إلى هافانا منذ ثلاثة أسابيع كجزء من مهمة " ودية " لإنقاذ بعض الأميركيين الذين كانوا قد لحقوا بحركة تمرد كوبية جارية ضد الحكم الإشباني. أما مهمات البارجة غير المعلنة فكانت ممارسة " دبلوماسية البوارج " ضد إسبانيا لصالح الثوار الكوبيين وفرض مبدأ مونرو بتحذير قوى أوروبية أخرى مثل ألمانيا من استغلال الموقف غير المستقر. وانتهت تحقيقات البحرية الرسمية إلى وقوع انفجار خارجى، ربما كان بسبب لغم أدى إلى إشعال النار فى مستودعات الذخيرة، وذلك رغم أن الإشبان أصرّوا على أنهم لم يكن لهم دخل فى إغراق البارجة. ولكن محللين من بينهم الأدميرال هايمان ريكوفر، ذكروا فيما بعد أن السبب ربما كان يعود إلى حريق تلقائى اشتعل فى مخزن للفحم وتسبب فى انفجار طارئ.^(١) ورغم أن السلاح البحرى انتشل

البارجة ثم أغرقها بعد ذلك فى عام ١٩١١ وظل ما حدث عام ١٨٩٨ لغزا غامضا حتى اليوم، ولكن لم يكن هناك لغز حول رد الفعل فى الولايات المتحدة. وعلى الفور أعلن نائب وزير البحرية تيودور روزفلت أن إغراق البارجة " عمل قذر من أعمال الغدر (الإسباني) ". وأخبر السفير الفرنسى لدى واشنطن حكومته بأن " ثورة غضب جامع استولت على الشعب الأمريكى " (٢) ونشر ويليام راندولف هيرست فى صحيفة نيويورك جورنال رسوما تبين كيف قام مخربون إسبان بتعليق لغم فى جسم البارجة مين وتفجيرها من الشاطئ ، ثم قام هيرست بعد ذلك بإرسال الفنان فريدريك ريمنجتون إلى كوبا لكى يتابع أخبار التمرد الكوبى ضد القهر الإسبانى. وما لبث ريمنجتون أن أرسل إلى رئيسه يقول له : " لا وجود لحرب .. أرجو إبطال طلبكم " ، ورد عليه هيرست ردا لقى شهرة بعد ذلك يقول فيه : " أرجو البقاء ... أنت تزودنا بالصورة وأنا أرسم الحرب " (٣) وهذا ما فعله الاثنان فعلا. ويفضل عمل هيرست الصحفى وجهود جوزيف بوليتزر فى صحيفة نيويورك وورلد انفجرت البلاد فى نوبة غضب وهياج وطنى برىء.. وفى ٢٥ أبريل ١٨٩٨ أعلن الكونجرس الحرب على إسبانيا. وفى اليوم الأول من شهر مايو اضطر سرب الطائرات الآسيوى على متن الحاملة أدميرال جورج ديوى إلى مغادرة مستعمرة هونج كونج البريطانية بسبب إعلان الحرب، وقام السرب بمهاجمة الأسطول الإسبانى فى خليج مانىلا محققا نصرا سهلا. وتمكن الأمريكيون من احتلال مانىلا بمساعدة وطنية فلبينية، وبدأوا فى التفكير فيما يفعلونه ببقية جزر الفلبين. وأعلن الرئيس ويليام ماكينلى أن " الفلبين جاءت إلينا هدية من الآلهة " رغم أنه أقر بأنه لا يعرف شيئا على وجه الدقة عن مكانها(٤).

وخلال صيف عام ١٨٩٨ ترك دوايت أيزنهاور الحكومة وتوجه إلى كوبا مع فوجه العسكرية الخاص المكون من رعاة بقر ومواطنين أميركيين أصليين وأعضاء من لاعبي البولو من طبقة خريجى هارفارد عام ١٨٨٠. وكان يطلق على رجال روزفلت اسم فرسان روكى ماونتن (وقد اشتهروا فى الصحف باسم "الفرسان الشرسون") غير أن القسم الأعظم منهم مات بالمalaria والديزنتاريا على الجزيرة، ولكن مناوشاتهم للإسبان فى منطقة سان خوان هيل شرق سانتياجو عادت على قائدهم بترشيحه لنيل وسام الشرف من الكونجرس ودفعت به إلى أرفع منصب سياسى منتخب. وعاد السلام بمعاهدة باريس التى وقّعت فى يوم ١٠ ديسمبر ١٨٩٨، والتى أطلقت الولايات المتحدة إلى دور لا يتخيله أحد فى ذلك الحين كقوة إمبريالية واضحة فى البحر الكارىبى

والمحيط الهادئ. وقد منحت المعاهدة الاستقلال لكوبا غير أن تعديل بلات الذى وافق عليه الكونجرس الأمريكى عام ١٩٠١ جعلها تابعة للولايات المتحدة بينما أدى إلى إنشاء قاعدة بحرية أميركية فى خليج جوانتانامو. وكان السيناتور أورفيل بلات قد أرفق تعديلا بمشروع قانون اعتمادات الجيش يحدد شروط تدخل الولايات المتحدة فى الشؤون الداخلية الكوبية. وطالب التعديل كوبا بألا توقع أية معاهدات قد تؤدي إلى المساس بسيادتها، أو تتعاقد على أية ديون لا تستطيع سدادها من مواردها العادية. وإضافة إلى ذلك أجبرت كوبا على منح الولايات المتحدة امتيازات خاصة تعطيتها حق التدخل فى أى وقت للحفاظ على استقلال كوبا أو لدعم حكومة " ملائمة لحماية الحياة والممتلكات والحرية الفردية " على أن يقوم جنود البحرية الأميركية بالنزول إلى البر لممارسة هذه الحقوق التى أعلنتها الولايات المتحدة من جانبها وذلك فى الأعوام ١٩٠٦ و ١٩١٢ و ١٩١٧ و ١٩٢٠. وفى عام ١٩٠١ أجبرت الولايات المتحدة كوبا على ضم تعديل بلات إلى دستورها وظل معمولا به حتى عام ١٩٣٤. وقد تضمن الدستور مادة تسمح للولايات المتحدة بإقامة قاعدة فى جوانتانامو إلى أن " يوافق " الطرفان على إعادتها، وهو شرط أصرت عليه الحكومة الأميركية بحجة أن القاعدة عامل حاسم للدفاع عن قناة بنما. وقد اعتبر تعديل بلات إذلالا مهينا لجميع الكوبيين، ولكن قبوله كان الوسيلة الوحيدة لتحاشى احتلال عسكري دائم.

وعلى الرغم من أن منطقة القناة لم تعد ملكا للأميركيين. فإن خليج جوانتانامو ظل مستعمرة أميركية تُستخدم الآن معسكرا لاحتجاز أولئك الذين اعتقلوا فى الحرب الأميركية - الأفغانية ٢٠٠١-٢٠٠٢ وحرب العراق ٢٠٠٣. (ونظرا لأن جوانتانامو تقع خارج الولايات المتحدة فقد اعتبر هؤلاء السجناء غير خاضعين لحماية القوانين الأميركية، ولما كانت حكومة بوش قد أطلقت عليهم عبارة " محاربون غير شرعيين "، التى لا وجود لها فى القانون الدولى. اعتبروا كذلك غير خاضعين لاتفاقيات جنيف، بشأن معاملة أسرى الحرب. وفى التاسع من أكتوبر ٢٠٠٢ فصلت الحكومة الأميركية قائد جوانتانامو الجنرال ريك باكوس لأنه كان " رقيقا جدا " فى التعامل مع نزلاء السجن). ولم تقم الولايات المتحدة بضم كوبا مباشرة عام ١٨٩٨ بسبب تظاهرها بأنها أمة معادية للإمبريالية. ورغبتها فى تفادى عبء دين كوى يبلغ ٤٠٠ مليون دولار. بالإضافة إلى عدد كبير من سكان كوبا الأفرو - أميركيين؛ ومخاوف ولاية فلوريدا من منافسة كوبا لها فى الزراعة والسياحة إذا اعتبرت جزءا من البلاد^(٥).

كذلك أخضعت معاهدة باريس الأراضي الإسبانية في بورتوريكو وجوام للسيادة الأمريكية حيث بقى الأمر على هذا الحال حتى اليوم^(١). والأهم من ذلك أن المعاهدة منحت الولايات المتحدة أرخبيل الفلبين بأكمله مقابل دفع مجرد ٢٠ مليون دولار لإسبانيا. ويضم الأرخبيل ٣١٤١ جزيرة تقع بالقرب من ساحل الصين وفيتنام، وعلى بعد نحو ٧٩٥٢ ميلا من لوس أنجليس، ولكن أقل من ٢٠٠٠ ميل من طوكيو. وكان المبلغ المدفوع، على تواضعه، مهما للقادة الأمريكيين كبرهان على أنهم ليسوا "مغتصبى أراض" كما كان بعض النقاد يتهمونهم ويشبهونهم بقوى إمبريالية جديدة أخرى في ذلك الوقت وهى ألمانيا وروسيا وإيطاليا وبلجيكا واليابان ناهيك عن الدول الإمبريالية القديمة بريطانيا وفرنسا وإسبانيا وهولندا. ولم يبد الفلبينيون أنفسهم اهتماما بأن يكونوا "مستوعبين بالهبات" كما كان الرئيس ماكينلى يصفهم وثاروا ضد سادتهم الأمريكيين الجدد تحت قيادة الوطنى القومى إيميلو أجوينالدو الذى كان قد ساعد الأدميرال ديوى فى انتزاع مانيلا من الإسبان. ورغم قيام الجنود الأمريكيين باعتقال أجوينالدو عام ١٩٠١ وإجباره على أداء قسم الولاء للولايات المتحدة فإن القتال استمر حتى عام ١٩٠٣. وبينما كلفت معارك الحرب الإسبانية - الأمريكية الأمريكيين ٣٨٥ قتيلا (يسمىها الكوبيون الحرب الإسبانية - الكوبية - الأمريكية) نجد أن عدد قتلى العسكريين الأمريكيين فى معارك إخماد الثورة الفلبينية بلغ نحو ٤٢٣٤ قتيلا. وعمد الجيش الأمريكى - بضباطه الذين اكتسبوا خبرتهم من الحروب الهندية - إلى ذبح مانتى ألف فلبينى على الأقل من بين عدد السكان البالغ أقل من ثمانية ملايين نسمة. وأثناء الحرب العالمية الثانية تعاون أجوينالدو مع غزاة الجزر اليابانيين فى محاولة ثانية فاشلة للخلاص من الحكم الإمبريالى القائم بمساعدة من قوة إمبريالية منافسة.

وبممارسة ما يسميه المؤرخ ستيفارت كريتون ميلر "الشعور المبالغ فيه بالبراءة"، صورت الولايات المتحدة احتلالها الوحشى للفلبين بأنه قدر مقدس، وأمر عنصرى محتوم، وشأن اقتصادى لا مفر منه^(٢). وكان لهذه الأفكار تأثير قوى على اليابانيين الذين كانوا يحاولون قيادة حركة بعث آسيوية مناهضة للغرب، فضلا عن انضمامهم

(١) خلال الفترة من عام ١٨٩٤ حتى ١٨٩٨، دبرت الولايات المتحدة أيضاً انقلابا ضد ملكة هاواى "ليلى" أوكلانى، وقامت بضم جزرها. وفى عام ١٩٠٣ أشعل تيودور روزفلت، الرئيس الأمريكى آنذاك، ثورة برزخ بنما لكى يفصله عن كولومبيا ويستولى عليه من أجل قناة بنما التى تعتبر مسألة استراتيجية مركزية فى التخطيط الإمبريالى. (المؤلف).

إلى الإمبرياليين فى استغلال الدول الأضعف فى شرق آسيا. وكان لابد فى نهاية الأمر من أن تؤدى محاكاتهم لدول "متقدمة" أخرى فى سلوك الطريق الإمبريالى، إلى حرب مع الولايات المتحدة.

وكان أحد أبرز الإمبرياليين الأميركيين فى زمانه هو السيناتور ألبرت بفريدج عن ولاية إنديانا. وكان يتفاخر بالجهر بقوله : " جزر الفلبين ملكنا إلى الأبد ... وهناك وراء الجزر أسواق الصين اللامتناهية ... والمحيط الهادئ ملكنا " وكانت عبارة : " جزر الفلبين هى درجات السلم للعبور إلى الصين " هى الحجة الدائمة فى مناقشات الكونجرس لموضوع ضم الجزر. وكان بفريدج يؤمن بأن واجب أميركا نقل المسيحية والتحضر إلى " الشعوب الهمجية والشائخة " بغض النظر عن أن معظم الفلبينيين يعتنقون المذهب الكاثوليكي منذ قرون.(٧) وحتى المعارضون للضم مثل السيناتور بنجامين تيلمان كانوا يرون أن من السخف الحديث عن تعليم الحكم الذاتى لشعب " غير صالح عنصرى لحكم نفسه "(٨) وفى الوقت الذى كان تيلمان يردد كلامه هذا كانت جمعية " تامانى هول "(*) فى نيويورك تمثل أقوى قوة سياسية فى الولايات المتحدة، ولم تكن بالضبط نموذجا للحكم الذاتى المستدير. وكان الرئيس ماكينلى يسمى الفلبينيين " إخوته السمر الصغار " بينما كان الجنود فى الميدان يتغنون بنشيد صغير يقول: " قد يكونون إخوة لماكينلى، ولكن من المؤكد أنهم ليسوا إخوة لنا " والمفارقة المؤكدة أن مثل هذه التوجهات التى سادت بين مختلف الجماعات ساهمت فى بروز شعور يابانى بالتفوق العنصرى وإيمان متنام لدى اليابانيين " بمصير واضح " وقدر مقدس وهو تحرير آسيا من النفوذ الغربى.

إن الحرب الإسبانية - الأمريكية لم تؤد إلى عهد نزعة إمبريالية أميركية فحسب بل وضعت الولايات المتحدة أيضا على طريق النزعة العسكرية. وظل الفكر السياسى الأمريكى التقليدى يرى ألا ضرورة للاحتفاظ بجيوش عاملة كبيرة مادامت الولايات المتحدة مصرة على تجنب خوض حروب أجنبية أو أى تهديد للحرية، لأن النظام العسكرى والقيم العسكرية يتعارضان مع انفتاح الحياة المدنية(٩). وفى خطبة الوداع الشهيرة فى ١٧ سبتمبر ١٧٩٦ قال جورج واشنطن لمواطنيه الأميركيين " إن مدونة سلوكنا بالنسبة للدول الأجنبية فى توسيع علاقاتنا التجارية هى أن نقيم معها أقل ما

(*) تامانى هول هو الاسم الشعبى للألة السياسية الديمقراطية فى مانهاتان. وقد أنشئت عام ١٧٩٨ كقوة سياسية مناهضة للقيصرية آنذاك (المترجم).

يمكن من الروابط السياسية ^(١٠) . ويبدو هذا البيان على درجة عالية من المثالية بالنسبة لمن يستمعون إليه في القرن الحادى والعشرين. ولو كان هذا الكلام ملائما لدولة جديدة ولا قوة لها، فمن المؤكد أنه بلا جدوى بالنسبة للقوة الأعظم الوحيدة فى العالم. وما زال اسم واشنطن مقدسا فى الولايات المتحدة، ولكن صرف النظر عن محتوى نصيحته باعتبارها نزعة "انعزالية".

ومع ذلك كان لدى جورج واشنطن شىء محدد فى ذهنه، فقد كان يخشى أن تقيم الولايات المتحدة دولة أجهزة، مثل دول أوروبا الأوتوقراطية، تستطيع إزاحة النظام الدستورى. وهذا سيؤدى حتما إلى زيادة الضرائب الفيدرالية للإئفاق على جيوش الدولة ودوائرها البيروقراطية. وإلى انتقال السلطة السياسية من الولايات المكونة للاتحاد إلى الحكومة الفيدرالية، والانتقال داخل الحكومة الفيدرالية من تفوق الكونجرس إلى تفوق الرئيس مما سينتج عنه ما توصلنا إلى تسميته "الرئاسة الإمبراطورية". وكانت الحروب الأجنبية هى السبيل المؤكد إلى هذه النتائج غير المرغوب فيها فى ذهن واشنطن. وقد كتب جيمس ماديسون المؤلف الأصلى للدستور: "من بين جميع أعداء الحرية العامة تعتبر الحرب أبغضهم لأنها تتضمن وتتمى جرثومة كل عدو آخر. والحرب هى أصل الجيوش. ومنها تنجم الديون والضرائب. والجيوش والديون والضرائب هى الأدوات المعروفة لإخضاع الكثيرين لسيطرة القلائل" ^(١١). وقد اتهم إعلان الاستقلال ملك إنجلترا "بالتأثير على التفريط فى استقلال الجيش ومنح الأفضلية للسلطة المدنية". كذلك أدان أول مؤتمر للحكم الذاتى اسمه "الكونتنتال كونجرس" (*) استخدام الجيش فى تنفيذ جباية الضرائب. وقد استمرت هذه المواقف لنحو قرن من الزمان. ومع نشوب الحرب الإسبانية - الأمريكية بدأت الحكومة فى بناء آلة عسكرية - وإباحة النزعة العسكرية التى رافقتها - حتى أنها أصبحت لا تقهر بحلول نهاية القرن العشرين.

وخلال صيف عام ١٨٩٨ كانت القوات الحربية الأمريكية قد تجمعت فى تامبا بولاية فلوريدا لبدء هجومها على سانتياجو فى كوبا. ولم تكن هناك أية سلطة عسكرية أو سياسية فى موقع المسؤولية، وساد الضياع والاضطراب والمرض. والحقيقة أن تيودور

(*) هذا الكونجرس كان يمثل مجلسى مبعوثى المستعمرات (الولايات المتحدة فيما بعد) اللذين حكما أميركا من عام ١٧٧٤ حتى عام ١٧٨٩. وقد عقد فى فيلادلفيا فى أكتوبر ١٧٧٤ وحضره ممثلون عن المستعمرات التى ثارت ضد الاحتلال البريطانى و طالبت بالاستقلال (المترجم).

روزفلت استغل تلك الفوضى في تشكيل قوة " الفرسان الشرسون ". وفي عام ١٨٩٩ عين الرئيس ويليام ماكينلي إيليهو روت وزيرا للدفاع. وفي عام ١٩٠٣ قدم الوزير مساهمة فعالة للنزعة العسكرية الأميركية بإنشاء " هيئة الأركان العامة " من كبار ضباط القوات المسلحة بحيث تخضع له مباشرة، وكلفها بتخطيط وتنسيق الحروب المقبلة. ومن حين لآخر كان روت يشير إلى الاضطرابات في تامبا في عام ١٨٩٨ كدليل على الحاجة إلى مثل هذه المؤسسة. وكان يردد ذلك في شهادته أمام الكونجرس وفي تقاريره السنوية كوزير للدفاع، ولكن هدفه الحقيقي كان أوسع بكثير، وكان أكثر شيء لازم أقواله ... حديثه عن " ظاهرة نجاح الجيوش الألمانية (البروسية) خلال السنوات الثلاثين الأخيرة، والذي يعود بدرجة كبيرة إلى هيئات الأركان التي لدى الجيش الألماني والتي جمعت ضباط الأركان العامة المدربين تدريباً عالياً ". وخلص إيليهو روت إلى القول إن " التجربة المشتركة بين البشر هي أن الأشياء التي كان على هيئات الأركان العامة تلك أن تفعلها، يجب فعلها في كل جيش حسن الإدارة والتوجيه. كما ينبغي فعلها على أيدي جماعة من الرجال المكلفين بها على وجه الخصوص. ويجب أن تكون لدينا مثل هذه الجماعة المنتقاة والمنظمة وفقا لأسلوبنا ونظامنا الخاص لكي تقوم بهذه الأشياء الجوهرية " (١٢).

وفي يوم ١٤ فبراير ١٩٠٣ وافق الكونجرس على تشريع أنشأ الهيئة التي تعتبر السلف لهيئة الأركان المشتركة في الوقت الحاضر. ومن غير المحتمل أن يكون روت قد تصور أن مساهمته المتواضعة في تعزيز الكفاءة العسكرية سوف تثمر بعد قرن آلاف الضباط العسكريين الذين يقومون بمهام شاقة في البنتاجون تتصل بقضايا الأسلحة والتخطيط الاستراتيجي، وبناء القوة، ويرمز العسكريون إلى هذه القضايا برطانة لغتهم ب ١ SR ٤١ C (أي القيادة والرقابة والاتصالات وأجهزة الكمبيوتر والاستخبارات والمسح والاستطلاع). وإذا عدنا إلى عام ١٩٠٣ نجد أن روت قام، بعد أسبوع واحد من إنشاء هيئة الأركان العامة، بإنشاء معهد مكمل للنزعة التسلط العسكرية وأطلق عليه اسم كلية الحرب التابعة للجيش وكان موقعها في البداية في واشنطن ثم نقلت بعد ذلك إلى كارلسل في بنسلفانيا. وفي خطابه عند إرساء الحجر الأساسي للكلية الأصلية، أصر روت على القول إنه " ليس غريبا أن يرتفع على شاطئ نهر البوتوماك الجميل. وعلى أرض مولعة بالسلام، بناء مكرس لتعزيز كفاءة جيش لخوض الحروب. لقد أصبح العالم أكثر نزوعا للسلام، وتعرض الحرب لمزيد من الإدانة على مر السنين. ورغم ذلك

لم تختف الأنانية والجشع والغيرة والرغبة فى العظمة من خلال الظلم. ولا يحرز الإنسان تقدما إلا بخطوات بطيئة. ومادام الطمع والغيرة يعيشان بين الناس فإن على الأمة أن تكون مستعدة للدفاع عن حقوقها^(١٣). وبالإضافة إلى ذلك وكجزء من جهوده للتحديث، أدخل روت المعايير والمناهج الفيدرالية إلى ميليشيات الولايات نصف المستقلة وأعاد تسميتها بإطلاق اسم " الحرس الوطنى " عليها.

وقد يكون روت مصيبا فى رؤيته أن الولايات المتحدة، وقد أقامت القواعد الصناعية للقوة العسكرية، أصبحت فى حاجة إلى الالتفات إلى توازن القوة العالمى وتعديل مؤسساتها بناء على ذلك. ولكن ليس هناك شك فيما فقدناه بذلك العمل. وقد تكون تحذيرات جورج واشنطن من مخاطر وجود مؤسسة عسكرية ضخمة ودائمة على الحرية الأميركية. قد ظلت تلقى تبيحلا أكبر واهتماما أقل على مر السنين بينما حملت الحكومة على الدوام أوجه تشابه أكثر غموضا مع النظام السياسى الذى رسمه دستور ١٧٨٧. وفى عام ١٩١٢ انتُخب وودرو ويلسون رئيسا عن الحزب الديمقراطى. ومعروف أن ويلسون كان آنذاك حاكما لولاية نيوجرسى ورئيسا سابقا لجامعة برنستون والعالم السياسى المرموق وصاحب كتاب "الحكومة البرلمانية" وهو واحد من الكلاسيكيات الأصلية القليلة التى تناولت النظام السياسى الأمريكى. وقد استفاد إلى حد كبير من انشقاق الحزب الجمهورى الذى نشأ عن محاولة الرئيس السابق تيودور روزفلت العودة إلى المناورات السياسية. وباعتباره قائدا لأول إدارة ديمقراطية منذ عشرين عاما. صمم على الشروع فى إصلاح الفساد والمظالم التى رافقت العصر الأمريكى المذهب الخادع، فخفض التعريفات وفرض ضريبة الدخل بحكم التعديل السادس عشر، وابتكر نظام الاحتياط الفيدرالى لى يودى البنك المركزى مهامه. وسن قانونا فيدراليا بشأن تشغيل الأطفال، وفرض أول قانون للضرائب العقارية، وأدخل تغييرات جديدة عديدة نقلت السلطة السياسية فى الولايات المتحدة بلا رجعة إلى واشنطن ورئاسة الدولة .

ولكن كانت السياسة الخارجية هى المجال الذى قدم فيه أعظم إبداعاته سواء أصاب أو أخطأ. وقد بدأ ويلسون بالثورة المكسيكية التى اندلعت عام ١٩١٠ ولم يستطع مقاومة التدخل ودعم جانب دون الآخر. ولم يكن ذلك بالطبع أمرا جديدا من حكومة أمريكية لها مسبقا مستعمرات كاريبية. وكان ذلك وسيلته لتبرير التصرفات التى ميزته

عن الإمبرياليين الجمهوريين عند نهاية القرن، والتي صنعت منه فى النهاية القديس الشفيح " للحروب الصليبية " التى شكلت معالم السياسة الخارجية بدءا بالتدخل فى الحرب العالمية الأولى وحتى غزو العراق عام ٢٠٠٣. لقد كان وودرو ويلسون مثاليا ومبشرا مسيحيا فى السياسة الخارجية. ويهتم دائما بأن يفعل ما هو صالح أكثر من اهتمامه بأن يكون مؤثرا.

وكان ويلسون ابنا لكاهن الجيش المتحد والمقدم سنا فى الكنيسة المشيخية البروتستانتية والمرتل اليومى للكتاب المقدس. ويذكر آرثر س. لينك أحد كتاب سيرته أنه " لم يكن يفكر أبدا فى القضايا العامة ولا الخاصة إلا بعد أن يقرر أية عقيدة، وولع مسيحى يسود تلك الظروف ". (١٤) وكان ويلسون أيضا عنصريا ومتكلفا الاحتشام بحكم ولادته فى فيرجينيا، وشديد الإيمان بمكانة الولايات المتحدة الاستثنائية وقدرها فى جلب " السلام النهائى للعالم "، وسبب إيمانه هذا هو الشكل الجمهورى الأمريكى للحكومة، وأمنها خلف محيطين، وما اعتبره من الفضائل الفطرية لشعبها. ولم ير أنشطة أميركا الخارجية من منظورها الواقعى أو من زاوية استدامة توازن القوى العالمى، وكان يعتقد بدلا من ذلك أن السلام اعتمد على نشر الديمقراطية وأن الولايات المتحدة ملتزمة ببسط مبادئها وممارساتها الديمقراطية فى أنحاء العالم (١٥).

وقبل أن ينتهى من المكسيك أمر السلاح البحرى باحتلال فيراكروز فى أبريل ١٩١٤ مستفزا بذلك فرانثيسكو " بانشو " فيللا ليُغير فى ٩ مارس ١٩١٤ على كولومبوس فى نيومكسيكو، فأرسل الجنرال جون برشينج على رأس حملة فاشلة توغلت فى الأراضى المكسيكية لاعتقال فيللا. وكان ويلسون يعلن أنه يعتبر نفسه الوصى على المكسيك بشأن شكل حكومتها، وهو الدور الذى أفسد العلاقات المكسيكية - الأمريكية لعقود من الزمان. ولقد أمكن بالكاد تفادى الحرب مع المكسيك غير أن التدخل الجائر فى شؤون دولة جارة، والمموه بسحابة من الكلام المنمق عن المثل الليبرالية والدستورية الأمريكية الشمالية، لم ينطل على أحد. فقد استخدمت اليابان مرارا هذه السابقة مع خطبها الرنانة عن " التحرير " من الإمبريالية الغربية. لكى تبرر تدخلاتها المسلحة فى منشوريا والصين الثورية، التى كانت على أبواب اليابان. ولم تكن لدى الولايات المتحدة حجة مقنعة ترد بها غير أن تتجه فى النهاية إلى الحرب مع اليابان بسبب سلوك تعلمته اليابان من الولايات المتحدة.

ومع نشوب الحرب العالمية الأولى اتبع ويلسون نصيحة جورج واشنطن وظل محايدا. ولقى موقفه هذا شعبية واسعة وأعيد انتخابه عام ١٩١٦ تحت شعار يقول " لقد جنبنا الحرب ". ومنذ اندلاع الحرب أسفر الرئيس السابق تيودور روزفلت وإليهو روت (السيناتور آنذاك) عن انتقادات صريحة لإصرار ويلسون على اتخاذ موقف الحياد. وعلى أى حال عندما قاد ويلسون البلاد فى النهاية إلى الحرب عام ١٩١٧ تحول إلى إمبريالى كلاسيكى على نفس شاكلة رجال عام ١٨٩٨. وكان فى حقيقة الأمر، وعلى وجه التحديد، النمط الذى حذر منه الرئيس جورج واشنطن. أما روزفلت ورفاقه فقد دافعوا عن نزعة إمبريالية أميركية على منوال السوابق البريطانية التى سعى أصحابها إلى السلطة والمجد لأنفسهم عن طريق الغزو العسكرى والاستغلال الكولونىالى. من جانب آخر قدم ويلسون تعاليم مثالية أساسية للإمبريالية الأميركية أصبحت تسمى فى زماننا " بالمهمة العولمية لدمقرطة العالم ". كما أنه - أكثر من أى شخصية أخرى - أرسى الأسس الفكرية لنزوع السياسة الخارجية إلى التدخل المغلفة بالعبارات الإنسانية والديموقراطية المنمقة ويظل ويلسون الأب الروحى لأولئك الأيديولوجيين المعاصرين الذين يبررون القوة الأميركية الإمبريالية بحجة تصدير الديمقراطية.

لقد تغيرت المواقف الشعبية من ألمانيا ببطء لتعكس المشاعر العامة الكامنة المؤيدة للبريطانيين وتأثير الدعاية الأنجلو أميركية التى صورت حرب الغواصات الألمانية ضد سفن الشحن الإنجليزية بأنها " غير متحضرة ". وبلغت المسألة أوجها فى يوم ٧ مايو ١٩١٥ عندما فجر غواصة ألمانية طوربيدا فى سفينة الركاب المسماة " لوسيتانيا " المملوكة لشركة كونراد لاينز البريطانية قبالة الساحل الأيرلندى، مما أدى إلى مصرع ١٢٨ أميريكيا وعدة مئات من مواطنى دول أخرى. وزعم الألمان أن السفينة كانت تقل جنودا كنديين. ولم يكن ذلك صحيحا من الناحية الفنية (لم يكن الرجال قد ألحقوا بعد بالجيش الكندى)، كما زعموا أن قبطان السفينة أخفق متعمدا فى اتخاذ خط متعرج كما تنص قواعد الأدميرالية البحرية البريطانية. وزعم الإمبراطور الألمانى أن القبطان بعمله هذا عرض سفينته للفرق لكى يلهب مشاعر الرأى العام الأمريكى ضد ألمانيا. وكان البريطانيون يقومون بحصار فعال مماثل للموانئ الألمانية. ولكنهم كانوا يهدفون إلى اعتراض السفن المهاجمة ونقل الركاب والطواقم قبل تعرضهم للفرق. من جهة أخرى لم يوجه زورق الطوربيد الألمانى إنذارا للسفينة لوسيتانيا. وكان ويليام جننجز بريان وزير خارجية ويلسون مناهضا للحرب وللإمبريالية. وميالا إلى مسالة ألمانيا

لتجنب الحرب، فقدم استقالته يوم ٩ يونيو ١٩١٥ وعين ويلسون مكانه روبرت لانسينج الدبلوماسي المحترف وأحد دعاة الدخول في الحرب على الجانب الأنجلو - الفرنسي - الروسي. واستمر ويلسون في التفاوض مع الألمان نحو سنتين محاولا الحصول على تعهد بعدم مهاجمة سفن الركاب، وبدلا من ذلك أعلن الألمان في ١٢ يناير ١٩١٧ سياسة شن حرب غواصات غير محدودة ضد جميع السفن المتجهة إلى الموانئ البريطانية سواء كانت محايدة أو معادية. وفي ٣ فبراير أعلن ويلسون قطع العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا. وكان كذلك منزعجا من توفر الدلائل على أن عملاء من الألمان عرضوا سرا مساعدة الثوار المكسيكيين ضد الولايات المتحدة. وفي رسالة الحرب التي وجهها وودرو ويلسون إلى الكونجرس في الثاني من أبريل ١٩١٧ أعلن أن العدوان الألماني يمثل خطرا لا يقتصر على الولايات المتحدة فحسب بل على الإنسانية نفسها " وأضاف قوله: " ألمانيا تشن الحرب ضد الجنس البشري وضد جميع الدول ". ولما كان غير مقتنع بأن هزيمة ألمانيا مبرر كاف لاشتراك الولايات المتحدة في الحرب، فقد أضاف أهدافا جديدة أكثر طموحا : " يجب جعل العالم آمنا من أجل الديمقراطية... وعلى أميركا أن تحارب من أجل حقوق وحرية الدول الصغيرة، ومن أجل دومينيون عالمي يدافع عن الحق. وبمثل هذه الرابطة من الشعوب الحرة سوف نجلب السلام والأمان لجميع الأمم. ونجعل العالم نفسه حرا في نهاية الأمر ". وقال ويلسون عن هذه الأهداف : " لقد كانت الأقرب إلى قلوبنا دائما " (١٦). وطلب في رسالته الموافقة على إعلان الحرب وحصل عليها بعد أربعة أيام. وعندما تبقى عام ونصف على نهاية الحرب، كان نحو ١٣٠٢٧٤ جنديا أميريكيا قد قتلوا في الجبهة الغربية.

وفي خطاب أمام الكونجرس يوم ٨ يناير ١٩١٨، كشف ويلسون عن نقاطه الأربع عشرة الشهيرة التي كان ينوي من خلالها إبرام صلح سلمي، ودعت أولى هذه النقاط إلى "تعهدات علنية تم التوصل إليها بصراحة"، ولكن ويلسون اكتشف في مؤتمر السلام نفسه أن بريطانيا وفرنسا واليابان - وهي متحالفة جميعا في الحرب - تفاوضت حول سلسلة من المعاهدات السرية بين بعضها البعض التي تنقل أجزاء من الصين إلى اليابان في مقابل اعتراف اليابان بمناطق النفوذ الأوروبي في آسيا. وقد قبل ويلسون سيطرة اليابان على جزء من الصين لكي يبقى اليابان في عصبية الأمم المتحدة التي اقترحها مع إدراكه الضعيف أن الثورة الصينية كانت قد أحرزت تقدما بالفعل وبدأت تلقى تأييدا

شعبيا . وكانت الثورة البولشفية عام ١٩١٧ قد حثت الكثير من الصينيين وشعوب المستعمرات الأوروبية والأميركية فى آسيا على دراسة المبادئ الماركسية واللينينية والسعى إلى الحصول على مساعدة روسيا السوفيتية فى تشكيل أحزاب شيوعية محلية. ولم يؤد شىء إلى تزكية البولشفية مثل الخوف الصاخب الذى ظهر فى العالم الرأسمالى.

وعندما رفض ويلسون طلبا يابانيا بإضافة مادة فى معاهدة فرساي تقر بمبدأ المساواة العنصرية. تصلبت اليابان فى مواقفها وقررت انتزاع كل شىء تستطيعه من معاهدة السلام، ولكن أكثر ما دمر السلام المرتقب هو أن شعوب مستعمرات الإمبراطوريات البريطانية والفرنسية والهولندية والأميركية اكتشفت أن أشهر نقاط ويلسون الأربع عشرة والتي تنص على " حق تقرير المصير لكل الشعوب " تنطبق فقط على الإمبراطوريتين المهزومتين النمساوية - المجرية والعثمانية، وأنها وضعت من أجل البيض فحسب، ولم يمنح هذا الحق لشعوب الهند البريطانية أو الهند الصينية الفرنسية أو جزر الهند الشرقية الخاضعة للاستعمار الهولندى أو جزر الفلبين. وعلى متن سفينة ويلسون المتجهة إلى أوروبا كتب لانسينج وزير الخارجية فى مذكراته اليومية: " كلما فكرت فى إعلان الرئيس الخاص بحق تقرير المصير ازداد اقتناعى بأنه سيشكل أساسا لمطالب مستحيلة من مؤتمر السلام ... أى تعاسة سوف يسببها هذا الإعلان! "(١٧). وقد كرس معظم ما تبقى من القرن العشرين لجهود الشعوب المستعمرة للحصول على هذا الحق من خلال التمرد والعصيان المدنى وحرب العصابات، وهو ما رفضه ويلسون فى المعاهدة التى أنهت الحرب العالمية الأولى. وقد انتهت هذه المأسى والعجرفة و السذاجة بمأساة شخصية لويلسون، فعند وصوله إلى باريس لإجراء مفاوضات السلام أعلن قوله : " لقد أنهينا الحرب للتو لكى ننهى جميع الحروب " وكان يعتقد أن عصابة الأمم التى أراد إنشاءها سوف تمنع الحروب فى المستقبل بالوقوف فى وجه المعتدين، ولكن مجلس الشيوخ الأمريكى بقيادة هنرى كابوت لودج رفض التصديق على معاهدة فرساي مرتين فى ١٩ نوفمبر ١٩١٩ وفى ١٩ مارس ١٩٢٠ باعتبار أنها تنتهك السيادة الأمريكية. بالإضافة إلى أن الولايات المتحدة نفسها لم تصبح أبدا عضوا فى عصابة الأمم. وحتى لانسينج وزير الخارجية عارض المعاهدة. وبذلك أصبح ويلسون شبه مشلول بهذه الضربة فتقدم باستقالته، وعاد الجمهوريون إلى السلطة فى

نوفمبر ١٩٢٠ وسرعان ما أنجز الرئيس الجديد وارن هاردينج اتفاقية سلام منفردة مع ألمانيا. وفي نهاية عام ١٩٢٠ منح ويلسون أخيرا جائزة نوبل للسلام، ولكنها كانت على غير المعتاد إيماءة لا معنى لها. وقد قال مارشال فرديناند فوش الفرنسي، القائد الأعلى لجميع قوات الحلفاء، عند نهاية الحرب : "هذه ليست معاهدة سلام بل هي هدنة لعشرين عاما". ولم يعيش فوش ليرى كيف تحققت نبوءته^(١٨).

وبوجود وودرو ويلسون أُرْسِيَتْ الأسس الفكرية للإمبريالية الأميركية. وقد مثل تيودور روزفلت وإليهو روت الرؤية العسكرية الإمبريالية المشتقة من أوروبا والمدعومة بتصور لا مزيد على أهميته مؤداه أن قدر الولايات المتحدة الواضح هو أن تحكم الأميركيين اللاتينيين والشرق آسيويين الأدنى عنصريا. وأجل ويلسون فكرته المثالية المفرطة والعاطفية التي لا تهتم بالتطور التاريخي أو العرف والتي تقول إن ما ينبغي السعى إليه هو إقامة عالم ديموقراطي على أساس المثال الأميركي وبقيادة الولايات المتحدة. وكانت تلك الفكرة مشروعا سياسيا لا يقل طموحا ولا تمسكا عاطفيا به عن الرؤية الخاصة بعالم شيوعي التي طرحها في نفس الوقت تقريبا زعماء الثورة البولشفية. وقد صور ذلك ويليام بضاف الباحث الناقد في العلاقات الدولية بقوله : "كانت الولايات المتحدة مازالت أسيرة ذهنيا لرئيس - كاهن تقى يعتقد أنه دائما على حق ومصاب بجنون العظمة. وبث هذا الرئيس في الأمة الأميركية اقتناعا مجددا بأن الله خلقها - كما خلقه هو نفسه - لكي ترشد أمم العالم إلى سبل الحرية"^(١٩).

وإذا كانت الحرب العالمية الأولى قد ولدت الأساس الأيديولوجي للإمبريالية الأميركية. فإن الحرب العالمية الثانية أطلقت العنان للنزعة العسكرية المتنامية، وكانت المسألة. كما كتب جيمس دونوفان الكولونيل البحري المتقاعد، تلخص في " أن الروح العسكرية الأميركية بلغت ذروتها "^(٢٠) وكانت الحروب مع الألمان واليابان ذات شعبية. وكان عامة الناس وأعضاء القوات المسلحة يعرفون لماذا يقاتلون مع وجود خلاف ضئيل نسبيا حول أهداف الحرب. ومع ذلك أدارت الحكومة بحذر الأنباء اللازمة لإدامة مزاج الحرب، لكنها لم تسمح بنشر صور الضحايا من الجنود الأميركيين، وقدم الكونجرس توجيهاته الصارمة بشأن كيفية نشر أخبار الحرب^(٢١).

وأظهرت الحرب العالمية الثانية أعلى معدل مشاركة عسكرية من الأمة بالنسبة لأى حروب أميركية أخرى. والمقصود بهذه النسبة الأشخاص الذين هم تحت السلاح.

وحققت الحرب العالمية الثانية معدل مشاركة عسكرية بنسبة ١٢,٢٪ أى نحو ١٦٣٥٣٧٠٠ من الرجال والنساء من بين مجموع عدد السكان البالغ آنذاك ١٣٣,٥ مليون. وكانت نسبة المشاركة العسكرية للجانب المتحالف فى الحرب الأهلية وحدها هى الأعلى إذ بلغت ١٣,١٪، ولكن المعدل الإجمالى للطرفين فى الحرب الأهلية كان بنسبة ١١,١٪. أما أدنى معدل للمشاركة العسكرية - بنسبة ٤,٠٪ - فقد كانت فى الحربين المكسيكية - الأميركية (١٨٤٦-١٨٤٨) والإسبانية - الأميركية وتبعتهما حرب الخليج عام ١٩٩١ بنسبة ١,١٪^(٢٢) (وهذا الرقم الأخير غير مؤكد على أية حال لأن جانباً كبيراً من القوات " تحت السلاح " وقت حرب الخليج لم يشترك فى القتال أو كان موجوداً فى منطقة الخليج ويشغل الحاميات والسفن الأميركية العديدة حول العالم).

وقد أنتجت الحرب العالمية الثانية أمة من المحاربين القدماء الفخورين بما أنجزوه والجديرين بالاحترام، ولكنهم فقدوا الثقة كلياً فى قادتهم العسكريين، ويؤيدون على نسق واحد استخدام القنابل النووية التى وضعت نهاية سريعة للحرب. ولعب الرئيس فرانكلين روزفلت دور القائد الأعلى للقوات المسلحة وهو الدور الذى لم يلعبه أى رئيس قبله ولا بعده. وقد أرسل ذات يوم مذكرة إلى كوردويل هل وزير الخارجية يقول فيها : " أرجو أن تخاطبني بعبارة قائد عام القوات المسلحة بدلا من كلمة رئيس " (٢٣). ولم يفرض الكونجرس على روزفلت لجنة أركان مشتركة لقيادة الحرب، مثلما فرضها على الرئيس لينكولن خلال الحرب الأهلية. وكانت مؤسسات عسكرية مثل هيئة أركان الحرب المشتركة مازالت غير رسمية وغير خاضعة للإشراف ومسؤولة مسؤولية كاملة أمام السلطة التنفيذية. ويذكر الكولونيل دونوفان أنه " مع وجود سياسة متفق عليها لحرب محدودة قنع الكونجرس أيضا بالتنازل عن مسؤوليات مراقبة المؤسسة العسكرية، واعتقد بعض القادة العسكريين أن الرقابة المدنية على القوات المسلحة أصبحت أثرا من آثار الماضى ولا مكان لها فى المستقبل " (٢٤). وكان الجنرال دوجلاس ماك آرثر أشهر العسكريين فى الحرب العالمية الثانية. وقد تحدى السلطة الدستورية للرئيس هارى ترومان أثناء الحرب الكورية التى كتب عنها أنها " كانت تمثل - إلى يومنا هذا - مفهوما غير معروف

خطيرا جعل أعضاء قواتنا المسلحة مدينين بالتبعية والولاء والإخلاص - قبل كل شئ - إلى أولئك الذين يمارسون مؤقتا سلطة الفرع التنفيذى للحكومة بدلا من ولائهم للوطن ودستوره اللذين أقسموا بالدفاع عنهما. وليس هناك ما هو أخطر من هذا

الموضوع^(٢٥) . وفى ١١ أبريل ١٩٥١ اتهم ترومان الجنرال ماك آرثر بالعصيان وأعفاه من قيادة القوات المسلحة وأجبره على الاعتزال. وكان تصرف ترومان آخر تأكيد كلاسيكى للمبدأ الدستورى الذى يقضى بأن للرئيس والمدنيين الذين يعينهم حق الإشراف على القوات المسلحة. وخلال رئاسة جون كنيدي وبيل كلينتون على وجه التحديد كانت القيادة العليا كثيرا ما لا تستقر علنا على صفات رئيس الأركان وتوشك على اختراق خط الشرعية الدستورية دون أن تفعل ذلك بالفعل. وكما سنرى فإن هيئة الأركان المشتركة أثناء إدارة كنيدي اقترحت أن تنفذ القوات المسلحة سرا عمليات إرهابية فى الولايات المتحدة ثم تستغلها كذريعة للحرب ضد كوبا بزعماء كاسترو. ولم يعد الرئيس كلينتون أبدا قادرا على استعادة سلطته الكاملة على القيادة العليا بعد تفجير العاصفة على الشواذ فى القوات المسلحة فى بداية إدارته.

وبعد الحرب العالمية الثانية انتقل بعض كبار ضباط القوات المسلحة ذوى الرتب العالية، بمن فيهم الجنرالان مارشال وأيزنهاور، إلى مناصب رئيسية فى التسلسل الوظيفى المدنى للسلطة السياسية بطريقة غير مسبوقه منذ الحرب الأهلية. وأصبح جورج مارشال. رئيس الأركان وقت الحرب. أول وزير خارجية للبلاد ذا خلفية عسكرية (وأصبح هناك اثنان آخران منذ ذلك الحين وهما الجنرال ألكسندر هيج فى إدارة ريجان، والجنرال كولن باول فى إدارة بوش الثانية). ومن المفارقات أن الجنرال مارشال ترك اسمه على الفضل الأعظم الوحيد فى السياسة الخارجية والمتمثل فى مهمته إلى الصين عام ١٩٤٦ ومحاولة التوسط بين الشيوعيين والقوميين فى الحرب الأهلية الصينية. بينما أحرز أعظم نجاح منفرد فى مشروع مارشال عام ١٩٤٧ الذى ساعد على إعادة بناء أوروبا اقتصاديا بعد الحرب.

غير أن الحرب العالمية الثانية - رغم شعبيتها - لم تنشئ نزعة التسلط العسكرية الأميركية. ولما كانت الحرب الباردة لم تنتج عنها فمن المعقول أن نفترض أن المعارضة الأميركية التقليدية للجيش العاملة والحروب الأجنبية قد عادت إلى إثبات وجودها بقوة. وإذا كان قد وجد اتجاه متنام نحو النزعة العسكرية، فقد ظل هناك أيضا شئ من الشك العميق فى الجيوش. ورغم أن جميع أفراد القوات المسلحة تقريبا تم تسريحهم فى السنوات التى أعقبت عام ١٩٤٥ مباشرة، فإن الأفراد المجندين بقوا فى الخدمة حتى عام ١٩٧٣ عندما برزت إلى الوجود القوات المسلحة المعتمدة جميعها على

التطوع بعد نحو عقد من الاحتجاجات ضد الحرب فى فييتنام. وعلى المستوى
البراجماتى أظهر الجمهور تضاربا فى عدائه للحروب بسبب ضحاياها. وقد نتج عن
الحرب العالمية الثانية ثانى أكبر عدد من بين ضحايا الحروب الأمريكية. أما الحرب
الأهلية فقد كانت الحرب الأكثر دموية فى تاريخنا وأثرت بعمق فى المواقف الشعبية
وولدت مقاومة شرسة من الشعب الأمريكى لإرسال أبنائهم وبناتهم إلى المعارك. وبلغ
عدد القتلى من الجانبين المتحاربين فى الحرب الأهلية ١٨٤٥٩٤ فردا وهو عدد يقل
بكثير عن القتلى الأمريكيين فى الحرب العالمية الثانية البالغ عددهم ٢٩٢١٣١ شخصا.
ومع ذلك عند إضافة ٣٧٢٤٥٨ حالة وفاة فى الحرب الأهلية لأسباب أخرى مثل
الأمراض وحالات الفقر والحوادث بما فى ذلك حالات الوفاة بين أسرى الحرب.
يصبح إجمالى ضحايا الحرب الأهلية ٥٥٨٠٥٢ فردا. وإذا أضيفت حالات الوفاة
لأسباب أخرى فى الحرب العالمية الثانية والبالغة ١١٥١٨٥ حالة يصبح الإجمالى
٤٠٧٣١٦ فردا (٢٦).

ولم تكن الحرب العالمية الثانية أكثر دموية من الحرب الأهلية باستثناء معيار واحد
هو كثافة القتال التى توضحها جيدا نسبة الذين قتلوا فى المعارك فى الشهر(*) . وقد
استمرت الحرب الأهلية ثمانية وأربعين شهرا وأسفرت عن ٢٨٤٦ قتيلا شهريا. بينما
استمرت الحرب العالمية الثانية ٤٤ شهرا (بالنسبة للولايات المتحدة) وأسفرت عن
٦٦٣٩ قتيلا شهريا. وهذه الكثافة القتالية هى التى يتذكرها الأمريكيون من الحرب
العالمية الثانية وجعلتهم يرتابون فى حروب المستقبل وخاصة تلك التى لا تمثل خطرا
مباشرا على الولايات المتحدة، أو التى لم تتعرض فيها الولايات المتحدة للهجوم. وبذلك
فإن تزكة الحرب العالمية الثانية بالنسبة لتنمية النزعة العسكرية تبدو ملتبسة ذلك لأن
الكثيرين اشتركوا فى المجهود الحربى بحماس أكبر من أى صراع آخر وقطعوا تمسكهم
بالشك التقليدى فى جدوى إشعال الحرب. ومن ناحية أخرى انتهت تعبئة البلاد بسرعة
بعد الحرب وعاد الناس إلى أعمالهم المعتادة فى وقت السلام. وفى السنوات التى تلت

(*) بلغ عدد القتلى من الرجال والنساء من كلا الجانبين فى الحرب الأهلية نسبة ٤,٨ فى المائة من
العاملين بالقوات المسلحة، بينما كانت النسبة ١,٨ فى المائة أثناء الحرب العالمية الثانية، وكانت
نسبة القتلى جراء جميع الأسباب فى الحرب الأهلية ١٤,٤ فى المائة، غير أن النسبة بلغت ٢,٥
فى المائة خلال الحرب العالمية الثانية. وبلغت نسبة القتلى والجرحى فى الحرب الأهلية ٢٥,١ فى
المائة من الجنود، ولكن نسبتهم فى الحرب العالمية الثانية بلغت ٦,٦ فى المائة فقط.

الحرب العالمية الثانية مباشرة توقفت سريعا آلة الإنتاج العسكرى الكبرى وسرح العمال وأغلقت المصانع. وحاولت بعض مصانع الطائرات تجربة قدرتها على صناعة قوارب الألومنيوم والبيوت المحمولة. والبعض الآخر من المصانع توقف تماما. وفى مستهل الحرب الباردة وظهور طبقة عسكرية محترفة أعيد الكثير من النماذج التى ميزت زمن الحرب إلى ممارسة نشاطها وبدأت صناعة الأسلحة تعمل بكامل طاقتها. وبين عامى ١٩٥٠ و ٢٠٠٣ مرت الولايات المتحدة بأربع فترات من التعبئة العسكرية المكثفة التى رافقتها طفرات هائلة فى مشتريات السلاح. وكانت أول وأهم ذروة فى مشتريات السلاح قد حصلت أثناء الحرب الكورية (١٩٥٠ - ١٩٥٣) رغم أن جزءا صغيرا منها فقط استخدم فى التسليح لخوض الحرب. واستخدمت معظم الأموال فى تطوير الأسلحة النووية وإمداد الحاميات الضخمة التى كانت تقام أيام الحرب الباردة فى بريطانيا وألمانيا وإيطاليا واليابان وكوريا الجنوبية. وارتفعت نفقات الدفاع من نحو ١٥٠ بليون دولار عام ١٩٥٠ بمعيار القوة الشرائية عام ٢٠٠٢ إلى ما يقل قليلا عن ٥٠٠ بليون دولار عام ١٩٥٣. وقامت الزيادة الثانية بتمويل حرب فيتنام. وبلغت نفقات الدفاع عام ١٩٦٨ أكثر من ٤٠٠ بليون دولار بمعدلات عام ٢٠٠٢. وحدثت الطفرة الثالثة بسبب إسراف رونالد ريجان، وقد تضمنت استثمارات هائلة فى نظم الأسلحة مثل القاذفة بى - ٢ المسماة "ستيلث"، وفى أبحاث وتطوير مبادرة الدفاع الاستراتيجى ذات التقنية العالية التى طرحها. وهذه الأرصدة خضعت لعملية إخفاء واسعة النطاق فى "الميزانية السوداء" السرية للبيتاجون. ووصل الإنفاق إلى نحو ٤٥٠ بليون دولار فى عام ١٩٨٩. وأطلقت إدارة بوش الثانية أحدث حفلات السمر فى إنتاج الأسلحة الجديدة التى زودها بالدعم جزئيا رد الفعل الجماهيرى تجاه هجمات ١١ سبتمبر. وفى ١٤ مارس ٢٠٠٢ وافق مجلس النواب على ميزانية عسكرية بلغت ٣٩٣,٨ بليون دولار وهى تعتبر أضخم زيادة فى نفقات الدفاع فى نحو عشرين عاما^(٢٧).

غير أن ما حدث فى الميزانيات العسكرية بين تلك الذرى لا يقل أهمية. ولم تنخفض نفقات الدفاع فى أية لحظة من عام ١٩٥٥ حتى عام ١٩٦٥ إلى مستوى ما قبل الحرب الباردة والمستوى الأدنى كثيرا فيما قبل الحرب العالمية الثانية. وبدلا من ذلك فإن الأعوام من ١٩٥٥ إلى ١٩٦٥. ومن ١٩٧٤ إلى ١٩٨٠. ومن ١٩٩٥ إلى ٢٠٠٠، رسخت معدل الحرب الباردة أو قاعدة الإنفاق العسكرى الرئيسية فى عصر النزعة العسكرية. وقد بلغ متوسط الإنفاق الحقيقى على الدفاع خلال تلك السنوات ٢٨١ بليون دولار فى

السنة بمعيار عام ٢٠٠٢. وحتى فى سنوات إدارة كلينتون بعد انهيار الاتحاد السوفيتى. بلغ متوسط الإنفاق الدفاعى ٢٧٨ بليون دولار وهو نفس معدل الحرب الباردة تقريبا. وليس صحيحا اتهام الجمهوريين المتكرر لكلينتون بأنه خفض الإنفاق العسكرى. بل إنه ببساطة سمح بإعادة الإنفاق العسكرى إلى مستواه الطبيعى، وذلك فى أعقاب الحشد الدفاعى فى عهد ريجان الذى خرب الميزانيات العامة حتى أصبحت الولايات المتحدة أكبر دولة مدينة فى العالم.

ومن الحرب الكورية حتى السنوات الأولى من القرن الحادى والعشرين أحدثت مأسسة هذه النفقات الدفاعية الهائلة تغييرا أساسيا فى اقتصاد الولايات المتحدة السياسى. فقد أصبح الإنفاق الدفاعى بمستويات مذهلة سمة عادية للحياة " المدنية " وحاول جميع أعضاء الكونجرس اجتذاب عقود الدفاع لصالح دوائهم الانتخابية. وأصبحت مناطق مثل كاليفورنيا الجنوبية تعتمد على الإنفاقات الدفاعية، وأضحت حالات الكساد المؤدية إلى تسريح العمال فى سنوات الإنفاق الدفاعى " العادية " سمة قياسية لاقتصاد كاليفورنيا. وفى شهر سبتمبر ٢٠٠٢ أشارت التقديرات إلى أن وزارة الدفاع ضخت نحو ربع اعتمادات البحوث والتطوير لشركات فى كاليفورنيا كانت توظف أعدادا من عمال الدفاع تفوق بكثير أية ولاية أخرى. والأكثر من ذلك أن هذا الرقم مخفض بلا شك لأن كثيرا من مؤسسات كاليفورنيا الجنوبية مرتبطة ببرامج عسكرية سرية ذات ميزانيات سرية أيضا. ومن هذه المؤسسات نورثروب جرامان فى سينتشرى سيتى، و " تى. آر. دبليو " فى ريدونديو بيتش، ولوكهيد مارتن فى بالمديل، وريثيون فى إل سيجوندو (٢٨).

وقد اعتاد الأميركيون حتى الآن سماع قادتهم السياسيين وهم يبذلون جهودهم فى الترويج للإنفاق العسكرى المحلى ومثال ذلك كل من السيناتور الديموقراطى باتى موراي. والسيناتور الديموقراطى ماريا كانتويل عن ولاية واشنطن. وكذلك السيناتور الجمهورى تيد ستيفنز عن ألاسكا. وقد صوتوا لصالح تضمين ميزانية الدفاع للسنة المالية ٢٠٠٣ نحو مبلغ ٣٠ بليون دولار أميركى لإنفاقها على مدى عشر سنوات فى استئجار طائرات بوينج طراز ٧٦٧ وتعديلها للعمل كحاملات وقود جوية لتموين الطائرات المقاتلة فى الجو. وهو مشروع لم يكن حتى مدرجا ضمن أهم ستين أولوية للسلاح الجوى ولا بين خطط مشترياته للسنوات الست التالية. ونص مشروع القانون أيضا على أن يتولى السلاح الجوى الإنفاق على إعادة تجهيز الطائرات للاستخدام

المدنى وإعادة تسليمها لشركة بوينج بعد انتهاء مدة استئجارها. وجاء فى تعليق السيناتور موراي قوله : " من دواعى مصلحتنا القومية أن نحافظ على انتعاش شركتنا الوحيدة لصناعة الطائرات التجارية فى الأوقات العصيبة ". (٢٩) ومن الواضح أن شركة بوينج تصنع الطائرات فى مصانعها الواقعة فى ولاية واشنطن. وفى عام ٢٠٠٠ تسلم ستيفنز تبرعا من بوينج قدره عشرة آلاف دولار من أجل حملته الشخصية لإعادة انتخابه، وكذلك مبلغ ألف دولار للجنة للعمل السياسى. وفى عام ٢٠٠١ أعطته الشركة مبلغا إضافيا قدره ثلاثة آلاف دولار. وكان هذا السيناتور عضوا نافذا فى لجنة الاعتمادات بمجلس الشيوخ وفى لجنتها الفرعية لاعتمادات الدفاع. وبلغ من حماس رئيس مجلس النواب دنيس هاسترت أنه أضاف اعتمادا لاستئجار أربع طائرات مدنية من طراز بوينج ٧٣٧ لرحلات أعضاء الكونجرس على نفقة الدولة. ولم تعد تثير الاهتمام مثل هذه اللامبالاة بكيفية إنفاق أموال دافعى الضرائب التى ترقى إلى حد الفساد. والتى أصبحت سمة اعتيادية من سمات الممارسات السياسية. كذلك أصبح المجمع الصناعى العسكرى مصدرا ثريا بالمناصب بعد "التقاعد" بالنسبة للضباط العسكريين ذوى الرتب العالية حيث يفوز كثير من مديرى شركات المقاولات الدفاعية بوظائف رفيعة فى البنتاجون. وتميل عملية " تدوير النخب " هذه إلى قطع دابر محاولات الكونجرس مراقبة أى من وزارة الدفاع أو مقاولى الدفاع، والنتيجة هى الغياب الكامل للمساءلة عن الأموال العامة التى يتم إنفاقها على مشروعات عسكرية من أى نوع. ويذكر كيبلى أوهارا الصحفى فى مجلة " إنسايت " أن نائب المفتش العام فى البنتاجون فى مايو ٢٠٠١ " اعترف بأن تسوية مالية قدرها ٤,٤ تريليون دولار فى ملفات البنتاجون تم التلاعب فيها لتجميع بيانات مالية مطلوبة، وأن مبلغ ١,١ تريليون دولار اختفى ببساطة ولم يعد أحد يعرف متى أو أين أو لمن ذهبت هذه الأموال " (٣٠) وهذه الأموال أكبر من ضرائب الدخل التى دفعها الأميركيون فى السنة المالية ١٩٩٩ والبالغة ٨٥٥ بليون دولار. كذلك فإن عدم اكتراث أحد بذلك هو دليل على وجود النزعة العسكرية.

وهناك ثلاثة مؤشرات عريضة تدل على تفاقم النزعة العسكرية بشكل عام. والمؤشر الأول هو ظهور طبقة العسكريين المحترفين وما يتبعها من تمجيد لمثلها العليا. وقد كانت الاحترافية المسألة المطروحة أثناء الحرب الكورية (١٩٥٠ - ١٩٥٣). وهدف الاحترافية إعداد جنود يقاتلون لسبب وحيد وبسيط هو أنهم تلقوا أوامر بذلك لا لأنهم يتعاطفون

بالضرورة مع الأهداف السياسية للحرب أو يهتمون بها . وفى الحرب العالمية الثانية حاربت الولايات المتحدة عدوين هما ألمانيا النازية واليابان ذات النزعة العسكرية. وقد استطاعت تصويرهما على أنهما " الشر الحقيقي " بمساعدة البروباغندا الحكومية^(٢١). وبذلت الولايات المتحدة جهدا لتصوير الكوريين الشماليين والشيوعيين الصينيين بوجه خاص، الذين دخلوا فى الحرب أواخر عام ١٩٥٠، على أنهم " القبائل الصفراء " و " النمل الأزرق "، غير أن جيمس ميتشنر مؤلف رواية " جسور توكو - ري " (١٩٥٣) وصف بدقة مشاعر الجماهير آنذاك بأنها كانت أقل تعاطفا منها أثناء الحرب العالمية الثانية. ومع تراخى الدعم الجماهيرى تحولت القيادة العسكرية العليا إلى تلقين الجنود القيم الحربية وجعلت منها أهم هدف حيوى لجميع التعليمات العسكرية ليحل حتى محل التدريب على استخدام الأسلحة. وكانت هذه القيم تتضمن الولاء، وروح الجماعة، والتقاليد، والترابط الذكورى، والانضباط، والقتال. أى أن يكون الجندى بشكل عام صورة من الممثل جون وين ونظرته إلى العالم^(*). وكان هناك عمل كثير لابد من إنجازه نظرا لأن المجندين إلزاميا كانوا يشكلون معظم الجيش فى تلك الأيام. وكان المحاربون القدماء من الحرب العالمية الثانية يحقرون من شأن جون وين بسبب نكرة الرجولة التى كانت هوليوود تضيفها عليه فى أفلام مثل فيلم " نحل البحر " (١٩٤٤). ويعود ويليام مانشستر، المحارب القديم فى المحيط الهادئ وكاتب سيرة الجنرال دوجلاس ماك آرثر، بذاكرته إلى ما بعد معركة أوكيناوا بقليل ليصف كيف استقبل الجرحى من جنود الجيش والسلاح البحرى بصيحات الاستنكار ذلك الممثل الشهير الذى لم يدخل الخدمة العسكرية، وذلك خارج مسرح فى مستشفى " آياهايتس " فى هاواى عندما كان يسير وعلى رأسه قبعة تكساس مستخدما منديلا ملونا كبيرا وقميصا متنوع الألوان ومسدسين وبنظالا جلديا وحذاء طويلا ومهمازين^(٢٢) .

ولم يحدث أبدا أن تحقق الاحتراف كما تصورته القيادة العسكرية لا فى الحرب الكورية ولا فى حرب فيتنام فى المقام الأول لأن الرجال الذين طلب منهم أن يقاتلوا كانوا مجندين إجباريا. ومن الأسباب التى دمرت شعور الافتخار بالانتماء إلى القوات المسلحة عدم الإنصاف فى التجنيد بالإضافة إلى ارتفاع مستويات أعداد ضحايا الحرب بين الذين لم يستطيعوا تفادى قرعة الخدمة العسكرية. وقد أدرك الضباط

(*) اشتهر الممثل جون وين بلعب دور راعى البقر (الكابوى) الأمريكى المقاتل وغيره من الأدوار التى تجعل منه البطل المنتصر دائما (المترجم).

هذه الحقيقة وكرسوا أنفسهم لدعم مهنتهم وتيسير وصولهم إلى أهدافهم. وخلال حرب فيتنام بالذات بدأت القوات المسلحة فى تطبيق دورات تنقلات سريعة من وإلى منطقة الحرب لتفادى وقوع عصيان أو حتى تمرد. ولم تقترب حرب كوريا وفيتنام من مستويات ضحايا الحرب العالمية الثانية، ولكن جنودنا كانوا مازالوا مدنيين فى الأساس ولم يتفهموا أهداف هاتين الحربين ولذلك أصبحوا هم وعائلاتهم متحررين من أوهام الحرب بل وحتى نافرين منها نفورا عميقا. وكانت نسبة المشاركة العسكرية فى الحرب الكورية ٨, ٢٪، وفى حرب فيتنام ٤, ٣٪. وبلغت حالات الوفاة بين الأميركيين فى كوريا ٢٣٦٥١ فردا. وفى فيتنام ٤٧٣٦٩ فردا. أما عدد الوفيات خارج المعارك فى الحرب الكورية فهو غير معروف، ولكنه بلغ ١٠٧٩٩ فى الحرب الفيتنامية. وقد خدم فى فيتنام نحو ٢,٧ مليون أميركي أصيب من بينهم ٣٠٤٠٠٠ من الجرحى فى المعارك، وأصبح ٧٥ ألفا معاقين دائمين بسبب إصاباتهم. وفى يوم الذكرى عام ١٩٩٦ كانت أسماء ٥٨٢٠٢ من المتوفين محفورة على اللوحة التذكارية لحرب فيتنام فى واشنطن. ومازال نحو ١٣٠٠ رجل فى عداد المفقودين فى المعارك^(٢٢). ولم تحظ الحربان بأية شعبية وتحقق الفوز فى ثلاثة انتخابات رئاسية بسبب الوعود بإنهاءهما فقد فاز أيزنهاور فى زمن الحرب الكورية، وجونسون ونيكسون فى سنوات حرب فيتنام (وذلك على الرغم من أن كلا منهما واصل توسيع نطاق الحرب بمجرد انتخابه). وأثناء الحرب الفيتنامية أصبح واضحا أن القرعة العسكرية كانت تجرى بطريقة غير عادلة إذ أعطى طلبة الجامعات من التجنيد بينما وقع عبء الخدمة العسكرية بشكل غير متناسب على الأقليات وأولئك الذين لا يملكون وسائل كافية لتجنبها. وعندئذ اختارت الحكومة إلغاء القرعة بدلا من تطبيقها بأسلوب عادل. ومنذ ذلك الحين أصبحت الخدمة العسكرية اختيارية تماما وتحولت إلى سبيل لنقلة اجتماعية بالنسبة لأولئك الذين سدت فى وجوههم قنوات التقدم الأخرى، بالضبط كما كان الحال فى الجيش الإمبراطورى اليابانى السابق فى ثلاثينيات القرن العشرين حيث شاع تأجيل تجنيد سكان المدن " لأسباب صحية " وأصبح ينظر إلى الجيش باعتباره ملاذا للفقراء من أهل الريف. وفى الجيش الأمريكى عام ١٩٩٧ كان واحد وأربعون فى المائة من المجندين من غير البيض (وهذا موضوع سوف أعود إليه لاحقا).

وبالإضافة إلى إنهاء القرعة فى الخدمة العسكرية فى أميركا، ومن ثم تحول القوات المسلحة الصارم إلى أن تصبح قوة " محترفة "، ساهمت حرب فيتنام فى تنامى

النزعة العسكرية على عكس ما هو بديهى بعد هزيمة الولايات المتحدة فى الحرب. وهذه الهزيمة المخيبة للأمال بشدة لنخب القيادة الأميركية أثارت جدلا لم ينته حول " الدروس " المستفادة منها^(٢٤) . فبالنسبة إلى أقصى اليمين الصاعد حديثا أصبحت فييتنام مجرد حرب لم يكن لدى الجناح اليسارى الإرادة ولا الشجاعة لكسبها . وسواء كان زعماء اليمين السياسيون مقتنعين حقا بهذا الرأى أم لا ، فإنهم توصلوا إلى نتائج محددة . ويقول كريستيان أبى(*) : " بالنسبة لريجان وبوش (الذى كان نائب ريجان آنذاك) فإن الدرس الأساسى لحرب فييتنام لم يكن يتمثل فى ضرورة أن تكون السياسة الخارجية أكثر ديموقراطية ، بل على العكس كان يجب عليها أن تكون على نحو أكبر دائرة اختصاص مديرى الأمن القومى الذين مارسوا عملهم بعيدا عن أعين الميديا المتفحصة . أو مراقبة الكونجرس . أو المسائلة أمام جمهور معقد "^(٢٥) . وكانت النتيجة ظهور زمرة من أصحاب النزعة العسكرية المحترفين الذين صنفوا كل شىء على أنه سرى والذين تم تعيينهم فى وظائف عليا فى جميع مواقع الفرع التنفيذى . ولم يكن كل هؤلاء يرتدون الزى العسكرى . ويضع المؤرخ ألفريد فاجتس تعريفا لعبارة " النزعة العسكرية المدنية " بقوله إنها " تدخل قيادات مدنية فى ميادين كانت قد تركت لأصحاب مهن محترفين بحكم التعود أو التقاليد " . وغالبا ما تكون آثار ذلك أى شىء إلا أن تكون حميدة . وتؤدى النزعة العسكرية المدنية عامة إلى " تكثيف أهوال الحرب . وفى الحرب العالمية الثانية على سبيل المثال لم يبادر المدنيون إلى الحرب بلهفة أكبر من المحترفين فحسب بل لعبوا دورا رئيسيا فى تحويل القتال إلى شىء مطلق بلا قيد وأشد فظاظة من العادات العسكرية المألوفة " .^(٢٦) وينساق المدنيون بالأيديولوجيا إلى حد أكبر من المحترفين . وعندما يعملون مع العسكريين يشعرون فى الغالب بالحاجة إلى إظهار معرفتهم بثقافة المحارب التى يفهمونها على أنها تعنى القسوة ذات القبضنة الحديدية نظرا لأنهم مجردون من خبرة القتال الحقيقى . وقد لوحظ أثر ذلك بشكل خاص فى حرب العراق الثانية عام ٢٠٠٣ عندما كان الجنرالات والأدميرالات تملئ عليهم الاستراتيجيات ومستويات القوة وأهداف الحرب من كثير من المدنيين الملتزمين أيديولوجيا العاملين فى وزارة الدفاع دون خبرة بالخدمة العسكرية والعمليات الحربية . وقد عمد كبار الضباط القدامى ذوى الخبرة إلى تحقيرهم بأن أسموهم " الصقور

(*) كريستيان أبى هو مؤلف كتاب عن حرب فييتنام عنوانه " حرب الطبقة العاملة " . (المترجم)

الجبانة^(٣٧). وكان هذا الدور البارز للمدنيين أصحاب النزعة العسكرية نتيجة غير مقصودة لحرب فيتنام.

وأثناء حرب فيتنام كانت هيئة أركان الحرب المشتركة غالبا ما تعترض على قرارات الرئيس ليندون جونسون. وكانوا يريدون حربا أوسع نطاقا مما كان يريده الرئيس حتى مع وجود مخاطرة نشوب حرب نووية مع الصين. ويذكر هـ. ر. ماك ماستر كمؤرخ لهيئة الأركان المشتركة أن " الرئيس ووزير الدفاع روبرت ماكنمارا نقلوا مسؤولية التخطيط الحقيقي من هيئة الأركان إلى لجان خاصة تتشكل أساسا من محللين مدنيين ورجال قانون ويكون هدفهم الرئيسي الحصول على إجماع في الآراء يتفق مع سعى الرئيس إلى موقف وسط بين فك الاشتباك والحرب ... وعندما تصاعد التورط الأميركي في الحرب ازداد ضعف جونسون أمام كبار الضباط العسكريين الساخطين لأنه كان يعتمد تضليل الكونجرس والرأي العام بالنسبة لطبيعة الجهد العسكري الأميركي في فيتنام^(٣٨). وتم تفكيك مبدأ فصل العمل الأميركي القديم المؤسساتي بين الضباط المنتخبين والمحترفين العسكريين الذين بذلوا المشورة للضباط المنتخبين ثم نفذوا سياساتهم. ولم يعد هذا المبدأ إلى الوجود أبدا. وأثناء إدارة ريجان جاء عدد كبير من الاستراتيجيين الهواة ومؤيدي حرب النجوم ليحتلوا البيت الأبيض. وسعوا إلى وضع حلفائهم في المناصب الحاكمة في البنتاجون، وكانت النتيجة ظهور نوع من الانتهازية العسكرية في قلب الحكومة بوجود عسكريين ينافقون مجموعة مدللة من السياسيين عديمي الخبرة ويرتبون لحصولهم على وظائف مربحة بعد التقاعد في مجال صناعة الأسلحة أو في مراكز البحوث العسكرية. وبدأ أرفع القادة العسكريين يقولون ما يريد رؤسائهم السياسيون سماعه بينما يعملون سرا على حماية مصالح إداراتهم المنفردة أو مصالح إقطاعياتهم ضمن تلك الإدارات^(٣٩). وأخذت المؤسسة العسكرية تتحول إلى كارتل هائل متضخم يعمل لمصالح الفروع الأربعة الرئيسية : الجيش، والبحرية، وسلاح المارينز، والسلاح الجوي. ويمارس عمله بنفس طريقة منظمة الدول المصدرة للبترول " أوبك " للحفاظ على أرباح كل دولة من أعضائها. ولم تتغير أنصبة كل إدارة بأكثر من ٢٪ من ميزانية الدفاع خلال السنوات الخمس والعشرين الماضية التي انهار الاتحاد السوفييتي أثناءها ودخلت الولايات المتحدة حروبا مختلفة في بنما والكويت وهاييتي والصومال والبوسنة وكوسوفو وأفغانستان والعراق. ولم تكن احتياجات القوات المسلحة تدعو إلى فرض هذا الثبات على خوض الحروب.

وأثناء تسعينيات القرن العشرين والسنوات الأولى من القرن الحادى والعشرين تولت مسؤولية جميع الخطط البوليتيكو - عسكرية جماعات اللوى وممثلو الجماعات الأخرى التى كانت تريد مواجهة دول مثل الصين قد تتسبب فى تحديات مستقبلية للسيطرة الأميركية^(٤٠). وكثيرا ما سعت هذه الجماعات إلى تطهير الحكومة من الخبراء الذين يقفون فى طريقها وبالتالي تضائل نفوذ وزارة الخارجية بشكل خاص. ومثال ذلك أن كورت إم. كامبل المساعد السابق لنائب وزير الدفاع لشؤون شرق آسيا والمحيط الهادئ فى إدارة كلينتون تنبه - فى معرض إثبات وجهة نظره - إلى أن " السياسة الخاصة بالصين أخذت تخضع بشكل متزايد ، " طبقة استراتيجية " جديدة من تشكيلة من الأكاديميين والمعلقين وصناع القرار الذين تساعد أفكارهم على تحديد المصالح القومية ". ويضيف كامبل أن هذه المجموعة الجديدة من الخبراء العسكريين - التى كان هو مجرد عضو مدنى مستأجر فيها - لا تعرف الكثير عن الصين. وليس لديها بدلا من ذلك خلفية من الدراسات الاستراتيجية أو العلاقات الدولية " ولا الوعى بشكل خاص " للمؤشرات الدالة على قدرة الصين على التهديد "^(٤١). وهذه هى مواقف أصحاب النزعة العسكرية لا مفكرى السياسة الخارجية الحكماء.

والسمة السياسية الثانية للنزعة العسكرية هى غلبة الضباط العسكريين وممثلى صناعة الأسلحة فى شغل المراكز الحكومية العليا. وخلال عام ٢٠٠١ عمدت إدارة جورج دبليو بوش إلى شغل العديد من الوظائف الدبلوماسية الأمريكية الرئيسية بالعسكريين أو بأصحاب النزعة العسكرية بمن فيهم وزير الخارجية الجنرال كولين باول الرئيس السابق لهيئة الأركان المشتركة، وكذلك نائب وزير الخارجية ريتشارد أرميتاج الذى كان وكيلا لوزارة الدفاع فى إدارة ريجان. وعين الرئيس بوش فى البنتاجون بىتر ب. تيتس الرئيس السابق لمؤسسة لوكهيد مارتن. فى منصب وكيل وزارة الدفاع لشؤون سلاح الجو. كما عين توماس إى. وايت البريجادير جنرال السابق والمدير السابق لمؤسسة إنرون، فى منصب وزير الجيش (وقد استقال فى أبريل ٢٠٠٣)، وجوردون إنجلاند نائب رئيس شركة جنرال داينامكس فى منصب وزير البحرية. وجيمس روش أحد مديرى شركة نورثروب جرومان والبريجادير جنرال المعتزل، فى منصب وزير لشؤون سلاح الجو^(٤٢). ويجب ملاحظة أن شركة لوكهيد مارتن هى أكبر شركات صناعة الأسلحة فى العالم. وقد بلغت مبيعاتها ١٧,٩٣ بليون دولار قيمة معدات الأسلحة العسكرية فى عام ١٩٩٩. وفى ٢٦ أكتوبر عام ٢٠٠١ منح البنتاجون لتلك الشركة عقدا قيمته ٢٠٠ بليون

دولار وهو أضخم عقد عسكري في تاريخنا، وذلك لصناعة الطائرة المقاتلة إف - ٣٥. وقد كان من المعقول أن تكون تلك الطائرة مفيدة أثناء الحرب الباردة، ولكن لا علاقة لها بالمشاكل العسكرية المحتملة في القرن الحادي والعشرين.

وفي تقدير ريتشارد جاردنر السفير السابق في إسبانيا وإيطاليا أن الولايات المتحدة تتفق بنسبة ١٦ إلى واحد على الأقل للإعداد للحرب أكثر مما تتفق لمنعها^(٤٣). وفي تسعينيات القرن العشرين كانت الولايات المتحدة مقصرة بشكل فاضح في دفع التزاماتها للأمم المتحدة، ودفع متأخرات قدرها ٤٩٠ مليون دولار لعدة بنوك تنمية متعددة الأطراف. وبالمقارنة كانت الولايات المتحدة على وشك امتلاك ميزانيات دفاع سنوية تتجاوز ٤٠٠ بليون دولار، وذلك في أعقاب هجمات ١١ سبتمبر الإرهابية.

والمؤشر الثالث للنزعة العسكرية هو التفاني في وضع سياسات تصبح فيها الجاهزية العسكرية هي الأولوية الأعلى للدولة. وقد قال الرئيس جورج دبليو بوش في خطبته الافتتاحية لرئاسته: "سوف نبني دفاعاتنا لتتجاوز كل تحد خشية أن يؤدي الضعف إلى استجلاب التحدي. وسوف نواجه أسلحة الدمار الشامل حتى نجنب القرن الجديد أهوالا جديدة". ولكن لا توجد لدى أية دولة القدرة على تحدى الولايات المتحدة. وحتى عندما تحدث الرئيس الجديد كان المعهد الدولي لأبحاث السلام في ستوكهولم يجمع نسخة كتابه السنوي الجدير بالاعتماد عن عام ٢٠٠١. وقد أوضح أن الإنفاق العسكري العالمي ارتفع إلى ٧٩٨ بليون دولار في عام ٢٠٠٠ بزيادة قدرها ٣,١٪ عن العام السابق. وبلغ نصيب الولايات المتحدة نسبة ٣٧٪ من هذا المبلغ وهي أكبر نسبة إلى حد بعيد. وكانت الولايات المتحدة أيضا أكبر بائع أسلحة في العالم ومسؤولة عن ٤٧٪ من جميع صفقات الذخيرة بين عامي ١٩٩٦ و ٢٠٠٠. وهكذا كانت البلاد قد جهزت جيدا للحرب عندما تولى بوش الأصفر رئاستها. ومادامت إدارته مولعة بمزيد من زيادة قدرات أميركا العسكرية - وهي علامة على النزعة العسكرية لا على الجاهزية العسكرية - فقد كان على تلك الإدارة أن تخترع مخاطر جديدة لكي تقنع الناس بأن هناك حاجة إلى المزيد. وقد جاءت هجمات ١١ سبتمبر الإرهابية - من جوانب كثيرة - وكأنها هبة من السماء لإدارة مصممة على دفع الميزانيات العسكرية إلى الأعلى.

ومع بداية القرن الحادي والعشرين اشتملت الترسانة النووية الأميركية على ٥٤٠٠ رأس نووية ذات قدرة متعددة من الميجاتون ومركبة على قمة صواريخ بالستية عابرة للقارات على الأرض وفى البحر. و ١٧٥٠ قنبلة نووية إضافية، وصواريخ كروز جاهزة للانطلاق من القاذفات بى - ٢ وبى - ٥٢. فضلا عن ١٦٧٠ سلاحا نوويا ومصنفة على أنها أسلحة " تكتيكية ". وهناك أيضا رعوس نووية إضافية لم يتم نشرها بالكامل، ولكنها متاحة للعمل ويبلغ عددها ١٠ آلاف أو نحو ذلك وهى مخزنة فى مخابئ فى جميع أنحاء الولايات المتحدة^(٤٤). وقد يظن البعض أن كل هذا يكفى وأكثر للجهازية لردع الدول الثلاث الهزيلة التى عرفها الرئيس فى بداية عام ٢٠٠٢ بأنها تمثل أكبر الدول عداء لبلاده. وكانت اثنتان منها وهما إيران وكوريا الشمالية تحاولان إقامة نوع من العلاقات الودية مع الولايات المتحدة دون نجاح. إن أبرز برهان على صعود عقلية جبلت على النزعة العسكرية يتمثل فى القدرة المذهلة على الإبادة لدى ترسانتنا النووية وقدرتها على تدمير الكوكب الأرضى أكثر من عدة مرات، والافتقار إلى أية صلة منطقية بين الوسائل النووية والغايات النووية.

ولم تتسبب حرب أو واقعة واحدة فى بروز النزعة العسكرية الأميركية. بل إنها ظهرت فى الحقيقة من عدة خبرات للمواطنين الأميركيين فى القوات المسلحة، ومن أفكار عن الحرب أخذت تتطور من حرب إلى التى تليها، ونمو صناعة تسليح هائلة. وفى ذروة حرب فيتنام قال رونالد ستيل الباحث فى العلاقات الدولية : " نحن نؤمن بأننا مسؤولون عن الدفاع عن الدول فى كل مكان ضد الشيوعية. وليس هذا طموحا إمبرياليا، ولكنه قاد بلادنا إلى استخدام وسائل إمبريالية مثل إنشاء الحاميات العسكرية فى جميع أنحاء العالم، ومنح معونات للزبائن من الحكومات والسياسيين، وتطبيق العقوبات الاقتصادية، وحتى استخدام القوة العسكرية ضد دول متمردة، وتوظيف جيش حقيقى من مديرين استعماريين يعملون من خلال منظمات مثل وزارة الخارجية ووكالة التنمية الدولية ووكالة الاستعلامات الأميركية ووكالة الاستخبارات المركزية. ومع تزايد تعودنا على إمبراطوريتنا وإدراكنا أنها أمر مبهج. انتهىنا إلى اعتبار مؤسساتها وادعاءاتها أمورا مسلما بها. وهذه فى الحقيقة علامة على وجود سلطة إمبراطورية مقتنعة بأن على مؤيديها ألا يرتابوا أبدا فى فضائل الإمبراطورية، رغم أنهم ربما يناقشون طريقة إدارتها ولا يمكن بأى حال أن يشكوا فى أنها تعمل من أجل أفضل ما فى صالح أولئك الذين يخضعون لحكمها " .

وقد أصبح الاستخدام الدائم للأساليب الإمبراطورية عبر مساحة زمنية تبلغ أربعين سنة، سببا للإدمان، وفي النهاية حولت هذه الأساليب مؤسسة الدفاع إلى مؤسسة ذات نزعة عسكرية، وعلى وجه السرعة تضخم حجم ومجال الدور الذي لعبته القوات العسكرية في حياة الأمة السياسية والاقتصادية.

الفصل الثالث

نحوروما الجديدة

• إنه نفس الحلم القديم ... السيطرة على العالم.

إيان فلمينج
فيلم دكتور نو (١٩٥٨)

أصبحت كلمة " إمبراطورية " فى العرف السياسى الأمريكى مصطلحا للعار. وقد اشتهر الرئيس ريجان باستخدامه لدمغ الاتحاد السوفيتى بصفة شيطانية فأطلق عليه اسم "إمبراطورية الشر". وقد وجدت فكرة الإمبراطورية زخما هنا منذ نهاية الحرب الباردة، ومنذ هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ بشكل خاص. ويصف أندرو باسيفتش أستاذ العلاقات الدولية ذلك التغير بقوله: " فى كل حياة الأمريكيين العامة يندر أن تجد شخصا بارزا واحدا يتلمس قصورا فى الفكرة القائلة بأن الولايات المتحدة هى القوة العظمى الوحيدة الباقية فى العالم حتى نهاية الزمان "(١). وحتى ما قبل ظهور المغالين فى التعصب القومى أيام الحرب الإسبانية - الأمريكية، لم يناد مثل هذا العدد الكبير من الأمريكيين علنا بتأييد النزعة الإمبراطورية وبالتخلى حتى عن التظاهر باتباع سياسة خارجية دستورية وديموقراطية. والآن ينقسم أصحاب النزعة الإمبراطورية إلى مجموعتين : مجموعة تدعو إلى هيمنة أمريكية على العالم من جانب واحد ودون قيود (وتعتبر عن ذلك أحيانا بعبارة اتباع خطى الإمبراطورية البريطانية)، وأخرى تدعو إلى إمبريالية ملتزمة بأهداف " إنسانية ". ويمثل المجموعة الأولى تمثيلا دقيقا الكاتب الصحفى تشارلز كراوتهامر فى عموده واسع الانتشار فى صحيفة واشنطن بوست. وبعد هجمات ١١ سبتمبر الإرهابية هلل " لنجاح " حملة القصف الأمريكية فى أفغانستان وذلك فى مقالة عنوانها " النصر يغير كل شئ " الذى قال فيه : " الحقيقة الأولية التى يبدو أنها تغيب عن الخبراء مرارا وتكرارا - سواء فى حرب الخليج أو أفغانستان أو الحرب القادمة - هى أن السطوة هى جائزتها، والنصر يغير كل شئ. السلوك النفسى فوق كل شئ. والنفسية السائدة الآن فى المنطقة (آسيا الوسطى) هى الشعور بالخوف من السطوة الأمريكية والاحترام العميق لها. وقد حان الوقت لاستخدامها فى ردع وهزيمة وتدمير نظم الحكم الأخرى فى المنطقة التى تؤوى الإرهاب الراديكالى الإسلامى "(٢)، ولكن حتى منذ ستة أشهر قبل إعلان الرئيس "

الحرب على الإرهاب"، فإن كراوتهامر أصر على القول بأن "أميركا لم تعد المواطن العالمى .. إنها القوة المهيمنة على العالم والأكثر سيطرة منذ الإمبراطورية الرومانية. وبناء على ذلك فإن أميركا فى مكانة تسمح لها بإعادة تشكيل المعايير وتغيير الآمال وخلق حقائق جديدة ... كيف؟ باستعراضات الإرادة الشرسة غير التبريرية" (٣). ويوافق كثيرون من بين طبقة المعلقين كراوتهامر فيما يقوله، ويعتقد روبرت دى كبلان بأن على الولايات المتحدة ألا تكتفى بدور خليفة الإمبراطورية البريطانية فحسب بل يجب أن نكون مبالغين فى الكتمان والخداع بشأن هذا الدور " ذلك لأن الوسائل السرية أكثر حصافة وأرخص تكلفة من الحرب المعلنة ومن التعبئة على نطاق واسع، ولن يتوفر إلا القليل من الوقت لإجراء مشاورات ديموقراطية سواء مع الكونجرس أو الأمم المتحدة" (٤). ويرى والتر رسل ميد عضو مجلس العلاقات الخارجية أن الولايات المتحدة هى : "جيروسكوب النظام العالمى(*)". وأنها تخشى من أن الشعب الأمريكى لو ترك لخياراته الذاتية فى عالم ما بعد الحرب الباردة لاختار تسريح القوات المسلحة مثلما فعل فى الماضى، وعودة البلاد إلى المعايير الدستورية المشرفة والقيود المفروضة على السلطة التنفيذية. ولمنع ذلك من الحدوث يؤيد ميد نزعة إمبراطورية صريحة للء الفراغ الذى خلفته الحرب الباردة (٥). وقليل من هؤلاء الكتاب من يرغب فى الإسهاب فى تفاصيل ما كانت تفعله الولايات المتحدة فى الماضى بصلاية وما ينبغى أن تستمر فعله للمحافظة على إمبراطوريتها. ومنذ أن حوّلنا اليابان وكوريا الجنوبية إلى توابع سياسية فى أواخر أربعينيات القرن الماضى، والولايات المتحدة تدفع رشى لنظم عميلة إما بطريق مباشر أو من خلال الغش التجارى لكى تظل تلك النظم مطيعة ومخلصة. وقد علمنا إرهاب الدولة لآلاف من العسكريين ومسؤولى الشرطة الأمريكىين اللاتينيين فى مدرسة الأمريكتين التابعة للجيش فى فورت بينينج فى ولاية جورجيا، واستخدمنا وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وصندوق النقد الدولى لفرض تغييرات فى نظم الحكم من خلال الانقلابات والاعتقالات وتقويض الاقتصادات، كما قمنا بقصف وغزو دول شقت عصا الطاعة على سيطرتنا أو عارضتها. وكانت التكلفة المدنية لعمليات الحرب الباردة هذه مرتفعة. ولو ضربنا مثالا واحدا فقط لوجدنا أن أصحاب النزعة العسكرية الذين ساعدتهم الولايات المتحدة على الاستيلاء على السلطة فى إندونيسيا ذهبوا ما لا يقل عن نصف مليون مواطن من شعبهم بزعم أنهم مؤيدون للحزب الشيوعى. وقد أمدت سفارتنا الجيش الإندونيسى بقوائم بأسماء أناس ترى وجوب إعدامهم (٦).

(*) الجيروسكوب هو جهاز حفظ التوازن فى الطائرات والسفن وتحديد الاتجاه فيهما. (المترجم)

وفى أميركا اللاتينية انتهجت الولايات المتحدة سياسة هى صورة طبق الأصل لما سُمى فى الاتحاد السوفييتى السابق باسم " مبدأ بريجنيف " الذى قضى بتدخل القوات المسلحة السوفيتية ضد أية دولة اشتراكية تحاول الانسحاب من الكتلة السوفيتية مثلما فعلت تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨. وفى يوم ٢٠ ديسمبر ١٩٨٩ أرسل جورج هـ. دبليو بوش ٢٦ ألف جندى بمن فيهم القوات الخاصة للحرب غير التقليدية وجنود الصاعقة التابعة للجيش والفرقة الثانية والثمانين المحمولة جوا، إلى بنما للإطاحة بزعيم محلى هو مانويل أورتيجا الحليف السابق " وأحد مصادر " السى آى إيه الذى توقف عن طاعة أوامر واشنطن. وأثناء قصف مدينة بنما قتل العسكريون الأميركيون من ٣ آلاف إلى ٤ آلاف مدنى من مواطنى بنما (لا أحد يعلم على وجه اليقين العدد بالضبط. ولا أحد فى الولايات المتحدة إطلاقا أبدى اهتماما باكتشاف العدد). وتحدث شاهدو عيان وعدة جماعات إنسانية مستقلة عن أعمال وحشية واسعة النطاق تضمنت قتل مدنيين عزل من السلاح وجرف جثثهم إلى مقابر جماعية، وحرق حى العمال القديم فى إل كوريللو. وكانت نية بوش الواضحة هى قتل القسم الأعظم من جيش بنما الذى يمثل القوة الرئيسية الداعمة لنورييجا، والتأكد من أن تلك الدولة سوف تبقى فى الفلك الأمريكى حتى بعد استعادة سيادتها على قناة بنما. وكانت القصة المبررة للعملية التى سميت " عملية القضية العادلة " هى أن نورييجا كان يتاجر فى صفقات المخدرات المتجهة إلى السوق الأمريكية.

و حدث استعراض القوة بعد أسابيع قليلة من سقوط حائط برلين. وكان جورباتشوف قد تنصل قبل ذلك من مبدأ بريجنيف فى خطابه فى العام السابق أمام الأمم المتحدة.

و فى عشية عيد الميلاد عام ١٩٨٩ اجتمع جاك ماتلوك السفير الأمريكى لدى موسكو بنائب وزير الخارجية آى. بى أبويموف لجلس نبضه حول النوايا السوفيتية فى أوروبا الشرقية فقال له أبويموف: " نحن نقف ضد أى تدخل فى الشؤون الداخلية للدول الأخرى. ونحن ننوى اتباع هذا الخط بدقة وبدون خروج عنه. ولذلك يمكن للجانب الأمريكى أن يعتبر " مبدأ بريجنيف " بين يديه باعتباره هديتنا إليه " (٧).

و تعتبر أعمال مثل غزو بنما جانبا جوهريا من السلوك الإمبراطورى. وعندما يوضع السجل التاريخى فى الاعتبار فإن السياسة الخارجية الأمريكية قد لا تقيم

دليلا على أنها كانت بشكل خاص استثنائية أو شريرة، ولكن الفجوة سوف تستمر في الاتساع بين ما كانت الحكومة تقوم به والإيضاحات التي قدمتها لعامة الناس. ويحلو لأصحاب النزعة الإمبراطورية لدينا أن يؤكدوا أنهم كانوا يحاولون فقط مجرد تحقيق قدر من "الاستقرار" للعالم. ويدعون أن الأيدي القذرة تعود إلى الإمبراطوريات القديمة لا إلينا نحن، وإذا اعتبروا أننا نتتبع الخطى البريطانية يدعون أننا لم نسر على خطى أسلافنا كذلك، فعلى سبيل المثال يؤمن ماكس بوت رئيس التحرير السابق لصحيفة وول ستريت جورنال بأننا "إمبراطورية جذابة" ويقول: "إن أفغانستان وبلادا مضطربة أخرى تصرخ ملتزمة مثيلا للحكومة الأجنبية المستتيرة التي أقامها ذات مرة الإنجليز الوثائق بأنفسهم ذوو السراويل الضيقة والقبعات الفلينية" (٨). وليس واضحا ما إذا كان ماكس بوت غير مبال بالقهر عديم الرأفة والدموى الذي ساند الإمبراطورية البريطانية. أو أنه لم يسمع أبدا بأحداث مثل مذبحة أرميتسار عام ١٩١٩ التي أخذ فيها الجيش البريطاني يمعن في قتل أهل البنجاب إلى أن نفذت ذخيرته أو أنه لم يسمع أيضا باستخدام جزر أندمان كمعسكر للسجناء السياسيين مزود بكامل أدوات التعذيب والعمل الإجباري، أو القصف بالقنابل والرشاشات أو استخدام الغاز السام ضد الثوار العراقيين بعد أن استولت بريطانيا على العراق من الأتراك في أعقاب الحرب العالمية الأولى، أو قرار تقسيم الهند الذي أدى إلى القتل بالجملة للهندوس والمسلمين، أو بحرب كشمير الدموية المستمرة طوال خمسين عاما. فإذا كان ذلك كله هو الحكومة الأجنبية المستتيرة فإن الإنسان يصيبه الفزع لو تصور كيف تبدو الحكومة الإمبريالية غير المستتيرة.

والتراث الفكري للمحافظين الجدد مدعى الانتصار في أميركا هو خليط من نزعة تيودور روزفلت الإمبراطورية العسكرية ونزعة وودرو ويلسون الإمبراطورية المثالية. وتمتد جذور معظم المحافظين الجدد إلى اليسار لا إلى اليمين. وقد جاء بعضهم من الحركة التروتسكية في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي. وخلال الثلاثين عاما الأولى من الحرب الباردة تبنا ليبرالية معادية للشيوعية قادتهم إلى اعتناق النزعتين العسكرية والإمبراطورية لدى جناح اليمين أثناء إدارة ريجان. وأيد مفكرو الدفاع من هؤلاء المحافظين الجدد الحرب الوقائية المبنية على أساس النموذج الإسرائيلي عام ١٩٨١ والمتمثل في الغارة الإسرائيلية على مفاعل أوزيرك النووي العراقي. ولكنهم في نفس الوقت تحمسوا لنشر الديمقراطية القسرى. أو على الأقل ادعوا ذلك في

دعايتهم. وأطلق واحد من مؤيديهم وهو ماكس بوت، عبارة " المذهب الويلسوني الصارم " (٩) على سياسة المحافظين الجدد الخارجية. ويعتبر أن تاج إنجازاتهم الحرب ضد العراق عام ٢٠٠٣ التى قامت فيها الولايات المتحدة باجتياح تلك الدولة فى هجوم عسكري من جانب واحد ثم احتلالها. وكما قال المؤرخ بول كيندى : " كان لدى العراق ديموقراطية على النمط الغربى أقحم عليها مزيج غريب من مثالية ويلسون واستعراض العضلات الريجاني " (١٠).

وهناك مجموعة أميركية أخرى من الأيديولوجيين يمكن أن يطلق عليها : " أصحاب النزعة الإمبراطورية الإنسانية " وهم ليبراليون عولميون يتحدثون مباشرة من وودرو ويلسون. ويؤمنون " بجعل العالم آمنا من أجل الديموقراطية " فى إطار فكرة أيدها الرئيس السابق بيل كلينتون مفادها أن التاريخ يقف إلى جانب الولايات المتحدة (وهكذا وقبل رحلة كلينتون إلى بكين مباشرة فى عام ١٩٩٨ ، عاقب الصين لأنها تتوق إلى " الجانب الخاطئ من التاريخ " رغم أنها أقدم حضارة فى العالم ما تزال باقية ومستمرة) ويفضل أصحاب النزعة الإمبراطورية الرقيقة هذه استخدام مصطلح " النزعة الإمبراطورية " مع عبارة ملطفة تلحق بها مثل : " النزعة الإمبراطورية ما بعد الحداثة " و " النزعة الإمبراطورية المخففة (لايت) " و " النزعة الإمبراطورية الجديدة " و " النزعة الإمبراطورية الليبرالية ". وقبل الجميع عبارة : " الحق فى التدخل الإنسانى " (١١). وباعتبار أنهم من أتباع نهج ويلسون، نجدهم مثلا يؤيدون حق تقرير المصير لشعوب مثل الفلسطينيين بينما نجد لدى المحافظين الجدد سجلا من اللامبالاة بمحنتهم.

ويعتبر سباستيان مالابى كاتب الافتتاحيات بصحيفة واشنطن بوست مؤيدا نموذجيا لمثل هذه النزعة الإمبريالية الليبرالية إذ يقول : " يدرك العالم الثرى بوتيرة متزايدة أن الفوضى تهدد مصالحه ... وأنه لا يملك الأدوات اللازمة لعلاج هذه المشكلة " (١٢) ويرى أن التعامل مع خطر " الدول الفاشلة " يقتضى قيام " أميركا ذات نزعة إمبراطورية " بملء الفجوة الكونية. ويضيف قوله : " ليست المسألة ما إذا كانت الولايات المتحدة سوف تسعى إلى ملء الفراغ الناشئ عن وفاة الإمبراطوريات الأوروبية. ولكن المسألة هى ما إذا كانت سوف تسلم بأن ذلك هو ما تفعله " ولم يشر فى أى وقت إلى أن النزعة الإمبراطورية الأوروبية (مثلها مثل الأميركية واليابانية) هى السبب

الجذرى لوجود الدول الفاشلة اليوم فيما جرت العادة على تسميته بالعالم الثالث. ويقترح مالابى - من بين أشياء أخرى - أن تنشئ الولايات المتحدة منظمة " دولية " جديدة تهيمن عليها أميركا وتصمم على نمط صندوق النقد الدولى والبنك الدولى " ملء الفراغ الأمنى الذى خلفته الإمبراطوريات " .

وتتمثل المسألة المعقدة فى قلب النزعة الإمبراطورية الليبرالية فى " التدخل الإنسانى " (وبشكل عام لا يهتم دعاة الانتصار من المحافظين الجدد بأى شىء يتلزم مع صفة "الإنسانية") والفكرة من هذه العبارة هى أن دولة قوية يمكن أن تنتهك سيادة دولة أخرى أو حتى تعزل إدارتها قسرا من أجل أن توقف أو تمنع انتهاكات كبيرة لحقوق الإنسان، أو التطهير العرقى، أو الإبادة الجماعية، أو إرهاب الدولة، أو عمليات " فرق الموت"، أو الهجمات العسكرية الانتقامية واسعة النطاق ضد المدنيين. وتشير اللجنة الدولية للتدخل وسيادة الدولة، التى يرأسها وزير خارجية أسترالى سابق، إلى مثل هذه الأعمال بعبارة " مسؤولية الحماية " وتضع شروطا لتبرير عمليات التدخل فى أى وقت.^(١٢) وتتضمن تلك الشروط وجود أذى خطير للبشر غير قابل للإصلاح وقائم بالفعل أو على وشك الوقوع، واعتبار استخدام القوة العسكرية الملاذ الأخير، وأن تكون القوة العسكرية المستخدمة ملائمة فى حجمها، مع وجود فرص نجاح معقولة.

و منذ بدايات تسعينيات القرن العشرين أعلنت الولايات المتحدة مثل هذه الدوافع الإنسانية فى سلسلة من التدخلات المسلحة فى الصومال وهايتى والبوسنة وكوسوفو. ولم يكن التدخل الإنسانى قد طرح أصلا كاملا لغزونا أفغانستان. ولكن بعد أن أصبحنا هناك زعمت إدارة بوش أن المعاملة القاسية للأفغانيات تحت حكم طالبان، كانت واحدة من اهتماماتنا. ومع ذلك لم تكن تلك مسألة شغلت بال قادتنا الأمريكيين أثناء ثمانينيات القرن الماضى عندما سلحوا بسخاء ودعموا القوات التى أصبحت طالبان. وخلال تلك السنوات تخلت الولايات المتحدة وكثير من حلفائها عن " مسؤولياتهم " تجاه الروانديين وسكان أقصى جنوب المكسيك والشيشان وأهل التبت والكشميريين والتيموريين والفلسطينيين. ولا أحد ينكر أن التدخل الأجنبى لإنقاذ حياة الأبرياء قد يكون مطلوبا فى حالات قصوى. ولكن المسألة هى من يستطيع أن يعلن أن التدخل العسكرى إنسانى. وترى اللجنة الدولية أن مجلس الأمن الدولى وحده هو الذى يجب أن يجيز ويقتن أنشطة من هذا النوع. ومهما كان المبرر والإعلان الذاتى

للتدخل الإنسانى مثل تدخل الولايات المتحدة فى الصومال أو صربيا، فإن ذلك يصبح عملا من أعمال النزعة الإمبراطورية. ومما يؤدي بالفعل إلى إلحاق الضرر بالعلاقات الدولية أن يفرض أحد مبدأ جديدا مثل "مسؤولية الحماية" من جانب واحد لتصبح مسؤولية آخر قوة عظمى فى العالم وحدها وعندئذ تتولاها عندما ترى أن ذلك يلائمها.

ومنذ هجمات يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١ لم تُرد حكومتنا تفويضا من مجلس الأمن الدولى بشأن حربها الخارجية (وهى لم تفعل ذلك على الإطلاق) وبدا أنها لا ترى أنها فى حاجة إلى هذا التفويض. وكانت خطبة الرئيس بوش فى الأمم المتحدة يوم ١٢ سبتمبر ٢٠٠٢ تمثل إنذارا أكثر منها طلبا إذ قال: "إذا لم تكن الأمم المتحدة تنوى اتخاذ إجراء ضد العراق فسوف تفعل الولايات المتحدة ذلك وحدها" وفى يوم ١٩ مارس ٢٠٠٣ نجح فى تنفيذ إنذاره وشن الحرب بنفسه لأنه كان يواجه لجوءا إلى الفيتو مؤكدا وربما هزيمة من أغلبية غاضبة إذا اضطر إلى اللجوء إلى مجلس الأمن للحصول على تفويض منه بشأن الحرب على العراق. وتعنى النزعة الإمبراطورية من بين أشياء أخرى، التصرف من طرف واحد عند اتخاذ القرار وممارسة أعمال الدولة بغض النظر عن الدافع الإنسانى أو غير ذلك من الدوافع الأخرى التى قد ترددها. وهناك دراسة مهمة موضوعها "حكم القوة أم حكم القانون" وقد قامت بها منظمتان لا تسعيان للربح هما معهد أبحاث الطاقة والبيئة ولجنة المحامين للسياسة النووية. وقد حلت الدراسة استجابة الولايات المتحدة لثمانى اتفاقيات دولية رئيسية بما فيها معاهدة حظر الانتشار النووى. ومعاهدة الحظر الشامل للتجارب النووية، ومعاهدة الصواريخ المضادة للصواريخ عابرة القارات. وتقول نيكول ديلر المؤلفة المشاركة فى التقرير "انتهكت الولايات المتحدة أو ساومت أو عمدت بوسائل حاسمة إلى تفويض كل اتفاقية قمنا بدراستها بالتفصيل" (١٤) وتضيف نيكول قائلة: "إن الولايات المتحدة لم ترفض فحسب المشاركة فى آليات قانونية ابتكرت حديثا، بل تخلت عن الوفاء بالالتزامات التى تعهدت بها فى المعاهدات التى صدقت عليها"

ووفقا للتقرير فإن الولايات المتحدة "انجرفت بعيدا عن اعتبار المعاهدات عنصرا جوهريا فى الأمن العالمى، وتحولت الولايات المتحدة إلى موقف الالتزام بالمعاهدات التى ترضيها فقط". ومن أبرز الأمثلة على دوافعها الأحادية محاولتها تفويض المحكمة

الجنائية الدولية التى هى أول محكمة دائمة للعالم للنظر فى جرائم الحرب. وفى يوم ٢١ ديسمبر ٢٠٠٠ وقّع الرئيس بيل كلينتون المعاهدة التى أنشأت المحكمة التى كانت قد وضعت مسودتها من قبل أثناء محادثات متعددة الأطراف فى روما فى يوليو ١٩٩٨، وتلا ذلك التوقيع والتصديق عليها من جميع الدول الديمقراطية الحليفة لأميركا والمقربة إليها، ولكن إدارة جورج بوش الابن خشيت أن يجد بعض كبار المسؤولين الأمريكيين أنفسهم ذات يوم مطلوبين للمثول أمام المحكمة (رغم أن الضمانات التى فى المعاهدة تجعل من ذلك احتمالا مستبعدا)، ولم تكتف برفض تقديم المعاهدة إلى مجلس الشيوخ للتصديق عليها، ولكنها لم توقع عليها بأثر رجعى فى خطوة غير مسبوقة. وكتب الصحفى دافيد موبرج قائلا : " إن رفض الولايات المتحدة للمحكمة هو فى الأساس بيان رمزى بأن أميركا ليست مسؤولة أمام أحد ... ويريد بوش أن تنصرف الولايات المتحدة باعتبارها المحقق والشرطى والمدعى العام والقاضى ومنفذ حكم الإعدام للعالم أجمع. وهذا هو نموذج إمبراطورى وليس إعلانا للسيادة" (١٥) وفى نفس الوقت أعلنت الإدارة أنها لم تعد مرتبطة باتفاقية جنيف لعام ١٩٦٩ الخاصة بقانون المعاهدات الذى يطالب الدول الموقعة بالامتناع عن اتخاذ خطوات تقوض المعاهدات التى وقعت عليها حتى ولو لم تقم بالتصديق عليها. وبالنسبة لمعاهدة المحكمة الجنائية الدولية كانت الولايات المتحدة قد وقعت عليها، ولكنها لم تصدق على اتفاقية جنيف.

وأصبحت حكومتنا مصابة بعقدة الاضطهاد إزاء موضوع تلك المحكمة إلى درجة أنها حاولت منع ريتشارد هولبروك السفير الأمريكى السابق لدى الأمم المتحدة حتى من الإدلاء بشهادته أمام محكمة الأمم المتحدة الخاصة حول جرائم الحرب المنعقدة فى لاهاي وذلك أثناء محاكمة سلوبودان ميلوسوفيتش الرئيس الصربى السابق بسبب جرائم الحرب التى ارتكبتها. وزعمت وزارة الخارجية أنها خشيت من إرساء سابقة تعاون مع محكمة جنائية دولية تشمل ولايتها القضائية الأفراد إذا سلمنا بأن معاهدة المحكمة الجنائية الدولية تم التصديق عليها بنجاح من عدد كاف من الدول وأصبحت قائمة رغم المعارضة الأمريكية (١٦). وفى ١١ مارس ٢٠٠٢ بدأت المحكمة عملياتها الرسمية فى لاهاي للنظر فى تهم جرائم الحرب التى ارتكبت بعد أول يوليو ٢٠٠٢. وتحسبا لهذا التطور كان مجلسا الكونجرس قد وافقا على قانون حماية أعضاء الدوائر الأمريكية الذى يسمح فى الواقع للولايات المتحدة باستخدام القوة العسكرية لتحرير أى مواطن

أميريكي تحتجزه المحكمة. أما رجال السياسة الهولنديون حلفاء الأميركيين منذ زمن طويل، فقد أدهشهم ذلك وأثار غضبهم واعتبروه محاولة لا معنى لها لإثارة الاهتمام، وفي سخرية مرة أطلقوا على ذلك القانون اسم " قانون غزو لاهاي" (١٧).

وزعمت إدارة بوش أنها تخشى من محاكمات تملئها النزوات لمسؤوليها وضباطها العسكريين وتجريها محكمة خارجية عن سيطرتها، حتى رغم احتواء معاهدة روما على كثير من الضمانات ضد المحاكمات التعسفية، ومن بين هذه الضمانات حق أية دولة في الأسبقية على المحكمة الجنائية الدولية في محاكمة مواطنيها بسبب جرائم الحرب، فإذا كانت الولايات المتحدة تقاوم إقامة محكمة تستطيع محاكمة أفراد لارتكابهم جرائم حرب، فإن سبب مقاومتها بالتحديد هو أن أنشطتها الإمبراطورية تستدعي حتما ارتكاب مثل هذه الجرائم في أغلب الأحوال. ولقد كانت الولايات المتحدة الدولة الوحيدة التي أدانتها المحكمة العالمية القديمة بتهمة الإرهاب (وتستطيع هذه المحكمة محاكمة الدول فحسب لا الأفراد) بسبب العمليات السرية التي كانت تقوم بها إدارة ريجان لتقويض وتدمير حكومة ساندينستا في نيكاراغوا عام ١٩٨٤.

وقد زعمت الإدارة دائما أن معارضتها للمحكمة الجنائية الدولية تعود إلى رغبتها في تحصين موظفيها العاديين وصغار مسؤوليها من الاتهامات بارتكاب جرائم حرب، ولكن يتضح أن قلقها الحقيقي هو من أن المحكمة قد تحاول محاكمة الرئيس بوش أو غيره من القادة المدنيين والعسكريين البارزين. ومع تذكر الإدارة جيدا تأثير تحقيقات المدعى العام الخاص كينيث ستار مع الرئيس السابق بيل كلينتون بسبب مغالته الجنسية لمونيكا لوينسكى، تتخوف من أنه إذا فتح مدع عام دولي تحقيقا علنيا في أعمال الرئيس بوش فسوف يكون له تأثير سياسى ضار حتى لو لم يؤد التحقيق إلى توجيه الاتهام إليه (١٨). ولم تكن تلك المخاوف بعيدة الاحتمال فالجنرال ويزلى كلارك قائد حرب النيتو الجوية ضد الصرب مسؤول، بناء على اتفاقية جنيف ١٩٤٩، عن عدم إيقافه القصف غير القانونى لوحداث معالجة المياه والمستشفيات والمدارس، والذي أدى إلى مصرع ألفى مدنى، وكذلك الحال بالنسبة للجنرال البوسنى الصربى دراجان أوبرينوفيتش الذى قاد الهجوم على سربرينتسا فى يوليو ١٩٩٥ ونتيجة لذلك أحيل إلى محكمة جرائم الحرب فى لاهاي لمحاكمته. ويود المدعون العامون فى تشيلى والأرجنتين وإسبانيا وفرنسا تقديم هنرى كيسنجر وزير الخارجية السابق للمحاكمة لدعمه

ورعايته للنظم الديكتاتورية العسكرية فى البرازيل وتشيلي وأوروغواى وباراجواى وبوليفيا والأرجنتين وإكوادور بينما كانت هذه النظم فى سبعينيات القرن العشرين تقتل وتعذب " وتوارى " مواطنيها ومواطنى البلاد المجاورة^(١٩). ونفس الشيء بالنسبة لدولة تيمور الشرقية حديثة الاستقلال التى تحب أن تسأل كيسنجر تحت القسم عما كان يعنيه فى اليوم السابق لبدء غزو إندونيسيا لتلك الأراضى البرتغالية السابقة عام ١٩٧٥. وقد بدا أنه أعطى الضوء الأخضر لرجل إندونيسيا القوى الجنرال سوهارتو. وفى يوم ٦ ديسمبر ١٩٧٥ وبينما كان الرئيس جيرالد فورد وكيسنجر فى طريق العودة من زيارة لبكين، توقفا فى جاكارتا للاجتماع بسوهارتو. وأخبرهم الجنرال بخططه للاستيلاء على ذلك الإقليم ضد إرادة سكانه وضمه إلى إندونيسيا. ورغم أن الجيش الإندونيسى كان مسلحا جزئيا بأسلحة أميركية، ورغم أن استخدامها لأغراض محلية غير قانونى وفقا لقانون الولايات المتحدة، فإن كيسنجر قال : " من المهم أنك لابد أن تتجح بسرعة مهما كان ما تفعله " وتساءل كيسنجر عما إذا كان الإندونيسيون يتوقعون " حرب عصابات طويلة "، فأجاب الجنرال على مورتوبو، أحد مهندسى عملية الاستيلاء، قائلا : " العملية كلها ستتم فى ثلاثة أسابيع "^(٢٠) وأخذ الجيش الإندونيسى يمعن فى قتل نحو ٢٠٠ ألف من أبناء تيمور الشرقية.

ولم تكتف الإدارة بالخلاص من المعاهدات التى تعتبرها مزعجة لها بل رفضت أيضا أن تشترك فى نشاط دبلوماسى عادى مع حلفائها لجعل هذه المعاهدات أكثر قبولا. وهكذا انسحب ممثلو الإدارة ببساطة من بروتوكول كيوتو لعام ١٩٩٧ حول الاحتباس الحرارى العالمى الذى حاول البروتوكول كبحه من خلال التحكم فى انبعاثات ثانى أوكسيد الكربون. وادّعى هؤلاء الممثلون أن التكلفة الاقتصادية عالية جدا (وتولد الولايات المتحدة من هذه الانبعاثات أكبر بكثير من أية دولة أخرى) واستمر جميع حلفاء أميركا الديموقراطيين فى إنجاز المعاهدة رغم المقاطعة. وفى يوم ٢٣ يوليو، وفى بون بألمانيا، تم التوصل إلى اتفاق وسط بشأن قسوة الاستقطاعات فى الانبعاثات التى يجب على الدول المتقدمة إنجازها. وكذلك بالنسبة للعقوبات التى ستفرض عليها إذا لم تفعل ذلك. ونتج عن ذلك معاهدة ملزمة قانونا وافقت عليها ١٨٠ دولة. ولا يعتبر بروتوكول كيوتو المعدل عملا كاملا تماما، ولكنه بداية نحو تخفيض غازات الدفيئات. وبنفس الطريقة انسحبت الولايات المتحدة وإسرائيل من مؤتمر الأمم المتحدة حول التمييز العنصرى الذى عقد فى ديربى بجنوب إفريقيا فى أغسطس

وسبتمبر ٢٠٠١. أما الدول التي بقيت فقد صوتت ضد مطالب سورية بإضافة عبارة تتهم إسرائيل بالعنصرية. وفي البيان الختامي للمؤتمر أضافت أيضا إدانة للرق باعتبارها " جريمة ضد الإنسانية ". ولكنها فعلت ذلك دون إضافة صيغة قد تجعل الدول المتمسكة بتجارة الرقيق مسؤولة عن تقديم تعويضات. فإذا سلمنا بتاريخ العبودية في الولايات المتحدة وعرفنا إلى أى حد أجريت تعديلات على الوثيقة النهائية للمؤتمر لتهدئة القلق الأميركي لأدركنا أن الانسحاب كان تعبيرا عن نزق إمبراطورى أو بالأحرى رسالة " بأننا " لا نحتاج " إليكم " لإدارة شؤون العالم.

وفي أعقاب ١١ سبتمبر ٢٠٠١ عبر كثير من المراقبين للشؤون الداخلية والخارجية عن أملهم فى أن تتخلى الولايات المتحدة عن أحاديثها الإمبراطورية اعترافا بأن حربها ضد الإرهاب، أو على الأقل جهودها للسيطرة على تمويل الإرهاب. تتطلب حلفاء وجهدا دوليا هائلا وتناسقا^(٢١). ولكن تبين أن هذا الأمل كان وهما، ففي الشهور التي تلت ١١ سبتمبر قررت إدارة بوش من جانب واحد إلغاء الحقوق الممنوحة فى العادة لأسرى الحرب ورفضت منحها للمقاتلين الذين اعتقلتهم فى أفغانستان واحتجزتهم فى " كامب إكس راي " وهو عبارة عن مجموعة من الأقباص المبنية بالأسلاك فى الهواء الطلق فى القاعدة العسكرية الأميركية القديمة فى خليج جوانتانامو فى كوبا^(٢٢). كذلك أعلنت من جانب واحد أن إيران والعراق وكوريا الشمالية " دول مارقة " تشكل " محورا للشر " وتستحق ضربة استباقية دقيقة لتدميرها كلها أو بعضها. أو أية دولة أخرى تعتبر عدوا محتملا وتمتلك أو تخطط لامتلاك " أسلحة دمار شامل " أو أسلحة نووية أو كيميائية أو بيولوجية. وفى نفس الوقت قررت الولايات المتحدة إنتاج أسلحة نووية جديدة أو أكثر قابلية " للاستخدام " لنفسها، وقامت بعملية توسيع دراماتيكية للظروف التي يمكن للبنتاجون أن يعتبرها " مؤدية لحرب نووية " فى أى نزاع فى المستقبل. وقد فعلت الإدارة الأميركية كل ذلك فى انتهاك علنى لالتزامها بناء على معاهدة حظر الانتشار النووى بتقديم " تعهد واضح " بالتخلص من ترسانتها النووية^(٢٣). كذلك أعفت إدارة بوش نفسها من معاهدة تحظر صناعة أسلحة بيولوجية لأنها قد تؤدي إلى فتح مصانع صيدلانية " خاصة " أمام المفتشين الدوليين.

وإزاء براهين من هذا النوع توصلت فلورا لويس خبيرة العلاقات الدولية العريقة فى صحيفة نيويورك تايمز إلى نتيجة مؤداها أن " الولايات المتحدة أدارت ظهرها للمبادئ العالمية " وكانت تشعر بالقلق بشكل خاص من محاولتنا تخريب اتفاقية دولية

للحد من التجارة العالمية فى الأسلحة الصغيرة. وفى يوليو ٢٠٠١ أعلن جون بولتون وكيل وزارة الخارجية للرقابة على الأسلحة أن الولايات المتحدة عقدت النية على إحباط أية اتفاقية قد تضع قيودا على حق مواطنيها فى شراء الأسلحة النارية^(٢٤). أما البروفيسور مايكل جليتون إخصائى القانون الدولى فى مدرسة فليتشر للقانون والدبلوماسية بجامعة تافتس، فإنه يرى أن أحادية إدارة بوش ورفضها التقيد بقرارات مجلس الأمن الدولى يعنى أن " مواد ميثاق الأمم المتحدة التى تحكم استخدام القوة لم تعد تعتبر قانونا دوليا ملزما... وبشكل مأساوى أخذ الميثاق نفس مسار اتفاق كيلوج - برياند(*) لعام ١٩٢٨ الذى كان يرمى إلى تجريم الحرب والذى وقع عليه كل محارب من المتحاربين الكبار فى الحرب العالمية الثانية^(٢٥).

وفى نصف عام منذ ١١ سبتمبر أعدنا اختلاق صفة لأنفسنا باعتبارنا أكثر شعب محارب على الأرض. فكيف حدث هذا ؟ هذا السؤال يطرحه الكاتب الصحفى جيمس كارول من صحيفة بوسطن جلوب، ويجب عليه قائلا : " لأن هجمات سبتمبر كانت أول عنف ضخم تعانیه الولايات المتحدة منذ الحرب الأهلية ... وقد جعلتنا غير واثقين بأنفسنا وخائفين. ولكن فى أماكن أخرى من العالم كانت أهوال الحرب جميعها أمورا مألوفا جدا، أما بالنسبة لنا فهى تبقى فكرة مجردة. وتؤكد ذكريات سبتمبر كيف أن أهوال الحرب الحديثة لم تلمس المدن الأميركية على الإطلاق، وهذا هو السبب الوحيد فى أن نعرفنا على عرض القوة الأميركية يدور حول مشاهدة ضربات الروبوت والقصف الاستراتيجى وحتى الأسلحة النووية الصالحة للاستخدام، ويمثل كل هذا فشل الخيال الأميركي فى إدراك الأثر الحقيقى لمثل هذه الهجمات على الناس الحقيقيين. ونحن نشن الحرب دون أن نعرفها^(٢٦).

وإذا عدنا إلى عام ١٨٧٤ بعد الحرب الأهلية مباشرة نجد أن جيش البلاد العامل يتكون من قوة معتمدة قوامها ١٦ ألف جندي فقط وكان الجيش لدى معظم الأميركيين أقل أهمية من مكتب البريد مثلا. وفى تلك الأيام لم يكن أى أميركى فى حاجة إلى جواز سفر أو تصريح حكومى بالسفر خارج البلاد. وعندما كان المهاجرون يصلون إلى البلاد يتم فحصهم فقط ضد الأمراض المعدية ولم يكن مطلوبا منهم

(*) سمي الاتفاق أيضا: "اتفاق باريس" و اعتبر معاهدة متعددة الجنسيات لمنع استخدام الحرب كأداة فى السياسة الوطنية. وحمل الاتفاق اسمى فرانك كيلوج وزير الخارجية الأميركية وأرستيد برياند وزير الخارجية الفرنسية. وقد وقع الاتفاق فى باريس بعيدا عن عصبية الأمم فى ٢٧ أغسطس ١٩٢٨. (المترجم)

الإبلاغ عن تحركاتهم لأي شخص. ولم يكن هناك حظر على المخدرات، والتعرفات هي المورد الرئيسى. لدخل الحكومة الفيدرالية، ولا وجود لضريبة الدخل^(٢٧). وبعد مرور قرن وربع أصبح قوام الجيش الأمريكى ٤٨٠ ألف جندى، والسلاح البحرى ٣٧٥ ألفا، وسلاح الجو ٣٥٩ ألفا، والمارينز ١٧٥ ألفا، وبهذا يبلغ الإجمالى مليوناً و٣٨٩ ألف رجل وامرأة فى الخدمة العسكرية العاملة. وبلغت رواتب العسكريين عام ٢٠٠٢ مبلغاً قدره ٢٧،١ بليون دولار للجيش العامل، و٢٢ بليون دولار لكل من السلاح البحرى والسلاح الجوى، و٨،٦ بليون دولار للمارينز. واليوم تستطيع الحكومة الفيدرالية إذا أرادت الدخول خلسة إلى هواتف جميع المواطنين والتنصت على مكالماتهم وأجهزة الفاكس لديهم ورسائلهم الإلكترونية. وقد بدأت حبس المواطنين بالولادة والمواطنين بالتجنس والمسافرين فى سجون عسكرية دون توجيه أى اتهام إليهم، والرئيس وحده هو الذى يقرر من هو "المحارب غير المشروع" وهو اصطلاح ابتدعته إدارة بوش دون استئناف لقرار الرئيس. وتتمتع أكثر ميزانيات الدفاع وجميع الوكالات الاستخبارية بالسرية كما تتوفر جميع سمات نزع التسلط العسكرى وإقامة دولة أمن قومى.

ويتمثل أحد مظاهر النزعة العسكرية غير العادية فى القرن الحادى والعشرين فى أن الحكومة لديها خطط محكمة للمهينة على العالم لا بمجرد استخدام آلة عسكرية ضخمة على هذا الكوكب، بل من خلال السيطرة على الفضاء. ونجد أول ملمح لهذه التطلعات فى القصف الجوى ضد صربيا من ٢٤ مارس إلى ٢ يونيو ١٩٩٩. وكان الطيارون - وبعضهم يقود القاذفات ستيلث بي - ٢ - تأخذهم أشواط القصف من ميسورى إلى البلقان والعودة، وهكذا قاموا بأكثر من ٢٨٠٠٠ طلعة جوية فوق صربيا. وخلال هذه الحملة أسقطت طائرتان فقط ولم يصب أى أميريكى فى الاشتباكات. وقال الجنرال ريتشارد مايرز رئيس القيادة الفضائية الأمريكية آنذاك إن كوسوفو كانت "تمثل حرباً ذات إمكانيات فضائية" و"علامة جديدة للمستقبل". وقد سمحت الأقمار الاصطناعية العسكرية ونظام تحديد المواقع العالى للطائرات الأمريكية بشن غارات تتميز تقريبا بدقة القصف والهجمات الصاروخية الموجهة التى أبقت الجنود ورجال الجو فى مأمن من الخطر. وفى أغسطس ٢٠٠١ عين الرئيس جورج دبليو بوش الجنرال مايرز رئيساً لهيئة الأركان المشتركة ليصبح أول ضابط يمثل خلفياته يشغل أعلى منصب عسكرى فى الدولة^(٢٨).

وبعد أقل من شهر من هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ نشبت الحرب التالية ذات الإمكانيات الفضائية إذ بدأ الأمريكيون القصف من ارتفاعات شاهقة ضد أفغانستان

البلد المدمر أصلاً نتيجة حرب دامت عقدين من الزمن وجعلت طرد نظام طالبان الاستبدادى أمراً سهلاً. ورغم تقارير البنتاجون عن " الدمار الجانبي " العرضى، فإن الولايات المتحدة قتلت أعداداً من المدنيين الأفغان يماثل على الأقل أولئك الذين قتلتهم الهجمات الإرهابية على مركز التجارة العالمى والبنتاجون^(٢٩). ومع ذلك زعم العسكريون إحراز نصر عظيم دون أى ضحايا بين الأمريكيين فى مزيد من تبرير لجونهم إلى أسلوبهم فى شن الحرب ذات التقنية العالية والمعتمدة على الفضاء وفى عام ٢٠٠١ عين الرئيس بوش بيتر تيتس الرئيس السابق لشركة لوكهيد مارتن، فى منصب وكيل وزارة الدفاع لشؤون سلاح الجو ومدير المكتب القومى للاستطلاع الذى يعتبر أكبر وكالة استخبارات بلغة الميزانيات. وفى المنتدى القومى السنوى للفضاء الثامن عشر فى كولورادو سبرينجز فى أبريل ٢٠٠٢، انضم إليه الجنرال إد إيبرهات، الذى خلف الجنرال مايرز فى رئاسة قيادة الفضاء، وأيده فى تأكيد الرسالة التى تفيد بأن الولايات المتحدة تستطيع السيطرة على العالم من خلال الهيمنة على الفضاء وأنها تتوى ضمان هذه السيطرة. وأكد تيتس وإيبرهات على دور الفضاء فى الانتصار على طالبان ودللاً على ذلك بأن الأقمار الاصطناعية استُخدمت بكثافة فى الحرب وأنها " سمحا بالقصف الموجه بدقة فائقة فى أفغانستان من المقاتلات ومركبات فضائية غير مأهولة " ^(٣٠). وذكر إيبرهات أن تزويد القوات بوسائل الإرسال ذات النطاق العريض من الفضاء كان بنفس أهمية المعلومات الاستخبارية بالنسبة للجنود. وأضاف قوله : " نحن فى قيادة الفضاء زودنا الجنرال تومى فرانكس (القائد فى أفغانستان) بنطاق ترددات عريضة بلغت سبعة أضعاف ما كان لدى الجنرال نورمان شوارتسكوف، وكان لدى الجندى الواحد من تلك الترددات ٣٢٢ ضعف ما كان فى عاصفة الصحراء. أما جيف هاريس المدير السابق للمكتب القومى للاستطلاع، والمدير التنفيذى الآن بشركة نظم الفضاء التابعة لشركة لوكهيد، فقد أخبر المنتدى بأن " على الولايات المتحدة الآن أن تعمل بانتظام وبطريقة استباقية ومحترفة حول الكون باستخدام موارد قائمة فى الفضاء فى المناوشات المحلية... ويجب على القوات المسلحة الأمريكية أن تبث فى نفوس جميع أعدائها المحتملين رعباً مؤكداً من قدرات الولايات المتحدة ". وسخر وكيل الوزارة تيتس من أى حديث عن التعاون مع حلف شمال الأطلسى أو الأمم المتحدة أو أية أشكال أخرى من " المشاركة فى تحمل العبء " أو " التعددية ". وقال إن على الولايات المتحدة أن تفخر بقدراتها الأحادية وأن تستغل " تفوقنا الفضائى وسيطرتنا

على الفضاء لتحقيق النجاح القتالي في الحرب^(٣١). وأكثر من ذلك فإن التقنية السبرانية والبراعة العسكرية في استخدامها هي التي تغذى إعادة التفكير في المؤسسة العسكرية بأكملها ومهامها^(٣٢).

وحتى قبل حرب أفغانستان بدأت مجموعة من "مفكرى الدفاع" في الجناح اليميني في الدعوة إلى استراتيجية جديدة للهيمنة الكونية، وكان كثيرون منهم يعملون في إدارات جمهورية سابقة ومنحت لمعظمهم مرة أخرى مناصب رفيعة بالتعيين عندما تولى جورج دبليو بوش الرئاسة. وقد ركزوا على خطط لعقد أو عقدين قادمين وبنفس الأسلوب الذي اتبعه القبطان البحري ألفرد ميهان والسيناتور هنري كابوت لودج ومساعد الوزير للسلاح الجوي تيودور روزفلت الذين ركزوا جهودهم على القوة البحرية وقواعد المحيط الهادئ وتخصيص قوتين بحريتين للعمل في محيطين في نهاية القرن التاسع عشر. ونذر أن وثق أعضاء القرعة الجديدة في الرأي العام، ولكنهم أساتذة بارعون في استغلال الميديا التي يعترفون بأنها الشيء الذي "تعلموه" نتيجة لتجربة حرب فيتنام المريعة. وكما فعلت حادثة إغراق البارجة مين عام ١٨٩٨ أدت الأحداث الإرهابية عام ٢٠٠١ إلى إعطاء دفعة هائلة لأجندتهم الخاصة إذ عبأت العواطف والمشاعر الوطنية خلف المبادرات العسكرية التي لو حدثت في ظروف أخرى لكانت قد استجلبت تيارا سائدا خطيرا من الشكوك والاحتجاجات.

ويتعلق الإصرار على عسكرة الفضاء الخارجى والهيمنة على الكون، بوضع محطات قتالية في مدار حول الأرض وتسليحها بأنساق من الأسلحة تتضمن أشعة ليزر ذات طاقة عالية يمكن توجيهها نحو أى هدف على الأرض أو ضد أقمار اصطناعية تابعة لدول أخرى. ويتعلل بيان سياسة قيادة الفضاء المسمى "رؤية لعام ٢٠٢٠" بأن عولة الاقتصاد الدولى سوف تستمر مع اتساع الفجوة بين من "يملكون" ومن "لا يملكون" ولذلك فإن مهمة البنتاجون هي "السيطرة على الأبعاد الفضائية للعمليات العسكرية لحماية مصالح الولايات المتحدة واستثماراتها" في عالم مناهض لأميركا تتزايد خطورته دون قيد. ويجب أن يكون أحد أهداف السياسة الحاسمة هو "حرمان الدول الأخرى من الوصول إلى الفضاء"^(٣٣).

وتتطلب هذه المحاولة الجريئة لتأمين السيطرة العسكرية من جانب واحد، أن يتخلى هذا البلد عن كل اتفاقيات مراقبة وتقييد التسليح بما في ذلك معاهدة الفضاء

الخارجى عام ١٩٦٧ التى تفرض حدودا على عسكري الفضاء بما أن الفضاء موجود فى الكون أساسا (الأقمار الاصطناعية لا تبقى ضمن الحدود الوطنية). وكان المنطق وراء تسليح الفضاء أمرا قديما تضمنته بالفعل جميع المشاريع الإمبراطورية وهو : الحاجة إلى حماية إقليم أو إمكانية ما بولغ فى هشاشتها وحيث لم توضع فى الاعتبار بدائل عن الخيار العسكرى. وتدعى الولايات المتحدة أنها أصبحت تعتمد عسكرياً على أقمار الاتصالات والتجسس وأن أى خصم يمكن أن يكتسب ميزة بنشر أسلحة مضادة للأقمار الاصطناعية لتعطيل تلك الإشارات. وتتعلى الولايات المتحدة الآن بأنها يجب أن تهيمن على الفضاء كلية لحماية تقنياتها القتالية الجديدة الخالية من الخسائر البشرية، بالضبط مثلما كانت بريطانيا فى نهاية القرن التاسع عشر مضطرة - كما يقال - إلى احتلال مصر وجنوب إفريقيا لحماية الطرق البحرية المؤدية إلى الهند، ثم تقوم بعد ذلك بهزيمة السودان وأعالى النيل لحماية مصر وجانب كبير من إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى لحماية جنوب إفريقيا. وإذا قورن هذا اللون من المنطق " بنظرية الدومينو " فى حرب فيتنام، فإنه يقود إلى تزايد لا نهاية له للأماكن والالتزامات التى يجب حمايتها مما يؤدى حتما إلى التوسع الإمبراطورى والإفلاس والسخط الشعبى، وهى نفس الأمراض بالتحديد التى ابتليت بها بريطانيا الإيدارية. كذلك يميل هذا النوع من التخطيط الاستراتيجى إلى إحداث نتائج غير مقصودة فى صورة حروب غزو إمبراطورى لا مبرر لها مثلما فعلت بريطانيا ضد المستوطنين البوير فى جنوب إفريقيا. وقد دامت حرب البوير من عام ١٨٩٩ حتى عام ١٩٠٢ وتسببت فى مقتل ٢٢ ألف جندي بريطانى. وفى سياق محاولة هزيمة المستوطنين، الذين لجأوا إلى حرب العصابات ضد عدوهم الأقوى، أقام البريطانيون أول معسكرات اعتقال فى العالم حيث مات فيها على الأقل ٢٨ ألف مدنى من البوير (معظمهم من النساء والأطفال) وبين ١٤ ألفا و ٢٠ ألفا من رجال الأدغال وقبيلة الزولوو أناس من قبائل أخرى متنوعة^(٣٤). وارتفعت الوفيات فى معسكرات الاعتقال إلى نحو ١٠٪ من مجموع السكان البوير. ولم يكن السبب الرئيسى لهذا الأذى المتعمد الحاجة إلى الدفاع عن الهند وإنما الرغبة الملحة فى الهيمنة الكونية أى باختصار النزعتان الإمبراطورية والعسكرية. ولم يهتم أحد بالتفكير جديا على الإطلاق فى أساليب بديلة لإنجاز نفس الأهداف. أو فى التخلّى عن تلك الأهداف التى لم تكن تستحق كل هذا العناء.

وفى إطار القرقة الحديثة لأصحاب النزعة الإمبراطورية، نجد أن المؤيدين الأساسيين لعسكرة الفضاء هم : دونالد رامسفيلد من المحاربين القدماء فى الحرب الباردة ووزير الدفاع فى إدارة الرئيس فورد (١٩٧٥-١٩٧٧) ثم أعيد إلى البنتاجون على يد الرئيس جورج بوش الابن بعد ربع قرن، وديك تشينى نائب الرئيس، وكان رئيس أركان الرئيس فورد ووزيرا للدفاع فى إدارة بوش الأب (١٩٨٩-١٩٩٣). وقبل أن يصبح وزيرا للدفاع عام ٢٠٠١ مباشرة رأس رامسفيلد لجنة تقويم إدارة وتنظيم الأمن القومى الفضائى التى يتحدث تقريرها النهائى عن النتيجة التالية : تقتضى المصلحة القومية للولايات المتحدة أن تستخدم قدرتها فى الفضاء لدعم أهدافها المحلية والاقتصادية والدبلوماسية وأمنها القومى، وأن تطور وتنشر وسائل الردع والدفاع ضد الأعمال العدائية الموجهة إلى موجوداتها فى الفضاء وضد استخدامات الفضاء المعادية لمصالح الولايات المتحدة^(٢٥). ولقى رامسفيلد وتشينى دعما تحليليا من داخل البنتاجون متمثلا فى شخص أندرو مارشال وهو " المفكر فيما لا يمكن تصوره " فى مؤسسة راند سابقا الذى تخصص لسنوات عديدة فى ترويج القيام " بثورة فى الشؤون العسكرية " ويعنى بذلك أشكالا متقدمة من الحرب تستخدم فيها التقنية السيبرانية. وعلى الفور عين رامسفيلد أندرو مارشال مسؤولا عن إعداد مخطط تفصيلى لمستقبل البنتاجون. وبدأ فى شن حملة واسعة النطاق للدفاع عن استراتيجية كبرى فى الفضاء تستخدم التقنية العالية لتغيير القوات المسلحة وضمان السيطرة الكونية لعقود قادمة^(٢٦). وفيما يشبه إعادة التقليدية لبارانويا الفكر الإمبراطورى أصبح الجنرالات الأميركيون يتخوفون الآن من اعتماد البلاد على الأقمار الاصطناعية ومخاطر التعرض " لبيرل هاربور فضائية ". ولتحاشى هذه الكارثة المتخيلة يرى أصحاب النزعة العسكرية أن على الولايات المتحدة الاستيلاء والسيطرة على الفضاء فى أسرع وقت ممكن. وفى عام ٢٠٠٣ أنشأت الولايات المتحدة أول وحدة عسكرية مهمتها الدفاع عن الاتصالات والطقس والملاحاة. وأقمار الإنذار الصاروخى من أية هجمات " عدوة " محتملة ضد محطات أرضية أو فى الفضاء. وهذه الوحدة هى السرب ٦١٤ لاستخبارات الفضاء ومركزها فى قاعدة فاندنبرج الجوية فى كاليفورنيا. ويقول الميجور كورت جوديت مدير العمليات فى السرب الجديد إن " جميع القنابل الذكية والأسلحة الذكية يتم التحكم فيها بواسطة النظام العالمى لتحديد المواقع، وإذا لم يعمل هذا النظام فلن تكون لدينا أية قنابل ذكية، ولذلك من المحتم أن تكون هذه الأسلحة فى مكانها الصحيح وفى

أمان^(٣٧). والجزء الجوهرى فى هذا البرنامج لا يتمثل فحسب فى ضرورة قيام الولايات المتحدة بتوفير موارد كبيرة لإنتاج الأقمار الاصطناعية "القاتلة" لمنع دول أخرى من الإقامة فى الفضاء، ولكنه يعنى أيضا بناء دفاعات توضع فى النهاية فى قواعد فى الفضاء للدفاع ضد صواريخ الدول الأخرى الباليستية. وهذا البرنامج الأخير هو الجانب المكشوف من المشروع الأكثر سرية لعسكرة الفضاء، وكان موضع قدر كبير من التباهى الرئاسى والسياسى. وأثناء عام ٢٠٠١ أصبح الدفاع عن القواعد الدفاعية ضد الصواريخ الباليستية الوسيلة الأولى لدعم زعمائنا لإظهار التزامهم بالتصرف من جانب واحد الذى كان من أقوى مظاهره قرار الرئيس فى ١٣ ديسمبر ٢٠٠١ بالانسحاب من معاهدة حظر الصواريخ الباليستية مع الاتحاد السوفيتى عام ١٩٧٢. وقد اتخذ الرئيس هذا القرار قبل أن تقيم الولايات المتحدة أى نوع من الدفاعات ضد الصواريخ العابرة للقارات ولا تجربتها وتطويرها، وذلك رغم الاعتراض العلنى من روسيا والصين ودول الناتو الرئيسية.

ولم يكن غريبا أن تشك الصين فى أن ذلك البرنامج : الدفاع ضد الصواريخ الباليستية موجه فعلا إلى تحييد قدرة الردع النووية الصغيرة لديها وكان معظم حلفاء أميركا الأساسيين موافقين ضمنا. ولكنهم أحجموا عن المضى فى ذلك البرنامج خوفا من أن يطلق سباق تسلح جديدا ويدفع الدول التى تحدثها أميركا مثل الصين إلى إنتاج صواريخ أكثر وأفضل للتغلب على مثل تلك الدفاعات. ومع ذلك أصرت إدارة بوش على المضى فى هذا النظام المقوض للاستقرار والذى لم يجرب بل ولم يوجد بعد فى حقيقة الأمر. وقد وافق الكونجرس على كل دولار طلبته وزارة الدفاع تحت تأثير الهوس الوطنى الذى أعقب هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١.

وفى سياق هذه العملية بذلت إدارة بوش أقصى ما تستطيع من جهد ونفوذ لفرض السرية عليها وبالتالي إخفاء أية معلومات رسمية عن وجود احتمال كبير لفشل أداء النظام، فعلى سبيل المثال أخفت وزارة الدفاع تقريرا كتبه فى أغسطس ٢٠٠٠ فيليب كويل مديرها للاختبار والتقويم العمليتى، رغم وجود ستة طلبات مختلفة من الكونجرس بتقديمه. وقد وثّق كويل - من بين أشياء أخرى - كيف أن نظام القيادة والمراقبة لبرنامج الدفاع ضد الصواريخ الباليستية مشوش وتسبب فى الماضى فى حفز إطلاق أسلحة اعتراضية متعددة ضد صواريخ لم يكن لها وجود. وقد ذكر جون تيرنى

عضو مجلس النواب الديموقراطى أن آحد الأخطار المباشرة لهذه الأنماط من المواقف أن الأعداء قد يفسرون عمليات الإطلاق تلك على أنها الضربة الأولى المعادية فيردون عليها بناء على ذلك^(٢٨). وقال رامسفيلد وزير الدفاع إنه يريد برنامج دفاع ضد الصواريخ الباليستية حتى ولم يختبر على نحو تام ولو تقرر أنه عاجز عن العمل وفقا للمواصفات.

وقد استمد هذا البرنامج بعض المشروعية فى دوائر الحزب الجمهورى من تأييد الرئيس السابق رونالد ريجان لمبادرة الدفاع الاستراتيجية التى كان من أهدافها بناء نوع من الحماية بقبة إلكترونية من الصواريخ وأشعة الليزر فوق البلاد. وهى فكرة لم يثبت إطلاقا أنها ممكنة تقنيا. ولا شك فى أن ريجان فكر فى مبادرة دفاعية. ولكن كلا من المبادرة وبرنامج الدفاع ضد الصواريخ الباليستية هما فى الحقيقة ذات مفاهيم هجومية. وقد تكون عملا جيدا من أعمال العلاقات العامة لمؤيديها لكى يلمحوا إلى أن برنامج الدفاع ضد الصواريخ الباليستية يقصد به الدفاع عنا فقط ضد ما يسمى الآن بالدول المارقة مثل كوريا الشمالية وإيران اللتين لم تدعنا للهيمنة الأمريكية. وقد يتصور أنهما قادرتان على صناعة صواريخ ذات مدى عابر للقارات. ولكن لا أحد يؤمن جديا بأن أية دولة، صغرت أو كبرت، تخطط للانتحار بإطلاق أى شىء يمكن اقتفاء أثاره مثل صاروخ نووى ضد الولايات المتحدة. ويوضح الأمر أحد حكماء المحافظين الجدد وهو لورانس كابلان بقوله: " الدفاع ضد الصواريخ لم يقصد به حقا حماية أميركا، إنه أداة للسيطرة على الكون"^(٢٩) أو كما قال جيم وولش الزميل الباحث فى العلوم والشؤون الدولية فى هارفارد: " إن دفاع الصواريخ هو صواريخ أكثر من الدفاع"^(٤٠).

ولو كان برنامج الدفاع ضد الصواريخ الباليستية برنامجا استراتيجيا حقا لكان موضوع نفس مشاكل حائط الصين العظيم الذى فشل فى صد الغزاة المغول أو المنشوريين، أو خط ماجينو الفرنسى الذى كان من المفروض أن يحمى البلاد من الغزو الألمانى. ولكنه عجز بشكل مذهل حيث قام الألمان ببساطة بالالتفاف حوله. وحتى لو أثبت البرنامج أنه كامل من الناحية التقنية - وهو أمر غير محتمل - فإن وجوده بذاته سوف يستتبط خططا لقهره بمزيد من الصواريخ تفوق ما لدى البرنامج من الصواريخ المعارضة، ولكن ذلك لا يعنى كثيرا أولئك المخططين لمستقبلنا العسكرى لأن البرنامج يعتبر غطاء معقولا لبرنامج البحوث المكثف الذى يطلبونه لعسكرة الفضاء، وهو سبيل

جيد للحصول على تمويل هائل لمقاولى الدفاع الأساسيين، وهو فى نهاية الأمر كذلك وسيلة لتضعيب الأمور فى وجه اتخاذ قرار من أى خصم يؤدى إلى "ردع" الولايات المتحدة بهجوم نووى. ويفترض الاستراتيجيون المؤيدون لبرنامج الدفاع ضد الصواريخ الباليستية أن مثل ذلك العدو قد يتردد ويتساءل عما إذا كان خطر هجومه قابلا للتصديق فى وجه الدفاعات الصاروخية. ويصور الكاتب الصحفى بيل كيلر بصحيفة نيويورك تايمز الأمر بقوله إن المنظرين العسكريين " يخشون من أن تستطيع أية دولة لديها القليل من الأسلحة النووية أن تفعل بنا ما فعلناه نحن بالسوفييت : أى أن تردعنا عن إطلاق قواتنا التقليدية الهائلة فى أنحاء العالم" (٤١). والحقيقة هى أن برنامج الدفاع ضد الصواريخ الباليستية ليس برنامج دفاع، بل هو برنامج هجومى يوفر شحنا هائلا لسباق تسلح نووى عالمى يؤدى - ويا للمفارقة - إلى جعل الولايات المتحدة أقل أمنا.

ولا عجب أن يرأس دونالد رامسفيلد لجنة عام ١٩٩٨ التى وضعت خطط إنشاء نظام الدفاع ضد الصواريخ الباليستية (٤٢). وكان واحد من أعضائها شخصية تعتبر مثالا نمطيا لهذه المجموعة وهو بول وولفوويتز الذى يحمل شهادة الدكتوراه فى علم السياسة، ولكنه لا يتمتع بالخبرة فى الحرب ولا فى القوات المسلحة. وقد استخدم مناصبه الكثيرة فى إدارتى ريجان وبوش ليدفع الأمور نحو تفوق عسكرى دائم على جميع المنافسين بمن فيهم حلفاء الحرب الباردة. وفى ١٩٩٢ قال إن هدف السياسة الخارجية " يجب أن يتجه إلى منع أية قوة معادية من السيطرة على منطقة قد تكفى مواردها - تحت سيطرة قوية - لإنشاء قوة عالمية ". وذكر أن هذه المناطق تشمل أوروبا الغربية، وشرق آسيا، وأراضى الاتحاد السوفييتى السابق، والشرق الأوسط، وإفريقيا وأميركا اللاتينية (التي نسيطر عليها فعلا). وقبل عودته مباشرة إلى البنتاجون فى عام ٢٠٠١ كنائب لرامسفيلد أكد وولفوويتز أن إصراره على الحاجة إلى فرض سلام أميركى (باكس أميريكانا) أصبح يشكل الآن " الفكر الاستراتيجى الرئيسى " على الرغم من تعرضه لانتقادات مريرة آنذاك (٤٣).

ولم يكن هناك أى مكان أقوى شعورا بهذه الحاجة (ومازال أشد إنكارا) من الولايات المتحدة فى مواجهة الصين. ويصر مؤيدو برنامج الدفاع ضد الصواريخ الباليستية على أنه ليس موجها إلى الصين بأى حال. وقال جون بولتون وكيل الوزارة لشؤون الحد من التسلح والأمن الدولى " إنه ليس موجها ضدهم، وعلى أى حال فإنه

برنامج دفاعي^(٤٤). ولكن كلمة دفاعي معكوسة تماما ويعتبر الوضع في تايوان في قلب خطة هذا البرنامج. ومنذ الحرب الأهلية الصينية (١٩٤٦-١٩٤٩) وتدخل القوات الصينية في الحرب الكورية عام ١٩٥٠ لم يستطع الجناح اليميني في الحزب الجمهوري تقبل هزيمة حليفنا في الحرب تشرانج كاي شك زعيم الكومنتانج (الحزب القومي) على يد الشيوعيين بسبب فسادهم وعجزه الشديدين. وأخذ "لوبي الصين" يضغط على الولايات المتحدة للدفاع عنه بعد أن تقهقر مع من تبقى من قواته إلى تايوان الجزيرة البعيدة عن الشاطئ. وظلت الولايات المتحدة تدافع عنه حتى عام ١٩٧١ عندما صوتت أغلبية الدول في الجمعية العامة للأمم المتحدة لصالح طرد تايوان من المقعد المحجوز للصين وفقا لميثاق الأمم المتحدة. وحتى بعد اعتراف إدارة كارتر المتأخر بالصين عام ١٩٧٨. استمرت في تسليح تايوان. وبذل مؤيدو تايوان في الكونجرس أقصى جهودهم لإقحام البلاد في الدفاع عن تايوان عسكريا حتى وإن دعا ذلك الصين إلى اتخاذ إجراء عسكري في حالة إعلان استقلال تايوان من جانب واحد. وخلال تسعينيات القرن العشرين كانت واشنطن الرسمية تردد بيانات وأفعالا واستفزات مناهضة للصين من بينها تقرير في ٢٥ مايو ١٩٩٩ للجنة مجلس النواب للأمن القومي والشؤون العسكرية والتجارية المتعلقة بجمهورية الصين الشعبية. وكان رئيس هذه اللجنة كريستوفر كوكس النائب الجمهوري. وقد أكد "تقرير كوكس" أن التجسس ساعد الصين على إنتاج أسلحة نووية "على قدم المساواة" مع الولايات المتحدة. وفي ذلك الوقت كان لدى الصين نحو عشرين صاروخا عابرا للقارات تعمل بالوقود السائل ويحمل كل منها رأسا حربية واحدة، بينما كان لدى الولايات المتحدة نحو ٧١٥٠ رأسا استراتيجيا يمكن إيصالها إلى الصين بالصواريخ والغواصات والقاذفات. وقد ساهمت الهستيريا التي ولّدها تقرير كوكس على إطلاق مطاردة حكومية ضد ويند هو لي الباحث الأميركي في علم الكمبيوتر الذي تعود أصوله إلى تايوان والذي كان يعمل في مختبر لوس ألاموس للأسلحة النووية. وقد اتهم لي بالتجسس لصالح الصين ثم أطلق سراحه بعد ٢٧٧ يوما من الحبس الانفرادي القاسي ولم يفرج عنه إلا بعد أن رفض قاض فيدرالي قضية الحكومة واتهم مكتب التحقيقات الفيدرالية ووزارة العدل بإرهاق لي ربما لأن المسؤولين الرسميين عن القضية من مؤيدي التمييز العنصري^(٤٥).

وفى عام ٢٠٠١ وبقدوم إدارة بوش الأخيرة نقلت وزارة الدفاع هدفها النووى من روسيا إلى الصين وبدأت أيضا فى إجراء محادثات عسكرية منتظمة ورفيعة المستوى مع تايوان حول الدفاع عن الجزيرة، وأمرت بنقل أفراد من الجيش والإمدادات إلى المنطقة الآسيوية المطلة على المحيط الهادئ. وعملت جاهدة على تشجيع عملية إعادة عسكرة اليابان. وفى اليوم الأول من أبريل ٢٠٠١ اصطدمت طائرة تجسس إلكترونية تابعة للبحرية الأميركية من طراز إى بى - ٢ إى بطائرة مقاتلة صينية خارج جزيرة هينان. وكانت الطائرة الأميركية فى مهمة لاستفزاز دفاعات الرادار الصينية ثم تسجيل الاتصالات عبر أجهزة الإرسال والإجراءات الصينية المتبعة فى إطلاق صواريخ الاعتراض^(٤٦). وكانت طلعات التجسس هذه تتم بأمر من القائد المسؤول عن منطقة المحيط الهادئ، وهو واحد من "نواب القنصل" العسكريين المتمتعين باستقلال متزايد والذين يعتبرون مؤلفى الأمر الواقع للسياسة الخارجية فى تلك المناطق. وبينما سقطت الطائرة الصينية وفقد قائدها حياته، هبطت الطائرة الأميركية، بسلام على أرض جزيرة هينان ولقى أربعة وعشرون جاسوسا كانوا على متنها معاملة طيبة من السلطات الصينية. وسرعان ما اتضح أن الصين ليست مهتمة بحدوث مواجهة لأنها أصبحت الآن ثالث أكبر متلقية للاستثمارات الأجنبية المباشرة بعد الولايات المتحدة وبريطانيا، وتقع المكاتب الرئيسية لمعظم المستثمرين المهمين فى الولايات المتحدة. ومع ذلك لم تستطع إعادة طاقم طائرة التجسس على الفور دون مخاطرة قوية بتلقى انتقادات محلية واتهامها بالتدخل فى مواجهة الاستفزاز. ولذلك أخرت الأمر لمدة أحد عشر يوما إلى أن تسلمت اعتذارا أميريكيا شكليا عن التسبب فى مصرع الطيار الصينى على حافة المجال الجوى الإقليمى للصين وهبوط الطائرة الأميركية دون إذن فى مطار عسكري صينى. فى نفس الوقت أطلق إعلامنا على الفور كلمة "رهائن" على طاقم الطائرة وشجع أهاليهم على ربط أشرطة صفراء حول الأشجار فى مناطقهم السكنية، وطالب الرئيس ببذل أعلى الجهود، وأخذ الإعلام فى توجيه نقد لا نهاية له إلى الصين بسبب "إعلامها الموجه حكوميا". وتجنبنا واشنطن بحذر الإشارة إلى أن الولايات المتحدة تفرض منطقة اعتراض جوى تصل إلى ٢٠٠ ميل حول البلاد وتمتد إلى أبعد من المياه الإقليمية بكثير.

وفى ٢٥ أبريل ٢٠٠١ سئل الرئيس بوش فى مقابلة للتليفزيون الوطنى عما إذا كان فى استطاعته دائما استعمال "كامل القوة العسكرية الأميركية" ضد الصين من أجل

تايوان. فأجاب قائلا : " مهما كلف الأمر لمساعدة تايوان على الدفاع عن نفسها ". ويقول بعض أصحاب النزعة العسكرية الأميركية إن الدفاع الصاروخي قد يحقق هذا الالتزام بواسطة حماية المدن الأميركية من أى هجوم انتقامى صينى. وبعد ١١ سبتمبر اختفت الصين مؤقتا من شاشات رادار البنتاجون بسبب انشغال أميركا بالقاعدة وأفغانستان والعراق. ولكن فى الفترة ما بين ٢٠٠٢ و ٢٠٠٣ عادت مسألة الردع النووى إلى الظهور مرة أخرى فى شرق آسيا لا بشأن الصين، ولكن بسبب كوريا الشمالية. أما المحافظون المتعصبون فى الحزب الجمهورى الذين لم يتقبلوا إطلاقا أن الصين ليست تابعة لأميركا ولن تدور أبدا فى فلكها، كانوا أكبر رفضا لقبول نظام صغير يطحنه الفقر، ولكنه حازم فى تحديه. وهو نظام كوريا الشمالية. وفى خطاب حالة الاتحاد فى ٢٩ يناير ٢٠٠٢، ضم الرئيس كوريا الشمالية إلى قائمته القصيرة للدول التى تفكر الولايات المتحدة فى " اقتلاعها " لأسباب وقائية. ومع سقوط بغداد فى أبريل ٢٠٠٣، ووصول حرب " الصدمة والفرز "، ومرحلة الذبح الدموية "للتحرير" الأمريكى للعراق إلى نهايتها، تم إعفاء الأرمادا الأميركية من القاذفات بى - ١ وبى - ٢ وبى - ٥٢ وخمس حاملات لقوات العمل فى الخليج الفارسى وعدد لا يحصى من السفن والغواصات المزودة بصواريخ كروز وهيئات الأركان للقيادة والمراقبة الذين خاضوا الحرب من خيامهم مكيفة الهواء فى قطر. وقد تم إعفاؤهم من مهامهم من أجل عملية إعادة انتشارهم. ومع انتشارهم بالنجاح كان من المحتمل أن يقع اختيارهم على هدفهم التالى وهو كوريا الشمالية. إن لم يكن الشرق الأوسط. ويبدو أن من المحتمل أن يكون الكوريون الشماليون أنفسهم يفكرون فى نفس هذه الخطوط ويعتقدون أن خطط جورج بوش تقضى بالأمر بشن هجوم عليهم. وتعتبر كوريا الشمالية نموذجا يوضح أنواع المواقف المتفجرة التى تخلقها الولايات المتحدة لنفسها فى تنكرها وكأنها روما جديدة. وقليل من التاريخ سوف يضع الأمور فى نصابها، وإذا عدنا إلى عام ١٩٩٤ نجد أن الولايات المتحدة اكتشفت أن نظام بيونجيانج ينتج البلوتونيوم كمنتج جانبى من مفاعل روسى قديم لتوليد الطاقة الكهربائية. أما الأزمة الناشئة عن احتمال تمكن كوريا الشمالية من إنتاج عدد قليل من القنابل النووية. فقد تم حلها خلال السنة بالاتفاق الغربى المسمى " إطار العمل المتفق عليه ". ففى مقابل تعهد بيونجيانج بتخزين مفاعلها القديم والسماح بقيام الوكالة الدولية للطاقة النووية بعمليات تفتيش، تعد الولايات المتحدة وحلفاؤها ببناء مفاعلين جديدين لا يستطيعان إنتاج صنف من السلاح ذى

المواد القابلة للانشطار، وبدء شكل من العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية مع الشمال الكورى المعزول. ووافقت الولايات المتحدة أيضا على إمداد الشمال بزيت الوقود ليحل محل الطاقة المفقودة نتيجة إغلاق المضاعل (مادامت البلاد لا تملك مصادر طاقة مستقلة من أى نوع). وظلت إدارة كلينتون ممتنعة عن تنفيذ الاتفاقية لمدة ثلاث سنوات أملا فى انهيار النظام الكورى الشمالي الذى تمت عسكرته بدرجة كبيرة مع معاناة شعبه من الموت جوعا .

ومع نهاية العقد تحول هذا الترفع إلى ورطة. وفى يونيو عام ٢٠٠٠ قام كيم داي جونج رئيس كوريا الجنوبية بتصرف من جانبه بناء على مبادرة منه ودون استشارة الولايات المتحدة، وفى رحلة تاريخية للتصالح توجه إلى بيونجيانج محاولا اقتلاع آخر آثار الحرب الباردة فى شبه الجزيرة الكورية. وأحدثت زيارته تقدما مشهودا فمنح جائزة نوبل للسلام بسبب جهوده. والأهم من ذلك أن مبادرة الرئيس كيم ألهمت خيال شعبه مثلما فعلت رحلة ريتشارد نيكسون إلى الصين عام ١٩٧١ فى خيال ملايين الأمريكيين. وبلغ تعداد سكان كوريا الجنوبية ٤٧ مليون نسمة وهو أكثر من ضعف سكان كوريا الشمالية البالغ عددهم ٢١ مليون نسمة. وهو فى نفس الوقت أكثر ثراء من جارتها المعزولة بنحو خمسة وعشرين إلى ثلاثين ضعفا. ويعكس استعداد كوريا الجنوبية لمساعدة الشمال ثقة ذاتية متزايدة ديموقراطيا واقتصاديا. ومن المهم أن نتذكر أن كوريا الجنوبية واحدة من ثلاث دول فى شرق آسيا حققت الديموقراطية من القاعدة (الدولتان الأخريان هما الفلبين وتايوان). ففى كوريا الجنوبية والفلبين ناضلت حركات هائلة ضد رئيسين مستبدين وديكتاتورين فرضتهما ودعمتهما الولايات المتحدة وهما الجنرال تشون دوهوان فى سول وفرديناند ماركوس فى مانिला .

واستمرت العلاقات بين كوريا الشمالية والجنوبية فى التحسن خلال عام ٢٠٠٠ مما أدى إلى قيام مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية الأمريكية بزيارة إلى بيونجيانج فى شهر أكتوبر. وفى أى حال توقفت تلك التوجهات المبشرة بين كوريا وواشنطن فى الأيام الأولى لإدارة بوش. وفى زيارة لواشنطن فى مارس ٢٠٠١ عومل كيم داي جونج بجفاء وقح من بوش، وبدأت الإدارة فى إدراج كوريا الشمالية ضمن بياناتها العدوانية المتزايدة وأصبح أسلوب الكلام هذا حقيقة واقعة ومباشرة بالنسبة للزعيم الكورى الشمالى كيم جونج إيل. وذلك فى شهر سبتمبر ٢٠٠٢ عندما أكدت إدارة بوش فى استراتيجيتها

للأمن القومي الحق في شن " حرب وقائية ". وعندما بدأت الولايات المتحدة في حشد قوة غزو ضخمة على حدود العراق ثم قامت بغزوه، استعدت كوريا الشمالية للدفاع عن نفسها بالطريقة الوحيدة التي تصورت أن الولايات المتحدة سوف تفهمها، فانسحبت من معاهدة حظر الانتشار النووي وطردت المفتشين الدوليين وأعدت تشغيل مفاعل الطاقة القديم. وفي البداية أخطت إدارة بوش ردها كانت قد شنت حربا واحدة، وكانت حرب أخرى في كوريا كفيلة بتهديد سول عاصمة كوريا الجنوبية التي يبلغ تعداد سكانها ١٠,٨ مليون نسمة، وذلك باستخدام مدفعية ذات مدى مريح لدى الشمال. ويوجد من بين عدد السكان آلاف من الجنود الأميركيين الذين عسكروا منذ عقود بالقرب من المنطقة منزوعة السلاح بين الكوريتين ليعملوا كمانع ضد أى هجوم من الشمال، وكان القصد من ذلك - من بين أشياء أخرى - ضمان تأييد الشعب الأميركي للحرب الذي لن يجد خيارا آخر عندما تسقط الضحايا الأولى للهجوم. ومن ناحية أخرى لم يبذل الرجال والنساء في إدارة بوش أي جهد للتراجع عن مواقفهم أو تخفيفها أو اقتراح التفاوض. وهكذا توصل كيم جونج إيل إلى النتيجة التي لا يمكن تجاهلها ومفادها أن من المحتمل أن تكون كوريا الشمالية الضحية التالية للدولة المتتمرة ومن ثم بدأ في محاولة "ردع" الأميركيين. وأصررت بيونجيانج على أن توقع الولايات المتحدة معاهدة عدم اعتداء معها مقابل إغلاق مفاعلها الخطير، ووقف برنامجها لتطوير أسلحتها النووية. وفي نفس الوقت عرضت السماح للمفتشين الدوليين من الوكالة الدولية للطاقة النووية بالعودة إلى مراقبة منشآتها النووية.

وبعد غزو الولايات المتحدة للعراق سحبت كوريا الشمالية حتى عرضها هذا. وفي ٦ أبريل ٢٠٠٢ أعلنت أنها لن تضمن أمنها إلا بتسليح نفسها " برادع عسكري هائل "، وأن "حرب العراق تبين أن السماح بنزع السلاح عبر التفتيش لا يساعد على تجنب الحرب بل يشعلها... ويشير هذا إلى أن توقيع معاهدة عدم اعتداء مع الولايات المتحدة لن يساعد على تجنب الحرب". وفي تشابه كبير مع ما قاله ونستون تشيرشل أثناء معركة بريطانيا، خاطبت كوريا الشمالية مواطنيها قائلة: " إذا اضطررت أن تذهبوا فخذوا معكم شيئا واحدا " وكانت الأماكن التي هددت بأخذها هي سول، وبعض من الثمانى والثلاثين قاعدة أميركية في أوكليناوا، وأكثر ما يمكن من المدن اليابانية حسب إمكانية ضربها (على الرغم من أن صواريخها ذات الرؤوس النووية قد لا تكون قادرة على الوصول إلى أبعد من أوكليناوا أو البر الرئيسي لليابان)، ويقدر الكوريون

الجنوبيون أن الشمال يمتلك من ١٧٥ إلى ٢٠٠ صاروخ طراز رودونج الذي يصل مداه إلى ١٣٠٠ كيلومتر ويستطيع ضرب أى مكان فى اليابان، فضلا عن ٦٥٠ إلى ٨٠٠ صاروخ سكود متوسط المدى، وهى موجهة نحو كوريا الجنوبية ومخزنة فى منشآت تحت الأرض^(٤٧).

وعلى مدى السنتين الأخيرتين حدثت نقلة راديكالية لدى رأى العام فى كوريا الجنوبية بالنسبة لمسألة كوريا الشمالية، فشعب الجنوب المزهرة أحواله والمتلقى لمعلومات جيدة يعلم أن رفاقهم الكوريين يعانون الجوع واليأس والقهر. ولكنهم مسلحون تسليحا جيدا ووقعوا فى مصيدة مفارقات نهاية الحرب الباردة وقسوة نظام كيم جونج إيل، ولكنهم أيضا دفعوا إلى ركن بالغ الخطورة على يد الأميركيين فى غمار لعبهم دورهم الجديد المعلن باعتبارهم العملاق العسكرى الكونى الضخم الحاكم. ولم يعد الجنوب يخشى الشمال، على الأقل لأن الشمال لم تدفعه واشنطن إلى ارتكاب أفعال متطرفة، وبدلا من ذلك أصبح الجنوب يخشى من الحماس للحرب الصادر من واشنطن، ومن المشاكل الدائمة النابعة من الجنود الأميركيين الذى تمركزوا فى كوريا الجنوبية طوال الخمسين عاما الماضية. وهنا أيضا تنشأ الحاجة إلى استعراض التاريخ فى شبه الجزيرة هذه حيث ينذر نسيان الماضى. فقد احتفظت الولايات المتحدة بوجود عسكرى قوى منذ احتلالها للنصف الجنوبى من الجزيرة فى عام ١٩٤٥ وإقامتها " لجمهورية كوريا ". وخلال عام ٢٠٠٢ أعدت وزارة الدفاع قائمة ضمت - ضمن ممتلكاتها وجنودها فى كوريا الجنوبية - ١٠١ منشأة عسكرية منفصلة يشغلها ٣٧٦٠٥ من الجنود الأميركيين، و٢٢٨٧٥ مدنيا أميريكيا يعملون مع القوات المسلحة، و٧٠٢٧ شخصا مقيما من عائلات العسكريين^(٤٨). وتتضمن المنشآت قاعدة أوسان الجوية التى عرفت باسم كي-٥٥ أثناء الحرب الكورية وهى مركز قيادة القوة الجوية السابعة. وقاعدة كونسان الجوية على الساحل الغربى للبلاد وهى القاعدة الرئيسية للمقاتلات. والمنشأة الأكثر وضوحا وإدهاشا فى كوريا الجنوبية هى معسكر يونجسان للجيش. وهو مثال للجهل الثقافى والتاريخى الأمريكى إذ اختير مكانه فى موقع القيادة العسكرية اليابانية القديمة التى أقيمت عام ١٨٩٤. وأصبح هذا الموقع رمزا لكراهية اليابان للاحتلال الكورى. وفى ضواحي سول القديمة شغلت أميركا مساحة متميزة قدرها ٦٣٠ إيكري مربع فى قلب العاصمة المكدسة بكثافة سكانية كبيرة. وقد أصبحت مركز قيادة العمليات العسكرية الأميركية فى كوريا منذ عام ١٩٤٥^(٤٩). واليوم أصبحت

يونسان معلما لمركز دراجون هيل لإعادة التأهيل " ويعتبر أكبر موقع للمبادلات مع سلسلة من المحلات للتسوق " ويشتمل على ستة بارات ومطاعم وفندق حديث جدا (مع غرف تختلف أسعارها باختلاف أصحاب الرتب العسكرية)، ومركز للياقة البدنية، وعدد كبير آخر من المرافق الترفيهية. ويعتبر مركز دراجون هيل منتجما لإجازات الضباط الأميركيين والمجندين والمجنندات وعائلاتهم الذين يوجدون في قلب وسط مدينة سول. والكوريون ممنوعون من دخول هذا المنتجع. وقد أزعج هذا المركز الكوريين حتى أن الولايات المتحدة وافقت في ١٩ أبريل ٢٠٠٣ على نقله إلى موقع آخر ويحتمل أن يكون في قاعدة أخرى تقع في منطقة نائية. ومازال الناس ينتظرون رؤية كيفية قيام قيادة القوات الأميركية في كوريا بتنفيذ هذا الاتفاق بسرعة.

وعلى بعد أربعين ميلا فقط شمال عاصمة كوريا الجنوبية، واثنى عشر ميلا جنوب المنطقة منزوعة السلاح، يقع معسكر "كامب كيزي" وهو أقوى موقع للانتشار المتقدم لفرقة المشاة الثانية بالجيش الأميركي، ويؤوى أكثر من ٦٣٠٠ جندي يمثلون نسبة عالية من العسكريين الأميركيين العاملين في كوريا. ويحتل المعسكر أرضا مساحتها ١٩ ألف إيكرا أقيمت عليها مباني من الطوب وأكواخ حجرية أشبه بالحظائر ولا تشبه إلا نوعا من السجون الأميركية. ويعتبر الجندي كينيث ماركل أقبح أميركي في كوريا الجنوبية بسبب اغتصابه امرأة كورية وقتلها في عام ١٩٩٣ واسمها كوم إي يون. وكان هذا الجندي يقيم في ذلك المعسكر. وهناك أيضا جريمة خنق امرأة كورية أخرى تدعى لي كي سون بعد جدال حول أجراها مع الجندي إريك مونيتش البالغ من العمر اثنين وعشرين عاما. ووقعت الجريمة بالقرب من قرية تونجودوتشون المجاورة. وفي ١٣ يونيو ٢٠٠٢ جاءت مركبة حمولتها ٦٠ طنا تابعة للجيش من كامب كيزي وأخذت تهدر في طريق ضيق يخترق قرى صغيرة تقع على بعد أميال قليلة من سول. ولم ير الجنديان في المركبة طالبتين في الثالثة عشرة من العمر وهما تسييران إلى الأمام في طريقهن إلى حفل عيد ميلاد صديقة لهن. وسحقت المركبة الفتاتين حتى الموت، ولم يتضح ما إذا كان الجنديان يستعملان المركبة كجزء من مهامهم الرسمية. ولا إن كانا لم يريا الفتاتين بسبب معدات وضعت بطريقة خاطئة في المركبة، أو ما إذا كان هناك خلل في نظام الاتصالات الداخلى في المركبة أم أنه لم يتم إدخاله في المقبس الخاص به بدقة. وطالبت الحكومة الكورية بتسليمها الجنديين لمحاكمتهم أمام محكمة كورية بتهمة القتل فرفضت الولايات المتحدة ذلك متعلة باتفاقية حالة القوات

التي فرضتها على البلاد أثناء الحرب الكورية، وبدلاً من ذلك قدم الجنديان إلى محكمة عسكرية أميركية بتهمة " إهمال أفضى إلى الموت " وبرأتهم المحكمة بسبب الموت الطارئ للفتاتين. ولم تقدم للمحكمة أية براهين من جانب الادعاء أثناء المحاكمة، ولم يتم استدعاء الضابط الذي كان يرأس الجنديين في كوريا للإدلاء بشهادته عن تدريبهما والإشراف عليهما. وانفجرت الاضطرابات المعادية للأميركيين في جميع أنحاء كوريا الجنوبية مطالبة أولاً بمراجعة اتفاقية حالة القوات، ثم طالبت بعد ذلك بخروج جميع القوات الأميركية من البلاد^(٥٠).

وفي ١٩ ديسمبر ٢٠٠٢ انتخبت كوريا الجنوبية روه مو-هيون المحامي المدافع عن حقوق الإنسان ليخلف كيم داي جونج في رئاسة الجمهورية. وأثناء حملته الانتخابية وعد روه بالاستمرار في نهج كيم الانفتاحي إزاء الشمال وطالب بإجراء تغييرات في علاقات كوريا الجنوبية العسكرية مع الولايات المتحدة. وقيل إن إدارته المقبلة كانت قد أخبرت بوش بأن كوريا الجنوبية تفضل العيش مع شمال نووي على أن تنضم إلى الولايات المتحدة في حرب أخرى. وفي يوم ١٩ أبريل - يوم سقوط بغداد - بدأت وزارة الدفاع وحكومة روه مفاوضات بشأن مستقبل القوات الأميركية في جمهورية كوريا. وفجأة خرج الوفد الأميركي عن صبره ورفض سحب فرقة المشاة الثانية من المنطقة منزوعة السلاح في أسرع وقت ممكن. وردد أحد المصادر قول الأدميرال توماس فارجو رئيس قيادة المحيط الهادئ : " كنت أود أن أخرج بالأمس "^(٥١). ولما لم يكن هناك شك فيما تنوى أميركا فعله فإن الخطة الأميركية ألقت الرعب في نفوس كل من كوريا الجنوبية الرسمية والجماهير الكورية. وكان القلق السائد بين مواطني جمهورية كوريا يدور حول أن إعادة النشر المفاجئة للقوات هذه قد لا تبدو لكوريا الشمالية وكأنها استعدادات لتوجيه ضربة استباقية فحسب بل قد تعتبرها دليلاً فعلياً يؤكد توجيه هذه الضربة. ومما أُنذِر بالسوء وعلى قدم المساواة قرار إدارة بوش إرسال القاذفات الاستراتيجية من طراز بي - ١ وبى - ٥٢ إلى جوام لاستخدامها " في حالة الحاجة إليها في كوريا "، ثم إعلانها بعد ذلك أن عدداً لم يكشف عنه من المقاتلات النفثة إف - ١١٧ ستليث، وإف - ١٥ إى سترايك إيجلز، التي نشرت في كوريا الجنوبية في تدريبات عسكرية انتهت مؤخراً، سوف يبقى في تلك البلاد. وتعتبر طائرات إف - ١١٧ التي لا يكشفها الرادار ملائمة بدرجة كبيرة للهجوم على مجموعة متنوعة من الأهداف في كوريا الشمالية بما فيها المنشأة النووية في يونجبون. وكانت المرة الأخيرة التي تركزت فيها

طائرات إف - ١١٧ فى كوريا الجنوبية فى عام ١٩٩٤ عندما كانت إدارة كلينتون تتوى أيضا توجيه " ضربة محكمة " لكوريا الشمالية. ولكن الأزمة انتهت سلميا فقط عندما ذهب الرئيس الأسبق جيمى كارتر إلى بيونجيانج وأجرى مفاوضات مباشرة مع كيم إيل سونج.

وكما هو متوقع فإن إدارة بوش تعتبر هذه التطورات على شبه الجزيرة الكورية دليلا إضافيا على الحاجة إلى برنامج دفاع ضد الصواريخ المستقبلية الكورية الشمالية التى تحمل رعوسا نووية من طراز تايبودونج - ٢، ولكن حتى لو أن هذا البرنامج الدفاعى نجح فى إسقاط رأس نووية كورية شمالية فإن سقوطها فوق كوريا الجنوبية أو ربما اليابان وأوكيناوا قد يكون فى الغالب بنفس خطورة الضربة المباشرة. وكان أهم مردود لهذه الأزمة التى فجرها الأميركيون هو إعطاء دفعة قوية للانتشار النووى فى أنحاء العالم. وأصبحت الدول الصغيرة فى كل مكان تؤمن بأن الوسيلة الوحيدة لردع الولايات المتحدة عن ممارسة إرادتها الإمبراطورية عليها تكمن فى امتلاك قدرة نووية^(٥٢). ومن هذا المنظور كانت مشكلة العراق فى الحقيقة أنه لم يكن لديه أى سلاح من أسلحة الدمار الشامل.

وتظل كوريا الشمالية نظاما شيوعيا فاشلا مع وجود جانب كبير من سكانها على حافة الموت جوعا. وكانت تحاول بشكل متقطع وبدرجة كبيرة من الخوف الخروج من الجمود بنفس الطريقة إلى حد ما التى اتبعتها الصين بنجاح على مدى السنوات العشرين الماضية. وأدرك كيم داي جونغ أن الولايات المتحدة وكوريا الجنوبية قد تكونان متسامحتين وهما منتصرتان بدلا من التهديد باستخدام القوة من جديد، وأن دول الجوار بما فيها جمهورية كوريا أو اليابان أو الصين أو روسيا لا تريد حربا أهلية جديدة ولا ترى حاجة إليها فى شبه الجزيرة الكورية.

وقد حاولت إدارة بوش تهدئة مخاوف الكوريين الجنوبيين من حرب وقائية بالحديث عن " الصواريخ دقيقة التوجيه "، والتزامها بتجنب إصابة مدنيين، وعن قواتها القتالية التى تلقت تدريباً رائعا، وعن اقتناعها بأن الكوريين الشماليين الناجين من قاذفاتنا سوف يهللون للأميركيين والكوريين الجنوبيين باعتبارهم " المحررين "، غير أن الكوريين الجنوبيين يدركون الأمور بشكل أفضل. ولا يحتمل أنهم سوف يسايرون الأفكار الأميركية عن الحاجة إلى حرب وقائية. وهناك إرث مؤكد من حرب العراق وهو أن القادة السياسيين والعسكريين الأميركيين لن يكونوا بعد ذلك أهلا لتصديقهم أو الثقة بهم.

الفصل الرابع

مؤسسات النزعة العسكرية

• علمت ، على سبيل المثال، السر المخالف لجميع البيانات العلنية، فقد فوض الرئيس أيزنهاور كبار قادة مسرح العمليات بسلطة شن هجمات نووية في ظل ظروف معينة مثل انقطاع الاتصالات مع واشنطن الذي كان يحدث كل يوم تقريبا في تلك الأيام، أو في حالة العجز الرئاسي (وقد عانى منها الرئيس أيزنهاور مرتين). ولم يكن هذا التفويض معلوما لمساعد الرئيس كنيدي لشؤون الأمن القومي ماك جورج باندي وبالتالي للرئيس. وفي بداية عام ١٩٦١، بعد نحو شهر من تسلم كنيدي الرئاسة، أخبرته بالأمر، ولكنه استمر في منح التفويض سرا مثلما فعل الرئيس جونسون.

دانييل إلسبرج

كتاب الأسرار ٢٠٠٢

كان هدف الجيش لعام ٢٠٠٢ استئجار ٧٩٥٠٠ من الشباب البالغين كمجندين جدد. وكانت الاعتبارات الديموجرافية ومهارة فنون التسويق مهمة فى محاولة تشكيل جيش قوامه كله من المتطوعين والحفاظ عليه. وكانت الشعارات الرئيسية تقول : " كن كل ما تستطيع أن تكونه " و " جيش الفرد " (مما يعنى أن الجيش هو مجموعة من أصحاب النزعة الفردية الأميركيين) واللعبة الجديدة هى لعبة مجانية بالكمبيوتر اسمها " جيش أميركا " وتهدف مباشرة إلى أسر قلوب وعقول المراهقين الفاهمين للتكنولوجيا وبحلول خريف عام ٢٠٠٢ تم تحميل أكثر من ٥٠٠ ألف نسخة من الموقع الإلكتروني للجيش الأمريكى وأصبح لدى القائمين بتجنيد الشباب مجموعات من اللعبة تحتوى كل واحدة منها على أسطوانتين مدمجتين (سى دى) لكى يوزعوها على المرشحين المحتملين للتجنيد. وأثناء صيف عام ٢٠٠٢ تضمنت مجالات ألعاب الفيديو أسطوانات مدمجة مع إعلانات. وتختلف اللعبة عن معظم معارك الفيديو القتالية الأخرى المنتشرة اليوم فى الأسواق فى أن طلقات الرصاص تسجل فقط على شكل نفثات صغيرة حمراء بدلا من سيول الدم المتدفق والأشلاء المتطايرة، ذلك لأن الجيش يريد تجنب أى إحياء بأن القتال الحقيقى لا يدعو إلى السرور. وتقول التعليمات الخاصة باللعبة : " عندما يقتل جندى يجب أن يسقط هذا الجندى ببساطة على الأرض ولا يصبح بعد ذلك جزءا من المهمة الجارى تنفيذها. ولا تتضمن اللعبة أى تمزيق للأجساد أو تشويه لها ". وفى لعبة اسمها " الجنود " يتوالى تقدم اللاعبين عبر مهن فعلية فى الجيش حيث يخدمون فى وحدات متنوعة ويحسنون من تصنيفهم فى فئات مثل الولاء والشرف والشجاعة الشخصية. ويتم تصوير الأعداء من أصحاب البشريتين البيضاء والسوداء، ولكن هناك سمة مشتركة بينهم وهى أنهم جميعا غير حليقين. وقد أنفقت الحكومة حتى الآن ٧,٦ مليون دولار لنشر اللعبة. وتخطط لتخصيص نحو ٢,٥ مليون سنويا لتحديثها، ومبلغ آخر قدره ١,٥ مليون للاحتفاظ

بهيكل رئيسى لجهاز إدارة الأسطوانات. وكان الجيش يأمل فى استخدامه عام ٢٠٠٣ لاجتذاب ما بين ٣٠٠ و٤٠٠ مجند^(١).

وهناك جانب آخر لمحاولة إثارة اهتمام الأولاد المراهقين بالمهنة العسكرية. ويتمثل فى رعاية الجيش لسباق السيارات. ويبلغ طول سيارة الجيش المخصصة لذلك ٢٤ قدما، وقوتها ٦ آلاف حصان. وأطلق عليها اسم " السارج " (وهذه الكلمة هى اختصار لكلمة "سارجنت" أى الرقيب فى الجيش). ويمكن تعبئتها بالنتروميثان الذى يبلغ ثمن الجالون الواحد منه ثلاثين دولارا. وقد زخرفت السيارة ببذخ وطلى جانبها بلون ذهبى وكتب عليه " التحق بالجيش ". وأى شخص مغرم بقيادة السيارات بسرعة ويرى (أو يسمع) هذه السيارة وهى تنطلق فى ٢,٢ ثانية من الصفر إلى مائتى كيلو متر فى الساعة. سوف يقدر القوة الميكانيكية الهائلة التى يستخدمها الجيش لاجتذاب المجندين الشبان. وفى سبعينيات القرن العشرين منح الجيش رعايته لسباق السيارات مع وضع اسمه عليها ثم توقف عن بذل هذا الجهد باعتبار أنه مضيعة للمال. وفى عام ١٩٩٩ بدأ مساهمة جديدة مع اتحاد يسمى " ناشيونال هوت رود " واقتصرت مساهمته على إدخال سيارته فى السباق وإقامة حجيرات للتجنيد على مسارات السباق ووضع بضع طائرات هليكوبتر ومركبات هجومية لكى يتسلقها الأولاد. وفى موسم عام ٢٠٠٢ أنفقت قيادة التجنيد بالجيش نحو ٥,٥ مليون دولار لدخول المنافسات فى ٢٣ سباقا للسيارات. وكان جميع السائقين من المحترفين رغم وجود عدد قليل من المحاربين القدماء فى القوات المسلحة. وقد تم تشجيع المدارس الثانوية فى جميع أنحاء البلاد على أخذ التلاميذ فى رحلة لقضاء " يوم على المسار ". وفى عام ٢٠٠١ التحق بالجيش ٣٠٠ طالب من بين ٥٦ ألف شاب أرسلتهم مدارسهم إلى سباق السيارات^(٢). والتعامل الوحيد الذى بدأ أنه نجح فى اجتذاب المجندين هو العرض الذى قدمته القوات المسلحة بتقديم منحة قدرها ٥٠ ألف دولار للالتحاق بالكليات رغم أن عددا قليلا من الذين جندوا استفاد ببرنامج المنح.

وتعتبر ألعاب الفيديو وسيارات السباق المعدلة السرعة مثالين أميركيين لفن الإعلان. ولكن يبدو أنها لم تحدث تغيرا كبيرا فى تشكيل القوات المسلحة. ويؤثر فى قرار الانضمام إليها العنصر البشرى. والطبقة الاجتماعية الاقتصادية. وحالة الاقتصاد الأمريكى بالإضافة إلى احتمالات وقوع حرب قادمة، ولكن النساء لا يستجبن لألعاب

الفيديو أو سباق السيارات بنفس الطريقة التي يستجيب بها الرجال. وخلال الاندفاع إلى خوض الحرب الثانية مع العراق لاحظ المسؤولون عن التجنيد أنه لا أحد أراد الانضمام إلى الجيش لخدمة الأمة في حرب قاتمة فعلا. والردع الحقيقي للتجنيد هو إمكانية أن يجد جندي جديد نفسه / أو نفسها مشتبكا في القتال. وبشكل عام نجد أن كل أربعة من خمسة شبان أميركيين ممن انضموا إلى قواتنا المسلحة المعتمدة بالكامل على التطوع يختارون أعمالا لا علاقة لها بالقتال على وجه التحديد ليصبحوا فنيين في الكمبيوتر. أو مديري شؤون الموظفين، أو موظفي شحن. أو عمال ميكانيكا الشاحنات. أو خبراء الأرصاد الجوية، أو محللي معلومات أو طباطخين، أو سائقي الشوكات الرافعة. وهي كلها أعمال ذات مخاطر ضئيلة من الاشتباك مع عدو. وهم غالبا ما يلتحقون بالقوات المسلحة بسبب الافتقار إلى وظائف جيدة في الاقتصاد المدنى ومن ثم فإنهم يجدون ملاذا في نظام اشتراكية الدولة المستقر منذ أمد بعيد في القوات المسلحة ومميزاته مثل الرواتب المنتظمة، والإسكان، والمزايا الصحية ومزايا طب الأسنان، والتدريب المهني، وفرص التعليم الجامعي. وعلقت أم لفتاة مجندة في التاسعة عشرة من العمر سرعان ما أصبحت محللة معلومات في الجيش، فقالت : " الأثرياء لا يلتحقون بالقوات المسلحة ولا يخاطرون بذلك ... ولماذا يفعلون ذلك؟ إن كل شيء متاح لهم " (٣).

ولا يتوقع هؤلاء المجندون أن تطلق عليهم النيران، وقد شعر الجنود العاديون بصدمة في مارس ٢٠٠٢ عندما فتحت البنادق العراقية النار على قافلة تموين تابعة للجيش فَقُتِلَ أحد عشر وأُسِرَ ستة آخرون بمن فيهم المجندة جسيكا لينش موظفة الإمدادات وكان رد فعل الجيش هو : " ليس ضروريا أن تكون منضمنا إلى الأسلحة القتالية في القوات المسلحة لكي تلتحم بالعدو وتقتله ". وما زالت جسيكا لينش تعتبر استثناء من القاعدة رغم أن قصتها لقيت اهتماما كبيرا. ومن النادر بالنسبة للجنود غير المقاتلين أن يجدوا أنفسهم في اشتباك تحت النيران، ولكن من الصعب أن يعنى ذلك أن الجنود العاملين في مهام غير قتالية لا يتعرضون للمخاطر. والأمر الذي لم تقله وزارة الدفاع لأسرة لينش وأقاربها هو أن جميع الجنود - وبغض النظر عن مهامهم - معرضون لاحتمال حقيقي للإصابة أو الموت لأنهم اختاروا القوات المسلحة سبيلا للحراك الاجتماعي. وقد خلفت حروبنا الأخيرة نتائج خطيرة غير مقصودة ألفت بثقلها على الجنود غير المقاتلين مثلما فعلت بالنسبة لزملائهم في جبهة القتال. إن أهم عنصر

فى معدل الإصابات هو المرض الذى شاع تحت اسم " أعراض حرب الخليج " وهو عبارة عن اضطراب صحى محتمل ومميت ظهر للمرة الأولى بين المقاتلين القدماء أثناء النزاع مع العراق عامى ١٩٩٠-١٩٩١. ومثلما هَوَّنت وزارة الدفاع من آثار العامل البرتقالى أثناء حرب فيتنام وأسمنتها اضطرابات ما بعد الجهد الصدامى أو "إرهاق المعركة" أو " صدمة القذائف"، هَوَّنت إدارة بوش من شأن الآثار الجانبية السامة للذخائر التى تتوسع القوات المسلحة فى استخدامها الآن، لكن التداعيات مدمرة لا لخصوم أميركا فحسب أو المدنيين الذين حوصروا فى بلادهم التى تحولت إلى ميدان قتال، ولكن بالنسبة للقوات الأميركية المسلحة نفسها (وحتى بالنسبة لذريتهم فى المستقبل).

وقد خلَّفت حرب العراق الأولى أربع فئات من الضحايا : الذين ماتوا أثناء القتال. والذين ماتوا فى حوادث (بما فيها النيران الصديقة). والجرحى. والمصابون بأمراض ظهرت فقط بعد نهاية الاشتباكات. وخلال عامى ١٩٩٠ و ١٩٩١ كان نحو ٦٩٦٧٧٨ فردا يخدمون فى الخليج الفارسى كعناصر فى عملية درع الصحراء وعملية عاصفة الصحراء، وقتل منهم فى المعركة ١٤٨ وأصيب ٤٦٧ فى ميدان القتال، ومات ١٤٥ فى حوادث. وبذلك يبلغ مجموع عدد الضحايا ٧٦٠ فردا وهو رقم صغير جدا بالنسبة لحجم العمليات. وفى مايو ٢٠٠٢ أعلنت إدارة المحاربين القدماء عن مصرع عدد إضافى من الجنود قدره ٨٣٠٦ و إصابة ١٥٩٧٠٥ بجروح أو بالمرض نتيجة " التعرض للظروف الجوية " المرتبط بالخدمة أثناء الحرب. والأكثر إثارة للفرع أن إدارة المحاربين القدماء كشفت عن أن ٢٠٦٨٦١ من هؤلاء المحاربين - وهو رقم يقترب من ثلث جيش الجنرال نورمان شفارتسكوف بأكمله - طالبوا برعاية طبية ودفع تعويضات ومعاشات، بسبب الإصابات والأمراض التى أصيبوا بها فى القتال عام ١٩٩١. وبعد مراجعة هذه الحالات صنفت الإدارة ١٦٨٠١١ من المطالبين بأنهم " محاربون قدماء من مشوهى الحرب ". وعلى ضوء الوفيات والإعاقات يصل معدل الضحايا فى حرب الخليج الأولى بالفعل إلى نسبة مذهلة هى ٢٩,٣ فى المائة.

وكان دووج روك عقيدا فى الجيش ثم أستاذًا لعلم البيئة فى جامعة جاكسونفيل. وكان مسؤولًا عن تطهير البيئة العسكرية فى أعقاب حرب الخليج الأولى. ومنذ ذلك الوقت طردته وزارة الدفاع من الخدمة بسبب انتقاده لقادة حلف شمال الأطلسى لأنهم

لم يقوموا بحماية كافية لجنودهم فى المناطق التى استخدمت فيها ذخيرة مصنوعة من اليورانيوم، مثلما حدث فى كوسوفو عام ١٩٩٩. وقد لاحظ البروفيسور روك أن عدة آلاف من الجنود الأمريكيين وضعوا فى الكويت وما حولها منذ عام ١٩٩٠، وأن تعرضهم لليورانيوم المنضب أسفر عن رقم أعلى بكثير من الرقم الذى أعلنته إدارة المحاربين القدماء. ورأى أن ٢٦٢٥٨٦ أصبحوا من " المحاربين القدماء المعاقين " وأن ١٠٦١٧ جنديا لقوا حتفهم، وذلك فى الفترة ما بين أغسطس ١٩٩٠ ومايو ٢٠٠٢. وبذلك بلغت أرقامه معدلا لضحايا الحرب فى العقد كله يصل إلى ٢٠,٨ فى المائة^(٤).

وقد آثار التلميح إلى ذخائر اليورانيوم المنضب باعتبارها العامل الواضح فى حالات الوفاة والإعاقة هذه، اعتراضات محمومة. وادّعى بعض الباحثين، الذين تقاضوا رشى من البنتاجون على الأرجح، أن اليورانيوم المنضب لا يمكن أن يكون سبب الأمراض المتصلة بالحرب وأن الإيضاح المرجح هو أن السبب يكمن فى الغبار والركام الناشئ عن انفجار مصانع صدام حسين للأسلحة الكيميائية والبيولوجية، أو ربما من " خليط " الجزئيات المتطايرة من ذخائر اليورانيوم المنضب، وومن تدمير مخابى غاز الأعصاب، والهواء الملوث من احتراق آبار النفط. ولكن البراهين تشير إلى دور بارز لليورانيوم المنضب، وتتمثل تلك البراهين فى التجمعات العنقودية فى حالات سرطان الأطفال والتشوهات فى العراق، وكذلك فى كوسوفو حيث استخدمنا أسلحة اليورانيوم المنضب فى حربنا الجوية عام ١٩٩٩. وأكثر من ذلك كانت القوات المسلحة تصر على استخدام مثل تلك الأسلحة ومن ثم تهزأ بقرار الأمم المتحدة لعام ١٩٩٦ الذى يصنف ذخائر اليورانيوم المنضب على أنها سلاح دمار شامل غير مشروع. واليورانيوم المنضب - أو اليورانيوم ٢٣٨ - هو النفايات الناتجة عن توليد الطاقة فى المفاعلات النووية. وهو يستخدم فى المقذوفات مثل قنابل الدبابات وصواريخ كروز لأن كثافتها أكبر من الرصاص بنحو ١,٧ مرة. و تحترق وهى طائرة وتتخلل الدروع بسهولة، ولكنها تتحطم وتتبخر عند الاصطدام، مما يجعلها سلاحا فتاكا بوسائل غير متوقعة. وتحتوى كل قذيفة تطلقها دبابة أميركية على ما بين ثلاثة وعشرة أرطال من اليورانيوم المنضب. وتعتبر الرعوس الحربية من هذا النوع " قنابل قذرة " بالتأكيد وقد لا تكون مشعة بشكل خاص، ولكن يعتقد أنها قادرة من حيث الحجم على التسبب فى أمراض خطيرة وحتى فى مشاكل الولادة. وفى عام ١٩٩٩ أطلقت القوات الأميركية رقما مذهلا من زخات اليورانيوم المنضب بلغ ٩٤٤ ألف طلقة فى الكويت والعراق. وأقرت وزارة الدفاع بأنها

تركت وراءها ما لا يقل عن ٢٣٠ طناً مترياً من اليورانيوم المنضب في ميدان القتال. وأوضحت دراسة لمحاربين قدماء في حرب الخليج أن هناك احتمالاً كبيراً في أن يكون أطفالهم قد ولدوا وهم مصابون بتشوهات خطيرة تتضمن افتقار العيون، وتلوث الدم، وأمراض الجهاز التنفسي، وتآكل الأصابع. ويخشى البروفيسور روك من أن يكون عدد ضحايا ما بعد حرب العراق الثانية أكبر من الأولى لأن القوات المسلحة اعتمدت على اليورانيوم المنضب في الحرب الثانية اعتماداً أكبر بكثير من حرب العراق الأولى. وعندما شاهد صورا تليفزيونية لجنود ومدنيين عراقيين وهم يندفعون بدون حماية حول دبابات عراقية محترقة بقذاف الدبابات، أو وهم يفتشون المباني التي دمرتها الصواريخ، اعتقد أنهم أصيبوا بالتسمم من اليورانيوم المنضب^(٥).

وبدون مبالغة فإن الشبان الأميركيين الذي تم إغراؤهم بالانضمام إلى القوات المسلحة، جعلوا من أنفسهم وقوداً للمدافع حتى إذا استطاعوا تأمين أعمال غير قتالية لهم. ويشكل هؤلاء الرجال والنساء مجموعة غير متجانسة إثنياً ومع ذلك فإنها تختلف في جوانب كثيرة عن السكان الذين اختيروا من بينهم. ونظراً لأن عضوية القوات المسلحة اختيارية تماماً فإنهم لم يعودوا مواطني الجيش بأي حال من الأحوال رغم أن البنتاجون تتظاهر بغير ذلك، ولا علاقة للقوات المسلحة المعاصرة بالجيش التي قاتلت في الحرب العالمية الثانية وفي كوريا وفييتنام والتي تشكلت جميعها من خلال التجنيد الإجباري. كذلك لا تشابه بين قواتنا والجيش التي تأسست على التزام عام بالدفاع عن البلاد مثل الجيش الإسرائيلي الذي لا يعفى من خدمته إلا المتدينين. ولما كان الجنود والبحارة هذه الأيام يعلمون أنهم يشكلون طبقة خاصة في المجتمع، فإنهم يميلون إلى اعتبار أنفسهم - بعبارة مشتركة ومميزة - مظهرًا من مظاهر النزعة العسكرية لا مجرد أناس يتوقعون عودة سريعة إلى الحياة المدنية. وتتعرض مجموعة ثقافة الثكنات والسفن الفرعية الخاصة لمزيد من الجمود لأن القوات المسلحة سهلت أيضاً خروج الذين تطوعوا للجنديّة ثم اكتشفوا أنهم لا يحبون الحياة في القوات المسلحة. وخلال عام ٢٠٠٢، فقد الجيش ١٣,٧ في المائة من جميع الجنود أثناء التدريب.

وأحدث تقرير لوزارة الدفاع هو التقرير السنوي السادس والعشرون عن "تمثيل السكان في فروع القوات المسلحة" وهو يغطي السنة المالية ١٩٩٩. ووفقاً لهذا التقرير

يتبين أن عدد العسكريين في السلك العسكري الذين يعملون كل الوقت يصل إلى أقل من ١,٤ مليون فرد،^(٦) بالإضافة إلى الاحتياط العامل المُشكَّل من الحرس الوطني التابع للجيش. واحتياط الجيش. واحتياط السلاح البحري. واحتياط مشاة البحرية (المارينز). والحرس الوطني الجوي. واحتياط سلاح الجو. ويبلغ إجمالي عددهم جميعاً أقل بقليل من ٨٧١ ألفاً. وهناك أيضاً ما يزيد على ٤٠٥ آلاف رجل وامرأة في الاحتياط غير العامل والحرس الوطني غير العامل. وفي السنة المالية ١٩٩٩ قبلت جميع فروع القوات المسلحة نحو ١٨٤ ألف مجند جديد. ونحو ٦ آلاف من الأعضاء السابقين الذين عادوا إلى الصفوف العاملة. وتقدم نحو ١٦ ألفاً ممن منحوا رتبة ضابط جديد للانضمام إلى القوات العاملة. وفي نفس السنة أيضاً انضم إلى قوات الاحتياط نحو ٥٥ ألفاً بدون خبرة عسكرية. وأكثر من ٨٨ ألفاً ممن يتمتعون بخبرة عسكرية سابقة. وزيادة على ذلك انضم ١٧ ألف ضابط إلى الحرس الوطني أو وحدات الاحتياط العاملة الأخرى. ويعتبر العسكريون العاملون في الخدمة أكثر شباباً بالطبع من مجموع السكان المدنيين. وتبلغ أعمار نصف عدد المسجلين في الخدمة العاملة تقريباً من سبعة عشر على أربعة وعشرين عاماً على عكس نحو ١٥٪ من قوة العمل المدنية. والضباط أكبر سناً من الجنود العاملين (بمتوسط عمر يبلغ أربعاً وثلاثين سنة). ولكنهم أيضاً أصغر سناً من نظرائهم المدنيين خريجي الجامعات الذين يبلغ متوسط أعمارهم ستاً وثلاثين سنة. ويعنى هذا أن الأميركيين الذين يتصل بهم الأجانب هم في الغالب مراهقون أو شباب في العشرين من العمر، وجميعهم تقريباً يجهلون الثقافات واللغات الأجنبية. ولكنهم لقنوا بأنهم يمثلون أمة أسماها الرئيس جورج دبليو بوش : "أعظم قوة أبدية في التاريخ".

أما بالنسبة للجنس والعرق فإننا نجد أن الأميركيين الأفارقة يحظون بتمثيل أكبر بين الجنود المتطوعين. وكان ٢٠٪ من المجندين في الخدمة العسكرية عام ١٩٩٩ من الأميركيين الأفارقة الذين يمثلون ١٢,٧١٪ من قوة العمل المدنية للأمة الذين بلغوا سن التجنيد العسكري. وهم كذلك يمثلون أعلى معدلات البقاء في القوات المسلحة بما يدفع بنسبة تمثيلهم بين المتطوعين العاملين إلى ٢٢,٥ في المائة. ويتدنى تمثيل الوافدين من أميركا اللاتينية إلى نسبة ١١٪ فقط من المجندين الجدد بينما يشكلون ١٣٪ من مجموع السكان العام. وقد ساهموا بنسبة ٩,٥٪ من جميع الجنود العاملين في الخدمة. ولكن نسبة تمثيلهم ارتفعت في الوظائف القتالية إلى ١٧,٧٪ من القوات التي تتعامل

مع الأسلحة مباشرة. وربما أمكن تفسير انخفاض نسبة التمثيل اللاتيني بارتفاع معدل التوقف عن الدراسة بالمراحل الثانوية بينما يجب على المتطوع فى القوات المسلحة أن يتخرج من تلك المدارس العليا أو أن يحصل على مؤهلات بديلة، كذلك هناك سبب آخر وهو أن العديد منهم يقيمون فى البلاد إقامة غير مشروعة. وفى مدن حدودية مثل سان دييجو يقوم مسؤولو التجنيد بالجيش بالعبور من وقت لآخر إلى تيخوانا لتسجيل الشبان المكسيكيين مع تقديم البطاقات الخضراء لهم وربما الوعد باحتمال منحهم الجنسية بعد قضاء مدة الخدمة العسكرية^(٧). وفى العادة يقوم السلاح البحرى ومشاة البحرية بتجنيد أعداد من الأمريكيين اللاتينيين أكبر ممن يقبلهم الجيش وسلاح الجو. ويتسم سلاح مشاة البحرية بأعلى معدل لبقائهم فى الخدمة. وتشكل الأقليات الأخرى (الأميريكيون أهل البلاد. والآسيويون وسكان جزر الباسيفيك) ما يزيد قليلا عن ٥٪ من السكان المدنيين. وتصل نسبة المجندين منهم إلى سبعة فى المائة. وهكذا فى عام ١٩٩٩ كان ٣٨ فى المائة من مجموع قوة المتطوعين العاملين فى الخدمة العسكرية من الملونين (٢٢٪ أميركيون أفارقة. و ٩٪ أميركيون لاتينيون. و ٧٪ آخرون). وتختلف النسب بين الضباط فنجد ٩٪ تقريبا من الضباط الجدد من الأمريكيين الأفارقة. و ٤٪ من الأمريكيين اللاتينيين. و ٩٪ من الآخرين. وفى سلك الضباط العاملين فى الخدمة كان ٨٪ منهم من الأمريكيين الأفارقة و ٤٪ من الأمريكيين اللاتينيين. و ٥٪ من الآخرين. وبهذا يشكل الأمريكيون الأفارقة نسبة من الضباط أصغر بكثير من الرجال والنساء المجندين. ويظل نفس النمط متبعاً بالنسبة لجنود الاحتياط. وتطبق جميع الأكاديميات العسكرية الثلاث سياسة الأفضليات العنصرية فى قبول الطلاب وهذه الأكاديميات هى : ويست بوينت لضباط الجيش، وأنابوليس لضباط البحرية والمارينز، وكولورادو سبرينجز لضباط القوات الجوية. وتصر أكاديمية ويست بوينت على تحديد نسبة مستهدفة معينة فتسعى إلى السماح بالانضمام إلى الدراسة لنسبة تتراوح بين ١٠ و ١٢٪ من الأمريكيين الأفارقة، ولكنها فى العادة تتلقى من ٧ إلى ٩٪ فقط. وتنشط جميع الأكاديميات الثلاث فى تجنيد أبناء الأقليات العرقية وترسل الواعدين غير المؤهلين منهم للدراسة فى مدارس إعدادية لمدة عام قبل قبولهم (وتتناقض هذه السياسات مباشرة مع سياسات إدارة بوش التى أعلنت فى ١٣ يناير ٢٠٠٣ معارضتها لقيام كلية الحقوق بجامعة ميتشيجان بعمل إيجابى لرفع الظلم عن الأقليات وتحقيق كيان طلابى متنوع).

وتدافع القوات المسلحة عن مراعاتها للعامل العنصرى فى سياسة القبول فيها بحجة أنه ما دامت هناك نسبة ٢٨٪ من العاملين فى القوات الجوية، ونسبة ٤٤٪ من العاملين فى الجيش، من الأقليات العرقية فإن اختيار ضباط أسلحة القوات المسلحة جميعاً من البيض يضر بالروح المعنوية وهو احتمال قد يؤدى أيضاً إلى استرجاع ذكريات المخاوف من " التهجمات على الضباط " أثناء حرب فيتنام عندما عمد بعض المجندين الذى أرسلوا إلى حرب لا يؤيدونها إلى قذف أو دحرجة قنابل يدوية فى اتجاه مقر الضباط^(٨). وفى كثير من حوادث التهجم المعلن عنها فى فيتنام وعددها ٢٠٩، كان الرجال الذين قذفوا القنابل أو أطلقوا الرصاص على الضباط، من الجنود الأمريكيين الأفارقة، وكان المستهدفون فى أغلب تلك الهجمات هم صفار الضباط البيض فى ميدان القتال، والسبب الواضح الذى ساهم فيها هو الحقد العنصرى. وكانت مسألة التهجمات فى مقدمة تقرير يناير ٢٠٠٣ الذى يقدم للبنتابجون خلفيات عن جميع أفراد قوة المتطوعين. ووصف ضابط وزارة الدفاع الكبير الذى قدم التقرير هذه المسألة بقوله : " لم تكن تلك صورة جميلة ". وقد أعلن عن حادثة تهجم واحدة على الأقل فى يوم ٢٣ مارس أثناء حرب العراق التى تلت ذلك^(٩).

وفى عام ١٩٩٩ شكلت النساء ١٨٪ من المجندين الجدد، و ٢٤٪ من الأعضاء الجدد فى الخدمة العاملة. وكان هناك ١٤٪ من النساء ضمن طواقم الخدمة العاملة، ونسبة ٢٠٪ تقريباً من الضباط الجدد من النساء اللاتى يشكلن ١٥٪ من جميع ضباط أسلحة القوات المسلحة. والمهم أن نساء القوات المسلحة سواء كن فى صفوف المجندين العاديين أو ضابطات فى الأسلحة أو فى الخدمة العاملة أو فى الاحتياط العامل، هن فى أغلب الأحوال عضوات فى جماعات أقلية عنصرية أو إثنية وبنسب أكبر من الرجال إذ نجد أن نصف النساء المجندات فى القوات المسلحة الأمريكية ينتمين لجماعات الأقلية، وتشكل الأمريكيات الإفريقيات ٣٥,٣٪ من النساء المجندات.

ويظل الاعتداء الجنسى المشكلة الشائعة ضد النساء العاملات فى الخدمة فى جميع فروع القوات المسلحة بما فى ذلك تلك الموزعة عبر البحار. ووفقاً لأحد التقارير المنشورة فى صحيفة " أميركان إنديستريال مديسينز " فإن ٢٨٪ من النساء المحاربات القديمت ذكرن أنهن تعرضن لاعتداءات جنسية أثناء وجودهن فى الخدمة. ويرمز إلى هذه الحالات بحروف ثلاثة هى " إم. إس. تى " وهى الحروف الأولى لعنوان معناه "

الصدّامات الجنسية العسكرية " وتستخدمه وزارة الدفاع ومكاتب إدارة المحاربين القداماء. وفي عام ١٩٩٦ أجرت وزارة الدفاع استطلاعا بينهن في القوات المسلحة حول تجربتهن خلال الاثنى عشر شهرا السابقة. ووجدت الوزارة أن ٩٪ في المارينز، و٨٪ في الجيش، و٦٪ في السلاح البحري، و٤٪ في سلاح الجو تعرضن للاغتصاب أو لمحاولات اغتصاب في تلك السنة. وحيث إن نحو ألف امرأة يخدمن في القوات المسلحة فإن أرقام هذه النسب تمثل نحو ١٤ ألف اعتداء أو محاولة اعتداء جنسى كل عام. ومع ذلك تم الإبلاغ عن القليل من هذه الحالات، ووفقا لما ذكرته وزارة الدفاع فقد أُبلِغَ فعلا عن ٢٤ حالة اعتداء جنسى فحسب أثناء حشد القوات وشن حرب الخليج الأولى. وقد كتبت ماري تيسير الخبيرة في العنف ضد النساء تقول : "إن نظام المحاكمات الجنائية العسكرية بأكمله يمثل عوالم بعيدة عن العالم المدنى ... وأهم اختلاف بينهما هو أن قرارات التحقيق والادعاء تصدر ضمن سلسلة القيادات لا عن إدارة خارجية مناوئة مثل مكتب المدعى. وهذا يضع القادة أمام تناقض مصالح يلزمها" (١٠). وعندما تفجرت فضيحة اغتصاب في أكاديمية سلاح الجو إلى العلن عام ٢٠٠٢ كشفت عن هذه المسائل. وكشف سلاح الجو للكونجرس عن ٥٤ تقريرا عن حالات اغتصاب واعتداءات جنسية أخرى حدثت هناك على مدى السنوات العشر السابقة غير أن وزير الطيران جيمس روش قال في شهادته : " من المحتمل أن تكون هناك مائة حالة أخرى لم نعلم بها" (١١) وقال مدير المركز الاستشارى المدنى المحلى الخاص بحالات الاغتصاب إن معظم الشكاوى المتطابقة من الطالبات العسكريات التى يتلقاها المركز تعرب عن خشيتهن من أن ينتهك ضباط الأكاديمية ومحققوها سرية شكاواهن. وتعتبر مسألة الرضا بقاء جنسى أيضا أمرا أشد تعقيدا في القوات المسلحة عن الحياة المدنية بسبب تسلسل الرتب. وقد لُقّن جميع العاملين في أسلحة القوات المسلحة رجالا ونساء بوجود إطاعة أوامر كبار الضباط أو من هم أعلى منهم رتبة.

واليوم أصبحت أغلبية ضئيلة من الجنود والبحارة والمارينز وأفراد سلاح الجو متزوجين بنسبة تجاوزت أكثر من ٤٠٪ في عام ١٩٧٢ ويميل الرجال إلى الزواج بدرجة أكبر من النساء. ووفقا لمستوى التعليم ذكرت وزارة الدفاع أن مجندى عام ١٩٩٩ يتمتعون بقدرة متوسطة على القراءة ترقى إلى مستوى الصف الحادى عشر بينما كان مستوى القدرة المتوسطة لدى الشبان الصغار المدنيين من نفس الأعمار يصل إلى

الصف العاشر. وجاء أوسع تمثيل جغرافى من الجنوب وخاصة جنوب الأطلنطى وجنوب غرب الولايات الوسطى (تكساس وأركانساس ولويسيانا) وجاء أكثر من خمسين من المجندين الجدد من هذه المنطقة. وكان التمثيل ضعيفا للمناطق الشمالية الشرقية والشمالية الوسطى بينما كان المجندون من الغرب يساوون تقريبا النسبة المتوية من مجموع سكان تلك المنطقة التى يشكلها الشبان الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والرابعة والعشرين. وعلى أساس استطلاع درجة تعلم الآباء ووضعهم الوظيفى ومهنتهم وملكيتهم للمساكن توضح بيانات عام ١٩٩٩ أيضا أن كلا من المجندين العاملين فى الخدمة أو الذين فى الاحتياط جاءوا أساسا من عائلات تنتمى إلى الطبقة الاجتماعية - الاقتصادية المتوسطة والمتوسطة الدنيا. وينتهى التقرير إلى أنه " رغم أن القوات المسلحة متنوعة فإنها ليست صورة طبق الأصل لكل المجتمع. وأسلوب الحياة العسكرية أكثر جاذبية لبعض أعضاء المجتمع عن أساليب الحياة الأخرى " .

وقد تأسست القوات المسلحة على مُثُل الوطنية والدفاع عن الأمة والولاء لمجموعة من القيم المجردة التى تسمى دائما " أسلوب الحياة الأميريكى " . وتتمثل دوافع معظم أعضاء القوات المسلحة فى تطوير الحياة العملية فى مؤسسة الدفاع، وفى إمكانية استغلال القوات المسلحة كمخرج من الجيتوات العنصرية والاقتصادية، والافتتان بالتكنولوجيا العسكرية التى تهلل لها الميديا . ويلتحق شباب الأميريكين الأفارقة بالقوات المسلحة بأعداد كبيرة للهرب من الجيتوات العنصرية من جهة، ومن الالتحاق بعمل فى " الاقتصاد غير الرسمى " من جهة أخرى والذى يقود إلى السجن مرات عديدة. ولا يتطوع أحد للجنديّة تقريبا بدافع وطنى أو بدافع الخدمة العامة. وفى أحاديث بعد أحاديث مع الصحفيين يشير الجنود والبحارة الشبان إلى مشاكل البطالة المدنية واسعة النطاق والتى يزيدها سوء التحول إلى أعمال تصنيع فى الخارج تعتبر من أدنى مستويات فئات الوظائف واحتمال الصدام مع القانون لو حاولوا عملها بوسائلهم الخاصة. وفى هذا يقول أحدهم إنه لو لم يلتحق بالسلح البحري لكان السجن نهايته^(١٢). وقالت فتاة فى التاسعة عشرة من عمرها : " كان من الممكن أن أقوم بنفس العمل الذى يقوم به معظم أصدقائى وهو العمل فى بيع الأطعمة السريعة ^(١٣) " .

وقد قام الصحفى المحقق كيفن هيلمان فى عام ١٩٩٧ بإجراء مقابلات مع الجنود فى قاعدة كامب كيزى على مسافة اثنى عشر ميلا من المنطقة منزوعة السلاح فى

كوريا الجنوبية. وأشار إلى جندى قال له إن الرقيب المشرف عليه سخر منه لأنه لم يرد أن يطلب إعادة تجنيده وقال له " ماذا ستفعل عندما تخرج؟ هل ستعمل فى مطاعم ماكدونالدز؟ " فأجابه الجندى قائلا : " عندما أخرج من هنا وإذا كنت سأقوم بتقليب قطع البيرجر فى أحد هذه المطاعم فسأكون على الأقل مرتديا زيا كنت أفخر به " (١٤) وتعتبر حالة الجندى مايكل والدرون البالغ ثلاثة وعشرين عاما من عمره حالة مطابقة تماما فقد قال للصحفى هيلدمان إنه التحق بالجيش لأنه " عندما تخرج من المدرسة الثانوية وجد أن جميع الوظائف قد شغلت " وقد خدم فى القوات المسلحة مدة عامين ثم مددها ستة أشهر أثناء حرب الخليج الأولى، ثم ترك الجيش وانضم إلى الحرس الوطنى وتزوج وعاش فى مقطورة فى جورجيا حيث كان يعمل فى البناء وتركيب الأسقف والواح الألومنيوم. ثم طلق زوجته وتحطمت سيارته وأخفق فى اختبار ضباط الشرطة فعاد للعيش مع والديه وبعد قضائه سنتين خارج الخدمة العسكرية العاملة عاد مرة أخرى فتطوع للالتحاق بالقوات المسلحة. والجدير بالملاحظة أن الكثير من المجندين مثل والدرون ذكروا أنهم التحقوا بالجيش كوسيلة لكى يصبحوا فى النهاية ضباطا فى الشرطة. وفى كثير من المدن يسمح للمتقدمين لقوة الشرطة باستبدال سنتين من الخدمة العسكرية بساعات الدراسة المعتمدة فى الكلية.

وتوجد الجريمة والنزعة العنصرية فى كل مكان فى القوات المسلحة. وتبدو الحقيقة المختلفة واضحة فى القواعد العسكرية الأميركية فى أنحاء العالم على الرغم من أن القوات المسلحة تحاول بثبات تصوير جميع الجرائم والأحداث العنصرية التى أُبلِّغَ عنها باعتبارها وقائع انفرادية من أعداد متناهية الصغر من " التفاح الفاسد " ومع ضباط يتلقون علاجا مقررًا لشفائهم. ويحصى هيلدمان أكثر الحالات المعروفة منذ منتصف تسعينيات القرن العشرين فيقول " اعتُقل جنود مرتبطون بجماعات تؤمن بسمو الجنس الأبيض، لقيامهم بقتل اثنين من السود فى كارولينا الشمالية، وحُكِمَ بالإعدام على جندى لإطلاقه النار على تشكيل من الجنود مما أدى إلى مقتل واحد وإصابة ثمانية عشر بجروح. وشرح القاتل سبب فعلته قائلا إنه أراد أن يبعث رسالة إلى سلسلة القيادات مفادها أنهم نسوا رعاية الجندى العادى. وقام الجنود السود فى معسكر فورت براج بضرب جندى أميريكى أبيض أدى به إلى غيبوبة خارج الموقع، واندفع جندى من فورت كامبل (كينتاكى) بمركبته نحو جمهرة من الجنود والمدنيين المتقاتلتين فى فورت رايلى فقتل اثنين من الناس، ولقى جنديان مصرعهما وجرح آخر نتيجة إطلاق

النار عليهم، وهى ثانى جريمة قتل مزدوجة فى القاعدة فى أقل من سنة. واعتقل أربعة عشر عضوا فى الخدمة العسكرية لتهريبهم الكوكايين والهيروين. وتقدمت ثلاث نساء عاملات فى معسكر فورت بليس (تكساس) بشكوى قانونية تحمل اتهاما بأنهن أجبرن على الوقوف عرايا أو القيام بحركات جنسية، وفى اليابان اتهم عضو فى الخدمة بأنه تعرى أمام فتاة فى الصف السادس، وصدرت أحكام ضد أربعة آخرين لاغتصابهم فتاة فى الرابعة عشرة من العمر، واعتقل آخر لأنه طعن حلقوم امرأة يابانية وسرق كيس نقودها. واعتقل اثنان من المارينز لهجومهما على امرأة يابانية فى السادسة والخمسين من العمر وسرقتهما، وقام ثلاثة من جنود الخدمة باغتصاب فتاة فى الثانية عشرة من العمر فى جزيرة أوكيناوا مما أثار احتجاجات أكثر من ٥٠ ألف شخص من أهل الجزيرة^(١٥). وفى كوريا الجنوبية وحدها خلال عام ١٩٩٦ أبلغ عن ٨٦١ حالة اعتداء ارتكبتها أعضاء فى الخدمة ضد مدنيين كوريين.

ويندر أن تجد مثل هذه الأحداث طريقها إلى النشر فى الصحف الأميركية السائدة. وخلال صيف ٢٠٠٢ أصيب الأميركيون بالفرع عندما قرأوا أن أربعة جنود من قوات النخبة الخاصة ودلتافورس فى قاعدة فورت براج فى كارولينا الشمالية اغتالوا زوجاتهم. وفى جريمة خامسة تعمدت إحدى الزوجات فى القاعدة إطلاق النار على زوجها وهو نائم، وكان أيضا عضوا فى القوات الخاصة. وقد عاد ثلاثة جنود مؤخرا من أفغانستان مما دعا صحيفة يو إس نيوز آند وورلد ريبورت إلى التساؤل عما إذا كان تدريب القوات الخاصة يمكن أن "يعد الرجال لارتكاب جرائم القتل". وفى النهاية توصلت الصحيفة إلى أنه لا يوجد أى تفسير لجرائم القتل غير "الكيمياء المعقدة للخدمة العسكرية والأسرار المحزنة للزيجات التى أخطأت سبيلها إلى درجة تدعو إلى اليأس"^(١٦).

ووفقا لأحد التقارير لعام ١٩٩٩ ارتفع معدل حوادث العنف المنزلية فى القوات المسلحة من ١٨.٦ من ألف جندي عام ١٩٩٠ إلى ٢٥.٦ فى عام ١٩٩٦. وفى نفس الفترة كانت مثل هذه الحوادث تتناقص فعلا بين العدد الإجمالى لمجموع السكان. وتشير بعض الدراسات إلى أن معدل العنف المنزلى فى القوات المسلحة يتراوح بين ضعف وخمسة أضعاف العنف بين المدنيين^(١٧). والمرجح أن تجارب قتلة فورت براج فى أفغانستان كان لها بعض التأثير على ميلهم إلى العنف. وبعد وقت قصير من ارتكاب

جرائم القتل تحدثت مجلة نيوزويك بالتفصيل عن القوات الخاصة وجنود الفرقة الثانية والثمانين المحمولة جوا في أفغانستان وسلوكهم إزاء المدنيين الأفغان بطريقة بالغة الوحشية، ومثال ذلك تناوب الجنود واحدا وراء الآخر في تصوير بعضهم البعض بينما يصوب كل منهم بندقية إلى رأس عجز أفغانى يتوسل إليهم أن يبقوا على حياته وهو راكع أمامهم. ويذكر أحد التقارير أن جنود الفرقة الثانية والثمانين المحمولة جوا كانوا غير منظمين إلى حد كبير. حتى أنهم دمروا في دقائق ما بنته الجماعة في ستة شهور^(١٨). غير أن القوات المسلحة تعى هذه المشكلة فقد ألغى سلاح المارينز اللقاء السنوى لعام ٢٠٠٢ للقناصة المقرر عقده في قاعدة كوانتيكو بولاية فيرجينيا في نهاية شهر أكتوبر لأن قناصا كان يطارد ضاحية كولومبيا بأكملها ثم تبين أنه من الرماة الذين تلقوا تدريبهم في الجيش^(١٩). وخلال نفس الشهر وعلى الجانب الآخر من البلاد قام قناص آخر بقتل ثلاثة من معلمى التمريض في جامعة أريزونا^(٢٠). وتبين أن هذا القناص من المحاربين القدماء في حرب الخليج وظل في الخدمة العاملة أحد عشر عاما كما تلقى تدريباً في وحدة رينجر للنخبة.

وفي سبتمبر ٢٠٠٢ أعلن السلاح البحرى سلسلة مهمة من الأحداث التى تخص حاملة الطائرات المسماة كيتى هوك التى كان مرساها في قاعدة يوكوسوكا البحرية جنوب طوكيو باليابان. والتى عملت في بحر العرب عامى ٢٠٠١ - ٢٠٠٢ أثناء بدء الهجوم على أفغانستان. وفي أغسطس ٢٠٠٢ عادت الحاملة إلى اليابان حيث ارتكب أعضاء طاقمها سلسلة من الجرائم أدت إلى فصل قبطانها لفقدانه السيطرة على سفينته وطاقمها. ففى ١١ أغسطس هاجم ضابط صغير وسرق عجزا يابانيا في الثامنة والستين وألقت شرطة يوكوسوكا القبض عليه أمام بوابات القاعدة البحرية. وبعد يومين ألقى القبض على عضو من الطاقم عمره تسعة عشر عاما قام برفع سيارة بعد مهاجمة امرأة يابانية في الثالثة والأربعين كانت جالسة في سيارتها عند إشارة مرور ضونية وبعد عشرة أيام اعتقل ضابط الجوازات اليابانى أحد ضباط كيتى هوك أثناء محاولته تهريب كيلو جرام من الماريوانا من بانجوك إلى اليابان عبر مطار ناريتا. وكان نشر هذه الأخبار في اليابان مثيرا للغضب فأمر روبرت ويلارد نائب الأدميرال وقائد الأسطول الأمريكى السابع بعزل القبطان توماس هيجل واستدعاء القبطان روبرت بارابى من الطراد البحرى سياتل لإعادة النظام (في ١٣ فبراير ٢٠٠٣ تم عزل رئيس القبطان بارابى نفسه العميد البحرى ستيفن كونكل رئيس حاملة الطائرات

”جروب فايف” التابعة للأسطول السابع والعاملة حول كيتى هوك لوجود علاقة غير
سوية مع ضابطة بحرية).

وأثناء تغطية أخبار الحاملة كيتى هوك كشف صحفيان بريطانيان عن وجود ظروف
منظمة لممارسة التمييز العنصرى على السفينة مماثل لتلك التى تسببت فى التمرد على
نفس السفينة أثناء حرب فييتنام. ويصف الصحفيان رولاند واطسون وجلين أوين
انطباعاتهما بعد زيارة حاملة الطائرات قائلين : ” الصعود إلى السفينة هو بمثابة حبال
الزمن التى تشدك للوراء إلى أعماق الجنوب السابق، ففى جوف حاملة الطائرات، حيث
يظل الطاقم محبوسا لمدة ستة أشهر فى كل مرة، ينام العمال اليوميون بالعشرات فى
غرفة واحدة، وأغلبهم من السود أو من أهل بورتوريكو يتقاضى الواحد منهم من سبعة
إلى عشرة آلاف دولار فى السنة ليعمل فى المطابخ وغرف الماكينات فى ظل حرارة
تشوى الأجساد. فإذا صعدت عبر أحد عشر مستوى معزولا عن بعضه وفى اتجاه
منطقة الطيارين تحت سطح السفينة تصبح مساحات المعيشة أكبر والهواء أبرد،
وبألوان البشرة أفتح. ويعيش الضباط وهم يجهلون تماما العالم المكس تحتهم
ويتداولون حكايات قديمة عن القتل وعراك العصابات ومفاسد المخدرات. ويمنع الزوار
من المخاطرة بالنزول إلى الأماكن السفلى التى تشد فيها الحرارة والتى تلى الماكينات
التي تعمل بالطاقة النووية... ويحرم على الجميع أيضا العبور إلى السطح المخصص
لإقلاع الطائرات والذي يعج بضجيج طائرات إف - ١٤ وإف - ١٨ التى تشترك فى
التدريبات، وتستثنى طواقم الطائرات من هذا التحريم^(٢١). ومثل هذه الأوضاع شائعة
فى أسلحة القوات المسلحة، ففى كوريا على سبيل المثال، نظم الجنود عصابتهم
العنصرية الخاصة بهم مثل: ” زنوج مدى الحياة ” للأميركيين الأفارقة، و ” رعاة
البقر الحمقى المتوحشون ” و” نجمة الخارجين على القانون الفضية ” للبيض و ” لاراذا ”
للاتينين^(٢٢).

وفى ظل هذه الظروف تدوم طول الوقت جهود التجنيد والاحتفاظ بأعداد كافية من
العاملين فى جميع قواعد وسفن الإمبراطورية. وأصبحت القوات المسلحة بارعة جدا
فى ابتكار وسائل لاجتذاب الشباب، رجالا ونساء، إلى الالتحاق بها. ومن الخدع المعتادة
التي يلجأ إليها المسؤولون عن التجنيد الحصول على أسماء وعناوين وأرقام هواتف
الطلاب فى مدارس المجتمعات المحلية الثانوية وإغراق منازلهم بفيض من الرسائل

البريدية غير المطلوبة، والمكالمات الهاتفية، وأشرطة الفيديو المنحازة للحرب والقمصان القطنية المزخرفة بالشعارات. وتوجه الرسالة أيضا إلى الآباء وتركز على منافع الخدمة فى القوات المسلحة بما فيها إمكانية المساعدة على الالتحاق بالتعليم الجامعى. وعندما يجرى مسؤولو التجنيد مقابلة مع أحد المرشحين يلتزمون بسؤاله أو سؤالها. عما إذا كان يدخن الماريوانا. ووفقا لعدد من التقارير إذا أجاب الطالب بنعم يظلون يلحون فى توجيه نفس السؤال إلى أن يجيب بلا، وعندئذ يسجلون تلك الإجابة^(٢٣).

وقد تزايدت هذه المضايقات إلى حد كبير جدا فى عام ١٩٩٣ إلى درجة أن ضاحية مدرسة سان ديجو المتحدة تبنت سياسة ضد الإدلاء بالمعلومات عن الطلاب للمسؤولين عن التجنيد مهما كان نوعها. ومنذ ذلك الوقت تلقى مجلس إدارة المدرسة سيلا من الضغوط لتغيير رأيه من الساسة المعبئين عسكريا وغرفة التجارة ومديرى المدارس وحتى هيئة محلفى المقاطعة. ومع ذلك لم تنقطع رسائل البنتاجون إلى مدارس سان ديجو طوال سنوات الحظر لأن أحد عشر وحدة تدريب لضباط الاحتياط احتشدت فى مدارس المدينة الثانوية لتمارس وظيفتها كمراكز تجنيد فى ساحات المدارس. وأخيرا قررت القوات المسلحة اتخاذ السبيل التشريعى القومى لإجبار جميع المدارس الثانوية العامة على السماح لمسؤولى التجنيد باستمالة الطلاب تحت تهديد قطع الاعتمادات المالية الخاصة بالتعليم.

وفى عام ٢٠٠٠ وقع الرئيس كلينتون قانونا جديدا كان البنتاجون قد دعا إليه يسمح لمسؤولى التجنيد بالدخول إلى المدارس الثانوية مثلما سمح لزملائهم بدخول الكليات ومواقع الأعمال، ومع ذلك لم يفرض القانون عقوبات فى حالة الرفض وأعطى المدارس حيث توجد سياسة رسمية للمضواحي تضع قيودا على دخول للعسكريين إليها مثلما حدث فى سان ديجو. وفى عام ٢٠٠١ عمد البنتاجون إلى التغلب على هذه العقوبات فأعد تعديلا بقانون جديد يرمى إلى مساعدة الطلبة المعوزين. وهذا القانون المعدل أسماه الرئيس بوش (دون سخريه واضحة)، قانون عدم التخلي عن الأطفال لعام ٢٠٠١، وهو ينص على ما يلى: "على أية مدرسة ثانوية تتلقى تمويلا فيدراليا بحكم هذا القانون أن تسمح بممارسة أنشطة التجنيد لأسلحة القوات المسلحة الأمريكية بانتظام فى ساحات المدرسة وبطريقة معقولة للوصول إلى جميع الطلاب فى تلك المدرسة". ووافق مجلس النواب على القانون بأغلبية ٣٦٦ مقابل ٥٧ صوتا، كما وافق مجلس

الشيوخ أيضا بأغلبية صوت واحد، وفي ٨ يناير ٢٠٠٢ وقع الرئيس بوش على القرار ليصير قانونا. وقال النائب شيمكوس بلهجة المنتصر : " لا مسؤولو تجنيد لا نقود !"^(٢٤).

وكانت وزارة الدفاع سعيدة جدا بهذا التطور بحيث قررت مد هذه الدفعة القانونية الجديدة التي تلقتها إلى جامعات الدولة ومعاهد الدراسات العليا، ومعظمها أوقف خدمات التسكين في الوظائف المقدمة من مانحيها الذين يمارسون التمييز على أساس العنصر أو الجنس أو العقيدة أو الأصل الوطني أو العجز أو التوجه الجنسي. ومثال ذلك أن كلية الحقوق بجامعة هارفارد تمكنت حتى أغسطس ٢٠٠٢ من منع مسؤولي التجنيد من ممارسة عملهم لتجنيد عناصر لمكتب رئيس المجلس العسكري الخاص بأسلحة القوات المسلحة لأن الطلاب المؤهلين الراغبين في الالتحاق بالخدمة كانوا يُرفضون إذا عُرف علنا أنهم من الشواذ إذا كانوا رجالا أو يمارسن السحاق إذا كانوا نساء أو إذا كانوا ثنائيي الجنس. وفسرت وزارة الدفاع القانون الفيدرالي على أنه ينص على أنه إذا لم يسمح أى جزء من إحدى الجامعات لمسؤولي التجنيد العسكريين بالدخول فإن الجامعة كلها تفقد جميع الاعتمادات الفيدرالية. ولم تستطع جامعة هارفارد تحمل خسارة تبلغ ٣٠٠ مليون دولار من المنح الفيدرالية ولذلك أجبرت كلية الحقوق على الخضوع وذكرت القوات المسلحة أنها سوف تستمر في منع المحامين والمحاميات الشواذ جنسيا بزعم أنهم يهددون " تماسك الوحدات ". غير أن جورج فيشر الأستاذ بكلية الحقوق في جامعة ستانفورد يعلق على ذلك بقوله : " هذا المبرر بعيد الاحتمال في ميدان القتال، وهو محال في المكتب القانوني لرئيس المجلس العسكري"^(٢٥).

وهناك مجال آخر لجهود البنتاجون العبقريّة لجذب مزيد من المجندين، ويتمثل في دعم وزارة الدفاع لأفلام هوليوود الحربية. وليس هذا الأمر بجديد، فأول فيلم لهوليوود عن المعارك الجوية أنتج تحت إشراف القوات المسلحة وبجنودها ومعدات مقابل دراسة السيناريو مقدما والحق في إجراء تعديلات عليه. وكان هذا الفيلم هو : " وينجز " في عام ١٩٢٧. ويقول لورانس سويد مؤرخ الأفلام الحربية إن أفلاما مثل What Price Glory و Wings و Air Force و Sands of Iwo Jima و The Longest Day ومئات أخرى من أفلام هوليوود ابتكرت صورة مثيرة للقتال وكأنه مكان لإثبات الرجولة ولتحدي الموت بأسلوب مقبول اجتماعيا. ونتيجة لذلك ظلت أفلام الحرب الأميركية حتى أواخر الستينيات تنتهي بالانتصار وتصور جنودنا وبحارتنا ومشاة بحريتنا وطيارينا وهم يجرون

ويتصرفون أسرع من أعدائهم سواء كانوا من الألمان أو الإيطاليين أو اليابانيين. وهذه الانتصارات السينمائية عززت صورة القوات المسلحة التي تهزم الجميع والتي تتمتع بجميع أنواع القوة والتي هي على حق دائما^(٢٦). وقد حدثت بعض التغييرات أثناء حرب فيتنام وبعدها إذ قدم فيلم "باتون" عام ١٩٧٠ عنصرا واقعيًا في أفلام الحرب، وامتنعت وزارة الدفاع عن مساعدة فيلم Apocalypse Now الذي تدور قصته عن ضابط في فيتنام أرسل لكي يقتل آخر أصيب بالجنون. وفي عصر ما بعد فيتنام لم تدعم الوزارة أيضا أفلاما مثل فيلم ديمى مور وعنوانه "المجندة الأميركية جين" الذي يصور امرأة مصممة على الانضمام إلى الوحدة الخاصة للحرب غير التقليدية، المُشكَّلة كلها من الرجال. ومع ذلك سرعان ما عادت هوليوود إلى القالب القديم على نطاق واسع وأصبح لكل فرع في القوات المسلحة مكتب في لوس أنجليس وتوطدت العلاقة بين المنتجين و "ضباط المشاريع" التابعين للبنتاجون المرسلين إلى مواقع العمل لمراقبة كل ما يتم تصويره وإبداء ملاحظاتهم عليه^(٢٧).

ويعتبر فيلم "بيرل هاربور" من إنتاج ستديوهات والت ديزنى المثال المعاصر للروابط المباشرة بين هوليوود والجهود المبذولة للتجنيد. وكان العرض الأول للفيلم يوم ٢١ مايو ٢٠٠١ عرضا خاصا على سطح حاملة الطائرات جون ستينس التي تعمل بالطاقة النووية. وتم بناء مدرجات مكشوفة وتركيب شاشة عملاقة، وتحركت حاملة الطائرات من مرساها المحلى في سان دييجو إلى ميناء بيرل هاربور بدون طائرات خصبصا لهذا العرض السينمائي. ودعا والت ديزنى والسلاح البحري أكثر من ٢٥٠٠ ضيف لحضور العرض الأول. وتبين قائمة أسماء المشتركين في الفيلم أن عددا كبيرا من قادة القوات المسلحة الأميركية ساعدوا على إنتاجه ومقابل ذلك أجريت تغييرات في السيناريو حتى تظهر القوات المسلحة في صورة براقة ولترويج فكرة مؤداها أن الخدمة في القوات المسلحة عمل رومانسى ووطني ويدعو إلى البهجة وذكرت صحيفة شيكاغو تريبيون أن مسؤولى التجنيد لجأوا حتى إلى وضع موائد في دهايز دور السينما التي يعرض فيها الفيلم أملا في اصطيد بعض الشبان أثناء خروجهم من العرض الذى يستغرق ثلاث ساعات والمسخر لدعاية ماهرة للالتحاق بالقوات المسلحة^(٢٨).

وعمل ديزنى والبنجاحون معا أيضا مع الميديا للترويج للفكرة القائلة بأن بيرل هاربور يروى إنجازات من أسماهم توم بروكو مذيع محطة إن بي سي. " الجيل الأعظم " فى كتابه الذى حمل نفس العنوان وذلك لتمييزهم عن جيل فييتنام الذى تفضل وزارة الدفاع أن ينساه الناس. وفى يوم ٢٦ مايو ٢٠٠١ وهو اليوم التالى لافتتاح عروض الفيلم فى دور السينما. عرضت شبكة إيه بي سى التليفزيونية فيلما خاصا مدته ساعة عن الهجوم على بيرل هاربور وقام بدور الراوية فيه دافيد برينكللى، وفى اليوم التالى عرضت شبكة إن بي سى المنافسة فيلما مدته ساعتان ضمن سلسلة ناشيونال جيوغرافيك عن نفس الموضوع ظهر فيه أيضا المذيع توم بروكو نفسه. كذلك وضعت شركة كيبل تابعة لشبكة إن بي سى على برامجها برنامجا مدته ساعتان حول الناجين من الهجوم على بيرل هاربور قام فيه بدور الراوية الجنرال نورمان شوارتسكوف قائد حرب الخليج^(٢٩).

وبعد هجمات ١١ سبتمبر أنتجت وزارة الدفاع إعلانا سينمائيا قصيرا قصد به الحصول على الدعم المادى للقوات المسلحة، وصمم للعرض قبل بداية عدة أفلام. وشنت القوات المسلحة حملة سينمائية حملت اسم " الحرية الدائمة " ضد أفغانستان وكانت المقدمة الافتتاحية للدعاية للحملة تحمل اسم : الفصل الافتتاحى وصنعها الكولونيل جيمس كون وبلغت تكلفتها ١.٢ مليون دولار. ورغم اعتراض بعض الآباء على إلحاق الفيلم بالفئة المسموح لها بالمشاهدة من جميع الأعمار وهى " الفئة جى "، بدا أن الجمهور يتقبل عرض أفلام مثل The Four Feathers و Sweet Home Alabama. وقد صورت أطقم التصوير التابعة للقوات المسلحة أكثر من ٢٥٠ ساعة من أجل صناعة الفيلم شملت موقعا مع مجموعة مكافحة الإرهاب فى كابول بأفغانستان. وفى قاعدة توينتى ناين بالمر البحرية. وفى المحيط الهندى وهاواى ويوما وأريزونا ونورفولك بفيرجينيا. وترك الفائض من الأشرطة المصورة لاستخدامه فى الإعلانات التجارية والأسطوانات المدمجة للدعاية للالتحاق بالجندية. ومع عقد اتفاق للارتباط التجارى مع رجال جروب - وهى صاحبة أكبر سلسلة دور عرض فى أميركا - خطت وزارة الدفاع أيضا لعرض الأفلام القصيرة قبل بدء عرض الأفلام الروائية على شاشات رجال البالغة أربعة آلاف فى دور العرض^(٣٠).

وتعتبر عمليات العلاقات العامة الأكثر ارتباطا بأنشطة النجاحون السينمائية. وتشمل مساعدة وسائل الإعلام على تصوير القوات المسلحة بشكل يرضى الناس وزرع

جماعات مدنية مؤيدة للقوات المسلحة بنفقات باهظة، وتعتمد إخفاء المعلومات التي لا تريد القوات المسلحة أن يعلم بها الكونجرس أو الجمهور، أما بالنسبة لتأييد أفلام الحرب السينمائية فإن للولايات المتحدة تاريخا طويلا في استغلال وسائل الإعلام في نشر التبريرات لنشاط القوات المسلحة. وقد أصبحت الدعاية لتأييد الحرب ومعاداة الشيوعية موضوعا دائما في الحياة العامة منذ أن دخلت البلاد في الحرب العالمية الثانية. وفي السبعينيات من القرن العشرين أدى هوس أصحاب النزعة العسكرية من المدنيين وأصحاب الزى العسكري بفكرة إغلاق "فجوة الصدقية" بالنسبة لفبيتنام، إلى بذل مجهود شامل جديد، وتسببت الأكاذيب الرسمية عن التقدم العسكري خلال الحرب وما تلاها من افتضاحها عبر الصحافة، في احتراف مديري البنتاجون إدارة المهنة الصحفية والبحث عن وسائل لإخفاء الجوانب السلبية في أية حملة عسكرية.

وقد شنت إدارة ريجان "عملية الغضب المحتدم" في أكتوبر ١٩٨٣ لغزو جزيرة جرينادا الكاريبية الصغيرة بزعم إنقاذ بعض الطلبة الأميركيين. وتشكل هذه العملية نموذجا بارزا في تاريخ استغلال البنتاجون للصحافة. وقد قام كاسبار واينبرجر وزير الدفاع ونائب الأدميرال جوزيف ميتكلاف الثالث بحظر وجود جميع المراسلين الصحفيين في الجزيرة إذ كانت ذكريات فيتنام ما تزال ماثلة في عقليهما، وكان ذلك أول نزاع أميركي تستبعد منه وسائل الإعلام منذ بداية العمليات العسكرية. وبعد الاستيلاء على الجزيرة اعتقل العسكريون صحفيا كان موجودا في الجزيرة قبل الغزو ونقلوه إلى سفينة القيادة. والأمر البالغ الدلالة أن المراسلين الذين حاولوا دخول جزيرة جرينادا بوسائلهم الخاصة اتهموا طائرات السلاح البحري بمهاجمة قواربهم. وصحيح حقا ما ذكره المراسلون الناقدون عن أن القيود وضعت على الصحافة لإخفاء الإخفاقات العسكرية في ضوء حالات المعلومات الاستخبارية الخاطئة، واضطراب الاتصالات، والعجز العام أثناء الاستيلاء على الجزيرة العاجزة عن الدفاع على نطاق واسع.

وتضمنت قوة الغزو خمسة آلاف من مشاة البحرية وجنود الصاعقة، وجوانب من الفرقة الثانية والثمانين المحمولة جوا، بالإضافة إلى فريق القوات الخاصة التابعة للسلاح البحري، وكل هؤلاء ضد مقاومة لا وجود لها على الإطلاق. وفي اليوم الثالث للحملة التي استغرقت خمسة أيام، سمحت القوات المسلحة لعدد محدود من المراسلين بزيارة الجزيرة الذين كانوا قد شكلوا لأول مرة "تجمعا صحفيا". وكانت هذه أول مرة

يستخدم فيها هذا النظام. وسمح لهم بالقيام بجولة فى منطقة القتال برفقة مندوب رسمى. وحتى حرب الخليج كان هذا النظام هو المتبع عادة لضمان عدم نشر ما يفيد حدوث أى شىء مزعج للقوات المسلحة.

وفى أفغانستان أصدرت القوات المسلحة بطاقات مكونة من صفائح رقيقة، ووزعتها على جميع الجنود، وهى تحمل تعليمات توضح كيفية التعامل مع الصحفيين. وتضمنت البطاقات أسئلة وأجوبة افتراضية مثل " ما شعورك إزاء ما تفعله فى أفغانستان؟ " والإجابة هى : " نحن متوحدون فى غايتنا وملتزمون بإنجاز أهدافنا " و " أى وقت تعتقد أن ذلك سوف يستغرقه " و الإجابة هى : " سوف نبقى هنا للوقت الذى يستغرقه تنفيذ عملنا يا سيدى ". وتحتوى البطاقات على بعض البدائل التى تعطى شعورا بالتلقائية مثل هذا السؤال : " ما شعورك إزاء وجودك هنا؟ " والإجابة : " أنا فخور بخدمة وطنى يا سيدى. لدينا عمل ننجزه وأنا سعيد لأننى جزء منه ". وكانت المحاورات التى أجراها المراسلون فى قاعدة باجرام الجوية بالقرب من كابول مصطنعة جدا حتى أن أحد مراسلى محطة بى بى سى أصبح يشك فى إجابات الجنود فى الأمر فقام اثنان من الجنود الأمريكيين بإظهار بطاقتيهما له^(٢١).

وأثناء الإعداد للهجوم على العراق ربيع عام ٢٠٠٣ اخترعت وزارة الدفاع حيلة خادعة فى حملتها التى لا تتوقف للسيطرة على ما يجب أن يعلمه الجمهور ولتصوير القوات المسلحة فى صورة براقة، فقررت " تطعيم " (وهو المصطلح العسكرى) الوحدات القتالية بنحو ٦٠٠ مراسلة ومراسل ومصور صحفى وأفراد الأطقم التليفزيونية. والسماح لهم بمرافقة القوات فى نزهة حربية كما كان متوقعا. والتى كانت كذلك إلى حد كبير. وتلقى جميع الصحفيين لقاحات ضد الجدري والجمرة مثل القوات القتالية. كما أتم نصفهم تقريبا برامج تدريبية أسبوعية سميت " معسكرات " فى قاعدة فورت ديكس بنيجيرسى وقواعد عسكرية محلية أخرى لتعريضهم " للظروف القتالية " بما فى ذلك ارتدأهم لأقنعة الغاز، ولم يسمح لهم بحمل أى سلاح نارى أو قيادة مركباتهم الخاصة. وحظرت أوامر البنتاجون إرسال أخبار عن استمرار القتال دون إذن ضابط القيادة أو الإشارة إلى التاريخ والوقت والمكان ونتيجة أية مهمة عسكرية إلا فى تعبيرات شديدة التعميم. وفى حرب الخليج الأولى اعتمدت القوات المسلحة على نظام " التجمع الصحفى "، وفى الحرب الثانية شعرت بمزيد من الاطمئنان إلى أنه لن ينشر

أى شىء لا تريده وأنه سوف تتوفر مزايا خاصة بالتجنيد من نقل إحدى حروب أميركا الجديدة المعقدة إلى غرف معيشة أبناء الأمة^(٣٢).

وإضافة إلى الإيحاء للميديا بأن تفهم رسالتها. حاولت وزارة الدفاع زرع جماعات مدنية يرحج تأييدها للوزارة سياسيا، أو التى جنت منافع من الإنفاق الدفاعي. وظل هذا اللوبي مجهولا إلى أن حدثت حالة الإهمال القاتلة على متن الغواصة الأميركية جرينفيل فنقلته إلى العلن. ففي ٩ فبراير ٢٠٠١ أجرت الغواصة الهجومية التى تعمل بالطاقة النووية والتى تزن ٦٥٠٠ طن محاكاة لحالة طوارئ تدعو للصعود إلى سطح البحر أمام سواحل هونولولو. وعندئذ اصطدمت الغواصة بسفينة تدريب يابانية لطلاب المدرسة الثانوية البحرية طولها ١٩٠ قدما ففقد تسعة شبان يابانيين حياتهم. وكانت الغواصة قد أمرت بالإبحار لسبب وحيد وهو توفير نزهة بحرية مبهجة لاثني عشر مدنيا من الأثرياء الداعمين للسلاح البحرى. وفقدت الغواصة ثلث طاقمها وتوجهت نحو شاطئ ويكيكى وقد تحطمت عدة قطع من أجهزتها وتوقفت عن العمل. وأدلى القبطان سكوت وادل قائد الغواصة بشهادة أولية أمام مجلس تحقيق فقال إنه لم يعان من تشتت ذهنه من وجود المدنيين أو من القبطان البحرى الذى رافقهم رغم أنهم جميعا كانوا متجمعين فى غرفة القيادة. ومع ذلك فإن اصطداما بين غواصة صاعدة إلى سطح البحر وسفينة أخرى لا يحدث إلا بسبب عدم الانتباه وحده. وفى ١٦ أبريل ٢٠٠١ ذكرت مجلة "هونولولو أدفرتايزر" أن سكوت وادل تصرف بغير ما كان متوقعا منه. وقال إنه لو كان قد حوكم بسبب الإهمال لكان دفاعه الرئيسى هو أن الأوامر صدرت له بأن يأخذ المدنيين فى رحلة بحرية وأن وجودهم فى غرفة القيادة - كما قال لمجلة تايم - "قد عرقل على الأقل تركيزنا الذهني"^(٣٣). وكان أحد مديري شركة تكساس أويل موجودا فى غرفة القيادة بالفعل عندما انطلقت الغواصة إلى سطح البحر.

ولكى يمنع السلاح البحرى القبطان وادل من تكرار ما قاله فى السجلات الرسمية. لم يستدع مجلس التحقيق للشهادة أيا من الضيوف المدنيين وأصر الأدميرال توماس فارجو قائد أسطول المحيط الهادئ على عدم مثوله للمحاكمة أمام مجلس عسكري بحجة أن ذلك سوف يلحق الضرر بالروح المعنوية^(٣٤). ولو أحيل وادل إلى مجلس عسكري لكان قادرا على تقديم دفاعه الذى لا يريده السلاح البحرى، وبدلا من ذلك سمح للمقائد وادل بالتقاعد مع تمتعه بكامل مزاياه. وقد كشفت حادثة الغواصة

جرينفيل لأول مرة عن مدى استخدام السلاح البحرى سفنه وطائراته وكأنها ممتلكات العلاقات العامة. وخلال عام ٢٠٠٢ استقبل أسطول المحيط الهادئ وحده ٧٨٣٦ زائرا مدنيا على متن سفنه. وقد حملهم الأسطول فى إحدى وعشرين رحلة مستخدما غواصات نووية هجومية مثل جرينفيل من أجل ٢٠٧ ضيوف مدنيين، وأربعا وسبعين سفينة أخرى مع حاملات طائرات من أجل ١٤٧٨ ضيفا. ولم يسجل أن أى عضو فى الكونجرس تقدم بسؤال أو حتى أبدى اهتماما بعملية اللوبى التى يقوم بها السلاح البحرى.

ويحاط نشاط أقوى أدوات وزارة الدفاع فى ترويج صورتها وحماية مصالحها من الفحص العام بالسرية إلى أقصى حد ويطلق على تلك الأنشطة البرامج السوداء المدفوعة الأجر من " الميزانية السوداء " وفى أثناء الحرب العالمية الثانية بدأ الاعتماد على ميزانية تحاول بانتظام أن تحير وتضلّل الجمهور بالنسبة لمشروع مانهاتان لصناعة قنبلة نووية. وقد خبئ جميع الاعتمادات المخصصة لبحوث وتصنيع الأسلحة النووية فى حسابات مزيفة لدائرة الحرب ولم تخرج إلى العلن لا للكونجرس ولا للجمهور. وقد أخذ الرئيس والقوات المسلحة على عاتقهما وحدهما إصدار قرار صناعة " أسلحة الدمار الشامل " الأولى. ومع بداية الحرب الباردة أصبحت وزارة الدفاع مدمنة لأسلوب الحياة بميزانية سوداء. وبعد الموافقة على قانون وكالة الاستخبارات المركزية فى عام ١٩٤٩ تم احتواء جميع اعتماداتها سرا (وما زالت) ضمن ميزانية منشورة لوزارة الدفاع. تحت أسماء مموهة. وبينما ابتكر الرئيس ووزارة الدفاع والسى آى إيه وكالات استخبارات جديدة تضخمت الميزانية السوداء بمعدلات كبيرة. وفى عام ١٩٥٢ وقع الرئيس ترومان ميثاقا من سبع صفحات مازال سرا لإنشاء وكالة الأمن القومى التى كرس للتعسس على الإشارات والاتصالات. وفى عام ١٩٦٠ أقام الرئيس أيزنهاور مكتبا أكثر سرية هو المكتب القومى للاستطلاع الذى يدير أقمارنا الاصطناعية التجسسية، وفى عام ١٩٦١ افتتح الرئيس كيندى وكالة استخبارات الدفاع وهى منظمة الاستخبارات الشخصية لهيئة رؤساء الأركان ووزارة الدفاع، وفى عام ١٩٩٦ دمج الرئيس كلينتون عدة وكالات فى وكالة التصوير ورسم الخرائط، وميزانيات جميع هذه المنظمات الاستخبارية المتكاثرة على الدوام لا تنشر، ولكن من الممكن تقدير حجمها. وفى أغسطس ١٩٩٤ تسربت بمحض الصدفة مذكرة للبننتاجون إلى مجلة لتجارة السلاح اسمها " ديفنس ويكلي " فنشرتها. ووفقا لهذه المذكرة أنفقت وكالة الأمن

القومى آنذاك ٣.٥ بليون دولار فى السنة، ووكالة استخبارات الدفاع ٦٢١ مليون دولار، والمكتب القومى للاستطلاع ١٢٢ مليون دولار (والسى آى إيه غير مدرجة)^(٢٥).

والاسم الرسمى الذى منح للميزانية السوداء هو " برامج حرية الوصول الخاصة التى صنفت على أنها "بالغة السرية" (وربما هى إشارة بيروقراطية خبيثة وغير مقصودة إلى دافع الضرائب). وتنقسم هذه البرامج إلى ثلاثة أنماط أساسية : بحوث وامتلاك الأسلحة، والعمليات والدعم متضمنة جزءا كبيرا من الاعتمادات المالية للقوات الخاصة المختلفة، والاستخبارات. ويستقبل عدد قليل من أعضاء الكونجرس تقارير عن هذه الأنماط الثلاثة، وقد جاءت هذه المشاركة المحدودة فى المعلومات فى وقت متأخر تقريبا من الحرب الباردة وفى أعقاب فضائح ووترجيت وأكثر من ذلك شاعت فطنة وزير الدفاع أن توجه متطلبات الإخطار بالمعلومات أو أن ترسل شفها إلى ثمانية محددین فقط من أعضاء الكونجرس. وتعتبر هذه " البرامج الموجهة " أكثر الفجوات السوداء سوادا. وقد حدد المكتب العام للمحاسبة على الأقل ١٨٥ برنامجا أسود وذكر أنها قد تضاعفت إلى ثمانية أضعاف خلال الفترة من عام ١٩٨١ إلى عام ١٩٨٦. ولا يوجد رقم إجمالى رسمى غير أن المكتب العام للمحاسبة قدر ذات مرة أن مبلغا يتراوح بين ٣٠ و ٢٥ بليون دولار خصص للإنفاق السرى العسكرى والاستخباراتى. ووفقا لتقرير من المركز المستقل للتقديرات الاستراتيجية والخاصة بالميزانية بلغت البرامج السوداء المطلوبة فى ميزانية الدفاع فى عهد بوش عام ٢٠٠٤ أعلى مستوياتها منذ عام ١٩٨٨^(٢٦).

وقد جاء ذكر الأسلحة والعمليات فى ميزانية البنتاجون المعلنة تحت سلسلة أسماء خيالية مثل " نصل الحشائش " و " النسر الأبيض " و " العيون السود " و " الدب الحارس " و " المواطن الأكبر " و " وردة الجرار " و " حورية البحر " وأسماء أخرى كثيرة. ولاحظ محللو ميزانيات الدفاع المستقلون أن " أسماء الدلع " المعلنة هذه مثل " سنيور " و " كونستانت " تستخدم مرارا باعتبارها الكلمة الأولى لبرامج السلاح الجوى، و " تراكتور " لبرامج الجيش، و " الطباشير " لبرامج السلاح البحرى^(٢٧). ومع عدم الإشارة المعتاد إلى البرامج السوداء ظهرت هذه البرامج إلى النور ببطء وقد تضمنت قاعدة اختبارات للملاحة الجوية على الطرف الجاف من جروم ليك فى الصحراء جنوب لاس فيجاس فى نيفادا، وقد عرفت باسم المنطقة ٥١ وحملت السجلات باعتبارها جزءا من قاعدة إدواردز التابعة لسلاح الجو فى كاليفورنيا. وقد تضمنت

ثلاث طائرات استطلاع غير مأهولة وضعت على لوحة الرسم عامى ١٩٩٤ - ١٩٩٥ تحت ثلاثة أسماء هى : بريديتور، ودارك ستار، وجلوبال هوك. ومركبة المناورات الفضائية التابعة لسلاح الجو. وقد استخدمت الطائرة بريديتور استخداما مكثفا فى غزو أفغانستان. وتتضمن بعض العمليات السوداء الأكثر إثارة للاهتمام الفوج الجوى ١٦٠ للعمليات الخاصة التابع للجيش والموجود فى قاعدة فورت كامبل فى كينتاكى، وهو يقوم بإمداد وحدة الكوماندوز دلتافورس بطائرات الهليكوبتر، كذلك هناك أيضا السرب ٤٤٧٧ التابع لسلاح الجو والمخصص للاختبار والتقويم، وكان مقره السابق فى قاعدة نيليس الجوية فى نيفادا. ومنذ سبعينيات القرن العشرين قام السرب ٤٤٧٧ بشراء أو سرقة طائرة مقاتلة سوفيتية لفحصها فى المنطقة ٥١. وفى عام ١٩٩٨ أعلن سلاح الجو لأول مرة أنه يقتنى طائرة من طراز ميج - ٢٩ من مولدافيا الجمهورية السوفيتية السابقة. ولكن ظلت جميع التفاصيل الأخرى طى الكتمان.

وتبدو أية مراقبة من الكونجرس مسرحية هزلية بسبب عشق القوات المسلحة المفرط للسرية والمعلومات المضللة ونشر بيانات تبدو مقنعة فى الظاهر، ولكنها مزيفة فى حقيقة الأمر. ومن المستحيل بالنسبة لأى شخص غير مرخص له، ولم يتعرض لتحريات أمنية واسعة، أن يحرز معلومات معقولة عن اعتمادات "الدفاع". وعلاوة على ذلك فإن النظام بأكمله مقسم إلى أجزاء معزولة عن بعضها عزلا كاملا إلى درجة أن تلك البرامج السوداء، التى هى نسخة من بعضها البعض فى الغالب، لا يبدو أن أى شخص يمكنه معرفة ما يجرى فيها. وفى قضية رفعتها شركتا مكدونل دوجلاس وجنرال دينامكس ضد السلاح البحرى الذى ألقى البرنامج الأسود الخاص بالطائرة المقاتلة ستيلث، إيه أفنجر ١٢ ذكرت الشركتان فى اتهامهما أن التكنولوجيا المتطورة فى برامج سوداء أخرى كانت كفيلة بحل المشاكل التى أدت إلى إلغاء البرنامج، ولكن العاملين فى برنامج إيه-١٢ لم يخطرهم أحد بها^(٢٨). وقد بلغ التزام السرية أبعادا شاسعة حتى أن مصانع تابعة لشركة بوينج، يطلق عليها اسم مناسب هو : " المصانع الأشباح " فى بالمديل بكاليفورنيا، والمخصصة لبرامج سوداء، تطلق باستمرار موسيقى فى الخلفية داخلها حتى تغطى على الأحاديث التى تدور بين العمال حول موضوعات يفترض أنها ذات طبيعة سرية.

والموقف الآن أسوأ بكثير من أى وقت مضى. فقد تفجرت فضيحة نمطية مؤخرا حول عقود وُقعت بين وزارة الدفاع وشركتى لوكهيد مارتن وبوينج لصناعة صواريخ

جديدة قادرة على حمل أقمار اصطناعية ثقيلة إلى الفضاء. وقد صنفت وزارة الدفاع هذه العقود نفسها على أنها " لحماية المصالح التجارية لأكبر مقاولي الدفاع فى أميركا " (٢٩). ومع تنامي السرية الذى لا يتوقف داخل الحكومة، كان هناك أيضا سعى البنتاجون إلى ممارسة ضغوط شرسة لتوسيع نطاق ممارساتها وانتزاع مناطق النفوذ البيروقراطية من الوكالات الأخرى. وهناك جوانب كثيرة لهذه المشكلة، ولكن ربما كان ميل بعض كبار الضباط والمدنيين أصحاب النزعة العسكرية إلى التدخل فى مهام الشرطة المحلية أهم جوانب المشكلة من الناحية السياسية، وكذلك باعتباره أوضح دلائل النزعة العسكرية فى أميركا. وقد أكد الدستور الأمريكى على الفصل الواضح بين أنشطة القوات المسلحة فى الدفاع عن البلاد وتنفيذ القانون وفقا لمدونات القانون الجنائى فى الولايات المتحدة المختلفة. وكتب جيمس ماديسون الذى أفرعته الهيمنة العسكرية فى المقال ٤١ فى الأوراق الفيدرالية يقول : " القوة العاملة (العسكرية) هى قيد خطير" (*). وبينما تمتد جذور هذا الخوف إلى الهموم السياسية للثورة الأمريكية، لم يصبح قضية ملحة حتى الانتخابات الرئاسية المشكوك فى أمرها عام ١٨٧٦ عندما أرسلت قوات عسكرية إلى مراكز الاقتراع فى ثلاث ولايات جنوبية هى كارولينا الجنوبية، وفلوريدا، ولوزيانا. وكان رذرفوردهايز، الشمالى من أوهايو، قد فاز بفارق صوت انتخابى واحد فى موقف شبيه بانتخابات عام ٢٠٠٠ فى فلوريدا المشكوك فى أمرها عندما تدخلت المحكمة العليا فى شؤون الولاية بدلا من القوات المسلحة.

وكان هدف قانون ١٨٧٨ المسمى Posse Comitatus هو منع القوات المسلحة من القيام بمهام الشرطة فى أى وقت دون موافقة الكونجرس أو الرئيس. و " يوسى كوميتاتوس " عبارة لاتينية معناها " قوة البلاد " استخدمت كتعبير من القرون الوسطى لممارسات المأمور الإنجليزى الذى يستدعى المواطنين لمساعدته فى إلقاء القبض على أحد المجرمين أو على قمع اضطرابات أهلية. وفى أميركا فى القرن التاسع عشر اختصرت العبارة إلى كلمة " يوسى " وحدها. وظل المقصود منها هو ضمان عدم قيام الجيش العامل بأى دور يمارس به مهام الشرطة على المواطنين الأمريكيين فى وطنهم. وكان ذلك على الرغم من أن هذا القانون تعرض لعدة تعديلات للسماح للقوات المسلحة بالمساعدة على مكافحة المخدرات وعلى حراسة الحدود المكسيكية.

(*) جيمس ماديسون هو الرئيس الرابع للولايات المتحدة. و يعتبر أبا الدستور الأمريكى. أما الأوراق الفيدرالية فهى سلسلة مكونة من ٨٥ مقالا، و تدعو إلى التصديق على دستور الولايات المتحدة. أما رقم ٤١ فهو رقم المقالة التى يشير إليها مؤلف الكتاب. (المترجم).

ومع ذلك فإن صعود قوة النزعة العسكرية بمساعدة هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ محا كل هذه التمييزات القديمة. وتوغلت وزارة الدفاع فى الشؤون الداخلية نتيجة توسيع نطاق معنى الأمن القومى ليشمل مكافحة الإرهاب ومراقبة الهجرة، وهى مجالات تشارك فيها البنتاجون الآن مشاركة فعالة. وعلى سبيل المثال تصدر وزارة الدفاع الآن قراراتها العملياتية تلبية لما تسميه " ظروف اضطرابات مدنية ". ففى أثناء انعقاد مؤتمر الحزب الجمهورى فى فيلادلفيا فى أغسطس ٢٠٠٠ استنفرت وزارة الدفاع - تحسبا لوقوع هجوم إرهابى كبيرز كلا من " قوة العمل المشتركة - المدعومة مدنيا " والمتواجدة فى قاعدة فورت مونرو فى فيرجينيا، " و " قوة العمل ٢٥٠ " وهى فى الواقع الفرقة الثانية والثمانون المحمولة جوا والتابعة للجيش وقاعدتها فى فورت براج فى كارولينا الشمالية^(٤٠).

ومن الواضح أن الولايات المتحدة لم تثبت مناعتها ضد الهجمات الإرهابية فقد شهدت عام ١٩٩٣ تفجير مركز التجارة العالمى فى نيويورك، وتفجير مبنى المكتب الفيدرالى فى أوكلاهوما سیتی فى مايو عام ١٩٩٥، وهجمات سبتمبر ٢٠٠١ فى نيويورك وواشنطن. وبطريقة أو بأخرى كان أحد الإرهابيين المشاركين فى التفجير محارباً قديماً فى حرب الخليج^(*). واستدعت جميع هذه الأحداث رد الضربات عبر أنشطة الحكومة الأمريكية فى دول أجنبية. كذلك شهدت الولايات المتحدة نماذج من إرهاب الدولة كما حدث فى هجوم العملاء الفيدراليين على داعية التفوق العنصرى الأبيض راندى ويفر عضو فرقة أصحاب البيريهات الخضراء السابق وعلى عائلته فى منطقة روبى ريدج فى أيداهو عام ١٩٩٢ وهجوم عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالى على متمردين دينيين فى واكو بتكساس عام ١٩٩٣^(٤١). ويمكن أن ندرك أن وقوع مثل هذه الأحداث فى المستقبل سوف يجلب القوات العسكرية، ولكن الأكثر أهمية هو أن "الإرهاب" مفهوم مرّن إلى أقصى حد ومتاح لإساءة استخدامه من قبل قادة قوات مسلحة يدفعها الطموح وعدم الاكتراث بالأخلاق.

وخلال صيف ٢٠٠٢ وجهت إدارة بوش محامى وزارتى العدل والدفاع إلى مراجعة قانون بوسى كوميتاتوس و أية قوانين أخرى قد تقيد قدرة القوات المسلحة على الاشتراك فى تطبيق القوانين المحلية. وفى ذلك الوقت كانت وزارة الدفاع تنشئ قيادة

(*) كان تفجير أوكلاهوما قد دمر مبنى ألفرد ب. مورا الفيدرالى و كان المتهم الرئيسى فيها المواطن الأمريكى تيموثى ماكنى. (المترجم).

إقليمية جديدة للدفاع عن أميركا الشمالية مقارنة بالقيادات الخاصة بأميركا اللاتينية وأوروبا والشرق الأوسط والمحيط الهادئ. وتتواجد القيادة الشمالية فى قاعدة بيترسون الجوية فى كولورادو سبرينجز. وتهدف إلى تحسين موقف القوات المسلحة فى الرد على الإرهاب المجاور للبلاد ومنع جلب أسلحة كيميائية أو بيولوجية أو نووية إلى الولايات المتحدة (وحتى أثناء الحرب العالمية الثانية لم تنشئ الحكومة الفيدرالية قيادة مركزية للأراضى الأمريكية الأم بسبب المخاوف من أن تشكل الأساس لديكتاتورية عسكرية). وتشمل دائرة اختصاص هذه القيادة الولايات المتحدة والمكسيك وكندا وكوبا. ولم تتم استشارة المكسيكيين ولا الكنديين ولا الكوبيين بالطبع. وتخرج هذه القيادات عن نطاق أية تسلسلات قيادية عسكرية أو مدنية شأنها فى ذلك شأن قادة القوات المسلحة الإقليميين الآخرين. وفى حقيقة الأمر يمكن مقارنة هؤلاء القادة بنواب القناصل فى الإمبراطورية الرومانية فيما عدا أن الرجال المعنيين فى هذا المنصب فى الجمهورية الرومانية كانوا بالفعل قد شغلوا أعلى المناصب فى الدولة وهو منصب القنصل. وكانوا من المدنيين والمحاربين القدماء العسكريين الذين يتمتعون بكامل الثقة.

وكان أول قائد للقيادة الشمالية هو الجنرال رالف إيبرهات من القوات الجوية. والرئيس السابق لقيادة الفضاء. وقال عند تعيينه : " يجب دائما أن نعيد النظر فى أشياء مثل بوسى كوميتاتوس والقوانين الأخرى إذا رأينا أنها تقيد أيدينا عن حماية الشعب الأمريكى " (٤٢). ويبدو أنه لم يحدث أن أدرك إيبرهات أن ذلك القانون قُصِدَ به حماية الأمريكيين من أمثاله من الجنرالات. وقد أعربت جهات عديدة عن فزعها من تنامي تغلغل دور القوات المسلحة فى مجالات مسؤولياتها مثل مكتب التحقيقات الفيدرالى وإدارة الصحة العامة والوكالة الفيدرالية لإدارة الطوارئ. وتضم وزارة أمن الوطن الجديدة التى أنشئت عام ٢٠٠٣ عددا كبيرا من الوكالات المدنية السابقة كما تعمل بالتعاون الوثيق مع البنتاجون والقيادة الشمالية. وأول نائب لرئيسها هو جوردون إنجلاند وزير البحرية السابق ونائب الرئيس التنفيذى لمؤسسة جنرال داينامكس فى فورت ويرث فى تكساس، وهى صانعة الطائرة الرئيسية للقوات المسلحة الإف - ١٦. (٤٣) وليس واضحا إطلاقا ما هو أكبر خطر على سلامة ووحدة مواطنى الولايات المتحدة : هل هو احتمال هجوم إرهابى يستخدم أسلحة دمار شامل، أم هو تصميم عسكرى خارج عن السيطرة على إزاحة المسؤولين المنتخبين الذين يقفون فى طريقهم؟

وبالإضافة إلى إنشاء القيادة الشمالية ومحاولة نسف قانون بوسى كوميتاتوس، تعمل المؤسسة العسكرية على مد وظائفها ونفوذها إلى العديد من الجبهات الأخرى. فعلى سبيل المثال تحدث وزارة الخزانة مباشرة بمطالبتها بأن جميع المكتسبات الأجنبية المهمة فى الشركات الأميركية يجب أن تخضع لمراجعة من الأمن القومى. وتريد وزارة الدفاع أن يكون لها صوت مسموع بدرجة أكبر فى لجنة الاستثمارات الأجنبية فى الولايات المتحدة بما فى ذلك إشعار إجبارى من تلك اللجنة عن جميع حالات الاستحواذ التى يقوم بها أجانب والتى تبلغ قيمة كل منها أكثر من ١٠٠ مليون دولار. وقد يبدو مثل هذا الطلب شكلا متكررا من أشكال الحماية، ولكن كما قالت صحيفة فاينانشيال تايمز البريطانية فإن "محاولة البنناجون بسط نفوذها على الاستثمار المحلى هى رمز لقوتها المتنامية داخل إدارة بوش" (٤٤).

وبنفس الأسلوب دست الإدارة خلال عام ٢٠٠٣ اقتراحا مفاجئا فى مشروع قانون أكثر توسعا فى تفويض الاستخبارات بحيث يمنح القوات المسلحة (والسى أى إيه) سلطة إصدار مذكرات استدعاء تطالب من يزودون الإنترنت وشركات بطاقات الائتمان والمكتبات ومجموعة أخرى من المؤسسات ليقدموا حسب الطلب مواد مثل سجلات الهاتف وعمليات البنوك، وقوائم البريد الإلكتروني. ويمثل هذا التفويض خرقا شاملا للشروط الدائمة منذ زمن طويل والتى تقضى بأن مكتب التحقيقات الفيدرالى هو وحده الذى يسعى إلى مثل هذه المعلومات عن المواطنين الأميركيين داخل الولايات المتحدة، وبناء على تفويض قضائى فقط، وخاصة إذا كان المكتب يخطط لاستخدام هذه المعلومات فى المحكمة. ويسمح الاقتراح الجديد للقوات المسلحة ووكالة الاستخبارات المركزية بجمع المعلومات عن المواطنين دون أن تخضع للمراقبة القضائية (٤٥).

وقد نشطت بنتاجون رامسفيلد أيضا فى إعفاء القوات المسلحة من قوانين حماية البيئة المختلفة، ومن أمثلة ذلك شكوى سلاح البحرية من أن قانون حماية الأنواع المعرضة للانقراض لعام ١٩٧٣ يعيق قدرات جنودها على حفر الخنادق فى أى مكان يريدونه فى قاعدة كامب بندلتون بكاليفورنيا التى تبلغ مساحتها ١٢٥ ألف إيكير. وكانت إدارة الأسماك والحياة البرية تريد اعتبار جزء صغير من القاعدة "بيئة طبيعية حرجة" لإيواء أنواع الطيور المهددة بالانقراض ومن بينها طيور الرقراق فى الغرب المعرض للتلوث وطيور كاليفورنيا المائية الأقل عددا. وهناك مادة موجودة بالفعل ضمن

قانون الأنواع المهددة بالانقراض تنص على إعفاءات لدواعى الأمن القومى. ولكن مشاة البحرية لم تستخدمها إطلاقاً. ويبدو أنها تبدى اهتماما بحل مشاكل تدريب الجنود وحماية البيئة فى نفس الوقت أقل كثيرا من اهتمامها بإرساء مبدأ أن القوات المسلحة بذاتها هى القانون^(٤٦).

وتتمثل مناطق تمدد البنتاجون ذات الأولوية فى الوظائف الدبلوماسية لوزارة الخارجية والاستخبارات والعمليات السرية لوكالة الاستخبارات المركزية. وتعود جذور القوات العسكرية الخاصة ومناصب قادة القوات المسلحة الإقليمية إلى المحاولة الكارثية بين ٢٤ و٢٦ أبريل ١٩٨٠ لإنقاذ الرهائن الأمريكيين الذين أسروا أثناء استيلاء الإيرانيين على السفارة الأمريكية فى طهران. وقد كشف هذا الفشل عن احتياج البنتاجون لإبداء جدية أكبر فى تدريب وتجهيز الكوماندوز لمواجهة أى " قتال محدود القوة " وتوفير مراكز قيادة متحدة تستطيع الأمر بتوفير الموارد المطلوبة دون الاضطرار إلى شق طريقها عبر متاهة من تسلسل القيادات والتنافس بين الأسلحة الذى لا مفر منه. وفى شهادة أمام الكونجرس للكولونيل تشارلى بيكويد قائد قوة دلتا التابعة للجيش. التى دمرت فى العملية التى سميت الصحراء - واحد جنوب طهران بسبب ارتباكها. يقول : " فى إيران كانت لدينا مهمة خاصة فانطلقنا ووجدنا حاجاتنا من الناس والمعدات وجمعناهم من وقت لآخر وطلبنا منهم أداء مهمة بالغة التعقيد. وقامت جميع الأطراف بعملها. ولكنهم لم يعملوا كفريق ولم يكن لديهم نفس الدافع. وأنا أوصى بتجميع منظمة تحتوى كل شئ قد نحتاج إليه فى أى وقت. منظمة تتضمن قوة دلتا، وجنود الصاعقة، والقوات الخاصة التابعة للسلاح البحرى. وطيارى سلاح الجو والطواقم المصاحبة لهم والعاملين الداعمين لهم وطائراتهم ومروحياتهم. على أن نجعل من هذه المنظمة وحدة عسكرية دائمة ونعطيها مكانا تعتبره وطنها لها مع تخصيص اعتمادات مالية كافية لإدارتها. كذلك يجب منحها وقتا كافيا لإجراء عملية التجنيد، والتقويم، وتدريب أفراد الوحدة، وإلا فلن نكون جادين فى محاربة الإرهاب^(٤٧).

وقد أدت هذه التوصيات رويدا رويدا إلى زيادة نفوذ القادة الإقليميين والتضخيم الدراماتيكي للقوات الخاصة فى تسعينيات القرن العشرين التى استخدمت فيما سُمي "التدخلات الإنسانية " التى كانت إدارة كلينتون تفضلها. وفى عام ١٩٩٧ أُلقيت

مسؤولية تشكيل الاستراتيجيات العسكرية والسياسية الخارجية رسميا على عاتق القادة الإقليميين (الذين كانوا يسمون القادة العموميين حتى أكتوبر ٢٠٠٢ عندما كان رامسفيلد وزير الدفاع يشعر بأنه مهدد جراء نفوذهم المتصاعد فعمدهم باسم " القادة المقاتلون ") وكان هؤلاء الجنرالات والأدميرالات شبه المستقلين يؤدون وظائف كانت تسند للمسؤولين المدنيين فى المقام الأول حتى تسعينيات القرن العشرين.

فى الشرق الأوسط كانت هناك (القيادة المركزية)، وفى المحيط الهادئ (قيادة الباسفيك)، وفى أوروبا (القيادة الأوروبية) وفى أميركا اللاتينية (القيادة الجنوبية)، وكان قادة هذه المراكز القيادية يشرفون على الاستخبارات والعمليات الخاصة والأصول الفضائية والقوات النووية ومبيعات الأسلحة والقواعد العسكرية، ويضعون ما يسمى " خطط مسرح الاشتباكات ". وهى تتضمن أساسا بيانات سياسية صغيرة عن السياسة الخارجية لكل إقليم، كما تتضمن برامج محددة لإقامة علاقات وثيقة مع المؤسسات العسكرية المحلية^(٤٨). تم ذلك بواسطة نشر ما يقارب سبعة آلاف جندى من القوات الخاصة فى ١٥٠ دولة لتدريب عسكريين محليين على ما أطلق عليه اسم : " الدفاع الداخلى الأجنبى " وهو فى كثير من الحالات مجرد اسم لتلطيف تقنيات إرهاب الدولة. وقد أتاحت مهمات التدريب للولايات المتحدة أن تتجسس على تلك الدول وأن تباع الأسلحة لها وتشجع جيوشها على انتهاج سياسات تفضلها وزارة الدفاع الأميركية. ويتم عمل كل شئ فى هدوء شديد ودون إشراف محلى فى الواقع.

وبمرور الزمن ازداد نفوذ القادة الإقليميين فى أقاليمهم وتجاوز نفوذ السفراء. وعندما كان الجنرال أنطونى زينى من المارينز رئيسا للقيادة المركزية كان لديه عشرون سفيرا يعملون تحت إمرته ومستشار سياسى شخصى بدرجة سفير. وتشرف قيادة المحيط الهادئ على شؤون ٤٣ دولة. وتوجد فى متناول كل قائد اعتمادات مالية غير محدودة بالفعل وطائرات ومروحيات وعدد كبير من ضباط الأركان. ويقدم كل قائد منهم تقاريره إلى الرئيس ووزير الدفاع مباشرة متجنباً رؤساء أسلحة القوات المسلحة وتسلسل القيادات الطبيعى.

وفى أكتوبر ١٩٩٩ قام الجنرال برفيز مشرف بانقلاب عسكري فى باكستان فاتصل الرئيس كلينتون به هاتفيا ليبلغه احتجاجه وطلب منه أن يرد عليه، وبدلاً من ذلك اتصل مشرف هاتفيا بالجنرال زينى وأبلغه أخباره قائلاً له : " يا طونى أريد أن أخبرك

بما أفعله^(٤٩). وتجاهل الجنرال زينى الحظر الذى فرضه الكونجرس على منح معونات خارجية لأية دولة تقوم بانقلاب عسكري، وبرز زينى كأقوى داعم لمشرف قبل ١١ سبتمبر. وكان زينى أيضا، لا وزارة الخارجية، هو الذى أصدر القرار بتزويد المدمرات بالوقود من ميناء عدن اليمنى حيث هاجم مسلحون انتحاريون المدمرة كول فى يوم ١٢ أكتوبر ٢٠٠٠ مما أدى إلى مصرع سبعة عشر بحاراً .

ويبدو على القادة الإقليميين اهتمامهم بإقامة علاقات ودية مع زملائهم العسكريين الأجانب إلى حد أكبر من اكتراثهم بانتهاك أى نظام لحقوق الإنسان بغض النظر عن السياسة الخارجية الأميركية من ذلك مثلا أن رئيس قيادة المحيط الهادئ الأدميرال دنيس بليز أصر على إعادة الروابط مع القوات المسلحة الإندونيسية بغض النظر عن تورط قادتها فى المذابح التى ارتكبت فى تيمور الشرقية ضد مئات من المدنيين العزل من السلاح فضلا عن مسؤولين فى الأمم المتحدة. ورغم اعتراض سفيرنا فى جاكارتا بوضوح على تعاون الأدميرال غير القانونى مع القوات المسلحة الإندونيسية، أصبح بليز أول ضابط أميركى رفيع الرتبة يزور إندونيسيا بعد قرار الكونجرس توقيع عقوبات عليها. وبفضل الاستخبارات العسكرية تلقى بليز معلومات مفيدة عن الأحوال فى تيمور واحتمال اندلاع العنف إذا صوت المواطنون لصالح الاستقلال، ولكنه لم يضع الوقت أيضا فى سعيه إلى كبح جماح زملائه الإندونيسيين وبالتالي اتهم خمسة ضباط إندونيسيين بارتكاب جرائم ضد الإنسانية. وكانوا جميعهم نتاج التدريب العسكرى الأمريكى. ويقول السيناتور باتريك ليهى معلقا على ذلك : " طوال وجودى فى مجلس الشيوخ ووزارة الدفاع تقول إن ارتباط الولايات المتحدة سوف يكسب الجيش الإندونيسى المهارة المهنية وثبت كذب هذا القول مرارا وتكرارا حتى أصبح الانهيار المفاجئ فى تيمور الشرقية القشة الأخيرة " (٥٠).

ولم تكن حالة الأدميرال بليز استثناء فقد انحرف رئيس القيادة الجنوبية عن طريقه ليقوم علاقات وطيدة مع جيش السلفادور الذى يعتبر سجله مع حقوق الإنسان الأسوأ بين القوات المسلحة فى أميركا اللاتينية. وفى ١٥ أكتوبر عام ١٩٧٩ رعت الولايات المتحدة انقلابا قام به بعض الضباط العسكريين الشبان فى السلفادور وأدى إلى حرب شريرة ضد أعداد هائلة من المدنيين العزل من السلاح شنتها فرق الموت التى قتلت نحو ٢٨ ألفا من البشر قبل أن ترسل إدارة ريجان نائب الرئيس الأمريكى بوش ليطلب منهم

التوقف عن المذابح. وفى منتصف عام ١٩٨٦ قال مسؤول فى البنتاجون متباهيا : " كل جندى فى جيش السلفادور تلقى تدريبه على أيدينا نحن بطريقة أو بأخرى " (٥١). وحتى أواخر عام ١٩٨٩ كانت القوات الخاصة التابعة للجيش الأمريكى ما تزال " تدرب " كتيبة اسمها " أتلاكاتل " فى السلفادور التى قامت خلال شهر نوفمبر من تلك السنة باغتيال ستة قساوسة من الجزويت ومديرة مسكنهم وابنتها الشابة بادعاء أنهم يتعاطفون مع جنود حرب العصابات. إن ضباط جيش السلفادور هم الذين ظلوا على علاقة وثيقة بالقوات المسلحة الأمريكية فى السنوات العشر منذ توقف حربهم الأهلية. والذين هم حلفاؤنا اليوم فى تلك الدولة الصغيرة (٥٢). ولا يوجد أى تهديد لمسرح عمليات القيادة الجنوبية من أى عدو أجنبى ولذلك فإن وجودنا العسكرى هو نزعة تسلط إمبراطورية صرفة.

إن ترك السياسة الخارجية فى أيدي نواب القنصل الإقليميين يؤدى إلى تغليب نزعة التسلط العسكرى لأنهم سوف يلجأون حتما إلى قدراتهم العسكرية لإنجاز أهداف السياسة الخارجية. وفى ظل هذه الظروف يصعب أن نعرف لماذا يريد أى شخص أن يعمل لحساب وزارة الخارجية. كذلك قطع دابر وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية. ولكن الهجوم هنا يجرى لا من نواب القنصل مباشرة. لكن من البنتاجون والأحبة الحاليين من القوات المسلحة وهم " القوات الخاصة ".

وبعد هجمات ١١ سبتمبر الإرهابية مباشرة. وبمجرد أن تقرر أن القاعدة هى المنظمة الإرهابية التى يحتمل أن تكون مسؤولة عنها، أصدر دونالد رامسفيلد وزير الدفاع ونائبه بول وولفوويتز أوامرها إلى دوجلاس فيث وكيل وزارة الدفاع بتشكيل وحدة خاصة للاستخبارات ضمن وزارة الدفاع على أن يكون هدفها المحدد هو العثور على روابط بين القاعدة ونظام الرئيس العراقى صدام حسين حتى ولو لم تكن السى آى إيه تعتقد بوجودها، وكان فيث - شأنه شأن رؤسائه - قد شغل عدة مناصب دفاعية فى إدارة ريجان من بينها منصب المستشار الخاص لمساعد وزير الدفاع آنذاك ريتشارد بيرل. كما كان واحدا من مجموعة مسؤولين واقعيين بقوة تحت تأثير ديك تشينى نائب الرئيس ووزير الدفاع السابق. وكانت هذه المجموعة تريد شن الحرب على العراق منذ اللحظة الأولى لإدارة بوش الجديدة. وكما تقول صحيفة نيويورك تايمز كان فيث "منجم المعلومات " لإيجاد صلة بين القاعدة وصدام حسين تبرر شن حرب أمريكية ضده.

وكان وولفوويتز وفيث وشركاؤهما " مصممين على تسييس معلومات استخبارية لكي تناسب وجهات نظر هؤلاء الصقور^(٥٣).

وسرعان ما تطور الأمر بحيث أصبحت السى آى إيه العقبة الرئيسية فى وجه هذه الجهود، فلم يستطيع العاملون بها وحللوها أن يجدوا أية صلة بين العراق وهجمات ١١ سبتمبر. كذلك رأت الوكالة أن من المستبعد أن يكون للنظام العلمانى فى العراق أى شأن بتنظيم القاعدة الإسلامى المتطرف، كما أعربت عن شكها فى أن يقوم صدام حسين بإمداد إرهابيين بعبيدين عن سيطرته بأى نوع من الأسلحة التى يمكن اقتفاء أثرها الذى يقود إليه^(٥٤). وسرعان ما تطور هذا الاختلاف فى الرأى ليتحول إلى حرب بيروقراطية متفجرة.

وفى مارس ٢٠٠٢ قاد الجنرال المتقاعد برينت سكوكروفت، أول مستشار للرئيس بوش للأمن القومى، لجنة رئاسية أوصت بوضع ثلاث وكالات استخبارات ممولة من البنتاجون، وهى وكالة الأمن القومى، والمكتب القومى للاستطلاع، والوكالة القومية للتصوير ورسم الخرائط، تحت سيطرة مدير وكالة الاستخبارات المركزية. وكان ذلك تحديا خطيرا لإمبراطورية رامسفيلد. وفى ٢١ يونيو ٢٠٠٢ رد رامسفيلد وزير الدفاع بما أسمته صحيفة نيوز أند وورلد ريبورت " هجوم ستيلث الذكى " إذ قام بهدوء بدس عبارة فى مشروع قانون للدفاع فى مجلس الشيوخ تمنحه سلطة إنشاء منصب وكيل وزارة جديد لاستخبارات الدفاع " ويعتبر منصب وكيل الوزارة الجديد ضربة بيروقراطية حققت الكثير من أهداف البنتاجون بضربة قاضية واحدة ... إن رامسفيلد يبتكر مديرا آخر للاستخبارات المركزية لأهداف عملية^(٥٥) ". وكان وكيل الوزارة الجديد هو رفيقه وموضع ثقته ستيفن كامبون وقد منح السلطة على وكالات الاستخبارات الثلاث غير العسكرية بالإضافة إلى وكالة استخبارات الدفاع. ووصف جى فارار هذا الأمر بأنه " خطوة أخرى فى سعى وزارة الدفاع إلى تعزيز السيطرة الكبرى على جهاز الاستخبارات فى الولايات المتحدة " وجدير بالذكر أن فارار كان موظفا سابقا فى وزارة الدفاع ومجلس الأمن القومى، ويعمل فى مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية الذى يعتبر مجمع أبحاث محافظا. وتضيف صحيفة نيويورك تايمز إلى ذلك قولها " لا يصدق وولفوويتز وجماعته أى تحليل لا يدعم ما انتهوا إليه من تصورات مسبقة. وفيما يتعلق بهم فإنهم يعتبرون السى آى إيه أرض الأعداء^(٥٦).

وقد قيل مرارا إن رامسفيلد وزير الدفاع كان " متلهفا على أن تستولى القوات الخاصة الأميركية عنوة على دور وكالة الاستخبارات المركزية " فى قيادة العمليات السرية لعدة أسباب متشابكة^(٥٧). وقد جاء الوزير إلى البنتاجون وهو حريص على أن يصرف الجيش عن التزامه باستخدام مدرعات ثقيلة ومدفعية من النوع الذى وقف ذات مرة فى مواجهة قوات الدبابات أيام الاتحاد السوفييتى السابق. وكان هو وغيره من القاتمين بالتخطيط فى وزارة الدفاع يعتقدون أن العمليات السرية هى أكثر وسيلة منطقية لتنفيذ الاستراتيجية العسكرية القومية الجديدة للرئيس وهى " الحرب الاستباقية ". ويتكون جزء من هذه الاستراتيجية من تسريب عمليات سرية إلى الدول المستهدفة للقيام بأعمال استفزازية يفترض أن تدفع الإرهابيين إلى الظهور، وأن توفر أعذارا لتدخل عسكري. وفى ظل قيادة الجيش يتعذر إبلاغ هذه العمليات للكونجرس مثلما يحدث بالنسبة لعمليات وكالة المخابرات المركزية. وعندئذ تصبح الولايات المتحدة قادرة على التدخل بسهولة أكبر فى الدول المستهدفة وبقدر من الإشراف المدنى أدنى مما لو تركت مثل هذه العمليات غير المشروعة للوكالة الرسمية للعمليات المستترة. وفوق كل هذا يؤدى التركيز على العمليات الخاصة إلى توسيع نطاق وظائف القوات المسلحة وامتداده إلى اختصاصات قانونية جديدة كانت تدار سابقا بطريقة شبه مدنية.

ولا تتمتع القوات الخاصة بسمعة طيبة على الرغم من تمجيد الصحافة لها باعتبارها " جيش النخبة السرى " وتمتعها بأضخم زيادة فى الإنفاق فى ميزانية الدفاع لعام ٢٠٠٣ بلغت نحو ٢٠٪ ووصلت إلى ٣,٨ بليون دولار.^(٥٨) وفى فيتنام نالت فرقة أصحاب البيريهات الخضر التابعة للجيش شهرة فاضحة بسبب وحشيتها فضلا عن عدم جدواها وفشل القوة الأولى من القوات الخاصة المعروفة باسم مفرزة دلتا فى عملية إنقاذ رهائن طهران التى أدت إلى أول وأضخم توسع للقوات الخاصة أثناء إدارة ريجان وإنشاء وحدة النشاط الداعم للاستخبارات باللغة السرية. ويذكر تيم وينر الصحفى المحقق فى صحيفة فيلادلفيا إنكوايرر أن هذه الوحدة " فتحت دكاكين فى جميع أنحاء أميركا اللاتينية : فى السلفادور وجواتيمالا وهوندوراس ونيكاراجوا وبنما، لدعم الحرب ضد مقاتلى الساندينستا وحلفائهم من الجناح اليسارى"^(٥٩). وقد أقامت تلك الوحدة شركات خاصة كواجهة للتجسس بما فى ذلك محل جزارة ومخزن للحوم فى بنما. كما أقامت مساكن آمنة ومطارات سرية ومخابئ للأموال والأسلحة لتمهد الطريق إلى عمليات مستقبلية ضد العدو فى نيكاراغوا (وهى بالذات حكومة

ساندينستا المنتخبة). وسرعان ما حقق ضباطها سمعة سيئة بسبب الاختلاسات وتهريب الكوكايين وعرقلة العدالة. وعلى الرغم من أن الوحدة لم تهجر كلية عالم البيزنس فقد اكتُشِفَ في منتصف الثمانينيات من القرن العشرين اختفاء ٢٢٤ مليون دولار من أموالها. وعقدت محاكمة سرية حكمت على عدد من ضباطها بالسجن لمدد طويلة في قاعدة فورت ليفنوورث. وخلال نفس الفترة اتهم أعضاء في قوة دلتا باختلاس ٢٠٠ ألف دولار بفواتير مزدوجة للنفقات عندما كانوا مسافرين إلى الخارج لحماية السفراء الأميركيين^(٦٠).

وقد حاول الكونجرس فرض النظام على هذه الفوضى في عام ١٩٨٧ فقرر إنشاء مركز قيادة جديد للعمليات الخاصة تكون رئاسته في قاعدة ماكديل الجوية في تامبا بولاية فلوريدا. وخضعت هذه " الهيئة - المظلة " لقيادة أربعة جنرالات كبار، وفي النهاية وُحِدَت القوات الخاصة بالجيش والسلاح البحري وسلاح الجو المتنافسة تحت قيادة موحدة رغم استمرار وكالات الاستخبارات المتنافسة في المقاومة. ويبلغ عدد أفراد القوات الخاصة في الوقت الحالي ٤٧ ألف جندي وبحار ورجال الجو بما في ذلك أربع مجموعات من الجيش هي القوات الخاصة (أصحاب البيريجات الخضراء) وتقع رئاستها في قاعدة فورت براج بكارولينا الشمالية، والصاعقة وهي وحدات الرد السريع ومهمتها الأولى القتال خلف خطوط العدو، وقوة كوماندوز دلتا فورس لعمليات إنقاذ الرهائن. والكتيبة ١٦٠ الجوية للعمليات الخاصة وسرب الهليكوبتر الهجومى الذى يقوم بنقل جنود دلتا إلى المعركة. ويشارك السلاح البحري بوحدة القوات الخاصة للحرب غير التقليدية والتي تشتهر بأنها الأفضل تدريباً من بين جميع قوات العمليات الخاصة. وبجناح العمليات الخاصة مع أسراب في جميع أنحاء العالم وهي المسؤولة عن عمليات التسلل بعيدة المدى للقوات الخاصة، ومهام الإنقاذ. وكان قد تقرر انضمام بعض عناصر سلاح المارينز إلى هذا التجمع الضخم عام ٢٠٠٢. وفي شهر يونيو من ذلك العام كلف رامسفيلد قيادة العمليات الخاصة بالقيام بالدور الرئيسى في مطاردة تنظيم القاعدة^(٦١).

وفي سبتمبر ٢٠٠٢ أصدر مجلس علم الدفاع تقريره حول " العمليات الخاصة والقوات المشتركة في مواجهة الإرهاب " ويحظى هذا المجلس باحترام كبير ويضم مديري الصناعة بالقطاع الخاص، وهو يشير على البنتاجون في التقنيات والسياسات.

وقد طالب المجلس فى تقريره بتشكيل ما أسماها : " مجموعة العمليات الاستباقية المبادرة " وهى قوة خاصة أخرى تبتكر وسائل استفزاز الإرهابيين ليقوموا برد علنى حتى يمكن استهدافهم ومهاجمتهم. ودعا التقرير أيضا إلى إعداد مشاريع أخرى كثيرة تتضمن جمع فريق خاص يسعى سرا إلى العثور على الأسلحة الكيميائية والبيولوجية والنووية وتدميرها فى جميع أنحاء العالم وقدرت التكلفة بمبلغ سبعة بلايين دولار سنويا. وفوق كل هذا اقترح مجلس علم الدفاع تفويض القوات المسلحة بتنفيذ العمليات السرية مستقلة عن وكالات الاستخبارات والأمن الأخرى ودون علمها.^(٦٢) وقد عكست الاقتراحات فكر جماعة تشينى - رامسفيلد داخل المؤسسة العسكرية، وقد تسبب فى توسيع الإدارات العسكرية السرية وتمركزها فى يد وزير الدفاع. وقد دعا مراقبون مهمون جدا إلى اتخاذ الحذر إزاءها ومن بينهم مسؤولان بارزان فى مجلس العلاقات الخارجية وهما لورانس كورب المساعد السابق لوزير الدفاع، والمحلل جونسون تيرمان. وفى مقال بصحيفة نيويورك تايمز فى ٢١ أغسطس ٢٠٠٢ عنوانه " لا يجب أن يتجسس الجنود ، أدانا مضمون فكرة تخطيط العمليات السرية فى البنجابون ومفادها إرسال قوات خاصة إلى دول حليفة دون إخطار حكوماتها، وتخيل رد فعل ألمانيا لو أن جنود قوة دلتا ضبطوا وهم يغيرون على خلية مزعومة للقاعدة فى هامبورج دون الحصول على موافقة الحكومة الألمانية^(٦٣). ورغم هذه التحذيرات قررت وزارة الدفاع أن تمضى فى برامجها، وأخذت تخطط لنشر مئات الجواسيس من أسلحة القوات المسلحة الأربعة تحت إشراف وكالة استخبارات الدفاع^(٦٤).

وتهدد هذه المقترحات الأخيرة بتحويل التصرفات التى كانت وراء فضائح إيران - كوندرا إلى نمط منظم باعتباره أسلوب حياة. وعندما أوقف الكونجرس تمويل الحرب فى أميركا الوسطى التى كانت السى آى إيه تديرها، استخدمت القوات المسلحة أوليفر نورث، ضابط المارينز المتمركز فى البيت الأبيض فى ملابس مدنية، لجمع الأموال من صفقات سلاح غير قانونية مع إيران وضح النقود سرا إلى الكوندرا الجيش الخاص لمناهضة الثوار فى نيكاراغوا. ومع تقدم نزعة التسلط العسكرى منذ ذلك الوقت، ليس ضربا من الخيال الاعتقاد بأن ذلك قد يصبح النهج العادى للعمليات فى مسار السياسة الخارجية فى المستقبل.

الفصل الخامس

الجنود البدلاء والمرتزة

• كان الجنود الأوربيون في المناطق الاستوائية معزولين في معسكرات في أغلب الأحوال ويعانون من فترات طويلة من انعدام النشاط والشعور بالملل، فيصبحون عرضة لحالة مضعية من إدمان الخمر ويسقطون ضحايا العدوى الجسدية والمعنوية بسبب الأمراض التناسلية. وكان الحل في استخدام جنود من أهالي تلك المناطق الأصليين الأرخص سعرا والأفضل صحة.

دافيد كيلينجراي

كتاب " حراس الإمبراطورية " (١٩٩٩)

كانت لدى البريطانيين كتائب من الجنود الجورخا والسيخ والسباهي(*)، ولدى الفرنسيين الفرقة الأجنبية. والجنود الأمبوانيز عند الهولنديين(**) وجنود القوزاق عند الروس كذلك كانت لدى اليابانيين جيوشهم الألعية فى منشوريا والصين وإندونيسيا وبورما. ومن بين تقاليد النزعة الإمبراطورية المؤكدة تقف السيطرة على تجنيد الأجانب على رأس قائمة الأولويات لكى يقوموا بالأعمال القذرة. ومن العوامل التى سهلت ضبط النظام بين أفراد الشعب الخاضع للاحتلال الاستعاضة بالسكان المحليين كعلف للمدافع بدلا من جنود الدولة المستعمرة (بكسر الميم)، ودفع جماعة عرقية أو دينية من السكان الأصليين ضد جماعة أخرى.

و قد جرب الأميركيون هذا الأسلوب فى فييتنام عام ١٩٦٢ عندما أرسلوا ألفى جندى من ذوى البيريهات الخضر إلى منطقة المرتفعات الجنوبية لتدريب سكان الجبال المختلفين عرقيا عن الفيتناميين وتنظيمهم فى جماعة غير نظامية للدفاع المدنى. وبشكل عام كانت مساهمة أهل الجبال فى المجهود الحربى ضئيلة، وكان جنود الفيتكونج يجتاحون مواقعهم بسهولة وفى أى وقت يشاءون^(١). ورغم ذلك، وكما فعل جميع الإمبرياليين قبلهم، لم يفقد الأميركيون الأمل فى احتمال اكتشافهم السبيل إلى إقناع المحليين بالقتال من أجلهم. ومنذ نهاية الحرب الباردة بشكل خاص أقامت القوات المسلحة علاقات وطيدة مع آلاف الحكومات وسلك الضباط فى العالم الثالث، وبذلت

(*) الجورخا كلمة سانسكريتية معناها الجندى النيبالى الهندوسى الذى استغلته قوات الاحتلال البريطانى للعمل جنديا فى خدمة الجيش البريطانى. أما السباهى فهو المواطن الهندى الذى كان يخدم فى الجيش البريطانى أيضا فى نفس الظروف. والاسم هنا مأخوذ عن اللغة الفارسية، ولكنه دخل إلى الإنجليزية و استعمل بنفس المعنى. (المترجم).

(**) الجنود الأمبوانيز هم من أهل جزيرة أمبوانا فى إندونيسيا تحت الاحتلال. و من المعروف أن جميع الدول المحتلة على اختلاف جنسياتها كانت تستخدم أبناء البلاد الواقعة تحت الاحتلال لخدمة جيوشها. (المترجم).

جهدا هائلا فى برامج التدريب "من القوات المسلحة إلى القوات المسلحة" وخلال تسعينيات القرن العشرين انتهى القادة السياسيون فى كلا الجانبين إلى إمكان إنجاز الكثير من أهداف السياسة الخارجية بشكل أفضل من خلال اتصالات العسكريين بالعسكريين ومبيعات السلاح على عكس الروابط الاقتصادية والدبلوماسية التقليدية^(٢). ويعتبر برنامج وزارة الخارجية الدولى للتعليم والتدريب العسكرى واحدا من البرامج الهادفة إلى تنفيذ هذه السياسات، وقد تضاعف حجمه إلى أربعة أضعاف منذ عام ١٩٩٤. وكان يقدم التعليم فى عام ١٩٩٠ إلى جيوش ٩٦ دولة، وبحلول عام ٢٠٠٢ ازداد هذا الرقم المدهش إلى ١٢٣ دولة. وهناك ١٨٩ دولة فقط فى الأمم المتحدة مما يعنى أن ذلك البرنامج وحده يُعَلِّم القوات المسلحة فى ٧٠٪ من دول العالم. وفى السنوات الأخيرة كنا نقوم بتدريب نحو ١٠٠ ألف جندي أجنبى فى السنة، ونحن هنا نتحدث بانتظام عن ضباط يستطيعون بعد ذلك نقل الأساليب الأميركية إلى جنودهم. وفى عام ٢٠٠١ علّمت القوات المسلحة ١٥٠٣٠ ضابطا وفردا فى أميركا اللاتينية وحدها. وتقوم وزارة الدفاع إما بإحضار المتدربين إلى نحو ١٥٠ معهدا تعليميا عسكريا فى الولايات المتحدة، أو إرسال معلمين عسكريين من القوات الخاصة فى الغالب إلى دولهم نفسها. وقد زادت الحرب على الإرهاب وتيرة هذه التوجهات. وازدادت اعتمادات البرنامج الدولى للتعليم والتدريب العسكرى من ٥٨ مليون دولار فى السنة المالية ٢٠٠١ إلى ٨٠ مليون دولار سنة ٢٠٠٣ محققة قفزة بنسبة ٣٨٪.

و تزعم الولايات المتحدة أنها تدرب الجيوش الأجنبية كسبيل لتعليمها القيم ومثل العلاقات المدنية - العسكرية الأميركية. و يؤكد مسؤولو البنتاجون دائما للجان الكونجرس أن تعليم الجنود الأجانب يساعد على تصحيح سجلات حقوق الإنسان للقوات المسلحة التى تسبب استخدام سلطتها أحيانا. غير أن لورا لامب المرجع الموثوق به فى الموضوع ترى أن معظم البرامج لا تركز بشكل واضح على حقوق الإنسان، كما أنها كانت تنفذ بأسلوب يفتقر إلى المسؤولية بدرجة كبيرة أو بالكامل^(٣). والقوات الخاصة هى أبعد ما تكون عن الصواب عندما يتعلق الأمر بالالتزام بالمعايير الرفيعة فى التعامل مع السجناء أو المدنيين^(٤). و توفر العلاقة الوطيدة بين المعلمين العسكريين الأميركيين والضباط الأجانب سبيلا مبطنا إلى مبيعات السلاح أى إلى شكل من أشكال التجارة يمارس بمنأى عن البنتاجون بالرغم من أن شركات الذخائر الخاصة تستطيع أيضا أن تبيع الأسلحة إذا كانت حاصلة على رخصة بذلك من مكتب رقابة مبيعات أسلحة الدفاع التابع لوزارة الخارجية. ومنذ عام ١٩٩١ أصبحت الولايات

المتحدة إلى حد بعيد أكبر بائع للذخائر فى العالم فمن عام ١٩٩٧ إلى عام ٢٠٠١ صُدّرت أسلحة قيمتها ٤٤,٨٢ بليون دولار. وكانت روسيا أكبر بائع يليها إذ باعت ما قيمته ١٧,٣٥ بليون دولار. ويعتبر النظام المسمى "مَرْن وِيع" نظاما متشابكا جدا لتجنيد الحلفاء وحتى جنى الأموال من الدول الأقل نموا.

ويتمثل الهدف الرئيسى المعلن من وراء التدريب العسكرى الأجنبى فى الوقت الحاضر فى تجنيد المزيد من الجنود الراجلين فى الحرب على الإرهاب وإعدادهم لعمليات مشتركة مع الوحدات الأميريكية. أما الأهداف الخفية من مثل تلك البرامج فهى العثور على جنود بدلاء للجنود الأمريكيين لتفادى وقوع ضحايا، الأمر الذى سيهيج "الوطن". وقد ظلت وزارة الدفاع تحاول تجنب أى شىء قد يهيج الرأى العام ضد خططها وذلك منذ عام ١٩٩٣ عندما سجلت جثة الرقيب راندى شوجارت فى شوارع مقديشو عاصمة الصومال وبثت صورها عبر محطات التلفزيون مما دفع الرئيس ك्लينتون إلى سحب قواتنا من تلك الدولة بعد أربعة أيام. وكما قال الرئيس بوش فى خطبة له يوم ١١ مارس ٢٠٠٢: "لن نرسل القوات الأميريكية إلى معركة. ولكن أميركا سوف تتشط فى إعداد دول أخرى للمعارك القادمة"^(٥).

وكان مدربو الجنود يتم إرسالهم إلى الخارج فى الظاهر لكى يتعلموا اللغات الأجنبية ويألفوا الثقافات الغربية، وبهذه الحجة الظاهرية يتم التحايل على قرارات الكونجرس بحظر الصلات الرسمية مع الدول ذات السجل السيئ فى حقوق الإنسان. وترى وزارة الدفاع أن من الملائم أن تمارس تدريب القوات المسلحة والشرطة على تنفيذ البرامج السرية لإرهاب الدولة بما فيها اغتيال الزعماء الأجانب دون التعرض للاتهام بارتكاب جرائم حرب وانتهاك اتفاقيات جنيف^(٦). كذلك يعتبر التدريب العسكرى الأجنبى وسيلة لشراء النفوذ السياسى. وعلى سبيل المثال، تنفق الولايات المتحدة ١٢ ألف دولار سنويا فى تدريب القوات المسلحة لدولة "توفالو" الجزيرة الصغيرة فى المحيط الهادئ. ومقابل ذلك كانت واحدة من أربع دول فقط انضمت إلى الولايات المتحدة وإسرائيل فى التصويت ضد قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة فى أكتوبر عام ٢٠٠٠ الذى يدين إسرائيل لاستخدامها المفرط للقوة فى فلسطين.

و توجد أمام الولايات المتحدة وسيلتان بديلان لتنفيذ برامجها التدريبية ولكل منهما عواقبها غير المقصودة و سوابق قديمة من ممارسات الإمبراطورية البريطانية التى أصبحت الولايات المتحدة تلميذتها المطيعة إن لم تكن التلميذة التى استوحت منها

الإلهام على وجه الخصوص. و أنا أسمى هذا " استراتيجية الجندي الهندي التابع للجيش البريطاني المسمى "سباهى"، و" استراتيجية الشركات العسكرية الخاصة ". وربما كانت كلمة سباهى مأخوذة من كلمة بلغة الأوردو تطلق على " الفارس " أو " الجندي "، وكانت استراتيجية السباهى ذات مرة قد اقتضت تدريب الجنود المواطنين الأصليين " للخدمة فى فرق هندية يعتقد أنها مخصصة للتاج البريطانى والتي كانت تتشكل فى العادة من المرتزقة السيخ والجورخا. وفى عام ١٨٥٧، فى زمن تمرد السباهيين، الذى يسميه الوطنيون الهنود " حرب الاستقلال الأولى"، نشرت بريطانيا جيشا من ٢٠٠ ألف جندي فى الهند ٩٦٪ منهم من السباهيين. والحقيقة التى تأكدت عند احتدام الهجوم هى أنهم لم يكونوا مخلصين لإشرافات بريطانيا، وهى أحد أكبر المخاطر الناجمة عن هذه النظرة.

و قد تبدى المثال الأمريكى الكلاسيكى لتجنيد السباهيين فى " الحرب السرية " فى لاوس التى امتدت من عام ١٩٦٠ حتى ١٩٧٥. فقد قدم جيش البيريهات الخضر وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية معونة سرية للجنرال فانج باو من جيش لاوس الذى تلقى تدريباً فرنسياً والذى قام بدوره بتجنيد ٢٠ ألفاً شكلوا جيشاً قوياً من رجال قبيلة همونج لمحاربة قوات باتيت لاو الشيوعية المتحالفة مع فيتنام الشمالية. وأصبح فانج باو بطل الاستراتيجيين الأمريكيين فى سايجون وواشنطن وأفضل الدمى التى وجدناها فى الهند الصينية. وكانت القوة الجوية هى أفضل أشكال المساعدة التى قدمناها له، فقد دعمنا مقاتلى همونج بغارات جوية انطلقت من قواعدنا فى تايلاند، وكذلك استخدمنا الخطوط الجوية الخاصة التابعة للسى آى إيه المسماة إير أميركا لإمداد فلاحى قبيلة همونج المتناثرين بالأسلحة والأرز وإمدادات أخرى ثم نقلنا محصولهم الرئيسى من الأفيون المعد للبيع إلى قيادة فانج باو فى سهول الجرار. ومن هناك تذهب إلى الجنود الأمريكيين المقاتلين فى فيتنام، ومن ثم إلى الأسواق العالمية عبر مهربى المخدرات السريين.

و فى عام ١٩٦٩ بدأت قوات الباتيت لاو تلحق الهزيمة برجال عصابات همونج فقامت طائرات إير أميركا بإجلاء الآلاف منهم إلى معسكرات للاجئين تحت قيادة فانج باو. وبمسح قرى همونج بالقنابل وهى القرى التى تم اكتساحها من قبل الباتيت لاو وفى النهاية وبعد انهيار المقاومة المناهضة للشيوعية فى جميع أنحاء الهند الصينية، قامت وكالة الاستخبارات المركزية بإجلاء فانج باو وآلاف من أنصاره إلى الولايات المتحدة حيث يقيمون الآن. وعلى عكس سباهى بريطانيا ظل فانج باو وأفراد قبيلة

همونج مخلصين لوكالة الاستخبارات المركزية. ويذكر ألفرد ماكوى الخبير الموثوق به فى تجارة الأفيون التى صاحبت تلك الحرب السرية أنه " بينما أرسلت القوات المسلحة الأميركية نصف مليون جندى لخوض حرب تقليدية فى فييتنام الجنوبية، تطلبت حرب الجبال هذه مجرد عدد قليل من العسكريين الأميركيين "(٧).

و تتمثل استراتيجية الشركات العسكرية الخاصة فى مؤسسة فينل فى فيرفاكس بكاليفورنيا وهى إحدى فروع تكتل مؤسسة نورثروب جرومان الدفاعية الضخمة التى أنشأها ضباط عسكريون أميركيون متقاعدون منذ عام ١٩٧٥ ومنحتها الحكومة ترخيصا لتدريب الحرس الوطنى السعودى وهو القوة شديدة البأس المؤلفة من ١٠٠ ألف فرد والتى تحمى المملكة، وتعتبر الثقل الموازن لأى تهديد يأتى من القوات المسلحة النظامية. وعلى مر السنين قامت مؤسسة فينل بإنشاء وإدارة وتحديد المبادئ وتعيين الموظفين لخمسة أكاديميات عسكرية سعودية، وحتى لوحدات الرماة من الصاعقة، ووضع نظام للرعاية الصحية. فى نفس الوقت الذى تقوم فيه بتدريب أربعة ألوية ميكانيكية وخمسة ألوية للمشاة وإمدادها بالمعدات. ومقابل ذلك قامت المملكة العربية السعودية بضغط مئات الملايين من الدولارات إلى مؤسسات الدفاع الرئيسية لإمداد تلك القوات بالمعدات التى ساهمت مساهمة ضئيلة فى مجريات حرب الخليج الأولى تمثلت فى استعادة السيطرة على مدينة الخفجى السعودية على الحدود الكويتية من العراقيين(٨).

و مؤسسة فينل هى واحدة من نحو خمس وثلاثين شركة خاصة لتأجير المدربين والمرتزة ورجال الشرطة، ومعظم رؤسائها وموظفيها من الضباط ذوى الرتب الرفيعة وأعضاء القوات الخاصة المتقاعدين. وتعرض هذه الشركات نفسها على الحكومة وحلفائها الأجانب للقيام بأى عدد من المهام العسكرية بما فى ذلك تدريب الجنود. ونظرا لكونها شركات خاصة فهى لا تخضع للنظام العسكرى ومن ثم تظل عملياتها أسراراً مملوكة لها ولا تخضع لأى شكل من أشكال الرقابة العامة. وخلال الفترة من خمسينيات إلى سبعينيات القرن العشرين أنشأت بريطانيا وجنوب إفريقيا شركات مماثلة من المرتزة لتدريب كل من القوات الحكومية والمتمردة فى منطقة الشرق الأوسط وأنجولا وسييرا ليون، والاشتراك فى القتال إلى جانبها أحيانا. كذلك استأجرت الولايات المتحدة شركات خاصة لتدريب القوات المسلحة والشرطة فى فييتنام الجنوبية أثناء الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، ولكن نفعها كان محدودا.

وسوف أعود إلى الشركات الأميركية الخاصة فيما بعد، ولكن دعونا نهتم أولاً بسجلنا الخاص بالجنود السباهيين.

فى عام ١٩٧٦ أنشئ البرنامج الدولى للتعليم والتدريب العسكرى فى أعقاب إعلان مبدأ نيكسون وهو المحاولة اليائسة " لفتنمة " حرب فيتنام أى الانتقال إلى مبدأ " دع الآسيويين يخوضون الحروب الآسيوية ". وكان النمط الأساسى لعمليات ذلك البرنامج - مازال - هو دفع الأموال للضباط والجنود الأجانب لكى يتلقوا دورات دراسية فى أماكن مثل الجامعة القومية للدفاع فى واشنطن دى سى، ومركز استخبارات الجيش الأمريكى فى فورت هواتشوكا فى ولاية أريزونا، ومركز الحرب الخاصة التابع للسلاح البحرى فى كولورادو بولاية كاليفورنيا (وهو قيادة الوحدة الخاصة للحرب غير التقليدية)، وأكاديمية القوات الجوية عبر الأمريكتين فى قاعدة لاكلاند الجوية فى سان أنطونيو بولاية تكساس، ومدرسة قيادة العمليات الخاصة لسلاح الجو فى فورت والتون بيتش بفلووريدا، ومركز جون إف ليندى الخاص فى فورت براج فى كارولينا الشمالية .

وأشهر هذه المعاهد إلى حد بعيد مدرسة الأمريكتين للغة الإسبانية التى غيرت تسميتها عام ٢٠٠٠ إلى معهد نصف الكرة الغربى للتعاون الأمنى حتى تتجنب أمرا أصدره الكونجرس بإغلاقها، ولكن تلك الحيلة الماكرة لم تخدم أحداً رغم أنها أوقفت صورياً حركة إلغاء المدرسة. وكانت قد تأسست فى عام ١٩٤٦ وحدد موقعها فى المستعمرة الأمريكية فى منطقة قناة بنما آنذاك، ثم طردتها حكومة بنما فى عام ١٩٨٤ التى أطلق عليها رئيسها جورج إلوكا عبارة : " أكبر قاعدة لتقويض الاستقرار فى أميركا اللاتينية ". والآن يقع موقع "مدرسة الأمريكتين/ معهد نصف الكرة الغربى" فى أراضى قاعدة الجيش فى فورت بيننج بولاية جورجيا .

وعبر سنوات قامت بتدريب أكثر من ٦٠ ألفاً من ضباط القوات المسلحة والشرطة الأمريكيتين اللاتينيين، الذين تورط عدد كبير من بينهم فى قضايا تعذيب واغتصاب وارتكاب مذابح واغتيالات، وكان من هؤلاء روبرتو دوبيسون قائد فرق الموت الخاصة بجناح اليمين فى السلفادور. وشارك خريجو المدرسة من المستوى الأدنى فى انتهاكات حقوق الإنسان التى تضمنت جريمة اغتيال رئيس أساقفة إسفادور أوسكار روميرو (وربما كانت السى أى إيه ضالعة فيها) فى ٢٤ مارس ١٩٨٠، ومذبحة إل موزوتى فى ديسمبر ١٩٨١ التى قتل فيها ٩٠٠ مدنى سلفادورى. وفى أواخر عام ٢٠٠٢ كان جيش

كولومبيا الذى مزقته الحرب الأهلية، يضم نحو ١٠ آلاف من خريجي مدرسة الأمريكتين/ معهد نصف الكرة الغربى.

وفى عام ١٩٦٩ اكتشفت الصحافة الأمريكية، أن مدرسة الأمريكتين تبنت بين ١٩٨٢ و ١٩٩١ سبعة كتيبات تعليمية مختلفة للغة الإسبانية واعتبرتها كتباً مدرسية تعليمية. وكانت هذه الكتب قائمة على كتيبات أصلية للجيش الأمريكى تدعو إلى " تحييد " (أى قتل) مسؤولين حكوميين وزعماء سياسيين وأعضاء فى البنية الأساسية. وقد وُزعت هذه الكتيبات على آلاف الضباط العسكريين فى إحدى عشرة دولة فى أميركا الجنوبية وأميركا الوسطى. ويقول المقدم آرن أوينز المتحدث باسم البنتاجون : " اكتشفت المشكلة فى عام ١٩٩٢ ونشرت أنباءها ثم استقرت الأمور " (٩) ويظل معهد نصف الكرة الغربى بؤرة حركة احتجاج واسعة النطاق بقيادة الأب روى بورجوا الضابط السابق فى السلاح البحرى وكاهن كنيسة ماريكنول فى الوقت الحاضر، وكان قد اعتقل عدة مرات فى قاعدة فورت بيننج. وتحسبا لنجاحه هو ومؤيدوه فى إغلاق المدرسة الموجودة على التراب الأمريكى، أعلنت إدارة بوش عن خطط بديلة لمدرسة تخلفها فى كوستاريكا.

وهناك منافس ثرى لبرنامج وزارة الخارجية الدولى للتعليم والتدريب وهو إدارة التمويل العسكرى الأجنبى التابعة للبنتاجون، والتى تمنح الأموال للدول لتشتري الأسلحة الأمريكية ثم تمدها بالتدريب على كيفية استخدامها. وقد كانت مخصصات البرنامج الدولى للتعليم والتدريب العسكرى ٥٧٨٧٥ مليون دولار فى السنة المالية ٢٠٠١، مع نفقات مقترحة لسنة ٢٠٠٣ تبلغ ٨٠ مليون دولار، بينما تبلغ مخصصات إدارة التمويل العسكرى الأجنبى بلايين الدولارات ومازالت فى تصاعد. وكانت وزارة الدفاع قد تسلمت فى عام ٢٠٠١ ٢٠٠,٢٤٠,٥٧٦,٣ دولار فأدرجت الوزارة على الفور طلباً بمبلغ ٤,١٠٧,٢٠٠,٠٠٠ دولار لعام ٢٠٠٣. ويعكس هذا الفارق بين البرنامجين حقيقة مفادها أن ميزانية البنتاجون تصل فى الغالب إلى عشرين ضعف ميزانية وزارة الخارجية. ويذهب الجزء الأكبر من اعتمادات البنتاجون إلى إسرائيل بشكل تقليدى، ولكن كان أكبر المتلقين المقترحين فى ميزانية إدارة التمويل العسكرى الأجنبى عام ٢٠٠٣ هم : الأردن بمبلغ ١٩٨ مليون دولار (إضافة إلى مبلغ ٢,٤ مليون دولار من البرنامج الدولى للتعليم والتدريب العسكرى)، وكولومبيا بمبلغ ٩٨ مليون دولار (إضافة إلى ١,٢

مليون دولار من البرنامج الدولي للتعليم والتدريب العسكري). والهند بمبلغ ٥٠ مليون دولار (إضافة إلى مليون دولار من البرنامج الدولي للتعليم والتدريب العسكري)، وباكستان بمبلغ ٥٠ مليون دولار (إضافة إلى مليون دولار من البرنامج الدولي للتعليم والتدريب العسكري)، وتركيا بمبلغ ١٧,٥ مليون دولار (إضافة إلى ٣٥٠ ألف دولار من البرنامج الدولي للتعليم والتدريب العسكري)، وأوزبكستان بمبلغ ٨,٧٥ مليون دولار (إضافة إلى ١,٢ مليون دولار من البرنامج الدولي للتعليم والتدريب العسكري). وتمثل بعض هذه المبالغ أول المدفوعات من إدارة التمويل العسكري الأجنبي لكولومبيا والهند وباكستان في السنوات الأخيرة. أما أوزبكستان، صاحبة أسوأ سجل لحقوق الإنسان في أي مكان، فهي متلق جديد. وقد اقترحت وزارة الدفاع في البداية منح أذربيجان أيضا منحة من البرنامج الدولي للتعليم والتدريب العسكري مقدارها ٧٥٠ ألف دولار، ومنحة أخرى من إدارة التمويل العسكري الأجنبي قدرها ٣ ملايين دولار في عام ٢٠٠٣ كجزء من تكلفة الحرب على الإرهاب، ولكن الوزارة عادت فأقرت بأن تلك الاعتمادات قصد بها فعليا حماية حصول الولايات المتحدة على النفط من بحر قزوين وما حوله.

و هناك برنامج تدريب آخر لوزارة الدفاع ولكنه أنشئ في الأساس لخداع الكونجرس. فمن عام ١٩٥٠ إلى نوفمبر ١٩٩١ عندما أطلق الجيش الإندونيسي النار فقتل ٧٥٠ متظاهرا أعزل من السلاح في مدينة ديلي عاصمة تيمور الشرقية، دفعت الحكومة الأموال لتدريب ما يزيد على ٧٣٠٠ ضابط إندونيسي. وقد حظر الكونجرس إرسال المزيد من الاعتمادات المالية إلى إندونيسيا بعد أن كشف النقاب عن أن من نفذوا مذبحه ديلي كانوا جنودا تلقوا تدريباً أميريكياً وأطلقوا النار من أسلحة أمدتهم بها أميريكاً. وفي العام التالي أنشأت وزارة الدفاع برنامجاً جديداً اسمه " التدريب المشترك الموحد المتبادل " وبمقتضاه ترسل القوات الخاصة إلى دول مختلفة بزعم تعلمها للغات المحلية واكتساب الألفة مع العسكريين المحليين. وقد صمم البرنامج إلى حد كبير للاحتفاظ بالعلاقات العسكرية مع إندونيسيا في مجراها المعتاد. ومن عام ١٩٩٢ حتى مايو ١٩٩٨، وبدون إخطار الكونجرس، نفذت وحدات القوات الخاصة ستة وثلاثين تدريباً مع وحدات القوات الخاصة الإندونيسية تحت ستار البرنامج الجديد.

وفى عام ١٩٩٩ حصلت تيمور الشرقية على استقلالها من خلال استفتاء عام رعته الأمم المتحدة، وبعد ذلك شنت ميليشيات تحت إشراف القوات المسلحة الإندونيسية حملة قاسية " للتطهير العرقى " ضد سكان الجزيرة المدنيين. وفى هذه المرة فرضت إدارة كلينتون حظرا على جميع أشكال المعونات العسكرية لإندونيسيا، وظل الحظر ساريا حتى هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ الإرهابية. وفى ديسمبر ٢٠٠١ أدخلت وزارة الدفاع بندا إلى قانون مخصصات الدفاع ينص على إنشاء " برنامج زمالة الدفاع الإقليمى المناهض للإرهاب " وتبلغ تكلفته ١٧,٩ مليون دولار. ويستقل البرنامج تماما عن البرامج الثلاثة الأخرى فى جلب ضباط القوات المسلحة الإندونيسية إلى الولايات المتحدة لتلقى التدريب. وتستخدم وزارة الدفاع عدة ممارسات أخرى لاختراق قيود الكونجرس المفروضة على علاقاتها مع القوات المسلحة الأجنبية مما يبرهن على النزعة العسكرية المتمكنة من العقول.

ولما كان كل هذا من ذكريات الممارسات الإمبراطورية البريطانية، فمن المحتمل ألا يتذكر ضباط القوات المسلحة الأميركية الجانب السفلى لهذه النوعية من برامج التدريب أى التمرد السباهى. وقد استمر العصيان الهائل نحو عام من أول انتفاضة فى ميروت يوم ١٠ مايو ١٨٥٧ وحتى مارس ١٨٥٨ عندما رفع الحصار عن لوكنو. وقد استطاع المتمردون أسر مدينة دلهى عاصمة الحكم البريطانى لفترة من الوقت. وأصبح ذلك واحدا من الأحداث القليلة فى التاريخ الحديث التى تدل على الصدام الحقيقى بين الحضارات. وكان البريطانيون فى الهند يعتبرون أنفسهم العنصر السيد ونظروا من عليانهم باستكبار إلى المواطنين الهنود السيخ والمسلمين الذين كانوا يخدمون فى الجيش البريطانى، بل أرسلوا حتى بعثات مسيحية تبشيرية لتتدس بين الجنود لمحاولة تحويلهم عن دينهم. وفى عام ١٨٥٧ عندما قدم البريطانيون النسخ الأولى من البندقية إنفيلد كانت الرصاصات مدهونة بشحم صنع من دهن حيوانى بما فى ذلك دهون الأبقار والخنازير. ومعروف أن الأبقار مقدسة لدى الهندوس، بينما المسلمون ينفرون من الخنازير وكان من خصائص الذخيرة الخاصة بتلك البندقية بالذات وجود جديلة ورقية مربوطة بنهاية الرصاصة ومن الضرورى سحبها بالأسنان قبل استخدام البندقية^(١٠). وانتشرت الإشاعات على وجه السرعة بين الجنود السباهيين التى تقول إن البريطانيين

يحاولون إذلالهم بإجبارهم على انتهاك محرماتهم الدينية، ولذا عندما أمر أحد القادة البريطانيين جنوده بالعض على الورقة بأسنانه قام أحد الجنود بإطلاق النار عليه.

وانتشرت الثورة بين الجيش الهندي كانفجار البركان، ورد البريطانيون بقسوة همجية وتعرض السباهيون الأسرى للطعن بحراب البنادق أو ربطهم بجلود البقر والخنازير وإطلاق المدافع عليهم، بالضبط مثلما قمعت الجمهورية الرومانية ثورة أهل سبارطة. وعلى طول الطريق من مدينة كانبور إلى مدينة الله آباد صفت جثث الجنود الهنود الذين تم شنقهم. كذلك أنهت إنجلترا سلطة شركة الهند الشرقية التي عينت السباهيين وضباطهم، وحكمت البلاد مباشرة طوال التسعين سنة التالية باعتبار تلك البلاد من مستعمرات التاج. وألغيت الأفواج الهندية وتم استيعاب جنودها في تشكيلات أكبر تتضمن جنودا من الإنجليز. واقتصرت عمليات المدفعية على الجنود البريطانيين فقط. وبهذه التغييرات توقف البريطانيون في الواقع عن دورهم كتجار في الهند وأصبحوا المستعمرين المرفوضين من بلاد تكن لهم العدااء.

وقد حدث شيء شبيه بذلك للأميركيين في أفغانستان، ففي الفترة من عام ١٩٧٩ حتى ١٩٨٩ زودت وكالة الاستخبارات المركزية جماعات " المجاهدين " (المحاربون من أجل الحرية) بأسلحة خفيفة تتجاوز قيمتها ٢ بليون دولار بما في ذلك أجهزة إطلاق صواريخ ستينجر المضادة للطائرات، ووفرت لها المعلومات الخاصة بكيفية استخدامها ضد القوات السوفيتية التي كانت تحتل أفغانستان. ولم يكن الأميركيون مهتمين بالعقائد الدينية أو الانتماءات السياسية أو المواقف إزاء الغرب التي يعتنقها من تجندهم وتدريبهم وتسليحهم^(١١). وبمجرد هزيمة الاتحاد السوفييتي هجر الأميركيون أفغانستان وتركوها لمصيرها وللمحاربين من أجل الحرية الأفغان، وبشكل خاص للأصوليين الإسلاميين الذين تحولوا إلى معاداة الولايات المتحدة. وأدى نشر الآلاف من القوات المسلحة الأميركية في المملكة العربية السعودية التي بها أقدس موقعين إسلاميين، بالإضافة إلى دعم إسرائيل إلى ازدياد نفقتهم. وانتقم المسلمون المتطرفون خلال تسعينيات القرن العشرين بالهجوم على مركز التجارة العالمي في نيويورك عام ١٩٩٢، والأبراج السكنية للقوات الأميركية في المملكة العربية السعودية عام ١٩٩٦، والسفارتين الأمريكيتين في كينيا وتنزانيا عام ١٩٩٨، والمدمرة كول عام ٢٠٠٠. وقد يكون من المحتمل أن نفكر في هجمات ١١ سبتمبر الإرهابية باعتبارها نسخة معاصرة

من تمرد السباهيين رغم أن إدارة بوش بذلت كل ما لديها من قوة لتؤكد أن الأميركيين لا يفكرون في مثل هذه الأشياء.

و تقوم القوات المسلحة الأميركية بتدريب وتسليح جنودها السباهيين بشكل مباشر، ولكن يتزايد اعتمادها على الشركات الخاصة لتفعل ذلك بعيدا عن علم ورقابة الكونجرس. واليوم تحقق أهم خمس وثلاثين شركة من بين تلك الشركات أعلى الأرباح في دوائر الأعمال والتجارة في البلاد. والشركات الرئيسية من بينها هي: مؤسسة فينل، ومؤسسة ميليتاري بروفيشنال ريسورسز التي يرمز إليها بالحروف التالية: MPRI وموقعها في مدينة الإسكندرية بولاية فيرجينيا وتملكها شركة " L 3 " للاتصالات، وشركة كيلوج براون أند روت في تكساس وهي الشركة الأسطورية التي كانت تمويل ليندون جونسون طوال حياته العملية السياسية، وهي الآن من فروع مؤسسة هالبيرتون، وشركة داين كورب أوف ريستون بفيرجينيا التي اشتهرت بفضائحها أثناء أواخر تسعينيات القرن العشرين عندما اكتشف أن بعض موظفيها في البوسنة كانوا يحتجزون فتيات قاصرات باعتهن رقيقا جنسيا ثم يبيعونهن في أماكن أخرى في أوروبا (وكل ما فعلته شركة داين كورب ببساطة هو مجرد فصل هؤلاء الموظفين)، ومؤسسة ساينس أبليكيشنز إنترناشيونال في سان دييجو التي تقاضى مديروها الخمسة الكبار رواتب بلغت ما بين ٨٢٥ ألف دولار و١,٨ مليون دولار عام ٢٠٠١، وتملكوا أسهما اختيارية تزيد قيمتها عن ١,٥ مليون دولار لكل منهم، وشركة BDM إنترناشيونال في فيرفاكس بولاية فيرجينيا، وآرمر هولينجز في جاكسونفيل بولاية فلوريدا ومؤسسة كيوبك أبليكيشنز في سان دييجو (Cubic)، ومؤسسة ديفنس فوركاستس في واشنطن دي سي، ومؤسسة إنترناشيونال تشارتر في أوريجون^(١٢).

ومنذ نهاية الحرب الباردة، وبالإضافة إلى الأموال التي أنفقتها وزارة الدفاع على البرنامج الدولي للتعليم والتدريب العسكري، وإدارة التمويل العسكري الأجنبي، وبرنامج التدريب المشترك الموحد المتبادل، قامت الوزارة باستئجار تلك الشركات وغيرها لتدريب القوات المسلحة في أكثر من ٤٢ دولة (وأحيانا كانت الدولة الأجنبية تستأجر الشركة، ولكن كان هذا الأمر يحتاج إلى إذن تصدير من وزارة الخارجية وموافقة من وكالة التعاون الأمني الدفاعي التابعة للبيتاجون).

وفى عام ١٩٩٥، على سبيل المثال، منحت شركة MPRI مهمة تدريب إمداد جيشى كرواتيا و البوسنة اللذين كانا يقومان آنذاك بعمليات إبادة عرقية منهجية للصرب مصحوبة بالعديد من جرائم الحرب. كذلك حصلت نفس الشركة على عقد فى عام ٢٠٠١ قيمته ستة ملايين دولار لتدريب الجيش والشرطة فى كولومبيا. ونفذت الشركة ومعها مؤسسة كيوبك برامج لإعداد بعض دول الكتلة السوفيتية السابقة للانضمام إلى عضوية حلف شمال الأطلسى. وقام عدد مختلف من الشركات بمهمة التعليم العسكرى لنحو ١٢٠ قائدا إفريقيا، وتدريب أكثر من ٥٥٠٠ جندى من الدول الإفريقية جنوب الصحراء الكبرى على التقنيات العسكرية الحديثة.

وقد استؤجرت شركة داين كورب لتوفير الحماية الشخصية للرئيس الأفغانى حامد كرزاى. على أن تقوم بتدريب الجيش الأفغانى بمجرد مغادرة وحدة أصحاب البيريهات الخضر للبلاد. وبعد تدخل الولايات المتحدة فى هايتى عام ١٩٩٤ قامت الشركة بـ "تدريب" شرطة تلك الدولة. وحققت الشركة نجاحا كبيرا حتى أن مؤسسة علوم الكمبيوتر فى إل سيجوندو بكاليفورنيا قامت بشرائها. وبعد حرب العراق الثانية ربحت شركة داين كورب عقدا مربحا لتقديم ألف مستشار للمساعدة فى إنشاء إدارة جديدة للشرطة فى العراق، وفرعها القضائى، ونظام سجونها. وقررت إدارة بوش توفير الأموال لعقد الشركة من الأرصدة المخصصة لعمليات مكافحة المخدرات فى أفغانستان.

و الأشخاص الذين يقومون بهذا النوع من التدريب هم على الدوام من انماط عسكرية متقاعدة : جنود محظوظون، وعشاق للحرب، ورجال وجدوا أنفسهم بلا عمل فى نهاية الحرب الباردة، ولكنهم يريدون الاستمرار فيما كانوا يفعلونه أثناء الخدمة العاملة. كما أن معظم الشركات التى يعملون فيها الآن هى وليدة أفكار ضباط كبار وأعضاء متقاعدين من أصحاب البيريهات الخضر. وتعتبر شركة MPRI النموذج الكلاسيكى فقد أنشأها الجنرال كارل فونو رئيس هيئة أركان الجيش السابق خلال حرب الخليج الأولى، والجنرال كروسبى سينت القائد السابق للجيش الأمريكى فى أوروبا، والجنرال رون جريفيث النائب السابق لرئيس هيئة أركان الجيش، وعدد آخر من كبار الجنرالات والأدميرالات. أما المتحدث باسم الشركة فهو هارى سويستر المدير السابق لوكالة استخبارات الدفاع، وهو مجرد فريق دون مهام أخرى. وقد أصبح هؤلاء

الرجال من أصحاب الملايين في يوليو عام ٢٠٠٠ عندما قاموا هم وخمسة وثلاثون آخرون من حملة الأسهم ببيع الشركة إلى شركة L 3 للاتصالات مقابل ٤٠ مليون دولار نقداً.

وليست هذه الشركات العسكرية الخاصة مجرد مؤسسات صغيرة، إذ نجد أن لدى شركة داين كورب ٢٣ ألف موظف، ولدى كيوبك نحو ٤٥٠٠ موظف، ولدى MPRI نحو ٧٠٠ موظف دائم مع قائمة بنحو ١٠ آلاف من العسكريين المتقاعدين تحت الطلب. وتعتبر ديبرا أقامت من دراسة إليوت للشؤون الدولية في جامعة جورج واشنطن مرجعاً موثقاً به في شؤون هؤلاء المرتزقة الجدد، وهي تقدر أن عائدات الشركات العسكرية الخاصة سوف ترتفع إلى ٢٠٢ بليون دولار عام ٢٠١٠، بينما كان دخلها عام ١٩٩٠ ٥٥٦ بليون دولار. ولدى هذه الشركات أيضاً المجموعة التجارية الخاصة بصناعاتهم واسمها الاتحاد الدولي لعمليات السلام، وهو اسم كان كفيلاً بأن يعتز به جورج أورويل. ولا تقتصر هذه الشركات على تدريب الأجانب فحسب، فقد كان لدى شركة MPRI حتى مارس ٢٠٠٢، عقد لإدارة برامج مؤسسة تدريب ضباط الاحتياط في نحو ٢١٧ جامعة أميركية. وتقدم تلك المؤسسة منحاً دراسية للطلاب في مقابل تلقيهم بعض المساقات العسكرية وارتداء زي عسكري في حرم الجامعات، والتدريب خلال جزء من فصل الصيف في إحدى القواعد العسكرية والموافقة على القيام بمهام في جيش الاحتياط عند التخرج. واقتضت الشركة عقداً لتشغيل محطات التجنيد العسكرية في أنحاء البلاد، بعد أن فقدت مناقصة للاستمرار في إدارة برامج مؤسسة تدريب ضباط الاحتياط. ولتلك الشركة وشركة كيوبك باع طويل في تطوير المناهج الدراسية ومبادئ الكتابة وإدارة البرامج التعليمية للضباط العسكريين فضلاً عن تدريب المحققين الصحفيين. ويحظى جانب كبير من عملية خصخصة قواتنا المسلحة بكراهية عميقة بالفعل من العسكريين المحترفين، ويرى الكولونيل بروس جرانت أن الخصخصة وسيلة للالتفاف على الكونجرس وتجهيل الرأي العام. وتوضع السياسة الخارجية بإهمال من قبل مستشارين عسكريين خاصين مدفوعين بتحقيق أقصى المنافع^(١٣).

وتقوم الشركات العسكرية الخاصة كذلك بتقديم خدمات المقاولين لإصلاح المعدات شديدة التعقيد بحيث لا تستطيع القوات المسلحة نفسها صيانتها. وفيما يلي قصة قديمة: فمن أيام خدمتي العسكرية في عهد الحرب الكورية كضابط للعمليات على

سفينة برمائية تابعة للبحرية فى غرب المحيط الهادئ، أذكر جيدا أن الرادار الملاحى على برج القيادة كان يتعطل دائما. ولم يستطع حتى أفضل إخصائى الإلكترونيات من زملائنا إصلاحه وأصبح محتما أن نستدعى ممثلا مدنيا للشركة الصانعة لكى يقوم بالإصلاحات اللازمة. واليوم أصبح الكثير من نظم الأسلحة المعقدة يعتمد اعتمادا كبيرا على المقاول بما فيها صواريخ باتريوت وطائرات الهليكوبتر طراز أباتشى، وقطع المدفعية طراز بالادين، ودبابات إبرامز، وجميع المركبات الفضائية غير المأهولة التى تستخدمها القوات المسلحة ووكالة الاستخبارات المركزية. وتعد بعض الشركات المصنعة القوات المسلحة بتوفير دعم من " المصنع إلى المخبأ " (١٤).

وقد تعلق البعض بأن الأنشطة الداعمة واللوجيستية المتخصصة ابتعدت كثيرا عن الأهداف الأساسية للقوات المسلحة وأن وزارة الدفاع تستطيع الآن أن تفرض رقابة للجودة على المقاول الخاص أفضل من الرقابة على الوحدات العسكرية العادية. وفى التسعينيات من القرن العشرين بدأت وزارة الدفاع فى التعاقد بشأن كل ما يمكن تصوره من خدمات فيما عدا إطلاق النار من البندقية أو قيادة طائرة وبذلك أخذت تفرخ قطاعا جديدا من المجمع الصناعى العسكرى يتنامى بسرعة ويحقق أرباحا هائلة. ومع ولع البنتاجون بعقود " التكلفة والإضافة " (وَقُرِئَتْ باسم عقود النهاية المفتوحة) ظهرت أعداد جديدة كبيرة مما يسمى شركات مقاولات " دعم - القواعد ". وبمرور الزمن اعتادت القوات المسلحة على منح العقود لبناء القواعد العسكرية وصيانتها وتوفير إجراءات الأمن فيها. وأصبحت أيام الحرب العالمية الثانية والحرب الباردة التى كان يرمز إليها بحرفى K P اختصارا لكلمتى (بوليس المطابخ) باللغة الإنجليزية، مجهولة تماما للجنود المعاصرين. والمقصود بالكلمتين المسؤولين عن تنظيف الثكنات ودورات المياه والحراسة.

وأشهر مثال على هذا التحول هو معسكر بوندستيل بالغ الفخامة فى البلقان، فبعد نهاية الحملة الأمريكية لقصف يوجوسلافيا فى يونيو ١٩٩٩ مباشرة، استولت الولايات المتحدة على ألف إيكر من المزارع من أصحابها فى منطقة يورسيفتش فى كوسوفو بالقرب من الحدود المقدونية. وبين يوليو وأكتوبر ١٩٩٩ قامت ببناء المعسكر فى زمن قياسي. كذلك قامت الولايات المتحدة ببناء معسكر مونتيث، وهو أصغر فى حجمه، ولكنه يتمتع بنفس الفخامة. وكان معسكر بوندستيل قد سمي باسم جيمس بوندستيل

الرقيب في الجيش والحائز على وسام الشرف في فييتنام، أما المعسكر الثاني فقد أطلق عليه اسم الملازم أول جيمى مونتيث الحائز على وسام الشرف في فرنسا أثناء الحرب العالمية الثانية. ويعتبر معسكر بوندستيل أكبر القواعد وأكثرها تكلفة التي بنيت منذ حرب فييتنام. وقد بلغت تكلفة البناء ٢٦,٦ مليون دولار، وتكلفة التشغيل السنوية ١٨٠ مليون دولار^(١٥). ويقول الطرفاء في الجيش ساخرين إن هناك أثرين فقط من صنع الإنسان تستطيع رؤيتهما من الفضاء الخارجى وهما : سور الصين العظيم ومعسكر بوندستيل التابع للجيش.

وتستمر شركة كيلوج براون آند روت، التي قامت ببناء المعسكر بعقد مع الجيش، في القيام بكل شيء فيه ما عدا أداء المهام العسكرية. وبناء على واحد من أغلى العقود في تاريخ البنتاجون تقوم شركة كيلوج براون آند روت - كما هو معروف منذ البداية - بصيانة الثكنات، وطبخ الطعام، ومسح الأرضيات، وتوصيل جميع الإمدادات وإدارة شبكات المياه والصرف الصحي. وتوظف الشركة نحو ألف شخص من أفراد القوات المسلحة الأمريكية السابقين إضافة إلى سبعة آلاف ألبانى محلى لتوفير ٦٠٠ ألف جالون مياه يوميا، وما يكفى من التيار الكهربائى لمدينة تحتاج إلى ٢٥ ألف عملية غسيل، وإلى كى ألف ومائتى حقيبة ملابس، وطبخ وتقديم ١٨ ألف وجبة يوميا. ووفقا لتقرير مكتب المحاسبة العامة التابع لوكالة مراقبة الميزانيات فى الكونجرس فى شهر سبتمبر ٢٠٠٠ اشترت شركة براون آند روت بما قيمته ٥,٢ مليون دولار من الأثاث لكل من معسكرى بوند ستيل ومونتيث إلى درجة أن الجيش لم يجد مكانا يكفى لتخزينها، كما أصبح المعسكر مكتظا بالموظفين حتى أن المكاتب يتم تنظيفها أربع مرات فى اليوم، وتنظيف دورات المياه ثلاث مرات يوميا. ويقول الجنود الذين يخدمون فى معسكر بوند ستيل إن العلامة الوحيدة الناقصة فى أعمالهم غير العسكرية الموهبة هى تلك التى تحمل عبارة : " برعاية براون آند روت ". وتقدم الشركة خدمات مماثلة لكثير من القواعد العسكرية فى الكويت وتركيا والمنشأة الأمريكية الجديدة فى خان آباد فى أوزبكستان^(١٦).

وتشتهر شركة براون آند روت منذ مدة طويلة بارتباطاتها السياسية، وفى عام ١٩٦٢ تملكها شركة هاليبيرتون للتنقيب عن النفط والإنشاءات. وكان ديك تشينى وزيرا للدفاع عندما بدأت شركة براون آند روت لأول مرة إمداد الجيش بخدماتها

اللوجيستية. ووفقا لتقرير استقصائي كتبه روبرت برايس فى صحيفة أوستن كرونيكل فإن ديك تشينى هو صاحب الفكرة القائلة بوجود خصخصة عمليات القوات المسلحة اللوجيستية. وكان يحاول زيادة الكفاءة ولو إلى حد قليل حتى يكافئ القطاع الخاص. وأخذ يسأل فى الأساس عن كيفية استطاعة الشركات الخاصة معاونة الجيش فى إلغاء مئات الآلاف من الوظائف. وفى عام ١٩٩٢ دفعت وزارة الدفاع، بتوجيه من تشينى آنذاك، مبلغ ٣,٩ مليون دولار لشركة براون آند روت لإعداد تقرير سرى يوضح بالتفصيل كيف تستطيع الشركات الخاصة التى تماثلها تقديم الخدمات اللوجيستية للجنود الأميركيين فى مناطق الحروب المحتملة فى أنحاء العالم. وفى أواخر عام ١٩٩٢ منحت وزارة الدفاع للشركة مبلغا إضافيا قدره خمسة ملايين دولار لتحديث تقريرها. وفى نفس تلك السنة فازت الشركة بعقد للوجيستيات مدته خمس سنوات مع سلاح المهندسين بالجيش للعمل إلى جانب الجنود الأميركيين فى أماكن مثل زائير وهاييتى والصومال وكوسوفو ودول البلقان والمملكة العربية السعودية^(١٧).

وترك تشينى وزارة الدفاع بعد انتخابات عام ١٩٩٢. وأصبح المدير التنفيذى لشركة هاليبيرتون بين عامى ١٩٩٥ و ٢٠٠٠. وحصلت شركة براون آند روت، تحت قيادته، على عقود حكومية قيمتها ٢,٣ بليون دولار أى ضعف مبلغ ١,٢ مليون دولار الذى كسبته الشركة من الحكومة فى السنوات الخمس التى سبقت وصول تشينى. وقامت شركة هاليبيرتون بإعادة بناء آبار النفط التى دُمِرت فى الحرب ضد صدام حسين. فى مقابل نحو ٢٣,٦ مليون دولار على الرغم من أن تشينى نفسه هو الذى لعب الدور الأساسى فى تدميرها كوزير للدفاع أثناء حرب الخليج الأولى. وبحلول عام ١٩٩٩ أصبحت هاليبيرتون أكبر رب عمل غير اتحادى فى الولايات المتحدة رغم أن شركة وول - مارت حلت محلها بعد وقت قليل. كذلك كان تشينى هو الذى عين ديف جيبسون رئيس موظفيه عندما كان فى البنتاجون، ليكون رجل لوبى هاليبيرتون الرئيسى. وعاد تشينى فى عام ٢٠٠١ إلى واشنطن ليصبح نائبا للرئيس، واستمرت شركة براون آند روت فى بناء وصيانة وحماية القواعد العسكرية من آسيا الوسطى إلى الخليج الفارسى^(١٨).

وأثناء فترة وجود تشينى كمدير تنفيذى لشركة هاليبيرتون تقدمت الشركة على قائمة البنتاجون لأكبر المقاولين من المرتبة الثالثة والسبعين إلى المرتبة الثامنة عشرة.

كذلك تزايد عدد فروعها الموجودة فى مواقع بحرية هى الملاذ غير الخاضع للضرائب من تسعة إلى خمسة وأربعين فرعاً. ونتيجة لذلك تحولت هاليبيرتون من دفع ٢٠٢ مليون دولار كضرائب شركات عام ١٩٩٨، إلى شركة تتلقى ضرائب مستردة قيمتها ٨٥ مليون دولار فى عام ١٩٩٩. وبعد حرب الخليج الثانية، وبينما كان تشينى نائباً لرئيس الجمهورية، منح سلاح المهندسين بالجيش للشركة عقداً خارج العطاءات لإطفاء النيران المشتعلة فى آبار النفط بالعراق. وكانت مدة العقد مفتوحة وبدون تحديد موعد أو حدود للمبالغ المدفوعة ومن النوع المسمى عقود " النفقة والإضافة " أى أن تضمن الشركة كلا من استعادة النفقات وتقاضى الأرباح فوق ذلك. وتمثل هذه العقود نموذجاً لأساليب عمليات شركة براون أند روت والتي تتقاضى بها عشرات الملايين من الدولارات^(١٩). وفى يوم ٤ أبريل عام ٢٠٠٣، فيما يسمى " يوم البيزنس الكبير ٢٠٠٣ " حصل ديك تشينى على جائزة " داذى ووريكس " (ووفقاً لمعظم المعاجم فإن الاسم يكاد يكون : " غندور دولارات الحرب - المترجم) وهذه الجائزة مقدمة من منظمة " سيتيزن ووركس " التى أنشأها رالف نادر المدافع عن حقوق المستهلك. وقد منحها لـ ديك تشينى لتمييزه فى اقتناص أرباح الشركات من الحرب.

ويبدو معسكر بوندستيل صنيدة شركة براون أند روت، وكأنه مدينة أشباح. وهو محاط بأرض عالية من الطين بارتفاع مترين ونصف وبتسعة أبراج حراسة خشبية. وقد اقتلعت جميع الأشجار فى المنطقة لإتاحة مساحات مفتوحة لإطلاق النار. ويهيمن على المكان هوائى ضخّم للاتصالات وأطباق الأقمار الاصطناعية، وطائرات هليكوبتر هجومية تحوم فوقه. ويحيط به سور عسكري يمتد ستة أميال ويبدو وكأنه نصب دائم أقيم لمجرد تلبية متطلبات حفظ السلام فى جنوب الصرب التى أكد الرئيس ك्लينتون أنها لن تستغرق أكثر من ستة أشهر، والتى قال جورج بوش فى حملته الانتخابية إنه يود التخلص منها. والمرجح أن القصد من إنشاء معسكر بوندستيل هو أن يلعب دوراً ضمن استراتيجية واسعة لتأمين إمدادات النفط إلينا من الشرق الأوسط وآسيا الوسطى والسيطرة على النفط المتجه إلى دول أخرى.

وقد اختير موقع المعسكر لـكى يحيط بالمسار المقترح لخط الأنابيب عبر البلقان (لنفط ألبانيا ومقدونيا وبلغاريا) وتصل تكلفة هذا المشروع ١,٢ بليون دولار فى حالة بنائه، وسوف يقوم بضخ نفط حوض بحر قزوين، بعد جلبه بناقلات النفط، من بداية

خط الأنابيب في جورجيا عبر البحر الأسود إلى ميناء نفطى في بورجاس ببلغاريا حيث يضخ في الأنابيب عبر مقدونيا إلى ميناء فلور الألبانى على البحر الأدرياتيكي. ومن هنا تأخذه ناقلات نفط عملاقة إلى أوروبا والولايات المتحدة متجنباً بذلك مضيق البوسفور المزدهم والذي يعتبر الآن الطريق الوحيد للسفن الخارجة من البحر الأسود حيث حددت حمولة الناقلات فيه بمائة وخمسين ألف طن. وكانت الجهة التي أجرت دراسة الجدوى الأولية لخط أنابيب ألبانيا - مقدونيا - بلغاريا في عام ١٩٩٥ هي شركة براون آند روت التي قامت بتحديثها في عام ١٩٩٩.^(٢٠) ويبدو أن بوندستيل أنشئ كمعسكر قاعدة أسماها جيمس جالبريث أستاذ العلوم السياسية بجامعة تكساس "المجمع النفطي العسكري" الذي كان من المؤكد أن ديك تشينى هو الأب الروحى له^(٢١).

وليس من قبيل المصادفة أن تشرع الولايات المتحدة أيضاً في فبراير ٢٠٠٣ في بناء قاعدتين عسكريتين جديدتين في بورجاس. وكان البرلمان البلغارى قد صدق يوم ١٤ فبراير ٢٠٠١ على اتفاقية تمنح الولايات المتحدة حقوق التحليق الجوى والترانزيت من أجل الحرب في أفغانستان. وعندما سحبت تركيا دعمها للغزو الأمريكى للعراق عام ٢٠٠٣ تحولت الولايات المتحدة إلى صوفيا من أجل إقامة منشأة دائمة وافق عليها البلغاريون. وقد استولى سلاح الجو على الجانب الأكبر من مطار بورجاس الدولى، وهو أحد ثلاثة مطارات تجارية في بلغاريا، ونقل جوا عددا كبيرا من أطقم عمال البناء لإقامة حامية للعسكريين الأمريكيين على شاطئ مجاور أطلق عليها اسم "كامب سارافوفو". ويبدو أن العدد الكبير من رجال سلاح الجو الذين وصلوا بين عشية وضحاها كانوا أول جنود أجانب يستولون على مطار بورجاس منذ وقع في أيدي سلاح الجو الألماني في عام ١٩٤٣. وأثناء حرب العراق الثانية أطلقت الولايات المتحدة من المطار طائرات كى سى - ١٠ و كى سى - ١٣٥ في مهمات جوية لتموين الطائرات بالوقود في الجو لدعم العمليات الجوية فوق مدينة بغداد. وكان ميناء بورجاس مأوى أكبر مصفاة نفط في البلاد وقد قامت بإمداد سلاح الجو الأمريكى بكل ما احتاجه من وقود وفقاً لنصوص الاتفاقية البلغارية - الأمريكية. ويقوم سلاح الجو ببناء مجمع قاعدة مماثلة في ميناء كونستانتا الرومانى على بعد مئات قليلة من الأميال على شاطئ البحر الأسود. ويعتبر هذا الميناء مركز صناعة النفط الضخمة في رومانيا. وقد اتضح

أن حربى أفغانستان والعراق كانتا فرصتين عظيمتين للولايات المتحدة لتعزيز استراتيجيتها النفطية فى البلقان التى كان معسكر بوندستيل أول مراحلها^(٢٢).

ولم يعد من الممكن الاستغناء عن الشركات العسكرية الخاصة والمقاتلين الخاصين بالنسبة لعمليات أكثر من ٧٠٠ قاعدة أميركية فى أنحاء العالم، فهى تقوم مقابل الربح بتقديم الخدمات اللوجيستية التى تحافظ على فاعلية الإمبراطورية. ويعتبر " كامب الدوحة " مثالا جيدا لما تقدمه هذه الشركات، وهو قاعدة الجيش الرئيسية فى الكويت التى ظلت تستخدم باستمرار منذ حرب الخليج الفارسي عام ١٩٩١ (ويجب التمييز بين هذه القاعدة وبين مدينة الدوحة عاصمة دولة قطر). وكامب الدوحة هو مجمع هائل لمخازن تخضع لدفاع مكثف ويقع فى الصحراء على بعد عشرين ميلا من مدينة الكويت. وقد تضخم من مجرد مبنيين صغيرين فى زمن حرب الخليج الأولى إلى مخزن على مساحة تبلغ ٥٠٠ إيكرو. ومنذ ديسمبر ١٩٩٤ أصبح مقرا للقيادة المركزية لقوات الجيش بالكويت. وفى يونيو ١٩٩١ بعد أربعة أشهر من نهاية عملية عاصفة الصحراء، دفعت وزارة الدفاع فوج الفرسان المدرع الحادى عشر من ألمانيا إلى كامب الدوحة ليعمل كقوة الرد السريع فى حالة نشوب قتال جديد فى العراق. ولما كانت هذه الوحدة هى ما بقى للجيش فى المنطقة آنذاك فقد أقيمت فى أقصى حالات التأهب مع " تسليح دباباتها للمعركة " بالذخائر، وتم تخزين أعداد هائلة من المركبات وكميات ضخمة من الوقود والذخيرة فى القاعدة لاستخدامها فى أية حالة طارئة.

وبمرور السنين أصبح معسكر الدوحة مخزن الجيش النموذجى للذخائر والنموذج الأصيل المثالى للقاعدة المتقدمة المخصصة لتخزين المعدات والذخيرة والوقود اللازم لقوة عمل مدرعة بحجم لواء. ونظريا فإن كل ما على الجيش فعله هو نقل الجنود جوا الذين يقومون عند وصولهم بامتطاء دباباتهم التى تم تسخينها مقدما وعربات نقل الجنود المدرعة، والتوجه إلى خطوط الجبهة على أراضى النفط فى كوكبنا، ومع ذلك لم تكن قاعدة الدوحة قاعدة نموذجية طوال الوقت ففى صباح ١١ يوليو عام ١٩٩١ أدى جهاز تسخين معيب فى عربة ذخيرة محملة بقذائف مدفعية عيار ١٥٥ مم. إلى اشتعال النيران فيها مما أدى إلى انفجارها، فسقطت القذائف المتطايرة على عربات محملة بأكداس من الذخيرة وأشعلت فيها النيران فانفجرت، وظلت النيران مشتعلة بقية اليوم. ولم يقتل أحد على الرغم من إصابة تسعة وأربعين جنديا. ومن بين ما يقدر بمبلغ ١٤

مليون دولار هي قيمة الذخائر، وتدمير ٢٤ مبنى، كانت هناك نحو ٦٦٠ طلقة من قذائف اليورانيوم المخضب عيار ١٢٠ مم^(٢٣).

ونتيجة لهذا الحادث قرر الجيش تسليم جميع عمليات صيانة المركبات والذخائر المخزنة إلى المقاولين الخاصين. وتسلمت شركة دينا - كورب - ريستون في فيرجينيا عقد تشغيل معسكر الدوحة عام ١٩٩٩. وفي عام ٢٠٠٠ كانت هي الشركة رقم عشرين بين أهم مائتي شركة مقاولات عسكرية (وكانت شركة هاليبيرتون الحادية والعشرين)^(٢٤). وفي عام ١٩٩٤ انتقل عقد صيانة المعدات المخزنة في معسكر الدوحة إلى مؤسسة آي.تي.تي. وكان المقاول السابق مباشرة على الهجوم الأميركي الثاني على العراق هو الشركة المتحدة لدعم القتال ومقرها أورانج في ولاية كاليفورنيا، وهي مشروع مشترك بين ثلاثة موردين عسكريين مقرهم في كاليفورنيا وكولورادو وتكساس. وبلغ أجر عقد " التكلفة والإضافة " لجميع خدمات الصيانة والتشغيل للدبابات والمجنزرات في كامب الدوحة ما يقدر بمبلغ إجمالي هو ٥٤٦٧٥١٥٠٢ دولار تعهدت الحكومة الكويتية بسداده للحكومة الأميركية. وفي أواخر عام ٢٠٠٢ كان يعمل لدى الشركة في القاعدة ٥٤٦ مدنيا أميريكيا و٧٤٧ فردا من دول العالم الثالث^(٢٥). وأصبح معسكر الدوحة نقطة انطلاق القوات الهجومية الأميركية في حرب العراق الثانية.

وتعتمد جميع القواعد العسكرية الأميركية الأخرى في الخليج الفارسي على شركات مقاولات في دفاعاتها ومرافقها وعملياتها مثلها في ذلك مثل قاعدة معسكر الدوحة. أما تفسير مغزى هذا التطور في فاعلية القوات المسلحة، وكذلك مبدأ مساءلة الحكومة المدنية في الولايات المتحدة، فهما أمران يندر أن يشار إليهما في الكونجرس أو الصحف. ومن المفترض أن المقاولين الخاصين أكثر تكلفة، ولكن حتى هذا ليس موضوعا للتساؤل عندما تذهب العقود إلى الشركات القليلة ذات الارتباطات الجيدة أو إذا كانت المناقصة لا تدعو للإغراء بشكل خاص.

وعلى المدى الطويل يتساءل المرء عما إذا كانت هذه الشركات الخاصة ستصبح قادرة على الحصول على موظفين بنجاح للعمل في دول تتعرض فيها القواعد الأميركية لكراهية عميقة. ففي يوم ٢١ يناير ٢٠٠٣، وفي الساعة التاسعة والربع صباحا أطلق رجل مسلح أربعاً وعشرين رصاصة من رشاش كلاشنكوف على اثنين من المدنيين الأميركيين كانا يجلسان في سيارة تويوتا ذات دفع رباعي عند إشارة مرور

على بعد ثلاثة أميال من معسكر الدوحة، فقتل مايكل بوليوت نائب الرئيس التنفيذي ومؤسس شركة اسمها " تابستري سوليوشنز كوربوريشن " وهي شركة صغيرة في سان دييجو لتطوير البرمجيات وتنتج برامج محاكاة ونماذج تدريبية بالكمبيوتر للقوات المسلحة. أما رفيق بوليوت فهو دافيد كاراواي وقد أصيب بست طلقات، ولكنه نجا وهو في حالة حرجة وكان كبير مهندسي البرمجيات في تلك الشركة.

وبعد شهور قليلة، وفي يوم ١٢ مايو ٢٠٠٣ بعيد نهاية القتال في حرب العراق الثانية فجر إرهابيون ثلاثة منتجعات سكنية أجنبية في الرياض بالملكة العربية السعودية فقتلوا أربعة وثلاثين من بينهم ثمانية أميركيين. وكان أحد الأهداف الرئيسية بنائية سكنية لنحو سبعين موظفا من شركة فينل، وهم عسكريون مرتزقة تم استئجارهم لتدريب الحرس الوطني السعودي ومن حسن حظ الشركة أن خمسين عضوا من طاقم موظفيها كانوا خارج البناية في " مهمة تدريبية " في وقت الانفجار. وساد الاعتقاد بأن الهجوم كان ردا على الغزو الأميركي للعراق. وكان لدى شركة فينل ٨٠٠ موظف في الرياض من بينهم ثلاثمائة أميركي.

ويعمل عدد كبير من شركات المقاولات في الكويت والمملكة العربية السعودية في أشغال مختلفة من بينها مساعدة الجيش في تشغيل وصيانة المعدات وتدريب الوحدات العسكرية المحلية وإمدادها بالمعدات. وبعد حادثة القتل في معسكر الدوحة اكتفى الرائد ستيف ستوفر المتحدث باسم الجيش بمجرد القول : " العالم مكان خطير وخاصة بالنسبة للأميركيين في الخارج " (٢٦) .

الفصل السادس

إمبراطورية القواعد

• وجود القوات الأميركية عبر البحار هو واحد من أعمق رموز التزامات الولايات المتحدة تجاه الحلفاء والأصدقاء. و عبر استعدادنا لاستخدام القوة في دفاعنا عن أنفسنا وفي الدفاع عن الآخرين، تبرهن الولايات المتحدة على تصميمها على الحفاظ على توازن قوة يدعم الحرية. وسوف تحتاج الولايات المتحدة لقواعد ومواقع داخل وخارج أوروبا وشمال شرق آسيا إضافة إلى ترتيبات مؤقتة لإتاحة الوصول إليها لنشر القوات الأميركية بعيد المدى، لكي تكافح الولايات المتحدة حالة الارتياح وتواجه التحديات الأمنية الكثيرة التي نواجهها.

" استراتيجية الولايات المتحدة للأمن القومي "

١٧ سبتمبر ٢٠٠٢

أثناء الحرب الباردة احتفظ المبدأ العسكرى المعيارى بوجهة النظر القائلة بأن للقواعد الخارجية أربع مهمات هى: عرض القوة العسكرية التقليدية فى مناطق اهتمام الولايات المتحدة، و الإعداد لحرب نووية إذا دعت الضرورة إليها، و العمل باعتبارها "أسلأا شائكة" لضمان الرد الأمريكى على أى هجوم (وخاصة فى "مواقع ساخنة" مقسمة مثل ألمانيا وكوريا الجنوبية)، والقيام بوظائفها باعتبارها رموزا للقوة الأمريكية^(١). ومنذ انتهت الحرب الباردة والولايات المتحدة تستغرق فى البحث عن مبررات جديدة لبناء القواعد المستمرة فى الانتشار بدءا من "التدخل الإنسانى" حتى "نزع سلاح العراق".

وأعتقد أن خمس مهام بعد الحرب الباردة حلت اليوم محل المهام الأربعة القديمة : الحفاظ على تفوق عسكرى مطلق على بقية دول العالم وهى مهمة تتضمن نشاطا بوليسيا إمبراطوريا لضمان ألا يفلت جزء من الإمبراطورية من الزمام، والتتصت على اتصالات المواطنين والأعداء على السواء، ومن الواضح أن ذلك لمجرد إظهار أن أى مجال من مجالات الخصوصية لا يمكن أن ينجو من قدرات دولتنا التقنية. وكذلك محاولة السيطرة على أكبر عدد ممكن من مصادر البترول لخدمة حاجة أميركا الشرهة لأنواع الوقود الأحفورى واستخدام تلك السيطرة كأداة مساومة حتى مع المناطق المعتمدة على النفط بدرجة أكبر، وكذلك لجلب الأعمال والدخل للمجمع الصناعى العسكرى (مثال ذلك الأرباح الباهظة التى جنتها شركة هاليبيرتون من بناء وتشغيل معسكرى بوندستيل ومونتيت)، وكفالة توفير حياة مريحة لأعضاء القوات المسلحة وعائلاتهم والترفيه عنهم أثناء خدمتهم خارج البلاد.

ومع ذلك لا يستطيع أى هدف من هذه الأهداف أو حتى كلها على الإطلاق تفسير توسعنا فى قواعد الإمبراطورية، فهناك شىء ما يفعل فعله، وأعتقد أنه اكتشافنا لقوتنا

الهائلة بعد الحرب الباردة الذى بررناه باستنتاج نابع من تمجيد الذات مفاده: ما دمنا نملكها فنحن نستحق امتلاكها. والعنصران الوحيدان المشتركان حقا فى المجموع الكلى للقواعد الأميركية الأجنبية هما النزعتان الإمبراطورية والعسكرية وهما القوة الدافعة لجزء من نخبتنا للسيطرة على شعوب أخرى لأننا نملك القوة اللازمة لذلك. يتبعها تبرير استراتيجى مؤاده أننا لى ندافع عن مراكزنا الأمامية التى امتلكنها حديثا، ولكى نسيطر على المناطق التى تقع فيها تلك المراكز، يجب أن نتوسع فى المناطق التى تحت سيطرتنا بالمزيد من القواعد. وللحفاظ على إمبراطوريتها فإن على وزارة الدفاع أن تبتكر دائما أسبابا جديدة للاحتفاظ بأكبر عدد ممكن من القواعد فى أيدنا ولدة طويلة بعد أن تتلاشى الحروب والأزمات التى أدت إلى إقامتها. وكما قالت لجنة العلاقات الخارجية فى مجلس الشيوخ منذ زمن بعيد فى عام ١٩٧٠: "بمجرد إنشاء قاعدة أميركية عبر البحار فإنها تضطلع بحياة خاصة بها. وقد تتقدم المهام الأصلية، ولكن تنبع مهام جديدة لا بقصد استمرار المنشأة فى الوجود فحسب، ولكن من أجل توسيعها بالفعل. وفى نطاق الوزارات الحكومية الأكثر اهتماما مثل وزارتي الخارجية والدفاع - يندر أن نجد مبادرات لتخفيض أو إلغاء أى من هذه التسهيلات عبر البحار"^(٢). وتحاول البنتاجون منع السكان المحليين من المطالبة باستعادة أو بممارسة حقوقهم فى هذه القواعد المقامة منذ وقت طويل. (مثل حالة مطالبة حركة بورتوريكو بإخراج السلاح البحرى من جزيرة فيكس، التى جعلت منها نشاطها المستهدف، وحالة حركة أو كيناوا من أجل إعادة مشاة البحرية وسلاح الجو إلى بلادها أو إلى مكان آخر على الأقل). كذلك تبذل وزارة الدفاع جهدا فى التفكير فى وسائل إعادة إثبات الحق فى القواعد التى انسحبت منها الولايات المتحدة أو طردت منها (فى أماكن مثل الفلبين وتايوان واليونان وإسبانيا).

وإذا سلمنا بأن قواعدنا فى أنحاء العالم سرية، وأن بعضها مموه بأعلام جنسيات أخرى، وأن الكثير منها مكون من منشآت متعددة وواضحة للعيان، فكيف يمكن لأحد أن يقوم بدقة مجال وقيمة إمبراطوريتنا العسكرية؟ إن ذلك ليس أمرا سهلا، وإذا سأل وزير الدفاع أقرب مساعديه إليه الموثوق بهم أمنا عن عدد القواعد فى الخارج التى تخضع لإشرافه، فقد يجيبونه بنفس إجابة بحار عجوز فاشل على سؤال ضباطه: "لا أعرف يا سيدى، ولكننى سوف أتحرى الأمر".

وللبدا فى إجابة هذا السؤال ينبغى استكشاف مصدرين رسميين للبيانات ويتمتع كلاهما بأهمية قصوى رغم اختلافهما فى مستويات تصنيف المعلومات. ويتناول " تقرير هيكل القواعد " التابع لوزارة الدفاع بالتفصيل الممتلكات المادية للبنتاجون بينما يقوم تقرير " التوزيع الجغرافى العالمى للقوى العاملة " بتوفير مجموع أعداد العاملين العسكريين فى كل قاعدة موزعة على الجيش والسلاح البحرى ومشاة البحرية وسلاح الجو بالإضافة إلى المدنيين العاملين لحساب وزارة الدفاع والمدنيين المحليين المستأجرين وعائلات المستخدمين العسكريين^(٣).

ومن المفروض أن التقريرين يصدران كل ثلاثة أشهر، ولكنهما لا يظهران بالفعل إلا فى فترات متقطعة، ولا يوجد أى منهما بشكل حصري لأن الكثير من القواعد يلتحف بالسرية. مثال ذلك ما كتبه تشارلز جلاس كبير مراسلى شبكة إيه بى سى الإخبارية فى الشرق الأوسط والخبير فى النزاع الإسرائيلى - الفلسطينى. إذ يقول : " زودت إسرائيل الولايات المتحدة بمواقع فى صحراء النقب لقواعد عسكرية هى الآن تحت الإنشاء، وستكون أقل عرضة للأصوليين الإسلاميين من تلك التى فى المملكة العربية السعودية"^(٤). ولا وجود لهذه المواقع رسميا. وكانت هناك تقارير صحفية عن طائرات من المجموعة القتالية على متن حاملة الطائرات الأميركية " أيزنهاور"، تقوم بطلعات من مطار نيفاتيم فى إسرائيل. وأضاف ويليام آر كين الخبير فى الشؤون العسكرية أن " الولايات المتحدة لديها مقطورات ومعدات عسكرية، وحتى مستشفى يتسع لخمسمائة سرير، مخصصة لمشاة البحرية والقوات الخاصة، ولديها طائرات مقاتلة وقاذفة تابعة لسلاح الجو فى ستة مواقع على الأقل فى إسرائيل تم تحصينها بوصفها بعبارة " التعاون الاستراتيجى بين الولايات المتحدة وإسرائيل "^(٥) وتعرف هذه القواعد فى إسرائيل ببساطة بالمواقع ٥١ و ٥٢ و ٥٤، ومواقعها بالتحديد سرية وتعتبر بالغة الحساسية. وليست هناك أية إشارة لقواعد أميركية فى إسرائيل فى أى من مراكز تصنيف المعلومات الرسمية فى وزارة الدفاع.

ويعتبر تقرير " القوى العاملة " الأكمل فى تغطيته لجميع أنحاء العالم. ولكن تقرير "هيكل القواعد" بالغ الأهمية لسببين : الأول لأنه يقدم مع كل موقع فى القائمة تقديرا لما يسمى " إحلال قيمة الموقع " مقدرة بملايين الدولارات. والسبب الثانى هو أنه يقدم معلومات عن ٧٢٥ قاعدة أجنبية فى ثمان وثلاثين دولة يحدد التقرير سبع عشرة منها

بأنها " منشآت ضخمة " (أى تتراوح قيمة الواحدة منها بين ٨٠٠ مليون و ١,٥ بليون دولار)، و ٦٩٠ قاعدة باعتبارها " منشآت صغيرة " (أى أن قيمة الواحدة منها أقل من ٨٠٠ مليون دولار) ووفقا لوزارة الدفاع " يمثل تقرير إحلال قيمة الموقع التكلفة المقدرة لاستبدال المنشأة وبنيتها التحتية الداعمة لها مع تقدير التكلفة بأسعار الوقت الحاضر (العمل والمواد) والمعايير (الأساليب والأنظمة).

ومع وجوب التشكك فى دقة أى من هذه التقديرات، وخاصة إذا سلمنا بانعدام كفاءة سجل البنتاجون المحاسبى، فإن هذه التقارير مفيدة مع ذلك فى إجراء المقارنات، ووفقا لما ذكره خبراء البنتاجون نجد أن قاعدة رامشتاين الجوية بالقرب من كايزرسلاوترن بألمانيا، وهى أكبر قاعدة جوية للنيتو فى أوروبا تحظى بتقرير يقدر قيمتها بمبلغ ٢٤٥٨,٨ مليون دولار، بينما يذكر تقرير قاعدة كادين الجوية فى أوكيناوا، وهى أكبر قاعدة أميركية فى شرق آسيا، أن قيمتها تبلغ ضعف القاعدة السابقة أى تصل تقريبا إلى نحو ٤٧٥٨,٥ مليون دولار (وأن مخزن كادين للذخيرة الملحق بالقاعدة يضيف ٩٦٤,٣ مليون دولار أخرى). وهذه مبالغ فلكية حتى مع احتمال تخفيض قيمة الإحلال الحقيقية، ولايسجل تقرير هيكل القواعد فى قوائمه إلا القواعد التى تزيد مساحة كل منها عن ١٠ إيكرو والى التى تزيد قيمة إحلالها عن ١٠ ملايين دولار. أما المواقع التى لا تلبى تلك المعايير فيتم إثبات إجمالى عدد القواعد فى كل دولة تحت عنوان " مواقع أخرى ". ولا تحسب على الإطلاق الأماكن التى لا يقدر التقرير أية قيمة لها أو يدرج رقم صفر ولا يتم إدراجها. وهى تلك التى تشمل المواقع الصغيرة مثل المساعدات البحرية الفردية غير المأهولة أو منصات الصواريخ الاستراتيجية التابعة لسلح الجو. أما السبعمئة وخمس وعشرون قاعدة أجنبية التى تتضمن منشآت أدرجت تحت عنوان " مواقع أخرى "، فيوضع لها تقرير إحلال لقيمتها بمبلغ إجمالى هو ١١٨ مليون دولار ووفقا لما ذكرته وزارة الدفاع. وهذا تجميع لقيم العقارات والمباني الأجنبية فى الخارج المملوكة للولايات المتحدة يربك العقل.

وعلى العكس من ذلك لا يثبت تقرير القوى العاملة التابع لوزارة الدفاع على قوائمه القواعد بطريقة أحادية، ولكنه يثبت عدد الدول فحسب. وقد ذكر فى سبتمبر ٢٠٠١ أن الولايات المتحدة كانت تنشر ٢٥٤٧٨٨ موظفا عسكريا فى ١٥٣ دولة. ويتضاعف العدد إلى ٥٣١٢٢٧ بعد إضافة المدنيين والعائلات. ولما كان تقرير القوى العاملة لا يذكر

المهام المقررة داخل دولة أجنبية بعينها، لا يستطيع أحد أن يفرق بين دولة توجد فيها قواعد أميركية، ودولة لا يوجد بها إلا مجرد بعض حراس السفارة، وعدد قليل من القوات الخاصة فى مهمة تدريبية، وربما بعض كتبة الاتصالات، ولذلك قد يكون من المفيد الاهتمام فقط بالدول التى يوجد بها مائة على الأقل من العسكريين العاملين بالخدمة. ومثل هؤلاء يلحقون بالقواعد على الأرجح. وبذلك يصل الإجمالى إلى ثلاث وثلاثين وفقا لتقرير القوى العاملة، وهو رقم يقرب من قائمة تقرير هيكل القواعد التى تحتوى على ثمان وثلاثين قاعدة مهمة.

وهناك بعض الإختلافات المهمة بين تقرير هيكل القواعد وتقرير القوى العاملة. والمثال المهم على ذلك أن تقرير القواعد لشهر سبتمبر ٢٠٠١ لم يثبت أى معلومة عن البوسنة والهرسك أو يوجوسلافيا أو صربيا أو كوسوفو. بينما يذكر تقرير القوى العاملة عن نفس الشهر أن عدد جنود الجيش فى البوسنة ٣١٠٠ جندى، وأن عددهم فى إقليم كوسوفو الصربى ٥٦٧٥ جنديا ومن الممكن أن تكون قاعدة كامب إيجل فى البوسنة (تم بناؤها عامى ١٩٩٥ - ١٩٩٦)، وقاعدتا كامب بوندستيل ومونتيت فى كوسوفو (تم بناؤها عام ١٩٩٩)، قد حذفت أسماؤها عمدا لإخفاء أهدافها الحقيقية الخاصة بحماية خطوط أنابيب النفط لا المساهمة فى عمليات حفظ السلام العالمى. ومع مثل هذه الإيضاحات نجد أن الجدول المرفق يعطينا لقطات للإمبراطورية الأميركية على ضوء الطواقم العسكرية المنتشرة فى أعالي البحار قبيل ١١ سبتمبر ٢٠٠١. وفى الشهور التالية وسعت الولايات المتحدة بحجم كبير عمليات نشر القوات فى كل مكان وخاصة فى أفغانستان، وفى كل مكان فى آسيا الوسطى، وفى الخليج الفارسى.

وهناك عدد كبير من القواعد السرية أو غيرها من القواعد الموهبة لإخفائها عن السجلات الرسمية، ولكننا نعلم علم اليقين أن هذه القواعد موجودة وحيث يقوم كثير منها بما هو مقرر لها بالتقريب. وهى إما أن تكون مواقع تنصت تديرها وزارة الدفاع عن طريق وكالة الأمن القومى والمكتب القومى للاستطلاع وكلاهما من بين أشد منظمات استخباراتنا سرية. أو مواقع سرية للمجمع النفطى العسكرى. ولم يحدث إطلاقا أن ناقش المسؤولون هذه الموضوعات بأية درجة من الصدق، ولكن ذلك لا يغير من أن التجسس والنفط هما الهمان المتسلطان على فكرهم.

وتدير الولايات المتحدة عددا كبيرا من قواعد التجسس فى الخارج. وهى التى قال عنها مايكل موران فى شبكة أخبار إن بى سى: " اليوم يستطيع أى شخص أن يقذف سهمها على خارطة العالم فيسقط على بعد مئات قليلة من الأميال من عملية أميركية لجمع المعلومات تجرى فى هدوء... ولقد نمت شبكة الاستطلاع الأميركية بحجم هائل ومرعب إلى درجة أنها أصبحت تثير الخوف فى بعض جوانبها مثلما يفعل عتاد أميركا الحربى"^(٦). وليس ممكنا أن نعرف العدد الإجمالى لهذه القواعد بسبب طابع السرية التى تحاط بها، ولكننا قادرون على اكتساب فكرة ما عن مداها وعلى التعرف على أكثرها أهمية. وهى فى الغالب توضع بثبات فى منشآت عسكرية أجنبية ويقوم بالعمل فيها موظفونا العسكريون، ولكنهم يتكبرون بأنهم ينتمون للدولة التى يعملون فيها. وفى العادة تكون هذه القواعد مركز تنصت واسترداد وتقوم بإعادة إرسال المادة الخام الملتقطة من عمليات الاعتراض إلى قيادة وكالة الأمن القومى فى قاعدة فورت جورج ميد فى ماريلاند، أو إلى قاعدة التجسس العليا لوكالة الأمن القومى القائمة فى قاعدة منويث هيل التابعة لسلح الجو الملكى فى إنجلترا، وأقيمت على مساحة أرض سبخة بالقرب من هاروجيت فى شمال يوركشاير. وقد وصفتها حملة نزع الأسلحة النووية بأنها " أضخم محطة تجسس فى العالم ".

وهناك ثلاثة أشكال رئيسية للاتصالات اللاسلكية والسلكية. ويتضمن الشكل الأول المكالمات الهاتفية ورسائل الفاكس والبريد الإلكتروني وتوصيلات الإنترنت والبرقيات ورسائل التلكس التى يتم إرسالها واستلامها عبر منظمة أقمار الاتصالات الاصطناعية (إنتلسات) وهى منظمة أقيمت بناء على اتفاقية دولية. وتتواجد هذه الأقمار الاصطناعية فى مدارات ثابتة حتى تحتفظ دائما بنفس الموقع فى الفضاء بالنسبة للكرة الأرضية. وعندما أنشئت (إنتلسات) أطلقت أول أقمارها الاصطناعية إلى مداره فى عام ١٩٦٧، وبحلول عام ١٩٩٩ كانت تقوم بتشغيل تسعة عشر قمرا اصطناعيا. وفى عام ٢٠٠٢ كان ٢٤ فى المائة من أسهمها مملوكا لمؤسسة لوكهيد مارتن. ويسهل توجيه هوائى من مركز تنصت أرضى إلى قمر اصطناعى تابع لمنظمة إنتلسات أو إلى أى قمر اتصالات آخر، والتنصت على ما يرسله ويستقبله. وتحتاج مراكز التنصت إلى وضعها فى نقاط استراتيجية فى جميع أنحاء الكون حتى تستطيع عمل تغطية كاملة.

ويبلغ ما يتم اعتراضه من رسائل حجما هائلا. ووفقا لما ذكره الليفتنانت جنرال مايكل هايدن من سلاح الجو ومدير وكالة الأمن القومي فإن الاتصالات الهاتفية الدولية أثناء تسعينيات القرن العشرين قفزت من كم مذهل بلغ ٢٨ بليون دقيقة في السنة، إلى أكثر من ١٠٠ بليون دقيقة سنويا. وخلال عام ٢٠٠٢ كان مقدرا أن يستهلك سكان العالم أكثر من ١٨٠ بليون دقيقة في المكالمات الهاتفية الدولية وحدها^(٧). ومن السهل اعتراض جميع هذه الرسائل، ولكن لا يمكن الاعتماد حتى الآن على تقنية التعرف على الأصوات. والأكثر شيوعا هو التجسس عبر مراقبة أرقام هواتف معينة.

وعلى عكس هذه الرسائل هناك النوع الثانى من أشكال الاتصالات اللاسلكية والسلكية وهو الإشارات اللاسلكية على الموجات القصيرة وذات التردد العالى. ولكنها تحمل الرسائل عبر مائتى ميل فقط على الأكثر قبل أن يحجبها تقوس سطح الأرض. وتجد محطات المراقبة الأرضية صعوبة فى اعتراض تلك الرسائل. وخلال ستينيات القرن العشرين أقامت الولايات المتحدة هوائيات عملاقة يبلغ قطرها ٤٠٠ متر للتصت على الإشارات اللاسلكية ذات التردد العالى فى أماكن مثل قاعدة تشيكساندز بريورى بالقرب من بدفورد التابعة لسلاح الجو الملكى وعلى بعد ٢٥ ميلا شمال مدينة لندن. وفى سان فيتو دل نورمانى بالقرب من برينديزى فى "كعب" إيطاليا، وفى أيوس نيكولاس بشرق قبرص، وفى قاعدة ميساوا الجوية فى اليابان، وفى قاعدة إلمندورف الجوية فى ألاسكا، وفى يدورن بتيالاند، كرامورسل بتركيا. وكان هدف هذه الهوائيات اتصالات سلاح الجو السوفييتى ودول حلف وارسو، والرسائل الدبلوماسية من جميع الدول على وجه الأرض.

وفى الوقت الحاضر تقوم وكالة الأمن القومي بالتصت من الفضاء على هذه الرسائل بما فيها الهواتف المحمولة والبرق اللاسلكى من مدينة إلى مدينة بالموجات متناهية القصر. ولهذا الهدف يطلق المكتب القومى للاستطلاع أقمار التجسس الاصطناعية إلى مدارات ثابتة لتظل معلقة على طول خط الاستواء، وهناك تعمل وكأنها "مكانس إلكترونية" تشفط أنساقا مهولة من الرسائل ثم توجهها مرة أخرى إلى الأرض. وتقوم هذه الأقمار الاصطناعية أيضا بالتقاط الصور، وإبقاء المحيط تحت المراقبة، واكتشاف التفجيرات النووية، وتحذير منصات إطلاق الصواريخ وتسجيل قياسات تحليلها عن بعد، وبث الرسائل المشفرة بين محطات وكالة الأمن القومي، وتتبع

انبعاثات الرادار. وتتطلب هذه الأمور أنساقا ضخمة من الهوائيات على الكرة الأرضية لاستقبال حصيلتها من الرسائل التي يتم اعتراضها.

من بين المحطات الأميركية الأساسية للاتصالات الأرضية القادمة من أقمار التجسس، تلك الموجودة في منويث هيل ل سلاح الجو الملكي، في موروينستو ل سلاح الجو الملكي في كورنوال في إنجلترا، والقاعدة الجوية في باد إبلنج بالقرب من آوجسبرج في ألمانيا، وفي باين جاب قرب أليس سهرنجز في وسط أستراليا (التي تشغل أيضا الأقمار الاصطناعية الخاصة بوكالة الاستخبارات المركزية) وفي سابانا سيكا في بورتو ريكو. وفي قاعدة "سامت كوميونيكيشانز" في ضواحي تايبيه، والمنشأة الجوية البحرية داخل قاعدة القوات الجوية الأميركية في ميساوا بولاية أوموري الإقليمية شمال اليابان^(٨). وقد كشف بول رودجرز المحلل الجيوسياسي على موقعه المسمى "الديموقراطية المفتوحة" يوم ٢٩ نوفمبر ٢٠٠٢ أن موقعي باين جاب ومنويث هيل خصصا لالتقاط الإشارات من نظام جديد للأشعة تحت الحمراء في الأقمار الاصطناعية في الفضاء التي تعطى مؤشرا فوريا إلى أي عمليات إطلاق للصواريخ من أي مكان على الكرة الأرضية. وتعتبر هذه الأقمار ونظامها من المكونات الأساسية لخطة إدارة بوش للدفاع ضد الصواريخ الباليستية.

وقد أراد ج. ويتلام رئيس وزراء حكومة حزب العمال في أستراليا عام ١٩٧٥ إغلاق قاعدة أقمار الاستخبارات الاصطناعية في باين جاب التي كانت محاطة بالسرية آنذاك، وهدد بالكشف عن تلك القاعدة المخبأة تحت الأرض باستثناء الهوائيات والتي كانت عملية عسكرية يديرها الأميركيون بأكملها تحت قيادة ضابط من السى آى إيه. وقد أخفيت هذه الحقائق عن رئيس الوزراء الأسترالي. وفي ١١ نوفمبر ١٩٧٥، أثناء أكبر أزمة دستورية تواجهها أستراليا، وبعد أن أطلقت السى آى إيه سيرجون كير حاكم أستراليا العام على ما جرى، أمر الحاكم بفصل ويتلام وتعيين مالكوم فريزر زعيم المعارضة رئيسا انتقاليا للوزراء حتى الدعوة إلى الانتخابات. وكان فريزر مستعدا لتعبئة الجيش لحفظ النظام وأصبحت أستراليا على حافة الثورة. وفي عام ١٩٧٧ كان وارن كريستوفر مساعدا لوزير الخارجية قبل أن يصبح وزيرا للخارجية في وقت لاحق. وقد وعد رئيس الوزراء المستبعد ويتلام بأن الولايات المتحدة لن تعود أبدا إلى التدخل في السياسة الداخلية الأسترالية. غير أن قاعدة باين جاب لم تغلق بالطبع ولم توضع تحت رقابة الحكومة الأسترالية^(٩).

وهناك نمط ثالث للاتصالات عبر كوابل نحاسية أو شبكات الألياف البصرية ذات القدرة العالية. ويمكن التجسس على الرسائل المرسلة عبر الكوابل بمجرد لصق أداة تنصت فيزيائية على الكابل نفسه، وذلك على عكس الرسائل المرسلة عبر الهواتف الخليوية والموجات متناهية القصر التي تتسرب أو ترتد إلى الجو حتى تصبح قابلة للاعتراض. وقد انتهى أمن الكوابل النحاسية العادية في أكتوبر ١٩٧١ عندما وضعت الغواصة الأميركية هاليبوت أداة تنصت على كابل للاتصالات العسكرية السوفيتية المرسلة إلى شبه جزيرة خامتشاتكا، ومنذ ذلك الوقت قام السلاح البحري بوضع قطع كثيرة. وفي عام ١٩٩٩ سمح الكونجرس بصرف نحو ٦٠٠ مليون دولار لتعديل واحدة من أحدث الغواصات النووية وهي الغواصة جيمى كارتر (سميت بذلك الاسم بعد أن كان الرئيس الشخص الوحيد الذى أدى خدمته العسكرية على متن غواصة) وذلك لتمكينها من التجسس على كوابل الألياف البصرية فى عمق البحار. وذكرت صحيفة وول ستريت جورنال أن الغواصة جيمى كارتر " ستكون أهم غواصة تجسس... مع أحدث تقنيات أدوات التجسس على الألياف البصرية تحت سطح البحر"^(١٠) وتتضمن قواعد التجسس على تلك الكوابل مراسى الغواصات فى ديبجو جارسيا فى المحيط الهندي، ووايت بيتش فى أوكيناوا، وجزيرة لامادالينا خارج شواطئ سردينيا مقابل نابولي، وبحيرة هولوى لوخ فى سكوتلندا، وروتا قرب مدينة كيديز فى إسبانيا. ويناور السلاح البحري لاقتناء مزيد من الغواصات بحجة أنه يحتاج إلى مزيد من مهمات التجسس، ولكن جمع المعلومات الاستخبارية بنحو ٢,٣ بليون دولار لكل غواصة يعتبر ثمنا باهظا^(١١). ومع ذلك لا يزال معظم الخبراء يعتقدون أن كوابل الألياف البصرية أصعب فى التجسس من الكوابل النحاسية، وأنها تظل وسيلة الاتصال الأكثر أمانا. طبعا باستثناء المراسلين من البشر والحمام الزاجل. وقد أجرى التخطيط للتجارب النووية الهندية عام ١٩٩٨ باستخدام خطوط ألياف بصرية الأمر الذى يفسر بوضوح سبب فشل مجتمع الاستخبارات الأمريكى فى العلم بها مسبقا. ويعتبر الصينيون أكبر مشترى كوابل الألياف البصرية فى العالم.

وتتولى قواعد " استخبارات الإشارات " اعتراض أول نوعين من الاتصالات، وهى ظاهرة تماما للعيان بسبب استخدامها حقولا مليئة بالهوائيات المغطاة بقباب من البلاستيك المقوى لحمايتها من تقلبات الطقس وإخفاء الوجهة التى توجه إليها. وهناك على سبيل المثال ما يزيد على عشرين طبقا لأقمار الإنذار الاصطناعية فى قاعدة

منويث هيل وأربعة عشر في ميساوا. وهى تبدو بقبابها مثل كرات جولف ضخمة. وتتخفى قواعد استخبارات الإشارات فى إنجلترا تحت ستار محطات سلاح الجو الملكى حتى لو كان القليل منها يديره طاقم موظفين بريطانيين، ومثال ذلك أن قاعدة تشيكساندز بريورى التى أقامها سلاح الجو الملكى عام ١٩٤١ للتجسس الإلكتروني على شمال ألمانيا وبولندا أثناء الحرب العالمية الثانية، تم تسليمها لسلاح الجو الأمريكى عام ١٩٥٠. ومنذ ذلك الوقت تقوم الولايات المتحدة بتشغيلها لاستخدامها الخاص بها حصريا حتى دون إشراك حلف شمال الأطلسى فى المعلومات التى تجمعها. وتعكس هذه الترتيبات حقيقة تاريخية هى أن الحكومتين لم تدخلا أبدا فى أية اتفاقيات رسمية بشأن القواعد الأمريكية فى إنجلترا. وأكثر من ذلك فإن البرلمان لم يصوت إطلاقا على هذا الموضوع. وما وجد هو رسائل يعود تاريخها إلى بدايات عصر الحرب الباردة صاغها مسؤولون حكوميون بريطانيون وصدّق السفير الأمريكى على توقيعهم وتمنح هذه الرسائل الولايات المتحدة الحق فى استخدام قواعد سلاح الجو الملكى. ولهذا السبب لم يكن ممكنا على الإطلاق أن يذكر أحد بدقة عدد القواعد الأمريكية فى بريطانيا (رغم أن أحد المصادر العلمية يدعى وجود مائة وأربع قواعد بحلول نهاية الحرب الباردة)^(١٣).

ويأتى جانب كبير من المعلومات عن القواعد الأمريكية المتنكرة فى بريطانيا من ناشطى السلام مثل لينديس بيرسى منسقة حملة المملكة المتحدة للإفصاح عن عدد القواعد الأمريكية، التى سجت عدة مرات لاقتحامها هذه القواعد. وقد قامت مؤخرا بمغامرة فى قاعدة كروتون لسلاح الجو الملكى على بعد خمسة وعشرين ميلا جنوب غرب ستراتفورد أبون إيفون ووجهت إليها تهمة " الاعتداء المزعج " على أملاك الغير. وعندئذ كشفت للصحافة أن تسمية القاعدة باسم سلاح الجو الملكى كاذبة وأنها بالفعل قاعدة لسلاح الجو الأمريكى. وذكر مصدر مطلع غير رسمى أن طاقم القاعدة من العاملين بالخدمة العسكرية يتضمن ٤٠٠ أميركى و١٠٩ موظفين من وزارة الدفاع البريطانية^(١٤). ووظيفة هذه القاعدة الاتصالات مع طائرات سلاح الجو الأمريكى بما فيها القاذفات النووية. واضطر الأمريكيون إلى إسقاط التهمة عن لينديس بيرسى لمنع هذا " الدليل المحرج " من الظهور فى محاكمة علنية^(١٥). وفى شهر يونيو ٢٠٠٢ كانت قد وجهت إليها خمسة إندازات قضائية لدخولها قواعد مماثلة من بينها قاعدة مينويث هيل.

ومنذ عام ١٩٤٨ سمحت اتفاقية باللغة السرية بين وكالات الاستخبارات في المملكة المتحدة والولايات المتحدة وكندا وأستراليا ونيوزيلندا بتبادل المعلومات لا عن الدول المستهدفة فحسب بل عن كل واحدة منها أيضا. وتسمح هذه التدابير لكل من وكالة الأمن القومي الأميركية، وقيادة الاتصالات الخاضعة للحكومة البريطانية، والمؤسسة الكندية لأمن الاتصالات، ومديرية الإشارات الخاضعة لوزارة الدفاع الأسترالية، والمكتب العام لأمن الاتصالات في نيوزيلندا، بتبادل المعلومات بين بعضها البعض حول مواطنيها بمن فيهم الزعماء السياسيون، بدون انتهاك رسمى للقوانين الوطنية المناهضة للتجسس الداخلي. ورغم أن حكومة الولايات المتحدة - مثلا - ممنوعة بحكم القانون من التجسس على مواطنيها إلا بإذن صادر عن المحكمة، مثلها في ذلك مثل باقى دول هذا الكونسورتيوم، فإن وكالة الأمن القومي تستطيع - وهى تفعل ذلك دائما - أن تطلب من أحد شركائها أن يفعل ذلك نيابة عنها ويرسل المعلومات إليها. وكشف موظف سابق فى المؤسسة الكندية لأمن الاتصالات عن أن قيادة الاتصالات الحكومية البريطانية طلبت من الكنديين مراقبة زعماء سياسيين بريطانيين معينين بناء على طلب مارجريت ثاتشر رئيسة الوزراء البريطانية^(١٦).

و منذ عام ١٩٨١ أخذ ما كان يعتبر ترتيبات سرية غير رسمية للمشاركة فى المعلومات الاستخبارية بين الدول الناطقة باللغة الإنجليزية، طابعا رسميا تحت شفرة من كلمة واحدة هى "إتشيلون". وكان الكونسورتيوم حتى ذلك الوقت يتبادل تقارير معلومات تم الانتهاء منها، ولكن مع العمل بترتيبات إتشيلون بدأت هذه الدول فى المشاركة فى المواد الخام لعمليات التجسس. والواقع أن إتشيلون هو عبارة عن برنامج خاص للأقمار الاصطناعية ولأجهزة الكمبيوتر المصممة لاعتراض الاتصالات غير العسكرية للحكومات والمنظمات الخاصة ودوائر الأعمال والتجارة والأفراد. نيابة عما يعرف باسم " التحالف البريطانى الأمريكى لاستخبارات الإشارات " ويقوم كل عضو فى هذا التحالف بتشغيل أقماره الاصطناعية الخاصة به وينشئ " قاموسا " فى أجهزة كومبيوتر ضخمة يثبت فى قائمته كلمات دلالية وأسماء وأرقام هواتف وأى شئ آخر يمكن أن يكون مقروءا من خلال الأجهزة، ثم تبدأ فى بحث عمليات تحميل ضخمة للمعلومات التى تأتى بها الأقمار الاصطناعية يوميا. وتقوم كل دولة بتبادل مدخلاتها وتحليلاتها مع الدول الأخرى. وقد تطلب دولة عضو إضافة كلمة أو اسم إلى قاموس

دولة أخرى تريد أن تستهدفه. ويقوم برنامج إتشيلون بتشغيل نحو ١٢٠ قمرا اصطناعيا فى جميع أنحاء العالم أو الإشراف عليها.

وهذا النظام الذى يستهدف قنوات الاتصال المدنية الدولية سرى للغاية إلى درجة أن وكالة الأمن القومى رفضت حتى أن تعترف بوجوده أو أن تتناقش حوله مع وفود من البرلمان الأوروبى جاءت إلى واشنطن للاحتجاج على مثل هذه الرقابة. وتتهم فرنسا وألمانيا ودول أوروبية أخرى، الولايات المتحدة وبريطانيا - وهما الدولتان الضالعتان فى إنشاء برنامج إتشيلون - بالتجسس التجارى الذى أطلقت عليه: " قرصنة المعلومات برعاية الدولة "(١٧). وهناك بعض الأدلة على أن الولايات المتحدة استغلت بطريقة غير مشروعة معلومات جُمِعت من البرنامج لتوجيه مفاوضاتها فى المحادثات التجارية مع اليابانيين، وكذلك لمساعدة شركة بوينج على بيع طائراتها للمملكة العربية السعودية فى منافسة مع شركة إيرباص الأوروبية. وفى يناير ١٩٩٥ استخدمت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية برنامج إتشيلون لتتبع تحركات بريطانية للحصول على عقد ببناء محطة كهرباء بقوة ٧٠٠ ميجاوات بالقرب من بومباى فى الهند. ونتيجة لذلك منح العقد لشركة إنرون وجنرال إلكتريك وبكتل. وخلال شهر أكتوبر ١٩٩٩ نظم ناشطون أوروبيون ومسؤولون حكوميون ما سُمى " يوم عرقلة إتشيلون "، وقضوا أربعاً وعشرين ساعة فى إرسال أكثر ما يستطيعون من الرسائل بالبريد الإلكتروني وهى تحمل كلمات مثل: " الإرهاب " و " قنبلة " فى محاولة لتحميل البرنامج بمادة فوق طاقته.

وقد أعطى وجود إتشيلون دفعة قوية لنظم تشفير غير قابلة للكسر تقريبا مثل ما كان يسمى رقائى عشوائية لمرة واحدة، وهى تستخدم مفاتيح معروفة فقط للمرسل والمستقبل ومؤمنة ضمن جميع أشكال تحليل المعانى الغامضة، ويتم تشفير الرسائل البسيطة باستخدام أرقام عشوائية يولدها الكمبيوتر لا تستعمل مرة أخرى على الإطلاق. ويجب على المرسل والمستقبل استخدام نفس المفتاح ولكن نقطة الضعف تتمثل فى إرسال المفتاح إلى المستقبل عبر بعض القنوات المحصنة ضد الفتح، وفى العادة يتم إرسال أسطوانة مدمجة (سى. دى) عبر البريد (١٨). وتعتبر شرائح المرة الواحدة تطورا تبغضه وكالة الأمن القومى. وعلى أية حال من الطبيعى أن يتحول الساعون للخصوصية إلى الرسائل المشفرة نظرا لعلمهم بأن الوكالة تستطيع الوصول إلى جميع أشكال الاتصالات الإلكترونية. وقد قيل إن وكالة الأمن القومى بدورها تحاول إقناع شركة

مايكروسوفت بأن تتضمن جميع برمجياتها مفاتيح سرية لفك الشفرة تكون معلومة لها وحدها.

والمشكلة فى برنامج إتشيلون ليست فى أن الدول تستعمله من وقت لآخر لترويج أنشطتها التجارية فحسب، ولا فى أنه ببساطة ناد للناطقين باللغة الإنجليزية، أو حتى فى إمكان هزيمته بواسطة كوابل الألياف البصرية والتشفير. ويكمن العيب القاتل فى هذا البرنامج فى أنه يدار بواسطة المؤسسات الاستخباراتية والعسكرية فى الدول الرئيسية الناطقة بالإنجليزية بسرية تامة وبالتالى بعيدا عن أية مساءلة من ممثلى الشعوب التى يزعم أنه يحميها. ومن بين الصور المسوخة الناتجة عنه قضية المرأة التى دخل اسمها ورقم هاتفها إلى كل دليل فى إتشيلون باعتبارها من الإرهابيين المحتملين لأنها قالت لإحدى صديقاتها إن ابنها " فشل " فى المسرحية المدرسية^(١٨) (واستخدمت كلمة bombed التى تعنى فى اللهجات الشعبية الأميركية الفشل بشكل عام وكذلك فشل الممثل فى أداء دوره - المترجم). وتذكر عدة مصادر عليمه أن الحكومة البريطانية أدخلت كلمة " العفو " فى جميع أنظمة الدليل لجمع معلومات ضد منظمة العفو الدولية المدافعة عن حقوق الإنسان. وعلى الرغم من أن حكومات العالم أصبحت على علم بهذا البرنامج فإنها لا تستطيع عمل شئ، إزاءه باستثناء اتخاذ تدابير دفاعية فى نظمها المختصة بالرسائل، وتلك علامة أخرى على تنامى نزعة التسلط العسكرى الشرسة فى دول تزعم أنها ديموقراطية.

وكما سبق أن قلت لا يوجد هدف واحد يبرر نشر أكثر من ٧٢٥ قاعدة عسكرية أميركية فى أنحاء العالم، ولكن إدمان الحكومة للاستطلاع يوضح بالتأكيد أين يقع بعضها. ولماذا تحاط بالسرية التامة. وهناك أمر آخر يوضح وجود بعض القواعد وهو المستوى المذهل لاعتماد أميركا على مصادر النفط الأجنبية الذى يتصاعد كل عام. والهدف من وجود كثير من الحاميات فى الدول الأجنبية هو الدفاع عن عقود النفط ضد المنافسين، أو توفير حماية بوليسية لخطوط الأنابيب، رغم أن تلك الحاميات تدعى دائما أنها تفعل شيئا لا يمت إلى ذلك بأية صلة مثل شن " الحرب على الإرهاب "، أو " مكافحة المخدرات " أو تدريب الجنود الأجانب، أو الانشغال بشكل من أشكال التدخل " الإنسانى " وبطبيعة الحال يعتبر البحث عن الموارد النادرة بؤرة اهتمام تقليدية فى السياسة الخارجية. ومع هذا تسببت الولايات المتحدة فى زيادة اعتمادها

على النفط الأجنبي لأنها ترفض الحفاظ على مستوى الاستهلاك أو وضع حدود بوسائل أخرى على استهلاك الوقود الأحفوري. ولأن شركات البترول متعددة الجنسيات والسياسيين الذين يدعمونها يجنون أرباحا هائلة من هذا الاستخدام الأميركي السفیه. وبعد مرور عام على هجمات ١١ سبتمبر تضاعفت مبيعات شركة جنرال موتورز من سياراتها ذات الدفع الرباعي " شيفروليه سوبربان " التي تلتهم جالونا من الوقود لكل ثلاثة عشر ميلا^(٢٠). وبدءا بعملية السى آى إيه السرية للإطاحة بحكومة إيران لصالح الشركة البريطانية للبترول. نجد أن النفط هو الذى يملئ السياسة الأميركية مباشرة فى منطقة الشرق الأوسط (فيما عدا دعمها لإسرائيل). وهو الدافع الدائم وراء التوسع الكبير فى إقامة القواعد فى الخليج الفارسي، وسوف أتناول حروب أميركا فى بلاد النفط فى هذا الخليج فى فصل لاحق. ولكن ما أريد استكشافه هنا هو بعض الحالات الأخرى التى يكون النفط فيها هو التفسير الوحيد المعقول لامتلاك مزيد من القواعد. وفى هذه الحالات تؤلف الحكومة قصصا متقنة للتغطية ترقى إلى حد استخدام الموارد العامة والقوات المسلحة لترفع من شأن المصالح الرأسمالية الخاصة. ومن بين أفضل الأمثلة غزو أفغانستان والتوسع السريع فى إقامة القواعد فى آسيا الوسطى وآسيا الجنوبية الغربية، رغم وجود عدة أمثلة من أميركا اللاتينية أيضا.

والنفط موضوع موغل فى القدم حول بحر قزوين وخاصة فى مدينة باكو عاصمة أذربيجان التى تقع فى شبه جزيرة أبشيرون التى تصنع نتوءا إلى بحر قزوين عند شاطئه الغربى. وفى القرن الثالث عشر تحدث ماركيبولو عن ينابيع فى المنطقة يتدفق منها سائل أسود يشتعل بسهولة ويفيد فى تنظيف جرب الجمال. وكانت باكو أيضا موقع " أعمدة النار الأبدية " التى يعبدها المجوسيون ومن الواضح أن النفط هو الذى كان يغذى النيران. وفى القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين كان ذلك هو المكان الذى قام فيه الأخوان روبرت ولودفيج نوبل بإدخال ثورة على تقنيات التتقيب عن البترول وطرق نقله إلى الأسواق العالمية، ومن ثم وضعوا أسس ثروتهما الخاصة الهائلة وثروة عائلة روتشيلد الباريسية. وفى براءة اختراع الأخ الثالث ألفريد نوبل، مخترع الديناميت ومنشئ جائزة نوبل فيما بعد، تكمن جذور نجاحات شركة دوبون فى الولايات المتحدة وشركة شل الهولندية الملكية فى هولندا. وكان نفط باكو هدف هتلر فى القوقاز إلى أن تم إيقاف جيوشه وهزيمتها فى ستالينجراد.

و فى عام ١٩٧٨ أثناء رحلتى فى أزربيجان وأرمينيا وجورجيا، نزلت فى بحر قزوين للسباحة ولم يكن فى وسعى إلا أن ألاحظ الملمس الزيتى الخفيف والرائحة فى المياه. وفى ذلك الوقت كانت المنطقة أكثر شهرة بأسمائها المسماة بالحفش والكافيار المستخرج منها وذلك خلال السنوات التى كانت فيها دولتان فقط تحيطان ببحر قزوين وهما الاتحاد السوفييتى وإيران، وكان استخراج النفط والغاز من حوض البحر شديد التخلف لأن السوفييت فضلوا الاستثمار فى حقول النفط السيبيرية الواسعة وتركوا المناطق المسلمة عند بحر قزوين للإنتاج الأساسى للأسواق المحلية. وكان لدى إيران بالطبع حقولها النفطية الخاصة بها.

وبعد انهيار الاتحاد السوفييتى ظهرت فجأة خمس دول محيطة بالبحر وهى: روسيا وإيران وأزربيجان وكازاخستان وتركمنستان، وبدأ السباق الحديث للسيطرة على مصادر النفط والغاز فى المنطقة بقيادة شركات النفط متعددة الجنسيات وقاعدتها أميرىكا. وما لبثت أن لحقت بها القوات المسلحة الأميركية فى واحد من أدوارها التقليدية المحبوة وهو دور حامى حمى المصالح الرأسمالية الخاصة. ويعود رجل المارينز المتقاعد الليفتينانت جنرال سميدلى بتلر الحائز على وسام الشرف مرتين إلى عام ١٩٣٢ ليكتب: " لقد قضيت ثلاثا وثلاثين سنة وأربعة شهور فى الخدمة العسكرية العاملة.... وخلال هذه الفترة قضيت معظم وقتى وأنا أعمل كرجل عضلات رفيع المستوى لصالح دوائر الأعمال الضخمة فى وول ستريت ورجال البنوك.... وهكذا ساعدت فى جعل المكسيك، وخاصة تامبيكو، مكانا آمنا للمصالح النفطية الأميركية فى عام ١٩١٤. وساعدت على جعل هاييتى وكوبا مكانا مريحا لرجال بنك " سىتى بنك ناشيونال " لجمع الإيرادات فيه، وساعدت على اغتصاب ست جمهوريات فى أميرىكا الوسطى لصالح وول ستريت.... وفى الصين، ساعدت على ضمان أن تشق شركة ستاندارد أويل طريقها دون إزعاج"^(٢١). وخلال تسعينيات القرن العشرين، وخاصة بعد إعلان بوش "الحرب على الإرهاب"، احتاجت شركات النفط من جديد إلى إظهار بعض العضلات وكانت البنتاجون سعيدة بأداء هذه الخدمة.

ولا أحد يعلم بالضبط حجم كميات النفط والغاز فى حوض قزوين نظرا لأنه خضع لعملية مسح ضعيفة. وهناك تقديرات متحفظة أصدرتها إدارة معلومات الطاقة التابعة لوزارة الطاقة الأميركية. وترى تلك التقديرات أن حجم الاحتياجات المؤكد فى

أذربيجان وكازاخستان وتركمنستان أقل بقليل من ثمانية بلايين برميل، ولكن من الممكن أن تصل إلى أكثر من مائتي بليون برميل. ويبلغ الغاز الطبيعي في تركمنستان ١٠١ تريليون قدم مكعب مؤكد و١٥٩ تريليون قدم مكعب محتمل، وفي كازاخستان ٦٥ تريليون قدم مكعب مؤكد و٨٨ تريليون قدم مكعب محتمل. وربما يوجد لدى تركمنستان ثامن أكبر احتياطي من الغاز في العالم (تعرف الوكالة الاحتياطيات المؤكدة بأنها طبقات ترسبات النفط والغاز التي يعتبر ٩٠٪ منها محتملا، والاحتياطيات المحتملة بأنها الترسبات التي يكون ٥٠٪ منها محتملا)^(٢٢). وهناك وثيقة ١٧ مايو ٢٠٠١ عن سياسة إدارة بوش بالنسبة للطاقة وهي معروفة باسم تقرير تشيني، وهي وثيقة سيئة السمعة لأن واحدا من مصادرها الرئيسية للمعلومات هو رئيس مجلس إدارة مؤسسة إنرون المشكوك في أمرها والتي أعلنت إفلاسها. ويذكر التقرير أن "الاحتياطيات المؤكدة في أذربيجان وكازاخستان تبلغ نحو ٢٠ بليون برميل أي أكثر بقليل من بحر الشمال"^(٢٣). وهذه الاحتياطيات التي تتراوح قيمتها بين ٢ تريليون دولار و٥ تريليون دولار قد تلبى كل احتياجات أوروبا البترولية لأحد عشر عاما^(٢٤). وهناك عنصران آخران يضافان إلى الأرباح الضخمة المتوقعة وهما: نفقات العمالة الرخيصة جدا، وعدم وجود أي معايير بيئية.

وحتى إذا لم يكن بحر قزوين مثل إل دورادو كما يزعم البعض، فإنه آخر أضخم حقل للنفط والغاز في العالم غير مستغل بالفعل، ويمكن في وقت ما أن ينافس الخليج الفارسي في إمداد أوروبا وشرق آسيا وأميركا الشمالية بالمواد البترولية. ويبدو أنه يحتوى على ٦٪ من احتياطيات النفط المؤكدة في العالم و٤٠٪ من احتياطياته من الغاز^(٢٥). وأصبحت الصين، التي تتمتع بأسرع نمو اقتصادي في العالم، مستوردا خالصا للنفط في نوفمبر عام ١٩٩٢، وما زالت مستمرة في محاولة التفاوض حول مد خط أنابيب محتمل من كازاخستان إلى شنغهاي عبر إقليم إكسينجيانج، وتحاول الصين أيضا الحصول على النفط من روسيا عبر خط أنابيب قد يمتد من أنجارسك في سيبيريا إلى حقل النفط في داكينج بمنشوريا^(٢٦).

ويدعو تخيل وجود خمس جمهوريات آسيوية أصبحت مستقلة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩١، باعتبارها المصدرين المحتملين للنفط إلى الولايات المتحدة، إلى التفكير في عدة مشاكل فهناك كازاخستان (الأكبر بكثير من حيث مساحة الأراضي).

وقيرجيزستان وطاجيكستان ولكلايهما حدود مشتركة مع الصين، وتركمنستان التى تتاخم الصين، وتقع أوزبكستان فى الوسط، وهى الوحيدة التى تجاور الجميع بالإضافة إلى أفغانستان. وجميع هذه الدول - ماعدا واحدة - يحكمها رجال أجهزة الحزب الشيوعى السابق. والوحيد الذى لم يكن رئيسا سوفيتيا سابقا هو الرئيس عسكر أكاييف رئيس قيرجيزستان، وقد اتخذ الترتيبات لجميع عمليات تمويل الطائرات النفاثة العسكرية التى تنطلق من القاعدة الأميركية فى بلاده، وهى أكبر الحاميات الأميركية فى آسيا الوسطى. وتقوم بعملية التمويل شركة يمتلكها زوج ابنته^(٢٧).

ولجميع زعماء جمهوريات آسيا الوسطى هذه سجلات لحقوق الانسان ميئوس منها، وأسوأ اثنين بينهم هما رئيس أوزبكستان حيث تقع قاعدة خان آباد الجوية الأميركية الضخمة، ورئيس تركمنستان لمدى الحياة الذى كرس عبادة الفرد التى فاقت ما تمتع به ستالين، والذى وضع جميع عائدات النفط فى حساب فى الخارج تحت سيطرته هو وحده، وحتى كازاخستان تعتبر بالكاد جمهورية نموذجية فهى دولة نامية ومتقدمة نسبيا، وكانت هى الحلبة الكونية الروسية الشهيرة التى أطلقت أول رحلة إلى الفضاء من بايكونور جنوب وسط كازاخستان. ويشكل الروس من ٣٠ إلى ٤٠٪ من سكان الجمهورية. وكشف وزير خارجيتها أن الرئيس نور سلطان نزار باييف قام فى عام ١٩٩٦ بنقل بليون دولار من عائدات النفط إلى حساب سرى فى أحد بنوك سويسرا دون إخطار البرلمان^(٢٨).

وهذه الدول أيضا من بين الموردين الأساسيين للمواد المخدرة للأسواق العالمية. وأثبتت نظم الحكم الاستبدادية الاحتكارية هذه أنها منبت قوى للمتطرفين الإسلاميين. وتجعل " ثقافة الكلاشينكوف " التى تتبناها عقد أى صفقات تجارية عادية أقرب إلى المستحيل. وقد قال الرئيس جورج دبليو بوش لمساعد رئيس التحرير التنفيذى لصحيفة واشنطن بوست بوب وودوارد إنه يمقت كيم جونج الثانى ديكاتور كوريا الشمالية لأنه يجوع شعبه ويحطم العائلات ويعذب المتمردين^(٢٩). وتتشابه سجلاب نظم الحكم الأوتوقراطية فى آسيا الوسطى تشابها مقلقا مع سجلات كيم ورغم ذلك احتفى بوش بالرئيس إسلام كريموف رئيس أوزبكستان، والرئيس أكاييف رئيس قيرجيزستان، والرئيس نزار باييف رئيس كازاخستان، فى المكتب البضاوى. ويزيد على ذلك أن دونالد رامسفيلد وزير الدفاع والجنرال تومى فرانكس رئيس القيادة المركزية اتصلا

هاتفيا بكل منهم بمن فيهم الرئيس الستاليني سابر مورات نيازوف رئيس تركمنستان، لكي يعبرا عن شكرهما العميق لسماحهم لطائراتنا بالتحليق في أجواء بلادهم، ولدعمهم للمعونة " الإنسانية " لأفغانستان^(٢٠).

غير أن أكبر مشكلة يواجهها الجميع هي أن جمهوريات آسيا الوسطى تكتنفها الأراضي ولا بد من نقل النفط والغاز عبر خطوط أنابيب ظاهرة للعيان ولذا لا يمكن ضمان أمنها بالكامل على أي طريق تتخذه هذه الأنابيب، فهناك المتمردون الشيشان، والمطالبون بالتحريير والوحدة الأرمنيون، والملاوات الإيرانيون، ورجال حرب العصابات الأفغان والأكراد. وهؤلاء جميعا يهددون جميع المسارات المعروفة غرب وجنوب باكوا^(٢١). وخط الأنابيب الوحيد الذي يعمل حاليا يربط حوض بحر قزوين، بروسيا شمالا. وهناك أكثر من كونسورتيوم أنشئ لمد خطوط أنابيب في قاع بحر قزوين، ولكن لا توجد اتفاقية قانونية تنص على كيفية تقسيم الحقوق البحرية بين الدول الخمس المحيطة بالبحر. وقبل الهجوم الأميركي على أفغانستان حاولت جميع شركات البترول الأميركية العاملة في المنطقة وهي شيفرون (شيفرون تكساكو الآن) ويونيون أويل كومباني أوف كاليفورنيا (يونوكال)، وأموكو (بريتش بتروليوم - أموكو الآن) وإكسون (إكسون - موبيل الآن)، وعدد قليل غيرها، الحصول على عقود امتياز وعقد صفقات خطوط أنابيب مع أذربيجان وكازاخستان وتركمنستان وحققت نجاحا ضئيلا. ولكن الموقف لم يتحسن بالنسبة لهذه الشركات إلا بعد أن بدأ الأميركيون في بناء مجمع قواعد عسكرية في أربع دول مختلفة على الأقل هي أفغانستان وقرجيزستان وباكستان وأوزبكستان.

وقد بدأ سباق خطوط الأنابيب في عام ١٩٩٢ عندما عقدت شركة شيفرون صفقة لمدة أربعين سنة مع حكومة كازاخستان لاستغلال حقل تانجيز النفطي وتصدير النفط المستخرج منه عبر مجمع أنابيب مقترح يمر عبر بحر قزوين إلى باكوا ومنها إلى ميناء نوفوروسيسك الروسي على البحر الأسود^(٢٢). وقد ثبت أن هناك عقبات لا تقهر في وجه هذا المشروع الذي استثمرت فيه شيفرون عدة بلايين من الدولارات فقد كان الجزء الغربي من خط الأنابيب الذي اكتمل ينقسم إلى قسمين: الأول يمر عبر تششنيا حيث يجري تمرد معاد للروس، والآخر يمر عبر داغستان إلى الشمال الأكثر استقرارا بدرجة ضئيلة. ويصعب إلى حد كبير حماية هذه الخطوط من الأعمال التخريبية. ولا

يمكن تصدير النفط بالناقلات البحرية من البحر الأسود لأنه بالذات لن يكون مدرا للربح بسبب القيود الثقيلة التي فرضها الأتراك على استخدام ناقلات النفط العملاقة في مضيق البوسفور الضيق المؤدى إلى البحر الأبيض المتوسط لحمايته من أى تسرب كارثي على شواطئ إسطنبول. ومازال القسم من الأنابيب من كازاخستان إلى باكو عبر بحر قزوين معرضا لخطر قانوني بسبب الصراعات على من له حق امتلاك قاع البحر. وكذلك فإن هذا المشروع هو مشروع مشترك مع روسيا، الأمر الذي يزعج الحكومة الأميركية التي تريد رؤية النفط والغاز وهما يغادران آسيا الوسطى دون المرور عبر روسيا أو إيران.

وتبدو قائمة أسماء الناس الذين يدعمون خط أنابيب كازاخستان كما لو كانت دليل على القوم الذي يحتوى على أسماء سياسى النفط الجمهوريين، فنجد أن كوندوليزا رايس هي كبير مستشارى شركة شيفرون والأستاذة بجامعة ستانفورد التي انضمت إلى مجلس إدارة الشركة في عام ١٩٩١ بعد سنة من عملها مستشارة للأمن القومي في عهد بوش الأب. وقد تلقت مبلغ ٢٥ ألف دولار في السنة مقدم أتعاب بالإضافة إلى أسهم اختيارية وامتيازات أخرى وفيرة، ثم تنحت بعد عشر سنوات قبل أيام قليلة من تسلمها منصب مستشارة بوش الابن للأمن القومي. وتشير إليها الصحافة دائما باعتبارها " الخبير الرئيسى فى شؤون كازاخستان " لحساب شركة شيفرون رغم أنها لم تنشر أى شيء عن آسيا الوسطى والكتاب الوحيد الذى ألفته دون مشاركون هو أطروحة الدكتوراة: " الاتحاد السوفييتى وجيش تشيكوسلوفاكيا ١٩٤٨-١٩٨٣: ولاء غير مأمون [١٩٨٤] " ومع ذلك كانت شركة شيفرون سعيدة بدورها حتى أنها أطلقت اسمها على ناقلة نفط عملاقة طاققتها ١٢٩ ألف طن ومسجلة فى بهاما. وفى أواخر أبريل ٢٠٠١ قامت الشركة فى هدوء بإعادة تسمية السفينة وأسمتها " ألتير فويدجر " لتصرف انتباه الناس غير المرغوب فيه إلى الاسم الأصلى^(٢٣). ومع أن البحارة يعتبرون إعادة تسمية سفينة نذير شؤم إلا أن الناقلة تحتوى على بدنين على الأقل.

أما ديك تشينى وزير دفاع بوش الأب ونائب الرئيس بوش الابن فقد ساعد كوسيط وهو خارج منصبه فى عقد صفقة بين شركة شيفرون وكازاخستان كعضو فى المجلس الاستشارى لشؤون النفط التابع لكازاخستان أما جيمس بيكر الثالث وزير الخارجية الأسبق فقد كان العقل المدبر وراء مكيدة جعل المحكمة العليا تعين بوش الابن رئيسا

للولايات المتحدة عام ٢٠٠١، و الشريك الأكبر فى شركة بيكر بوت القانونية فى هيوستون وواشنطن. وكانت له يد فى المفاوضات. وتمتلك شركة بيكر مكتبا فى باكو يعمل به خمسة محامين، وهو عضو فى المجلس الاستشارى لفرقة التجارة الأميركية - الأذربيجانية مثل تشينى. وخلال تسعينيات القرن العشرين كان رئيس المجلس هو ريتشارد أرميتاج المحارب القديم مدير الحرب ضد السوفييت فى أفغانستان برعاية الولايات المتحدة خلال ثمانينيات القرن العشرين ووكيل وزارة الدفاع فى إدارة بوش الثانية. وكذلك برنت سكوكروفت رئيس كوندوليزا رايس والناصح الأمين عندما كان مستشار الأمن القومى فى عهد بوش الأب، وهو عضو فى مجلس إدارة شركة بنز أويل المستثمر الرئيسى فى مجموعة الكونسورتيوم النفطى فى بحر قزوين.

ويعتبر مشروع خط الأنابيب الحالى أكثر مشروع مفضل لدى حكومتنا، ويبلغ طوله ١٠٩١ ميلا فى مسار قد يبدأ من باكو ويسير فى اتجاه شمالى غربى مرورا بأذربيجان شمال مكن المتمردىن الأرمن فى ناجورنوقراباخ (وهو مكان لا تدعو إليه الحكمة لوضع خط أنابيب للنفط فيه مرتبط بتركيا مادام الأرمنيون يكرهون الأتراك)، ثم يتوجه الخط عبر جورجيا إلى باتومى مينائها على البحر الأسود، ثم إلى الجنوب الغربى عبر منطقة كردستان التركية المتقلبة، ومن ثم إلى المياه التركية العميقة فى ميناء جيهان المطل على البحر الأبيض المتوسط. وقد تبلغ تكلفة بناء المشروع ما يقارب ثلاثة بلايين دولار. وتشعر الولايات المتحدة بالرضا على هذا المشروع لأنه يتفادى روسيا وإيران بينما يصل إلى البحر المتوسط دون عبور مضيق البوسفور والدردنيل. وحتى إذا كان فى الإمكان بناء الخط وقيام الجنود الأمريكيين بحمايته فإنه مع ذلك سوف يخدم أوروبا فقط وهى السوق الناضجة ذات الاحتياجات الضئيلة للنمو بينما توجد الأسواق الحقيقية للنفط وغاز آسيا الوسطى فى شرق آسيا. يضاف إلى ذلك أنه لكى يكون خط باكو - جيهان مربحا فإن أسعار النفط يجب أن تظل فوق عشرين دولار للبرميل وهو مستوى ليس واقعا.

ورغم ذلك عمدت إدارتا كلينتون وبوش إلى تأييد المشروع بقوة وهو ماض فى طريقه، وفى سبتمبر ٢٠٠٢ قام سبنسر إبراهيم وزير الطاقة الأمريكى بزيارة قصيرة لأذربيجان لحضور مراسم الاحتفال بإرساء الحجر الأساسى لعملية بناء المشروع، وفى نهاية نوفمبر وافقت حكومة جورجيا على مروره عبر وادى بورجومى وهو واحد من

أجمل مناطق جورجيا ومصدر المياه المعدنية أهم صادرات البلاد . واحتج على الخطة مسؤول في شركة المياه المعدنية قائلا: كأنك تبني خط أنابيب " بجوار مخزون مياه برييه أو إفيان في فرنسا" (٢٤).

ولما كانت إدارة كلينتون مؤيدا متحمسا لمشروع باكو - جيهان كحالها بالنسبة لمشروع الأنابيب عبر أفغانستان الذي سنناقشه لاحقا، فقد وضعت قوات أميركية مسلحة في آسيا الوسطى في محاولة لدق إسفين بين جمهوريات آسيا الوسطى الجديدة وروسيا. وفي ١٩٩٧ أرسلت الولايات المتحدة ٥٠٠ من جنود المظلات، من الفرقة الثانية والثمانين المحمولة جوا في كارولينا الشمالية. إلى كازاخستان لتدريب جنودها وجنود آخرين من دول آسيا الوسطى. واعتبر ذلك عملا ناجحا حتى أن الولايات المتحدة عملت نفس الشيء في العام التالي في أوزبكستان واستخدمت جنودا أميركيين من فرقة الجبال العاشرة. وعندئذ أضفت طابعا رسميا لهذه العلاقات بحيث أصبحت نسخة عسكرية مما يسمى " توامة المدينة " وهي علاقات محبة لغرف التجارة في البلديات. وكلفت وزارة الدفاع وحدات من الحرس الوطني من ولايات مختلفة بمهام تدريبية في آسيا الوسطى، وأسندت إليها مسؤولية تعليم جنود من بلاد آسيا الوسطى قاموا بزيارة للولايات المتحدة فتولى حرس أريزونا الوطني كازاخستان، واشترك حرس مونتانا الوطني مع قرجيزستان، وعمل حرس لويزيانا الوطني مع جنود من أوزبكستان. وأصبحت دولتان من تلك الدول الآن مقرا لقواعد عسكرية أميركية ضخمة ودائمة (٢٥). وعادت فرقة الجبال العاشرة ومقرها فورت درم بنيويورك، إلى العمل من جديد في خان آباد في أوزبكستان.

ولاشك أن العملية الجهورية لدعم خط أنابيب باكو - جيهان بعد ١١ سبتمبر هي عملية نشر نحو ١٥٠ جنديا من القوات الخاصة وعشر طائرات هليكوبتر مقاتلة في القوقاز بجمهورية جورجيا في فبراير ٢٠٠٢. وكانت قصة الغلاف لهذه العملية تدعى أنها كانت لإعداد قوات جورجيا لمحاربة المتمردين الشيشان الذين زعم أنهم على علاقة بتنظيم القاعدة المختبئين في ممر بانكيزي الضيق شمال شرق جورجيا. ولكن في ٢٧ فبراير ٢٠٠٢ صرح ميريان كيكنادزه المسؤول بوزارة دفاع جورجيا لراديو أوروبا الحرة بأن القوات المسلحة الأميركية سوف تدرب قوة الرد السريع الجورجية التي تقوم بحراسة المواقع الاستراتيجية في جورجيا وعلى الأخص خطوط أنابيب النفط (٢٦).

وكان الروس منزعين للغاية من الوجود العسكري الأميركي في منطقة يعتبرونها واقعة في مجال نفوذهم. وعلى الفور انفصلت منطقتان عن جورجيا وهما أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية وقررتا إقامة علاقات وثيقة مع روسيا.

والاقتراح الثالث لمشروع أميركي ضخم في آسيا الوسطى هو إقامة خطوط أنابيب مزدوجة للنفط والغاز من تركمنستان تمر جنوبا عبر أفغانستان إلى الساحل الباكستاني على بحر العرب. ويبدو أن دعم هذا المشروع كان العامل الأساسي الذي وضع في الاعتبار عند اتخاذ إدارة بوش قرار الهجوم على أفغانستان يوم ٧ أكتوبر ٢٠٠١. وهكذا سدت حكومة طالبان الطريق على إقامة خطوط الأنابيب تحت الرعاية الأميركية حتى أن إزاحة طالبان أصبحت سبب " الحرب على الإرهاب " في أعقاب هجمات سبتمبر ٢٠٠١. ويعلق على ذلك الصحفي باتريك مارتن قائلا: " لو أسقط التاريخ من حسابه يوم ١١ سبتمبر ولم تقع أحداث ذلك اليوم على الإطلاق، لكان من المرجح جدا أن تشن الولايات المتحدة الحرب على أفغانستان بأى حال من الأحوال وفي نفس الموعد إلى حد كبير" (٢٧).

و تعود فكرة استغلال احتياطيات الغاز الهائلة في تركمنستان إلى كارلوس بولجبروني الدؤوب والطموح رئيس مجلس إدارة شركة بريداكس الأرجنتينية وهي ثالث أكبر شركة نفط وغاز في أميركا اللاتينية. وفي عام ١٩٩٣ أجرى مفاوضات لعقد اتفاقية مع سابارمورات نيازوف رئيس تركمنستان وبنازير بوتو رئيسة وزراء باكستان آنذاك لإقامة خطوط أنابيب منفصلة للنفط والغاز تمر عبر أفغانستان إلى ميناء جوادار الباكستاني على بحر العرب. ولم تكن شركة بريداكس ضخمة بحيث تستطيع تغطية جميع التكاليف التي قدرت بمبلغ ٢ بليون دولار لخط أنابيب الغاز الطبيعي وطوله ٩١٨ ميلا، وبمبلغ ٤ بلايين دولار لخط أنابيب النفط وطوله ١٠٠٥ أميال، ولذلك فقد سعت إلى تشكيل كونسورتيوم مع شركة يونيون أويل كومباني أوف كاليفورنيا (يونيوكال). وكانت يونوكال سيئة السمعة ومتورطة في مشاكل قانونية لاستهانتها بقوانين البيئة في كاليفورنيا، ومشاركتها في صفقة نفط مع جنرالات بورما الدمويين، وانتهاكها لحقوق الإنسان بالنسبة لموظفيها في كثير من عقود الامتيازات النفطية التي تنفذها. ولهذه الأسباب أغرتها الفكرة فتوجهت مباشرة إلى تركمنستان وباكستان وعقدت اتفاقية أطاحت بشركة بريداكس. وعلى الفور رفع بولجبروني قضية ضد شركة

يونوكال أمام محكمة تكساس يتهمها فيها بسرقة فكرته، ولكن القضية رفضت بسبب عدم الاختصاص. ولما أدركت شركة بريداس أن ضخامة الشركات أمر مهم، اندمجت فى عام ١٩٩٧ مع شركة أموكو الأميركية العملاقة. وفى السنة التالية اندمجت أموكو مع شركة بريتيش بتروليوم أكبر شركة منتجة فى بريطانيا. ولكن فى ذلك الوقت لم تعد شركة بريتيش بتروليوم - أموكو مهتمة بذلك المشروع الذى أصبح واحدا من أكثر المشروعات المحاطة بالمخاطر فى العصر الحديث.

وكانت المشكلة بالطبع هى الحرب الأهلية التى لا تتوقف فى أفغانستان الممزقة. وفى منتصف تسعينيات القرن العشرين احتاجت شركة يونوكال إلى حكومة فى كابول تستطيع الاتفاق معها على حقوق المرور (الترانزيت). يزيد على ذلك أن التمويل الدولى اللازم لبناء مثل هذه الخطوط لن يتوفر حتى تكون هناك حكومة فى العاصمة الأفغانية تعترف بها الأمم المتحدة والولايات المتحدة الأميركية ودول كثيرة أخرى. وفى هذا السياق رأت الولايات المتحدة وباكستان أن أفضل رهان لهما لإنهاء الحرب والحصول على الشرعية الدولية يتمثل فى الجناح غير العادى من " المجاهدين " المناهضين للسوفييت (المحاربون من أجل الحرية) فى الثمانينيات من القرن العشرين، فقامتا برعاية تنظيم جديد يطلق على نفسه اسم طالبان " الطلاب دارسو الإسلام ". وقد يكون من الصعب أن نبالغ فى الإفصاح عن الكوارث التى حلت بأفغانستان نتيجة " المساعدة " التى تلقاها من الأميركيين بما فيها ابتداء طالبان ثم تدميرها لاحقا. وقد هرب من البلاد نحو ثلث مجموع السكان منذ الاحتلال العسكرى السوفييتى الذى امتد نحو عقد من الزمان وقيامنا بتجنيد وتسليح المتطرفين الإسلاميين من جميع أنحاء العالم لقتال السوفييت (فى نقطة واحدة أوت باكستان وإيران أكثر من ستة ملايين لاجئ أفغانى. وحتى فى عام ١٩٩١ بقى نحو ١,٢ مليون لاجئ أفغانى فى باكستان ونحو ١,٤ مليون فى إيران) وبعد انسحاب الاتحاد السوفييتى من أفغانستان فى عام ١٩٨٩ وحتى مجئ شركة يونيون أويل كومبانى أوف كاليفورنيا " يونوكال " انزلقت أفغانستان إلى حرب أهلية هى الأكثر وحشية فى العصور الحديثة وأصبحت أكبر منتج لزهور الأفيون. وأصبح تهريب المخدرات أكبر مصادر دخلها.

وتتشكل حركة طالبان فى معظمها إثنيا من البشتون حول ولاية قندهار. وقد شنت الحركة حربا ضد أمراء الحرب الفاسدين المیتوس منهم وهم ينتمون إلى عنصرى الطاجيك والأوزبك ويشكلون " تحالف الشمال ". وفى أغلب الحالات كان الأفغان الذين

أنهكتهم الحرب يؤيدون انتصارات طالبان لأن زعماءها الأصوليين على الأقل قمعوا الفساد وأعادوا النظام وطبقوا القانون (حتى ولو كان نسخة متطرفة من الممارسات الإسلامية في القرون الوسطى) كما سمحوا بالعودة إلى بعض المظاهر العادية في أجزاء من البلاد. وفي يوم ٢٧ سبتمبر ١٩٩٦ استولت حركة طالبان على العاصمة كابول واستمرت في دفع أمراء الحرب إلى الشمال نحو الحدود مع طاجيكستان وأوزبكستان. وكانت كل من الحكومة الأميركية ويونوكال مقتنعين بأن في مقدورهما العمل مع طالبان وبأن معاملتهم الخشنة للنساء والمجرمين ليست أكثر سوءا من معاملة حلفاء أميركا من الأفغان خلال ثمانينيات القرن العشرين.

وبدأت الولايات المتحدة في تقديم أقصى ما في وسعها من مساعدة. وكانت عمليات نشر مجموعة من المدربين الأميركيين في عدة جمهوريات في آسيا الوسطى من عام ١٩٩٧ وما بعده. مؤشرا إلى شركة يونوكال المدخل الأميركي إلى سباق الحصول على حقوق الأنابيب، باعتبارها الشركة الجديدة بالدعم. وحتى بعد أن عاد المتطرف السعودي أسامة بن لادن إلى أفغانستان عام ١٩٩٦ "كضيف" على طالبان، وبعد هجمات القاعدة في ٧ أغسطس ١٩٩٨ على السفارتين الأمريكيتين في كينيا وتانزانيا، لم تعتبر وزارة خارجية كلينتون ولا وزارة خارجية بوش أفغانستان دولة راعية للإرهاب، نظرا لأن ذلك قد يقضى على أية إمكانية للتمويل الدولي لخطوط الأنابيب. وكانت كل من الإدارتين على استعداد لتقبل نظام طالبان رغم تبنيه للإرهاب طالما تعاون مع خطط تنمية موارد آسيا الوسطى من النفط والغاز.

وجاءت مجموعة متميزة من أصحاب النفوذ في واشنطن لترويج مشروع يونوكال. واستأجرت الشركة نفسها هنري كيسنجر مستشار الأمن القومي السابق لكي يكون مستشارها في مفاوضاتها مع تركمنستان وأفغانستان وباكستان. عند ذلك عمل كيسنجر مع الجنرال ألكسندر هيچ كبير مستشاري تركمنستان، والمساعد السابق لكيسنجر في البيت الأبيض. ووزير خارجية رونالد ريغان لاحقا. (في نفس الوقت استأجرت شركة أموكو مستشارا سابقا للأمن القومي هو زيجنيو بريجنسكي الذي ساعد في التحريض على شن الحرب الأفغانية - السوفيتية في ثمانينيات القرن العشرين). كذلك دفعت أموكو مبالغ مقابل خدمات روبرت أوكلو المنسق الأميركي السابق لوزارة الخارجية لمكافحة الإرهاب والسفير السابق في باكستان وزائير والصومال^(٢٨).

وقامت يونوكال بحيلة بارعة فعبئت اثنين من الأفغان ذوى العلاقات الجيدة للمساعدة على التأثير على طالبان لصالح الشركة. وهما حاصلان على الجنسية الأميركية. والاثنان هما: زالمای خليل زاد وهو من البشتون وحاصل على الدكتوراة عام ١٩٧٩ من جامعة شيكاغو. وحامد كرزای وهو أيضا بشتونى من قندهار وعلى صلة بالملك الأفغانى السابق ظاهر شاه الذى كان يعيش آنذاك فى كويتا بباكستان. وفى عامى ١٩٩١ و١٩٩٢ قرر جورج بوش الأب تعيين خليل زاد نائبا لوكيل وزارة الدفاع لتخطيط السياسات وعمل تحت رئاسة بول وولفووتيز الذى توصلت صلته به. وأثناء عمل خليل زاد فى البنتاجون كان أيضا موضع اهتمام ديك تشينى وزير الدفاع آنذاك الذى رشحه فى عام ٢٠٠١ لرئاسة فريق مرحلة الانتقال بوزارة الدفاع التابع لجورج بوش الابن. وفى ٢٣ مايو ٢٠٠١ ضمه بوش إلى طاقم موظفى مجلس الأمن القومى ليعمل تحت رئاسة كوندولزا رايس. ثم أصبح فى ٣١ ديسمبر ٢٠٠١ المبعوث الخاص (السفير غير الرسمى) إلى أفغانستان بعد تسعة أيام فقط من تولى حامد كرزای رئاسة الحكومة الانتقالية التى تدعمها الولايات المتحدة فى كابول. وفى عام ١٩٩٦ كان خليل زاد وكرزای مؤيدين لطالبان ظنا منهما أن الحكومة الجديدة هى أفضل أمل " للاستقرار " بالنسبة لشركة يونوكال. وفى نوفمبر من العام التالى شارك خليل زاد فى جهد رئيسى بذلته يونوكال لاستضافة وفد من مسؤولى طالبان والتأثير على أعضائه فدعتهم الشركة لزيارة مقرها الهندسى الرئيسى فى هيوستون (مع رحلة إضافية إلى مركز ناسا للفضاء) ويؤكد تعاون خليل زاد وكرزای مع أفغانستان ما بعد ١١ سبتمبر أن إدارة بوش كانت ومازالت مهتمة بالنفط والإرهاب فى تلك المنطقة^(٣٩).

وفى منتصف تسعينيات القرن العشرين جمعت يونوكال معا كونسورتيوم آسيا الوسطى للغاز وخط الأنابيب (سنت جاس) المؤلف من حكومة تركمنستان، وشركة دلتا للنفط بالمملكة العربية السعودية، وإندونيسيا بترولسيوم، وشركة إيتوتشو لاستكشاف النفط اليابانية، وشركة هيونداى للهندسة والإنشاء فى كوريا الجنوبية، ومجموعة الهلال فى باكستان. وجازبروم الشركة الروسية الضخمة للغاز الطبيعى. وتم ضم شركة دلتا لأنها كانت قريبة من الملك فهد عاهل المملكة العربية السعودية وكان مستشار ويونوكال يعتقدون أنه يمكن أن يساعد على منح الشرعية لعلاقة يونوكال مع طالبان (وكانت الدول الوحيدة التى اعترفت بحكومة طالبان هى المملكة العربية السعودية وباكستان والإمارات العربية المتحدة) وألحقت شركة جازبروم لتحديد أية معارضة

روسية. واحتفظت يونوكال بنسبة أسهم تبلغ ٤٦,٥٪، وشركة دلتا ب ١٥٪. وحكومة تركمنستان ب ٧٪. ووفقا لما كتبه عام ١٩٩٦ أحمد رشيد الصحفي الباكستاني والخبير البارع في سياسات آسيا الوسطى فإن "استراتيجية خطوط الأنابيب أصبحت القوة الدافعة وراء اهتمام واشنطن بحركة طالبان" (٤٠).

وقد بدت خطة يونوكال جيدة على الورق. ولكنها لم تنجح فقد انقسمت حكومة طالبان بين فريق مؤيد لشركة بريداس وآخر مؤيد لشركة يونوكال. وظلت تطلب المزيد من الأموال والاستثمارات في مشاريع الطرق والبنية التحتية من كونسورتيوم سنت جاس. وقالت الشائعات إن أسامة بن لادن يفضل العمل مع بريداس على العمل مع يونوكال لأنه لا يحب أن يتعاون رفاقه المجاهدون مع الأميركيين إلى حد ما. وكانت الشركة كذلك تواجه مقاومة من جهة لم تكن توليها اهتماما بالطبع. فقد أدت لا مبالاة يونوكال بسجل طالبان بالنسبة لحقوق الإنسان إلى امتعاض شديد من حركة النساء الأمريكيات. وتقدمت مؤسسة الأغلبية النسائية ومقرها لوس أنجلوس بالتماس إلى ولاية كاليفورنيا لإبطال رخصة يونوكال، وفي يونيو ١٩٩٨ حضرت مافيس لينو، زوجة جاي لينو صاحب البرنامج التلفزيوني "عرض الليلة"، اجتماعا لحملة أسهم الشركة وشجبت استعداد الشركة للتعاون مع طالبان (٤١)، ثم في يوم ٧ أغسطس ١٩٩٨ قام إرهابيو أسامة بن لادن بالهجوم على سفارتي أميركا في شرق أفريقيا. وثأر الرئيس كلينتون في يوم ٢٠ أغسطس بإصداره أمره بإطلاق صواريخ توماهوك كروز على معسكرات بن لادن للتدريب في أفغانستان. وفي اليوم التالي علقت يونوكال العمل في خط الأنابيب إلى أن تعترف الولايات المتحدة بحكومة أفغانستان، وفي يوم ٤ ديسمبر انسحبت رسميا من كونسوتيوم سنت جاس بدعوى أن أسعار النفط والغاز العالمية منخفضة جدا إلى درجة لا تسمح بتحقيق ربح. واستنتج معظم المحللين أنه لن تحل أية شركة نفط رئيسية أخرى محلها، وأن المشروع قد مات. ولكن الحكومة الأميركية لم تكن مستعدة للاستسلام. ولم يكن هدفها مجرد تحقيق الأرباح، ولكن أن تحقق وجودا أميركيا في آسيا الوسطى. وكانت سعيدة باتخاذ طالبان إجراءات صارمة ضد إنتاج الخشخاش وأرادت أن تقوم طالبان بتسليم بن لادن. وكانت حركة طالبان تحقق انتصارها في الحرب ضد تحالف الشمال وتحكم سيطرتها على جميع أنحاء البلاد. ومع ذلك تلقت ما تستحقه من انتقادات صحفية مؤلة. وفي نوفمبر ١٩٩٩ فرضت الأمم المتحدة عقوبات على أفغانستان بسبب انتهاكات حقوق الإنسان. وفي أول مارس

٢٠٠١ أثارت طالبان غضبا دوليا عارما بقصفها تماثيل تذكاريين قديمين لبودا في باميان ونفذ صبر الولايات المتحدة وقررت أن الوقت قد حان " لتغيير نظام الحكم " .

وفي فبراير ٢٠٠٢ ذكر الموقع الإخباري المتخصص في شؤون صناعة الغاز والنفط: " ألكسندرز جاس أند كونكشنز " أن " خطط تدمير حركة طالبان كانت موضوع مناقشات دولية دبلوماسية وشبه دبلوماسية لعدة شهور سابقة على يوم ١١ سبتمبر. وعقد اجتماع حاسم في جنيف في شهر مايو ٢٠٠١ بين وزارة الخارجية الأميركية ومسؤولين إيرانيين وألمان وإيطاليين حيث كان الموضوع الرئيسى هو استراتيجية إسقاط طالبان واستبدال "حكومة موسعة" بالنظام الشيوعراطى. وأثير الموضوع ثانية بعمق كامل في قمة مجموعة الثمانية في جنوا بإيطاليا في شهر يوليو ٢٠٠١ عندما طرح وفد هندي مراقب في المؤتمر "خطته الخاصة"^(٤٣). وبعد اجتماع مجموعة الثمانية عُقدَ المزيد من الاجتماعات بين مسؤولين أميركيين وروس وألمان وباكستانيين. ووصف باكستاني مطلع خطة أميركية مفصلة في يوليو ٢٠٠١ لتوجيه ضربات عسكرية ضد طالبان من قواعد في أوزبكستان وطاجيكستان قبل منتصف أكتوبر. من تلك السنة. ويجب تذكر أن زالمائى خليل زاد " الأفغانى الأثير لدى بوش " انضم إلى مجلس الأمن القومى فى ٢٣ مايو ٢٠٠١ فى الوقت المطلوب بدقة للعمل على إعداد الأمر بشن هجوم على أفغانستان. وفى الثانى من أغسطس ٢٠٠١ عقدت كريستينا روكا مساعدة وزير الخارجية لشؤون جنوب آسيا والضابطة بالسى آى إيه سابقا، آخر اجتماع رسمى مع طالبان فى إسلام آباد .

وفى ضوء هذا المسار يبدو أن هجمات سبتمبر ٢٠٠١ وفرت الفرصة للولايات المتحدة لكى تتصرف من جانب واحد لإزاحة طالبان دون مساعدة من روسيا أو الهند أو أية دولة أخرى. وفى الأسابيع التى تلت ١١ سبتمبر انطلق جهاز البنتاجون الهائل للعلاقات العامة بأقصى سرعة ليشرح للرأى العام الذى يجهل أغلبه السياسات النفطية فى أفغانستان وآسيا الوسطى كيف اقترحت الولايات المتحدة تحطيم بن لادن وتنظيمه المسمى بالقاعدة، وأصبح دونالد رامسفيلد وزير الدفاع، فى مؤتمراته الصحفية اليومية، وكأنه الممثل الكوميدي الواقف على المسرح وحده وهو يلقي النكات حول رغبة الولايات المتحدة فى القبض على بن لادن حيا أو ميتا وكيف أنه سيجبر رجال بن لادن على الخروج من مخابثهم بتسليط الدخان عليهم رغم ما قيل عن هروبهم. ومع ذلك

كانت الاستراتيجية الأساسية هي إعادة إشعال الحرب الأهلية الأفغانية من خلال قيام وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية بتوزيع نحو ٧٠ مليون دولار نقداً على أمراء الحرب الطاجيك والأوزبك الذين هزمتهم طالبان^(٤٣). وأدت عودة ظهور تحالف الشمال، مدعوماً بالقوة الجوية الأميركية الضخمة، إلى انهيار نظام طالبان على الفور تاركا أفغانستان للعودة إلى الاقتتال بين المقاطعات المحلية وزراعة زهور الأفيون.

وعمدت القوات المسلحة الأميركية بسرعة وكفاءة مدهشة إلى استغلال الحرب للحصول على حقوق إنشاء القواعد العسكرية في أفغانستان وفي الدول المحيطة بها. وقامت باحتلال ثلاثة مواقع رئيسية داخل أفغانستان نفسها من أجل عملياتها العسكرية المباشرة وهي: مطار مزار الشريف في أقصى شمال البلاد، وقاعدة باجرام الجوية في ضواحي كابول، ومطار قندهار الدولي في الجنوب. كذلك وضعت قوات في كابول لتوفير أمن مباشر لحكومة حامد كرزاي التي شكلت حديثاً والتي تمتد سلطاتها بالكاد إلى ما بعد كابول وأدنى كثيراً من ذلك في بقية البلاد. وطوال الأسابيع القليلة الأولى كانت كل هذه الأماكن محتلة من قبل القوات الخاصة والمارينز وجنود الجبهة الأممية التابعين للجيش، ولكن لما كانت حركة طالبان قد انهارت، وانتشرت القاعدة في الريف وعبر حدود باكستان. فقد حلت وحدات من الجيش محل هذه القوات القتالية، وشرعت في إقامة حاميات شبه دائمة. وفي أغسطس ٢٠٠٢ ذكر الجنرال تومي فرانكس رئيس القيادة المركزية أن الجنود الأميركيين قد يبقون في أفغانستان " زمناً طويلاً طويلاً " وقارن الموقف بكوريا الجنوبية حيث بقيت قوات الجيش وسلاح الجو هناك أكثر من نصف قرن^(٤٤).

وبالإضافة إلى احتلال مواقع استراتيجية في أفغانستان عقدت إدارة بوش اتفاقية مع الجنرال برفيز مشرف رئيس باكستان للاستيلاء على ثلاث قواعد مهمة تابعة لسلاح الجو الباكستاني وهي: قاعدة يعقوب آباد على بعد ٣٠٠ ميل شمال شرق كراتشي، وقاعدة بازني على ساحل بحر العرب وتبعد عن كراتشي بمائة وثمانين ميلاً، وقاعدة دالباندين على بعد ١٧٠ ميلاً شمال غرب كويتا و ٢٠ ميلاً فقط من الحدود الأفغانية. وقد أرسلت الولايات المتحدة من هذه القواعد عناصر السى آى إيه والقوات الخاصة إلى أفغانستان وأطلقت طائرات الاستطلاع بدون طيار طراز بريديتور وطائراتها من طراز إيه سى - ١٣٠ ومن بين كل ما قيل تبين أن الولايات قامت بنحو ٥٧٨٠٠ طلعة

جوية ضد أهداف أفغانية من قواعد فى باكستان أو بعبور مجالها الجوى. وفى قاعدة يعقوب آباد تولت الولايات المتحدة على وجه السرعة تنفيذ برنامج رئيسى لتحسين أحوال مدارج المطار وتركيب رادار مراقبة الحركة الجوية وإنشاء مكاتب وأماكن معيشة مكيفة الهواء. وتم بناء مهبط للطائرات فى قاعدة دالباندى فى أواخر ثمانينيات القرن العشرين بأموال سعودية للسماح لأمرء السعودية والخليج الفارسى بالهبوط لممارسة رياضة الصقور وصيد الطيور. ووجدت وكالة الاستخبارات المركزية أن موقعها القريب من الحدود الأفغانية مريح جدا. وفى يناير ٢٠٠٢ ومع وجود خطر نشوب حرب أخرى تلوح بها الهند. قامت باكستان بتحريك قواتها جنوبا من تلك الحدود وشغلت قاعدتى يعقوب آباد وبازنى من جديد. ورغم استياء الأميركيين لم يكن أمامهم إلا القبول بالمشاركة فى استخدام تسهيلات هاتين القاعدتين^(٤٥).

وجميع هذه القواعد الأفغانية والباكستانية. بالإضافة إلى بعض معسكرات صغيرة للسلى أى إليه على الحدود الطاجيكية - الأفغانية للاتصال بأمرء الحرب فى تحالف الشمال. قدمت دعما مباشرا للحملة العسكرية القصيرة فى خريف وشتاء عام ٢٠٠١ التى أطاحت بنظام طالبان. غير أن القواعد التى بنيت فى قرجيزستان وأوزبكستان مسألة أخرى. ففى أقل من شهر بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ تفاوضت الولايات المتحدة مع كل من الدولتين حول إبرام عقود استئجار طويلة المدى فى رد فعل سريع مدهش من حكومة ترد على حدث غير متوقع.

ولم تؤد هذه القواعد إلى توسيع مدى القوة الجوية الأميركية بأية درجة ملموسة فى أفغانستان. وكانت حاملات الطائرات الأميركية فى بحر العرب على نفس الدرجة من القرب من أهداف فى جنوب أفغانستان وتكلفة تشغيلها أرخص بكثير. ولم يكن مقررا تخصيص هذه القواعد لنشر أعداد ضخمة من القوات البرية. وكانت قاعدة قرجيزستان على بعد ٦٢٠ ميلا من الحدود الأفغانية ولم تستدع استراتيجية واشنطن فى الحرب استخدام حشود ضخمة من الجنود الأميركيين. والواقع أن قواعد قرجيزستان وأوزبكستان أقيمت لتكون نقاط تماس فقط خلال الحرب فضلا عن أنها كانت بعيدة جدا عن العراق بحيث أصبحت ذات فائدة ضئيلة فى الحرب التى كانت خططها قد وضعت بالفعل ضد نظام صدام حسين. كذلك لم يقدر لها إمداد أفغانستان بكميات مهمة من المساعدات الإنسانية لأنها ظلت إلى حد كبير فى أيدى الأمم المتحدة والمنظمات غير الحكومية مثل الصليب الأحمر التى لا يسمح لها فى العادة باستخدام

القواعد الأميركية^(٤٦). ولم تكن هذه القواعد لحماية نظم الحكم المحلية من المجاهدين الإسلاميين مادامت هذه الحكومات لا توكل هذه المهمة للأميركيين ولديها اتفاقيات مع الروس للتعامل مع هذا النوع من المشاكل (كان الروس مثلا قد نشروا نحو ٢٠ ألف جندي في طاجيكستان لهذا الغرض).

وفى التاسع من يناير ٢٠٠٢ قالت صحيفة نيويورك تايمز إن قاعدتي قيرجيزستان وأوزبكستان هما نسخة طبق الأصل من قاعدة كامب بوندستيل في كوسوفو. واعترف بول وولفويتزنائب وزير الدفاع في المقابلة الصحفية التي أجرتها الصحيفة معه بأن "وظيفة القاعدتين قد تكون سياسية أكثر من كونها عسكرية"^(٤٧)، ولكنه لم يحدد تلك الوظيفة السياسية. وتقع أكبر القواعد على أرض مساحتها ٢٧ إيكرو وهي أرض مطار ماناس المدنى الدولى السابق على بعد تسعة عشر ميلا من بيشكك عاصمة قيرجيزستان. وقد أطلق الأميركيون عليه اسما جديدا هو قاعدة بيتر جانسى جونيور الجوية، وهو اسم كبير ضباط إدارة الحريق بنيويورك وصاحب أعلى رتبة في الإدارة الذى توفى بسبب انهيار برجى مركز التجارة العالمى. وفى البداية قامت قيرجيزستان بتأجير مطار ماناس لمدة عام. ولكن الرئيس أكاييف طمأن المسؤولين الأميركيين على أنه ينوى تجديد عقد الإيجار لأية مدة تدعو إليها الضرورة. ولم تكن القيادات العسكرية الأميركية فى قيرجيزستان مقيمة فعلا فى القاعدة بل فى فندق هيات ريجنسى فى وسط مدينة بيشكك حيث فتح العسكريون أيضا مكتب توظيف لاستئجار عمال محليين. ويقطن فى القاعدة نحو ثلاثة آلاف من موظفى الخدمات من الرجال والنساء. وتشتمل القاعدة على مركز للياقة البدنية والاستجمام وشاشة تليفزيونية ضخمة لعرض البرامج الرياضية الأميركية الحية ومقهى للإنترنت. ويقيم فى ماناس أيضا طيار وسلاح الجو الفرنسى وطائراتهم المقاتلة طراز ميراج والجنود البريطانيون والدانماركيون. وأقام الفرنسيون مطبخهم الخاص وفقا للذوق الفرنسى بدلا من استخدام المطابخ الصناعية الضخمة التى أقامتها الولايات المتحدة. وقال أحد الطيارين لصحيفة نيويورك تايمز "أستطيع القول منذ البداية إن هذه القاعدة ستكون واحدة من أفضل القواعد"^(٤٨).

وفى أوزبكستان اختير موقع توأم قاعدة ماناس مكان قاعدة جوية سوفيتية قديمة فى خان آباد بالقرب من مدينة كارشى على بعد مائة ميل شمال الحدود الأفغانية.

وبحلول شهر مايو ٢٠٠٢ كان فيها ألف جندي أميركي من فرقة الجبال العاشرة. وسرب من طائرات إف-١٥ إلى النفاثة المقاتلة. وتزعم مصادر روسية أن أوزبكستان أجرت القاعدة للولايات المتحدة لمدة خمس وعشرين عاما. ولكن البنتاجون تنفى ذلك وترفض الحديث عن المدة الفعلية. وقد امتنع إسلام كريموف رئيس أوزبكستان عن نشر هذا الاتفاق إذ قيل إنه يدعو إلى التعهد " بتكثيف جهود التحول الديمقراطي للمجتمع"^(٤٩). ومنحت وزارة الدفاع شركة نائب الرئيس تشينى القديمة المسماة كيلوج براون أند روت، فرع شركة هاليبيرتون. عقدا مفتوحا لتقديم الخدمات اللوجيستية لقاعدة خان آباد شاملة كل شئ من الوجبات المطبوخة إلى تموين الطائرات بالوقود. وهى نفس الخدمات المدرة لأرباح طائلة والتي تقدمها شركة هاليبيرتون لقاعدة بوندستيل وقواعد عسكرية أخرى كثيرة حول العالم.

أما بالنسبة للأماكن الأخرى فى جمهوريات آسيا الوسطى فقد ذكرت إدارة بوش أنها سوف تبني قاعدة واحدة على الأقل فى طاجيكستان، ولكنها لم تحدد بعد موقعها. كذلك توجد لدى الإدارة اتفاقيات مع أذربيجان وكازاخستان للتخليق فى أجوائها. كما أنها تقوم بإرسال ضباط من كازاخستان إلى أميركا للتدرب هناك. وصرحت كازاخستان باستخدام مطار مدينة ألماتى عاصمتها القديمة فى حالات الطوارئ. وتتفاوض الولايات المتحدة للحصول على حقوق إقامة القواعد على شاطئها على بحر قزوين. وتعتبر تركمنستان الجمهورية الوحيدة فى آسيا الوسطى التى رفضت منح الولايات المتحدة حقوق إقامة القواعد فى أراضيها أو تخليق الطائرات الأميركية فى أجوائها لأنها تتبنى سياسة الحياد فى الصراع الدائر فى أفغانستان.

وفى ٣١ مايو ٢٠٠١ تقلدت إليزابيث جونز منصبها كمساعدة لوزير الخارجية لشؤون أوروبا وأوراسيا، وهى وظيفة دبلوماسية. وتجيد جونز الروسية والألمانية والعربية، وكانت سفيرة أميركا فى كازاخستان من ١٩٩٥ حتى ١٩٩٨. وقد اعتادت أن تتجول بسيارتها فى العاصمة الكازاخستانية وقد علق على أحد جانبي السيارة شريط أصفر كتبت عليه هذه العبارة: " السعادة هى خطوط الأنابيب المتعددة ". وفى شهر ديسمبر ٢٠٠١، فى مؤتمر صحفى فى ألماتى، بشرت الحاضرين بقولها: " عندما ينتهى الصراع الأفغانى لن نغادر آسيا الوسطى. إن لدينا خططا ومصالح بعيدة المدى فى هذه المنطقة"^(٥٠) وأمل أن أوضح أنه لا يوجد أى سبب يدعونا إلى عدم تصديقها.

عمليات انتشار المستخدمين العسكريين الأيرلنديين في الخارج زمن الهجمات الإرهابية على مركز التجارة العالمي والبنطاجون
بناء على الإقليم والدولة سبتمبر ٢٠٠١

مبث في القوائم فقط الدول التي بها ١٠٠ على الأقل من العسكريين الأيرلنديين العاملين بالخدمة. وإجمالي الدول المثبتة لا يضاف إلى الإجمالي الإقليمي لأن الأخير يتضمن جميع الدول التي بها أي عدد من الجنود الأيرلنديين بغض النظر عن حجم القوة العسكرية.

الجيش	البحرية	الارينز	الطيران	إجمالي العسكريين	المدنيون من وزارة الدفاع	العائلات الأيرلندية	الإجمالي
أوروبا ٦٨٤٦٠	١٢٤٧٤	٣٦٦٨	٣٣٦٢٨	١١٨١٠٥	٢٣٣٤٦	١٣٦٨٠٧	٢٧٨٢٥٨
بلجيكا ٨٩٤	١٠٥	٣٠	٥٤٩	١٥٧٨	٦٣٤	٧٨٢٧	٥٠٢٩
البوسنة والهرسك ٣١٠٠	١٠	٥	١	١٦٣١	٦	١	٣١٢٣
ألمانيا ٥٥١٤٩	٣٣٢	٣٧٩	١٥٣٤٨	٧٠٩٩٨	١٦٤٨٨	٩٧٥٧١	١٨٥٠٥٧
اليونان ٧١	٢٨٣	٨٤	٦٨	٥٠٦	١٠٤	٩٨	٧٠٨
جرينلاند صفر	صفر	صفر	١٥٣	١٥٣	٢	صفر	١٥٦
آيسلندا ٣	١٠٢٢	٤٨	٦٧٠	١٧٤٣	٢٢٧	١٤٦٥	٣٤٨٥

الجيش	البحرية	المارينز	الطيران	إجمالي العسكريين	المدينون من وزارة الدفاع	العائلات الأميركية	الإجمالي
إيطاليا ٢٣٢٦	٥١٧٤	١٤٩	٤٠٥٥	١١٧٠٤	٢٤٠٦	١٢٨٠٤	٢٦٩١٤
مقدونيا (جمهورية مقدونيا اليوجوسلافية سابقا) ٢٥٠	صفر	صفر	١	٢٥١	١	٢	٢٥٥
هولندا ٣٦٠	٢٣	١٢	٢٨١	٦٧٦	٢٩٨	١٢٨٣	٢٢٥٧
البرتغال (بما في ذلك جزر الأزور) ١٥	٥٨	٧	٩٢٥	١٠٠٥	١٦٤	١٢٠٢	٢٤٧١
صربيا (بما فيها كوسوفو) ٥١٧٥	١	١	٢	٥٦٧٩	١٢	صفر	٥٦٩٢
إسبانيا ٣٨	١٥٥٤	١٤١	٢٥٧	١٩٩٠	٤٠٦	١٩٣٨	٤٣٣٤
تركيا ١٧٢	٤٨	١٩٦	١٧٥٩	٢١٥٣	٣٩٩	٢١٩٥	٤٧٤٧
المملكة المتحدة ٤١٠	١٢١٧	١٦٥	٩٥٢٦	١١٢١٨	٢٠٨٤	١٤٩٠٥	٢٨٣٠٧
على متن السفين صفر	٢٦٣٢	٢٠٧١	صفر	٤٧٠٣	صفر	صفر	٤٧٠٣
الاتحاد السوفيتي السابق (شاملا أرمينيا وأذربيجان وبيلاروس وجورجيا وكازاخستان وقيرجيزستان) ٣٩	٦	٨١	٢٥	١٥١	٢	٤٩	٢٠٣

الإجمالي	العائلات الأميركية	المدنيون من وزارة الدفاع	إجمالي العسكريين	الطيران	المارينز	البحرية	الجيش
١٥١٤١٠	٥٠٢٨٣	٩٤٥٧	٩١٦٧٠	٢١٨١٩	٢٠١٥٧	١٩١١٠	شرق آسيا والمحيط الهادئ
١٠٢٠	٢١٨	٩	٨٠٣	٧١	٦٦٣	٦١	٢٠٥٨٤ أستراليا اليابان (شاملة أوكيناوا)
٨٩٣٠١	٤٢٦٥٣	٦٤٣١	٤٠٢١٧	١٣١٢٨	١٩٠٧٣	٦١٨٩	١٨٢٧ جمهورية كوريا (كوريا الجنوبية)
٤٧٥٠٧	٧٠٢٧	٢٨٧٥	٣٧٦٠٥	٨٥١٤	١١٠	٢٣٧	٢٧٦٥٤ سنغافورة
٣١٩	١١١	٤٨	١٦٠	٤٤	١٨	٩٢	٨ تاييلاند
١٨٠	٦٤	٢	١١٣	٣٢	٢٠	٩	٤٢ علي متن السفن
١٢٥٧٨	صفر	صفر	١٢٥٧٨	صفر	١٩٦	١٢٣٨٢	صفر
٢٨٦٣٨	٩٢٧	٨٣٣	٢٦٨٧٨	٧٣٦٥	٤٠٩	١٦١٥٩	الشرق الأوسط (شاملا شمال إفريقيا وجنوب آسيا)
٢٨٩٤	٥٤٣	٢٨٦	٢٠٦٥	٢٧	١٥٧	١٨٤٣	٢٨ البحرين دييجو جارسيا
٦٣٩	٤٤	٥	٥٩٠	٢٩	صفر	٥٥٧	٤

الاجمالي	العائلات الاميركية	المدنيون من وزارة الدفاع	اجمالي المسكرين	المطيران	المارينز	البحرية	الجيش
٦٧٧	١١٠	٦٧	٥٠٠	٧٢	٥٧	٣٠	مصر ٢٤١
٤٣١١	٥	٩٨	٤٢٠٨	٢٠١٠	٤١	٧	الكويت ٢١٥٠
٦٩٤	١٦	٥	٦٧٣	٥٤٤	٧	١٢٢	عمان صفر
١٣٩	٤	١٩	١١٦	١٤	٢	٣	قطر ٩٧
٥١٥٣	٤٣	٣٠٥	٤٨٠٥	٤٤٤٤	٤٧	٢٩	المملكة العربية السعودية ٢٨٥
٢١٧	٨	٥	٢٠٩	١٩٠	٧	٧	الإمارات العربية المتحدة صفر
١٣٥٤٦	صفر	صفر	١٣٥٤٦	صفر	صفر	١٣٥٤٦	على متن السفن صفر
٤٢٤	١٣٨	٧	٢٧٩	١٨	٢٠٩	٦	جنوب الصحراء الإفريقية ٤٦
١٥٣٧٩	١٠٦٤	٣٠٠	١٤٠١٥	٣٨٤	٧٨٤	١٣٥٦٠	نصف الكرة الأرضية الغربية ٣٠٧
٣٨٧	٢٠٣	٢١	١٦٣	٨٨	٩	٥٣	كندا ١٣

الجيش	البحرية	المارينز	الطيران	إجمالي العسكريين	المدنيون من وزارة الدفاع	العائلات الأميركية	الإجمالي
تشيلي 0 كوبا (جوانتنامو) ٦ هندوراس ٦٧١ على متن السفن صفر الإجمالي العالي ١٠٢٥٦١	0 ٤١٩ ١	٣١٩ ١٣٢ ١١ صفر	٨ صفر ٢٠٦ صفر	٣٣٧ ٥٥٧ ٣٩٤ ١٢٠١٤	صفر ٢٠١ ٢٠ صفر	٢٩ ٤٧٥ ٣١ صفر	٣٧٦ ١٢٣٣ ٤٤٥ ١٢٠١٤ ٤٧٣١٢
	٦٠٣١٥	٢٤٩٨٨	٦٣٣٢٤	٢٥١٠٩٨	٣٣٩٤٦	١٨٩٣٦٨	

المصدر: وزارة الدفاع الأميركية، خدمات قيادة واشنطن، مديرية المعلومات والعمليات والتقارير - توزيع القوى العاملة في العالم بناء على المناطق الجغرافية، ٣٠ سبتمبر ٢٠٠١.

الفصل السابع

غنائم الحرب

• على مر السنين تغيرت أهداف الكثير من هذه القواعد عبر البحار من كونها مواقع تكتيكية واستراتيجية ذات قيمة عسكرية، إلى منشآت للإسكان والخدمات اللوجيستية بعيدا عن الوطن. وهى تقدم مواقع وتسهيلات لبعض الوحدات التى لا مبرر لوجودها لو أقامت فى الولايات المتحدة. وتوفر هذه القواعد المبرر لرحلات السفر المثيرة والجذابة والحافلة بالمغامرات للجنود وعائلاتهم.

الكولونيل المتقاعد جيمس دونوفان

- مشاة البحرية الأميركية

من كتاب النزعة العسكرية - الولايات المتحدة الأميركية

(١٩٧٠)

الحروب والنزعة الإمبراطورية توأمان سياميان ملتصقان من مؤخرتيهما وكل منهما يزدهر بازدهار الآخر ولا يمكن فصلهما. والنزعة الإمبراطورية هي السبب الوحيد الأعظم للحرب. والحرب هي القابلة المولدة لمكتسبات النزعة الإمبراطورية الجديدة. وتنشأ الحروب عادة لأن الزعماء السياسيين يقنعون شعبا بأن استخدام القوة المسلحة أمر ضروري للدفاع عن الدولة أو للسعى إلى هدف مجرد مثل استقلال كوبا عن إسبانيا. أو منع انتصار شيوعى فى الحرب الأهلية الكورية. أو إبقاء جمهوريات الموز بأميريكيا الوسطى فى إطار "العالم الحر". أو حتى جلب الديمقراطية للعراق. وبالنسبة لقوة عظمى فإن مواصلة أية حرب ليست للدفاع عن "أرض الوطن"، تتطلب فى العادة وجود قواعد عسكرية عبر البحار لأسباب استراتيجية. وبعد انتهاء الحرب يصبح مغريا للمنتصر أن يحتفظ بتلك القواعد، ويسهل عليه أن يجد أسبابا لذلك. وفى العادة سوف يبتكر حجة الاستعداد لاحتفال استثناف أية أعمال عدائية. وبمرور الزمن إذا أصبحت أهداف دولة أهدافا إمبريالية، تشكل القواعد هيكل إمبراطورية. وفى القرون الأخيرة كانت الحروب التى شنت من القواعد الوسيلة الأولى التى ازدهرت بها النزعة الإمبراطورية وتوسعت، رغم أن نوازع الاقتصاد التابع يمكن أن تؤدى إلى نفس النتيجة أحيانا. وقد تعلت الحكومات الأمريكية منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية بكثير من المبررات للقواعد التى كانت تقوم بجمعها فى جميع أنحاء العالم ومن بينها احتواء الشيوعية. ودرء "نظرية الدومينو". ومناهضة "التطهير العرقى". ومنع انتشار "أسلحة الدمار الشامل".

ومنذ عهد الرومان وأسرة هان الصينية الحاكمة وحتى الوقت الحاضر، كانت لجميع الإمبراطوريات معسكراتها الحربية وحصونها وقواعدها الدائمة بشكل ما. وقد قصد

بها أن تحرس الأقاليم المهزومة، وتسيطر على السكان المنزعجين، وأن تكون نقاط الانطلاق إلى مزيد من الغزوات الإمبراطورية. والأمر الغريب والمثير للفضول في الشكل الأميركي للإمبراطورية المتنامية هو أنها في مرحلتها الحديثة إمبراطورية قواعد فقط لا إمبراطورية أراض، وأن هذه القواعد الآن تحيط بالكرة الأرضية بطريقة لم يكن العقل ليتصورها سابقا رغم أحلام الهيمنة العالمية القديمة منذ قرون.

ومع أن دولتنا مليئة بالمنشآت العسكرية إذ توجد ٩٦٩ قاعدة منفصلة في الولايات الخمسين. من المثير للدهشة أن شعبنا لم يكن أبدا صاحب ثقافة المحاربين^(١)، ولا من أصحاب الزى العسكري في أغلبه، وحتى "الحرب على الإرهاب" الأخيرة لم تكن الأزياء العسكرية شائعة في مدننا ومطاراتنا، ونادر أن ترى شوارعنا استعراضا عسكريا، وكذلك لم تمتلئ حفلاتنا الموسيقية بالموسيقى العسكرية إلا في أحوال نادرة. ومع ذلك فدولتنا إمبراطورية تمت عسكريتها على نحو شامل رغم أن نموذج المحارب في تصورنا يبدو أشبه بالبيروقراطي العسكري. ولا يمكن تصور وفهم الإمبراطورية الأميركية الحديثة إلا بإلقاء نظرة إلى سياسات إقامة قواعدها التي تمثل طريقتنا الخاصة في عسكرية الكرة الأرضية. وإذا تتبعنا الأنماط التاريخية لامتلاكنا للقواعد، واستكشفنا نظمنا في إقامة القواعد في جميع أنحاء العالم، فإننا بذلك نرفع القناع عن شبكة أعصاب الإمبراطورية التي ظلت مخبأة على نطاق واسع عن معظم الأميركيين حتى وقت قريب جدا.

لقد تناثر تاريخنا الإمبراطوري مع القواعد على أراض أجنبية. ويتم رسم سياستنا الخارجية الآن على نطاق واسع في البنتاجون، ويقوم بتنفيذها قادة عسكريون قضوا حياتهم معزولين في الآلاف من مواقعنا العسكرية التي تشكل عالما مترابطا فيما بينه بقوة مع تقاليده وعاداته وأساليب حياته الخاصة وأيضا مع تسلسل رتبته وطبقاته المهنية. وهذا العالم منفصل تماما عن بقيتنا. وقد أصبح من الصعب حتى أن نتذكر أن قوام جيشنا النظامي، في الليلة السابقة على الحرب العالمية الثانية، كان مجرد ١٨٠ ألف جندي. وهو الآن ١،٤ مليون جندي هم قوام قواتنا المسلحة القوية في زمن "السلم". ومصدر تمويلها ميزانية دفاع أضخم من الميزانيات القومية. وتشكل هذه القوات من رجال ونساء يعيشون في عالم من القواعد مغلق مستقل عن غيره وتقوم على

خدماته طائراته الخاصة الخاضعة لقيادة الجو المتنقلة بأسطولها من طائرات جلوب ماستر سى - ١٧ بعيدة المدى، وطائرات جالاكسى سى - ٥، وطائرات ستارليفتر سى - ١٤١، وطائرات ستراتوتانكرز كى سى - ١٢٥، وإكستندر كى سى - ١٠، وطائرات نايتنجيل سى - ٩، وهى تقوم بربط القواعد ببعضها من جرينلاند إلى أستراليا. وبدءا بالبدایات الإمبراطورية مع تغير القرن أريد أن أستكشف هنا كيف تم تجميع عالم القواعد هذا ليصبح المحرك الإمبراطورى الدافع للولايات المتحدة نحو حروب أكثر فأكثر.

وكما قلت من قبل فنحن كنا بالفعل امبراطورية قارية عظمى بحلول عام ١٨٩٨. وقد وضعتنا الحرب الإسبانية - الأميركية على طريق إمبراطوريتنا الحديثة. وما تزال بعض القواعد التى تملكناها آنذاك - وهى خليج جواتنامو وبيزل هاربور وجوام - مخاطر عسكرية عبر البحار أو على أراض ضممنها فى وقت لاحق. وبتأثير من مثالية ويلسون لم نسر على منوال حلفائنا البريطانيين والفرنسيين واليابانيين فى استغلال الانتصار فى الحرب العالمية الأولى لامتلاك مستعمرات جديدة. وظل الحال كذلك حتى الحرب العالمية الثانية عندما بسطت مداها العالمى، ومازالت الولايات المتحدة تعتبر استمرار احتلالها لأراضى اعدائها دول المحور السابق شيئا قريبا من حق المولد الطبيعى. وقد أطلقنا الحرب الكورية على البر الآسيوى رغم انتهائها بورطة. وبعد فييتنام تقلصت أعداد قواعدها لا فى جنوب شرق آسيا فحسب بل وفى أماكن أخرى حيث شجعت هزيمتنا حكومات أو شعوبا على معارضة وجودنا العسكرى فى دولها، وأهم ثلاث حالات من هذا القبيل هى إسبانيا واليونان والفلبين. ولكننا استأنفنا مسيرتنا صوب الإمبراطورية بنهاية الحرب الباردة. وأدت حربنا ضد صربيا، وحربان مع العراق، وحربنا ضد طالبان القاعدة فى أفغانستان، إلى توسع قواعد إمبراطوريتنا فى الخارج امتدادها إلى المنطقة الأوراسية الجنوبية الفسيحة الممتدة من البلقان فى الغرب حتى الحدود الصينية فى الشرق، هى منطقة غنية بالنفط أزاحت الستار عن أحلامنا الإمبراطورية بعد وفاة الاتحاد السوفييتى. وتبقى إيران العقبة الوحيدة الخطيرة ضد سيطرتنا العسكرية على المنطقة بأسرها.

وكما أشرنا فى الفصل السابق تحسب وزارة الدفاع القواعد بمبدأ " إحلل قيمة الموقع " أى تقويم القواعد الخارجية التى تقر بوجودها علنا بالدولارات الأميركية وتبلغ القيمة الإجمالية للقواعد العسكرية السبعمائة وخمسة وعشرين المعترف بها عبر البحار. فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١، ١١٧٨٢٨,٥ مليون دولار (نحو ١١٨ بليون دولار). ومن هذا الإجمالى هناك ٧٨ بليون دولار قيمة القواعد التى آلت إلينا من الدول المهزومة فى الحرب العالمية الثانية والتى ماتزال فى حوزتنا. ومنها ٢٨ بليون دولار فى ألمانيا و ٤٠ مليون دولار فى اليابان، أو ٦٦ فى المائة من الإجمالى. وتحدد البنتاجون سعر الحاميات التى أقمناها فى كوريا نتيجة للحرب الكورية بمبلغ ١١,٥ بليون دولار. وبعبارة أخرى، وعلى أساس حسابات وزارة الدفاع ووفقا لمعيار " القيمة " فإن قواعد الحرب العالمية الثانية وكوريا تمثل ثلاثة أرباع قواعد امبراطوريتنا المعاصرة. ولم تدخل وزارة الدفاع فى حساباتها أيا من قواعدنا الحالية فى البلقان أو الخليج الفارسى أو آسيا الوسطى. ولم تنشر حسابات إحلل القيمة لهذه المناطق لأن حكومتنا تحجم عن الاعتراف بأنها بالفعل مخافر إمبراطورية. (وفى بعض الحالات أيضا لا تريد حكومات إسلامية فى الخليج الفارسى الإعلان عن " آثار أقدامنا " هناك) ولكن الحقيقة هى أننا وسعنا وعززنا قواعدنا فى الخليج الفارسى إلى حد كبير استعدادا للحرب المعادة ضد العراق وهو تطور سوف نناقشه فى الفصل القادم، ولكن دعونا أولا نتناول بعض الموضوعات التمهيدية.

الحرب الإسبانية - الأمريكية وقواعدنا الأمريكية اللاتينية

نبعت معظم قواعدها في أمريكا اللاتينية من "مبدأ مونرو" عام ١٨٢٣ والحرب الإسبانية - الأمريكية عام ١٨٩٨. وفي أعقاب إعلان الاستقلال الأمريكي عن الإمبراطورية البريطانية عام ١٧٧٦ اعتبر الأمريكيون بلادهم بشكل عام المثال الأمثل للدولة المناهضة للإمبريالية. وكان هناك أساس لهذا الاعتقاد في القرن الأول من عمر الدولة طالما يريد أحد اعتبار أراضي الأمريكيين الأصليين والمكسيكيين بالضرورة غير مأهولة. وقد أثارت الثورة الأمريكية موجة من الانتفاضات عبر الكاريبي وأمريكا الجنوبية أدت إلى استقلال جميع المستعمرات الإسبانية البرتغالية. وأنعشت هذه الثورات بدورها مبدأ مونرو الذي من خلاله - ووفقا للرواية الرسمية في الكتب التعليمية - عينت الولايات المتحدة نفسها حامية دول نصف الكرة الأرضية الغربية ضد المزيد من الغزوات الأوروبية.

وقد عكس نفس مبدأ مونرو في الواقع أفكار جون كوينسي آدمز عضو الحزب الفيدرالي. وعندما قرر آدمز في عام ١٨٢٣ خوض الانتخابات الرئاسية القادمة باعتباره جمهوريا، كان في حاجة إلى تبديد شكوك تقول إن لديه ميولا "مؤيدة للبريطانيين" وإن مبدأ مونرو صمم لهذا الغرض.^(٢) وكان تأثيره قد أصبح إمبرياليا في الوقت الذي أعلن فيه أنه أصبح فعلا المبدأ الأساسي لسياستنا الخارجية خلال رئاسة جيمس بولك (١٨٤٥-١٨٤٩) الذي أضاف مزيدا من الأراضي للولايات المتحدة أكثر من أي رئيس آخر عدا توماس جيفرسون. وكان هذا المبدأ قد أثير أولا في النزاع مع بريطانيا حول إقليم أوريغون، وكذلك لتنبيه أية قوة أوروبية مرة أخرى قد تنوى التدخل في الخلافات التي أدت إلى نشوب الحرب المكسيكية في الأعوام ١٨٤٦ - ١٨٤٨.

وتحمل التفسيرات التقليدية للنزعة الإمبراطورية الأمريكية ملامح مألوفة مسبقا من المؤلفات التي تناولت النزعة الإمبراطورية البريطانية، وبالتحديد عبارات مثل: نحن "هزمنا نصف العالم في نوبة من غياب العقل"، ونحن "إمبرياليون ممانعون" ونفتقر إلى "منطقية الهدف" فيما كنا نفعله^(٣). ويقول رونالد ستيل محلل العلاقات الدولية

"موضوع الممانعة هو أكثر التعليقات انتشارا فى تواريخ الاستعمار"^(٤). فبالإضافة إلى الزعم بأنه لم يكن فى القصد أن نكون أصحاب نزعة امبراطورية، يقوم المؤرخون الأمريكيون بتقسيم الأعمال الأميركية لغزو شعوب أخرى إلى عنصر قارى وعنصر بحرى، ويصرون على أن العنصر البحرى هو وحده الذى يعتبر نزوعا إمبراطوريا. أما العنصر القارى - الحركة المتجهة غربا لغزو شعوب أصلية والمكسيكيين - فهو يعتبر فى العادة مجرد "توسع" وكأن ضغوطا لا ترحم فوق طاقتنا أو إرادتنا هى التى أجبرتنا على ذلك.

وكان الانتقال من العنصر القارى إلى العنصر البحرى فى نهاية القرن التاسع عشر قد أحدثه إغلاق الحدود كما تذكر أطروحة فردريك جاكسون تيرنر الشهيرة عام ١٨٩٣. ولكن التبحر الجاد فى العلم كشف منذ زمن بعيد عن واحد من أذكى محاولات الدفاع عن تحول أميركا إلى التوسع عبر البحار. وعلى هذا المنوال برهن مؤرخون أمريكيون بارزون مثل صامويل فلاج بيميس بجامعة ييل على أن النزعة الإمبراطورية التى بدأت عام ١٨٩٨ كانت "انحرافا كبيرا فى التاريخ الأمريكى"، ويجب - فى رأيه - أن يتم تصحيحها فى النهاية على أيدي زعماء سياسيين ليبراليين مثل وودرو ويلسون وفرانكلين روزفلت فى القرن العشرين^(٥). وقد اتخذ مبدأ مونرو دائما أشكالا انتهازية جديدة. ففى ديسمبر ١٩٠٤ أعلن الرئيس تيودور روزفلت ما يسمى "لازمة روزفلت" بدعوته إلى التدخل عبر الأمريكتين لقمع أية حركات سياسية قد تتدخل فى سداد الديون الأميركية اللاتينية. وكتب روزفلت يقول: "لأن الولايات المتحدة أمة متحضرة فإن عليها واجبا هو ممارسة "سلطة بوليسية دولية" لمنع وقوع "آثام خبيثة" فى أى مكان بين جيران أميركا حتى الجنوب. أما خلف روزفلت فى الرئاسة: ويليام هوارد تافت، حاكم الفلبين السابق، فقد أعلن شيئا أسماه "دبلوماسية الدولار" وهى عبارة مخففة تدل على النزعة الإمبراطورية. واستحضر تافت "لازمة روزفلت" لترويج الأعمال والتجارة الأميركية عبر البحار وحمايتها وخاصة فى البحر الكارىبى وأميركا الوسطى^(٦). وفيما بين ١٨٩٨ و ١٩٣٤ أرسلت الولايات المتحدة مشاة البحرية إلى كوبا أربع مرات، وإلى هندوراس سبع مرات، وإلى جمهورية الدومينيكان أربع مرات. وإلى جواتيمالا مرة واحدة، وبثلاثين مرة، والمكسيك ثلاث مرات، وكولومبيا أربع مرات، ونيكاراجوا خمس مرات (حيث أقاموا قواعد واستمروا فى وجود لا ينقطع دام إحدى وعشرين سنة باستثناء فترة قصيرة فى عام ١٩٢٥)^(٧). وقال العالم السياسى دافيد

إيبرنيثى إن " الدولة التى أعلنت مبدأ مونرو لحماية استقلال الدول الناطقة باللغة الإسبانية فى البر الرئيسى للعالم الجديد، تجد نفسها الآن فى موقف شاذ بحلولها محل إسبانيا كحاكم استعمارى وفى قهر حركات الاستقلال الوطنى ^(٨). وقد اقتلعت " لازمة روزفلت " فى عام ١٩٣٤ بما أسماه الرئيس فرانكلين روزفلت " سياسة الجار الطيب ".

وكانت الحرب الإسبانية - الأمريكية أولى الحروب التى كرسست بوضوح لإقامة قواعد عسكرية خارج بر أميركا الشمالية الرئيسى، ورغم أن الحرب بدأت لمساعدة المتمردين الكوبيين على الحكم الإشباني، والانتقام لإغراق السفينة الأمريكية مين. فإن السبب الحقيقى هو إقامة قواعد عسكرية وبحرية فى منطقة الكاريبى وغرب المحيط الهادى. وفقا لخطط تيودور روزفلت مساعد وزير البحرية آنذاك، وجون هاى وزير الخارجية، والعديد من كبار أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكى من بينهم هنرى كابوت لودج وألبرت بفريدج. والمنظر البحرى القبطان ألفريد ماهان، وعدد من مؤيديه آخرين مثل بروكس آدمز وإليهو روت. ونتيجة للانتصار فى تلك الحروب تم تحويل بورتوريكو وجوام والفلبين إلى مستعمرات وأقيمت قاعدة عسكرية فى كوبا، وضمت هاواى ومنطقة قناة بنما (حيث أقيمت عدة قواعد عسكرية).

ومنحنا الفلبين استقلالها بعد الحرب العالمية الثانية، ولكن ظللنا نحفظ بأكبر قاعدتين عبر البحار هناك وهما قاعدة كلارك الجوية فى مدينة أنجيليس وقاعدة سوبك باى البحرية فى أولونجابو، وكلتاها على جزيرة لوزون. إلى أن طردنا مجلس الشيوخ الفلبينى منهما فى عام ١٩٩٢. ومنذ تلك السنة والبنجابون تحاول أن تجد وسيلة لإعادة وجودها العسكرى فى جزر الفلبين، إما بالمبالغة فى تصوير خطر الصين، أو من خلال " التبادلات العسكرية " وفقا لما سُمى باتفاقيات تزاور القوات، أو تحت عنوان " الحرب على الإرهاب " مؤخرا. وأثناء عام ٢٠٠٢ نجحت إدارة بوش فى إقحام قوات إلى الفلبين لتدريب الفلبينيين على محاربة الفدائيين المسلمين فى الجزر الجنوبية.

الحرب العالمية الثانية والقواعد الألمانية

أضعفت الحرب العالمية الثانية جميع الإمبراطوريات الاستعمارية إلى حد مميت وأبقت على الولايات المتحدة كأقوى دولة في العالم. بل في الحقيقة كقوة إمبراطورية من الطراز الأول. وفي مستهل الحرب الباردة قررت أميركا ألا تبقى متمسكة بمكاسبها الإقليمية من زمن الحرب، وأن توسعها كي تصنع طوقا من القواعد يمتد من أيسلندا إلى اليابان بحيث يحيط تماما بالاتحاد السوفييتي والصين التي خرج الحزب الشيوعي فيها منتصرا من حرب أهلية ضارية.

وسواء برهنت هذه القواعد على أهميتها الحقيقية في حرب سوفيتية - أميركية أم لا. فقد تم تبريرها بأنها جزء مهم من سياسة "احتواء الشيوعية". وأحيانا تعللت الولايات المتحدة بالحاجة إلى الاحتفاظ بهذا القواعد بعيدا عن أيدي السوفييت. وأصبحت سياسة الاحتواء والرفض الاستراتيجي الأسس المنطقية لنسخة جديدة من نزعة التسلط الإمبراطوري التي حلت محل الممارسات الاستعمارية القديمة سيئة السمعة. ومنحت الشرعية بطريقة غامضة للقواعد الأميركية من خلال التحالفات والمواثيق الأمنية المتبادلة بحيث أصبحت تلك القواعد الشكل المؤسسي الذي اتخذته النزعة الإمبراطورية الجديدة. وحتى في أميركا اللاتينية. حيث مارست الولايات المتحدة طوال قرن شكلا تقليديا من الهيمنة السياسية والاقتصادية مستخدمة المبررات الإمبريالية التقليدية لتصرفاتها. بدأت واشنطن تطبق الآن أيديولوجية الحرب الباردة زاعمة أن الإطاحة بحكومات منتخبة في جواتيمالا وتشيلي ونيكاراجوا. وتدريب آلاف الضباط من أميركا اللاتينية على استخدام تقنيات القمع المحلي. كانت جزءا جوهريا من سياسة احتواء الشيوعية والنفوذ السوفييتي في نصف الكرة الأرضية.

كانت أكبر جائزتين من الحرب العالمية الثانية هما ألمانيا واليابان. وقد احتل الجيش الأميركي اليابان كلها، بينما أصبح التعادل بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي في ألمانيا حيث التقى الجيشان المنتصران على نهر إلبى عام ١٩٤٥. الرمز الأكبر للحرب الباردة. وفي عملية تقسيم ألمانيا المحتلة بين القوى الأربعة سيطرت الولايات المتحدة على الولايات الجنوبية وولايات بافاريا الوسطى وهي الجزء المسمى بادن

فوتنبرج وهيسى فى الوقت الحاضر. واحتلت فرنسا المناطق الغربية، وبريطانيا المناطق الشمالية، واحتل الاتحاد السوفييتى نصف ألمانيا الشرقى، واشتركت جميع القوى الأربعة فى حكم العاصمة برلين. ونشرت الولايات المتحدة قوات قتالية من نحو ٢٨٥ ألف جندي ومزودة بأسلحة نووية فى ٨٠٠ قاعدة لمواجهة الاتحاد السوفييتى من ريع ألمانيا الجنوبي الأوسط الذى تقترب مساحته من مساحة ولاية أوريجون. وعلى الحدود المصطنعة المقامة حيث توقفت الجيوش، وضع الاتحاد السوفييتى ٢٨٠ ألف جندي تقريبا ونحو ٢٠ ألف دبابة، وهى تمثل أكبر أرمادا برية تم حشدتها فى أى وقت. وقد هدفت الخطط العسكرية الأولى لحلف شمال الأطلسى لصد أى غزو سوفييتى إلى إقامة خط دفاعى على نهر الراين ولذلك وضعت قيادة الحلف الرئيسية والقواعد الجوية خلف النهر فى فرنسا، ولكن الحكومة الفرنسية بقيادة الجنرال شارل ديغول أعلنت أنها تنوى استرداد " كامل سيادتها " على الأراضى الفرنسية. وكان ذلك فى مايو ١٩٦٦ فى ذروة حرب فيتنام. ولم تعد فرنسا " تقبل وجود وحدات أو منشآت أو قواعد أجنبية فى فرنسا تخضع بأى شكل لسيطرة سلطات غير السلطات الفرنسية " (٩). وانسحبت فرنسا من حلف شمال الأطلسى لأن جنرالا أميريكيا سيطر عليه باعتباره القائد الأعلى (وعادت فرنسا إلى الحلف عام ١٩٩٢).

فى أبريل ١٩٦٧ طرد الحلف من فرنسا وانتقلت رئاسة القيادة العليا للقوى المتحالفة فى أوروبا إلى بروكسل. أصبحت قيادات الجيش الأمريكى المتمركزة فى شتوتجارت وهایدلبرج جنوب وسط ألمانيا أكثر ازدحاما بالقواعد العسكرية الأمريكية. مع أن خطر الحرب مع الاتحاد السوفييتى كان قد انحسر بالفعل وضعت الولايات المتحدة استراتيجية "دفاعية" جديدة أعادت قواعدها الجوية إلى أقرب مواقع ممكنة من الحدود الفرنسية أقام الاستراتيجيون الأمريكيون أربعة مطارات قتالية فى ولاية مقاطعة الراين البلاطينية الصغيرة (هذه المطارات فى بيتبورج هان ورامشتين زيمباخ شبانجدالم تزفا يبروشن)، وبقيت حتى الآن مناطق النفوذ الأمريكى. افترض القادة العسكريون الأمريكيون أن الغزو السوفييتى - إذا حدث - فقد ينطلق من خلال الفجوة بين نهر الرون جبال فوجلسبرج حيث تعتبر الأرض صالحة للدبابات الغازية. أما مدينة فولدا الصغيرة فى وسط ألمانيا على بعد ٢٠ ميلا فقط من الحدود الألمانية الشرقية، فهى تقع على طريق الغزو المفترض، ولذلك أنشأ الجيش " مجتمعا عسكريا " فى تلك المدينة احتل وسط المدينة واثنين وعشرين موقعا آخر حولها، وهى جميعها جزء من

الوحدة ١٠٤ من مجموعة دعم المناطق التى تقع قيادتها بالقرب من هاناو. وقد اختفت أهمية المدينة فى ليلة واحدة بعد إعادة توحيد ألمانيا عام ١٩٩٠. وغادر آخر الجنود الأميركيين مدينة فولدا فى صيف عام ١٩٩٤.

والواقع أن كثيرا من القواعد فى ألمانيا تشكلت من عدة قواعد مصغرة منفصلة أو "مواقع"، وهذه التجزئة تضاعف من تأثير وجودنا العسكرى على الجماعات المدنية المحيطة. وتفضل وزارة الدفاع احتساب أعداد القواعد الكبرى فحسب فى تقاريرها حتى تفهم أعدادها بينما يظن الناس الذين يعيشون بالقرب منها أن عد "المواقع" هو المهم. وكان باحثان من مركز بون الدولى للتحويلات، وهما كيث كينينجهام وأندرس كليمر، قد قاما بدراسة الآثار الاقتصادية لإغلاق القواعد فى ألمانيا والنتائج بعيدة المدى لاستمرار الاحتفاظ بالقواعد العسكرية فى وسط أوروبا التى ليس لها وظائف عسكرية. ووفقا لما ذكره الباحثان كان للولايات المتحدة، عند توحيد ألمانيا، سبع وأربعون قاعدة عسكرية كبرى فى ألمانيا (سبع وثلاثون منها "مجتمعات عسكرية" وعشر قواعد جوية)^(١٠). ولكن تغييرا فى مسميات عملية الحساب التى يكتبونها يكشف عن أن "الولايات المتحدة تحتفظ فى ألمانيا بقوات قوامها ٢٨٥ ألف جندي فى نحو ٨٠٠ موقع متفرقة. وفى عام ١٩٩٥ هبط هذا العدد إلى نحو ٩٤ ألف جندي فى نحو ٢٦٠ قاعدة"^(١١).

ويوجد فى ألمانيا وحدها ما يسميه الجيش "المجتمع العسكرى". فالقواعد العسكرية فى الولايات المتحدة ضخمة فى العادة وتقع فى مساحات محجوزة ومستقلة بذاتها ومعزولة بشكل أو آخر عن المناطق الحضرية المدنية. وهى تشكل فى أغلب الأحوال ما يقابل البلدات أو المدن الصغيرة أو المتوسطة بما لها من حقوق. ومثال ذلك قاعدة فورت هود فى تكساس على بعد ستين ميلا شمال شرق أوستن، وهى تشغل ٢١٧٢٣٧ إيكرا متجاورة ويقيم فيها نحو ١٣٠ ألف نسمة. وعلى العكس من ذلك يذكر الباحثان أن "كل مجتمع عسكرى (ألمانى) يتكون من ثكنة أو أكثر. ويقع بالقرب من مركز المدينة الذى يعمل كمركز إدارى واجتماعى للمجتمع العسكرى. وقد يعيش الجنود وعائلاتهم فى "المجمعات السكنية العائلية" المجاورة التى تديرها الولايات المتحدة، أو يدبرون أمور سكنهم بين الجماعات الألمانية المجاورة. كذلك تقوم معظم المجتمعات العسكرية بإدارة مواقع للتدريب ومهابط للطائرات خارج مركز المدينة. وبالإضافة إلى

ذلك يقوم ذلك المجتمع على الأرجح بدعم عدد آخر من المواقع المنعزلة مثل محطات الاتصال اللاسلكى والمستودعات والمخازن والمستشفيات. مما يدعو المجتمع متوسط الحجم إلى إدارة أكثر من سبعة عشر موقعا مختلفا فى مدينتين ألمانيتين على الأقل.... وبعد نهاية الحرب الباردة بقليل أعيد تنظيم المجتمعات العسكرية تحت قيادة (جماعات دعم المناطق) لتسهيل ضمها. وقد شكّلت ثلاث عشرة مجموعة دعم فى ألمانيا عام ١٩٩١ متضمنة أربعة وثلاثين مجتمعا عسكريا " (١٢)

ولاريب أن أية مدينة أو بلدة أميركية - ربما باستثناء هونولولو - لم تكن لتستطيع تحمل ما عاناه الألمان والكوريون وأهل جزيرة أوكيناوا وكثيرون غيرهم لأكثر من نصف قرن. ويدرك مايكل جولدفاربر المنتج السينمائى والتلفزيونى الأمريكى أجواء الحرب الباردة فى ألمانيا فى وصفه لرحلة بالسيارة عام ١٩٧٠ عبر مدينة فرانكفورت فيقول: "توقفت فجأة سيارة جيب بها مجموعة من الجنود الأمريكيين عند إشارة مرور حمراء. وقد ظللنا نتجول بالسيارة فى المدينة محاولين أن نجد إدارة للمركبات أو ما يقابلها فى ألمانيا، وعند كل إشارة مرور حمراء كنا نجد سيارات جيب محملة بمجموعات من الجنود الأمريكيين - وبدا وكأن فى المدينة سيارات جيب أكثر من سيارات الشرطة، وجنود أميركيون أكثر من رجال الشرطة الألمان - كانت الحرب قد وضعت أوزارها منذ ربع قرن. ومن المؤكد أن معدل نسبة الجنود الأمريكيين إلى رجال الشرطة الألمان يفترض أن يكون قد مال لصالح الألمان. كما أننا كنا قد تجاوزنا نقطة الاحتلال وفرض السلام بزمان بعيد. وقد قفزت إلى ذهنى عبارة " المحاربون الرومان القدماء " عندما تجاوزتنا سيارة جيب أخرى ".

وفى أواخر سبتمبر ١٩٩١ قامت جماعة دعم المناطق -١٠٣ باحتلال ٤٧٨٣ إيكر ممتدة حول سبعين موقعا مختلفا. وتضمنت هذه الجماعة مجتمعات فرانكفورت العسكرية - مركز قيادتها - بالإضافة إلى دارمشتادت وفيسبادن مع ٢٥٥٩٨ جنديا. وكان المركز الإدارى لجماعة دعم المناطق - ٢٦ يقع فى المدينة الجامعية القديمة فى هايدلبرج التى كانت أيضا مركز قيادة الجيش الأمريكى - أوروبا. والجيش السابع، والفيلق الخامس. وشملت جماعة دعم المناطق فى هايدلبرج مدن هايلبرون وكارلسروه ومانهايم وفورمز مع إجمالى يبلغ ٣٦٠١٤ عاملا فى القوات المسلحة. وشغلت مساحة

بلغت ١٨٣١٢ إيكر في ٧٨ موقعا منفصلا. ويشير ضابط الشؤون العامة الحال في جماعة الدعم - ٢٦ إلى أن "المجتمع" يتضمن أكثر من اثنتى عشرة منشأة متفرقة في داخل مدينة هايدلبرج وحولها. ويذكر الضابط باقتضاب أن "مجمع مركز التسوق العسكرى يقع على مسافة مسيرة قصيرة على الأقدام من ثكنتى كامبل وياتون" (١٤).

وكالعادة تقع المكاتب الرئيسية لهذه المجتمعات العسكرية فى وسط المدينة لأن الجيش قام فى عام ١٩٤٥ بنقل مكاتبه إلى الثكنات العسكرية الألمانية القديمة وهى غالبا ما تكون مبانى ضخمة تعود من الناحية المعمارية إلى القرن التاسع عشر. وقد أطلقت على الوحدات السكنية العائلية المختلفة التابعة للمجتمعات العسكرية أسماء أميركية براقمة مثل باتونفيل فى مجتمع شتوتجارت العسكرى. وقرية مارك توين للإسكان العائلى فى هايدلبرج. ويعتبر مجتمع جارميش واحدا من أكثر المجتمعات المرغوب فيها لوقوعه فى جبال الألب البافارية بالقرب من موقع اعتكاف هتلر القديم فى بريشتسجادن. وهو يتضمن كثيرا من الفنادق وحيا للعزاب، ومركزا للتسوق. وملعبا للجولف. ومنصة للتصويب على الأطباق الفخارية، وقد أطلقت عليها جميعا أسماء مشاهير الجنرالات الأمريكيين. وهو فى الحقيقة مركز استجمام القوات المسلحة فى أوروبا. وهو منتجع رسمى للتزلج مخصص للعسكريين. وهكذا يستطيع كبار العسكريين التظاهر بأنهم يعملون أثناء زيارتهم لجارميش. كذلك يتضمن الموقع مركز جورج مارشال الأوروبى للدراسات الأمنية الذى يعتبر مجمعا للبحوث. ولم تجد القوات المسلحة ضرورة لتقليص حجم جماعة دعم المناطق - ٥٤٢ التى تضم منطقة جارميش (١٥).

وعندما نأتى إلى حياة القواعد فى ألمانيا نلمس أن جارميش ليست إلا قمة جبل الجليد الترويحى. وفى ديسمبر ٢٠٠٢ التزم الجيش بدفع ٢٧٥ ألف دولار لإدخال تحسينات على ملعب راينبليك للجولف فى فيسبادن. وتسعة ملايين دولار لمركز بولينج وترفيه فى باومهودلر. و١٦ مليون دولار لمركز للياقة البدنية فى بامبرج. و٢٩٠ ألف دولار لمنطقة للأطفال بها مطعم ومركز ترفيه فى ثكنة بولاسكى. وكل هذه المشروعات مخصصة لجماعة دعم المناطق رقم ١٠٤ فى هاناو. وتوجد لدى جميع جماعات الدعم الأخرى مشاريع توسعية مماثلة. ومع ذلك من الممكن ألا يبنى شئ منها بفضل استياء إدارة بوش من رفض ألمانيا الانضمام إليها فى حربها على العراق.

وبعد انهيار حلف وارسو عام ١٩٩٠ لم يعد ممكناً للجيش حتى أن يتظاهر بالحاجة إلى حشد قوة عسكرية هائلة في وسط أوروبا. وذلك على عكس القاعدة العامة التي تقضى بأنه بمجرد افتتاح أية قاعدة خارجية لن تغلق أبداً. ولذا قامت وزارة الدفاع بتقليص قواتها في ألمانيا بنحو الثلثين ونقلها إلى قواعد جديدة كانت قد أنشئت آنذاك في البلقان والخليج الفارسي. والجانب الأكثر إثارة للدهشة هو عدد القواعد التي قررت الولايات المتحدة الاحتفاظ بها. وهو ٢٢٥ قاعدة وفقاً لتقرير حالة القواعد في سبتمبر ٢٠٠١. ويقيم فيها ٧٠٩٩٨ جندياً وطياراً، و١٦٤٨٨ موظفاً مدنياً من وزارة الدفاع، و٩٧٥٧١ فرداً من العائلات. ولما كانت هناك فائدة مؤكدة من وراء هذه القواعد في أوروبا، فقد ظلوا يعيشون هناك في انتظار "عمليات خارج المنطقة". وفي إحدى وأربعين سنة من عام ١٩٤٨ حتى ١٩٨٩ نشرنا بعض جنود الجيش المتمركزين في ألمانيا إلى خارج منطقة عملياتهم مجرد ثمانى عشرة مرة فقط. وخلال السنوات الأربع التي تلت عملية عاصفة الصحراء أرسلت وزارة الدفاع جنوداً متمركزين في ألمانيا إلى "مهام خارج المنطقة" بلغت تسعاً وأربعين مهمة^(١٦).

وأصبحت ألمانيا نسخة أوروبية من أوكتاوا كمجموعة حشد للأنشطة الإمبراطورية في مناطق البحر الأبيض المتوسط والشرق الأوسط وآسيا الوسطى. وكما هو الحال في أوكتاوا تتعرض المناطق المحيطة بقواعدنا على الدوام لتلوث البيئة وضجيج الطائرات وارتفاع عدد الجرائم الجنسية والنزاعات حول من لديه السلطة القانونية على العدد الضخم من الأميركيين المقيمين في المجتمع الذي يستضيفهم. وقد ظهرت أولى المؤشرات الجدية على تدمير ألمانيا من وضعها كنصف مستعمرة أثناء الانتخابات العامة في سبتمبر ٢٠٠٢ عندما أعيد انتخاب جيرهارد شرودر مستشاراً للبلاد على أساس برنامج انتخابي واضح يدعو إلى فك ارتباط ألمانيا بخطط أميركا للحرب ضد العراق. وقد يؤدي التوتر المتصاعد بين الدولتين حول المطامح الكونية إلى إجراء عملية نقل واسعة النطاق للعسكريين العاملين من ألمانيا إلى دول أوروبا الشرقية الشيوعية سابقاً. وإلى القواعد الجديدة التي أقيمت في العراق وآسيا الوسطى. وقد دعا الكثيرون في إدارة بوش إلى إجراء خفض راديكالي للقواعد الأميركية في ألمانيا، ومن بين هؤلاء الجنرال جيمس جونز قائد حلف شمال الأطلسي.

الحرب العالمية الثانية واليابان

تقدم اليابان أوجه شبه كثيرة بألمانيا باستثناء عدم وجود مواجهة سوفيتية-أميركية على الأراضي اليابانية، ووجود مستوى عال من الاحتجاج ضد تمركز قوات أجنبية ظهر بوضوح منذ البداية. وقد أصبحت اليابان بقوة دولة داعية إلى السلام بسبب الدمار الذى لحق بها من الحرب وتعرضها للقصف بالقنابل النووية. وعند كتابة الدستور اليابانى أضاف احتلال الحلفاء مادة رافضة للحرب هى المادة التاسعة إذ تخلت تماما عن استخدام القوة فى العلاقات الدولية. ولقيت المثالية المهمة وراء هذا النص إعجاب الكثير من اليابانيين، ومازال جانب كبير من جمهور الناخبين يتقبل الفكرة القائلة بوجوب الاحتفاظ بالقوات المسلحة اليابانية للأهداف الدفاعية فقط. وذلك رغم تلاشى المشاعر المعادية للحرب التى كانت سائدة فى السنوات التى تلت الحرب مباشرة.

ومع بداية الحرب الباردة فى شرق آسيا قررت البنتاجون مع ذلك أنها تحتاج إلى عدد كبير من القواعد العسكرية فى اليابان التى اعتبرت " منطقة خلفية آمنة " فى الصراع من أجل احتواء الشيوعية. وجرت هذه الخطة على عكس الشعور السائد فى اليابان ونصوص الدستور الرسمية. والأكثر من ذلك أن اليابان بعد حصولها على الاستقلال عام ١٩٥٢ تبرأت إلى الأبد من استخدام الأسلحة النووية ومنعت الولايات المتحدة رسميا من تخزينها فى قواعدها فى البلاد. وفى أوائل فترة ما بعد الحرب انتهى خبراء الاستراتيجية فى البنتاجون إلى وجوب البحث عن مكان فى اليابان لا يلتزم بالسياسات الحكومية، وأسفرت النتيجة عن الضم الفعلى لأوكيناوا الجزيرة الكبرى الواقعة فى أقصى جنوب السلسلة اليابانية والتى كانت مسرحا لقتال دموى رهيب ولهجمات الكاميكازى الانتحارية فى عام ١٩٤٥.

ومن عام ١٩٤٥ حتى عام ١٩٧٢ ظلت الولايات المتحدة قابضة على الجزيرة باعتبارها مستعمرة تحكمها وزارة الدفاع الأمريكية مباشرة. وخلال هذه الفترة كان ١,٣ مليون هم أهل أوكيناوا بلا دولة وغير معترف بهم لا كمواطنين يابانيين أو مواطنين أميركيين ويحكمهم جنرال أميركى. ولم يكن فى استطاعتهم السفر إلى اليابان أو أى مكان آخر بدون وثائق خاصة تصدرها السلطات العسكرية الأمريكية.

وأُحكِمَ إغلاق أوكيناوا عن العالم الخارجى وأصبحت مأوى سريا للمطارات الحربية والفواصات والتسهيلات الاستخبارية وبيوت السى آى إيه الأمانة. أما بعض أهل أوكيناوا الذين احتجوا على هذه الأحوال فقد اعتبروا شيوعيين محتملين وتم ترحيل مئات منهم إلى بوليفيا حيث أُلقيَ بهم فى أقصى الريف عند منابع مياه الأمازون ليدبروا أمورهم بأنفسهم. (١٧) وفى ذروة الحرب الباردة لم يكن الكونجرس مهتما بما يجرى فى أوكيناوا ولم يمارس إلا أدنى الرقابة على حكم الجيش.

وفى أوائل سبعينيات القرن العشرين اندلعت ثورة أهل أوكيناوا ضد استخدام الجزيرة قاعدة للقاذفات فى حرب فيتنام. وألهب الثورة كشف الستار عن قيام القوات المسلحة بتخزين غاز الأعصاب وأسلحة نووية فى الجزيرة دون تحذير السكان المحليين من المخاطر الناشئة عنها. وعلى مضض وافقت الولايات المتحدة على إعادة شكلية للجزيرة إلى السيادة اليابانية طالما سمحت الحكومة اليابانية لنا بالاحتفاظ بقواعدها هناك. وكانت تلك الإعادة وسيلة مريحة للإبقاء على الأمر الواقع بينما تنتقل مسؤولية أهل أوكيناوا إلى اليابان.

وعلى مر السنين بذلت الحكومة اليابانية أقصى ما فى جهدها للإبقاء على القوات المسلحة الأميركية محصورة فى الجزيرة. وكان ٧٥٪ من قواعدها مبنيا على الجزيرة رغم أنها لا تشكل أكثر من واحد فى المائة من منطقة البر اليابانى، كما أنها أفقر الولايات الإقليمية اليابانية جميعها. وعلاقة الجزيرة باليابان شديدة الشبه بعلاقة بورتوريكو بالولايات المتحدة. وتستحسن الحكومة فى طوكيو هذه الترتيبات لأنها تعلم أن الجمهور سوف يتحمل وجود الجنود الأميركيين على التراب اليابانى فقط إذا ظلوا مستترين عن عيونهم. ويتحيز شعب اليابان ضد أهل أوكيناوا المتميزين ثقافيا وذلك منذ أن ضمت اليابان بالقوة مملكة ريوكيو فى أواخر القرن التاسع عشر (١٨) (التي كانت أوكيناوا أكبر جزيرة فيها). ولم تتغير الظروف الشبيهة بالاستعمار هناك. وفى عام ٢٠٠٢ وافقت الحكومة اليابانية على إقامة قاعدة جوية أخرى على الجزيرة لاستخدام الأميركيين تودى إلى تدمير الشعب المرجانية الحساسة وتعريض أنواع الأحياء المائية المعتمدة عليها للخطر.

وبفرض استعمارنا العسكرى على أهل أوكيناوا كان كبار زعمائنا دائما يعرفون أنهم ينتهكون ميثاق الأمم المتحدة الذى كانت مبادئه هى أهدافنا المعلنة من القتال فى

الحرب العالمية الثانية التى تمثل فى واقع الأمر المثل السياسية والقيم التى اعتنقتها الولايات المتحدة كأمة. وساعد افتقارنا إلى إجراءات قانونية مناسبة للاستيلاء على أراضى المزارعين من أهل أو كيناوا لبناء مجمعات قاعدتنا الضخمة. على إثارة الشبهات حول محاولتنا تشجيع الديمقراطية فى اليابان ما بعد الحرب وغيرها من الدول فى شرق آسيا. وقد اعترف الكثيرون من كبار المسؤولين الأميركيين بأنهم جعلوا من التعهد الوارد فى ميثاق الأطلنطى فى أغسطس ١٩٤١ بأن الولايات المتحدة لم تسع إلى "تعظيم نفسها إقليميا أو غير ذلك" فى الحرب العالمية الثانية أضحوكة.^(١٩) وأقر يو.ألكسيس جونسون السفير الأمريكى إلى اليابان ووكيل وزارة الخارجية السابق بأن تسليم أو كيناوا للقوات المسلحة كان ثمنا لتشجيع البنجاجون على إبرام اتفاقية السلام التى أعادت لليابان سيادتها على الجزر الأربعة الرئيسية. ولكنها احتفظت بجزيرة أو كيناوا تحت الحكم العسكرى الأمريكى^(٢٠).

وليست أو كيناوا هى المكان الوحيد فى اليابان الذى توجد فيه قواعد أميركية. ولكنها تحتوى فقط على الكثير منها. فالقاعدة البحرية اليابانية القديمة فى يوكوسوكا جنوب يوكوهاما هى المرفأ الدائم للأسطول السابع ولحاملة طائرات مزودة بقوة عمل كاملة وترسو هناك بشكل دائم. وعندما تدخل حاملة الطائرات الميناء يقوم السلاح البحرى بإطلاق طائراتها منها إلى محطة أستوجى الجوية البحرية فى ولاية كاناجاوا القريبة المكتظة بالسكان حيث أصبحت احتجاجاتهم ضد ضجيج إقلاع الطائرات وهبوطها معلما رئيسيا للسياسة المحلية. ويقوم السلاح البحرى بتشغيل ميناء رئيسى آخر لحاملات الطائرات والغواصات بالقرب من ناجازاكي على الجزيرة الجنوبية كيوشو. ويدير سلاح الجو قاعدة ميساوا الجوية الواقعة فى أقصى شمال ولاية جزيرة هونشو الرئيسية، بالإضافة إلى منشآت سلاح الجو الضخمة فى كادينا بأوكيناوا وفى قاعدة يوكوتا الجوية فى طوكيو مقر قيادة القوات الأميركية. وتعتبر قاعدة ميساوا الجوية مقرا لسرب من المقاتلات طراز إف - ١٦ ووحدة صاعقة تسمى "المنشار" للتدريب على إصابة الهدف، والعديد من مراكز التنصت التجسس التى يديرها السلاح البحرى.

ويدير سلاح المارينز أغلب قواعد أو كيناوا. وتعتبر فرقة مشاة البحرية الثالثة - بقيادتها هناك - الفرقة الوحيدة التى تتمركز خارج الولايات المتحدة كذلك يقوم سلاح

المارينز بتشغيل محطة إيواكوى الجوية الضخمة جنوب هونشو حيث قمنا لسنوات طويلة وبشكل غير قانونى، بتخزين أسلحة نووية على السفينة سان جواكين كاونتى الراسية على مسافة قصيرة من الشاطئ. وقد بقيت السفينة فى القاعدة دون الإبحار إطلاقا لمدة ست سنوات على الأقل خلال ستينيات القرن العشرين. وتلك حقيقة مهمة منذ أن وعدت الولايات المتحدة، فى اتفاقية سرية مع اليابان عام ١٩٦٠، بعدم تخزين أسلحة نووية فى قواعدها، ولكنها التزمت موقفا مؤداه أن الأسلحة النووية موجودة على سفن بحرية فى مجرد حالة عبور "ترانزيت"، ولم يتم إدخالها فعلا إلى البلاد. وسأيرت الحكومة اليابانية هذه الخدعة الماكرة حتى شهر يونيو ١٩٨١ عندما فضح إدوين ريشاور السفير الأمريكى السابق وجود هذه الاتفاقية السرية فى مقابلة أجرتها معه صحيفة واشنطن بوست. وثارت ضجة عارمة، ولم تؤكد البنتاجون أو تنف وجود أسلحة نووية فى أى مكان فى اليابان، وقال اليابانيون ببساطة إنهم يثقون فى أن الولايات المتحدة سوف تلتزم بالاتفاقية^(٢١). وبالتأكيد لم ينبس أحد بكلمة عن إمكانية استدعاء مفتشى الأسلحة من الأمم المتحدة.

ويبلغ عدد القواعد الأمريكية فى اليابان ثلاثا وسبعين قاعدة وفقا لتقرير البنتاجون المسمى " تقرير حالة القواعد " الصادر فى سبتمبر ٢٠٠١ (ولكن هناك تحليل مدقق ومدعم بالوثائق أجراه ناشطون يابانيون مناهضون للقواعد يذكر أن الرقم هو إحدى وتسعون قاعدة)^(٢٢).

وتؤوى هذه القواعد ٤٠٢١٧ من الموظفين الذين لا يرتدون الزي العسكرى بالإضافة إلى ٦٤٢١ موظفا مدنيا من وزارة الدفاع و٤٢٦٥٣ من عائلات الموظفين. كذلك تستخدم ٢٩٢٠٥ يابانيا ومن أهل أوكيناوا لجز العشب فى القواعد وتقديم الخدمة على الموائد فى نوادى الضباط. وفى مواقع خدمة المركبات، وإصلاح السباكة، وترجمة المجلات والكتب اليابانية. بالإضافة إلى التجسس على الاتصالات لصالح وكالات الاستخبارات الأمريكية. وتدفع الحكومة اليابانية لنا نحو أربعة بلايين دولار سنويا للمساعدة فى أعباء تكاليف هذه الخدمات مما يجعل اليابان الدولة الوحيدة التى تدفع أموالا لدولة أخرى لكى تقوم بالتجسس ضدها. ولا توجد أى مهام عسكرية للجنود فى هذه القواعد. وقد تم الإبقاء عليهم كاحتياطيين لكى يتم نشرهم فى مكان آخر فى آسيا: فى أفغانستان والخليج الفارسى وتيمور الشرقية. وأماكن أخرى، عندما تدعو الحاجة إلى

الاستعانة بهم. وليست الحكومة الأميركية ملزمة بالتشاور مع الحكومة اليابانية بشأن استخدامهم.

وعندما بدأت الحرب الكورية فى عام ١٩٥٠ كانت اليابان ماتزال تحت الاحتلال العسكرى الأمريكى واستخدامها كمنطقة حشد رئيسية وملجأ متميز لقواتنا. وتكرر هذا النمط أثناء حرب فيتنام عندما كانت أو كيناوا ماتزال مستعمرة أمريكية يمكن استخدامها قاعدة للقاذفات ومركزا للإمداد رغم وجود معارضة قوية. ولكن يبدو من غير المحتمل اليوم أن تستطيع الولايات المتحدة استخدام أى من قواعدها مباشرة فى أى حرب لا تتورط فيها اليابان خاصة إذا دخلت إدارة بوش الحرب ضد كوريا الشمالية بسبب برنامجها النووى أو ضد الصين بسبب تايوان ودون أن تثير مقاومة عنيفة.

أما شبكة القواعد الأمريكية الكثيفة فى كوريا الجنوبية والتي أقيمت فى سنوات الحرب الكورية، والتي تناولناها بالتفصيل فى الفصل الثالث، فهى مزيج من شيئين هما ألمانيا فى زمن الحرب الباردة واليابان فى الوقت الحاضر، نظرا لأن تلك الشبكة تقع فى دولة مستقلة لا فى أرض محصورة ومستعمرة مثل أو كيناوا، ولكنها تواجه كراهية أكثر من تلك التى تواجهها فى ألمانيا. ورغم الفتور العسكرى المصطنع والمستدام مع كوريا الشمالية، لا يوجد لأعداد الجنود الكبيرة المنتشرة فى قواعد فى جميع أنحاء كوريا الجنوبية ما يفعلونه منذ هدنة عام ١٩٥٣. وهم يقضون نهارهم غالبا وهم غافون فى دباباتهم، وأمسياتهم فى أحضان العاهرات. وفى الفترة ما بين ١٩٦١ و ١٩٩٣ دعمت الولايات المتحدة أو نصبت سلسلة من الديكتاتوريين العسكريين فى كوريا الجنوبية. وحتى فى الوقت الحاضر أدى وجود ممثلى القوات المسلحة، وقادة وضباط أركان من الجيش الإنجليزى، إلى وضع مزيد من الصعوبات فى وجه جهود كوريا الجنوبية للتوصل إلى مصالحة سلمية مع كوريا الشمالية. وتعتبر كوريا الجنوبية الدولة الوحيدة التى أرسلت إليها الولايات المتحدة مرتين سفيرين كانا من كبار المسؤولين السابقين. وذلك فى ذروة الحرب الباردة.

بعد السقوط فى فييتنام

زادت هزيمة أميركا فى فييتنام ميلنا إلى بناء القواعد فى دول يحكمها ديكتاتوريون عسكريون أو فاشيون أو يمينيون وتقديم الدعم لهم، وأحيانا بعدما تكون القوات المسلحة أو وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية قد نصبتهم. والواقع أنه لم توجد أية حالة فى آسيا أو أوروبا أو أميركا اللاتينية أبدينا فيها أى اهتمام بما إذا كانت الحكومة ديموقراطية أم لا، عند اتخاذنا قرارا ببناء قواعد فى بلادها. ومن الأمثلة التى تدل على استمرار التمسك بهذه القاعدة القواعد الجديدة التى أقمناها فى قيرجيزستان وأوزبكستان رغم أن لدى الدولتين سجلا بشعا ضد حقوق الإنسان. وتعمل القوات المسلحة بالطبع بأن عليها أن تتعامل مع النظم الحاكمة بالحالة التى تجدها عليها، وبأن وجود قاعدة لا يشكل بالضرورة تأييدها. وفى واقع الأمر نجد فى آسيا أن الولايات المتحدة وحدها كانت المسؤولة مباشرة عن المساعدة فى جلب حكومات عسكرية قمعية متوحشة إلى السلطة والإبقاء عليها فى إندونيسيا، وفييتنام الجنوبية، وكوريا الجنوبية، وتايوان، وكمبوديا والفلبين. وكان لدينا فى وقت آخر قواعد عسكرية واسعة المدى فى كل منها ما عدا كمبوديا وإندونيسيا.

وفى عام ١٩٧٥ عندما أحرزت القوات الفيتنامية الشمالية نصرا نهائيا على نظام فييتنام الجنوبية رغم الدعم الأمريكى السخى، تشجعت دول أخرى على التعامل مع المجموعات المؤتلفة المهلكة من اليمينيين من أهل البلاد المدعومين من أميركا والقواعد العسكرية على تراب بلادهم. ووضعت وفاة فرانثيسكو فرانكو فى إسبانيا فى ٢٠ نوفمبر ١٩٧٥ نهاية لآخر الديكتاتوريين الفاشستيين الذين سيطروا على أوروبا خلال ثلاثينيات القرن العشرين. وقد كان فرانكو رجل الجناح اليميني الظافر فى الحرب الأهلية الإسبانية أواخر تلك الثلاثينيات، وحليف النازيين، والقائد العسكرى السياسى لإسبانيا (ومازالت هذه العبارة منقوشة فوق قبره فى فال دى لوس كيدوس قرب مدريد). وقد أحبه الولايات المتحدة لأنه كان معاديا للشيوعية بالطبع.

وقد سمح لنا فرانكو باستئجار غير محدود المدة لقاعدة توريخون الجوية قرب مدريد، وقاعدة سرقسطة الجوية وبها مدرج طوله ١٢ ألف قدم لهبوط القاذفات بى - ٥٢. وقاعدة مورون الجوية بالقرب من إشبيلية، وقاعدة روتا الجوية لسلاح البحرية

الأميركية شديدة القرب من مضيق جبل طارق. وقامت الحكومة الديموقراطية التي خلفته على الفور بإعادة التفاوض حول جميع هذه الاتفاقات. وأسفرت المناقشات فى النهاية عن احتفاظنا ببعض القواعد وليس جميعها لأن إسبانيا كانت تسعى فى المقام الأول إلى الاندماج المتأخر فى أوروبا بما فى ذلك عضوية حلف شمال الأطلسى. وهذا الأمر مهدد بالفشل إذا قامت الحكومة الإسبانية بطرد الأمريكيين من الصفقة كلها. ولكن منذ وفاة فرانكو ظلت القواعد الإسبانية رهينة الطاقة الكامنة فى مدريد المناهضة للوجود الأمريكى بسبب الدعم بعيد المدى الذى منحناه للديكتاتور ذات مرة. وما زالت مورون وروتا القاعدتين الوحيدتين المفتوحتين فى أوائل القرن العشرين.

وبالنسبة لحالة إسبانيا قد يبدو معقولا إلى حد ما التعلل بأنه كان على أميركا أن تتعامل مع الزعيم الذى وجدته هناك حتى ولو تصادف أنه فاشستى. ولكن القصة كانت مختلفة فى اليونان. لقد ساعدنا على تمكين العسكريين من السلطة هناك ولا تزال تركة جريمتنا تسمم المواقف اليونانية من الولايات المتحدة. وقد لا يوجد رأى عام ديموقراطى فى أى مكان على الأرض يُكنّ مشاعر عدااء عميقة للأميركيين مثل اليونانيين،^(٢٢) وتعود جذور هذه المواقف إلى مولد الحرب الباردة نفسها. والحرب الأهلية اليونانية بين ١٩٤٦ و ١٩٤٩، وقرار الولايات المتحدة الذى تضمنه مبدأ ترومان بالتدخل لصالح الجانب الفاشستى الجديد لأن الشيوعيين كانوا يسيطرون على القوات المشايعة اليونانية. وفى عام ١٩٤٩ فاز الفاشستيون الجدد وألغوا حكومة جناح يمينى تحت حماية البوليس السياسى اليونانى. وكان أعضاؤها من الضباط الذين تدربوا فى الولايات المتحدة عن طريق مكتب الخدمات الاستراتيجية أثناء الحرب ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية التى خلفته.

وخلال خمسينيات القرن العشرين كان يحلو لجورج باباندريو - رئيس الوزراء فى المستقبل - القول إن اليونان هى دمية أميركية وإن مسؤوليها " يمارسون سيطرة ديكتاتورية تتطلب توقيع رئيس البعثة الاقتصادية الأميركية لكى تظهر إلى جانب توقيع وزير التنسيق اليونانى على أية وثيقة مهمة "^(٢٤). وفى ظل هذه الظروف لم تواجهنا أى صعوبات فى بناء قواعدنا البحرية ومطاراتنا فى خليج سودا وإراكليون على جزيرة كريت. وقاعدة هيلينكون بالقرب من أثينا، ومحطة اتصالات نيا ماكرى على خليج ماراثون شمال شرق أثينا.

وفى فبراير ١٩٦٤ انتخب جورج بابانديرو رئيسا للوزراء محرزا أغلبية هائلة. وقد حاول المحافظة على علاقات ودية مع الأميركيين، ولكن البيت الأبيض فى عهد الرئيس ليندون جونسون كان يمارس ضغوطا عليه لكى يضحى بمصالح اليونان فى جزيرة قبرص المتنازع عليها لصالح تركيا التى كانت الولايات المتحدة تقيم فيها أيضا قواعد عسكرية. وكانت كل من اليونان وتركيا عضوين فى حلف شمال الأطلسى منذ عام ١٩٥٢. ولكن بحلول منتصف ستينيات القرن العشرين تبين أن الولايات المتحدة أكثر اهتماما بالسعى إلى صداقة تركيا. وعندما أبلغ السفير اليونانى الرئيس جونسون بأن البرلمان اليونانى يرفض الحل الذى اقترحه للنزاع بشأن قبرص رد عليه بكلمة بذيئة اشتهر بها الأميركيون تسمى إلى البرلمان والدستور اليونانى، وأضاف قائلا: "نحن ندفع لليونانيين مبلغا كبيرا من الدولارات الأميركية وإذا رد على رئيس وزراءكم بثرثرة عن الديمقراطية والبرلمان والدستور، فلن يبقى هو ولا برلمان ولا دستوره وقتا طويلا"^(٢٥) وقد حدث ذلك بالفعل.

على الفور بدأت السى آى إيه. بإشراف جون موراى رئيس محطاتها فى أثينا، فى التآمر مع ضباط عسكريين يونانيين كانت قد دربتهم وزرعتهم فى البلاد على مدى عشرين عاما. وبدأت إدارة الاستخبارات اليونانية فى محاولة خلق حالة من الشعور بوجود أزمة وذلك بتنفيذ برنامج واسع النطاق من الهجمات والتفجيرات الإرهابية وإلقاء اللوم على اليسار. ويصور كونستانتين كوستا جافراس فى فيلمه المسمى " Z " عام ١٩٦٩، تلك الأيام بدقة كبيرة. وبدأ العسكريون يتحركون يوم ٢١ أبريل ١٩٦٧ قبيل بدء حملة انتخابية قد تعيد بابانديرو إلى رئاسة الحكومة. وقام مجلس عسكري من خمسة أشخاص بإقامة واحد من أكثر النظم الاستبدادية التى رعاها أى جانب خلال الحرب الباردة. وكان أربعة من هؤلاء الخمسة على علاقة وثيقة مع وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية أو القوات المسلحة الأميركية فى اليونان. وقد زعم أعضاء هذه الزمرة أنهم يجمعون البلاد من وقوع انقلاب شيوعى.

وقد عرف الخمسة باسم " الكولونيلات اليونانيون ". وفتحوا البلاد لمواقع إطلاق الصواريخ الأميركية وقواعد التجسس وتبرعوا بمبلغ ٥٤٩ ألف دولار لحملة نيكسون-أجنيو الانتخابية عام ١٩٦٨^(٢٦). وقد ارتاب مجلس الشيوخ الأمريكى فى أن يكون هذا المبلغ من أموال السى آى إيه، و أنها أعيدت إلى أميركا من اليونان للتأثير على

السياسة الأميركية الداخلية، غير أن هنرى كيسنجر مستشار نيكسون للأمن القومى سارع إلى طلب إلغاء أى تحقيق يقوم به الكونجرس حول هذه المسألة. ومنذ عام ١٩٩٥ كان لدى وزارة الخارجية كتاب جاهز للنشر يحتوى على وثائق تتعلق بالعلاقات الأميركية - اليونانية فى الفترة من ١٩٦٤ إلى ١٩٦٨ ضمن سلسلتها التاريخية المكلفة بها رسميا تحت عنوان: علاقات الولايات المتحدة الخارجية، ولكن وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية منعت توزيعها^(٢٧).

وكان زعيم زمرة العسكريين الكولونيل جورج بابادوبولوس الفاشستى المجاهر بإعجابه بأدولف هتلر. وقد تلقى تدريبه فى الولايات المتحدة أثناء الحرب العالمية الثانية واسمه مسجل فى قائمة رواتب عملاء السى آى إيه على مدى خمسة عشر عاما السابقة على الانقلاب. وعرف نظامه بالوحشية. وخلال الشهر الأول الذى قضاه الكولونيل فى السلطة تم اعتقال وتعذيب ثمانية آلاف من المهنيين والطلاب وآخرين من الذين كرههم النظام. وكثيرون نفذ فيهم حكم الإعدام. وفى عام ١٩٦٩ هددت المفوضية الأوروبية لحقوق الإنسان، التى تضم ١٨ دولة فى عضويتها، بطرد اليونان (انسحبت اليونان قبل أن تتخذ المفوضية إجراءاتها ، ولكن حتى هذا لم يؤثر بشئ على السياسات الأميركية).

وفى ١٥ يوليو ١٩٧٤ بعد سبع سنوات من فساد الحكم، حاول أعضاء المجلس العسكرى اليونانى، بالتواطؤ مع زملائهم العسكريين فى جزيرة قبرص، القيام بانقلاب ضد الرئيس القبرصى مكاريوس الذى كان فى نفس الوقت كبير أساقفة الكنيسة الأورثوذكسية اليونانية والرجل الذى شجع على التعايش السلمى بين الطائفتين اليونانية والتركية فى الجزيرة. وفى يوم ٢٠ يوليو ردت تركيا بغزو الجزيرة وتقسيمها إلى جزأين: جزء تحت السيطرة التركية فى الشمال وآخر تهيمن عليه اليونان فى الجنوب. وكانت تركيا الدولة الوحيدة التى اعترفت بالجمهورية التركية فى شمال قبرص. وفى أثينا انهارت الزمرة الحاكمة لسبب يعود إلى حد كبير إلى أن الهجوم التركى كان هزيمة مخجلة لليونان^(٢٨). وقد حلت محلها حكومة مدنية برئاسة سياسى محافظ هو كونستانتين كارامانليس قامت بسحب الجنود اليونانيين من الجناح العسكرى لحلف شمال الأطلسى، ولكنها استمرت فى التعاون دبلوماسيا مع الولايات المتحدة حتى انتخابات عام ١٩٨١.

وكان أندرياس بابانديرو ابن جورج بابانديرو يعيش فى المنفى فى السويد وكندا أثناء حكم الكولونيل. وبعد سقوط المجلس العسكرى عاد فى أغسطس ١٩٧٤ إلى أثينا وشكل حزبا سياسيا جديدا هو الحركة الاشتراكية لكل اليونان (باسوك) التى عكست أحداث العقد السابق مثل الانتصار الشيوعى فى فييتنام. وكان برنامج الحزب السياسى مناهضا للأميركيين بوضوح: طرد القواعد خارج اليونان، وإخراج اليونان من حلف شمال الأطلسى. وفى عام ١٩٨١ حقق حزب باسوك انتصارا ساحقا فى الانتخابات وتولى أندرياس بابانديرو رئاسة الحكومة. وكرر الحزب هذا النجاح فى انتخابات يونيو ١٩٨٥. ولم يف بابانديرو إطلاقا بجميع وعده، ولكنه فعل عندما وصلت المسألة إلى القواعد. ولم يبق فى اليونان إلا مفرزتان صغيرتان من السلاح البحرى الأمريكى. وكلتا المفززتين تعملان فى القواعد العسكرية اليونانية.

قواعد الفلبين

الحرب الإسبانية - الأمريكية هى التى أدت إلى إقامة القواعد فى الفلبين، ونتائج حرب فييتنام هى التى بدأت العملية التى أنهت القواعد فى عام ١٩٩٢. وسجل أميركا طوال ما يقرب من قرن فى الفلبين هو سجل الاستعمار والاستعمار الجديد، ورعاية ديكتاتور مكرم، والذى أدى فى النهاية إلى اندلاع ثورة ناجحة مناهضة لأميركا. وتشبه حالة الفلبين ما حدث فى اليونان باستثناء أن القواعد كانت موجودة منذ وقت طويل جدا، وأنا اعتبرنا أن الفلبينيين مسألة مفروغ منها على عكس اليونانيين. وفى عام ١٩٤٦ وفى نفس الوقت الذى منحت فيه حكومتنا الفلبين "استقلالها"، اتخذت إجراءات لضمان بقاء جزر الفلبين تحت سيطرتنا إلى أجل غير مسمى. وقد تعرضت الفلبين لدمار خطير فى الحرب العالمية الثانية وأصبحت فى حاجة شديدة إلى المساعدة الاقتصادية. ولم يكن أمام الحكومة الفلبينية الجديدة من خيار إلا أن تقبل بالقيود التى ارتبطت بمنحة الاستقلال. وأثبت النظام النيوكولونىالى أنه أكثر سوءا من الكولونىالية نفسها إذ إنه أصاب بالشلل قدرة الفلبين على التطور الديموقراطى طوال أربعين عاما إلى أن أدت ثورة فبراير ١٩٨٦ إلى إسقاط فرديناند ماركوس وإغلاق جميع القواعد العسكرية الأمريكية.

كانت هناك ثلاث مبادرات أميركية فى عامى ١٩٤٦ و ١٩٤٧ حولت استقلال الفلبين بالفعل إلى شئ لا معنى له. وهذه المبادرات هى: قانون بل عام ١٩٤٦، واتفاقية القواعد العسكرية فى ١٤ مارس ١٩٤٧، وميثاق المعونة العسكرية فى ٢١ مارس ١٩٤٧. وقد أجبر قانون بل الفلبينيين على تعديل دستورهم لعام ١٩٣٥ الذى اشترط أن تكون نسبة ٦٠٪ من جميع المؤسسات فى الفلبين مملوكة للفلبينيين. وطالب القانون " بالتكافؤ " بمعنى أن يكون للأميركيين نفس حقوق وامتيازات الفلبينيين فى امتلاك واستغلال الشركات الفلبينية. وأرسى القانون مبدأ " التجارة الحرة " بين البلدين لمدة عشر سنوات وبذلك ألغى أى قدرة للفلبينيين على السيطرة على الواردات الأميركية. وكذلك سمح للأميركيين بامتلاك وتشغيل المرافق العامة فى البلاد. وكان تأثير ذلك ربط الفلبين " بالنمط التجارى الاستعمارى بتحويل الدولة المستعمرة إلى مجرد مورد للمنتجات الزراعية الخام والمعادن الخام للولايات المتحدة مقابل سلع أميركية مصنعة " على حد تعبير الصحفى ويليام بوميروى^(٢٩). ومنع قانون بل بشدة التصنيع فى جزر الفلبين رغم وفرة الفحم والحديد الخام والسبائك المعدنية والطاقة الهيدروكهربية وقوة العمل الضخمة. وإلى اليوم تعتبر جزر الفلبين أكثر شبها بجزيرة أوكيناوا منها بتايوان التى أصبحت أغنى دول شرق آسيا وأكبرها فى التصنيع. كما تعتبر تايوان مثالا لما كان يمكن أن تكون عليه أوكيناوا وجزر الفلبين لو كانت الولايات المتحدة لم تلعب الدور النيوكولونىالى.

وتعهدت الولايات المتحدة بدفع جميع التعويضات عن الدمار الذى لحق بالفلبين فى الحرب بشرط أن يوافق الفلبينيون على قانون بل. وقد عارضت الأغلبية فى الكونجرس الفلبينى بشدة التعديل الدستورى الذى يمنح التكافؤ، ولكن الأميركيين ومؤيديهم المحليين تأمروا خلف الكواليس لطرد ثمانية من النواب وثلاثة أعضاء فى مجلس الشيوخ بتهمة الاحتيال والإرهاب، وبطرح عددهم حصل التعديل الدستورى على أدنى عدد من الأصوات المطلوبة للموافقة عليه.

وبعد ثلاثة أيام من تعديل الدستور وقَّعت الحكومة الفلبينية على اتفاقية للقواعد العسكرية تمنح الولايات المتحدة عقود استئجار لمدة تسع وتسعين سنة لثلاثة وعشرين موقعا من بينها ستة عشر موقعا نشطا وسبعة مواقع احتياطية. ولما كانت قوانين الأراضي العامة الفلبينية تنص على ألا تزيد مدة عقود الإيجار الحكومية عن خمسة

وعشرين عاما، أثارت شروط اتفاقية القواعد حركة اعتراض شعبية فورية. وتلكأت الإدارات الأميركية المتتالية لمدة تسعة عشر عاما حتى عام ١٩٦٦ عندما أبرمت إدارة جونسون مقياضة بعقد اتفاقية استئجار جديدة لمدة خمسة وعشرين عاما مقابل استعداد مانيللا لإرسال مفرزة عسكرية إلى فييتنام. وكانت أهم منشأتين هما قاعدة كلارك الجوية وهى الثانية من حيث الحجم بعد قاعدة فاندنبرج فى كاليفورنيا. وقاعدة سوييك باى وهى القاعدة الأساسية للأسطول السابع للعمليات والإصلاحات فى غرب المحيط الهادئ. وتمدد مطار كلارك على مساحة عشرة آلاف إيكرو وهو أكبر من مساحة سنغافورة وأحاط بها سياج أمنى بطول اثنين وعشرين ميلا. وتسبب التصريح بنقل نفايات القاعدة فى بروز قريتين جديدتين أطلق عليهما اسمان لاثنتين من رؤساء الفلبين هما ماكاباجال وماركوس. وفى يوم ١٥ يونيو ١٩٩١ ثار بركان ماونت بناتوبو لأول مرة بعد ستمائة عام وهو على بعد عشرة أميال. مما أدى إلى تغطية المطار بالرماد البركاني وتحويله إلى خسارة شاملة. وبهذا أصبحت عقود استئجار منشآت الخليج العميق والحوض الجاف فى خليج سوييك نقاط الخلاف الرئيسية فى المفاوضات الأميركية - الفلبينية النهائية عام ١٩٩١ حول القواعد.

وبعد أسبوع من توقيع اتفاقية القواعد الأصلية عام ١٩٤٧ أبرمت الحكومة الفلبينية اتفاقا آخر هو ميثاق المعونة الأميركية الذى أنشأ مجموعة استشارية عسكرية أميركية مشتركة فى مانيللا. وتشكلت هذه المنظمة من ضباط عسكريين أميركيين وأصبحت مفوضة " بتقديم المساعدة والمشورة لجمهورية الفلبين فى المسائل العسكرية والبحرية - بما فى ذلك إمداد الجيش الفلبينى بالأسلحة والذخائر. وهكذا أعادت بحكم الضرورة نظام الحاكم العسكرى المطلق مثلما كان فى العصر الاستعمارى. وفى ٣٠ أغسطس ١٩٥١ وقَّعت الولايات المتحدة والفلبين معاهدة أقامت منظمة معاهدة جنوب شرق آسيا وأحالت كلتا المعاهدتين الإشراف الفعال على القوات المسلحة الفلبينية إلى الولايات المتحدة عبر المجموعة الاستشارية العسكرية الأميركية المشتركة التى انتقت بمساعدة السى آى إيه ضابطا سابقا فى الجيش وعضو الكونجرس عن الحزب الحاكم اسمه رامون ماجساياسى ليكون وزير الدفاع الوطنى المطيع. وأصبح ثالث رئيس لجمهورية الفلبين عام ١٩٥٢. وعندما أصبحت الولايات المتحدة آنذاك مسيطرة على الاقتصاد الفلبينى والقوات المسلحة الفلبينية، وأصبحت ممتلكاتنا العسكرية آمنة، استطعنا فرض ميزانيات عسكرية هائلة أنقلت كاهل الفلبين، وتوريط

قواتها المسلحة فى الحربين الكورية والفيتنامية. وأصبحت القواعد الفلبينية مناطق حشد خطيرة بالنسبة للحرب الأميركية فى فيتنام، وكذلك استخدمت الولايات المتحدة منشآتها فى لوزون فى تنفيذ مؤامرات وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية ضد إندونيسيا فى عامى ١٩٥٨ و ١٩٦٥.

وفى نوفمبر ١٩٦٥ انتخب فرديناند ماركوس. المحامى فى مانىلا رئيسا للجمهورية. وبدا فى البداية أنه زعيم ديناميكى كرس نفسه للصالح العام مع نيته فى دفع الاقتصاد الفلبينى الخاضع للتلاعب نحو نمو كبير. وفى نوفمبر ١٩٦٩ كسب فترة رئاسية ثانية لمدة أربع سنوات. وأصبح بذلك أول رئيس يعاد انتخابه فى تاريخ الفلبين الديمقراطى القصير. غير أن ماركوس كان مهتما فى المقام الأول بحشو جيوبه بالمال، ويشير جميع كُتَّاب سيرته إلى أنه سَجَّلَ فى كتاب جينس باعتباره أكبر لص فى أى زمن. وفى أواخر ستينيات القرن العشرين بدأت نوعية الحياة فى الفلبين تتدهور بشكل خطير. وتفجرت فى جميع أنحاء الجزر الرئيسية حركات تمرد لجأت إلى حرب العصابات بتأثير مقاتلى التحرير الفيتناميين والدعاية الصينية عن " الحرب الشعبية ". وكانت بعض هذه الحركات بقيادة جيش الشعب الجديد الذراع العسكرى للحزب الشيوعى الفلبينى. وفى جزيرة مينداناو الجنوبية انتظم الانفصاليون المسلمون تحت راية الجبهة الوطنية لتحرير مورو. وفى أغسطس ١٩٦٩ شن ماركوس حملات عسكرية كبرى ضد كل من جيش الشعب الجديد ومقاتلى مورو.

وبحلول عام ١٩٧٢ ازداد الموقف سوءا حتى أن ماركوس اصطنع محاولة اغتيال مزيفة ضد خوان بونس أونريلى وزير دفاعه، حتى يجد مبررا لإعلان الأحكام العرفية. وبذلك ألقى القبض على - واعتقل - السياسيين المعارضين له (بمن فيهم خليفته السيناتور بنينو أكينو المعروف باسم "تينوى"). واعتقل الصحفيين والطلاب وزعماء العمال، وأغلق صحفا وحرّم المظاهرات والإضرابات وحركات المقاطعة. وبحكم استيلائه على سلطات ديكتاتورية قام ماركوس بتعطيل الدستور الذى يسمح لرؤساء الجمهورية بالبقاء فى الحكم لفترةين فقط، وتقدم فى عام ١٩٧٢ بدستور جديد يسمح له بالبقاء فى الحكم لمدة غير محدودة وبأن يحكم البلاد بإصدار المراسيم، وعين زوجته إيميلدا فى منصب محافظ مانىلا ووزيرة " للمستوطنات البشرية والبيئة ".

ولم يحدث هذا فى فراغ. وقد أقرت ألفا بووين الضابطة بالسلاح البحرى الأمريكى والباحثة فى إدارة مراجع الكونجرس بأنه بحلول عام ١٩٧٥ كانت الولايات المتحدة قد طُردت من فييتنام وأخذت جميع دول جنوب شرق آسيا تعيد النظر فى ترتيباتها الأمنية. وكانت الفلبين واحدة من أوائل الدول التى طلبت مراجعة معاهداتها الأمنية. وفى عام ١٩٧٥، بعد خروج أميركا من سايجون بشهور قليلة، قام الرئيس جيرالد فورد بزيارة الفلبين وتوصل إلى اتفاقية مع الرئيس فرديناند ماركوس تقضى بمراجعة اتفاق عام ١٩٤٧ الخاص باستخدام الولايات المتحدة للقواعد العسكرية الفلبينية مع الاعتراف الكامل بسيادة الفلبين هذه المرة^(٣٠).

وكانت اتفاقية فورد - ماركوس تمثل تحسنا طفيفا، ولكن ظلت المشاكل القديمة تعتمل. وقد أشعلت الظروف المحيطة بمطار كلارك وقاعدة سويك باى لهيب الشعور الوطنى الفلبينى. وكانت القواعد قد أنعشت تجارة المخدرات الهائلة وصناعة الدعارة التى استغلت الآلاف من النساء الفلبينيات الفقيرات. وأصبحت مدينة أنجيليس مقر مطار كلارك فى الثمانينيات أكثر المدن ابتلاء بالمخدرات فى الفلبين. وفى نفس الوقت قام ماركوس - فى ظل الأحكام العرفية- بتوسيع وتسييس مؤسسته العسكرية وتعيين أصدقائه المخلصين له شخصا، ومنح الجيش سلطات غير محدودة لاعتقال المدنيين. وأصبحت حالات "الاختفاء" واغتيال أى شخص يبدى اهتماما بالسياسة من الأمور الشائعة. كذلك أمم ماركوس الكثير من المشروعات الصناعية والتجارية وأعطاهم لأقاربه. وعمدوا إلى ضخ الأرباح لإثراء أنفسهم بينما أغمضت الولايات المتحدة أعينها.

وفى عام ١٩٨٣ عاد بنينو أكينو السياسى المعارض إلى الفلبين بعد ثلاث سنوات فى المنفى ليحشد المعارضة ضد نظام ماركوس، وبعد دقائق من هبوط طائرته فى مطار مانايلا يوم ٢١ أغسطس قُتلَ رميا بالرصاص، كما قُتلَ قاتله بدوره بنفس الطريقة وفى نفس المكان. وزعم ماركوس أن الشيوعيين هم المسؤولون عن اغتياله، ولكن لجنة تقصى الحقائق التى تلت ذلك اكتشفت أن الاغتيال كان من تدبير مؤامرة عسكرية. ورفض ماركوس تلك النتيجة وأطلق سراح المشتركين فى المؤامرة. وأصبحت كورازون كويوانجكو أكينو، أرملة أكينو زعيمة للمعارضة بينما اشترك مئات الآلاف من الناس فى تشييع جنازة زوجها فى مانايلا. وكانت تلك أكبر مظاهرة فى تاريخ الفلبين وبداية لحركة يمكن تسميتها "قوة الشعب". ولم تكن قوة الشعب الفلبينى أبدا بنفس العداء الواضح

للأميريكين فى النسخة الإيرانية ضد الشاه أو فى حملة بابانديرو ضد المجلس العسكرى اليونانى، غير أن من المؤكد أن وجود قواعدنا ودعمنا الصارخ لماركوس ساعدا على تعبئة الشعب.

و فى أواخر عام ١٩٨٥ أعلن ماركوس إجراء انتخابات رئاسية فى شهر فبراير ١٩٨٦ فى محاولة منه لاكتساب شرعية أكبر ولضمان استمرار الدعم الأمريكى. وأعلنت كورازون أكيانو ترشحها للانتخابات. وبعد انتهاء عملية الاقتراع اتهمت الكنيسة الكاثوليكية، ممثلة فى شخص الكاردينال خايم سين، ماركوس بتزوير أصوات الناخبين وإرهابهم على نطاق واسع وطعن فى ادعائه الفوز فى الانتخابات. وشعرت إدارة ريجان بالحزن بسبب الصعوبات التى يواجهها صديقها وأخذت تتأرجح بالنسبة لاعترافها بشرعية انتخاب كورازون أكيانو. وفى نفس الوقت، وفى مواجهة المظاهرات المتواصلة فى الشوارع ضد ماركوس، تخلت عنه القوات المسلحة الفلبينية إما بتأييد قوات أكيانو أو برفض الأوامر بإطلاق الرصاص على المجتمعين العزل من السلاح^(٢١).

وفى يوم ٢٥ فبراير ١٩٨٦ وبعد نحو عشرين سنة فى الحكم، هرب فرديناند وإميلدا ماركوس من قصر مالاكانج وتوجها إلى قاعدة كلارك الجوية ومنها إلى المنفى فى الولايات المتحدة. وعندما وصل ماركوس إلى هاواى ذكرت الأنباء أنه كان يحمل معه حقائق تحتوى على مجوهرات وسبائك من الذهب وشهادات بما قيمته بلايين الدولارات من السبائك الذهبية. وقدرت حكومة أكيانو التى خلفت حكومة ماركوس أنه خبأ مبلغ ثلاثة بلايين دولار على الأقل فى حسابات بنكية سويسرية، غير أن بعض المحللين تحدثوا عن رقم يبلغ ٢٥ بليون دولار. ولم يحدث أن استعيدت هذه الأموال على الإطلاق. وتوفى ماركوس فى هونولولو يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٨٩.

وفى ٢ فبراير ١٩٨٧ صدق الشعب الفلبينى بأغلبية ساحقة على دستور وطنى جديد حملت مادته الثانية العنوان التالى: " إعلان مبادئ سياسات الدولة "، وبدأت عملية قادت إلى إلغاء اتفاقية القواعد مع الولايات المتحدة. ونص الباب الثانى والثالث على مايلى: " تبذ الفلبين الحرب كأداة للسياسة الوطنية، وتتبني مبادئ القانون الدولى التى تلقى قبولا عاما كجزء من قانون البلاد وتتمسك بسياسة السلام والمساواة والعدالة والحرية والتعاون والمحبة مع جميع الشعوب. وتعلو السلطة المدنية فوق القوات

المسلحة فى جميع الأوقات. إن قوات الفلبين المسلحة هى حامية الشعب والدولة. وهدفها هو ضمان سيادة الدولة وسلامة أراضيها ". وكان جميع الفلبينيين يعتقدون أن الولايات المتحدة احتفظت بأسلحة نووية جاهزة للاستعمال فى قاعدة سوبيك ومطار كلارك. وكان الباب الثانى من سياسات الدولة بمثابة قرع الناقوس إيدانا بوفاة القواعد، إذ ينص على ما يلى: " الفلبين، بالتطابق مع المصلحة الوطنية، تتبنى وتتبع سياسة التحرر من الأسلحة النووية فى أراضيها ". وفى يوم ٦ يونيو ١٩٨٨ وافق مجلس الشيوخ الفلبينى على قانون التحرر من الأسلحة النووية تنفيذا للتفويض الدستورى. وذلك بأغلبية ١٩ صوتا مقابل رفض ثلاثة أصوات وامتناع صوت واحد. وبذلك أصبح لدى حكومة الفلبين موقف جاد تتطلى منه عندما تنتهى مدة عقود إيجار القواعد فى عام ١٩٩١.

ومع الفهم الخاطئ تماما للمناخ السياسى بعد حكم ماركوس تعجّل المفاوضون الأمريكيون بطريقة سيئة فى محاولتهم تمديد عقود استئجار القواعد. ويقول رولاند سيمبولان من جامعة الفلبين ومستشار مجلس الشيوخ الفلبينى إن الولايات المتحدة " حاولت بعنف أن تفرض رأيها " أما ألفريدو بنجزون وزير الصحة السابق، الذى كان نائب رئيس مجموعة المفاوضين الفلبينيين، فقد أكد فيما بعد فى مقال له أن عقلية المفاوضين الأمريكيين الجاهلة والمتغطرسة كانت بقيادة ريتشارد أرميتاج أثناء المفاوضات. وقد حاولوا فرض اتفاقية تمديد للعقود بعيد المدى^(٢٢). وكان أرميتاج مسؤولا سابقا فى وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية وأصبح الممثل الخاص للرئيس جورج بوش الأب فى شؤون اتفاقية القواعد العسكرية الفلبينية (وقد أصبح فيما بعد نائب وزير الدفاع فى إدارة بوش الابن).

وكان الأمريكيون يعتقدون أن الفلبينيين فقراء جدا بحيث لا يستطيعون طردهم. وأن أعضاء مجلس الشيوخ المحافظين سوف يدعمونهم. ومهما كان الأمر، وبعد أن دمر بركان ماونت بيناتوبو قاعدة كلارك الجوية. خفضت الولايات المتحدة عرضها للمعونة المقدمة للفلبين من نحو ٧٠٠ مليون دولار إلى ٢٠٢ ملايين دولار، وفى ١٦ سبتمبر ١٩٩١ رفض مجلس الشيوخ الفلبينى التجديد المقترح لاتفاقية القواعد لعام ١٩٤٧ بأغلبية ١٢ مقابل ١١ صوتا^(٢٣). وذلك بعد أن غضب المجلس من بخل أميركا ورفضها القيام بإزالة التلوث فى مطار كلارك. ورغم أن ذلك الحدث لقى اهتماما ضئيلا فى الولايات المتحدة فقد تم سحب جميع القوات المسلحة الأمريكية فى ٢٤ نوفمبر ١٩٩٢.

وقامت الولايات المتحدة منذ طردها بحيل متعددة لإعادة قواتها إلى الفلبين، وكانت تعرض دائما مبالغ من العملة الصعبة التي تحتاجها البلاد أشد الاحتياج على سبيل الإغراء وفى أوائل عام ٢٠٠٢ أرسلنا نحو ألف من القوات الخاصة وجنوداً للدعم لمساعدة الفلبينيين فى القتال ضد " عصابة أبى سياف الإرهابية المسلمة " فى جزيرة باسيلان الجنوبية مع سجل من عمليات الاختطاف والابتزاز لا الإرهاب السياسى^(٢٤). وكان هدف الولايات المتحدة فى الفلبين هو عقد " اتفاقية للدعم اللوجيستى المتبادل " تسمح بدخول قواتها إلى القواعد الفلبينية للتزود بالوقود والحصول على المؤونة وإصلاح السفن دون دراسة كل حالة على حدة. وفى ٣ أغسطس ٢٠٠٢ فى مانيلا، قال كولين باول وزير الخارجية آنذاك إن "الولايات المتحدة غير مهتمة بالعودة إلى الفلبين بقواعد أو بوجود دائم ". ولكن من المستبعد أن يوجد شخص واحد فى شرق آسيا يصدق^(٢٥)ه. وفى ٢٠ فبراير ٢٠٠٣ أعلنت وزارة الدفاع الأمريكية أنها تقوم بإرسال قوة عسكرية جديدة من نحو ألفى جندي إلى الفلبين فى عملية ضد " الإرهابيين ليس لها موعد نهائى ثابت ".^(٢٦)

من الحرب إلى النزعة الإمبراطورية

بينما تنمو الإمبراطورية الأمريكية ندخل فى حرب متكررة بشكل ملحوظ أكثر مما فعلنا من قبل وأثناء الحرب الباردة. وتشجع الحروب بدورها على تنامى القوات المسلحة. كما أنها تعتبر وسيلة دعاية عظيمة للقوة ولفاعلية أسلحتنا وللشركات التي تصنعها والتي تستطيع بذلك بيعها للآخرين بسهولة. ويمثل حجم مبيعات الولايات المتحدة من الأسلحة ٤٤٪ من السوق العالمية، وهذه النسبة هي أكثر من ضعف نصيب أميركا فى السوق فى عام ١٩٩٠ عندما كان الاتحاد السوفييتى أكبر مُصدِّر للأسلحة^(٢٧). ولما كان المجمع العسكرى - الصناعى يزداد بدانة على الدوام مع مزيد من القدرات، وجب أن تتم " تغذيته " أكثر فأكثر دائما. ويتطلب بناء القواعد الجديدة مزيدا من قواعد جديدة أخرى لحماية تلك التى بنيت فعلا مما يؤدى إلى إطلاق دورات أكثر استحكاما من النزعات العسكرية والحروب ومبيعات الأسلحة، وتمدد القواعد.

وبعد انهيار الاتحاد السوفييتي بدأنا نشن بمعدل متصاعد حروباً كانت أهدافها الرسمية المعلنة تتسم أكثر فأكثر بالخداع وعدم الإقناع. وكنا أيضاً مستعدين دائماً وأكثر من مرة لشن حرب خارج إطار القانون الدولي في مواجهة معارضة شعبية في جميع أنحاء العالم. وتلك كانت حروب الأمر الواقع للإمبراطورية المحمية بمزاعم دعائية مثل التدخل الإنساني، وتحرير المرأة وخطر الأسلحة غير التقليدية، وأى كلمات طنانة شائعة يتصايف أن تجرى على ألسنة المتحدثين باسم البيت الأبيض والبنجابيون. وفي كل حرب تملّكنا قواعد عسكرية جديدة كبرى لا تتناسب، من حيث الموقع والحجم، مع المهام العسكرية المطلوبة والتي احتفظنا بها وعززناها بعد الحرب. وبعد هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ قمنا بشن حربين في أفغانستان والعراق، وتملّكنا أربع عشرة قاعدة جديدة في أوروبا الشرقية والعراق والخليج الفارسي وباكستان وأفغانستان وأوزبكستان وقيرجيزستان. وقيل إن هاتين الحربين كانتا رداً على الهجمات الإرهابية وأنهما تحدّان من تعرضنا للإرهاب في المستقبل. ولكن يبدو أن القواعد الجديدة وأهدافا أميركية أخرى هي الأكثر عرضة للضربات الإرهابية المستمرة والمتزايدة.

وتابعنا ممارساتنا المعتادة فأقمنا قواعدنا في دول ضعيفة توجد في معظمها حكومات قمعية وغير ديموقراطية. وبعد انتصارنا في حرب العراق الثانية بدأنا على الفور في إعادة النظر في حجم انتشارنا في ألمانيا وتركيا والمملكة العربية السعودية، حيث أصبحنا مكروهين بدرجة أكبر نتيجة للحرب. وبدلاً من ذلك نقلنا قواتنا وحامياتنا إلى دول ذات نظام ملكي أو أوتوقراطي/ ديمقراطي أقل سكاناً ولا مطالب لها. في أماكن مثل قطر والبحرين وعمان والإمارات العربية المتحدة وأوزبكستان^(٢٨).

وبدأت تظهر صورة جديدة لإمبراطوريتنا. فقد احتفظنا بالرتاج القديم على أميركا اللاتينية والذي يبلغ عمره قروناً من الزمان. وعلى تعاوننا الوثيق مع حكومة الحزب الأوحده في اليابان رغم أننا مكروهون كراهية عميقة في أوكتيناوا وكوريا الجنوبية. حيث الموقف هناك متقلب بشكل متزايد. وأدى افتقارنا إلى الشرعية في الحرب مع العراق إلى الانتقاص من موقفنا فيما أسماها دونالد رامسفيلد وزير الدفاع "أوروبا العجوز" قاصداً الحط من قدرها، ولهذا فنحن نحاول التعويض بالحصول على حلفاء وبناء

القواعد فى البلاد الشيوعية السابقة الأكثر فقرا فى أوروبا الشرقية. وفى المناطق الغنية بالنفط فى جنوب أوراسيا نبنى مخافر أمامية فى كوسوفو والعراق وأفغانستان وباكستان وآسيا الوسطى فى محاولة لإخضاع المنطقة بأسرها للسيطرة السياسية الأميركية، ولكن إيران ماتزال إلى الآن رافضة لجهودنا. ونحن لم نفعل كل ذلك لمحاربة الإرهاب، أو تحرير العراق، أو إطلاق فحوى نظرية الدومينو من أجل ديمقراطية منطقة الشرق الأوسط. أو الأعذار الأخرى التى قدمها زعمائنا. لقد فعلنا كل ذلك - كما سأوضح - من أجل النفط، وإسرائيل، والسياسات الداخلية، وإنجاز قدرنا الذى نفهمه ذاتيا على أنه إمبراطورية روما الجديدة.

ويطرح الفصل التالى النزعة الأميركية على ساحة قتال القوة الكونية وهى منطقة الخليج الفارسى التى لنا فيها تاريخ طويل.

الفصل الثامن

الحربان العراقيتان

● " من وجهة نظر تسويقية أنت لا تقدم منتجا جديدا فى شهر أغسطس " هكذا قال أندرو كارد رئيس موظفى البيت الأبيض فى بداية انطلاق الحملة الدعائية للحرب مع العراق هذا الأسبوع.

نيويورك تايمز

٧ سبتمبر ٢٠٠٢

● " فى نهاية الأمر، هذا هو الرجل (صدام حسين) الذى حاول قتل داذى " .

الرئيس جورج دبليو بوش

فى هيوستون- ٢٦ سبتمبر ٢٠٠٢

يعتبر الخليج الفارسي امتدادا للمحيط الهندي طوله ٦٠٠ ميل، وهو يفصل شبه الجزيرة العربية في الغرب عن إيران في الشرق. ويقع العراق على رأس الخليج حيث تغلق الكويت جانبا كبيرا من طريقه إلى المجرى المائي. وتقع على طول شاطئ الخليج العربي. من الكويت حتى عُمان، ما كانت تسمى في القرن التاسع عشر باسم " الإمارات المتصالحة " وهي إقطاعيات عاشت آنذاك على القرصنة، وعقدت بريطانيا " هدنات " معها حولتها إلى محميات بريطانية. وكان البريطانيون مهتمين في المقام الأول بحماية طرق شاحناتهم البحرية المؤدية إلى إمبراطوريتها في الهند ومن ثم كانوا مستعدين لمقايسة الوعود التي تتلقاها من زعماء القبائل المحليين لوقف القرصنة بضمانات بريطانية بالدفاع عنهم ضد جيرانهم. وبهذه الطريقة أصبحت بريطانيا المشرفة على جميع العلاقات بين الإمارات المتصالحة وكذلك على جميع علاقاتها بالعالم خارج الخليج الفارسي.

وهكذا وقبل الحرب العالمية الثانية، كانت منطقة الخليج بؤرة الإمبريالية البريطانية. غير أن الأحداث في المملكة العربية السعودية وحدها اتخذت منحى مختلفا في شهر مايو ١٩٣٢ عندما حصلت شركة ستاندارد أويل كومباني أوف كاليفورنيا على الحق في التنقيب عن النفط في المناطق الشرقية من المملكة الفنية بالنفط. وفي مقابل ٢٥ ألف جنيه بريطاني حصلت الشركة على امتياز مدته ستون سنة من الملك ابن سعود (هكذا يكتب المؤلف اسم الملك عبد العزيز بن سعود - المترجم) وأصبحت تلك الشركة تعرف الآن باسم شيفرون. ولما كان النفوذ البريطاني في المنطقة فائقا، لم يكن الأميركيون ليستطيعوا الحصول على موطن قدم إلا بفضل واحد من أبرز الشخصيات التاريخية غير العادية. فقد كان هـ. سانت جورج فيلبس مستشارا للملك ابن سعود ومتخصصا في شؤون الجزيرة العربية. (هو أيضاً والد كيم فيلبس المسؤول في الاستخبارات البريطانية

الذى عمل سرا لصالح الاتحاد السوفييتى وأصبح أشهر الجواسيس فى فترة الحرب الباردة بعد أن هرب إليه). وكان فيلبى مستشار الملك منزعجا من الممارسات الإمبريالية لشركات النفط البريطانية فى إيران، ولذلك فقد حرص الملك ابن سعود على أن يربط مصيره بالأميركيين. وهكذا بدأت شركة ستاندارد أويل أوف كاليفورنيا فى استخراج النفط فى المملكة العربية السعودية فى عام ١٩٣٨. وبعد فترة قصيرة شكلت الشركة والملك شراكة بينهما بإنشاء كيان جديد أطلق عليه اسم شركة النفط العربية - الأميركية (أرامكو)، وأدخل معهما شركاء آخرون وهم شركات: تكساسكو. وستاندارد أويل أوف نيوجيرسى (إكسون)، وسوكونى فاكيوم (موبيل). ووصفت أرامكو بأنها " الكونسورتيوم الأكبر والأغنى فى تاريخ التجارة ". ومانزال رئاستها المشتركة فى الظهران بالمملكة العربية السعودية^(١).

ومنذ البداية بذلت أرامكو أقصى جهدها لكى تتجنب طابع العجرفة الذى لزم الإمبريالية البريطانية فى الشرق الأوسط. وقد تمتع موظفوها بإعفائهم من تطبيق القوانين السعودية الصارمة، واجتهدت الشركة فى تحقيق بعض المنافع لصالح المملكة قليلة السكان، بما فى ذلك شق الطرق وبناء محطات الكهرباء، وحفر آبار المياه التى تحتاج إليها بشدة. واستجابت الشركة بسرعة عندما طلب الحكام السعوديون مزيدا من المال أو التعاون فى مشروعات تعتبر من أولويات اهتماماتهم. وكانت الولايات المتحدة تبدى اهتماما فائقا ودائما بعلاقاتها بالمملكة العربية السعودية. وفى فبراير ١٩٤٣ قال الرئيس فرانكلين ديلاانو روزفلت، فى رسالة إلى إدوارد ستيتينيوس وكيل وزارة الخارجية، " إننى بذلك أجد أن الدفاع عن المملكة العربية السعودية أمر حيوى فى الدفاع عن الولايات المتحدة "^(٢). ومن الحرب العالمية الثانية فصاعدا تعاونت أرامكو كذلك بشكل غير رسمى مع مكتب الخدمات الاستراتيجية الذى أصبح فيما بعد وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية بذاتها. وكانت واشنطن تحاط علما دائما بوجهات نظر أرامكو بالنسبة لمنطقة الشرق الأوسط والعالم الكائن وراءها. ولما كان لدى وكالة المخابرات المركزية مجلس للتقويم القومى فقد كان يلتحق بعضويته دائما أحد كبار مديري أرامكو بعد اعتزاله.

ومنذ نحو ثلاثين سنة تقريبا بدأت السعودية تفك بعض روابطها، فقامت فى عام ١٩٧٢ بشراء ٢٠٪ من شركة أرامكو، وفى عام ١٩٨٠ امتلكت ١٠٠٪ من أسهمها، وفى

نفس الوقت فوضت شركاء أرامكو فى الاستمرار فى تشغيل وإدارة حقول النفط السعودية. وأخيراً فى عام ١٩٨٨ صدر مرسوم ملكى نُفِذَ بأسلوب ودى لنزع ملكية الشركة. وتولت المملكة العربية السعودية إدارة وتشغيل مصادرها من الغاز والنفط وأصبحت الشركة تسمى أرامكو السعودية.

وعلى أساس هذه العلاقة الطويلة المربحة إلى أقصى حد، بنت الولايات المتحدة أول دعائم سياستها فى الخليج الفارسي المتمثلة فى الروابط المتينة مع المملكة العربية السعودية. وقد ترى وجهة النظر العربية أن السياسة الأميركية فى المنطقة بلغت ذروتها فى عام ١٩٥٦ عندما وقفت الولايات المتحدة إلى جانب مصر ضد بريطانيا وفرنسا وإسرائيل التى شنت الحرب لمنع الرئيس جمال عبد الناصر من تأميم شركة قناة السويس. وكانت هذه الأزمة بداية تدهور بريطانيا فى شرق السويس، وأنالت الولايات المتحدة المديح فى جميع أنحاء منطقة الشرق الأوسط^(٢). وفى عام ١٩٦٨ قررت بريطانيا الانسحاب من جميع حامياتها شرق السويس. وكان الفصيل الحقيقى فى سياسة المنطقة خلال هذه السنوات هو شركات النفط متعددة الجنسيات التى مارست نفوذاً قوياً على كل من الحكومتين البريطانية والأميركية، قبل إنشاء منظمة الدول المصدرة للبترول فى عام ١٩٦٠ (منظمة أوبك).

وكان أبرز اهتماماتنا على الدوام هو ضمان ألا تتدخل قوة أخرى - صديقة أو غير صديقة - فى أمور تخص مصادر النفط السعودية. وفى أغسطس عام ١٩٤٥ كان سلاح المهندسين فى الجيش قد بدأ العمل فى بناء مطار الظهران المتاخم لمقر رئاسة شركة أرامكو. وقد استأجرت الولايات المتحدة هذا المطار من السعودية من عام ١٩٥٢ حتى ١٩٦٣ واستخدمته كقاعدة لسرب من القاذفات المحملة بأسلحة نووية والتابعة لقيادة الجو الاستراتيجية. وفى عام ١٩٦٣ شعر الملك فيصل بالقلق من حجم التواجد الأمريكى فى بلاده فأمر بمغادرة السلاح الجوى قاعدة الظهران التى أعيدت تسميتها على الفور باسم قاعدة الملك عبد العزيز الجوية. وخصصت لسلاح الجو السعودى. ومع ذلك سمح السعوديون للقوات المسلحة الأميركية باستخدامها على أساس دراسة كل حالة على حدة حتى نشبت حرب الخليج فأعيد تخصيصها لعمليات طرد العراق من الكويت. وقد أثبتت قاعدة الظهران أنها أهم مطارات القوات المتحالفة فى الحرب الخاطفة التى شُنَّتْ ضد العراق عام ١٩٩١ بقيادة الولايات المتحدة. وقد هبطت فى

هذا المطار ٦٧٥٥ طائرة من بين نحو ٧٢٤٨ طائرة وصلت إلى السعودية فى الفترة ما بين ٧ أغسطس ١٩٩٠ و ٢٦ مارس ١٩٩١^(٤).

وبين ١٩٥٣ و ١٩٧٩ كانت الدعامة الثانية فى سياسة أميركا فى الخليج الفارسى هى إيران ثانى أكبر مصدرى النفط الخام آنذاك والمالكة لثالث أكبر احتياطى نفطى فى العالم. وقد أقام البريطانيون - الذين كانوا يضخون النفط من إيران منذ عام ١٩٠٨ - أكبر مصفاة للبترول هناك. وقد أمدت شركة النفط الأنجلو - فارسية الخزانة البريطانية بمبلغ ٢٤ مليون جنيه استرلينى على شكل ضرائب، و ٩٢ مليون جنيه من العملات الأجنبية (وبعد عام ١٩٣٥ أصبح اسم الشركة هو شركة النفط الأنجلو - إيرانية). ولم تكن لدى البريطانيين أية نية لقبول تأميم الشركة المدرة للأرباح. وتعاطفت معهم كبريات شركات النفط الأمريكية. وهكذا نال البريطانيون فى عام ١٩٥٣ تعاون إدارة أيزنهاور الجديدة فى خطة غير قانونية إلى حد الوقاحة للإطاحة بالحكومة الإيرانية التى أرادت الحصول على نصيب عادل من عوائد البلاد النفطية.

وأصدر أيزنهاور أوامره إلى وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية لمساعدة البريطانيين على حماية أصولهم، وقام الأميركيون بدورهم بإعادة تعريف الأزمة الأنجلو - إيرانية النفطية باعتبارها مسألة تتصل بمقاومة "العالم الحر" لخطر الشيوعية فى منطقة الشرق الأوسط. وأصدر عملاء السى آى إيه التوجيهات إلى ضباط فى الجيش الإيرانى لطرد رئيس الوزراء محمد مصدق السياسى الشريف المعروف بدفاعه غير القابل للفساد عن المصالح الوطنية لبلاده، وإحلال الشاه الشاب محمد رضا بهلوى مكانه الذى كان مصدق قد ألغى حكمه (كان الشاه قد هرب من إيران إلى إيطاليا ولم تكن المسألة هى إحلاله مكان رئيس الوزراء، بل كان هدف الانقلاب الذى دبرته السى آى إيه إعادة الشاه إلى عرشه لينفذ كل المطالب البريطانية - المترجم) ورغم أن الشاه كان يزعم أنه وطنى فإنه أشد رغبة من مصدق فى التعاون مع بريطانيا والولايات المتحدة. وكان يرى أنهما الثقل الموازن لنفوذ الاتحاد السوفييتى على حدود إيران الشمالية. وبعد نجاح الانقلاب منحت الحكومة الإيرانية الجديدة عقود الامتيازات لكونسورتيوم من أكبر شركات النفط الغربية. وفى هذا الكونسورتيوم ذهب ٤٠٪ من الأسهم إلى شركة النفط الأنجلو - إيرانية وأعيدت تسميتها لتصبح شركة

البتروال البريطانية (بريتيش بتروليوم)، ونالت شركة رويال دتش شل حليفها ١٤٪. وبهذا ضمنت بريطانيا حصولها على أغلبية الأصوات. ونالت مجموعة من الشركات الأميركية ٤٠٪ مكافأة للاشتراك الأميركي في الانقلاب. كما نالت الشركة الفرنسية المملوكة للدولة نسبة ٦٪^(٥).

وهكذا اعتمد موقف أميركا في أغنى مناطق العالم بالنفط على علاقاتها الوثيقة بأكبر دولتين في الخليج الفارسي. وسعت حكومتنا إلى إقامة قواعد في المنطقة لسلحها البحرى فقط نظرا لأن القوات المسلحة البريطانية كانت مازال موجودة فى أماكنها وتمتعة بالفاعلية. وفى عام ١٩٤٨ عقدت الولايات المتحدة اتفاقا غير رسمى مع بريطانيا لاستخدام تسهيلات الرسو فى القاعدة البحرية البريطانية (والجوية) المقامة منذ زمن طويل فى المنامة بالبحرين مستعمرة بريطانيا والتي تعتبر أكبر الجزر الثلاث والثلاثين فى المستعمرة. وفى عام ١٩٤٩ أقامت قوة الشرق الأوسط الأميركية هناك برئاسة قبطان بحرئ رُفَع إلى رتبة عميد بحرئ عام ١٩٥١. وفى ١٥ أغسطس ١٩٧١ نالت البحرين استقلالها عن بريطانيا، وأنجزت الولايات المتحدة اتفاقية تنفيذية للاحتفاظ باستخدام تسهيلات البحرية مقابل دفع أربعة ملايين دولار سنويا^(٦).

وقبل حرب الخليج عام ١٩٩١ كانت جزيرة ديبجو جارسيا فى المحيط الهندى الإقليم الوحيد فى المنطقة الواقع بأمان فى قبضة الأيدى العسكرية الأميركية. وكانت هى وجزيرة موريشيوس فى حوزة بريطانيا منذ أن استولت عليها إنجلترا أثناء حروب نابوليون. وأرادت الولايات المتحدة بناء منشأة للاتصالات البحرية هناك لأن قواعد الراديو والتجسس فى غرب أستراليا فى الحرب الباردة لم تستطع تغطية المحيط بأكمله. وفى عام ١٩٦٥ فصلت بريطانيا ديبجو جارسيا عن جزر موريشيوس وأقامت بها ما أسمته: "إقليم المحيط الهندى البريطانى" ثم قامت "بإفراضها" للولايات المتحدة دون مقابل لمدة خمسين عاما على الرغم من أنه كان مفهوما أن الأميركيين سوف يتنازلون فى نفس الوقت عن المطالبة بدفع مبلغ ١٤ مليون دولار هى قيمة صواريخ بولاريس التى تطلق من الفواصات كانت فى طريقها إلى إنجلترا.

ويحلو للمسؤولين الأميركيين أن يتباهوا بأن ديبجو جارسيا " ذات مناعة ضد التطورات السياسية المحلية " لسبب قوى جدا، فقد قام البريطانيون بترحيل جميع سكان الجزيرة إلى موريشيوس وسيشل حيث عاشوا هناك فى ظروف من الفقر

والتفرقة العنصرية. ودفعت بريطانيا ٦٥٠ ألف جنيه استرليني لموريشيوس لكي تقبل أهل ديجو جارسيا. ولكن هؤلاء اللاجئين مازالوا منذ عقود يطعنون في إعادة توطينهم أمام محاكم لندن التي قضت بالفعل بعدم قانونية عملية الترحيل. وفي نفس الوقت عمدت الولايات المتحدة، في عام ١٩٧٤، إلى تحويل محطة الاتصالات إلى قاعدة بحرية كاملة، وتمدت مَدْرَج المطار إلى ١٢ ألف قدم، وزادت عمق البحيرة المتصلة بالبحر لإيواء حاملة الطائرات لقوة العمل، كما قامت بتخزين إمدادات من الوقود هناك للسفن والطائرات تكفي لمدة ثلاثين يوما. وفي عام ٢٠٠١ قالت وزارة الدفاع إن في ديجو جارسيا عددا من المباني يفوق عدد الموظفين العسكريين - ٦٥٤ على وجه الدقة - وإن في القاعدة مساحة تبلغ قيمتها الإحلالية ١٩١٧.٨ مليون دولار،^(٧) وهي تعمل كمَنْصَة رئيسية للقاذفات من طراز بي - ٥٢ التي قامت بالإغارة على أفغانستان خلال عامي ٢٠٠١ و ٢٠٠٢. وفي أواخر عام ٢٠٠٢ بنت البنتاجون أربع حظائر لصيانة الطائرات بلغت تكلفتها ٢.٥ مليون دولار وصُممت لإيواء ست عشرة طائرة من مجمع الأسطول المكون من إحدى وعشرين طائرة قاذفة من طراز ستيلث بي - ٢. وإلى جانب القاذفات بي - ٥٢ وبى - ١ قادت القاذفات طراز بي - ٢ هجمات القصف المسماة " الصدمة والرعب " على مدينة بغداد يوم ٢٢ مارس ٢٠٠٣ وأسقطت القنابل الخارقة للمخابئ زنة ٤٢٠٠ رطل على المدينة الخالية من الدفاعات الضرورية. ولأول مرة في التاريخ تقوم ثلاثة طرز من القاذفات الاستراتيجية الأميركية بعيدة المدى باستهداف نفس المكان في نفس الوقت، وهي تجربة مشابهة لغارات هتلر عام ١٩٢٧ على قرية جويرنيكا الإسبانية. وتقع ديجو جارسيا على بعد ٣٢٤٠ ميلا عن بغداد وهي المسافة الأكثر بعدا عن أية قاعدة أميركية في جنوب آسيا.

وخلال سبعينيات القرن العشرين أدى رحيل بريطانيا من المنطقة إلى تركها دون إشراف إمبريالي مما سبب قلقا متزايدا لدى الولايات المتحدة. وكانت الكويت قد استقلت منذ عام ١٩٦١. وحصلت كل من البحرين وقطر على استقلالهما عام ١٩٧١. وفي اليوم الثاني من شهر ديسمبر ١٩٧١، بعد يوم واحد من انسحاب بريطانيا من المنطقة رسميا أقامت المشيخات الست الباقية، بما فيها الاثنتان الأغنى بالنفط: أبوظبي ودبي، اتحادا كونفيدراليا مستقلا عرف باسم الإمارات العربية المتحدة. وأخّرت بريطانيا انسحابها من عُمان حتى عام ١٩٧٧ بسبب وقوع انقسامات داخلية خطيرة فيها. وأصبح على الولايات المتحدة عندئذ أن تتعامل بنفسها مع هذه الكيانات الجديدة

بدون خبرة بريطانيا التي امتدت قرنا ونصف القرن. ولم تحاول أن تطلب إقامة قواعد أميركية من أى منها إلى أن قدمت حرب الخليج فرصة رائعة لها.

وقبل حدوث ذلك كان عالم الخليج الفارسي الهادئ قد تغير تغيرا راديكاليا فى عام ١٩٧٩ وهو عام كان خطيرا بالنسبة للسياسة الخارجية الأميركية مثلما كان عام ١٩٤٩ عندما تولى الشيوعيون الحكم فى الصين. وفجر الاتحاد السوفييتى أولى قنابله النووية، وتشكّل حلف شمال الأطلسى. وفى عام ١٩٧٩ انهار واحد من عامودى السياسة الأميركية التوأمين. ففى شهر يناير اندلعت ثورة شعبية ضد حكم الشاه التمسفى أجبرته على الذهاب إلى المنفى. وجاءت إلى السلطة بنظام إسلامى أصولى بزعامة آية الله خومينى فى شهر نوفمبر. واستولى الثوار على السفارة الأميركية وأخذوا جميع موظفيها كرهائن واحتجزوهم حتى شهر يناير ١٩٨١. ومما جعل الأمور أكثر تعقيدا قيام الاتحاد السوفييتى بغزو أفغانستان جارة إيران فى شهر ديسمبر ١٩٧٩ فى محاولة لحماية نظام حكم يسارى هناك مما استدرج وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية إلى القيام بعملية ضخمة فى باكستان وفى جميع أنحاء العالم الإسلامى لتجنيد وتسليح "محاربين من أجل الحرية" من المسلمين للانضمام إلى المقاومة السرية المناهضة للسوفييت.

وفى هذا السياق، فى أكتوبر ١٩٧٩، أنشأت إدارة كارتر ما سعى بقوة الانتشار السريع لحماية المصالح الأميركية فى الخليج الفارسي. ولما ما كانت هناك قواعد فى المنطقة فقد أقامت قيادة القوة فى قاعدة ماكديل الجوية فى تامبا بولاية فلوريدا. ويوم ٢٣ يناير ١٩٨٠ وقبل انتهاء مدة رئاسة كارتر أعلن الرئيس "مبدأ كارتر" وهو أن "أية محاولات من أية قوة خارجية للسيطرة على منطقة الخليج سوف تعتبر اعتداء على مصالح الولايات المتحدة الأميركية. وسوف يتم صد مثل هذا العدوان بالوسائل الضرورية بما فيها القوة العسكرية" وكان ذلك فى الوقت الذى كان الأسهل فيه أن تقول بدلا من أن تفعل، وشرعت الولايات المتحدة فى البحث عن بديل للدعم الإيرانى. وفى الأول من يناير ١٩٨٢ حولت إدارة ريجان قوة الانتشار السريع (مازالت متموضعة فى فلوريدا) إلى القيادة المركزية الأميركية (سينتكوم) وهى أول قيادة إقليمية تقام خلال خمس وثلاثين سنة.

وفى يوليو ١٩٧٩ أصبح لدى العراق زعيم جديد هو صدام حسين التكريتى رئيس حزب البعث، وقبل أكثر من عشرين سنة بقليل فى عام ١٩٥٨ استولى ضباط

عسكريون عراقيون على السلطة وأخذوا البلاد إلى اتجاه يميل إلى السوفييت، وذلك بعد أن تأثروا بثورة جمال عبد الناصر القومية في مصر عام ١٩٥٢ ضد الملك فاروق المدعوم من البريطانيين. وأعلن قائد الانقلاب اللواء عبد الكريم قاسم قيام الجمهورية. وانسحب من حلف بغداد المناهض للسوفييت، ومنح الشرعية للحزب الشيوعي وأصدر قرارات لإجراء عملية إصلاح واسعة النطاق للأراضي، بل وحتى منح الأكراد في الشمال حكما ذاتيا. وكانت هذه التحولات الناشئة في ذروة الحرب الباردة أكثر مما يجب في نظر الولايات المتحدة، ووصف ألان دالاس مدير السى آى إيه بشكل علني العراق بأنه "أخطر بقعة في العالم". وفي عام ١٩٦٣ أيدت وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية جهود حزب البعث المناهض للشيوعية لإسقاط جمهورية عبد الكريم قاسم. وقام الناشطون البعثيون. بمن فيهم الشاب صدام حسين. بقتل عبد الكريم قاسم وآخرين بناء على قائمة قدمتها السى آى إيه. واستطاع مدبرو الانقلاب تشكيل حكومة ائتلافية فقط. وفي عام ١٩٦٨ حرضت السى آى إيه على قيام "ثورة داخل القصر" تخلص فيها البعثيون من شركائهم في الائتلاف وتسلموا مقاليد الأمور بشكل مباشر. ووفقا لما ذكره روجر موريس عضو مجلس الأمن القومي في إدارتي جونسون ونيكسون فإن ما حدث كان "نظاما ولد على يدى الولايات المتحدة دون شك، وكان اشتراك السى آى إيه فيه أمرا أساسيا في الحقيقة"^(٨). وفي يوليو ١٩٧٩ - نفس العام الذى اندلعت فيه ثورة إيران المناهضة للأميركيين - حل صدام حسين محل معلمه أحمد حسن البكر. رئيسا للجمهورية وظل يشغل هذا المنصب حتى عام ٢٠٠٣. وقد كان "رصيدا" للسى آى إيه مثل كثيرين من مشاهير المستفيدين من الدساتير السياسية الأميركية من قبل ومن بعد.

وفي سبتمبر ١٩٨٠ قام صدام بغزو إيران بسبب تخوفه من النفوذ الإيراني بين الأغلبية الشيعية في العراق. وفي بدايات عام ١٩٨٢ بدأت الولايات المتحدة عملية سرية جديدة لتزويد صدام بالسلاح والمعونة عندما حازت القوات الإيرانية السيطرة على ميدان القتال. ويعتبر الأمر بالتوجيه من مجلس الأمن القومي الذى يحمل الرقم ١١٤ بتاريخ ٢٦ نوفمبر ١٩٨٣ واحدا من القرارات المهمة القليلة الخاصة بالسياسة الخارجية في عهد ريجان التى ماتزال محاطة بالسرية. والسطر الوحيد الذى تسرب من نص ذلك القرار يقول إن على الولايات المتحدة أن تقوم بعمل "أى شئ ضرورى ومشروع" لمنع العراق من خسارة الحرب. وما لبثت إدارة ريجان أن تخلت سريعا عن

تردها إزاء ما هو مشروع^(٩) وبدأت فى إمداد صدام سرا بالمعلومات الاستخبارية المستقاه من الأقمار الإصطناعية عن مواقع الانتشار الإيرانية، بالإضافة إلى قروض تحاليه وصلت قيمتها إلى ٥.٥ بليون دولار لمساعدة العراق على شراء أسلحة نفذت عبر فرع فى اتلانتا لبنك إيطالى (هو بانكا ناتسيونالى ديل لافورو)، وكانت كل القروض بضمان مؤسسة الائتمان السلعى "ومن مهمتها ترويج صادرات المزارع الأمريكية". كذلك كانت الأسلحة ترسل عبر جبهات السى آى إيه فى تشيلى والمملكة العربية السعودية إلى بغداد مباشرة. وبين ١٩٨٦ و ١٩٨٩ نفذت ثلاث صفقات تضمنت مزارع بكثيرا لإنتاج الأنثراكس الذى يصيب الإنسان بمرض الجمرة والذى يرقى إلى مرتبة الأسلحة. كما تضمنت أيضا أجهزة كومبيوتر متقدمة، ومعدات لإصلاح المحركات النفاثة والصواريخ. وفى ديسمبر ٢٠٠٢ أُجبرَ العراق على تقديم ملف إلى مجلس الأمن الدولى من ١٨٠٠٠ صفحة يحتوى على تاريخ برامج أسلحته تطبيقا للقرار ١٤٤١. وعندئذ سارع مسؤولو إدارة بوش إلى نيويورك للاستيلاء على ذلك الملف قبل أن تستطيع أية دولة أخرى عضو فى المجلس إلقاء نظرة عليه، وقاموا بإزالة وطمس معالم ثمانية آلاف صفحة تضم تفاصيل الأسلحة والتقنيات مزدوجة الاستعمال التى باعتها الشركات الأمريكية والغربية للعراق قبل عام ١٩٩١. وتضمنت قائمة الشركات كلا من: هانويل ويونيسيس وروكويل وسبرى وهبوليت - باكارد ودوبون وايستمان كوداك وشركات أخرى كثيرة^(١٠). ولم تكن هناك علاقات دبلوماسية بين الولايات المتحدة والعراق منذ الحرب العربية - الإسرائيلية عام ١٩٦٧، ومع ذلك أرسل الرئيس ريجان فى ديسمبر ١٩٨٢ مبعوثا شخصيا منه هو دونالد رامسفيلد وزير الدفاع السابق فى إدارة فورد. إلى بغداد لمقابلة صدام حسين. وعاد رامسفيلد إلى العراق فى مارس ١٩٨٤ بالتحديد عندما اتهمت كل من إيران والأمم المتحدة نظام صدام حسين، باستخدام الأسلحة الكيميائية فى حرب تزداد وحشية. ومع ذلك لم يشر رامسفيلد إلى هجمات الغاز العراقية. وأعلن بدلا من ذلك أن "هزيمة العراق فى الحرب مع إيران المستمرة لثلاث سنوات تتناقض مع مصالح الولايات المتحدة"^(١١). وفى نوفمبر ١٩٨٤ أستأنفت واشنطن العلاقات الدبلوماسية الكاملة مع بغداد وزادت المبيعات لصدام حسين بحيث تراوحت بين الذخيرة وطائرات الهليكوبتر التى استخدمت فى هجمات الغاز التالية. ومن بين هذه الهجمات استخدام الغاز فى مارس ١٩٨٨ ضد الأكراد فى قرية حلبجة

التي أسفرت عن قتل خمسة آلاف شخص. وحافظت الولايات المتحدة على علاقات ودية مع العراق حتى اللحظة التي أحيا فيها صدام مطالب العراق الإقليمية القديمة بالنسبة للكويت. ثم قام بهجومه المفاجئ على تلك الدولة في اليوم الثاني من أغسطس ١٩٩٠. وكان ذلك بعد سنتين بالكاد من وقف حرب العراق الدموية مع إيران.

وفي بداية الأمر بدا أن الولايات المتحدة مترددة في رد فعلها. وكان الرئيس بوش ورتيسة الوزراء البريطانية مارجريت ثاتشر يحضران مؤتمرا في كولورادو بعد الهجوم بقليل. ووفقا لما ذكره أولئك الذين كانوا حاضرين في المؤتمر فإن بوش غمغم بكلمات تشبه القول: " لا بأس من التدخل، ولكن كيف سنستطيع الخروج " ثم علق على الموضوع بقوله إن معظم الأميركيين لا يعرفون مكان الكويت على الخارطة. وعند هذه النقطة أمسكت ثاتشر بالميكروفون واحتجت قائلة: " اسمع يا جورج ليس هذا وقت التذبذب. ولا يمكن أن نسقط عند أول حاجز ". ومع ذلك تشير الدلائل إلى أن الإدارة سمحت لصدام بالغزو ثم رفضت كل الجهود التي بذلتها دول أخرى في الشرق الأوسط والأمم المتحدة لحل المسألة سلميا. وادّعى بوش أن مسؤوليته هي أن يحافظ على حقوق الإنسان في الكويت وفي أي مكان آخر في الشرق الأوسط رغم حقيقة أن سجل الكويت في هذا المجال لا يدعو للإعجاب.

وجمعت الولايات المتحدة قوة مؤتلفة قوامها أكثر من ٦٠٠ ألف جندي برى وبحرى وجوى (من بينهم ٥٧٢ ألف أميركي) في المملكة العربية السعودية. وفي يوم ١٦ يناير ١٩٩١ بدأت عملية عاصفة الصحراء من أجل "تحرير" الكويت. وفي يوم ٢٨ فبراير ١٩٩١ أعلن عن انتهاء العملية. وقد قامت الولايات المتحدة بطلعات جوية بلغ عددها ١١٠ آلاف طلعة فوق العراق أسقطت فيها الطائرات ٨٨٥٠٠ طن من القنابل بما في ذلك القنابل العنقودية وقذائف اليورانيوم المخصب. وقد دمرت الغارات محطات تنقية المياه، ومصانع معالجة الأغذية، ومحطات توليد الكهرباء، والمستشفيات والمدارس ومراكز الاتصالات الهاتفية، والجسور والطرق عبر جميع أنحاء العراق. ومن المؤكد أن القوات العراقية طُردت من الكويت وقُتل القسم الأعظم منها في الميدان. (وقد قُتل آلاف الجنود أثناء تهقيرهم فيما كان يسميه الطيارون الأميركيون " إطلاق النار على الديك الرومي ")، ولكن قوات التحالف لم تتقدم نحو بغداد لمحاولة أسر أو طرد صدام حسين.

وبدلاً من ذلك شهدت الفترة ما بين حربى العراق توسعاً كبيراً فى إمبراطورية قواعدها العسكرية فى منطقة الخليج الفارسى، وهى الفترة من ١٦ يناير ١٩٩١ عندما شن الجنرال نورمان شوارتسكوف هجومه، إلى ١٩ مارس ٢٠٠٣ عندما أمر الجنرال تومى فرانكس ببدء الغزو الأنجلوأميريكى للعراق. وبعد الهدنة التى أعقبت الحرب الأولى عززنا القواعد التى حصلنا عليها فى الكويت والمملكة العربية السعودية وسحبنا إليها الدبابات والذخائر التى قد تدعو الحاجة إليها إذا استأنفنا القتال. وفى منتصف هذه الفترة حوالى عام ١٩٩٥ دفعنا سلسلة من الأحداث الإرهابية إلى تحريك أعداد كبيرة من مدرعاتنا وطائراتنا وجنودنا إلى مواقع حصينة وبعيدة جداً مثل قاعدة الأمير سلطان الجوية فى السعودية. وفى أواخر تسعينيات القرن العشرين بدأت البنتاجون بشكل جدى فى الإعداد لحرب جديدة مع العراق فى زمن إدارة كلينتون الثانية. وفى التقويم الاستراتيجى لعام ١٩٩٩ الصادر عن هيئة الأركان المشتركة نص يقول على وجه الخصوص إن نشوب " حرب نفط " فى الخليج الفارسى هو احتمال جدى، وإن " القوات المسلحة الأمريكية سوف تستخدم لتأمين الإمدادات الملائمة " ^(١٢). وقد تم تبرير ذلك بأن حرباً جديدة سوف تقضى على نفوذ صدام حسين إلى الأبد، وتمنحنا السيطرة على نفطه. وتمد نفوذنا إلى الفراغ الناشئ عن غياب الاتحاد السوفيتى فى أراضى أوراسيا الجنوبية الغنية بالنفط.

وكما رأينا سابقاً فقد تضمن تجديد الاهتمام بآسيا الوسطى والجنوبية والجنوبية الغربية إقامة روابط بين عسكريين وعسكريين فى جمهوريتى آسيا الوسطى المستقلتين وهما قرجيزستان وأوزبكستان، وتقديم الدعم لحكومة طالبان فى أفغانستان كوسيلة لحصول كونسورتيوم بقيادة أميركا على حقوق مد أنابيب الغاز والنفط، ولكن جوهر تاج هذه الاستراتيجية الضخمة كانت عبارة عن خطة لاستبدال حكومة عميلة مؤيدة لأميركا بنظام البعث فى العراق وبناء قواعد عسكرية دائمة هناك. وأثناء التحضير للحملة العسكرية بذلت البنتاجون جهوداً هائلة فى جميع الدول العميلة لها والمحيطية بمنطقة الخليج الفارسى لعزل قواعدها عن الشعوب المناهضة لأميركا فى أغلبها والتى تعيش فى تلك الدول. وكذلك لجعلها مستعدة لإرسال قوة عسكرية منها للاشتراك فى غزو العراق. وقد وفرت هجمات ١١ سبتمبر الإرهابية، والحرب ضد حركة طالبان، وحرب بوش على الإرهاب، حافزاً أكبر لتنفيذ خطة ظلت فى مرحلة الإعداد والتطوير لمدة عشر سنوات على الأقل.

وقد طلب دونالد رامسفيلد وزير الدفاع شن هجوم فوري على العراق بعد ساعات من هجمات سبتمبر. وفي اليوم التالي أصر رامسفيلد مرة أخرى. في اجتماع مجلس الوزراء في البيت الأبيض، على أن العراق يجب أن يكون "هدفا رئيسيا للجولة الأولى من الحرب ضد الإرهاب" (١٢). وقيل إن الرئيس نُصح بضرورة "إعداد الرأى العام قبل أن تكون أية حركة ضد العراق جاهزة" وأنه اختار أفغانستان بدلا من ذلك باعتبارها هدفا أكثر نعومة.

وهذه البيانات وتوقيتها جديرة بالملاحظة لأن الولايات المتحدة عند تلك اللحظة لم تكن متأكدة من أن المفجرين الانتحاريين هم أعضاء في شبكة القاعدة الخاصة بأسامة بن لادن ومن ثم على الرئيس أن يقضى على صدام حسين باعتباره "حليفاً للقاعدة. ولم تقدم إدارة بوش على الإطلاق أى برهان يؤكد تلك العلاقة. والحقيقة أن طبعة عام ٢٠٠١ من دورية وزارة الخارجية السنوية عن "أنماط الإرهاب العالمى" لم تسجل أية أعمال إرهابية عالمية ترتبط بأية صلة بالحكومة العراقية. وفي يوم ٢٢ سبتمبر ٢٠٠١ وعد كولين باول وزير الخارجية بعرض دليل يثبت أن القاعدة وأسامة بن لادن مدانون بتخطيط وتنفيذ الهجمات على نيويورك وواشنطن. وبعد ذلك فقط صرحت كوندوليزا رايس مستشارة الأمن القومى لشبكة سى إن إن الإخبارية بقولها: "من الواضح أن لدينا الدليل التاريخى وغيره عن علاقة شبكة القاعدة بما حدث فى ١١ سبتمبر". ولم يحدث على الإطلاق أن ظهر هذا الدليل بالفعل. إلى أن كشفت قوائم أسماء ركاب الطائرات أن خاطفى الطائرة كانوا فى الغالب من المملكة العربية السعودية. وأنا نفسى اعتقدت أن الهجمات قد تكون ردا على السياسات الأميركية فى أى عدد من الأماكن بما فيها تشيلى أو الأرجنتين أو إندونيسيا أو اليونان أو جميع دول أميركا الوسطى أو أوكتيناوا ناهيك عن فلسطين وإيران. ويبين استهداف رامسفيلد للعراق مبكرا أن إدارة بوش والبنجاحون كانت لديهما أجندة مخبئة منذ وقت طويل لإجراء "تغيير لنظام الحكم" هناك.

ومنذ الحرب الأميركية الأولى ضد العراق: حرب الخليج عام ١٩٩١، أراد عدد من الشخصيات الرئيسية. الذين خططوا ونفذوا الحرب فى البيت الأبيض والبنجاحون. العودة وإنهاء العمل الذى بدأوه. وقد ذكروا ذلك فى تقارير كتبت من أجل تشيلى وزير الدفاع آنذاك فى السنوات الأخيرة من عمر إدارة بوش الأولى وأثناء الفترة من ١٩٩٢

حتى ٢٠٠٠، عندما كانوا خارج السلطة. وقد وضعوا مسودات عدد كبير من الخطط حول ما يجب عمله إذا عاد الجمهوريون إلى البيت الأبيض. وفي ربيع عام ١٩٩٧ نظموا أنفسهم فيما سمي "مشروع القرن الأميركي الجديد". وأخذوا يروجون بقوة في الدهاليز السياسية للعدوان على العراق وإعادة صياغة منطقة الشرق الأوسط.

وفي رسالة إلى الرئيس كلينتون مؤرخة في ٢٦ يناير ١٩٩٨ طالبوا "بإزاحة نظام صدام حسين عن السلطة"، وفي رسالة بتاريخ ٩ مايو ١٩٩٨ إلى نيوت جينجريتش رئيس مجلس النواب، وإلى ترينت لوت زعيم الأغلبية في مجلس الشيوخ، اشتكوا من أن كلينتون لم يستمع إليهم وأعادوا توصيتهم بالإطاحة بصدام حسين. وقد صاغوها على النحو التالي: "يجب أن نقيم وجودا عسكريا أميريكيا قويا في المنطقة وأن نحافظ عليه، أن نكون مستعدين لاستخدام تلك القوة لحماية مصالحنا الحيوية في الخليج، والمساعدة على إزاحة صدام حسين من السلطة عند الضرورة" وقد وقّع على هاتين الرسالتين دونالد رامسفيلد وويليام كريستول رئيس تحرير مجلة ويكلي ستاندارد اليمينية ورئيس مشروع القرن الأميركي الجديد، وإيليوت إبرامز المحكوم عليه بالسجن لتأمره في قضية إيران - كويترا، والذي كان مقررا في عام ٢٠٠٢ توليه منصب رئيس إدارة السياسة الشرق أوسطية في مجلس الأمن القومي، وبول وولفوويتز الذي أصبح فيما بعد نائبا لرامسفيلد في البنتاجون، وجون بولتون الذي أصبح وكيلًا لوزارة الخارجية للرقابة على الأسلحة والأمن الدولي في إدارة بوش الابن، وريتشارد بيرل الذي أصبح رئيس مجلس إدارة المجلس العلمي للدفاع، وويليام بنيت وزير التعليم في إدارة ريجان. وريتشارد أرميتاج الذي أصبح نائب كولن باول في وزارة الخارجية. وزالمای خليل زاد الذي كان مستشارا سابقا لشركة يونوكال للنفط ثم أصبح سفيراً لبوش في أفغانستان، ومؤخرا ضابط الاتصال الرئيسي مع الأكراد وجماعة المنفيين السابقين المناهضين لصدام حسين في العراق، وعدد آخر من الأميركيين البارزين أصحاب النزعة العسكرية. وبالإضافة إلى الموقعين على الرسالتين ضم مشروع القرن الأميركي الجديد ديك تشيني نائب الرئيس وآي. لويس ليبى رئيس موظفي مكتب تشيني. وستيفن كامبون الموظف في البنتاجون في كل من إدارتي بوش. وقد أتاحوا التعرف على أفكارهم في تقرير صدر في سبتمبر ٢٠٠٠ تحت عنوان: "إعادة بناء الدفاعات والقوات الاستراتيجية والموارد الأميركية من أجل قرن جديد"، وكذلك في

كتاب حرره كل من روبرت كاجان وويليام كريستول عنوانه: المخاطر الحالية: " الأزمة والفرصة فى السياسة الخارجية والدفاعية الأميركية " (١٤).

وبعد أن أصبح جورج دبليو بوش رئيسا أصبح عشرة من الثمانية عشر شخصا الذين وقعوا على رسالتى كلينتون وزعماء الكونجرس، أعضاء فى الإدارة. وأخذوا يتحینون الفرصة تسعة أشهر. وبنص كلمات تقرير " إعادة بناء دفاعات أميركا " الصادر عن مشروع القرن الأميركي الجديد، فإنهم كانوا " ينتظرون حدثا كارثيا محفزا مثل بيرل هاربور جديد " يعبئ الرأى العام ويسمح لهم بتنفيذ نظرياتهم وخططهم. وكان يوم ١١ سبتمبر بالطبع وعلى وجه التحديد هو ما كانوا يتطلعون إليه. وخلال أيام جمعت كوندوليزا رايس أعضاء مجلس الأمن القومى وطلبت منهم " أن يفكروا فى كيفية استغلال هذه الفرص " فى إحداث تغيير أساسى فى المبدأ الأمريكى. وفى شكل العالم فى أعقاب ١١ سبتمبر. وقالت: " أنا أعتقد حقا أن هذه الفترة مشابهة لما حدث فى عامى ١٩٤٥ و ١٩٤٧ " مشيرة بذلك إلى سنوات الخوف والبارانويا التى قادت الولايات المتحدة إلى الحرب الباردة مع الاتحاد السوفيتى (١٥).

ولم تكن إدارة بوش لتستطيع أن تذهب إلى الحرب مع العراق ببساطة دون أن تربط نظام صدام حسين بطريقة ما بهجمات ١١ سبتمبر. ولذا فقد شنت فى البداية حربا سهلة ضد أفغانستان لوجود علاقة بين أسامة بن لادن ونظام طالبان. حتى رغم أن الولايات المتحدة هى الأكثر مساهمة فى تحويل أسامة بن لادن إلى إرهابى من مجموعة الأفغان المتطرفين. وقد اعتمدت استراتيجية الحرب على القصف الأمريكى المكثف واستخدام حقائب مليئة بالمال لتجنيد قوات أمراء الحرب فى الحلف الشمالى الذين هزمته طالبان لكى يقوموا بالقتال الفعلى باعتبارهم من السيبوى التابعين لنا. فى نفس الوقت أطلق البيت الأبيض أغرب الحملات الدعائية فى العصور الحديثة لإقناع الرأى العام بأن صدام حسين يجب أن يكون جزءا مهما من " حرب أميركا على الإرهاب " وأسفرت هذه المحاولة المحسوبة لإثارة حمى الحرب بدورها عن فيض من إنعام الفكر فى جميع أنحاء العالم فى الدوافع الحقيقية للرئيس الأمريكى وهوسه الواضح بالعراق.

وكانت أول وأوضح خدعة من صقور الحرب هى زعمهم. بكلمات الرئيس بوش. أن صدام حسين " يمتلك أكثر الأسلحة فتكا فى عصرنا ". ولكن المشكلة الحقيقية فى هذا

الادعاء هي أن الأسلحة ليست حقيقية. ومن المؤكد أن العراق كان لديه أسلحة للدمار الشامل في وقت ما، ولكن بين ١٩٩١ و ١٩٩٨ قامت مجموعة من عقوبات الأمم المتحدة بسبب حرب الخليج الأولى، ومن مفتشى الأمم المتحدة على ما يبدو بتدمير معظم تلك الأسلحة بالإضافة إلى تدمير قدرة العراق على إنتاج المزيد منها. ومثلما صوّر سكوت بيتر الأمر بقوله: " إننى أودى شهادتى الشخصية من خلال سبع سنوات من العمل رئيساً لمفتشى الأسلحة في العراق التابعين للأمم المتحدة للتفتيش على كل من نطاق برامج أسلحة الدمار الشامل العراقية وفاعلية مفتشى الأمم المتحدة في التخلص منها في نهاية الأمر "(١٦). ولا يوجد أحد يتراجع عن خدعته التي تساعد قضيته، ولذلك فإن رامسفيلد أجاب بقوله: " إن غياب الدليل ليس دليلاً على الغياب ". وأدت هذه المقولة إلى عودة مفتشى الأمم المتحدة، ولكنها لم تؤد إلى التأييد العالمى لخطط البيت الأبيض الحربية كما ظهر بعد ذلك. ولم يكن مشروع القرن الأمريكى الجديد يبدى اهتماماً كبيراً بأسلحة صدام للدمار الشامل بأى حال من الأحوال إلا باعتبارها مبرراً مريحاً. وكتب مؤلفو تقرير إعادة بناء دفاعات أميركا: " بينما كان النزاع مع العراق الذى لا يجد حلاً يوفر المبرر المباشر، إلا أن الحاجة إلى وجود قوة أميركية جوهريّة في الخليج تفوق مسألة نظام صدام حسين "(١٧). ولم يق بوش نفسه من خسارة رهانه فعقد آخر مؤتمر صحفى في يوم ٦ مارس ٢٠٠٢ في الغرفة الشرقية بالبيت الأبيض، وفيه صاح قائلاً: " صدام حسين لم ينزع أسلحته. هذه حقيقة لا يمكن إنكارها ".

وكانت الإدارة تلح على ترديد أن خطر صدام يتمثل في احتمال أن يعطى أسلحة غير تقليدية لـ " شريين " وردد هذا الإلحاح صدى مألوفاً لدى أولئك الذين يتذكرون البروباجندا التي رافقت استهلال حرب العراق الأولى. فقد كانت الحكاية التعبوية آنذاك التي تردها إدارة بوش الأب هي أن الجنود العراقيين انتزعوا أطفالاً من الحضانات في مستشفى الكويت، وبكلمات بوش نفسه: " كانوا يبعثرون الأطفال على الأرض وكأنهم قطع من خشب الوقود " وكان الرئيس يكرر الإشارة إلى " ٣١٢ طفلاً مخدجاً في مستشفى الولادة بمدينة الكويت الذين ماتوا بعد أن سرق الجنود العراقيون حضاناتهم وتركوهم على الأرض ". وقد ذكر الدكتور محمد مطر مدير نظام الرعاية الأولية بالكويت، وزوجته الدكتورة فايزة يوسف التي تدير وحدة التوليد في مستشفى الولادة أنه لم يكن في كل الكويت إلا حضانات بعدد أصابع اليد فقط وإذا وجد أطفال فيها وقت الغزو العراقي فهم عدد قليل. وقد قال بوش تعليقاته هذه قبل أيام قليلة من

قرار الأمم المتحدة في ٢٩ نوفمبر ١٩٩٠ السماح باستخدام " جميع الوسائل الضرورية " لطرد العراق من الكويت. وبعد الحرب كشف عن أن الكويت استأجرت شركة العلاقات العامة الضخمة في واشنطن وهي شركة هيل آند نولتون لكي تروج تلك القصة. وفي يوم ١٠ أكتوبر ١٩٩٠ دبرت إحضار " شاهد عيان " ليشهد أمام الكونجرس بأن ذلك قد حدث فعلا. وقد تبين أن الشاهد هي ابنة السفير الكويتي في واشنطن وأنها لم تكن في أي مكان بالقرب من أي مستشفى في مدينة الكويت. وفي وقت لاحق اعترف " شهود " آخرون، ممن زعموا أنهم شاهدوا الأعمال العراقية الوحشية، بأنهم جميعا تم تدريبهم على يد شركة هيل آند نولتون^(١٨).

ويوم ٧ أكتوبر ٢٠٠٢ ساهم الرئيس بوش الابن بأغرب مقولاته عن ديكتاتور شغوف بالقتل بأسلحة الدمار الشامل كمبرر لشن الحرب على العراق، ففي خطبة له في سنسبناتي. وبعد أن ذكر أن " صدام حسين هو ديكتاتور نزاع للقتل أدمن أسلحة الدمار الشامل " حذر بوش قائلا: " لدى صدام أسطول متنام من مركبات جوية مأهولة وغير مأهولة يمكن استخدامها في بث أسلحة كيميائية وبيولوجية في مناطق شاسعة. ونحن قلقون من أن العراق يختبر وسائل لاستخدامها (المركبات الجوية غير المأهولة) في مهمات تستهدف الولايات المتحدة ". ويرجح أن بوش كان يشير بذلك إلى طائرة التدريب التشيكية طراز إل - ٢٩ التي كان العراق قد اشترى ١٦٩ منها بين ستينيات وثمانينيات القرن العشرين. وهذه الطائرة تعمل بمحرك واحد وبها مقعدان وهي مصممة لتدريب المبتدئين الأساسى على التحليق. وتعتبر هذه الطائرة نسخة الكتلة السوفيتية من الطائرة الأميركية طراز سيسنا ومداها نحو ٨٤٠ ميلا. وتبلغ أقصى سرعة لها نحو ١٤٥ ميلا في الساعة. وهناك بعض الأدلة على أن العراق قبل حرب الخليج كان يجري تجارب على تحويل هذه الطائرات إلى مركبات غير مأهولة، ولكن قد يكون الهدف منها أن تستخدم في رش المحاصيل الزراعية^(١٩). على أي حال لم يحاول الرئيس أن يشرح كيف تستطيع هذه الطائرة البطيئة الوصول إلى ولاية مين وهي أقرب نقطة على البر الرئيسى للولايات المتحدة بالنسبة للعراق والتي تبعد نحو ٥٥٠٠ ميل. أو أن يشرح لماذا لا يتم إسقاطها في اللحظة التي تغادر فيها الحدود العراقية.

وهناك ادعاء أساسى آخر في مسيرة إدارة بوش نحو الحرب، وهو أن صدام حسين ساند هجمات القاعدة الإرهابية في ١١ سبتمبر، ففي أغسطس ٢٠٠٢ قال رامسفيلد

لتوم بروكاو على شبكة إن بي سى الإخبارية: " القاعدة موجودة فى العراق ". وفى يوم ٢٦ سبتمبر ٢٠٠٢ قال إن لدى الحكومة ما يؤكد وجود صلات بين العراق وأعضاء فى القاعدة بما فى ذلك " دليل لا يدحض " على أن أعضاء فى الشبكة الإرهابية يداومون على التواجد فى العراق (ولكن ليس فى باكستان حليفنا القادم). واستمر رامسفيلد فى التلميح بأن العراق وفر مأوى آمنا لبن لادن والملا محمد عمر زعيم طالبان. وقال بوش فى خطبة له يوم ١١ أكتوبر ٢٠٠٢ إن " بعض زعماء القاعدة الذين هربوا من أفغانستان ذهبوا إلى العراق ". ومادام " الدليل الذى لا يدحض " لم يعلن على الإطلاق، فيجب أن نفترض أن رامسفيلد وبوش كانا يشيران إلى نحو ١٥٠ عضوا من جماعة تسمى أنصار الإسلام كانوا قد لجأوا إلى المناطق الكردية شمال العراق. والمشكلة هى أن الأكراد، حلفاء أميركا المحتملين، هم الذين يسيطرون على هذه المنطقة لا صدام حسين. وليس هناك دليل على وجود صلات فعلية بين صدام وأسامة بن لادن. وهى الحجة التى ترددها دائما وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية، كما أن حجة وجود مثل هذا التعاون لا يمكن أن تكون مقنعة إذا وضعنا فى الاعتبار انتماءات بن لادن الدينية ونظام صدام العلمانى الصارم^(٢٠).

والواقعة الوحيدة المتصلة بتأييد صدام للإرهاب المعادى للأميركيين هى محاولته المزعومة لاغتيال جورج بوش الأب أثناء جولة الرئيس السابق المنتصر فى الكويت فى منتصف أبريل ١٩٩٣. وهذه الواقعة تشكل أساس خطبة ابنه فى حملته عام ٢٠٠٢ التى قال فيها إن صدام " حاول قتل دادى ". وفى يوم ٢٦ يونيو ١٩٩٣ بعد شهرين ونصف من تلك المحاولة انتقم الرئيس كلينتون بإطلاق صواريخ كروز على بغداد فقتلت العديد من الأبرياء. وتشير الدلائل بقوة إلى أن محاولة الاغتيال لم تقع على الإطلاق، ولكن المحتمل أن الاستخبارات الكويتية كانت تغطى اكتشافها لعصابة تهريب تنشط على الحدود العراقية - الكويتية بادعائها أنها كانت تستهدف " والد (دادى) دبليو بوش ".^(٢٠)

ولعل أضعف الأسباب الرسمية إقناعا التى قيلت لتبرير الخلاص من صدام هى حجة أنه لا يحترم قرارات الأمم المتحدة. ففى ٢٠ سبتمبر ٢٠٠٢ أقام رامسفيلد عرضا فى البنتاجون عرض فيه فيلما صُوِّرَ بكاميرا عسكرية خاصة يظهر أن المدفعية العراقية المضادة للطائرات تطلق النار على طائرات أميركية وبريطانية أثناء دورياتها لمراقبة

" مناطق حظر الطيران " شمال وجنوب العراق وقال رامسفيلد: " مع كل صاروخ أطلق على طيارينا يعبر العراق عن إهانتته لقرارات الأمم المتحدة، وهي حقيقة يجب تذكرها عند تقويم آخر عروضهم للتفتيش ". غير أن الوزير رامسفيلد كان يعرف على وجه اليقين أنه لا وجود لقرار من الأمم المتحدة (أو أية سلطة دولية أخرى) يعطى الشرعية لمناطق حظر التحليق، فقد اخترعتها الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا من جانب واحد في مارس ١٩٩١ لكي تحمى - نظريا - الأكراد في الشمال والشيعية في الجنوب الذين ثاروا ضد صدام بعد حرب الخليج الأولى. ورغم حرمانهم صدام من استخدام قوته الجوية فعلا فإن الولايات المتحدة كانت قد اتخذت بالفعل موقفا متلكئا بينما كان يسحق تلك الانتفاضات لخوفها دون شك من وجود عراق راديكالي وحصول الأكراد على الاستقلال مما قد يخلخل أوضاع تركيا الحليفة لأميركا التي تورطت منذ زمن طويل في قهر الأقلية الكردية لديها بلا رحمة. وما لبثت فرنسا أن انسحبت من دعم مناطق حظر الطيران، ولكن بريطانيا والولايات المتحدة استمرت وأخذتا في تصعيد هجماتها الجوية ببطء حتى عشية حرب العراق الثانية وذلك على الرغم من وضوح عدم شرعيتها وفقا للقانون الدولي^(٢١).

وعندئذ ظهرت حجة الإدارة التي زعمت أن الإطاحة بصدام سوف تجلب الديمقراطية إلى العراق والدول الأخرى المحيطة بالخليج الفارسي. وفي مقابلة أجرتها صحيفة الفاينانشيال تايمز اللندنية، قالت كوندوليزا رايس إن الحرية والديموقراطية وروح المبادرة الحرة " لم تقف على حافة الإسلام "، وإن الولايات المتحدة، بعد إسقاط صدام باستخدام القوة العسكرية، سوف " تركز نفسها تماما " لإعادة بناء العراق كدولة موحدة وديموقراطية^(٢٢). وحتى ذلك الوقت بدا هذا الكلام إلى حد ما شبيها بزعم العسكريين، بعد سحق أفغانستان بالقصف الجوي من ارتفاعات عالية، أنهم جاءوا حقا لتحرير الأفغانيات من طالبان. وبطبيعة الحال لو كانت الولايات المتحدة حريصة حقا على نشر الديمقراطية في دول الخليج، لكانت قد بدأت في السعودية منذ زمن بعيد، أو في أي نظم ملكية إقطاعية مثل الكويت والبحرين وقطر والإمارات العربية المتحدة وعمان التي كانت قد أقامت فيها حاميات عسكرية ضخمة. وقد بدأ بعض المراقبين في أنحاء العالم في البحث عن الأهداف الحقيقية نظرا لأن أيا من مبررات الإدارة لعدائها للعراق لم يكن مقنعا. وكانت إحدى النظريات البارزة تتعلق بنفط العراق إذ إن الاحتياطي العراقي هو ثاني أكبر احتياطي في العالم

بعد المملكة العربية السعودية. وكان منطقيا افتراض أن كلا من الرئيس ونائب الرئيس على دراية كبيرة على الأقل بثروة العراق النفطية. ذلك لأن كلا منهما كان مديرا تنفيذيا سابقا في إحدى شركات النفط، كما كان والد الرئيس رئيسا سابقا ومؤسسا لشركة زاباتا أوفشور للنفط في عام ١٩٥٤. وقد حفرت شركة زاباتا أول بئر خارج الكويت. وفي عام ١٩٦٢ دمج بوش الأب هذه الشركة مع أخرى لينشئ عملاق النفط باسم شركة بينز أويل أواخر عام ١٩٦٦ ثم باع أسهمه وأصبح من كبار المليونيرات نتيجة لهذه العملية. وفي أواخر ١٩٩٨ و ١٩٩٩ عندما كان ديك تشيني مايزال رئيسا لشركة هاليبيرتون في هيوستون، باعت الشركة لصدام معدات لحقول البترول قيمتها ٢٣,٨ مليون دولار. وربما كان هاجس بوش الأب بالنسبة للعراق، في إطار مسار هذا التفكير، هو رغبته في الاستيلاء على نقطه .

والولايات المتحدة تحتاج كميات كبيرة من النفط خاصة في حالة إنتاج سيارات الدفع الرباعي والهمفي وحتى قطاع صناعة السيارات الذي يلتهم الوقود بشراهة أكبر. كذلك ترغب من الناحية الاستراتيجية في السيطرة على بلاد النفط في منطقة الشرق الأوسط وفي آسيا الوسطى لكي تراقب الشحنات المتجهة إلى مناطق يتزايد اعتمادها على البترول المستورد، والتي يمكن يوما ما أن تتحدى الهيمنة الأميركية العالمية. وتعتبر أوروبا والصين هما المصدران المحتملان لهذا التحدي. ويذكر أنتوني سامبسون خبير النفط ومؤلف الكتاب الكلاسيكي عن شركات النفط الكبرى وعنوانه " الأخوات الست "، أن " المصالح النفطية الغربية لها نفوذ وثيق على السياسات الدبلوماسية والعسكرية. وليس من قبيل المصادفات أن تبني أميركا القواعد العسكرية عبر آسيا الوسطى في الوقت الذي تتنافس فيه الشركات الأميركية على الوصول إلى النفط في تلك المنطقة"(٢٣).

كان البرهان الأقوى على أن النفط هو الدافع الأول يتمثل في سلوك القوات الأميركية في بغداد بعد أن دخلت المدينة يوم ٩ أبريل ٢٠٠٣. فقد قام الجنود الأميركيون بالحماية الفعالة لمركز قيادة وزارة النفط العراقية، ولكنهم كانوا سلبين إزاء من قاموا بالسلب والنهب الذين قضوا يومين وهم ينهبون الآثار التي لا تقدر بثمن من المتحف الوطني ويحرقون الأرشيف الوطني ومكتبة المدينة القرآنية الشهيرة. وحدث نفس الشيء في المتحف الوطني بمدينة الموصل. وبينما كان جنود مشاة البحرية

يشوهون بعض أشهر الأسوار القديمة فى العالم فى مدينة أور السومرية بالقرب من الناصرية، كان الجيش بالفعل منهمكا فى بناء حامية دائمة فى مطار الطليل الجوى لحماية آبار النفط الجنوبية^(٢٤).

وهناك نظرية شعبية أخرى هى أن حزب الليكود الإسرائيلى كان له تأثير قوى ومستمر على فكر إدارة بوش حول الشرق الأوسط، وأن الرغبة فى الإطاحة بصادم حسين هى انعكاس للمصالح بعيدة المدى لليمينيين الإسرائيليين الذين يريدون استمرار تفوق بلادهم العسكرية الإقليمى. وكانت للعديد من الشخصيات الرئيسية فى إدارة بوش وفى مشروع القرن الأمريكى الجديد علاقات وطيدة مع أرييل شارون وحزب الليكود. ومن بين هؤلاء ريتشارد بيرل رئيس مجلس سياسة الدفاع، وبول وولفوويتز نائب وزير الدفاع، ودوجلاس فيث وكيل وزارة الدفاع، ودافيد وورمسر المساعد الخاص لجون بولتون مؤسس مشروع القرن الأمريكى الجديد الذى شغل منصب وكيل الوزارة لشؤون مراقبة الأسلحة. وهناك أيضا مايكل ليدين أحد الشركاء فى مؤامرة إيران - كوتنرا وعضو مجلس إدارة المعهد اليهودى لشؤون الأمن القومى فى مدينة واشنطن وهو يتعاون تعاوننا وثيقا مع زملائه فى معهد أميركان إنتربرايز لدعم القضايا الإسرائيلية. ولجميع هؤلاء الأشخاص سجلات طويلة فى معارضة مبادرات السلام والعلاقات بين إسرائيل والفلسطينيين، والمطالبة بشن حروب أمريكية لا ضد العراق وحده، بل وأيضا ضد سوريا ولبنان وإيران، والمطالبة فى حقيقة الأمر بإعادة تشكيل المنطقة بأسرها لتعود بالفائدة على إسرائيل.

وبيرل عضو فى مجلس إدارة صحيفة جيروزالم بوست المحافظة ومؤلف فصل بعنوان: "العراق: صدام طليقا" فى كتاب مشروع القرن الأمريكى بعنوان: "المخاطر الحاضرة". وفى الحياة الخاصة نجد أن فيث شريك فى شركة قانونية صغيرة فى واشنطن متخصصة فى تمثيل صناع الذخائر الإسرائيليين الذين يبحثون عن إقامة علاقات مع صناعات الأسلحة الأمريكية. وكان وورمسر. قبل عمله بوزارة الخارجية، رئيس مشروعات الشرق الأوسط فى معهد أميركان إنتربرايز اليميني. وهو مؤلف كتاب نشره المعهد عنوانه: "حليف الطاغية: فشل أميركا فى هزيمة صدام حسين" (عام ١٩٩٩) الذى كتب بيرل مقدمته. وأثناء إدارة ريجان عمل فيث مستشارا خاصا لبيرل الذى كان آنذاك مساعدا لوزير الدفاع لشؤون الأمن الدولى. وهناك شخصية

نافذة أخرى هي ميراف وورمسر زوجة دافيد وورمسر المشاركة في تأسيس معهد الشرق الأوسط لبحوث الميديا، وهي تقوم بترجمة وتوزيع قصص من الصحف العربية تصور العرب دائما في أشكال مسيئة لهم.

وفي يوليو ١٩٩٩ كتب هؤلاء الأربعة ورقة تقدير موقف من أجل رئيس الوزراء الإسرائيلي المقبل آنذاك بنيامين نتنياهو من حزب الليكود، وعنوان الورقة هو: " بداية واضحة: استراتيجية جديدة لتأمين المملكة ". وقد طالبت إسرائيل بالتنصل من اتفاقيات أوسلو والمفهوم الذي انطوت عليه: " الأرض مقابل السلام " وضم كل الضفة الغربية وقطاع غزة نهائيا. وكذلك أوصت الورقة إسرائيل بالدعوة إلى الخلاص من صدام حسين كخطوة أولى نحو تغيير نظم الحكم في سوريا ولبنان والمملكة العربية السعودية وإيران. وفي نوفمبر ٢٠٠٢ رد شارون رئيس الوزراء الإسرائيلي هذه الأفكار عندما حث الولايات المتحدة على التحول إلى إيران بمجرد القضاء على صدام. وقد اعتنق كثير من الرسميين الآخرين وأذئابهم في إدارة بوش الثانية نفس وجهات النظر. وبحكم تعاطفهم المعروف جيدا من المعقول الاعتقاد بأنهم كانوا يحاولون تنفيذ هذه الأفكار تحت ستار " الحرب على الإرهاب " (٢٥).

وما زالت هناك نظرية معقولة أخرى تقول إن حُمى الحرب في أميركا أشعل أوارها مديرون سياسيون شرسون في البيت الأبيض، وإن الحملة ضد صدام حسين تهدف أساسا إلى التأثير على السياسات الداخلية في كل من الانتخابات النصفية عام ٢٠٠٢، والانتخابات الرئاسية عام ٢٠٠٤. وأطلق كثير من المعلقين على تلك الحملة الاسم التالي: " أسلحة الإلهاء الشامل " (٢٦). ومن بين أهدافها أيضا تأييد شرعية جورج دبليو بوش المشكوك فيها كرئيس، وإلهاء الناخبين عن تدنى إنجازاته الداخلية في أول سنتين له في الرئاسة. وعندما وجه زعماء الحزب الجمهوري بانتخابات نصف المدة لعام ٢٠٠٢ استماتوا في استبعاد المناقشات التي تتناول قضايا مثل علاقات الرئيس ونائبه الوطيدة مع مؤسسة إنرون الفاسدة، والعجز الهائل والمتصاعد في الميزانية الفيدرالية، ونهب صناديق أموال تقاعد العمال عن طريق دفع رواتب عالية للمديرين التنفيذيين، والتخفيضات الضريبية الكبيرة لصالح الأغنياء، والافتقار الخطير للحريات المدنية بقيادة النائب العام في إدارة بوش، وفي مجال الشؤون الخارجية هناك حقيقة مخجلة وهي استمرار قدرة القاعدة الواضح وبقاء أسامة بن لادن مطلق السراح.

وبهذه الآراء أصبح للمستشارين السياسيين الكبار في البيت الأبيض، مثل كارل روف وأندرو كارد رتيس الموظفين، نفوذ عند الرئيس أكبر بكثير من رامسفيلد وزير الدفاع أو باول وزير الخارجية. ومثلما حدث أثناء حرب فيتنام، عندما أرسى الرؤساء كيندي وجونسون ونيكسون إلى درجة غريبة القرارات الأساسية للسياسة الخارجية على الاعتبارات السياسية الداخلية بدلا من استراتيجية شاملة وتقديرات استخباراتية. تشير الدلائل إلى أن روف هو الذي تجاوز صقور البنتاجون المؤيدين للعمل من جانب واحد، ودفع الرئيس إلى اللجوء للأمم المتحدة لإلقاء خطابه يوم ١٢ سبتمبر ٢٠٠٢ الذي طالب فيه بالقيام بعمليات تفتيش جديدة في العراق. وقد اكتشف روف أن الرأي العام الداخلي ليس متحمسا لشن حرب في الشرق الأوسط بدون حلفاء^(٢٧). ونجحت هذه الاستراتيجية عند جورج دبليو بوش. وبعد سنتين في الحكم كان الحزب المسيطر على البيت الأبيض قد زاد قوته في الكونجرس واكتسب السيطرة على مجلسيه وهي حالة نادرة في التاريخ السياسي الحديث.

ويصعب على أحد أن ينكر أن النفط وإسرائيل والسياسات المحلية لعبت كلها دورا حاسما في حرب إدارة بوش ضد العراق، غير أنني أعتقد أن التفسير الأكثر إحاطة بحربنا الثانية مع العراق لا يختلف عن ذلك الذي يتعلق بحروبنا في البلقان عام ١٩٩٩ أو في أفغانستان عامي ٢٠٠١-٢٠٠٢ وهو: الضغوط العنيدة للنزعتين الإمبراطورية والعسكرية. وكان جى بوكمان الكاتب في صحيفة "أتلانتا جورنال - كونستيتيوشن" قد طرح السؤال المناسب منذ شهور قبل بدء الحرب وهو: "لماذا يبدو أن الإدارة ليست مهتمة بوضع استراتيجية للخروج من العراق بمجرد إسقاط صدام حسين؟ لأننا لا نريد الخروج. وعندما تهزم الولايات المتحدة العراق سوف تقيم قواعد عسكرية دائمة في ذلك البلد، لتسيطر من خلالها على الشرق الأوسط بما في ذلك إيران المجاورة"^(٢٨).

وبالفعل بدأت الولايات المتحدة، بين هزيمة العراق عام ١٩٩١ واستئناف المعارك في مارس ٢٠٠٣ في امتلاك وبناء قواعد في المنطقة، بدءا بتعزيز وتوسيع المنشآت التي كانت قد استخدمتها أثناء الحرب خاصة في السعودية والكويت. وقد أسفر قرار البقاء في السعودية عن نتائج خطيرة لم تكن في الحسبان، وبشكل خاص بالنسبة لمدينة نيويورك. فقد تدمر عدد من الشبان السعوديين ذوى النفوذ من إلقاء الأضواء على التحالف الأميركي وقائده نورمان شوارتزكوف، والإساءة إلى نظيره السعودي الجنرال

خالد آل سعود قائد وحدات من أربع وعشرين دولة ليست غربية، ورغم ذلك تجاهله الحلفاء الغربيون بشكل عام. وشعر هؤلاء السعوديون بأنه كان من الأفضل لو أسند إلى الدول العربية ودول الخليج الفارسي الدور الرئيسي في معاقبة صدام حسين بدلا من الاعتماد على الأميركيين والأوروبيين حتى ولو كانت قدرة السعودية وحلفائها للقيام بهذا الدور مجرد خيال. والأكثر أهمية من ذلك أن بعضهم توصل إلى الاعتقاد بأن الملك السعودي أراد بقاء القوات المسلحة الأميركية في المملكة العربية السعودية لحمايته أساسا في وجه المطالب المتنامية بإقامة نظام أكثر حداثة وأقل تسلطا. ولما كان الملك السعودي مؤتمنا على الدفاع عن مكة والمدينة، أقدس مكانين في العالم الإسلامي، فقد احتج متمردون سعوديون آخرون (ديموقراطيون بالكاد) بأن وجود هذه الأعداد الكبيرة من غير المسلمين في البلاد يعتبر إهانة لا للشعور الوطني السعودي فحسب بل للإسلام نفسه.

وفي البداية كانت هناك وقائع قليلة مناهضة للأميركيين. ففي فبراير ومارس ١٩٩١ أطلقت عدة رصاصات على سيارات عسكرية أميركية. وكانت هناك محاولة لإحراق حافلة، ولكن في عام ١٩٩٤ أصبحت الأمور أكثر خطورة مع وجود تقارير متزايدة عن مخاطر إرهابية. وفي يوم ١٣ نوفمبر ١٩٩٥ فجرَ متمردون سيارة مفخخة بنحو ٢٢٠ رطلا من المتفجرات في مدينة الرياض مما أدى إلى مقتل خمسة أميركيين وشخصين هنديين. وكان الهدف البعثة الأميركية للتدريب العسكري في المملكة العربية السعودية، والتي كانت خاضعة للإشراف المباشر من القيادة المركزية في قاعدة ماكديل الجوية في فلوريدا، ولكنها بالفعل تخضع لتعاقد مع مقاول من الباطن هو مؤسسة فينيل وهي شركة عسكريين مرتزقة. وفي مايو ١٩٩٦ أدانت الحكومة السعودية أربعة مسلمين بارتكاب الجريمة وحكمت بقطع رءوسهم.

وأثناء حرب الخليج الأولى أسكنت السعودية عدة مئات من القادة العسكريين الأميركيين والبريطانيين والفرنسيين، وأعضاء هيئة أركانهم في أبراج الخُبر وهي مجموعة من عدة مبان سكنية من ثمانية طوابق تقع في مدينة الظهران في محيط قاعدة الملك عبد العزيز الجوية. وعلى الفور وضع الأميركيون بطاريات صواريخ باتريوت الدفاعية الجوية حول مجموعة المباني ومطار الظهران المجاور. وبعد انتهاء الحرب في يوليو ١٩٩٢ و موافقة السعوديين على السماح ببقاء القوات المسلحة

الأميركية، أقامت القيادة المركزية لقوات الجيش - المملكة العربية السعودية، مركز قيادتها في أبراج الخُبَر. وفي يوم ٢٥ يونيو ١٩٩٦ فجر إرهابيون مناهضون للأميركيين شاحنة محملة بقنبلة ضخمة بالقرب من سيجان متسلسل يحيط بالمباني السكنية، فقتل تسعة عشر أميريكيا من سلاح الجو وأصيب المئات. ومع ذلك أصبح البيت الأبيض والبنجاحون يريان أن الوجود الأميركي هناك هو أساس كل استراتيجيتنا في الخليج الفارسي وقررا ألا يتزحزحا، ولكن أن يعزلا رجالهما عن المجتمع السعودي قدر المستطاع، وذلك على الرغم من الجزرة وبدلا من الانسحاب من السعودية. وعقب الهجوم على أبراج الخبر أعادت البنجاحون أماكن وجود نحو ستة آلاف عسكري إلى مواقع أبعد وأسهل في حمايتها. وبالنسبة لجميع وحدات القيادة العليا وهي القيادة المركزية لقوات الجيش - المملكة العربية السعودية، والبعثة الأميركية للتدريب العسكري. وعمليات أخرى، فقد أمرت بنقل مكاتبها وأماكن إقامتها من الظهران ووسط مدينة الرياض إلى قرية الإسكان، وهي منتجع يقع على بعد نحو خمسة عشر ميلا من العاصمة. وتحيط به بطاريات صواريخ باتريوت. ونقلت القوة الجوية طواقم موظفيها ومعداتنا إلى قاعدة الأمير سلطان الجوية الواقعة في الخارج على طريق لا معالم له على بعد سبعين ميلا جنوب شرق الرياض في الصحراء المفتوحة، وهو منتجع يمتد على مساحة ٢٣٠ ميلا مربعا ويبلغ نفس حجم مدينة شيكاغو الكبرى، ولكن لا وجود له في الخرائط. ووفقا للقواعد السعودية المفروضة لا يسمح بالتقاط أية صور تحتوي على أي شيء يدل على وجود قوات أميركية في قاعدة الأمير سلطان، أو وضع علامات بارزة أو لافتات، أو إظهار أشخاص سعوديين يمشون في خلفية المكان حتى يتبين أن الموقع المصور هو في السعودية، ولا يسمح باستخدام مركبات تحمل لوحات أرقام سعودية. وتخضع جميع اللقطات للمراقبة ومصادرة تلك التي تحتوي على أي شيء غير الخلفية الفارغة^(٢٩).

وكانت الحكومة السعودية قد أنشأت قرية الإسكان في عام ١٩٨٢ لإيواء واحدة من قبائل البدو الرعاة السعودية، ولكن أفراد القبيلة فضلوا العيش في خيامهم التقليدية في الصحراء، ولم يتم شغل المجمع السكني منذ ذلك الحين، وهي في الواقع بلدة صغيرة قائمة بذاتها وتتكون من ٨٣٦ "فيلا" وسبعة وثلاثين برجاً عالياً. ومنذ حرب الخليج إلى تفجير أبراج الخُبَر كانت قرية الإسكان مخصصة بصرامة لإسكان طواقم العسكريين الأميركيين العاملين في الرياض العاصمة السعودية أو في قاعدة الرياض

الجوية. ومن عام ١٩٩٦ عبر حرب الخليج الثانية أصبحت سكنا وموقعا للعمل معا. وكان معدل حجم الفيلا خمس غرف للنوم وثلاثة حمامات وغرفة معيشة ومطبخ. والفيلا مجهزة بالكامل مع موقد للطبخ وجهاز تليفزيون وغسالة كهربائية. وتحتوى الفيلا المخصصة للنساء وحدها على أجهزة تجفيف الملابس (مراعاة لحساسية السعوديين إزاء ملابس النساء الداخلية المعلقة على الحبال خارج البيوت). وأصبحت قرية الإسكان مجتمعا أميريكيا بالكامل مع قاعات لتناول الطعام وعيادات طبية وأخرى للأسنان، وملعب لكرة السلة والكرة الطائرة ومضمار مصغر للجولف ومطعم للبيتزا ومطعم وجبات صينية سريعة. وناد مع حمام سباحة^(٣٠). ومع ذلك كانت المشروبات الكحولية ممنوعة بكافة أنواعها.

وتتضاءل مرافق ونطاق قرية الإسكان إذا قورنت بتلك التى فى قاعدة الأمير سلطان الجوية التى ظلت على مدى عقد من الزمان أكبر قاعدة عسكرية استخدمتها الولايات المتحدة فى منطقة الخليج الفارسى ويبلغ حجمها نفس حجم دولة البحرين بأكملها وتقع على بعد ٦٢٠ ميلا فقط من بغداد. وكانت الحكومة السعودية قد خططت لبناء قاعدة الأمير سلطان قبل حرب الخليج الأولى، ولكنها بنت فقط مدرجا هائلا طوله ١٥ ألف قدم بالإضافة إلى مدارج لسير الطائرات ومدارج الانتظار. ولم تكن هناك أية مبان بعد حتى أكتوبر ١٩٩٠ عندما أرسل سلاح الطيران الأمريكى واحدا من أسرابه يتضمن ٤٣٥ شخصا، وتسمى "أسراب الحصان الأحمر" والاسم هو اختصار لأحرف أولى تشكل كلمتى الحصان الأحمر، ولكنها تعنى (السرب سريع الانتشار لمهندسى الإصلاح العملياتى الثقيل). وقد جاء هذا السرب من قاعدة أفيانو الجوية فى إيطاليا لى يهيئ المكان للعمليات. وقد ابتكرت هذه الأسراب أثناء حرب فيتنام واستخدمت أحيانا فى شل مطارات العدو كما فعلت فى العراق أثناء حرب الخليج، كما أنها متخصصة فى إصلاح المطارات أثناء الاشتباكات. وهى أسراب مسلحة تسليحا كاملا، وقد عملت خلال شتاء عام ١٩٩٠ فى قاعدة الأمير سلطان فى أكثر من خمسة وثلاثين مشروعا كبيرا بتكلفة تزيد على ١٤,٦ مليون دولار. وبحلول شهر يناير ١٩٩١ بدأت القاعدة تستقبل الطائرات، وعند بدء حرب الخليج كان لديها نحو ٤٩٠٠ من المستخدمين العاملين فى سلاح الجو أصبحت قادرة على إيواء وخدمة وتسليح خمسة أسراب من الطائرات المقاتلة وأفراد دعمها (ويتكون السرب الأمريكى النمطى من ٢٤

طائرة) ومع نهاية القتال عام ١٩٩١ سمح لها بالراحة إلى أن وقعت حادثة تفجير أبراج الخبر التي أعادتها إلى الخارطة مرة أخرى.

وتحيط بقاعدة الأمير سلطان صحراء منبسطة مع خطوط مفتوحة لإطلاق النار ولذلك فهي موقع مثالي " لإخفاء " الوجود الأميركي. وبالإضافة إلى ذلك خصص سلاح الجو ١٩٪ من جنوده الستة آلاف الموجودين في القاعدة بعد عام ١٩٩٦ للعمل " كسياج أمني "، ومع ذلك صدرت الأوامر للطائرات من طراز إف-١٥ وإف-١٦ بالإقلاع بأقصى سرعة ممكنة لتجنب أي هجوم محتمل بصواريخ أرض - جو. ولم يسمح إطلاقاً بمغادرة القاعدة للجنود الذين كانوا يعملون في نوبات تستغرق تسعين يوماً. وقد بلغت تكلفة تحويل العمليات الأميركية إلى قاعدة الأمير سلطان الجوية نحو ٥٠٠ مليون دولار. وكانت قبل وأثناء حرب الخليج الثانية القاعدة الرئيسية لعمليات الاستطلاع الأميركية التي تستخدم طائرات أواكس وطائرات التجسس طراز يو - ٢.

واستمرت عملية الإنشاء في قاعدة الأمير سلطان من صيف عام ١٩٩٦ حتى عام ٢٠٠٢. وفي عام ١٩٩٧ منحت وزارة الدفاع والطيران السعودية عقداً قيمته ٦٠,٧ مليون دولار لقسم أجهزة الاستشعار الإلكترونية والنظم الجوية التابع لشركة نورثروب. وذلك لكي يتولى إقامة ودمج نظم مراقبة الحركة الجوية والملاحة والأحوال الجوية والاتصالات. وفي بداية عام ١٩٩٩ انتقل الجنود الذين كانوا يعيشون في خيام مكيفة الهواء إلى منشآت سكنية جديدة تكفي لإيواء ٤٢٥٧ شخصاً وتقع على بعد ميلين من القاعدة. وقد دفعت الحكومة السعودية مبلغ ١١٢ مليون دولار من أجلها ولذلك فقد ظلت ضمن ممتلكات الحكومة حتى مع تولى سلاح الجو الأميركي إدارتها وصيانتها. وتضمنت هذه المنشآت قاعات جماعية لتناول الطعام أطلقت عليها أسماء مثل كاميلوت وميراج. ومسرحاً للقاعدة، وجيمنازيوم، ومركز تأهيل، وحمام سباحة خارجياً يتم تبريده بصفة دائمة عند درجة الحرارة ٨٢ فهرنهايت (درجة الحرارة في قاعدة الأمير سلطان عادة تتراوح بين ١١٠ و ١١٥ درجة فهرنهايت)، ومركز الأمير سلطان الطبي (بلغت تكلفته ٥,٨٧ مليون دولار) الذي دشنته الأمير سلطان بنفسه في ٢٢ يونيو. وبلغت تكلفة القاعدة الجوية الإجمالية منذ بداية إنشائها أواخر الثمانينيات مبلغاً قدر بنحو ١,٠٧ بليون دولار. وفي السنوات التي أدت إلى حرب العراق الثانية قامت طائرات سلاح الجو بما مجموعه ٢٨٠ ألف مهمة انطلاقاً من هذه القاعدة وغيرها من القواعد

فى الخليج الفارسى لفرض حظر الطيران فى جنوب العراق. وانطلقت نفس المهام إلى شمال العراق من قاعدة إنتشيرلك الجوية التركية.

وتم إنجاز الجزء الإنشائى العسكرى الرئيسى فى قاعدة الأمير سلطان قبيل الحرب فى أفغانستان وهو عبارة عن مركز للعمليات الجوية المشتركة مع أحدث نظم القيادة والمراقبة. ومركز استخبارات مشترك يتضمن ثلاث شبكات إنترنت مختلفة لحركة مرور القوات المتحالفة العلنية والسرية. ودشن سلاح الجو المركز فى يونيو ٢٠٠١. وفى أكتوبر سمحت الحكومة السعودية باستخدامه فى تنسيق العمليات الجوية ضد أهداف فى أفغانستان. وقد أشرفت وكالة اتصالات سلاح الجو بالغة السرية على تصميم المركز وتجهيزه. وقام مركز العمليات الجوية المشتركة الجديد فى قاعدة الأمير سلطان بتنسيق العمليات الجوية مع قواعد جوية جديدة كانت الولايات المتحدة تقوم ببنائها آنذاك فى الكويت وقطر والإمارات العربية المتحدة، ولكن عندما اقتربت حرب العراق الثانية أصبح غير واضح ما الذى سوف تسمح به الحكومة السعودية من مهام يقوم بها الأميريكىون باستخدام قاعدة الأمير سلطان، ولذلك قامت وزارة الدفاع الأميركية على الفور ببناء مركز قيادة جوية بديل وملائم فى قاعدة العديد الجوية فى قطر^(٣١).

وبنفس نمط الحياة فى قواعد الإمبراطورية المتناثرة فى بلاد النفط. يتم قضاء أغلب الأيام فى قاعدة الأمير سلطان فى السباحة ومشاهدة مباريات كرة القدم على شاشات التليفزيون عندما لا يكون هناك عمل. ومع ذلك لم يلق العزل استحسانا من الجنود بالضرورة فنجد أن المقدم مارتا ماك سالى وهى أعلى الطيارين رتبة بين النساء فى سلاح الجو قاضت وزارة الدفاع أمام المحكمة لأنها طالبتها عند خروجها بارتداء العباءة التى تلبسها السعوديات عند خروجهن إلى العلن. وقالت إن طلب الوزارة انتهاك غير دستورى لحقوق النساء الأميريكيات. وقد كسبت الدعوى (فى واشنطن العاصمة) وسحبت القيادة المركزية طلبها^(٣٢).

وفهمت الحكومة الأميركية دائما أن وجود قواتنا فى السعودية كان هو السبب الجذرى فى أنشطة القاعدة الإرهابية ضد كل من الملك والأهداف الأميركية فى البلاد وخارجها. وبدلا من نقل هذه القوات على الفور بعد ١١ سبتمبر، انتظرت إدارة بوش حتى تستطيع التستر على ما كانت تفعله سرا فى عمليات إعادة الانتشار العسكرية

العادية. وفى يوم ٢٩ أبريل ٢٠٠٣ أعلن دونالد رامسفيلد وزير الدفاع الأمريكى ونظيره الأمير سلطان بن عبد العزيز وزير الدفاع السعودى فى الرياض أن سقوط صدام حسين يعنى انتهاء مهمة القوات المسلحة الأمريكية فى البلاد وأن على جميع " القوات القتالية " أن تتسحب. ورغم ذلك يبدو أن إدارة بوش تباطأت طويلا جدا. وفى ١٢ مايو ٢٠٠٣ هاجم الإرهابيون أربعة منتجعات مسورة وتحت الحراسة مخصصة للأجانب فى مدينة الرياض مما أسفر عن مقتل أكثر من ثلاثين أميريكيا وسعوديا. يزيد على ذلك أن الولايات المتحدة لم تكن لتترك فعليا قاعدة الأمير سلطان أو البلاد، فقد استبقت وحدة صيانة صغيرة فى القاعدة الجوية كما استمرت وحدة مؤسسة فينيل للتدريب فى عملها مع الحرس الوطنى السعودى. وأعلن انسحاب الولايات المتحدة بجعجعة كبيرة فى التلفزيون السعودى، ولكن من المستبعد أن يصدق أحد أن الإمبرياليين الأمريكين فقدوا فعلا الاهتمام بأغنى بلد إنتاجا للنفط فى العالم. وعلى حد قول نبال فيرجسون المؤرخ الإنجليزى للنزعة الإمبراطورية، فى مقابلة مع صحيفة نيويورك تايمز: " من عام ١٨٨٢ حتى عام ١٩٢٢ وعد البريطانيون المجتمع الدولى ستا وستين مرة بأنهم سوف يخرجون من مصر، ولكنهم لم يفعلوا إطلاقا " (٣٢).

وقد ظلت قاعدة الأمير سلطان هى قاعدة القواعد فى منطقة الشرق الأوسط عدة سنوات. ولكن الولايات المتحدة كانت قد بنت مثل هذه القدرات العسكرية الفائقة فى منطقة الخليج وبذلك كان لقرار ما بعد حرب العراق بسحب معظم العسكريين من السعودية تأثير ضعيف على قدرة أميركا على شن الحرب. إن إنتشار القواعد فى الدول المجاورة وهى الكويت والبحرين وقطر وحدها تتجاوز أية حاجة عسكرية قد تواجهها الولايات المتحدة. ومع ذلك مازال هناك العديد من القواعد فى عُمان والإمارات العربية المتحدة وتركيا ومصر وإسرائيل وجيبوتى بالإضافة إلى تلك التى تمتلكها فى أفغانستان وباكستان وقيرجيزستان وأوزبكستان. وقبل نهاية عام ٢٠٠٣ ستكون هناك أربع قواعد جديدة فى العراق. كذلك يستطيع السلاح البحرى نشر ما يصل إلى خمس مجموعات قتالية من حاملات الطائرات فى كل منها نحو خمس وسبعين طائرة، وصواريخ كروز، وأسلحة نووية، فى بحر العرب والبحر الأحمر والخليج الفارسى. وتتألف المجموعة القتالية الواحدة من حاملات الطائرات نفسها وطرادين

ومدمرتين أو ثلاث وفرقاطة وغواصة هجومية، وسفينة دعم قتالية، أى أن المجموعة فى جوهرها عبارة عن قاعدة عائمة.

وعشية حرب العراق الثانية كان " كامب دوحه "، القاعدة الرئيسية فى الكويت، نقطة الوثوب لقوات برية مهولة تنتظر الأوامر بالانطلاق عبر حدود العراق ومن بينها الجيش الخامس القادم من هايدلبرج فى ألمانيا، وقوة المارينز الأولى للعمليات الخارجية من كامب بندلتون بولاية كاليفورنيا، وفرقة المشاة الثالثة (الميكانيكية) من فورت ستيوارت بولاية جورجيا، وثلاثة أسراب من الهليكوبتر الهجومية طراز أباتشى، ووحدة من القوات الخاصة، ومجموعة متقدمة من الفرقة المدرعة الأولى البريطانية. وكانت الأسلحة الأساسية فى هذه الوحدات هى ٢٣٠ دبابة قتالية رئيسية من طراز إيبيرامز، و١٢٠ مركبة قتالية طراز برادلى، و ٤٠ قطعة مدفعية ذاتية الارتداد عيار ١٥٥ ملم طراز بالادين. وتقوم شركة جنرال داينامكس بصناعة الدبابة إيبيرامز التى تزن ٦٨,٧ طن وتتكلف ٤,٢ ملايين دولار للدبابة الواحدة، وتصل حمولة مركبة برادلى إلى ٥٠ ألف رطل وهى مدرعة وأشبه، "تاكسى المعارك" كما أنها مجهزة برشاشات حديثة، وصواريخ مضادة للدبابات، وقنابل دخان التى تستخدم فى عبور الجنود إلى ميدان القتال خلف الدبابات. وتعتبر مدافع بالادين أكثر المدافع المتقدمة فى ترسانة الجيش ويزن الواحد منها نحو ٢٢ طنا.

ومنذ تفجير أبراج الخبر أصبح من أهم أهداف الجيش هو الاستعاضة بموضع حديث ملائم بحيث يمكن حمايته تماما من أية هجمات إرهابية محتملة بدلا من قاعدة " كامب دوحه " شديدة القرب من مدينة الكويت العاصمة. وفى يوليو ١٩٩٩ بدأت حكومة الكويت فى العمل على إقامة قاعدة جديدة بتكلفة بلغت ٢٠٠ مليون دولار وأطلق عليها اسم "عريف جان". وتقع فى الصحراء جنوب العاصمة. وأثناء عام ٢٠٠٢ نقل نحو ١٠ آلاف جندي غير مقاتل من الجيش إلى هناك من كامب دوحه، وخزنت جميع المعدات اللازمة للواء كامل فى الجيش فى مخازن ضخمة فى القاعدة الجديدة بدلا من تعرضها لظروف البيئة الصحراوية كما كان الوضع فى كامب دوحه. وقد صمم القاعدة سلاح المهندسين التابع للجيش وهى تحتوى على ثكنات حديثة مزودة بزجاج غير قابل للكسر على جميع النوافذ ومواقف خاصة لصيانة الدبابات. وتم إنشاء معظم القاعدة خلال عام ٢٠٠٢ وبقيت فقط بعض الطرق والمرافق. وقد استمر استخدام قاعدة كامب

دوحة منذ حرب الخليج الأولى، ولكن كان مفهوما أنها منشأة مؤقتة. ولكن قاعدة عريف جان كانت الدليل على أن الأميركيين ينوون البقاء لمدة طويلة.

وأثناء أواخر التسعينات من القرن العشرين كان الجيش ينقل جوا كتيبة جديدة من الولايات المتحدة أو أوروبا إلى الكويت كل أربعة أشهر من أجل التدريب. وكان المطار الذى استخدمه هو قاعدة أحمد الجابر الجوية التى تقع على بعد خمسة وسبعين ميلا فقط من حدود العراق. ورغم أن سلاح الجو الكويتى هو صاحب هذه القاعدة فإنه تم تخصيص منطقة منها لعمليات سلاح الجو الأمريكى فقط. وحتى أواخر عام ١٩٩٦ نشر سلاح الجو الأمريكى مقاتلاته من طراز إف - ١٥ وإف - ١٦ فى مطار مدينة الكويت الدولى. ولكن بعد الهجمات الإرهابية فى الرياض والظهران نقل سلاح الجو كل شىء إلى ما أطلق عليه الجنود كلمة "الجاب" وهو جزء من الاسم المعروف. وكانت قاعدة "أحمد الجابر الجوية" هدفا صعبا وفقا لمنظمة الأمن العالمى. وقد استخدم سلاح الجو كل وسيلة متاحة بدءا من الحواجز المادية وحتى أجهزة الاستشعار ذات التقنية العالية والكاميرات العاملة بالأشعة فوق الحمراء. حتى تؤمن دخول الناس إلى قاعدة الجابر سالمين. وتقوم قوة أمنية متحفزة وقوية بإخضاع كل شىء للفحص الصارم حتى الأشياء غير المؤذية.^(٢٤) ويترك سلاح الجو جميع الخدمات تقريبا المقدمة لعدة آلاف من الجنود الأميركيين فى قاعدة الجابر للعقود مع الشركات.

وهناك منشأة عسكرية أميركية أخرى فى الكويت وهى قاعدة على السالم الجوية على بعد تسعة وثلاثين ميلا من الحدود العراقية، وكانت حتى وقت قريب مركزا للعمل الشاق مخصصا لمراقبة الفضاء الجوى العراقى بالرادار. ويقول أحد أوصاف قاعدة على السالم إن "الطقس حار جدا هنا كائى مكان لم يحدث أن كنت فيه طوال حياتك"^(٢٥) وخلال منتصف عام ٢٠٠٠ بدأ العمل فى إنشاء مبان وأدوات فحص جديدة لتحويلها إلى قاعدة دائمة. وتقدم الخدمات فيها أيضا عن طريق التعاقد مع الشركات.

ويحلو للأميركيين الاعتقاد بأن الكويت مدينة للولايات المتحدة لأننا جئنا لمساعدتها فى عام ١٩٩١، ولذلك فهى ترحب بالقواعد العسكرية الدائمة على ترابها. وهذا اعتقاد خاطئ. ولم تثبت الكويت أنها حليف صديق بوجه خاص. فالكويت كدولة عربية تعارض الدعم الأمريكى للتوسع الإسرائيلى والكيل بمكيالين بالنسبة للإرهابيين الفلسطينيين

والجنود الإسرائيليين، وكلاهما يقتل المدنيين العزل (من المؤسف أن يوصم مفكر وأستاذ جامعي مثل المؤلف المقاومة الفلسطينية بالإرهاب - المترجم)، كذلك فإن الكويتيين لا يسعدهم وجود جنود أجانب بينهم مثلهم في ذلك مثل أى شعب آخر، وخاصة إذا كان هؤلاء الأجانب لا يبدون احتراماً لعقيدتهم. ورغم ذلك قبلت الكويت الحماية الأميركية وهي تدفع المال مقابل ذلك.

ويبدو الأمر أكثر تعقيداً في دول الخليج الأخرى فقطر وعمان دولتان صغيرتان ترتعبان من جاراتها الأكبر: إيران والعراق والمملكة العربية السعودية. وقد قامتاً بدعوة الأمريكيين إليهما كشكل من أشكال الحماية مثلما تقبل أسلافهما الحماية البريطانية. وفي مقابل ذلك يطلب الأميركيون قواعد عسكرية مفضلين المناطق الأكثر أمناً بعيداً عن المراكز السكانية. وتعلم البنّاجون أن تلك القواعد بشكل خاص لا تلقى ترحيباً في المنطقة وأن الحكومات الخليجية تفضل ألا تتحدث عن القواعد الأميركية أو الاعتراف بوجودها أكثر مما يلزم. ومن المحتمل أن تكون عُمان أكثر دول الخليج تسامحاً مع الأميركيين والإمارات العربية المتحدة أقلها. وكل من هذه الدول تخاطر إزاء غضب شعبيها الشديد لتعاونها مع الولايات المتحدة.

وتعتبر البحرين مثالا جيدا وقد ظلت مكانا هادئا نوعا ما حتى شهر يوليو ١٩٩٥ عندما نقل السلاح البحري قيادة الأسطول الخامس إلى هناك مع نحو ٤٢٠٠ من العاملين العسكريين. وتشير منظمة الأمن العالى إلى أن "وحدة الدعم الإدارى البحرى تحمل ملامح قليلة من المنتج الصغير على مساحة ١٠ إيكّر الذى ظل قائما حتى عام ١٩٩١. وفى السنوات السبع الأخيرة تمدد هذا "التجويّف النائم" لىغطى مساحة ٦٢ إيكّر مع منشآت جديدة بلغت تكلفتها ٣٦,٥ مليون دولار وتضمنت مساكن مؤقتة للعزّاب وعيادة طبية وأخرى للأسنان وملعبا للتنس وما يشبهها، وكنيسة صغيرة. ومكتب بريد ومساحات لعدة رياضات متعددة الأغراض"^(٣٦) ويعتبر عدد كبير من العاملين فى الخدمات أن الخدمة فى البحرين هى أفضل موقع عمل عسكري فى الخليج. وعلى العكس من السعودية التى ترتبط بالبحرين عن طريق جسر مرتفع، يتناول الأميركيون المشروبات الكحولية فى البحرين، ولكن رغم أن المنامة عاصمة البحرين مهيةة أساسا لإقامة جميع الأجانب، لا الأجانب الأميركيين فقط، وأن مجموع سكان المملكة ٦٦٠ ألف نسمة فقط، أقام السلاح البحرى عدة فنادق وبارات خارج الحدود للعاملين لديه

كندبير وقائى من الهجمات الإرهابية. وتبذل البحرين قصارى جهدها حتى لا تظهر بمظهر المتذلل للأميركيين. والبحرينيون أغنياء ويعيشون حياة مريحة، ولكنهم مع ذلك يتظاهرون ضد الولايات المتحدة عند أدنى تحريض. وقد عبر حمد بن عيسى آل خليفة ملك البحرين الخليج فى زيارة رسمية لإيران للحفاظ على توازن الأمور السياسية. ولقى هناك ترحيبا من الرئيس محمد خاتمى. وكانت زيارته هى الأولى كحاكم لدولة البحرين منذ الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩^(٢٧). ومع وجود الأسطول الخامس أو بغير وجوده كان من الواضح أن البحرين لم تتأثر بتصريح الرئيس جورج بوش فى يناير ٢٠٠٢ الذى سعى إيران بأنها جزء من " محور الشر ".

وقد ورث السلاح البحرى الأمريكى قاعدة المنامة البريطانية. ومن هنا كان وجود السفن العسكرية أمرا مألوفا، ولكن القوات الجوية شئ آخر. وفى عام ١٩٨٧ بدأ سلاح الجو البحرى فى بناء قاعدة جوية ضخمة على جزيرة البحرين على بعد نحو عشرين ميلا من المنامة. وكانت قاعدة الشيخ عيسى الجوية المخصصة لجناح واحد من المقاتلات تمتلكه البحرين. ولم يكتمل بناء القاعدة حتى السنوات الأربع السابقة على حرب الخليج الأولى عندما استولى عليها مشاة البحرية الأمريكية. وأكملت بناءها وحدة " نحل البحر " البحرية. وخلال منتصف تسعينيات القرن العشرين، قام سلاح الجو بمزيد من توسيع القاعدة، وفى عام ١٩٩٧ نقل " جناح الجو للعمل خارج خارج الوطن رقم ٣٦٦ " من قاعدة ماونتن هوم الجوية فى أيداهو مع ١٢٠٠ موظف وطائرات قاذفة متقدمة من طراز بى - ١، والطائرات المقاتلة إف - ١٥ وإف - ١٦ وطائرات التزويد بالوقود فى الجو طراز كى سيذ ١٢٥. ونقلت البنتاجون أيضا عناصر من كتيبة صواريخ باتريوت المضادة للصواريخ من قاعدة فورت بلس فى تكساس. وبحلول عام ٢٠٠٠ أصبح مشاة البحرية الأمريكية وسلاح الجو الأمريكى من الثوابت الدائمة فى قاعدة الشيخ عيسى الجوية رغم أن هذا الوجود هو الموضوع الذى لا ترغب حكومة البحرين فى الحديث عنه.

وتقع قطر الغنية إلى الجنوب من البحرين ويبلغ حجمها حجم كونيكت وروود أيلاند معا. ورئيس الدولة هو الأمير ولا يحاسبه أحد مباشرة، ولكنه يلتزم بتقاليد القبيلة والشريعة الإسلامية ويعمل فى الأساس على حفظ المصالح الإقطاعية والمالية لعائلته.

وليس هذا أمراً سهلاً إذا وضعنا فى الاعتبار الضغوط المعاصرة على قطر التى يبلغ مجموع سكانها ما يزيد بقليل عن ٨٠٠ ألف نسمة من بينهم ٨٠٪ من العمال والأجانب ومعظمهم من العرب والباكستانيين والهنود والإيرانيين المستيرين. وبفضل الثروة النفطية الضخمة واحتياطات الغاز الطبيعى الهائلة، وصل دخل الفرد عام ٢٠٠٠ إلى نحو ٢٠٣٠٠ دولار، وهو يساوى نفس الدخل فى أكثر الدول تقدماً. وبذلك فإن مستوى المعيشة المرتفع بين المجموع العام للسكان الذين يفتقرون إلى روابط متينة بقطر، معناه وجود احتياج فى قاع المجتمع يطالب بإنهاء نظام الحكم الأوتوقراطى وانفتاح النظام السياسى للتغيير الاجتماعى.

وكانت قطر جزءاً من الإئتلاف المناهض للعراق أثناء حربى الخليج الاثنتين. وفى يونيو ١٩٩٢ سمحت للولايات المتحدة بحقوق تخزين الأسلحة فى قواعد مقابل تعهد ضمنى بمساعدة قطر إذا هوجمت. ولم تكن مخاوف قطر فكرة مجردة، فعلى الرغم من أن حجمها يزيد عدة مرات عن حجم البحرين، كما أنها أغنى منها، فإن القطريين الأصليين يشكلون أقلية صغيرة الأمر الذى يجعلها عرضة للاستيلاء عليها من الخارج أو للثورة الداخلية أو لكليهما. وهى تشترك مع السعودية فى أرض حدودية هى محل نزاع بينهما، كما أنها حاربت بغداد فى حربى الخليج، وتعيش حالة خصومة مع إيران. وتأمل قطر فى احتواء السخط الشعبى عن طريق الدعم الخفى للولايات المتحدة بينما تنتقدها علناً، وشجب إسرائيل بينما تعلن عن هباتها المالية الضخمة للفلسطينيين. والهدف من ذلك هو الاحتفاظ بسلامة القوى الديكتاتورية لنخبته الحاكمة الصغيرة أطول وقت ممكن. وبعد أن عزل الأمير الشاب الشيخ حمد بن خليفة آل ثانى والده المحافظ بانقلاب غير دموى فى يونيو ١٩٩٥، أبدى بادرة مهمة نحو الانفتاح وربما الديموقراطية، ووافق على رعاية شبكة الجزيرة الإخبارية " الجزيرة " التى أصبحت المصدر الوحيد للأنباء الأكثر تأثيراً فى الدول الإسلامية. وتوجد استديوهات فى الدوحة عاصمة قطر. وفى عام ١٩٩٦ أمرت السعودية بطرد شبكة بى بى سى من البلاد لأنها أذاعت تقارير إخبارية عن قضايا مثيرة للجدل مثل عقوبة قطع الرأس والمتمردين السعوديين. وبعد شهور قليلة استأجر الأمير الجديد معظم المحررين والمراسلين والفنيين العاملين فى محطة بى بى سى العربية وجعل منهم نواة شبكة الجزيرة. ويبدو أنه كان ينوى إلغاء الرقابة فى قطر ومن ثم يخفف بعض الضغوط المطالبة بمزيد من الانفتاح دون أن يخل باستقرار البلاد. وبناء على ذلك منح الأمير فى

الغالب حرية صحفية كاملة لشبكته التليفزيونية. وقد تعرضت الجزيرة حتى الآن لانتقادات من كل دولة إسلامية فعلا من السعودية حتى الجزائر، ومن إسرائيل بطبيعة الحال. وفي أكتوبر ٢٠٠١ طلب كولين باول وزير الخارجية وكوندوليزا رايس مستشار الأمن القومي أن يفرض الأمير رقابة على ضيوف الجزيرة الذين زعموا أن السياسة الخارجية الأميركية هي المسؤولة عن هجمات ١١ سبتمبر الإرهابية. وفي الشهر التالي قصفت الولايات المتحدة مكتب الجزيرة في كابول بأفغانستان مثلما قصفت ستديو شبكة بغداد أثناء حرب العراق الثانية. ومازال الأمير يدعم الجزيرة في حدود مبلغ ١٠٠ مليون دولار ولم تقترب شركات الإعلان من استخدام الشبكة، ومع ذلك استمرت القناة في إذاعة أخبار العالم. والأمور الوحيدة المحظورة هي إجراء المقابلات مع المتمردين السياسيين القطريين، وتناول تفاصيل سياسة إقامة القواعد الأميركية في الإمارة^(٣٨).

ومن بين القواعد التي وضعت البنتاجون يدها عليها يوجد واحد من أفضل المطارات في الخليج ويبعد نحو تسعة عشر ميلا جنوب شرق الدوحة في الصحراء المفتوحة. وخلال أواخر تسعينيات القرن الماضي قامت قطر ببناء قاعدة العديد الجوية بتكلفة بلغت ١,٤ بليون دولار على أمل أن تجذب الأميركيين الذين كان واضحا أنهم لا ينوون الاستمرار في التمسك بقواعدهم السعودية إلى الأبد، ومن المحتمل أن الهدف من العديد كان تقديم رشوة للأميركيين لكي يصبحوا حماة البلاد. وهي القاعدة الوحيدة التي تسمح السلطات بذكرها في وسائل الإعلام، ويعتبر مدرجها البالغ طوله ١٤٧٦٠ قدما واحدا من أطول المدرج في الخليج وهو يتجاوز بدرجة كبيرة احتياجات الاثنى عشرة طائرة مقاتلة أو نحو ذلك التي تمتلكها قطر. وعمل المطار على إنشاء مخابئ قوية من الكونكريت لإيواء ١٢٠ طائرة حربية.

والتقط سلاح الجو الطعم بحماس كبير. وأصبحت قاعدة العديد موقع إعادة تموضع أسلحة سلاح الجو والإمدادات الطبية والذخائر. أما موقع الجيش فهو في مكان آخر في قطر. وفي شهر مارس ٢٠٠٢ بدأ سلاح الجو في إنشاء مركز للعمليات الجوية المشتركة في القاعدة. ورغم أنه لم يكن على نفس المستوى المتقدم في قاعدة الأمير سلطان بالسعودية فإنه يمكن أن يكون بديلا له. وبعد الهجوم على أفغانستان خصص سلاح الجو كل ما لديه من أموال لإكمال جميع التسهيلات في العديد في أسرع

وقت ممكن. وفى مارس ٢٠٠٢ قام ديك تشينى نائب الرئيس بزيارة القاعدة، وفى شهر يونيو قام وزير الدفاع بزيارة مماثلة. وكانت وحدة سلاح الجو الرئيسية فى القاعدة هى جناح الجو للمهمات خارج الوطن رقم ٢٧٩ المؤلف من الطائرات المقاتلة إف - ١٥ و إف - ١٦ وطائرات التزويد بالوقود جوا طراز كى سى - ١٠ وكى سى - ١٣٠ وكى سى ١٢٥. وقد لعبت قاعدة العديد دورا مهما فى حرب أفغانستان إذ كانت القاعدة الأساسية لتزويد الطائرات الحربية بالوقود وهى فى طريقها إلى أفغانستان والعودة من هناك. ويقدر سلاح الجو أن طائرات التزويد بالوقود من الجناح ٢٧٩ حملت أكثر من ٢٢٠ مليون رطل من الوقود وأوصلته فوق أفغانستان. وتمت عملية تفريغ نحو نصفها للطائرات أثناء الحرب^(٣٩).

كذلك قامت قاعدة العديد بالدور الأساسى فى الهجوم على العراق عام ٢٠٠٣. فقد أوت نحو ٦٥٠٠ من رجال الطيران مع التخطيط لعدد لاحق من المقيمين يبلغ ١٠ آلاف فرد. وكانوا يعيشون فى مدينة كبيرة من الخيام أطلق عليها سلاح الجو اسم: " كامب آندى " وهو اسم الرقيب أول إيفاندر أندروز أول ضحية أميركية فى عملية أفغانستان وقد مات نتيجة حادث رافعة شوكية. ويصعب أن يعرف أحد ما إذا كان الضباط المسؤولون عن تقديم هذه الأسماء يتعمدون النفاق أم أنهم يقدمون أسماء أبطال حقيقيين. وكان من المقرر بناء مجمع سكنى أعيد تسميته باسم " قرية الحملة العسكرية " لكى يفتح أواخر ٢٠٠٢ على قاعدة مساحتها ٢ آلاف إيكير. وخلال صيف عام ٢٠٠٢ ذكر مصدر عليم ببواطن الأمور أنه تم إنجاز بناء أول حمام سباحة فى قاعدة العديد، ويعتبر ذلك عادة إشارة إلى أن سلاح الجو يخطط لإقامة طويلة فى القاعدة^(٤٠). وتتحمل مؤسسة داي كورب أوف ريستون بكاليفورنيا مسؤولية إنشاء حمامات السباحة وغيرها من المرافق واستلام وتخزين وصيانة وحماية المواد الحربية. وهى نفس الخدمات التى تتولاها فى القواعد الجوية فى عُمان والمنامة والبحرين.

والمنشآت الأخرى فى قطر هى كامب السيلية فى ضواحي الدوحة، وكامب سنوبى فى مطار الدوحة الدولى. وكلاهما موقعان لإعادة تمركز الدبابات والمركبات القتالية الأخرى مع وقودها وذخيرتها التى تكفى للواء مدرع بأكمله. ويعتبر هذان الموقعان من أحدث التسهيلات التى استكملت فى صيف عام ٢٠٠٠. وبينما تدفع الدول المضيفة

الأموال لمعظم القواعد الأخرى فى منطقة الخليج، قرر الكونجرس دفع ١١٠ مليون دولار لهاتين القاعدتين، وساهمت حكومة قطر بتقديم الأرض والمرافق فقط.

وأثناء حرب العراق الثانية كانت قاعدة كامب السيلية مركز القيادة المتقدم للقائد المسؤول الجنرال تومى فرانكس الذى قام فى ديسمبر ٢٠٠٢ - تحت ستار ممارسة تدريبات عسكرية - بنقل نحو ٧٥٠ من ضباط الأركان من قاعدة ماكديل الجوية فى فلوريدا لإدارة الحرب أمام صفوف من أجهزة الكمبيوتر وشاشات الفيديو فى خيام مكيفة الهواء. وكانت القاعدة أيضا هى موقع " مركز ائتلاف الميديا " الذى خصص للتليفزيون وبلغت تكلفة بنائه ١,٥ مليون دولار. وقد استخدمه البريجادير جنرال فينسنت بروكس صاحب القامة ذات الأقدام الستة، والرجل الوسيم كنجوم هوليوود، والأميريكى الإفريقى المتحدث باسم القيادة المركزية، فى تقديم مئات عروض الفيديو المنتجة اليومية لمئات الصحفيين^(٤١). وقد وصف مايكل وولف المراسل الحربى لمجلة نيويورك ماجازين من قطر، كامب السيلية بأنه يبدو وكأنه " مشهد من سطح القمر... لا شجر... ولا دغلة... ولا معالم لهيكل ما... مجرد أفق من الحجر الجيرى المفلطح... ثم تقع عينك على القاعدة الأميركية... مجرد طوق من الأسلاك ثم منطقة حرام توجد قاعدة خلفها. ولا بد أن الأرض المكشوفة فى جميع الاتجاهات هى التى توفر درجة عالية من الأمن، ولكن إضافة إلى ذلك فإن القاعدة محصنة بكل ما تصنعه أقصى حالات البارانونيا، وبإجراءات حماية إضافية. إنها تفرص إلى أسفل... وهى ليست مجرد موقع يتم الدفاع عنه، بل هى موقع دفاعى " وكانت أحدث أساليب النزعة العسكرية والإمبراطورية الأميركية هى حرب التقنية العالية والاهتمام الفائق بمراقبة التغطية الإعلامية.

وقد قيل إن قاعدة السيلية هى أضخم مواقع الجيش فى العالم الذى تتمركز فيه المواد الحربية مقدما. ويقع كامب سنوبى فى مطار قطر التجارى الرئيسى، وهو منشأة لوجيستية مسؤولة عن شحن الأغذية والإمدادات الأخرى إلى القواعد فى أنحاء الخليج، وهى محمية فقط بأبراج حراسة بينما تتم حراسة قاعدة السيلية، الواقعة على ٣٦,٣ إيكرا مع سبعة وعشرين مخزنا، بحائط داخلى مرتفع وبمدافع رشاشة عيار ٥٠- بوصة. وعقب سقوط العراق فى مايو ٢٠٠٣ قال الجنرال ريتشارد مايرز رئيس هيئة

رؤساء الأركان المشتركة إنه لم تعد هناك حاجة إلى قاعدة سنوبى وسوف يتم التخلص منها. وقد انخفض عدد الجنود فيها إلى ٨٠٠ من ١٨٠٠ جندى أثناء الحرب.

ولاشك فى أن أقل دول الخليج انجذابا إلى الوجود الإمبراطورى للولايات المتحدة هى دولة الإمارات العربية المتحدة. وبحكم موقعها شرق قطر من الغرب أن يكون لديها ميناء جيد على الخليج الفارسى، وآخر أيضا بالقرب من مضيق هرمز على خليج عمان. ونظرا لجميع مزاياها تم التوصل إلى اتفاقية تعاون دفاعى معنا عام ١٩٩٤ تعطى سلاح الجو حرية الوصول إلى قاعدة الظفرة الجوية على مسيرة ساعة خارج مدينة أبوظبى العاصمة. وقد استخدمت الولايات المتحدة تلك المنشأة لإطلاق طائرات مأهولة من طراز يو - ٢. وطائرات جلوبال هوك الاستطلاعية غير المأهولة ضد العراق وإيران وأفغانستان، كذلك يتمركز فى القاعدة السرب ٧٦٣ لعمليات التزويد بالوقود فى الجو بطائرات خزانات الوقود طراز كى سى - ١٠.

وعندما نشر سلاح الجو طائراته فى الإمارات العربية المتحدة لأول مرة كان أعضاؤه يقيمون فى وسط مدينة أبوظبى وهى واحدة من أكثر المدن تقدما فى المنطقة. وكانوا يسكنون فى مبنى سكنى يسمى "صحارى ريزدينس". ولكن بعد الهجمات الإرهابية التى وقعت فى السعودية نقلت البنتاجون جميع طواقم موظفيها من أبوظبى إلى قاعدة الظفرة الجوية. وكانت وجبات الطعام الأميركية فى القاعدة تتضمن علب وجبات لأطقم الطائرات ترسل بناء على عقد مع فندق هوليداي إن المحلى. وفى مايو ٢٠٠٣ أعلن سلاح مهندسى الجيش الأمريكى عن حاجته إلى عروض من المقاولين لمناقصة إقامة مبنى للقيادة وعنابر للنوم وقاعة لتناول الطعام ومركز للياقة البدنية وآخر للرعاية الطبية، وشق طرق ومواقف للانتظار داخل الظفرة، ومرة ثانية كان ذلك دليلا على أن البنتاجون تخطط للبقاء زمنا طويلا^(٤٢).

وتألف الإمارات العربية المتحدة أيضا مرأى أطقم السفن الضخمة نظرا لأن ميناء جبل على فى إمارة دبی من أكثر الموانئ البحرية نشاطا خارج الولايات المتحدة. وترسو مجموعات حاملات الطائرات القتالية بانتظام هناك للتزود بالوقود أثناء دورياتها فى الخليج الفارسى، ولقضاء الإجازات على الشاطئ. وربما تعتبر منطقة جبل على أهم مركز تجارى فى الخليج، ومينائها أضخم ميناء بحرى من صنع الإنسان فى العالم وهو يحتوى على سبعة وستين مرسى وأحواض جافة كبيرة، ويرتبط بطريق مباشر وجيد

عبر الدولة بميناء الفجيرة على خليج عُمان. ومعظم الشحنات العسكرية من اليابان ودييجو جارسيا يتم تفريغها في الفجيرة ثم تنقل بالشاحنات إلى جبل على أو بالطائرات إلى البحرين. وهذا المسار يسمح بتكرار الإمدادات للقوات في منطقة الخليج الفارسي حتى لو أغلق مضيق هرمز. وليس للسلاح البحري الأميركي وجود في هذين الميناءين، ولكن يتمركز في كل منهما عدد من الضباط ليساعدوا السفن الحربية في مرورها العابر.

والدولة الأخيرة والأقل تطابقا مع دول الخليج الأخرى هي عُمان الواقعة شرق الإمارات العربية المتحدة. ويبلغ دخل الفرد فيها ٧٧٠٠ دولار أميركي وعدد سكانها ٢,٥ مليون نسمة من بينهم نصف مليون من غير المواطنين، وهي أفقر وأصغر دول الخليج وليس بها أراض صالحة للزراعة كما أن ٥٪ فقط من أراضيها هي مراعي. وتمثل مبيعات النفط ٨٠٪ من عوائد التصدير و ٤٠٪ من إجمالي الناتج المحلي وقد اكتشف نفط عمان بكميات تجارية في عام ١٩٦٢ فقط متأخرا عن أي دولة أخرى من دول الخليج كما أن تكلفة استخراجها تزيد على التكلفة عند جاراتها. وعُمان ليست عضوا في منظمة الدول المصدرة للبترول الأمر الذي يسعد الولايات المتحدة. ومن بين الأسباب التي دعت عمان إلى قبول وجود القواعد العسكرية الأميركية أنها تدر دخلا كبيرا وتساعد على تنوع الاقتصاد، بالإضافة إلى أن إدارة الاستخبارات الخارجية البريطانية " إم آي - ٦ " التي رسخت وجودها لعدة عقود قامت بتزكية القوات المسلحة الأميركية لدى السلطان.

وعُمان اليوم هي بقايا إمبراطورية عربية قديمة امتدت ذات يوم جنوبا إلى زنجبار على الساحل الإفريقي. وتقع السلطنة في مواجهة إيران عبر مضيق هرمز. وليس لها حدود واضحة مع دولة الإمارات العربية المتحدة والمملكة العربية السعودية واليمن. وقد وصل أول سفير أميركي إلى مدينة مسقط القديمة عاصمة عمان في عام ١٩٧٢ فقط. وفي عام ١٩٨٠ عقدت عُمان اتفاقية أمنية مع الولايات المتحدة نتيجة لسقوط شاه إيران وغزو الاتحاد السوفييتي لأفغانستان. وفي عام ١٩٩٠ تم توسيع نطاق اتفاقية التعاون العسكري تلك وتجديدها. وقد اشترت السلطنة حتى وقت قريب معظم طائرات سلاحها الجوي من شركات بريطانية. وفي سبتمبر ٢٠٠١ تابعت ترتيبات لا علاقة لها بالهجمات الإرهابية على نيويورك وواشنطن في ذلك الشهر. ونفذت تدريباً مشتركاً

واسع النطاق فى الصحراء مع ٢٢ ألف جندي بريطاني. وفى أكتوبر ٢٠٠١ وقَّعت عقدا مع وزارة الدفاع الأميركية لشراء اثنتى عشرة طائرة مقاتلة متقدمة من طراز إف - ١٦ سى/دى مقابل ١,١٢٠ مليون دولار. ويكره الرأى العام العماني إذعان الحكومة العسكرية للولايات المتحدة، ولكن السلطان يقوم بذكاء بتوفير وظائف ومنافع جديدة فى أى وقت تبدو فيه ملامح اضطرابات داخلية خطيرة.

وتعتبر عُمان موقعا مهما للتمركز فى وضع الاستعداد للمعدات القتالية والإمدادات ويستخدم الجيش والسلاح البحرى وسلاح الجو جميع مطاراتها الأربعة الرئيسية فى التزود بالوقود جوا، وتوفير الخدمات اللوجيستية وعمليات الاستخبارات فى الخليج الفارسي وبحر العرب. ويزعم أفراد الأسرة المالكة فى عُمان أنه لا وجود لقواعد عسكرية أجنبية فى البلاد وأن الأميركيين موجودون بصفتهم " ضيوفا " فقط، ومع ذلك تبنى عُمان قاعدة جوية جديدة فى سرية تامة فى المسننة التى تقع فى الصحراء على بعد ثمانين ميلا غربى مسقط وتبلغ تكلفتها ١٢٠ مليون دولار. وتحمل الولايات المتحدة تكلفة القاعدة التى سوف تتضمن مدرجا قادرا على استقبال القاذفات والمقاتلات وطائرات النقل الأميركية المتقدمة، كذلك توفر قاعدة المسننة تسهيلات القيادة الجوية والمراقبة. وعندما يتم استكمالها سوف تنقل عُمان طائراتها المقاتلة من السيب المطار الدولى فى العاصمة إلى المسننة ثم يتم توسيع مطار السيب لاستيعاب المزيد من حركة الطيران المدنى^(٤٢). ومن الممكن أن يكون هذا الحشد الأمريكى فى عمان مؤشرا لنوايا عدوانية تجاه إيران.

وفى أقصى جنوب البلاد فى ظفار وبالقرب من الحدود اليمنية تقع قاعدة ثمرت الجوية وهى موقع للتمركز فى وضع الاستعداد للمواد الحربية وكذلك مأوى طائرات هنتر وجاجوار بريطانية الصنع التابعة لسلاح الجو العماني. وأثناء حرب الخليج عام ١٩٩١ تمركز جناح النقل الجو التاكتيكي رقم ١٦٦٠ التابع لسلاح الجو الأمريكى فى قاعدة ثمرت وفى أبريل ١٩٩٦ أرسلت الولايات المتحدة سرب " الحصان الأحمر " لتمديد المدرج والممرات الأخرى. وفى نوفمبر ١٩٩٨ أرسلت البنتاجون المجموعة الثامنة والعشرين للعمليات الجوية الخارجية إلى ثمرت من قاعدة إلسويرد الجوية فى جنوب داكوتا وبعد المحاولة الإرهابية لتفجير المدمرة كول الأميركية يوم ١٢ أكتوبر عام ٢٠٠٠ فى ميناء عدن باليمن نقل الأحياء من بحارتها وعددهم ٢١٩ بحارا جوا عبر قاعدة ثمرت وهى رحلة قصيرة نسبيا شمال عدن.

وهناك مطار عُمانى رابع يقع فى جزيرة مصيرة فى بحر العرب، وكانت عُمان قد سمحت للولايات المتحدة باستخدام قاعدة مصيرة الجوية منذ الحرب العالمية الثانية، وهى اليوم موقع إضافى للتمركز فى وضع الاستعداد للمعدات الحربية ومأوى لسرب الاستكشاف البحرى الذى يطلق طائرة الاستطلاع طراز بى - ٢ أوريون، وطائرات التجسس طراز إى بى - ٢ إى آريز - ١١ وهى مماثلة للطائرة التى أجبرت على الهبوط فى جزيرة هينان فى الصين فى الأول من شهر أبريل عام ٢٠٠١. ويعتبر هذا المطار واحدا من بين أربعة مواقع فقط فى العالم تؤوى بشكل دائم سرب طائرات التجسس العاملة بى - ٢، أما الطرز الأخرى فهى فى المنامة والبحرين وقاعدة كادينا الجوية وأوكيناوا ودييجو جارسيا. وجزيرة مصيرة بعيدة جدا وتعتبر موقع العناء والمشقات.

وعلى أى حال لقد اكتمل حشد القواعد العسكرية الأميركية فى منطقة الخليج الفارسى. ومنذ ديسمبر ٢٠٠٢ كانت الولايات المتحدة تبنى قاعدة جديدة لقواتها الخاصة فى المستعمرة الفرنسية السابقة جيبوتى التى يفصلها شريط من المياه طوله عشرون ميلا فقط عن ميناء عدن على مدخل البحر الأحمر. وقد نشرنا منذ مدة طويلة عدة آلاف من الطواقم فى قاعدة إنتشيرلك الجوية فى تركيا بالإضافة إلى خمسين طائرة فانتوم-١٥ وفانتوم - ١٦ وطائرات خزانات الوقود طراز إيه - ١٠ على الرغم من أن وزارة الدفاع الأميركية أسرعت بسحب معظمها عقب رفض تركيا السماح للولايات المتحدة باستخدام أراضيها للهجوم على العراق عام ٢٠٠٣. كذلك قمنا بوضع عشرات الطائرات فى قاعدتين قريبتين من الحدود العراقية فى الأردن، كما استخدمنا مرارا قاعدة " القاهرة غرب " الجوية فى مصر للتزود بالوقود وعمليات النقل.

وقد تمت تقوية معظم هذه القواعد العسكرية الشرق أوسطية وتجهيزها بالمعدات لحرب العراق الثانية بالذات ثم استعملت وقت الحرب. وليس العراق إلا مجرد جزء من صورة أكبر. فقد كانت الولايات المتحدة على مدى نصف القرن الماضى تسعى بإصرار إلى امتلاك مواقع عسكرية دائمة هدفها الوحيد هو الهيمنة على واحدة من أهم المناطق فى العالم من الناحية الاستراتيجية. وطبيعى أن تهتم الولايات المتحدة بالنفط

فى المنطقة، ولكن حاملات الطائرات المجهزة كقوات عمل والتى حولت الخليج الفارسى إلى بحيرة أميرىكىة، قد تكفى لحماية تلك المصالح.

إن عمليات الانتشار الدائمة للجنود والبحارة والملاحين الجويين الأميركيين الذين تتكفل ثقافتهم وأساليب حياتهم ودرجة ثرائهم، ومظهرهم الجسمانى، بالتعارض مع شعوب الشرق الأوسط، هى تصرفات غير منطقية بلغة تحليل التكلفة - والمنافع - وفى ظروف الاضطرابات السياسية واسعة الانتشار والانتعاش القوى للتطرف الإسلامى، يبدو أن الولايات المتحدة تصر إصرارا غير مبرر على أن تمد الأعداء المستقبليين بالأم تكفيهم لإلحاق دمار كبير بنا. ولا يحتاج الإنسان لشيء إلا أن يتذكر تسليح صدام حسين أو صواريخ ستينجر المحمولة على الأكتاف التى وهبتها الولايات المتحدة دون مقابل إلى " المقاتلين من أجل الحرية " الأفغان الذين تحولوا فى النهاية ضدنا. والسؤال هو: هل أصبحت هذه القواعد غاية فى حد ذاتها؟ وهل يدفع وجودها الولايات المتحدة إلى البحث عن وسائل لاستخدامها؟ وهل كانت دوافع الهجوم على العراق هى التصرفات العراقية أو القدرات العسكرية التى فى متناول الأيدى الأميركية؟ قد تكون الأسباب النهائية للأذى المتعمد فى الشرق الأوسط فى القرن الحادى والعشرين هى النزعة العسكرية ونزعة التسلط الإمبراطورية الأميركيةتان.... بعبارة أخرى: إمبراطورية قواعدنا العسكرية نفسها.

الفصل التاسع

ماذا حدث للعولمة؟

• " جميع الحروب تعتمد على الخداع. ومن ثم عندما نستطيع الهجوم يجب أن نبدو عاجزين عنه، وعندما نستخدم قواتنا يجب أن نبدو خاملين، وعندما نقترب ينبغي أن نجعل عدونا يعتقد أننا بعيدون، وعندما نبتعد يجب أن نجعله يعتقد أننا قريبون. تحمل الطعوم لكي تغرى العدو. تصنع الفوضى ثم اسحقه."

سون تزو

كتاب "فن الحرب" (عام ٥٠٠ قبل الميلاد)

وفقا لمنطق سون تزو كان بيل كلينتون صاحب نزعة إمبراطورية أكبر فاعلية من جورج دبليو بوش. ففى أثناء إدارة كلينتون استخدمت الولايات المتحدة أسلوبا غير مباشر فى فرض إرادتها على دول أخرى. وعلى العكس من ذلك أسقطت حكومة جورج دبليو بوش جميع مبادئ الشرعية وتبنت وجهة نظر تجعل ذلك عملا سليما. ويخبرنا التاريخ بأن الدولة التوسعية لابد أن تحاول على الأقل التمويه على ما تفعله إذا أرادت أن تعزز مكاسبها. ويجب أن تتظاهر بأن استغلالها للضعفاء هو لصالحهم أو أنه نتيجة خطئهم أو نتيجة عمليات فوق سيطرة البشر أو من جراء نشر الحضارة، أو وفقا للقوانين العلمية أو أى شيء غير العدوان المتعمد بواسطة قوة فائقة.

وقد عمد كلينتون إلى تمويه سياساته بتنفيذها تحت شعار "العولة". وأثبتت هذه الطريقة فاعليتها التامة فى تحريك دول غنية، ولكن ساذجة نحو تنفيذ العطاءات الأميركية ومثال ذلك الأرجنتين، أو نحو تقويض استقرار منافسين محتملين ومثال ذلك كوريا الجنوبية وإندونيسيا فى الأزمة الاقتصادية عام ١٩٩٧، أو فى حماية المصالح الاقتصادية المحلية. ومثال ذلك الإبقاء على الأسعار الباهظة التى تفرضها شركات المواد الصيدلانية الأميركية تحت ستار الدفاع عن " حقوق الملكية الفكرية ". وأثناء تسعينيات القرن الماضى استخدمت حجة التجارة الحرة والاقتصاديات الرأسمالية لكى تتنكر وراءها قوة أميركا المسيطرة، وتجعلها تبدو حميدة أو طبيعية ولا يمكن تجنبها على الأقل. وكان من العملاء الأساسيين لهذه النزعة الإمبراطورية روبرت روبين وزير مالية كلينتون ونائبه لورانس سامرز (هو الآن رئيس جامعة هارفارد). وقد حكمت الولايات المتحدة العالم، ولكنها فعلت ذلك بطريقة مقنعة أثمرت درجات عالية من الإذعان بين الدول التى خضعت للهيمنة.

وكان جورج دبليو بوش على العكس من ذلك إذ تحول إلى الاقتحام المباشر المبني على قوة أميركا العسكرية التى لا قرين لها. وحتى قبل ١١ سبتمبر كشفت إدارة بوش

عن نهجها الأحادى تجاه العالم فانسحبت من اتفاقيات دولية مهمة بما فيها السعى إلى حظر الصواريخ المضادة للصواريخ العابرة للقارات، والحد من انبعاث الغازات من المستنبتات الزجاجية، وإنشاء محكمة لمحكمة مرتكبى أبشع جرائم الحرب، غير أن بوش أعلن صراحة أيضا تمسكه بنظرية الحرب الوقائية. وقالت الولايات المتحدة إنها هى روما الجديدة التى لا نظير لها فى الخير أو الشر، والتى لا تتقيد باتفاقيات المجتمع الدولى المبرمة. وأكدت بهجومها على العراق فى ربيع عام ٢٠٠٣ أنها لم تعد تحتاج إلى الشرعية الدولية (أو تهتم بها)، وأنها أصبحت قوة مسؤولة فقط أمام نفسها. وأن القوات الداخلية للنزعة العسكرية هى التى تملى السياسة الخارجية. وأدت هذه السياسات إلى عزلة دولية وانعدام الثقة العالمية فى مؤسسة السياسة الخارجية الأمريكية. وخلال سنتين ونصف من حكم إدارة بوش تركنا حلفاؤنا، وتوسعت قواتنا المسلحة إلى أبعد الحدود، ولم تعد أية دولة تشك فى تصميمنا على استخدام القوة العسكرية فى حل جميع المشاكل.

ومع نهاية إدارة كلينتون كانت العولة تتعرض لهجوم سياسى مستدام من ضحاياها وحلفائها، وكان عدد كبير ممن كانوا مؤيديها الدائمين، مثل جورج سوروس خبير المضاربات النقدية الدولية، أو جوزيف ستيجليتز كبير الاقتصاديين السابق فى البنك الدولى، قد أخذوا يقطعون بأفكارهم مبادئها الأساسية، ومع ذلك لم تمت العولة. ومازال العالم، بما فيه إدارة بوش - يتظاهرون بأهمية منظمة التجارة العالمية، وبأن التجارة الحرة سوف تقضى على الفقر فى العالم الثالث، وأن صندوق النقد الدولى والبنك الدولى يمارسان وظائفهما كما كان مقرا لهما. ومازال رجال البنوك والصناعة وعلماء الاقتصاد يذهبون إلى اجتماعهم السنوى فى دافوس بسويسرا بينما تتصاعد السياسات الحمائية التى تفرضها الدول الغنية ويزداد معظم شعوب العالم فقرا. وأدت عواقب ١١ سبتمبر ٢٠٠١ إلى إنهاء العولة تقريبا. وبينما كانت إدارة كلينتون تعتنق بشدة النزعة الإمبراطورية الاقتصادية، التزمت حكومة بوش الثانية بوضوح بالنزعة الإمبراطورية العسكرية، وأدى تبنى إدارة بوش للعمل العسكرى الوقائى الأحادى إلى تقليص القواعد والمعايير الدولية التى تعتمد عليها التجارة. وبوتيرة متزايدة بدأ الناس يستسلمون فى يأس حتى أولئك الذين كانوا يؤمنون بالحلول العولية للمشاكل الاقتصادية والبيئية. وفى مؤتمر القمة للتنمية المستدامة الذى عقد فى أغسطس عام

٢٠٠٢ فى جوهانسبرج ارتدى أعضاء الوفود شارات مميزة تحمل هذا السؤال: " ماذا نفعل بخصوص الولايات المتحدة ؟ " .

وقد كتب الفيلسوف السياسى هانا أرندت يقول: " الفكرة السياسية المركزية للنزعة الإمبراطورية هى التوسع باعتباره هدف السياسة الدائم والأعلى " (١) . ويصدق هذا على جميع الإمبراطوريات، والشاهد على ذلك حروب روما القديمة التى لا نهاية لها، وقهر آسيا على أيدى المغول والأتراك العثمانيين، واغتصاب إسبانيا لنصف الكرة الأرضية الغربى، وطموحات نابليون إلى توحيد أوروبا تحت العلم الفرنسى، وسمى بريطانيا إلى فرض استثمارات جديدة لرأسماليها، ومحاولات الرايخ الثالث للاستيلاء على المجال الحيوى لدولته التى تم تعريفها عنصريا، والشهية الأميركية النهمه فى الوقت الحاضر لاقتناء المزيد من القواعد العسكرية. ولا تستطيع النزعة الإمبراطورية الوجود بدون جهاز عسكرى قوى لإخضاع الشعوب التى تقف فى طريقها وممارسة دور الشرطى عليها، وبدون نظام اقتصادى لتمويل مؤسسة عسكرية غالية التكاليف وغير منتجة إلى حد كبير. وقد تناولت فى هذا الكتاب حتى الآن الجانب العسكرى للنزعة الإمبراطورية العسكرية، وأتحول الآن إلى محاولة أميركا فرض سيطرتها الاقتصادية على كثير من دول العالم. وهدفى أن أقوم بفحص الأيديولوجية المعقدة وهى " الليبرالية الجديدة " التى زادت غموض المحاولات الأميركية العالمية قبل انتصار النزعة العسكرية الأحادية. وأن أكشف كيف حلت النزعة العسكرية محل قيادة أميركا الاقتصادية وشوحتها. ومن المفارقات أن الإمبراطورية الأميركية المتمددة بدأت تتكشف معالمها لأول مرة فى هذا المجال الاقتصادى.

وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية كانت قوة أميركا العسكرية وأصولها الاقتصادية عظيمة جدا إلى درجة أنها لم تواجه أية مقاومة من أى نوع إلا من الاتحاد السوفييتى وحلفائه والدول الدائرة فى فلكه. ومنذ بداية الحرب الباردة وحتى عام ١٩٨٠ تقريبا، كان لدى الدول التى اختارت ألا تنحاز إلى أى من المعسكرين الشيوعى والرأسمالى - وهى دول العالم الثالث - حيز للمناورة عن طريق التلاعب بإحدى القوتين العظميين ضد الأخرى. وعلى الرغم من أن القوى العظمى كانت تمتلك أسلحة دمار شامل، فقد كانت فى أغلب الأحوال مترددة فى ممارسة سيطرة إمبراطورية مباشرة على هذه الدول المعارضة لأنها كانت تخشى أن تجنح أى منها إلى المعسكر الآخر. وكانت لدى دول

عدم الانحياز أيضا بعض الحرية فى أن تدخل فى تجارب مع مسارات وتدابير مختلفة قد تقودها نحو " التنمية الاقتصادية " وفقا لتقاليدھا الثقافية الخاصة وأية معايير تختارھا لتحقيق عدالة التوزيع. وقد قيل إن هذه الدول " متخلفة " بمعنى أن تكون لديها صناعة أو تكنولوجيا صغيرة، ولكنها بدلا من ذلك تقوم بتوريد المنتجات الزراعية والمواد الخام إلى الدول المتقدمة فى الشمال. ومن الناحية النظرية يمكن أن يكون ذلك تجارة للصالح المشترك قد تؤدي فى النهاية إلى التصنيع فى العالم الثالث وجلب الثروة والسيادة الحقيقية.

وبدا الموقف يتغير فى أوائل ثمانينيات القرن الماضى. وانحسر خطر اندلاع حرب قوى عظمى عندما أخذت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى يتعودان على تبادل الأدوار فى رقصة خفض التوتر والحد من التسلح الدقيقة. وبدأت تظهر فى كل من الدولتين أيضا ملامح إعياء اقتصادى بينما كانت الحرب الباردة تطحنهما. ولما كان الاتحاد السوفييتى هو الأكثر فقرا من الولايات المتحدة فقد تأثر بدرجة أخطر نظرا لجمود مبدئه الاقتصادى الذى اعترض طريق معظم أشكال الأعمال التجارية والابتكار الصناعى. ومع استمراره كقوة عسكرية قوية، أصبح الاتحاد السوفييتى منقسما اقتصاديا إلى اقتصاد رسمى وآخر غير رسمى أو قطاع " سرى ". ولو كان هذا الأخير غير موجود لانهار الاتحاد السوفييتى بأسرع مما حدث له. ومن منتصف ثمانينيات القرن الماضى فصاعدا سعى ميخائيل جورباتشيف رئيس الوزراء إلى إصلاح الاقتصاد المعتل، ولكنه فى النهاية استؤصل من قبل مصالح راسخة ضاربة فى العمق. وكانت الولايات المتحدة على علم بهذه المشاكل، ولكنها تظاهرت فى تقارير تقديرات استخبارتها بعدم ملاحظتها حتى تستطيع الاستمرار فى ضخ الأموال فى آلتها العسكرية.

ورغم أن الاتحاد السوفييتى فقد قدرته كمنافس اقتصادى، ظلت الولايات المتحدة وحلفاؤها يشعرون بالقلق من توجهات أخرى، فقد تحقق نمو هائل فى التجارة الدولية بفضل الاتفاقية العامة للتعريفات والتجارة المعروفة باسم (جات)، وهى القواعد التى تحكم التجارة التى وضعتها الولايات المتحدة وبريطانيا فى أواخر الحرب العالمية الثانية ثم وقعتھا نحو إحدى وعشرين دولة أخرى فيما بعد. (كان الهدف من اتفاقية الجات منع عودة القومية الاقتصادية وانهيار التجارة الدولية اللذين تسببا فى الكساد

العظيم وساهما مباشرة فى ظهور نظم الحكم الشمولية فى أوروبا وآسيا). وبين عامى ١٩٤٨ و ١٩٩٥ عندما استبدلت منظمة التجارة العالمية باتفاقية الجات توسعت التجارة الدولية من نحو ١٢٤ مليون دولار إلى ١٠,٧٧٢ بليون دولار^(٢). وكان هذا النمط مناسباً للولايات المتحدة طالما بقى ميزانها التجارى لصالحها، ومادامت قادرة على إملاء شروطها على الآخرين الذين ساهموا فيها فى الأوقات الجميلة.

ومع ذلك كانت سبعينيات القرن الماضى قد أدت بالفعل إلى فترة من التساؤلات عن مصير العالم الرأسمالى. وكان كل من الاقتصاد الأمريكى والبريطانى قد أصيبا بالتضخم المصحوب بالكساد (أى المعدلات العالية من التضخم مقرونة بنمو اقتصادى منخفض)، وبمعدلات مرتفعة من البطالة، وعجز كبير لدى القطاع العام، وبأزميتين نفطيتين ضخمتين عندما سعت دول منتجة إلى التأثير على سياسات الدول المستهلكة للنفط، وبالنزاع العنصرى، مع إضافة الهزيمة فى فيتنام بالنسبة للولايات المتحدة. وظهر الأمر المنذر بالسوء أيضاً بحلول منتصف الثمانينيات إذ حلت اليابان محل الولايات المتحدة كأكبر دولة دائنة فى العالم بينما تحولت أميركا إلى أكبر دولة مقترضة فى العالم بسبب عجز ميزانياتها وعجزها عن تغطية نفقات المنتجات المستوردة من الدول الأجنبية.

وقد سمحت هذه الظروف ببروز الأحزاب السياسية المحافظة وزعمائها المحافظين مثل رونالد ريجان ومارجريت ثاتشر فى الولايات المتحدة وبريطانيا. وللعلم على إنعاش التجارة الدولية، والأهم من ذلك إعادة الولايات المتحدة إلى تحمل هذه المسؤولية، أخذت الحكومات الجديدة على عاتقها إحياء النظرية الرأسمالية الأصولية التى سادت فى القرن التاسع عشر. وكان معنى هذا انسحاب الدولة بقدر ما تستطيع من المشاركة فى الاقتصاد وفتح الأسواق المحلية للتجارة الدولية والاستثمار الأجنبى ولو من حيث المبدأ على الأقل، وخصخصة الاستثمار فى المرافق العامة والموارد الطبيعية، وإلغاء معظم قوانين حماية العمال وسن قوانين محلية فعالة واتخاذ إجراءات دولية قوية لحماية حقوق الملكية الخاصة بما فى ذلك وقبل كل شئ، " حقوق الملكية الفكرية " (براءات الاختراع من كل الأنواع)، وتطبيق سياسات مالية محافظة ولو حتى على حساب الرعاية الصحية والاجتماعية العامة. وكان المفترض فى هذا البرنامج، الذى سرعان ما أصبح التيار الفكرى الاقتصادى الأساسى الأنجلو - أمريكى، أن يحقق

"تحسنا واسع النطاق فى الدخول المتوسطة". ويصور الأمر بروس سكوت من كلية إدارة الأعمال فى هارفارد فيقول: " سوف تحصل الشركات على اقتصادات متزايدة على نطاق واسع فى أسواق أكبر " ومضى هذا الفكر فى مساره ليذكر أن " الدخول سوف تتقارب لأن الدول الفقيرة سوف تنمو بسرعة تفوق الدول الغنية. وفى هذا المنظور الذى ينادى: " إربح...إربح " تتلاشى الدول القومية مع تنامي " القرية العالمية " وسيسيطر اندماج السوق والانتعاش^(٣).

لقد نبع الفكر التقليدى من أفكار عالمى الاقتصاد الأسكتلندى والإنجليزى آدم سميث ودافيد ريكاردو فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ولما كانت هذه الأفكار قد ارتبطت بالحركة السياسية فى بريطانيا المسماة " الليبرالية " فإن الشريعة الاقتصادية الجديدة كانت تسمى فى الغالب " الليبرالية الجديدة - النيوليبرالية ". وأصبحت تعرف فى الدوائر السياسية باسم "إجماع واشنطن"، وفى الحياة الأكاديمية باسم " الاقتصاديات التقليدية الجديدة - الاقتصاديات النيوكلاسيكية "، وسميت فى الأيديولوجية العامة باسم " التعولم " أو بكلمة أكثر مبادرة هى: " العولة ". ويعتبر مانفريد ستيجر واحدا من أبرز المتخصصين الأكاديميين فى العولة. وهو يرى أنها أصبحت عملية " إعادة تعبئة عملاقة " لحصيلة قرنين من الليبرالية ثم لصقت عليها بطاقة تحمل عبارة " الاقتصاد الجديد ". ويقول ستيجر: " إن دعاوى العولة ومناوراتها السياسية تبقى مرتبطة بمقولات القرن التاسع عشر عن " التحديث " و " الحضارة " التى تقدم الدول الغربية - وخاصة الولايات المتحدة والمملكة المتحدة - على أنها الطليعة المتميزة لعملية التطور التى تنطبق على جميع الدول^(٤).

ولعل أكبر جوانب العولة خداعا هو ادعاؤها أنها تشتمل على التطورات التكنولوجية الأصلية والحتمية بدلا من السياسات المتعمدة للنخب السياسية الأنجلو - أميركية التى تحاول تفضيل مصالح دولها الذاتية على حساب الآخرين^(٥). وقد أثبت التعولم باستخدامه المنهجى الزائف للعلم أنه يشبه الماركسية التى تضرب جذورها فى نفس التربة الفكرية. وكما يقول ستيجر: " بينما لا يتفق دعاة العولة مع الماركسيين على الأهداف النهائية للتطور التاريخى فإنهم مع ذلك يشاركون خصومهم الأيديولوجيين الولع بعبارات مثل "الذى لا يقهر" و "الحتمى" و " غير القابل للنقض " فى وصف المسار المعروض للعولة. ^(٦) وفى عام ١٩٩٩ قال الرئيس بيل كلينتون لمستمعيه: " اليوم ينبغى علينا

أن نعتنق منطق العولمة العنيد والذي مفاده أن كل شيء بدءاً من قوة اقتصادنا إلى سلامة مدناً. وإلى رعاية صحة شعبنا، يعتمد على أحداث لا تدور في حدودنا وحدها. بل وفي نصف العالم البعيد ". وفي لحظات أخرى شدد بقوة على أن العولمة " غير قابلة للنقض " (٧). واستمر خليفته جورج دبليو بوش في ترويج هذه الخطط المشكوك فيها في أميركا اللاتينية المتبرمة تحت مخطط أسماه " منطقة التجارة الحرة للأمريكتين " (٨).

وقد تنبه الدبلوماسي اللامع أوزوالدو دي ريفيرو سفير بيروفا إلى منظمة التجارة العالمية. إلى ماركسية العولمة المطلوبة رأساً على عقب برعاية الولايات المتحدة. فكتب يقول: " إن الحرب الأيديولوجية بين الرأسمالية والشيوعية أثناء النصف الثاني من القرن العشرين لم تكن نزاعاً بين أيديولوجيتين مختلفتين اختلافاً شاملاً، بل لقد كانت نوعاً ما حرباً بين وجهتي نظر متطرفتين للأيديولوجية الغربية ذاتها ألا وهي: البحث عن السعادة من خلال التقدم المادي الذي تنشره الثورة الصناعية " (٩). وقد توصل دي ريفيرو، باعتباره مسؤولاً حكومياً ينتمي إلى جزء من العالم مزقته العولمة. إلى نتيجة تقول: " كانت تكلفة النسخة السوفييتية للتطور حالات من النقص والافتقار إلى الحرية. واليوم أصبحت التكلفة هي المتغير الرأسمالي الليبرالي الجديد وهو البطالة والإقصاء الاجتماعي " (١٠).

ويتشبه أنصار العولمة بها بنوع من الحمى العقائدية، وخاصة علماء الاقتصاد وعلماء العلوم السياسية الأكاديميون. وقد لفت عالم اللاهوت هارفي كوكس الانتباه إلى هذا التفاني وذلك في مقال له بعنوان: " السوق الإله " (١١). وقد جرفت مزاعم العولمة، باعتبارها المخلص المنتظر. الكثيرين غيرهم من القادة الجادين في عالم البيزنس والسياسة. وليست هذه الظاهرة أيضاً جديدة، فالليبرالية الكلاسيكية دفعت عدداً ليس بالقليل من الإنجليز إلى التفاضي عن العنصرية والإبادة الجماعية والاستغلال الذي لا يعرف الرحمة، التي رافقت نمو الإمبراطورية البريطانية. وقد أدرك هانا أرندت عبادة السوق في تلك الفترة المبكرة في قوله: " إن الحقيقة القائلة بأن " ما يرهق الرجل الأبيض " هو إما النفاق أو العنصرية لم تمنع عدداً قليلاً من أفضل الرجال الإنجليز من حمل هذا العبء بحماس جاعلين من أنفسهم مهرجى بلاط الإمبريالية على نحو مأساوي " (١٢).

ومن المهم إلى حد خطير أن نفهم أن نظرية التعولم هي نوع من المسكنات الفكرية التي تهدد وتلهي ضحاياها في العالم الثالث بينما تقوم الدول الغنية بإصابتهم بالشلل لكي يتأكدوا أنهم لن يستطيعوا إطلاقاً تحدى القوى الإمبراطورية، وهى كذلك صممت لكي تقنع أصحاب النزعة الإمبراطورية الجدد بأن الدول " المتخلفة " هى التي تجلب الفقر لنفسها بسبب " فساد رأسمالية المحاباة " والفشل في انتهاز الفرص الرائعة التي قدمت إليها . أما الادعاء بأن الأسواق الحرة تؤدي إلى انتعاش أى شيء آخر غير المؤسسات العابرة للحدود القومية والتي تناور الدول الغنية من أجلها وتمتلك النفوذ والموارد لاستغلالها، هذا الادعاء لا تؤيده سجلات التاريخ. وحتى عالم الاقتصاد جوزيف ستجليتزر الحائز على جائزة نوبل والمدير السابق لإدارة البحوث في البنك الدولي، قد أقر بأنه " أصبح بديها أن اتفاقيات التجارة الدولية، التي نتحدث عنها الولايات المتحدة بكثير من الفخر منذ سنوات قليلة، كانت مجحفة جداً بالنسبة لدول العالم الثالث.... والمشكلة (مع دعاة العولة) هي أيديولوجية السوق الأصولية والإيمان بأسواق حرة وغير مقيدة التي لا تسندها النظريات الحديثة ولا التجربة التاريخية" (١٣). ويجب أن يضاف إلى ذلك أنه حتى شهر نوفمبر ١٩٩٩ عندما واجه خمسون ألفاً من المعارضين منظمة التجارة العالمية في سياتل وبدأوا في إجبار العالم الأول على أن يعترف رغماً عنه بممارسة الاستغلال والنفاق، لم تصبح تصريحات ستجليتزر " أمراً بديها "، ولم تظهر نظرية اقتصادية أكاديمية " حديثة " لتتصارع مع الطبيعة الحقيقية للعولة.

ولا توجد أية حالة معروفة أدت فيها العولة إلى انتعاش أية دولة في العالم الثالث. ولم تنل أية دولة من الدول الأربع والعشرين التي تعتبر رأسمالية متقدمة بدرجة معقولة، بغض النظر عن مبرراتها الأيديولوجية، ما هي عليه الآن بفضل اتباعها أياً من الوصفات التي تضمنتها نظرية العولة. ووفقاً لما ذكره دي ريفيرو فإن ما أنتجته العولة ليس دولا صناعية جديدة ، وإنما أنتجت نحو ١٣٠ اقتصاداً غير قابل للحياة، أو ما هو أسوأ: كيانات مختلفة لا سبيل إلى السيطرة عليها. وهناك دليل عرَضى على أن هذه النتيجة هي ما قصده مؤلفو العولة على وجه التحديد (١٤).

وفي عام ١٨٤١ كتب عالم الاقتصاد الألماني البارز فريدريش ليست (الذي هاجر إلى أميركا) كتابه الرابع " النظام الوطنى للاقتصاد السياسى " : " هناك حيلة ذكية شائعة

جدا وهى أنه عندما يتسلق أى شخص إلى قمة العظمة يرفض السلم الذى صعد عليه حتى يحرم الآخرين من وسيلة الصعود وراءه^(١٥). وتعتبر الكثير من الاقتصاديات الأنجلو - أميركية الحديثة وجميع نظريات العولة محاولات لإيقاع السلم بعيدا .

وإذا تركنا جانبا الاتحاد السوفييتى السابق فإن الدول المتقدمة الرئيسية: بريطانيا والولايات المتحدة وألمانيا وفرنسا والسويد وبلجيكا وهولندا وسويسرا واليابان، ودول شرق آسيا الصناعية الجديدة: كوريا الجنوبية وتايوان وسنغافورة، جميع هذه الدول أصبحت غنية بنفس الطريقة تقريبا. فبغض النظر عن طريقة تبريراتها لسياساتها فإنها قامت فى الممارسة العملية، بحماية أسواقها المحلية مستخدمة حواجز الترفرة العالية وعشرات الآلاف من " حواجز الإعفاء من التعرف " فى التجارة. وعلى سبيل المثال رفضت بريطانيا مبدأ التجارة الحرة حتى أواخر أربعينيات القرن التاسع عشر بعد فترة طويلة من تحولها إلى القوة الصناعية الرائدة فى العالم. وبين عامى ١٧٩٠ و ١٩٤٠ ربما كانت الولايات المتحدة أكبر اقتصاد محمى بدرجة كبيرة على وجه الأرض. وفى سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين كانت الدولة الوحيدة فى العالم التى ليس فيها سيارة يابانية واحدة هى كوريا الجنوبية لأنها كانت تنمى صناعاتها الخاصة للسيارات. وجميع هذه الدول " المتقدمة " تسولت أو اشترت أو سرقت التقنية المتقدمة من الدول الأولى الرائدة فى هذا المجال. ثم أضافت تحسينات إليها من خلال تطبيق أساليب هندسية معاكسة واستثمارات مستهدفة. كما أنها استخدمت سلطة الدولة لدعم وحماية الرأسماليين الأكفاء داخل حدودها الذين لديهم القدرة على التصدير. وأغدقت المعونات المالية على صناعات غير تنافسية لكى تستبدل السلع المنتجة محليا من أجل الاستيراد بأى ثمن فى الغالب. وقد تمكن بعضها من الاستيلاء على أسواق عبر البحار عن طريق الغزو الإمبراطورى والاستعمار الكولونىالى ثم دافعت عن هذه الأسواق ضد الغزاة الآخرين المحتملين مستخدمة القوى البحرية والجيش. وحتى عندما تعرضت للهزيمة، مثل اليابان بعد الحرب العالمية الثانية والاتحاد السوفييتى والدول الشيوعية السابقة فى أوروبا الشرقية بعد الحرب الباردة، لجأت إلى استخدام كل ما فى قدرتها من الدهاء والتحايل لتقويض برامج الإصلاح الاقتصادى التى طبقها الاقتصاديون الأمريكيون لتحويلها إلى اقتصادات رأسمالية مألوفة^(١٦). وقد أدركت هذه الدول ما لم يدركه المجمعون، وهو أن تطبيق المعايير الاقتصادية الأميركية

السابق لأوانه هو الذى أدى على الأرجح إلى إنتاج رأسمالية "الخطأ" مثلما فعل فى روسيا لا التنمية.

وباختصار لقد فعلت الاقتصادات القليلة الناجحة فى العالم بالضبط عكس ما قال المرشدون الروحيون للعولة بوجوب فعله. وكانت النتائج كارثية فى الأماكن التى لم يكن أمام المديرين الاقتصاديين خيار غير اتباع إرشادات العولة مثل: "حرية" التجارة، وبيع المرافق العامة بأبخص الأسعار، وإلغاء القيود على تحركات رؤوس الأموال، وإنهاء كل الأفضليات الوطنية. وفى بلاد دى ريفيرو نفسها وهى بيرو كان متوسط دخل الفرد السنوى ٠,١ فى المائة بينما كان معدل تزايد السكان أكثر من ٢,٣ فى المائة سنويا، وذلك فى السنوات الأربع والعشرين السابقة على الانفجار الكبير للعنف الإرهابى بواسطة رجال عصابات "الطريق المضى" و"توباك أمارو". وفى جميع أنحاء أميركا اللاتينية والكاريبى. فيما بين عامى ١٩٦٠ و ١٩٨٠، كان إجمالى الناتج المحلى قد نما بنسبة ٧٥٪ لكل فرد. ولكن بعد العشرين سنة التالية، وهى ذروة مد العولة، ارتفع هذا الناتج بنسبة ٦٪ فقط^(١٧).

وبدءا من عام ١٩٨١ تقريبا بدأت الولايات المتحدة، تحت ستار العولة، استراتيجية جديدة لإنجاز هدفين أساسيين: الهدف الأول تشويه سمعة الرأسمالية المدعومة من الدولة مثل تلك التى فى اليابان لمنع انتشارها إلى أية دول غير الدول الصناعية الجديدة فى شرق آسيا التى كانت قد نجحت فى التصنيع بالفعل باتباع النموذج اليابانى. والهدف الثانى هو إضعاف سيادة دول العالم الثالث حتى تصبح أكثر اعتمادا على كرم الدول الرأسمالية المتقدمة، وتعجز عن تنظيم نفسها لتشكل كتلا لقوة تتعامل مع الدول الغنية على قدم المساواة.

وكان البنك الدولى وصندوق النقد الدولى هما الأداة المختارة لدى الولايات المتحدة لتطبيق هذه الاستراتيجية. ومثلما أبرمت الاتفاقية العامة للتعريفات والتجارة أنشئ البنك الدولى وصندوق النقد الدولى بعد الحرب العالمية الثانية لإدارة الاقتصاد الدولى ول منع عودة سياسات "أفقر جارك" فى ثلاثينيات القرن العشرين. وما يجب إدراكه هو أن كلا من صندوق النقد الدولى والبنك الدولى بديلان عن وزارة المالية الأمريكية وهما يقعان فى شارعى التاسع عشر وإتش ستريت شمال غرب واشنطن دى سى. وتضمن قواعد الاقتراع فيهما ألا يفعل أى شئ بدون موافقة وزير المالية الأمريكى.

ويقارن العالم السياسى توماس فيرجسون صندوق النقد الدولى بالكلب الشهير الذى يظهر فى إعلانات أجهزة راديو شركة آر.سى. إيه وهو ينصت إلى " صوت سيده "، وخزانة المال على جراموفون فيكترولا^(١٨).

وبالإضافة إلى اتفاقية الجات وصندوق النقد الدولى والبنك الدولى ابتدع المصلحون الاقتصاديون بعد الحرب نظاما مبتكرا لتثبيت أسعار الصرف بين عملات جميع الدول الرأسمالية حتى يمكن مثلا تغيير دولار أميركى واحد من ١٩٤٩ إلى ١٩٧١ بثلاثمائة وستين ينا يابانيا. وزيدت صدقية هذا النظام عن طريق ربط قيمة كل عملة بالدولار الأمريكى وضمان أميركى باستبدال الذهب بجميع الدولارات عند الطلب. وأدت أسعار الصرف الثابتة إلى توسع الأعمال والتجارة الدولية عن طريق جعل التجارة مستقرة وقابلة للتنبؤ، وشكلت أيضا عقبة كبرى ضد العودة إلى المضاربة التى أدت إلى الكساد العظيم.

وفى إطار هذا النظام اتهم صندوق النقد الدولى بأنه يصدر قروضا لإصلاح الخلل العرضى فى التوازن بين عملة دولة ما وعملة شركائها التجاريين (أو فى أحوال نادرة المساعدة على تغيير معدل صرف ثابت فى الاتجاه الواقعى)، وقد مُنح البنك الدولى مسؤولية تقديم قروض تنمية إلى الدول التى تحتاج إلى الاستثمار فى بنياتها التحتية وصناعاتها الناشئة على أمل مساعدتها على النهوض إلى مستوى الدول المتقدمة. وكان جون مينارد كينز العالم والمؤرخ الاقتصادى الإنجليزى هو أول من وضع الأفكار لهذه المؤسسات، ولما انتهت الحرب العالمية الثانية طرحت الدول الحليفة الكبرى حلولاً وسطاً لإعادتها إلى الحياة. ولم تقبل الولايات المتحدة جميع اقتراحات كينز. وغلب على اعتراضاتها إلى حد كبير عنصران هما ثروتها وقوتها الهائلتان، ولكن الولايات المتحدة وبريطانيا أجمعتا على الموافقة على نظام اقتصادى عالمى تصونه الحكومات المستتيرة. ولم يكن السوق هو "الملك"، بل كان فقط وسيلة تقليدية تحظى بموافقة عريضة، للأفراد وربات البيوت والمنشآت لكى يتبادلوا السلع والخدمات مع بعضهم البعض مقابل أسعار متبادلة مقبولة. وقد أظهر نظام معدلات الصرف الثابتة، ووكالة ضبط العملات، وإقراض الدول الفقيرة من أجل التنمية الاقتصادية، نتائج باهرة خلال سنواتها العشرين الأولى.

وبحلول عام ١٩٧١ لم تعد الولايات المتحدة قادرة على ضمان قيمة الدولار الثابتة بالذهب. إذ كانت قد دمرت ميزانياتها المالية بإسرافها فى الإنفاق على حرب فيتنام

والأسلحة النووية ونظم إيصالها إلى أهدافها، والمدفوعات لدول خشيت أن تنضم إلى المعسكر الشيوعي أو أن تصبح " محايدة " إذا توقفت عن دفع المعونات لها. ولوقف نزيف الدولارات أغلق الرئيس ريتشارد نيكسون " الشباك الذهبى " بإنهائه نظام معدل الصرف الثابت. ومنذ ذلك الوقت فصاعداً سمح لعملات الدول المختلفة بأن " تُعوّم " قيمتها التى أصبحت تُحدّد يومياً وفقاً للعرض والطلب فى أسواق المال الدولية. وأصبح السوق فى الحقيقة ملكاً، وجلست الحكومات فى المقاعد الخلفية نتيجة لتعويم معدلات الصرف، وترك القليل من العمل لصندوق النقد الدولى بقية ذلك العقد من الزمان.

وقد شجع إنهاء نظام تثبيت معدل الصرف الاستثمارات المعرضة للمخاطر والمضاربة. ونظراً لضخامة الأرباح وانخفاض التكلفة، بدأت البنوك الأميركية تمنح قروضاً ضخمة تتجاوز الحد المسموح به لدول العالم الثالث (أى أن تتجاوز القروض الضمانات الإضافية عند العرض، أو احتياطات البنك نفسها). وأصبحت بنوك مثل سيتى كورب وبنكرز ترست تجنى نحو ٨٠٪ من عوائدها من عمليات خارجية ذات مخاطر عالية^(١٩). وذهب الكثير من القروض إلى نظم حكم ديكتاتورية أو فاسدة مع تضاؤل احتمالات سدادها. ورغم ذلك افترضت البنوك أن حكومات " الدول النامية " لا يرجح أن تعلن إفلاسها، وأنها لو فعلت فقد تكفلها بعض المؤسسات الدولية.

وهكذا ولدت ظاهرة " المخاطرة الأخلاقية " الغربية، أى أن رجال البنوك الأميركيين يستطيعون منح قروض باهظة للغاية وغير مسؤولة دون مخاطرة الاضطرار إلى استيعاب الخسارة أو تعويض الأموال التى أساءوا إدارتها. وقبل نهاية منجم قروض سبعينيات القرن الماضى كانت قد أنتجت كارثة مماثلة بالضبط للنوع الذى سعى كينز والإصلاحيون إلى تجنبه عند نهاية الحرب العالمية الثانية. والواقع أن كل دولة فى إفريقيا وأميركا اللاتينية كانت غارقة فى الديون. وفى أغسطس عام ١٩٨٢ أعلن جيسوس سيلفا هيرترزوج وزير المالية المكسيكى إفلاس بلاده، وأنها لم تعد قادرة على دفع أى من ديونها. وكما توقع رجال البنوك بالضبط، تدخلت الحكومة الأميركية، لا لكى تنقذ المكسيك، بل لكى تضمن ألا تنهار البنوك الأميركية. ولم تضيق حكومتنا وقتاً، فى ذلك الحين أو بعده، حتى تلمح إلى أن الناس أصحاب الديون المدومة يتحملون جزءاً من مسؤولية هذه النتائج.

وفى أوائل ثمانينيات القرن العشرين وفى أعقاب الانهيار العالمى بسبب القروض، ألفت الولايات المتحدة بمسؤولية معالجة مشكلة ديون العالم الثالث على عاتق صندوق النقد الدولى والبنك الدولى وأصدرت تعليمات صارمة لهما بفعل أمرين هما أن تجعل الدول المدينة تستمر فى دفع بعض المال حتى يمكن تجنب افتضاح الإهمال الرسمى، وأن تعتصر منها أكثر ما تستطيع من الأموال. وقد قبلت المؤسساتان المحتضرتان القيام بدورهما الجديد بهمة ونشاط وهما مسرورتان بالقيام بدور وكالات التحصيل من أجل البنوك التى منحت قروضا معدومة. وهكذا ولد ما سعى ببرنامج " التسوية الهيكلية للقروض " فى البنك الدولى، و"برامج التسوية الهيكلية " فى صندوق النقد الدولى.

وفى ظل التسوية الهيكلية يقوم البنك الدولى بإقراض أرصدة للدولة المدينة حتى تستطيع الاستمرار فى " خدمة " ديونها بأساليب شكلية صغيرة. ومن شروط القرض أن يقرض صندوق النقد الدولى عملية ترميم " سوشيو اقتصادية " للدولة وفقا لأجندة الليبرالية الجديدة. وإذا لم تقبل الدولة المدينة هذه الشروط، تحرم من الحصول على أية مبالغ من الرأسمال الدولى. ومن ثم تحدث خلخلة فى اقتصادها إلى مدى يهيؤها لانقلاب تدبره وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية. والمثال التقليدى المبكر لهذه العملية الإطاحة بسلفادور ألييندى فى تشيلى عام ١٩٧٣ وإقامة نظام الجنرال أوجوستو بينوشيه العسكرى الديكتاتورى، ولكن كان هناك كثيرون غيره أيضا منذ ذلك الوقت. وقد أصبح العالم الثالث بأكمله وبسرعة تحت إشراف دعاة صندوق النقد الدولى الاقتصاديين. وبحلول أواخر تسعينيات القرن الماضى خضع ما يقرب من تسعين دولة لعمليات " التسوية الهيكلية " بطريقة الصدمات العلاجية التى أمرت بها واشنطن^(٢٠).

ومن برامج التسوية الهيكلية " النمطية " أن يطلب صندوق النقد الدولى والبنك الدولى من دولة ما " تحرير " التجارة، أى إعطاء الأجانب مدخلا حرا إلى اقتصادها. كذلك يفرض على الدولة خفض إنفاقها على البرامج الاجتماعية كالرعاية الصحية والتعليم حتى يتم الإفراج عن الاعتمادات العامة لسداد الديون للبنوك الأجنبية والمؤسسات العابرة للحدود القومية. وألغى الصندوق الدعم المخصص للزراعة المحلية الذى يحكم عليه فى العادة بأنه غير مربح، بينما تتم زيادة المعونات المقدمة للبيزنس الزراعى لإنتاج محاصيل التصدير مثل الزهور والفواكه. ويصر صندوق النقد الدولى

على أن تسقط الدولة كل أنواع المراقبة لتحركات رأس المال، وأن تسمح للمستثمرين الأجانب وشركاتهم بشراء المشروعات المملوكة للدولة مثل محطات الكهرباء، وشركات الهاتف، والنقل، والمصادر الطبيعية، وشركات الطاقة وأكثر الأمور أهمية هو أن على الدولة التي تتلقى قرضا من البنك الدولي أن توافق على الحفاظ على إمكانية تحويل عملتها بمعنى أنها لا تستطيع منع تبديل عملتها بعملة دولة أخرى مما قد يؤدي مؤقتا إلى وقف تدفق رأس المال. وبدلا من ذلك على الدولة أن تحافظ على قابلية للتحويل الحر بغض النظر عن تسبب سعر الصرف في إحداث مضاربات تؤثر على قيمة العملة في المستقبل. وكل ما تخرج به الدولة من مثل هذا الخليط من " الإصلاحات " ليس الشفاء الاقتصادي، أو النمو طويل المدى، أو الاستقرار، ولكن أن تصبح مجرد حكومة أضعفت إلى أن تتحدر إلى نظام مهووس بالسرقة يعاني من انهيارات اقتصادية كل فترة وتتأوشها مضاربات متفشية وقد أجبرت على الاعتماد على المؤسسات الأميركية كي تقدم لها جميع السلع الاستهلاكية تقريبا والوظائف وحتى الخدمات العامة (المكسيك ١٩٩٤-١٩٩٥، وتايلاند وكوريا الجنوبية وإندونيسيا ١٩٩٧، والبرازيل وروسيا ١٩٩٨، والأرجنتين ٢٠٠٠، وفنزويلا ٢٠٠٢) (٢١).

وكانت الولايات المتحدة هي مهندس هذه الجهود والمستفيد الأكبر منها. ففي الفترة بين ١٩٩١ و ١٩٩٣ كان لورانس سامرز كبير الاقتصاديين في البنك الدولي هو الرجل الذي أشرف على صياغة " المعايير القياسية " التي تفرض على كل دولة تحتاج إلى قرض. وقد قرر بالضبط ما يجب أن يكون لدى الدولة مما تريد واشنطن أن تكشف عنه الستار. وفي ١٢ ديسمبر ١٩٩١ ساءت سمعته بسبب تسرب مذكرة إلى كبار المسؤولين في البنك تشجع الصناعات الملوثة للبيئة في الدول الغنية على الانتقال إلى الدول الأقل نموا، فقد كتب يقول: " أعتقد أن المنطق الاقتصادي وراء إفراغ شحنة من النفايات السامة في الدول الأدنى من حيث الأجور أمر لا خطأ فيه ويجب أن نواجهه ببسالة ". وقد رد عليه خوسيه لوتزنبورجر قائلا: " أفضل شيء يجب فعله هو أن يختفى البنك " (٢٢).

في الوقت نفسه، وفي وزارة التجارة عبر مدينة واشنطن، كان جيفري جارتن وكيل الوزارة في إدارة كلينتون، وهو مؤلف آخر لهذه المخططات، يقول: لدينا مهمة أطلق

عليها رون براون (وزير التجارة): "الدبلوماسية التجارية" المتداخلة مع السياسة الخارجية وسلطة الحكومة وصفقات البيزنس. لقد استخدمنا عضلات واشنطن الرسمية لمساعدة الشركات على شق الأسواق عبر البحار. وسرت ثقافتنا كالكهرباء: وأقمنا "غرفة حرب" اقتصادية، وبينما "أرضية تجارية" اقتفت آثار أضخم المشروعات التجارية في العالم". واعترف جارتن بأن الكثير من صفقات البيزنس، التي تنطوى على المقايضة مع أحد المطلعين على بواطن الأمور من بين كبار المسؤولين الحكوميين، ربما تكون ملتوية من الناحية الأخلاقية. ولكنه بررها بالحجة التالية: "إذا افتتحت بازارا وحشيا يجب أن تتوقع تعرضك للنشل من وقت لآخر" (٢٣).

ويمكن التدليل بمحنة الفلبين على ما أنجزته حالات النشل هذه. ففي الفترة بين ١٩٨٠ و ١٩٩٩ تسلمت تلك الدولة تسعة من قروض التسوية الهيكلية من البنك الدولي وستة قروض مختلفة من قروض ميزان المدفوعات من صندوق النقد الدولي. وفي الفترة بين ١٩٨٣ و ١٩٩٣ سجل معدل نمو إجمالي الناتج القومي صفرا (٢٤). وبعد عقدين من أول برنامج للتسوية الهيكلية أوقف البنك الدولي القروض لسبب صريح هو. بكلمات والدن بيللو من جامعة الفلبين. أن "الفشل... الفشل الذريع... لا يمكن إنكاره أبعد من ذلك وإلا كان الجزاء الفقد الشامل للصدقية المؤسسية" (٢٥).

والشيء الذي بدأ كبرنامج للإجراءات الطارئة مبنى على فهم فقير للدول المدينة في بدايات ثمانينيات القرن العشرين اكتمل ببطء ليصبح "إجماع واشنطن" المتشدد في تسعينيات القرن الماضي. وأصبحت حكومة الولايات المتحدة مصرة على فرض الاقتصاديات الليبرالية الجديدة على كل دولة على وجه الأرض. ولكي تحقق ذلك كشفت الستار عن خطتها الرئيسية. وأنشأت "جولة أوروغواي" الخاصة بمفاوضات التجارة العالمية (١٩٨٦-١٩٩٤) وجوهرة تاجها في أول يناير ١٩٩٥ وهي منظمة التجارة العالمية. وهو تصرف بدا أنه يستجيب لمجهود برئ لوضع منظومة قواعد تجارية للجميع وإخضاع الزراعة لقواعد مماثلة لأول مرة "واكتشفت دول نامية كثيرة أنها بتوقيعها على اتفاقية منظمة التجارة العالمية قد وقعت على حرمانها من حقها في التنمية" على حد قول بيللو (٢٦).

وينبغي أن يكون مفهوما أنه لم تكن هناك حاجة لإنشاء منظمة التجارة العالمية. فلم يكن هناك وجود لأزمة في التجارة العالمية في الفترة ما بين عامي ١٩٨٦ و ١٩٩٤

تقتضى التصديق عليها. وكانت التجارة الدولية تتوسع بشكل جيد فى ظل صيغة اتفاقية الجات. وقد أنشئت منظمة التجارة العالمية لأن الولايات المتحدة اكتشفت أن من الممكن إنشاء ها. وكان لها هدفان من وراثها بشكل ملموس: محاولة التحكم فى المنافسة التجارية المتنامية بين الدول الصناعية وخاصة الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى واليابان. وكذلك أن تكفل منع دول العالم الثالث من استخدام التجارة كأداة مشروعة للتصنيع ومن ثم تهديد الهيكل الاقتصادى الكونى النيوليبرالى. وقد أنجزت الولايات المتحدة الهدف الأخير من خلال اتفاقية الزراعة واتفاقية حقوق الملكية الفكرية المتعلقة بالتجارة، وهما الاتفاقيتان اللتان قدمتهما " جولة أوروغواى " عام ١٩٥٥ لمنظمة التجارة العالمية لوضعها موضع التنفيذ.

وقبل إنشاء منظمة التجارة العالمية كانت الزراعة خارج نطاق الجات رغم كل النوايا والأهداف لأن الولايات المتحدة ظلت تهدد مدة طويلة بالانسحاب إذا لم يسمح لها بالاستمرار فى حماية إنتاجها من السكر ومنتجات الألبان وغيرها من السلع الزراعية. وقررت الجات ببساطة عدم تطبيق أية قواعد بالنسبة للزراعة تجنباً لوقوع الانفجار. وبحلول سبعينيات القرن الماضى أصبحت أوروبا مصدراً جوهرياً للأطعمة وبدأت تنمو منافسة شرسة للغاية بين القوتين الزراعيتين العظميين: الاتحاد الأوروبى والولايات المتحدة. وقد أرادت كلتاها فتح العالم الثالث كسوق جديدة للصادرات الزراعية. ولكى يتحقق ذلك كان عليهما وضع مزارعى الدول الفقيرة " خارج البيزنس " وإحلال المؤسسات الزراعية العملاقة مكانهم. وفى جولة أوروغواى للمفاوضات الزراعية استبعد الاتحاد الأوروبى والولايات المتحدة جميع وفود العالم الثالث، واتفقا فيما بينهما على القواعد التى تغطى الزراعة. وفى اتفاقية بلير هاوس عام ١٩٩٢-١٩٩٣ منعا العالم الثالث من حماية منتجاته الزراعية، ولكنهما أعفيا دعم أسعارها لأنه كان متبعاً بالفعل قبل التوصل إلى الاتفاقية. ولا يدعو للدهشة بعد ذلك أن تندفع موجات عارمة من الواردات الزراعية لتصب فى الدول النامية دون زيادة متناسبة معها فى صادرات تلك الدول. وقد أثمر هذا التدخل غير المشروع وإبلا مندفعاً إلى مدن العالم الثالث من العمال الزراعيين المشردين عن أوطانهم، وتركيزاً كبيراً لا مثيل له فى حيازة الأراضى. وارتفاعاً ملحوظاً فى العنف بالمناطق الريفية عندما حاول الفلاحون المحليون حماية أسلوب حياتهم.

وفى أواخر التسعينيات وفى ظل برنامج الاتحاد الأوروبي الزراعى المشترك، أنفقت دول الاتحاد الأوروبي الخمس عشرة ٤٢ بليون دولار سنويا لدعم مزارعيها بينما خصصت للعالم الثالث ٣٠ بليوناً فقط كمساعدة للتنمية فى جميع المجالات. وارتفع مستوى الدعم الشامل للزراعة فى الدول الغربية من ١٨٢ بليون دولار عام ١٩٩٥ عندما أنشئت منظمة التجارة العالمية، إلى ٢٨٠ بليون دولار عام ١٩٩٧ و ٣٦٢ بليون دولار عام ١٩٩٨. وبحلول عام ٢٠٠٢ بلغ دعم الاتحاد الأوروبي للزراعة ستة أضعاف إجمالى مبالغ المساعدات الأجنبية التى قدمتها جميع الدول الفنية للفقراء^(٢٧). وكانت النتيجة فى دول العالم الأول الإنتاج المفرط لمجالات واسعة من المنتجات الزراعية بما فى ذلك الفلال، ولحوم الأبقار والخنازير، والألبان، والزبد، والطماطم، وزيت عباد الشمس، والسكر. وكانت هذه السلع آنذاك تخضع بطريقة فظة " للإغراق " فى الدول النامية (أى أن تباع السلع بأسعار أدنى من تكلفة إنتاجها). ومن هنا لا يمكن تجاهل النتيجة التى توصل إليها جوزيف ستيجليتز إذ يقول : "إن الدول الثرية التى تكيل المديح رسمياً وتكراراً للتجارة الحرة، تستخدم التعريفات وأموال الدعم للحد من الواردات من الدول الفقيرة وبذلك تحرمها من التجارة التى تحتاج إليها لتخفف من الفقر ولتسعى إلى تنمية اقتصادها."^(٢٨)

وبعد حرمان دول العالم الثالث من الحصول على أموال الدعم الزراعى وإصابتها بالشلل فى قدرتها على بناء صناعات منافسة، عمدت منظمة التجارة العالمية إلى منعها من استخدام التقنية الأجنبية التى تطبقها الدول الصناعية. ومن حبس أرباح الشركات الاحتكارية التى تمتلك براءات اختراع المنتجات التى لا غنى عنها مثل الأدوية. أما اتفاقية حقوق الملكية الفكرية المتعلقة بالتجارة والمسمدة اختصاراً (تريبس)، والتى أقامت هذه الحواجز، فقد أثبتت أنها منجم ذهب للمؤسسات عابرة الحدود الإقليمية. وكان الهدف منها هو منع الدول النامية من نسخ أو سرقة التقنية المسجلة بنفس الطريقة التى اتبعتها الدول المتقدمة حالياً فى مراحل نموها الاقتصادى. وتوفر الاتفاقية للمؤسسات عابرة الحدود القومية الحد الأدنى من حماية براءات الاختراع على مدى عشرين عاماً وتضع عبء الإثبات فى المنازعات على كاهل الجهة التى أخلت بالاتفاقية. وهذا مثال واضح للدول الفنية التى ترفض السلم لكى تحرم الدول الفقيرة من اللحاق بها.

وأصبح المنتفعون الأساسيون هم شركات المواد الصيدلانية الأميركية والأوروبية وتكتلات البيزنس الزراعى. وفى جبهة الدواء طالبت دول العالم الثالث بالسماح لها باستيراد أو صناعة نسخ عامة رخيصة من الأدوية المسجلة للتعامل مع المشاكل الصحية العامة الحادة، وهى من المسائل التى تمنعها منظمة التجارة العالمية فى الوقت الحاضر. والواقع أن جميع أعضاء المنظمة، ما عدا الولايات المتحدة، يؤيدون تخفيف التفسير الصارم لاتفاقية حقوق الملكية الفكرية بالنسبة للأدوية. وتطالب الولايات المتحدة بدلا من ذلك بأن تقتصر الإعفاءات على أدوية علاج مرض الإيدز والملاريا. والسل. وعدد قليل من أمراض المناطق الاستوائية. على زعم أن صناعة المواد الصيدلانية يجب أن تستمر فى تلقى أسعار مرتفعة لكى تمول الأبحاث المستقبلية.^(٢٩) وبالنسبة للزراعة منحت اتفاقية (الترييس) لأول مرة للشركات الحق فى تسجيل براءات الأشكال الحية وهى البذور بشكل خاص. والشركات التى تنتج أغذية معدلة الجينات (وهى التى يسميها الأوروبيون فرانكينفود)^(*) أخذت تناور جاهدة بالنسبة لهذا النص فى الاتفاقية. وتمتلك شركة مونسانتو مثلا براءة اختراع خاصة ببذور فول الصويا التى تحملت حتى الآن عشبة مونسانتو المبيدة للأعشاب المسماة راوند أب^(٣٠). وشركة مونسانتو لاعب أساسى فى أسواق الذرة وفول الصويا فى أميركا الشمالية واللاتينية وآسيا وفى سوق القمح الأوروبية وهى إحدى الوسائل التى تستخدمها الشركة وغيرها من الشركات مثل دو بون ونوفارتيس باستعمال نظام الترييس لإنتاج وتسجيل براءة اختراع نباتات معدلة الجينات لن تنتج بذورا لمحاصيل زراعية لسنوات تالية. ويجب تخصيصها بمنتجات باهظة الثمن تصنعها نفس الشركات. وهكذا تصبح هذه الشركات فى موقف يجعلها تجنى أرباحا احتكارية من الدول الفقيرة عن طريق هيمنتها على قطاعاتها الزراعية وإملاء ما يجب عليها أن تأكله، هذا إذا استطاعت أن تأكل على الإطلاق.

وهناك حالة أخرى لإساءة استغلال نظام الترييس تسمى "القرصنة البيولوجية". وفى هذه الممارسة تحصل بعض الشركات والجامعات على براءات اختراع لنباتات تعرفها دول العالم الثالث وتستعملها طوال قرون، وعلى هذه الدول عندئذ أن تستخرج التراخيص إذا كانت تريد الاستمرار فى زراعتها. وكانت الحالة التقليدية لهذه القرصنة هى محاولة قامت بها مؤسسة رايس تك فى ألين، تكساس عام ١٩٩٧، لتسجيل براءة

(*) هو تعبير ابتكرته جماعة من نشطاء البيئة والرعاية الصحية وأطلقته على الأطعمة التى يتم تعديل جيناتها.

اختراع أرز مهجن من أرز بسمتى الهندى الذى ظل يزرع على مدى قرنين فى جميع أنحاء شبه الجزيرة الهندية. وما زالت براءة اختراعه حتى الآن صالحة فى الولايات المتحدة فقط بعد أن اتضح أمرها عالميا من قبل العالم الثالث^(٢١). ومع افتراض وجود هذه الانتهاكات للتقنيات الطبية والزراعية يجادل الآن بعض أنصار منظمة التجارة العالمية فى ذلك قائلين إنه كان من الأفضل عدم إدراج الزراعة فى نصوص المنظمة وعدم توسيع نطاق حقوق الاختراع إلى الأشكال الحية.

وعلى العموم فإن نظام منظمة التجارة العالمية التى ظهرت إلى الوجود فى عام ١٩٩٥ هو أداة خادعة. ولكنها فعالة إلى أقصى حد فى الإمبريالية الاقتصادية وقد استخدمتها الدول الغنية ضد الدول الفقيرة. ومع ذلك بدأ هذا النظام يتفكك فى غضون سنوات قليلة من إطلاقه. وبعد ١١ سبتمبر أدى الاهتمام المفرط بالنزعة العسكرية والأحادية فى الولايات المتحدة إلى إضعاف فاعلية القانون الدولى بشكل جوهري أراح واجهة الشرعية الكاذبة التى دعمت قواعد منظمة التجارة العالمية. وفى نفس الوقت بدأت تصادم مصالح أصحاب النزعة العسكرية وأنصار العولة الاقتصادية الأمريكيين وخاصة بالنسبة لصعود قوة عظمى مستقبلية واضحة هى الصين. وقد استثمر أنصار العولة الاقتصادية فى التصنيع فى الصين بحجم أضخم من الاستثمار فى أية دولة أخرى خارج العالم الأنجلو - أمريكى. ومن جانب آخر كان أصحاب النزعة العسكرية مستعدين للتخطيط لاحتواء الصين. عسكريا إذا اقتضت الضرورة. لتقرير مستقبل السيادة العولية.

وفضلا عن ذلك عندما أعلنت إدارة بوش " الحرب على الإرهاب ". اكتشفت أن العولة كانت مفيدة للإرهابيين فى غسل أموالهم وتمويل أنصارهم. بقدر ما كانت مفيدة للمضاربين الرأسماليين. وهكذا بدأت تحكم قبضتها على . أو تحد من، أو تغلق الكثير من قنوات العمليات الاقتصادية التبادلية الأمريكية مع بقية دول العالم بما فى ذلك التحاق طلاب من العالم الثالث بجامعةتنا. ويشير هذا الاتجاه إلى أن العولة قد تعيش حياة قصيرة. على الأقل بالشكل الذى روّجت به فى تسعينيات القرن العشرين.

وكان الانهيار المالى الآسيوى عام ١٩٩٧ أول إشارة واضحة إلى أن العولة ومنظمة التجارة العالمية تواجهان مصاعب. وكانت إدارة كلينتون قد مارست ضغوطا هائلة على اقتصادات شرق آسيا لتقبل الليبرالية الجديدة. وأن تفتح - بشكل خاص - قطاعاتها المالية للمشاركة الأجنبية. ولم تكن أى من دول شرق آسيا مقتنعة بجدوى هذه الفكرة.

ولم تدرك أى منها ما هو ضرورى للإشراف البنكى وتنظيم أسواق رأس المال من أجل إدارة الاقتصاد بالأسلوب الأمريكى ومنع أى انهيار. غير أن معدلات الائتمان المفضلة والدخول إلى الأسواق كانت تتطلب التعاون مع واشنطن. وفضلا عن ذلك لم يكن المستثمرون مهتمين بنتيجة كل ذلك، وبعد كفالة الحكومة الأمريكية للمكسيك عامى ١٩٩٤ و ١٩٩٥ توصل معظم المستثمرين إلى أن تآلف الولايات المتحدة - صندوق النقد الدولى لن يسمح بحدوث أى إهمال كبير فى الأسواق الناشئة. وهكذا تدفقت رعوس الأموال من جميع أنحاء العالم.

وعندما تراكمت الديون على هذه الدول الصغيرة وأعلنت أنها تواجه مشاق فى جداول سدادها هرب رأس المال الأجنبى بأسرع مما جاء. وبدء بتايلاند ثم إندونيسيا وكوريا الجنوبية، كانت معظم اقتصادات آسيا قد أصبحت فجأة على حافة الانهيار وكان عليها أن تتضرع إلى صندوق النقد الدولى كى يساعدها. وفرض البنك إصلاحات مبالغة فى الصرامة والتشدد كشرط مسبق لمنح القروض مما فجر أزمة سياسية أدت إلى ثورة أطاحت بحكومة إندونيسيا، وانتشرت ببطء وهدوء مشاعر عداة عميق ودائم إزاء صندوق النقد الدولى والبنك الدولى والولايات المتحدة فى جميع أنحاء شرق آسيا^(٣٢). وبذل أنصار العولة الأمريكيون أقصى جهودهم لإلحاق مسؤولية انهيار شرق آسيا بوكيليهما: صندوق النقد الدولى والبنك الدولى. وإيعاده عن تشويه سمعة العولة نفسها، وأدعوا أن سبب الانهيار يعود إلى الفساد الآسيوى الذى أطلقوا عليه عبارة " رأسمالية المحاباة " التى تعنى صفقات الإتجار بالأسهم بناء على معلومات سرية. والافتقار إلى الشفافية. وهى عبارة ابتكرها فى الأصل الفلبينيون لوصف نظام حكم ماركوس.

وكانت ماليزيا واحدة من دول شرق آسيا القليلة التى خرجت من الأزمة دون أن يمسها سوء، بل وفى وضع أفضل فى الحقيقة. وساعد نجاحها فى الوقوف فى وجه "علاج" واشنطن الليبرالى الجديد على نزع الثقة عن العولة إلى أبعد من ذلك. وقد قام مهاتير محمد رئيس الوزراء الماليزى بمقاومة طلبات صندوق النقد الدولى وأسرع بإصلاح أجهزة مراقبة رعوس الأموال فى بلاده. وأعلنت رابطة الاقتصاديين الدوليين أنه أقدم على الانتحار تجاريا. وبدوره اتهم مهاتير محمد القوى الغربية والمضاربين أمثال جورج سوروس بالتلاعب بالأسواق والعملات لتدمير اقتصادات شرق آسيا المتمتعة بالصحة. وقد أزعج هذا الاتهام توماس فريدمان الكاتب فى صحيفة نيويورك

تايمز ومؤلف واحد من أفضل الكتب مبيعا التى تسبح بفضل العولة وهو كتاب " الليكزوس وشجرة الزيتون "، وأخذ فريدمان يهذر قائلا: "عفا مهاتير، ولكن فى أى كوكب تعيش؟ أنت تتحدث عن المشاركة فى العولة كما لو كانت خيارا أمامك... العولة ليست خيارا، إنها حقيقة... وأهم حقيقة أساسية عن العولة هى ما يلى: لا أحد هو المسؤول... ونحن جميعا نريد أن نؤمن بأن شخصا ما فى موقع المسؤولية، ولكن ساحة السوق العولية اليوم هى حشد إلكترونى مجهول من تجار أسهم وسندات وعمليات ومستثمرين متعددى الجنسيات تربط بينهم الشاشات والشبكات" (٣٣).

ولسوء حظ فريدمان الحائق المحقق وغيره من المدافعين الليبراليين الجدد، بدأ ائتلاف من المنظمات غير الحكومية فى وضع قائمة بالأسماء والصور على هذا الحشد الإلكتروني للسياسيين ومسؤولى صندوق النقد الدولى والبنك الدولى المسؤولين عن العولة والذين قالت المنظمات إنهم يجب أن يتحملوا مسؤولية نتائجها.

ومما زاد فى حيرة أنصار العولة الأنجلو- أميريكين أن الفقر فى العالم الثالث ازداد بسرعة أعلى بعد إنشاء منظمة التجارة العالمية. ومن المؤكد أن الفساد كان أحد العوامل. ومثال ذلك أن راؤول ساليناس شقيق رئيس المكسيك السابق ضخ ٨٧ مليون دولار خارج بلاده من خلال فتح حسابات فى سبتي بانك فى نيويورك وسويسرا ولندن. ونهب سانى أباتشا ديكتاتور نيجيريا السابق شعبه فى ١١٠ مليون دولار، وكذلك تم غسلها عن طريق سبتي بانك. ويقدر أحد المصادر الموثوق بها أن كارلوس منعم رئيس الأرجنتين من ١٩٨٩ حتى ١٩٩٩ جمع ما يقارب بليون دولار من الرشى أثناء فترتي رئاسته (٣٤). وكانت الهياكل المحلية والإدارية فى الدول الفقيرة عاملا آخر إذ أن هذه الدول - كما يقول دى ريفيرو - افتقرت إلى " كل من الطبقة المتوسطة والسوق الوطنية التى تحتاجها حتى تصبح دولة ممارسة للسلطة وقابلة للحياة" (٣٥).

وفى المؤتمر الوزارى الثالث لمنظمة التجارة العالمية الذى عقد فى سياتل عام ١٩٩٩، قام ائتلاف من أصحاب الخبرة فى برامج التنمية فى العالم الثالث، وفى شؤون البيئة، والنقابيين، والفوضويين، وبعض الأميركيين المهتمين بدور "القوة العظمى الوحيدة الباقية"، بتقديم تفسير بديل للفقر فى العالم الثالث، وفى نهايته أراحوا النقاب عن الدوافع الإمبراطورية والتوسعية وراء النظرية الليبرالية الجديدة. وأكدوا على غياب الديمقراطية داخل صندوق النقد الدولى والبنك الدولى ومنظمة التجارة العالمية.

وأشاروا إلى أن قواعد التصويت فى صندوق النقد الدولى قابلة للتلاعب حتى تتمتع الدول الغنية وحدها بالنفوذ. وتحفظ الولايات المتحدة بالحق فى تعيين رئيس البنك الدولى. وتتخذ منظمة التجارة الدولية قراراتها على أساس "الإجماع" بينما تتمتع أية دولة غنية لا تنضم إلى الإجماع بحق الفيتو^(٢٦).

وأحدث مطالب المعارضين صدى واسعا فى أنحاء العالم واكتسبت الحركة مزيدا من الأنصار بسرعة. وفى عام ٢٠٠٢ كانت الاجتماعات الدولية لقوى العولة تثير احتجاجات نصف مليون عضو فى الحركة. وبشكل عام اختار العولليون تشويه سمعة المعارضين. فأعلن تونى بليز رئيس الوزراء البريطانى أنهم: "مثيرو الشغب المناهضون للديموقراطية (الهوليغانز)". وأنهم "سيرك الفوضويين المتجولين"^(٢٧). أما روبرت زوليك الممثل التجارى الأمريكى فى إدارة بوش الثانية فقد شبه المعارضين بإرهابيين ١١ سبتمبر فى إحياء ماكر بقوله: "من المحتمل أن الناس سوف يتساءلون عما إذا كانت هناك علاقات فكرية مع آخرين تحولوا إلى العنف لمهاجمة التمويل الدولى، والعولة، والولايات المتحدة"^(٢٨). وكتب توماس فريدمان فى صحيفة نيويورك تايمز ليقول إن المتظاهرين فى سياتل هم "سفينة نوح لمدافعين عن أرض مفلطحة راكدة. ونقابات عمال نصيرة للحمائية، والمحترفين الصغار سكان المدن المتطلعين إلى ورطة الستينيات". وسماهم سيلفيو بيرلسكونى بأنهم "القبائل الرحل المتأثرون بطالبان"^(٢٩). وفى نفس الوقت تمسكت منظمة التجارة العالمية ودول مجموعة الثمانية بعقد اجتماعاتهم فى أماكن يصعب الوصول إليها مثل مدينة الدوحة فى قطر أو فى منتجع التزلج على الثلج المسمى كانانا سكيز فى منطقة جبال روكيز الكندية. وحاول صندوق النقد الدولى تجميل صورته فقام بتغيير اسم "برنامج التسوية الهيكلية" إلى اسم آخر صديق لحركة الاحتجاج وهو: "برنامج النمو وخفض الفقر".

وقبل ١١ سبتمبر ٢٠٠١ حدثت ثلاثة تطورات أخرى أساسية لتزيد الشكوك فى العولة. وفى مارس ٢٠٠٠ استخلص تقرير ملتسر، الصادر بتكليف من الكونجرس الأمريكى، أن صندوق النقد الدولى "مأسس الركود الاقتصادى" وأن البنك الدولى حاد عن هدف التخلص من الفقر العالمى". وقبل ذلك بعدة سنوات طلبت وزارة المالية الأمريكية من الكونجرس زيادة ضمانات صندوق النقد الدولى بنحو ١٨ بليون دولار. وفى ضوء الكوارث المتطورة الواقعة فى شرق آسيا والبرازيل وروسيا شرع الكونجرس

فى تشكيل لجنة استشارية للمؤسسات المالية الدولية لفحص سجلات صندوق النقد الدولى والبنك الدولى برئاسة ألان ميلتسر من جامعة كارنيجى ميلون ومعهد أميريكان إنتربرايز. وكانت النتائج التى توصل إليها " تقرير ميلتسر " أمرا شائعا من قبل فى العالم الثالث، ولكنها كانت المرة الأولى التى تصدر فيها على يد شخصية ذات سمعة طيبة من بين أعضاء " إجماع واشنطن ". وكتب ميلتسر أن " المؤسسات الاقتصادية كانتا مدفوعتين إلى حد كبير بمصالح المؤسسات السياسية والاقتصادية الرئيسية فى مجموعة السبع دول (G7) وخاصة فى حالة صندوق النقد الدولى، والحكومة الأمريكية، والمصالح المالية الأمريكية. وعندما وصل الأمر بالبنك الدولى إلى معالجة هدفه المعلن للتخلص من الفقر العالمى كان أداء البنك " بائسا " (٤٠).

وبعد ذلك بقليل انهار اقتصاد الأرجنتين انهيارا كارثيا مما زاد الدلائل على عجز صندوق النقد الدولى والبنك الدولى. وكانت الأرجنتين قد اتبعت بإخلاص أفكار الليبرالية الجديدة حول حرية السوق ووصفات صندوق النقد الدولى حتى أنها باعت قطاعها البنكى بأسعار بخسة للأجانب الذين أصبحوا يملكون ٨٠٪ من بنوك البلاد بحلول عام ١٩٩٨. وقاموا بتثبيت البيزو بالتساوى مع قيمة الدولار أى أن البيزو الواحد أصبح يساوى دولارا واحدا. وخضعت العملاتان للتداول الحر فى البلاد. وبحلول عام ٢٠٠٢ أصبح لدى الأرجنتين سجل لا تحسد عليه يضم أضخم كمية متراكمة من الدين العام فى أية دولة فى التاريخ تبلغ نحو ١٦٠ بليون دولار (٤١). وفى خلال سنة تقلص دخلها القومى بنحو الثلثين ووجد أكثر من نصف عدد السكان من الطبقة المتوسطة الكبيرة أنفسهم وهم يعيشون تحت خط الفقر. ولم يجرؤ أى سياسى مهما كان انتماؤه على الظهور فى الشوارع خشية أن يقتله الجمهور شنقا.

ووافق صندوق النقد الدولى على مساعدة حكومة الأرجنتين على دفع خدمة ديونها، ثم ارتكب نفس الخطأ الذى وقع فيه فى شرق آسيا عام ١٩٩٧، وكشروط لتقديم قروضه، طلب الصندوق وضع ميزانية تقشفية تقضى بفصل أعداد كبيرة من العاملين بالحكومة وخفض رواتب التقاعد، وتخفيض الأجور، وإلغاء الامتيازات الإضافية. وتوقفت الحياة فى البلاد بشكل تام نتيجة موجات التمرد ورد فعل الشرطة الوحشى. وفى شهر ديسمبر ٢٠٠٠ قدم صندوق النقد الدولى للأرجنتين نحو ٤٠ بليون دولار بشرط أن تستمر الحكومة فى دفع الديون الخارجية عن طريق تكثيف اعتصارها لأفقر

العناصر فى المجتمع. وليست هناك أية حكومة تستطيع تلبية مثل هذه الشروط وتجنب حدوث ثورة فى بلادها. ففى خلال أربعة عشر شهرا شهدت الأرجنتين خمس حكومات وستة وزراء اقتصاد، ولكن صندوق النقد الدولى أصر على أن البلاد مازالت لا تتعامل بصرامة كافية، وأنها على أى حال لم تعد ذات أهمية استراتيجية تذكر بالنسبة للولايات المتحدة. وعندئذ سحب القابض الكهربائى ورفض تقديم مزيد من القروض. ونتج عن ذلك تضخم شهري مضاعف وانهارت قيمة البيزو بنسبة ٢٢٠٪ وانهار النظام الاجتماعى. وأصبحت الأرجنتين - التى كانت ذات مرة أكثر دول أميركا اللاتينية ازدهارا - حالة ميئوسا منها بفضل الليبرالية الجديدة والعولة وصندوق النقد الدولى.

والحدث الثالث الذى ساعد على تشويه سمعة العولة هو افتضاح الجريمة الكبرى فى شركة إنرون ومؤسسات أخرى متعددة الجنسيات مركزها فى الولايات المتحدة. وعندما افتضح أمر عملاء العولة، وهى المؤسسات نفسها، باعتبارهم متآمرين مجرمين للتدليس على زبائنهم وموظفيهم وحكوماتهم، لم يعد الأمر مسألة ممارسة للعولة فحسب بل أصبحت فكرة العولة بأكملها أمرا يثير السخرية. وكانت البراهين قد تجمعت بالفعل لتشير إلى هذه الحالة فى الشهور السابقة على ١١ سبتمبر. وبعد الهجمات عندما انتقلت الولايات المتحدة بحسم من النزعة الاقتصادية إلى النزعة الإمبراطورية، كشفت العولة عن عريها رغم كل ضراوتها.

وفى أعقاب ١١ سبتمبر احتلت صفقات الذخائر واستغلال الحرب مكان الصفقات غير القانونية أو صفقات رأسمالية المحاباة فى أواخر التسعينيات، باعتبارها أفضل وسيلة للإثراء بالنسبة للرأسماليين ذوى العلاقات السياسية الجيدة. وقد لعب المجمع الصناعى - العسكرى والينتاجون الحامى له أدوارا قوية على الدوام فى اقتصاد ما بعد الحرب العالمية الثانية. ولكنهما أصبحا نجمى الاقتصاد بعد ١١ سبتمبر. وعلى أى حال لا تتبع صناعة السلاح قواعد العولة. وهى فى العادة تتعامل مع زبون واحد ولا تخضع لنظام السوق، ولا تأخذ الحكومات فى الاعتبار مخاطر الربح والخسارة عندما تتصل الأمور بمسألة الأمن القومى. وتعتبر صناعة الذخائر نموذجا لا للمشروعات الحرة، ولكن لاشتراكية الدولة.

وتقف الولايات المتحدة رسميا وبصراحة ضد " السياسة الصناعية " التى قيل إنها تقوض حرية السوق لكى تجنى العائد الحكومى المطلوب. وقد حرمت منظمة التجارة

العالمية السياسة الاقتصادية بحكم النصوص التي تتناول معوقات التجارة غير المتعلقة بالتعرفات. ومع ذلك هناك استثناء صارخ من هذه القاعدة وهو إنتاج ومبيعات الأسلحة. والولايات المتحدة تدير منذ زمن بعيد واحدة من أكبر السياسات الصناعية تطورا من خلال قطاع الدفاع الخاص بها. وعلى سبيل المثال من غير المشروع بالنسبة للولايات المتحدة أن تدعم علنا تصدير الطائرات النفاثة طراز بوينج ٧٤٧ جامبو (كما يفعل الاتحاد الأوروبي بالنسبة لطائرات إيرباص التجارية). ولكن الحكومة وجدت الكثير من الوسائل للالتفاف على هذا المنع، وطوال عقود من الزمان أخذت تمول ابتكارات تقنية فى الجامعات والمشروعات تحت غطاء احتياجات الدفاع القومى. كذلك تمول البنتاجون أغلب المبيعات العسكرية عن طريق القروض وحقوق الامتياز. كما أن خصخصة العديد من الأنشطة التى كانت تديرها القوات المسلحة سابقا. تخدم مصالح الشركات المملوكة للقطاع الخاص. ومع وجود التوجهات الحالية نحو النزعة العسكرية، أصبحت الولايات المتحدة القوة العظمى فى السياسة الصناعية بحكم الأمر الواقع.

وقد تعاملت اتفاقية الجات الأصلية لعام ١٩٤٧ مع عمليات الدعم العسكرية باعتبار أنها تختلف عن جميع العمليات الأخرى تحت شعار " استثناء الأمن القومى " الذى أصبح جزءا من كل اتفاقية تجارية يتم إبرامها منذ ذلك الوقت. ويسمح هذا الاستثناء للدول بأن تتعهد بتمويل إنتاجها، وترويج المبيعات. وأن تفرض المقاطعة إذا فعلت ذلك تحت اسم الأمن القومى. وفوق ذلك تتضمن جميع برامج التسوية الهيكلية التابعة لصندوق النقد الدولى والبنك الدولى استثناء أمنيا. ومعنى ذلك أنه على الرغم من أن صندوق النقد الدولى قد يفرض وضع ميزانية تقشف على دولة تطلب معونة طوارئ. فإنه يسمح لها بشراء أسلحة من دولة أجنبية - هى الولايات المتحدة عادة - حتى لو اقتطع الصندوق الأشغال والمنافع المتعلقة بالصحة. وفى عام ١٩٩٧ كانت كوريا الجنوبية تنوء تحت ضغط الديون ومع ذلك اقترح صندوق النقد الدولى عليها أن تعلق شراء المعدات العسكرية حتى تتعافى من ديونها. غير أن الولايات المتحدة رفضت هذا التوجيه. وبنفس الطريقة ظلت تركيا طوال سنين عديدة تعتمد على قروض الصندوق لتحافظ على بقاء نظامها الاقتصادى بينما أخفت نحو ١٤٪ من إجمالى الناتج المحلى بعيدا عن التخفيضات التى طلبها الصندوق. عن طريق إدراج النفقات المعرضة للخطر ضمن ميزانيتها العسكرية.

وفى عام ١٩٩٣ جاءت إدارة كلينتون بفكرة عظيمة جديدة خاصة بالصالح العام المشترك. وهى تمنح مقاولى الدفاع تخفيضات ضريبية إذا اندمجوا مع تجمعات متنوعة أكبر. ومثال ذلك أن البنتاجون أمدت مؤسسة لوكهيد لصناعة الطائرات وشركة مارتن مارييتا بنحو ١.٢ بليون دولار كتخفيضات ضريبية عندما اندمجتا فى عام ١٩٩٥ لتشكلا لوكهيد مارتن أضخم صانع للسلاح فى العالم. وعلى نفس المنوال. عندما انتهت الحرب الباردة بدأت شركة بوينج فى الانتقال إلى إنتاج الأسلحة إلى أن حصلت على التخفيض الضريبى. وعندئذ عكست المسار واشترت شركة ماكدونل دوجلاس وأجزاء من شركة روكويل إنترناشيونال. وأصبحت بذلك أكبر مصدرى الأسلحة.

كذلك تم التوسع إلى حد أبعد فى الاقتصاد العسكرى بتفسير الحرب على المخدرات بأنها أحد عناصر الأمن القومى. فى الوقت الذى مُنِع فيه بنك الاستيراد والتصدير الأمريكى من تمويل المبيعات العسكرية. وقُدِّم له استثناء إذا كانت هذه الأسلحة سوف تستخدم فى منع تهريب المخدرات. وهكذا أصبح البنك الممول الأول لمبيعات سيكورسكى المشتملة على تسع عشرة طائرة هليكوبتر من طراز بلاك هوك لكولومبيا على زعم أنها سوف تستخدم فى حرب المخدرات. وفى عام ١٩٩٦ ومن أجل الالتفاف على ما تبقى من القيود على إقراض بنك إى أكس - أى بنك لتمويل مشتريات عسكرية. خطت الحكومة مسافة أبعد فأنشأت وكالة سميت صندوق وزارة الدفاع لضمان قروض التصدير. ودفعت نحو ٨ بلايين دولار لشركات أمريكية فى أول سنة لعملياتها^(٤٢).

ويتم التفكير فى استغلال الحرب فى العادة على أنه عمل يقوم به مدنيون جشعون. ولكن هذه النظرة تقلل من أهمية دور الضباط العسكريين فى تصيد الأسلحة من أجل الأجانب. وفى حالات لا حصر لها تقوم حملات ضغط هائل بقيادة البنتاجون لإنهاء صفقات البيع، وفى أبريل ٢٠٠٢ مثلاً لعبت الولايات المتحدة أشق وأصعب الألعاب مع كوريا الجنوبية، فقد طالبت بأن تمنح سول عقدا قيمته ٤,٤٦ بليون دولار لشركة بوينج لشراء أربعين طائرة مقاتلة ذات مهام متعددة، من طراز إف-١٥ كى بدلا من شراء طائرات رافايل من شركة داسو الفرنسية. وتسربت معلومات من وزارة الدفاع تشير إلى أن طائرة رافايل الحديثة تتفوق على طائرة إف-١٥ كى فى كل النواحي. وسعرها

أرخص بنحو ٣٥٠ مليون دولار. ورغم ذلك أخبر بول وولفووتيز نائب وزير الدفاع الكوريين بأنهم إذا مضوا في الشراء من الفرنسيين فإن الولايات المتحدة ترفض تركيب نظم الشيفرة التي تسمح للطائرات بالتعرف على بعضها، وتوفير الصواريخ التي تستخدمها الطائرات والتي تصنعها شركة ريثيون من طراز ١٢٠ بى أمرام وهى صواريخ جوذ جو^(٤٣). وواجهت داسو ذلك بأن من السهل عليها أن تزود الطائرة رافايل بنظام تعرف إلكترونى متقدم، وأن الصواريخ متاحة من مصادر عديدة. ورغم ذلك اختارت كوريا الجنوبية الطائرة بوينج وزعمت أنها فعلت ذلك لضمان " القابلية العملية المتبادلة " للأسلحة مع تلك التى لدى حلفائها. ويجدر بالذكر أن أقرب حليف للولايات المتحدة وهى بريطانيا ليست لديها طائرة أميركية قتالية واحدة فى سلاح الجو الملكى. ولكنها تنشر طائراتها وطائرات الهليكوبتر بشكل روتينى إلى جانب الطائرات الأميركية الصنع.

وتبدو الضغوط الأميركية على دول أميركا اللاتينية لشراء الأسلحة شديدة الوضوح. وفى أكتوبر ٢٠٠٢ أرادت وزارة الدفاع الكولومبية شراء أربعين طائرة مقاتلة خفيفة طراز سوبر توكانو من شركة إمبراير فى سان باولو أكبر المصدرين فى البرازيل. وكانت قيمة الصفقة ٢٢٤ مليون دولار. فأرسل الجنرال جيمس هيل رئيس القيادة الجنوبية الأميركية على الفور رسالة إلى بوجوتا يحذر فيها من أن شراء الطائرات البرازيلية قد يكون له "تأثير سلبي" على دعم الكونجرس للمعونة العسكرية لكولومبيا فى المستقبل. وأوصى هيل أن تتفق كولومبيا أموالها بدلا من ذلك على تحديث أسطولها من الطائرات طراز سى - ١٣٠ التى تصنعها شركة لوكهيد مارتن فى جورجيا^(٤٤). وهكذا تم إيقاف الصفقة مع البرازيل.

وجاءت أول إشارة لمقاومة هذه التاكتيكات القوية فى أعقاب انتخاب لويس لولا دا سيلفا رئيسا للبرازيل فى شهر أكتوبر ٢٠٠٢ أيضا. وكانت الحكومة البرازيلية السابقة تتفاوض مع كل من فرنسا والولايات المتحدة لشراء ٢٤ طائرة مقاتلة جديدة من أجل سلاح الجو البرازيلى. وحاولت البنتاجون تحلية عرضها ببذل وعد ببيع صواريخ جو - جو مع الطائرات. وهى أول مرة يفعل الأميركيون ذلك فى أميركا اللاتينية. على أية حال عندما أدى لولا دا سيلفا اليمين الدستورية ألقى الصفقة وحول مبلغ ٧٥٠ مليون دولار من ميزانية الدفاع إلى مشاريع القضاء على الجوع^(٤٥).

وأصبح التركيز مجددا على النزعة الإمبراطورية العسكرية نعمة بالنسبة لمقاوى الدفاع الأمريكيين، ففي الشهور التى تلت يوم ١١ سبتمبر أمرت بوينج عمالها بالعمل فى نوبتين لإنتاج " الذخيرة الهجومية المباشرة المشتركة " وهى " القنابل الذكية " التى استخدمت بكثافة فى أفغانستان والعراق. وقامت مصانع ريثيون بالعمل ثلاث نوبات لإنتاج صواريخ توما هوك كروز^(٤٦). وكانت المشكلة هى كيفية المداومة على هذه المستويات من النشاط. وفى نوفمبر ٢٠٠٢ كان من الواضح أن الوعود ببيع السلاح فرضت قرارا خاصا بالسياسة الخارجية سمح لمنظمة معاهدة حلف شمال الأطلسى بانضمام سبع دول من أوروبا الشرقية والبلطيق إلى الحلف. وظلت الولايات المتحدة تعمل طوال ست سنوات على الأقل لإنجاز هذا التضخيم للحلف وقامت على الفور بتوقيع اتفاق مع بولندا لشراء ٤٨ طائرة مقاتلة من طراز إف - ١٦ من إنتاج شركة لوكهيد والمصنوعة فى تكساس من أجل رفع مستوى سلاح الجو البولندى إلى مستويات حلف النيتو. وأقرضت بولندا مبلغ ٣,٨ بليون دولار بشروط حقوق الامتياز لمساعدتها على دفع ثمن الطائرات. وكان مخططو البنتاجون يأملون فى أن تصل قيمة مبيعات الأسلحة لأعضاء النيتو الجدد إلى ٣٥ بليون دولار على مدى عشر سنوات^(٤٧).

والحروب هى وسيلة أخرى للاستمرار فى صفقات التسليح، وهى تتمتع بالخاصية المرغوبة وهى استنفاد المخزون من الأسلحة وإقناع الزبائن المحتملين فى جميع أنحاء العالم بفاعلية الأجيال الجديدة من الأسلحة الأمريكية. وقد رحب المجمع الصناعى - العسكرى بحرارة بالحروب ضد يوجوسلافيا وأفغانستان والعراق باعتبارها عوامل تنشيط للبيزنس. والعمليات التى على حافة الحرب مثل القصف والهجمات الصاروخية هى أيضا " بازارات عملاقة لبيع منتجات صناع معدات التسليح "^(٤٨) على حد قول كارن تالبوت مندوب مجلس السلام العالمى فى الأمم المتحدة طوال عشرين عاما. ويقوم العسكريون دون انقطاع بدور البائع المتجول لبيع أحدث أدواتهم لتايوان مثلا حتى رغم فشل جهود البنتاجون لإشعال حرب مع الصين بينما بدأ الوطن الأم وتايوان فى دمج اقتصادهما. وفى كل الأحوال تبقى إسرائيل واحدة من أقدم وأخلص زبائن البنتاجون. ويبدو أنها سوف تستمر على هذا النحو فى المستقبل.

ومع استمرار الولايات المتحدة فى تكريس أصولها الصناعية لتجارة السلاح، تصبح أكثر اعتمادا على واردات المنتجات غير العسكرية التى لم يعد مواطنوها يصنعونها.

ولكنهم يحتاجون إليها للاستمرار فى أساليب حياتهم المعتادة. ومع تسجيل رقم قياسى فى عجز الميزان التجارى لعام ٢٠٠٢ يصل إلى ٤٢٥,٢ بليون دولار، والاقتراب من معدل مدخرات تافه، يبدو أن الأميركيين سوف ينتهى بهم الأمر إلى أن يصبحوا مدينين للدول الأجنبية بنحو ٣,٥ تريليون دولار فى السنوات القليلة القادمة وحدها. ويخلص المحلل الاقتصادى ويليام جريدر إلى أنه "بدلاً من مواجهة هذا المشهد الذى يزداد إظلاماً أخذ بوش (الرئيس جورج دبليو) وفريقه يصرفون النظر بانتظام عن وجهات النظر العالمية التى تبديها هذه الدول الدائنة. ويفضلون عليها بإلقاء المحاضرات عن صفاتنا المتفوقة. وأى مدين سفيه يهين صاحب البنك إنسان غير عاقل. وبدون مبالغة... أصبحت القيادة الأميركية تعيش وهما متزايداً - وأنا أعنى ذلك حرفياً - وتغمض عينيها عن توازن القوى العاكس الذى يتجمع ضدها" (٤٩).

ويبدو أن حكومتنا لا تدرك العلاقة بين أحاديثها العسكرية وما يصاحبها من الدمار الذى تلحقه بالتجارة الدولية التى تعتمد فى رواجها على علاقات المنافع المتبادلة بين الأفراد، ودوائر الأعمال والتجارة، والدول. وإذا توصل الدائنون الأجانب إلى أن الولايات المتحدة لم تعد المدافع عن القانون الدولى، فسوف يفقدون اهتمامهم بالاستثمار فى مثل هذه الدولة. إن نسختنا فى تأويل النزعة الإمبراطورية العسكرية أحادية الجانب تقتلع المؤسسات الدولية. وتدفع التجارة إلى النضوب، وتشوه فرص توفر التمويل. وتصيب البيئة بالكوارث. وبينما استندت العولة، فى تسعينيات القرن العشرين، على الاحتيال على الفقراء العاجزين عن الدفاع عن أنفسهم، وعلى تدمير البيئة الطبيعية الوحيدة التى لن نملك غيرها، فإن الاستعاضة عنها بالنزعة العسكرية والإمبراطورية الأميركية تنذر على الأرجح بشئ أسوأ بالنسبة للدول المتقدمة والنامية والمتخلفة على السواء.

الفصل العاشر

أحزان الإمبراطورية

- على الرغم من أن النظام المستبد قد ينجح في حكم شعوب أجنبية لأنه لا يحتاج رضا أى منها، فإنه لا يستطيع البقاء فى السلطة إلا إذا دمر جميع مؤسسات شعبه الوطنية.

هانا أرندت

كتاب: أصول الشمولية (١٩٥١)

مع سقوط بغداد فى يوم ١١ أبريل عام ٢٠٠٣ كان حلفاء أميركا المطيعون الناطقون بالإنجليزية: البريطانيون والأستراليون يتوقعون نيل ما يستحقونه من المكافآت التى لم تكن أكثر من ولائم تجمع رتبسى الوزراء بليز وهوارد مع "الغلام الإمبراطور" (*). وكنا قد حشدنا قوة ميدانية من الجيش قوامها ٢٥٥ ألف جندى فى العراق، وأضاف البريطانيون ٤٥ ألفا، والأستراليون ألفى إخصائى. ولم تكن تلك هى القوة اللازمة لشن حرب رغم أنها أكدت زعم القوى المناهضة للحرب أن التعامل مع خطر صدام حسين لم يكن يتطلب ارتكاب المذابح الكبيرة ضد العراقيين دون مقاومة منهم، ولا سلب ونهب المدينة العريقة على الطريقة المغولية. ولكن المفارقة هى أن الحرب جعلتنا والدولتين المؤتلفتين أضعف مما كنا من قبل. فقد تصدع تحالف الدول الديمقراطية الغربية، وذهب احتمال القيادة البريطانية للاتحاد الأوروبى أدراج الرياح، وأخذت البنتاجون تخطط لتحويل العراق إلى دولة عميلة على وجه السرعة تقوم على أساس حقائق الوجود السننى والشيعى والكردى، وتعرض المفهوم الحقيقى " للقانون الدولى " بما فى ذلك ميثاق الأمم المتحدة للانتهاك بطريقة محزنة. ولا يزال الغموض يحيط بالسبب الذى دفع البريطانيين والأستراليين للاشتراك فى هذه الحرب الفاشلة بينما كان فى استطاعتهم بسهولة الوقوف بجانب شىء مغاير لمبدأ "القوة تصنع الحق".

وكما ذكرت من قبل، كانت الولايات المتحدة تشق طريقها ببطء نحو النزعتين الإمبراطورية والعسكرية منذ سنوات عديدة. وكان زعمائنا الذين يموهون الاتجاه الذى كانوا يسيرون فيه، يلفون سياساتهم الخارجية بعبارات مثل: "القوة العظمى الوحيدة"، و"الأمة التى لا غنى عنها"، و"العولمة". وبقدوم إدارة جورج دبليو بوش، وبالذات بعد

(*) لعب المؤلف هنا بتعبير من وحى عادة قديمة كانت متبعة فى الإمبراطورية الرومانية بتعيين غلام صغير فى منصب الإمبراطور . (المترجم).

هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١، أفسحت هذه المزاعم المتباهية الطريق لإعلانات الإمبراطورية الرومانية الثانية القادمة. وكتبت الصحفية الإنجليزية مادلين بانتج تقول: كان من المعتاد أن تكون النزعة الإمبراطورية الأميركية مجرد حكاية تداعب خيال أقصى اليسار... أما الآن فهي حقيقة مزعجة من حقائق الحياة^(١).

وخلال عام ٢٠٠٣ اتخذت إدارة بوش خطوة أبعد بتنفيذ أول "حروبها الوقائية" ضد العراق الدولة ذات السيادة التي يبلغ حجمها ١٢/١ من حجم الولايات المتحدة من حيث عدد السكان، والتي لا تملك بالفعل القدرة على الدفاع عن نفسها في مواجهة انساق الأسلحة والقوة العسكرية المرعبة المتاحة للبنتاجون. وقد شنت هذه الحرب بعدد قليل من الحلفاء وبدون مبررات مشروعة وفي مواجهة معارضة دولية واسعة، وأدت إلى القضاء على مؤسسات النظام الدولي التي تابرت على العمل طوال الحرب الباردة والتي تضرب بجذورها إلى مبادئ القرن السابع عشر حول السيادة وعدم التدخل وعدم شرعية الحرب العدوانية.

ومنذ اللحظة التي اضطلعنا فيها بدور اشتمل على الهيمنة العسكرية الدائمة على العالم ونحن خائفون، ومكروهون، وفاسدون ومفسدون، ونحافظ على "النظام" من خلال إرهاب الدولة والرشوة، وقد اعتدنا على الخطب المغموسة بجنون العظمة والمغالطات التي دعت بقية العالم إلى التوحد ضدنا. لقد امتطينا النمر النابوليوني. وكان السؤال هو: هل سننزل من على ظهره أو سنستطيع ذلك يوما ما؟

وأثناء فضيحة ووترجيت في أوائل سبعينيات القرن الماضي عَنف هـ. آر. هولدمان رئيس موظفي مكتب الرئيس، المستشار جون دين لأنه تحدّث بصراحة إلى الكونجرس عن الجرائم التي أمر بها الرئيس نيكسون، وقال هولدمان للمستشار: "بمجرد أن يخرج معجون الأسنان من الأنبوب يصعب أن تعيده إلى مكانه". وهذه الاستعارة المنزلية الصادرة عن المدير السابق للإعلانات الذي قضى ثمانية عشر شهرا في السجن بسبب دوره في ووترجيت، تصف أيضا موقف الولايات المتحدة في اليوم الذي بدأ فيه غزونا للعراق.

وبالنسبة لنا قد تعنى أحزان الإمبراطورية أنها النتيجة التي لا مفر منها للمسار الذي اختارته نخبتنا بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١. ذلك أن النزعة العسكرية والإمبراطورية تجلب الأحزان معها دائما. ورمز العقيدة المسيحية الموجود في كل مكان وهو الصليب هو أشهر شيء في العالم يذكرنا بالحزن الذي رافق الإمبراطورية الرومانية. فهو يمثل

أكثر حالات الموت بشاعة التى استطاع القناصل الرومان تديرها للحفاظ على طاعة الشعوب المقهورة مثلما اكتشفت الإمبراطوريات على الدوام أنها يجب أن تفعل ذلك. وكان شعار القادة الرومانيين، من كاتو إلى شيشرون هو: "دعهم يكرهوننا طالما أنهم يخشوننا" (*).

وقد تراكت أحزان الإمبراطورية الرومانية على مدى مئات السنين، ولكن المرجح أن تصل أحزاننا بسرعة فيدكس (**). وإذا استمرت هذه النزعات الحالية، يبدو لى أن الولايات المتحدة سوف تصاب بأربعة أحزان، وأن تراكم أثارها يضمن أن الولايات المتحدة سوف تتوقف عن حمل أية سمات تشبه الدولة التى رسمت معالمها فى دستورنا. وأول الأحزان هو أنه سوف تكون هناك دولة حروب متواصلة تؤدى إلى مزيد من الإرهاب ضد الأميركيين أينما كانوا، وإلى اعتماد متنام على أسلحة الدمار الشامل بين دول أصغر فى محاولتها لدرء القوة الإمبراطورية الماحقة. وثانى الأحزان أنه سوف تكون هناك خسارة للديموقراطية والحقوق الدستورية حيث إن رئاسة الجمهورية سوف تخسف الكونجرس تماما، وتكون هى نفسها قد تحولت من "فرع تنفيذى" للحكومة إلى شىء أقرب إلى رئاسة معسكرة كالينتاجون. وثالثا: سوف تتزايد الاستعاضة عن مبدأ الإخلاص والصدق الممزق بالفعل بمنظومة من البروباغندا، والتضليل الإعلامى، وتمجيد الحرب والقوة والجحافل العسكرية. ورابعا وأخيرا سوف تحدث حالة إفلاس نظرا لأننا نفدق مواردنا الاقتصادية على مزيد من المشروعات العسكرية التى تتسم بالفخامة والعظمة مع إبقاء الفئات للتعليم والرعاية الصحية وسلامة مواطنينا. وبالطبع لم يتشكل المستقبل حتى الآن، ومن الممكن مقاومة كل هذه التوجهات، ومن المؤكد أيضا أننا يمكن أن نتخيل مستقبلا أفضل، ولكن من المهم أن نراقب بدقة وبأقصى ما نستطيع ما تنذر به الخيارات الحاضرة والمسار الحالى لزعمائنا الإمبراطوريين. ولهذا

(*) ماركوس شيشرون هو الفيلسوف الرومانى ورجل الدولة. ويعتبر أعظم خطباء الإمبراطورية الرومانية. وقد ولد عام ١٠٦ قبل الميلاد وتوفى عام ٧ قبل الميلاد عن ٦٣ عاما.
أما ماركوس كاتو الكبير كما كان يسمى فقد كان من رجال الدولة البارزين فى روما القديمة، ولكن شهرته لم تقتصر على كونه رجل دولة وجنديا بل كان مؤلفا أيضا، وأول من كتب تاريخ إيطاليا باللغة اللاتينية. وقد ولد عام ٢٣٤ قبل الميلاد وتوفى عام ١٤٩ قبل الميلاد عن ٨٥ عاما. (المترجم).
(**) يقصد المؤلف هنا سرعة شركة فيدكس المتخصصة فى النقل السريع عبر أسطول طائرات خاص بها وفروعها فى معظم مدن العالم. (المترجم).

دعوني أقوم باختصار تشعبات كل واحد من هذه الأحزان وأحاول تقدير المدى الذى وصل إليه.

فى أعقاب هجمات القاعدة يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١ أعلن الرئيس بوش أن سياساتنا سوف تكون الهيمنة على العالم من خلال التفوق العسكرى المطلق وشن حرب وقائية ضد أى منافس محتمل. وبدأ يسرد هذا "المبدأ" فى خطبة له فى أول يونيو ٢٠٠٢ أمام طلاب الأكاديمية العسكرية الأميريكية فى ويست بوينت. وأعلن البيت الأبيض خطبته باعتبارها افتتاحية "، إطار أمنى شامل" تم توضيحه فى وثيقة بتاريخ ٢٠ سبتمبر ٢٠٠٢ تحت اسم: "استراتيجية الأمن القومى للولايات المتحدة"^(٢).

وكان الرئيس قد ذكر فى ويست بوينت أن لدينا الحق من جانب واحد فى الإطاحة بأية حكومة نعتبرها خطرا على أمننا. ودعا إلى ضرورة استعدادنا لشن "حرب على الإرهاب" فى دول كثيرة إذا أريد انتزاع أسلحة الدمار الشامل من الأيدي الإرهابية. وأضاف: "يجب أن ننقل تلك المعركة إلى العدو، وأن نحبط خططه، ونواجه أسوأ المخاطر قبل أن تظهر" وعلى الأميريكين "أن يكونوا مستعدين لضربة استباقية عند الضرورة للدفاع عن حريتنا وأرواحنا.... والطريق الوحيد إلى السلامة فى العالم الذى دخلناه هو طريق القتال، وهذه الأمة سوف تقاتل". وعلى الرغم من أن بوش لم يذكر أية دولة بالاسم، فإنه تبين أنه كانت لديه قائمة بضربات لستين هدفا محتملا، وهى تزيد على قائمة ديك تشينى نائب الرئيس فى نوفمبر ٢٠٠١ التى اشتملت على "أربعين أو خمسين" دولة قد نرى وضعها على جدول الهجمات بعد التخلص من إرهابىي القاعدة فى أفغانستان"^(٣). وقد أفزع ذلك المؤرخ آرثر شليستجر المساعد الخاص السابق للرئيس جون كينيدي حتى أنه كتب يقول إن "الرئيس قد تبنى سياسة الدفاع المسبق عن النفس" وهى سياسة شبيهة إلى حد مفرع بتلك التى انتهجتها اليابان الإمبراطورية فى بيرل هاربور فى تاريخ يظل مخزيا كما وصفه أحد الرؤساء الأميريكين السابقين. وكان فرانكلين روزفلت على حق، ولكن فى الوقت الحاضر الأميريكيون هم الذين يعيشون فى خزي"^(٤).

وفى ويست بوينت برر الرئيس جهده العسكرى الهائل فى إطار قيم عالمية مزعومة فقال "سوف ندافع عن السلام ببناء علاقات طيبة بين القوى العظمى. وسنعمل على نشر السلام بتشجيع المجتمعات الحرة والمنفتحة فى كل قارة". وأضاف تصريحاً من

الواضح أنه غير حقيقى، ولكنه يرقى إلى أن يكون إعلان حملة صليبية مادام هذا التصريح قد خرج من فم رئيس الولايات المتحدة فى مناسبة رسمية: " الحقيقة الأخلاقية هى نفسها فى كل ثقافة. وفى كل زمن. وفى كل مكان". وذكرت ديباجة وثيقة استراتيجية الأمن القومى التى تلت ذلك أن هناك "نموذجاً واحداً مستداماً للنجاح القومى" - نجاحنا - وهو النموذج " الصحيح والحقيقى لكل فرد فى كل مجتمع.... وعلى الولايات المتحدة أن تدافع عن الحرية والعدل لأن هذه المبادئ صحيحة وحقيقية لجميع الناس فى كل مكان".

والمفارقة هنا هى أن هذه الاستراتيجية الكبرى هى الأكثر تدميراً جذرياً للنظام العالمى من أى شئ يأمل إرهابيو ١١ سبتمبر ٢٠٠١ أن يحققوه بأنفسهم. ويبدو أن الولايات المتحدة مصممة. من خلال أفعالها. على أن تحدث نفس الأخطار التى تقول إنها تحاول منعها. كما أن قبولها الواضح " صدام الحضارات " ولخوض الحروب لترسيخ حقيقة أخلاقية هى نفسها فى كل ثقافة. يبدو شبيهاً " الجهاد " وخاصة إذا عرفنا الروابط بين إدارة بوش والأصولية المسيحية. وقد بلغ الأمر بالرئيس حتى إلى أن يساوى نفسه بالمسيح فى تصريحات متكررة يردد فيها عبارة: " من ليس معنا فهو ضدنا " ومن الواضح أنه قصد بذلك ترديد القول المأثور عن السيد المسيح: " ذلك الذى ليس معى فهو ضدى " (إنجيل متى الإصحاح ١٢ الآية ٣٠)^(٥).

وكانت ردود فعل المحللين العارفين بتاريخ العلاقات الدولية إزاء استراتيجية إدارة بوش أنهم كتبوا تقارير اتسمت بالشكوك الجماعية. وقد وصف ستانلى هوفمان الباحث فى العلاقات الدولية هذه الاستراتيجية بأنها " غير واقعية بدرجة مثيرة " و "متهورة أخلاقياً " و " مثيرة للذكريات الغامضة الرهيبة للتفكير النابع عن الأمنى المدمرة لحرب فيتنام "^(٦). أما مبتكر "نظرية النظم العالمية" إيمانويل وولرستين فقد ذكر أن الاستراتيجية الجديدة أوجدت شيئاً سعت السياسة الخارجية الأمريكية تاريخياً إلى تجنبه وهذا الشئ بالذات هو إمكانية وجود ائتلاف يضم فرنسا وألمانيا وروسيا. كما أن هذه الاستراتيجية تتأهب لاستبعاد الدولة الوحيدة فى العالم، وهى المملكة العربية السعودية. التى يمكن أن تحول الولايات المتحدة إلى ساحة للخرقة بقطع إمدادات النفط (سنتناول المزيد من هذا الموضوع فى الحديث عن حزن الإفلاس). وقد تنبأ وولرستين بأن جورج بوش " عندما تنتهى مدة رئاسته سوف يترك الولايات المتحدة وهى أكثر ضعفاً إلى حد كبير "^(٧).

وفى أواخر شهر فبراير عام ٢٠٠٢ قدم جون كيسلنج الدبلوماسى الكبير. الذى كان يعمل آنذاك فى السفارة الأميركية باليونان، استقالته وبعث برسالة الى وزير الخارجية يقول فيها: " السياسات التى يطلب منا تنفيذها الآن لا تتعارض مع القيم الأميركية فحسب، بل ومع المصالح الأميركية أيضا.... لقد بدأنا فى تفكيك أكبر وأكثر شبكات العلاقات الدولية فاعلية التى عرفها العالم. إن مسارنا الحالى سوف يولد عدم الاستقرار والمخاطر لا الأمن"^(٨).

وكان تنفيذ استراتيجية الأمن القومى الجديدة أكثر إثارة للمشاكل من إعلانها إلى حد بعيد، ويمثل احتمالات وفيرة لردود فعل عاصفة. وبحلول منتصف عام ٢٠٠٢ تمددت قواتنا المسلحة بشكل خطير وبدأنا نفرق فى الديون لكى نمول ألتنا الحربية. وكانت نسبة ٩٣٪ من الاعتمادات المخصصة للشؤون الدولية تذهب بالفعل الى القوات المسلحة، ونسبة ٧٪ فقط إلى وزارة الخارجية.^(٩) وخلال عام ٢٠٠٢ قامت وزارة الدفاع بنشر ربع مليون جندى ضد العراق بينما كان عدة آلاف من الجنود يشتبكون يوميا فى مناوشات فى أفغانستان. وكانت عدة أطقم لا حصر لها من البحارة تقيم فى السفن خارج المياه الإقليمية لكوريا الشمالية. ويقوم عدة آلاف من مشاة البحرية فى جزر الفلبين الجنوبية بمساعدة القوات المحلية فى القتال ضد حركة انفصالية إسلامية تمتد جذورها القديمة الى قرن من الزمان، وفى نفس الوقت يتورط فيه عدة مئات من " المستشارين " فيما يمكن أن يصبح يوما ما تمردا فى كولومبيا شبيها بفيتنام (وربما فى أماكن أخرى مثل إقليم الأنديز). وكان لنا وجود عسكري فى ١٥٢ دولة من بين ١٨٩ دولة تمثل أعضاء الأمم المتحدة بما فى ذلك عمليات انتشار واسعة النطاق فى خمس وعشرين دولة منها. وكذلك كانت لدينا اتفاقيات أو ترتيبات أمنية ملزمة مع ست وثلاثين دولة على الأقل^(١٠).

وكان هناك عبء آخر غير النفقات المالية لكل هذا، فقد كان الشعب الأمريكى قد أظهر منذ حرب فيتنام رفضه قبول أعداد كبيرة من الضحايا فى حروبنا الإمبراطورية. وبذلت وزارة الدفاع جهودا هائلة وباهظة التكلفة لكى تبتكر المنهج الحربى الذى أسماه ويليام أركين المحلل العسكرى " خلع الأسنان بدون ألم " أو ما أشار إليه الماجور جنرال المتقاعد فلاديمير سليبتشكو خبير الحروب المستقبلية تحت اسم: " الحرب بدون تلامس "، فكرست الوزارة نفسها لإدارة ميدان القتال بالكومبيوتر^(١١). وكانت قد أغدقت الأموال بسخاء على القنابل الذكية وأجهزة الاستشعار فى ميدان

القتال والذخيرة الموجهة بالكمبيوتر، والطائرات والسفن المزودة بتقنية معقدة عالية الأداء. دون جهود مماثلة في التدريب والاحتفاظ بالموظفين القادرين على استخدامها. وكما يمكن لأي مالك للكمبيوتر أن يخمن، فإن هذه المبتكرات كثيرا ما تتعطل. وقد كتب جون جنتري المقدم المتقاعد من قوات الجيش الخاصة. في صحيفة "باراميترز" الصادرة عن كلية الحرب التابعة للجيش، وصفا تفصيليا لتعطل أجهزة الكمبيوتر التابعة لوكالة الأمن القومي لمدة ثلاثة أيام في شهر يناير ٢٠٠٠ والذي كان خطرا كبيرا على الأمن القومي صُنّف على الفور بأنه على أعلى مستوى. ويصف جون جنتري التعقيدات التي لا تصدق في أجهزة الكمبيوتر في البنتاجون والبالغ عددها ١,٥ مليون كمبيوتر شخصي. والتي نظمت في نحو ١٠ آلاف نظام من بينها ٢٣٠٠ خصصت "لمهام حساسة" وللحالة التي يمكن فيها أن يقتحم الخصوم تقنية حروبا السيبرانية أو يشوشوا عليها أو يخدعوها^(١٣).

والهدف الرئيسي للتركيز على التقنية الأعلى من تقنيات الحرب العالية هو إبعاد الجنود عن خط النار. وبعد أن كان الجنود يرسلون إلى ما يسميه أعضاء مجلس الشيوخ المتحدلقون " طريق الهلاك " أصبحوا الآن أقل عرضة للخطر مما لو كانوا في سياراتهم في الوطن. ولم يعودوا يشعرون بمعنى القتال أكثر مما يشعر به الأولاد المراهقون أمام ألعاب الفيديو، ذلك لأن الجنود أصبحوا يعملون أمام شاشات أجهزة الكمبيوتر وفي خيام مكيفة الهواء على بعد أميال من أرض المعركة. أو على ارتفاع ٣٥ ألف قدم داخل القاذفة بي-٥٢. ويستهنج المقدم جنتري " التأثيرات الموهنة للأخلاق العسكرية الناتجة عن وعود التقنيين لهم بتحقيق انتصارات سهلة وحياة مريحة " ^(١٣).

ولكن هناك مشكلة أخرى أيضا. فقد كان من المفترض أن تكون عملية أناكوندا في أفغانستان في مارس ٢٠٠٢ عرضا " لمعجزات التقنية الحديثة عند تطبيقها في المعركة مع نسق من منصات الاستطلاع الحساسة تحدد بدقة موقع أفراد العدو ثم تقصفهم بالقنابل دقيقة التوجيه وهم في العراء " ^(١٤). ومع ذلك اكتشف بحث أجراه معهد الدراسات الاستراتيجية التابع لكلية الحرب أن نصف أفراد العدو اختفوا دون أن نكتشفهم وعيوننا في السماء. وأن عددا كبيرا من القنابل دقيقة التوجيه أخطأ أهدافه. وفشلت العملية لأن أعدادا كبيرة من إرهابيي القاعدة استطاعوا الفرار. وبعد شهر. في يوم ١٧ أبريل ٢٠٠٢، قصفت إحدى طائراتنا طراز إف - ١٦ مجموعة من الجنود الكنديين عن طريق الخطأ فقتلت أربعة وأصابت ثمانية منهم. وهي نموذج طبق الأصل

لحادثة وقعت بسبب معدات ذات تقنية عالية غير ملائمة (طائرة مسرعة أكثر مما ينبغي فى مهمة دعم أرضى) وبسبب فشل اتصالات القيادة والمراقبة. وكالعادة صرفت البنتاجون النظر عن الحادثة باعتبارها مجرد حالة "محزنة" أخرى من حالات النيران الصديقة.

وعندما تنجح ذخائر الحروب السيبرانية فإنها تقتل عددا كبيرا من أناس غير مقاتلين وبالتالي يعتبر استخدامها جريمة حرب. ولم يحدث أن ربح سلاح الجو معركة واحدة وحده على الرغم من قدرته الكاملة على تدمير كل أشكال الحياة على الأرض. ومع ذلك تظل القوات المسلحة ملتزمة باستخدام أكثر أشكال القصف المرعب تدميرا مع ادعاء واحد فقط هو "دقة استهداف" المنشآت المهمة عسكريا. ويمكن أن نجد هذه النزعة فى الفكر العسكري فيما يكتبه هارلان أولمان المستشار السابق رفيع المستوى للبنتاجون الذى يحظى برعاية الجنرال كولن باول، والذى يدعو إلى أن تهاجم الولايات المتحدة أعداءها بنفس الطريقة التى هزمت بها اليابان فى الحرب العالمية الثانية. إذ يقول: يجب اختراع أدوات وأسلحة فائقة وإعلام العصر بحيث تكون مساوية للقنبلة النووية. ومثلما أدت القنبلتان النوويتان اللتان أسقطتا على هيروشيما وناجازاكي إلى إقناع الإمبراطور اليابانى والقيادة العليا اليابانية بأن المقاومة حتى الانتحارية كانت عديمة الجدوى، يجب أن توجه هذه الأدوات فى اتجاه إنجاز نفس النتيجة".

وأولمان هو صاحب الفكرة القائلة بأن على الولايات المتحدة " أن تتروّع وتقهّر الخصم عن طريق إداراكه لضعفه والخوف منه، وقوتنا التى لا تقهر". وهو يسمّى ذلك "الهيمنة السريعة" أو "الصدمة والرعب". وقد اقترح ذات مرة فكرة اعتبرها جيدة ومفادها استخدام الموجات الكهرومغناطيسية لمهاجمة الأجهزة العصبية لدى الناس حتى يموتوا رعباً^(١٥).

ولتفادى جميع الإصابات بين العسكريين، أعلنت حكومتنا أنها يجب أن تستأنف التجارب النووية وتمتلك أسلحة نووية جديدة " ذات تأثير منخفض "، وأن تتعامل مع الانتشار النووى لا بمحاولة حظر انتشار الأسلحة النووية من خلال الاتفاقيات والضغوط الدولية، ولكن من خلال " نشر مضاد للأسلحة أو ما أسماه المعلق جوناثان شل: "حروب نزع الأسلحة". وفى تقرير الإدارة المسمى "نيوكليير بوستشر ريفيو" الصادر فى مارس ٢٠٠٢ عن الحالة النووية، وصفت الحكومة روسيا والصين وكوريا الشمالية والعراق وإيران وسوريا وليبيا بأنها أهداف محتملة للأسلحة النووية. ووضعت خططا

لصناعة "روبوت قادر على اختراق الأرض" فضلا عن بناء مصنع لإنتاج الأسلحة النووية. وصاروخ جديد عابر للقارات. وصاروخ جديد يطلق من الغواصات، وطائرة قاذفة جديدة. وفى وثيقة صادرة فى يناير ٢٠٠٣ أمكن تسريبها، كشفت وزارة الدفاع عن رغبتها فى امتلاك "قنابل نووية صغيرة" تبلغ قوتها التفجيرية أقل من كيلو طن واحد (كانت قوة قنبلة هيروشيما ٢٠ كيلو طن). وقنابل نيوترون. وأرادت أن تقوم "لجنة من خبراء ترسانة الأسلحة المستقبلية" بدراسة "أشكال الاختبارات التى سوف تتطلب هذه الأسلحة الجديدة إجراءها"^(١٦).

ورغم أن حكومتنا كانت مشجعا نشطا لمعاهدة منع انتشار الأسلحة النووية عام ١٩٧٠، فإن اقتراحات إدارة بوش الخاصة بالأسلحة هى انتهاكات صريحة للمادة السادسة من تلك المعاهدة التى "تطالب الدول الخمس النووية الأصلية باتخاذ إجراءات فعالة لنزع الأسلحة النووية". كذلك فإن أى استخدام للأسلحة النووية هو دليل ثابت على انتهاك اتفاقية الأمم المتحدة حول منع وعقاب جريمة الإبادة الجماعية التى انضمت إليها الولايات المتحدة. وفى مذكرة عام ١٩٥٥ المقدمة إلى محكمة العدل الدولية دافعت الولايات المتحدة عن استخدام الأسلحة النووية بحجة أن "القتل المتعمد لأعداد كبيرة من الناس" يعتبر جريمة إبادة جماعية فقط إذا عقد المعتدى النية على تدمير "كل جماعة أو جزء من جماعة وطنية إثنية أو عنصرية أو عقائدية أو ما شابه ذلك"^(١٧).

وتغرى حرب التقنية العالية ذلك النوع من جيل الجودو المبتكرة(*) التى استخدمها إرهابيو القاعدة يوم ١١ سبتمبر، الذين حصدوا أعدادا ضخمة من أرواح الأبرياء بتوظيفهم طائرات الخطوط الدوية كأسلحة تدمير شامل. وتشعر الولايات المتحدة بالقلق من أن يتمكن الإرهابيون من الحصول على مادة انشطارية، أو أن تعطيلهم إياها "دولة مارقة"، ولكن أكثر المصادر المرجحة هى السرقة من المخزون النووى الهائل لدى الولايات المتحدة أو من المخزون الذى يفتقر الى حراسة جيدة الذى ورثته روسيا عن الاتحاد السوفييتى. ومن المؤكد أن مادة الأنثراكس التى ترقى إلى مرتبة السلاح، والتى استخدمت فى هجمات سبتمبر ٢٠٠١ الإرهابية فى الولايات المتحدة، جاءت من مخزون البنتاجون البيولوجى، لا من إحدى دول العالم الثالث التى ينهكها الفقر^(١٨).

(*) الجودو فى معناها الأصلى هو النظام اليابانى فى القتال بدون سلاح المعتمد على ما يسمى جوجيتسو أى الدفاع عن النفس بالمناورة لتحويل قوة الخصم أو وزنه إلى عامل مضاد له. (المترجم).

وتتوفر لدى الحكومة وسائل أخرى لتنفيذ استراتيجيتها العالمية الجديدة دون أن تلوث أيديها، بما فيها ما تسميه "الagتيالات المرصودة" (وهكذا يسميها حلفاؤها الإسرائيليون أيضا). وخلال شهر فبراير ٢٠٠٢ سعت إدارة بوش إلى استشارة الحكومة الإسرائيلية حول كيفية ابتداء مبرر قانونى لعمليات اغتيال للإرهابيين المشتبه فيهم. وفى خطاب حالة الاتحاد لعام ٢٠٠٢ قال الرئيس بوش إن بعض المشتبه فى كونهم إرهابيين الذين لم يعتقلوا ولم يقدموا للمحاكمة " قد لقوا معاملة من نوع آخر". ثم أشار إلى أن "أكثر من ثلاثة آلاف مشتبه فيه قد اعتقلوا فى عدة دول. وأن كثيرين غيرهم لقوا مصيرا مختلفا. ودعونا نوضح المسألة على هذا النحو: إنهم لم يعودوا يمثلون مشكلة للولايات المتحدة ولا لأصدقائنا ولا لحلفائنا"^(١٩).

وإذا كان احتمال الحرب المستمرة يهدد العالم فليس من المرجح أن يكون الموقف فى الولايات المتحدة أفضل فالنزعة العسكرية والإمبراطورية تهدد الحكومة الديمقراطية فى الوطن مثلما تهدد دولا أخرى مستقلة وذات سيادة.

أما ما إذا كان جورج بوش والمتعصبون له يمكن أن يحدثوا "تغييرا فى النظام" فى سلسلة كاملة من الدول الأخرى، فهذه مسألة فيها نظر، ولكن يبدو من المؤكد أنهم فى مرحلة إحداث ذلك داخل الولايات المتحدة. وفى المناظرة الرئاسية الثانية يوم ١١ أكتوبر عام ٢٠٠٠، قال بوش مازحا: " إذا كانت هذه ديكتاتورية لكان ذلك أسهل بكثير على. طالما بقيت أنا الديكتاتور" وبعد أكثر من سنة بقليل. رد على سؤال من بوب وودورد الصحفى الكبير فى صحيفة واشنطن بوست، فقال: " أنا القائد، انظر... أنا لا احتاج إلى أن أشرح شيئا... لست فى حاجة إلى شرح السبب وراء ما أقوله... وهذه هى المتعة فى أن تكون رئيسا. وربما يحتاج شخص ما إلى أن يشرح لى سبب ما يقوله. ولكننى لا أشعر بأننى مدين لأحد بتقديم أى تفسير"^(٢٠).

وقد بذل بوش وإدارته أقصى جهدهم لبسط نفوذ الرئاسة على حساب فروع الحكومة الأخرى والدستور. وتقول المادة الأولى، الباب الثامن من الدستور. بوضوح: "للكونجرس سلطة إعلان الحرب" وهى تمنع الرئيس من اتخاذ هذا القرار. وفى عام ١٩٧٣ كتب جيمس ماديسون مؤلف الدستور الأكثر نفوذا: "لا يوجد أى جزء فى الدستور أكثر حكمة من الفقرة التى تعهد إلى المشرع بمسألة الحرب أو السلام، لا إلى الإدارة التنفيذية.... قد يكون المنصب والإغواء أكبر من قدرة رجل واحد"^(٢١). ومع

ذلك، أعلن الرئيس بوش، من جانب واحد، بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١، أن الأمة فى "حالة حرب" ضد الإرهاب قد تكون إلى الأبد. وفى وقت لاحق ذكر متحدث باسم البيت الأبيض أن الرئيس "يعتبر أن أية معارضة لسياسته لن تكون أقل من عمل من أعمال الخيانة" (٢٢).

وفى الفترة من الثالث إلى العاشر من شهر أكتوبر (التي أطلق عليها وينسلو ويلر محلل الشؤون العسكرية عبارة "أسبوع العار") صوّت المجلسان (النواب والشيوخ) لصالح منح الرئيس سلطة مفتوحة لشن الحرب ضد العراق (بأغلبية ٢٩٦ صوتا مقابل ٢٢ فى مجلس النواب، و ٧٧ مقابل ٢٣ صوتا فى مجلس الشيوخ) كذلك منح الرئيس سلطة بلا أى قيد لاستخدام أية وسائل، بما فى ذلك القوة العسكرية والأسلحة النووية، فى أية ضربة وقائية ضد العراق وفى أى وقت يراه "مناسبا" - يراه هو وحده ولا أحد سواه. ولم تكن هناك أية مناقشة، وكان أعضاء الكونجرس مهددين سياسيا حتى بالنسبة للحديث عن الموضوع. وبدلا من ذلك أخذ السيناتور الجمهورى بيت دومينيتشى (عن نيومكسيكو) يكيل المديح لنادى 4-H وهو نوع من التآخى لرعاية شباب المزارعين، بمناسبة عيده المئوى. وتصدى السيناتور الجمهورى جيم باننج (عن كينتاكى) لمناقشة مستقبل المزارعين الأميركيين فى ولايته. وقدمت السيناتور الديموقراطية باربرة بوكسر (عن كاليفورنيا) لزملائها عرضا تاريخيا مختصرا لمدينة ماونتن فيو فى كاليفورنيا (رغم أنها صوتت ضد القرار). ويخلص ويلر إلى القول إن كل ما أصبح الرأى العام لدينا به لمثليه بعد هذه المناقشة هو " ثمن تذكرة لرحلة إلى مزبلة التاريخ" (٢٣).

وكذلك انتحلت إدارة بوش لنفسها بغير وجه حق سلطة الحكم من جانب واحد على ما إذا كان مواطن أميريكى عضوا فى منظمة إرهابية. ومن ثم تستطيع الإدارة أن تجرده من جميع حقوقه الدستورية بما فيها ضمانات التعديل السادس التى تنص على المحاكمة السريعة للمتهم أمام هيئة محلفين من نظراء له، والحصول على مساعدة محام لتقديم دفاعه. والحق فى مواجهة من يتهمونه، وحمايته من توريط نفسه فى جريمة. والأكثر خطرا هو إلزام الحكومة بإعلان المتهم بالتهمة الموجهة إليه ونشرها علنا، وكانت القضيتان الأساسيتان هنا تخص اثنين من المواطنين الأميركيين، بالمولد وهما ياسر عصام حمدي وخوسيه باديللا.

ويبلغ حمدي العشرين من العمر وقد ولد في باتون روج في لويزيانا، ولكنه ترعرع في السعودية. وفي بداية الأمر زعمت وزارة الدفاع أنه أسير وهو يقاتل مع طالبان في أفغانستان، وفي وقت لاحق أقرت بأنه سلم نفسه لقوات تحالف الشمال أي لأمرأى الحرب الذين يقبضون الأموال للقتال إلى جانبنا. دون أن يشتبكوا في أي شكل من أشكال القتال. وبعد أن جرى تسليم حمدي إلى القوات المسلحة الأميركية، نقل إلى معسكر الاعتقال في جوانتانامو في كوبا حيث كان عدد كبير من المواطنين الأجانب الذين اعتقلوا على أراضٍ أجنبية، قد سجنوا هناك. ولما اكتشف مسؤولو السجن أن حمدي مواطن أميركي وخافوا من تدخل المحاكم. قاموا بنقله جوا إلى سجن السلاح البحري في نورفولك بولاية فيرجينيا حيث وضع في الحبس الانفرادي. وكان المفروض بالنسبة له كمواطن أميركي أن يتمتع بالضمانات الدستورية التي يستحقها غير أن وزارة العدل زعمت أنه مادام الرئيس قد أسماه "بالمقاتل العدو" فسوف يستمر احتجازه إلى أجل غير مسمى ودون الاستعانة بمحامٍ لمجرد أن الرئيس قال ذلك.

وفي يوم ١٩ يونيو ٢٠٠٢ قدم ممثلو إدارة بوش والبنجابون طلبا إلى الدائرة الرابعة لمحكمة الاستئناف رسموا فيه معالم الطلب المعزز بسلطة رئاسية والتي توضح أن " القوات المسلحة " وهي في حالة اجتياح عسكري مثير لا تستند إلى الدستور أو القانون أو السوابق، وأن " القوات المسلحة لها سلطة أسر واعتقال الأفراد الذين تقرر أنهم من الأعداء المقاتلين ... بمن فيهم الأعداء المقاتلون الذين يزعمون أنهم يتمتعون بالمواطنة الأميركية. وإضافة إلى ذلك فإن مثل هؤلاء المقاتلين لا حق لهم في الحصول على استشارة قانونية للاعتراض على اعتقالهم ". ووصل بهم الأمر إلى حد الادعاء أن " المحكمة لا يجب أن تعيد النظر في قرار القوات المسلحة بالنسبة للعدو المقاتل " لأنها إذا فعلت ذلك فهي قد تتدخل في " سلطة الرئيس المطلقة باعتباره القائد العام " والتي من المفترض أن تشمل سلطته في الأمر " بأسر واعتقال ومعاملة العدو. وجمع وتقويم المعلومات الحيوية بالنسبة للأمن القومي " وعلى المحكمة أن تدعن للقوات المسلحة "إذا طلب منها مراجعة القرارات العسكرية في زمن الحرب".

ولما كان الكونجرس وحده هو الذي يستطيع إعلان الحرب، أعلن الرئيس شخصيا " الحرب على الإرهاب " وهي مجرد حيلة بلاغية فليس هناك حرب على الإرهاب مقبولة قانونيا. ويزيد على ذلك أن الرئيس لا يتمتع بسلطة " مطلقة " (لا قاطعة ولا مشروطة)

فى أداء دوره كقائد عام حيث إنه والقوات المسلحة كليهما يمارسون سلطاتهم نظريا بالخضوع لسلطة الكونجرس فى إقرار الميزانيات، أما الادعاء بأن القائد العسكرى، وهو يتصرف بناء على أوامر رئاسية، يستطيع أن يكون: "المشرع الأعلى، والقاضى الأعلى، والمدير التنفيذى الأعلى" فى نطاق مسؤولياته، هذا الادعاء أسقطته المحكمة العليا فى أعقاب الحرب الأهلية. وفى قضية ميليجان عام ١٨٦٦(*) قررت المحكمة أن "الأحكام العرفية لا يمكن أن توجد إطلاقا حيث تفتح المحاكم أبوابها وحيث تمارس سلطاتها القانونية بشكل صحيح ودون معوقات"^(٢٤). وقد اعترض القاضى الفيدرالى الذى كان يتولى قضية حمدي على كل شئ طلبته الحكومة، ولكن ممثل المدعى العام أجاب باقتضاب: "الاحتجاز فى الوقت الحاضر قانونى". وعندئذ سأله القاضى: "إذن فالدستور لا ينطبق على السيد حمدي؟" ولم يتلق إجابة. وبقي حمدي فى السجن الحربى فى انتظار أن تنظر المحكمة العليا فى الاستئناف المقدم منه. هذا إذا نظرته أصلا. وهذه المحكمة هى نفسها التى تدخلت فى انتخابات عام ٢٠٠٠ لتعيين بوش رئيسا.

وقضية باديللا مشابهة للقضية السابقة، وهو أميريكى ولد فى بروكلين من أصل يعود إلى بورتوريكو (وقد عرف باسم عبد الله المهاجر بعد اعتناقه الدين الإسلامى فى منتصف تسعينيات القرن الماضى) وقد اعتقله عملاء فيدراليون يوم ٨ مايو ٢٠٠٢ فى مطار أوهير بولاية شيكاغو عند نزوله من طائرة قادمة من باكستان. وقد احتجز لمدة شهر دون توجيه أى اتهام له، ودون أى اتصال بأحد المحامين أو بالعالم الخارجى. وأخيرا فى يوم ١٠ يونيو أدلى جون أشكروفت المدعى العام، أثناء زيارته لروسيا، بتصريحه المثير الذى قال فيه إن باديللا كان يتآمر مع القاعدة لتفجير "قنبلة قذرة" فى مكان ما فى الولايات المتحدة. وفى اليوم السابق لظهور باديللا فى المحكمة الفيدرالية فى نيويورك، نقل بسرعة إلى سجن حربى فى تشارلستون فى كارولينا الجنوبية بينما أسماه بوش علنا "بالولد السيئ" و "العدو المقاتل". ولم توجه إليه أية

(*) هى قضية مواطن أميريكى يدعى لاندن ميليجان اعتقله مسؤولون فى الجيش الأميركي من منزله واتهموه بمساعدة المتمردين وتحريض الجماهير على العصيان المسلح. وأدانته لجنة عسكرية وحكمت عليه بالإعدام شنقا، وسعى ميليجان الى الحصول على أمر قضائى بالإفراج عنه استنادا إلى حقه الدستورى فى المحاكمة أمام هيئة محلفين. ولم يتمكن قاضيا المحكمة من إصدار قرار بشأنه ورفعوا القضية إلى المحكمة العليا التى أصدرت حكمها عام ١٨٦٦ الذى يشير إليه المؤلف، (الترجم).

اتهامات. وقد رفضت محاولات إجبار الحكومة على عرض قضيته بناء على أمر قضائي بإحضاره إلى المحكمة للنظر فى شرعية حبسه. وكان الرفض بحجة أن المحاكم ليس لها سلطة قانونية على سجين عسكرى^(٢٥).

ولعل الحكومة قد لجأت إلى هذه الإجراءات لأن الدليل الوحيد لديها ضد باديللا يتكون من أقوال أدلى بها سجناء فى جواتيمالا. وتعلم الحكومة أنها غير جديرة بالثقة. وربما يكون أشكروفت المدعى العام الشهير فى واشنطن بحبه للظهور أمام الكاميرا قد استغل تصريحاته لكسب بعض الشهرة الشخصية كما فعل فى الماضى. وحتى بول وولفوويتز نائب وزير الدفاع وأشد المتشددى فى الإدارة قال لشبكة إن بى سى الإخبارية: " لا أعتقد أنه كانت هناك بالفعل مؤامرة تتعدى مجرد الأحاديث المرسلة ومجىء باديللا هنا للتخطيط لأفعال أبعد من ذلك"^(٢٦) وفى نفس الوقت ظل باديللا رهين السجن الحربى دون تهمة، ودون محام يمثله، ودون استعادة حريته.

وقد مددت إدارة بوش السلطة الرئاسية فى منطقة أخرى على حساب الدستور. وذلك بفضل محكمة مراقبة المعلومات الخارجية غير المعروفة والمتمعة بالسرية والتي تنذر بالتحول بحيث تصبح النسخة الأميريكية من محكمة قاعة النجوم(*) التى اعتبرها الملك هنرى الثامن محكمته للخلاص من خصومه وتعذيبهم بالجلد أو القبض على أعناقهم وأيديهم بالألواح الخشبية وتجريسهم فى الأماكن العامة، أو كيههم بما يسمى سمة العار التى كان المجرمون يوسمون بها. وقد ظهرت المحكمة إلى حيز الوجود بعد فضيحة ووترجيت. وكان مكتب التحقيقات الفيدرالى ووكالة الاستخبارات المركزية الأميريكية يقومان. طوال عدة عقود وحتى الآن، بالتجسس غير القانونى على مكالمات المواطنين الهاتفية، وفتح رسائلهم البريدية، وبالدخول خفية إلى منازلهم للبحث عن معلومات يمكن استغلالها فى ابتزازهم أو الإساءة إلى سمعتهم. وقد كشفت لجنة من مجلس الشيوخ شكلت للتحقيق فى هذه الأمور، بعد استقالة ريتشارد نيكسون من الرئاسة، عن أن إدارة البريد فى مدينة نيويورك قامت بين ١٩٥٣ و ١٩٧٣ بشكل غير قانونى بتوفير أكثر من ٢٨ مليون رسالة لوكالة الاستخبارات المركزية الأميريكية.

وفى إحدى القضايا القليلة الملموسة التى ظهرت بوضوح اعترف مكتب التحقيقات الفيدرالى باستخدام مثل هذه المعلومات التى حصل عليها بطريقة غير مشروعة فى

(*) قاعة النجوم هى محكمة إنجليزية قديمة كانت محاكماتها سرية وظالمة. وقد استغلها بعض الملوك فى التخلص من خصومهم. (المترجم).

تلفيق جزء منها زرعه فى مجلة نيوزويك لتشويه سمعة الممثلة جين سبيرج التى كانت حاملا آنذاك، والتى انتحرت نتيجة لذلك، وأدى موتها إلى انتحار زوجها بعد خمسة عشر شهرا وهو رومين جارى الروائى والدبلوماسى الفرنسى. وكانت النية المبينة من وراء هذه القصة التى تستند جزئيا على معلومات تم الحصول عليها بطريقة غير قانونية. وضعها فى مأزق وتحقير صورتها لدى الرأى العام^(٢٧). وفى عام ١٩٧٤ علم الرأى العام لأول مرة أن مكتب التحقيقات الفيدرالى تجسس بشكل غير قانونى على أكثر من ١٠ آلاف مواطن أميريكى بمن فيهم بالفعل جميع السياسيين الوطنيين والشخصيات العامة مثل مارتن لوثر كينج.

وقد وافق الكونجرس على مشروع قانون الرقابة على المعلومات الخارجية وذلك لى يخضع مكتب التحقيقات الفيدرالى والسى آى إيه لنفس الرقابة. وقد أصدر الرئيس جيمى كارتر قانونا بذلك يوم ٢٥ أكتوبر ١٩٧٨. وسمح هذا القانون لمكتب التحقيقات الفيدرالى ووكالة الاستخبارات المركزية بالاستمرار فى ممارسة عمليات الاستخبار ضد مواطنين أميريكين داخل الولايات المتحدة، ولكن تحت إشراف محكمة فيدرالية سرية عرفت باسم محكمة مراقبة المعلومات الخارجية. وعند التجسس على مجرمين مشتبه فيهم فى حالات لا تقتضى جمع معلومات، يجب على مكتب التحقيقات الفيدرالى أن يتوجه إلى قاض فيدرالى عادى للحصول على إذن قبل ذلك. كذلك عليه أن يراعى معايير "السبب المرجح" وذلك بتزويد القاضى بالبراهين الدالة على أن شخصا ما يقوم بارتكاب جريمة، أو ارتكبها فعلا، أو أنه على وشك ارتكابها. وينص التعديل السادس بوضوح على "حق الناس فى أن يأمنوا على أشخاصهم وبيوتهم وأوراقهم وممتلكاتهم المنقولة. ضد أى عمليات تفتيش أو اعتقال غير معقولة، وهذا الحق لا يجب انتهاكه ولن يصدر أى إذن بذلك إلا بناء على وجود سبب مرجح ومؤيد بحلف اليمين أو بإقرار، وأن يتوفر بشكل خاص وصف للمكان المراد تفتيشه، والأشخاص أو الأشياء المراد احتجازها". وعند إقامة محكمة مراقبة المعلومات الأجنبية برر الكونجرس دواعى إنشائها بأن مراقبة الجواسيس يجب ألا تكون مماثلة للقبض على اللصوص، ولكن يجب وجود نوع من الإشراف القضائى لإجبار المحققين ومختلسى النظر على الانضباط. ولم تسر الأمور على هذا النحو.

كانت المحكمة تتشكل فى الأصل من سبعة قضاة فيدراليين يعينهم رئيس المحكمة العليا، ولكن قانون المواطنة الأميركية لعام ٢٠٠١ زاد العدد إلى أحد عشر قاضيا.

وكانت هويات القضاة محاطة بالسرية. ويجتمعون فى عزلة تامة خلف باب مغلق بشيفرة معينة. وفى غرفة ليس فيها نوافذ، ومحصنة ضد التنصت، وتبدو وكأنها سرداب، وتخضع للحراسة على مدى أربع وعشرين ساعة يوميا. وتقع فى الدور الأعلى بمبنى وزارة العدل فى واشنطن دى. سى^(٢٨). وكل ما يفعلونه محاط " بالسرية التامة ". ومنذ أن أنشئت المحكمة فى عام ١٩٧٨ طلب مكتب التحقيقات الفيدرالى ووكالة الأمن القومى نحو ١٢ ألف إذن للتجسس الإلكتروني أو المادى على المواطنين ووافقت المحكمة على جميع هذه الطلبات ما عدا واحدا. ويستمع القضاة إلى الجانب الحكومى وحده. وتقدم المحكمة تقارير سنوية إلى الكونجرس تحتوى فى العادة على مجرد فقرتين فحسب توضحان فقط مجمل عدد الأذون التى وافقت عليها المحكمة. وما عدا ذلك لا توجد أية مراقبة للكونجرس على أنشطة المحكمة مهما كان نوعها. ويقول باتريك بوول الخبير الثقة فى شؤون المحكمة إنها " ليست إلا محكمة لبصم الأختام"^(٢٩).

ومنذ ١١ سبتمبر ٢٠٠١ أصبح الموقف فى الحقيقة أسوأ حالا. فبناء على قانون مراقبة المعلومات الأجنبية الأصلى يستطيع المسؤولون عن تطبيق القانون الحصول على الإذن فقط إذا كان جمع المعلومات هو الهدف الأساسى للتحقيق. ولكن مشروع قانون المواطنة الأميركية الذى حصل بشكل متسرع على ٩٨ صوتا مقابل صوت واحد فى مجلس الشيوخ، وعلى ٣٥٧ صوتا مقابل ٦٦ فى مجلس النواب، وأصدر الرئيس بوش قانونا به فى ٢٦ أكتوبر ٢٠٠١. يسمح بإصدار الأذون إذا كان جمع المعلومات وحده هو الهدف البالغ الأهمية للتحقيق^(٣٠). كذلك يسمح قانون المواطنة للحكومة بالتجسس على الأميركيين الذين يتجولون عبر الإنترنت. كما يسمح بجمع المصطلحات التى يدخلونها فى آليات البحث مثل جوجل. وليس من الضرورى أن يكون الشخص الذى تتجسس الحكومة عليه هو هدف التحقيق، وليست الحكومة ملزمة بإخطار المحكمة أو الشخص نفسه بما كانت تفعله.

وفى الماضى كانت تصاريح قانون مراقبة المعلومات تصدر فقط من أجل جمع معلومات خام. وكان محرما البوح بهذه المعلومات تحت أى ظرف للمدعين الفيدراليين الذين قد يستخدمونها فى تعريض شخص ما للاتهام الجنائى وهو الأمر الذى يمنعه التعديل السادس على وجه التحديد. ورغم ذلك يسمح قانون المواطنة بتمرير المعلومات

المجموعة بناء على قانون المراقبة إلى المدعين روتينيا . ويعتقد كثير من المراقبين أن المدعين الأميركيين يستخدمون طوال سنوات تصاريح قانون مراقبة المعلومات بشكل روتيني لتفويض أنواع الحماية الدستورية. كذلك يسمح قانون المراقبة بإجراء "عمليات تفتيش طارئة" يوقع المدعى العام عليها بحكم السلطات الممنوحة له دون الحصول على موافقة المحكمة، مادام يقدم مبررات التفتيش إلى المحكمة فى غضون اثنتين وسبعين ساعة. وفى الفترة بين ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وبدايات عام ٢٠٠٣ أصدر جون أشكروفت المدعى العام ما يزيد على ١٧٠ تصريحاً بإجراء عمليات تفتيش طارئة. وهو رقم يزيد على ثلاثة أمثال السبعة والأربعين تصريحاً التى أصدرها جميع المدعين العامين على مدى السنوات العشرين السابقة^(٣١) .

وفى يوم ١٧ مايو ٢٠٠٢ حدثت واقعة لأول مرة تعطى لمحة لهذا العالم السرى لمن هم خارجه. فقد طلب أشكروفت من محكمة مراقبة العمليات الخارجية أن تسمح له بطمس التفرقة بين مراقبة الجواسيس والقبض على المجرمين، حتى إلى حدود تزيد على ما يسمح به قانون المواطن، ولكن المحكمة رفضت طلبه، بل وأرسلت أيضا نسخة تحمل رأبها إلى اللجنة القضائية بمجلس الشيوخ التى سمحت بنشرها فى يوم ٢٢ أغسطس ٢٠٠٢ . وفى هذه النسخة أجمع قضاة المحكمة على انتقاد عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالى بسبب تضليلهم للقضاة فى نحو خمس وسبعين قضية تنضت مختلفة، ومنع واحد من عملاء الإ.بى.آى من الظهور مطلقاً أمام المحكمة، وهو المشرف المسؤول عن الاستطلاع الخاص بمنظمة حماس الفلسطينية فى هذا البلد. وكان توبيخ القضاة أعنف مما أرسلته أية محكمة إلى مكتب التحقيقات الفيدرالى.

وتقدم المدعى العام بطلب استئناف للقرار إلى محكمة أكثر غموضاً اسمها محكمة إعادة النظر الخاصة بقانون مراقبة المعلومات الخارجية. وهى محكمة خاصة يجلس على منصتها ثلاثة قضاة، وأنشئت بذلك القانون للإشراف على محكمة المراقبة. ولم يحدث أن عقدت هذه المحكمة أى جلسة على الإطلاق. وكان استئناف أشكروفت أول قضية قدمت إليها فى تاريخها البالغ ثلاثة وعشرين عاماً. وهى تتشكل من ثلاثة قضاة شبه متقاعدين وتعلن أسماؤهم على عكس قضاة محكمة مراقبة المعلومات الخارجية. وجميع القضاة الثلاثة ينتمون إلى الحزب الجمهورى وقد عينهم للمحكمة الفيدرالية الرئيس رونالد ريجان. ثم عينهم ويليام رينكويست رئيس المحكمة العليا لفترة سبع

سنوات فى محكمة إعادة النظر. ولم يكن مدهشا أن تبطل هذه المحكمة قرار محكمة قانون مراقبة المعلومات الخارجية، وأن تخول أشكروفت المدعى العام السلطات الإضافية التى أرادها. (٢٢) ولا مفر من أن نستنتج، بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ بسنة ونصف، أن مادتين على الأقل فى ميثاق الحقوق (*): الرابعة والسادسة أصبحتا حبرا على ورق. ويبقى النصف الثانى من التحذير الذى وجهه توماس جيفرسون الذى ينطبق على ما نحن فيه والذى يقول: "عندما تخاف الحكومة من الشعب تتوفر الحرية، وعندما يخشى الشعب الحكومة يوجد النظام المستبد".

وفى يوم ٧ فبراير ٢٠٠٣ قالت باربرة كومستوك المتحدثة باسم وزارة العدل للصحفيين: "إن مداولات الوزارة تتم دائما بأقوى التزام بدستورنا وبالحرية المدنية" (٢٣). ويصل بنا هذا التصريح إلى النوع الثالث من الأحزان التى ترافق النزعتين الإمبراطورية والعسكرية، ألا وهو إحلال البروباجندا والمعلومات المضللة والرضا بالنفاق محل الحقيقة، باعتبار كل ذلك ناموس البيانات الصادرة عن حكومتنا.

ويتضاعف الكذب الرسمى بسرعة عندما تسود النزعتان الإمبراطورية والعسكرية. وتعتبر قواتنا المسلحة أن البروباجندا هى إحدى وظائفها الجديدة الكبرى. وفى خريف عام ٢٠٠١ أنشأ دونالد رامسفيلد وزير الدفاع داخل البنتاجون "مكتب التأثيرالاستراتيجى" ومهمته تنفيذ ما يسميه مخططو الدفاع "حرب المعلومات" أى حملات التضليل والبروباجندا المضادة للأعداء الخارجيين بالإضافة إلى النقاد المحليين الذين لا يؤيدون السياسات الرئاسية. وعندما أصبح واضحا أن عمليات المكتب الجديد تتضمن صب قصص مزيفة إلى وسائل الإعلام الإخبارية الأميركية، عندئذ فقط، قال رامسفيلد إن كل ذلك كان خطأ وأمر بإنهاء العمليات رسميا.

ورغم ذلك لم تختف الفكرة، وفى خريف عام ٢٠٠٢ أنشأ رامسفيلد منصبا جديدا هو نائب وكيل وزارة الدفاع. "للمخطط الخاصة" (عبارة ملطفة لعبارة "عمليات الخداع")، وهذه المهمات أبعد من الأنشطة العسكرية التقليدية مثل التشويش على رادارات العدو أو تعطيل شبكات القيادة والمراقبة. وتشتمل عمليات الخداع على إدارة (وتقييد) المعلومات العامة، والسيطرة على مصادر الأخبار، والتلاعب بالرأى العام.

(*) ميثاق الحقوق هو الذى يحتوى على أول عشرة تعديلات على الدستور الأمريكى. (المترجم).

وأوضح سلاح الجو أن القوات المسلحة يجب أن تمنع " توجه وسائل الإعلام الإخبارية إلى مصادر أخرى (مثل الخصوم أو المعارضين) للحصول على المعلومات وعلى القوات الأميركية والصديقة أن تكافح لتصبح هي مصادر المعلومات المفضلة ". ويقول المحلل العسكري ويليام آر كين إن " حرب المعلومات " تتضمن السيطرة على أكثر ما يمكن مما يراه أو يقرؤه الجمهور الأميركي "(٢٤). وفى يناير ٢٠٠٢ أعقب البيت الأبيض ذلك بتشكيل نسخته الخاصة من وكالة بروباغندا البنتاجون التابعة لرامسفيلد. وحملت النسخة اسم : " مكتب الاتصالات الكونية ". وأخذ مسؤولوه ينفقون وقتهم فى اختبار الجنرالات فى تقديم المعلومات للميديا، وفى حجز أوقات فى العروض الإخبارية الأجنبية والمحلية لنجوم الإدارة. والهدف المقرر لهذا المكتب هو العمل على " حصول " أى تعليق يتعلق بالحرب من أى مسؤول أميركى على موافقة مسبقة من البيت الأبيض"(٢٥).

وتتراوح عمليات حرب المعلومات النمطية بين المشروعات التافهة والمشروعات الكبرى مثل اختراع الذرائع نشن الحرب. وهناك مثال على المشروعات الأولى حدث فى يوم ٢٧ يناير ٢٠٠٢ عندما رتبت الحكومة لتركيب ستارة زرقاء ضخمة فوق نسخة منسوجة للوحة جويرنيكا التى رسمها الفنان بابلو بيكاسو والمعلقة بالقرب من مجلس الأمن الدولى وجويرنيكا قرية صغيرة من قرى إقليم الباسك فى شمال إسبانيا. وكانت الموقع الذى اختاره أدولف هتلر يوم ٢٧ أبريل ١٩٣٧ لى يستعرض قدرة سلاح طيرانه التدميرية الفاتكة وقنابله المحرقة. وكان آنذاك متحالفا مع الديكتاتور الإسبانى الفاشستى فرانثيسكو فرانكو. وظلت القرية الصغيرة تحترق لمدة ثلاثة أيام، وقتل أو جرح ألف وستمائة مدنى. وكان تصوير بيكاسو الشهير لهذه الجريمة البشعة أقوى تعبير مناهض للحرب يقدمه للفن الحديث. وقررت الحكومة أن اللوحة التى تصور المذبحة التى سببها القصف الجوى على القرية الصغيرة، تمثل خلفية غير مناسبة لوزير دفاعها ولسفيرها لدى الأمم المتحدة عندما يقفان أمام كاميرات التلفزيون للإدلاء بأية تصريحات قد تتعرض لقصف المدن العراقية.

ومن عمليات حرب المعلومات النمطية الأخرى تلك التى تضمنت فى فبراير ٢٠٠٢ جهود بروس جاكسون المسؤول السابق فى وزارة الدفاع وبالتالي رئيس "لجنة تحرير العراق". وقد لعب "دورا بارزا" فى كتابة مسودة بيان " يؤيد " خطط الولايات المتحدة

لغزو العراق، وفي جمع عشرة توقعات على البيان من دول أوروبية صغيرة تسمى دول فيلينيوس العشرة (نسبة إلى مدينة فيلينيوس عاصمة ليتوانيا - المترجم). وهي إسبانيا وبلغاريا وكرواتيا وإستونيا ولاتفيا وليتوانيا ومقدونيا ورومانيا وسلوفاكيا وسلوفينيا. وكان الرئيس الفرنسي جاك شيراك حانقا بشدة بسبب هذا التدخل في الشؤون الأوروبية حتى أنه هدد بإلغاء عضوية هذه الدول في الاتحاد الأوروبي أثناء اجتماع القمة الأوروبية في بروكسل يوم ١٧ فبراير ٢٠٠٣ (٣٦).

وهناك وظيفة أخرى لحرب المعلومات وهي العمل بقدر المستطاع على إزالة التلوث عن وقائع تكون لها آثار مرتدة أو قد تؤدي إلى هذه الآثار ولا يمكن إنكارها، ولكنها محرجة. وتشمل تقنيات إزالة التلوث الكذب المفضوح، وفرض السرية على الوثائق التي لها علاقة بالواقعة، ورفض أية طلبات تستند إلى قانون حرية المعلومات، وتعطيل بحث أى حدث وإفساد مناقشته، وبلبلة الأفكار وإشاعة الالتباس (كما حدث في حالات مثل حالة المبيد المسمى بالعامل البرتقالي والأعراض الملازمة لأمراض الخليج) وهناك استراتيجية معينة وهي صك عبارات جديدة تعطى انطبعا بأن وزارة الدفاع تسيطر على موقف ما، أو عبارات تلف حدثا أو ظاهرة ما بهالة علمية مزيفة أو تهون من شأنهما. والمثال التقليدي هو إطلاق مصطلح "الدمار الجانبي" أو "الدمار الملازم" على قتل أبرياء يشاهدون من بعيد هجوما عسكريا. وكان أحدث مصطلح لأحداث مثل قيام إدارة ريجان ببيع أسلحة الدمار الشامل لصدام حسين هو "قصر النظر في أداء المهمة" ومعناه أن الضباط الذين يمارسون عملهم بهمة كانوا يركزون بقوة على المهمة الموكلة إليهم لدرجة أنهم فات عليهم أن يحاولوا تصور صدى ما يفعلون لدى الناس (٣٧). ويعتبر دونالد رامسفيلد وزير الدفاع بوجه خاص من المولعين بنحت عبارات جديدة مثل "الردع إلى الأمام" أو "الهجمات بدون نذير"، وهي عبارات يبدو أنه يعتبرها مبتكرات استراتيجية، وربما كان يحاول فقط تمويه المسميات المألوفة مثل "العدوان"، وهذا ما فعلته ألمانيا النازية بالنسبة لروسيا يوم ٢٢ يونيو ١٩٤١، ومثل "الهجوم المفاجئ" وهو ما فعله اليابانيون فينا في بيرل هاربور يوم ٧ ديسمبر ١٩٤١ .

ولعل أكثر وظائف حرب المعلومات فسادا هي تلفيق المعلومات لتبرير سياسات الرئيس وموظفيه. وهي جريمة جنائية حتى وإن ندر تقديمها للمحاكمة. وهذه الوظيفة تنطوي على مؤامرة بين خبراء التقنيات، والعملاء الميدانيين، والمشرفين، والقادة لتزوير الأدلة ودسها على الضحايا بدون علمهم مثل السياسيين والصحفيين الخائضين أو الذين

هم موضع الاتهام، وكذلك على الرأى العام الواثق - وعندما تُكتشف الجريمة تقوض حتماً صدقية مسؤولى الحكومة والوكالات التى ارتكبت جريمة الاحتيال، ومن المحتم بالتالى أن تؤدى إلى احتمال عدم تصديق الجماهير للرئيس عندما يحذرهم من توفر معلومات تنبئ عن وجود خطر وشيك يتهدد الأمة.

وقد لجأت حكومات كثيرة عبر السنين إلى تلفيق الحجج لشن الحرب. والمثال التقليدى لذلك هو الغزو الألمانى لبولندا فى الأول من سبتمبر ١٩٣٩، إذ ادعت ألمانيا أنها كانت تنتقم من هجمات قام بها جنود بولنديون. وقالت إن هؤلاء الجنود استولوا على محطة إرسال لاسلكى وأخذوا يبثون بيانات معادية. وبعد الحرب تبين أن "المغيرين" كانوا فى الحقيقة جنوداً من قوة الشرطة الألمانية الخاصة. وقد ارتدوا الزى العسكرى البولندى. كذلك لدى الحكومة الأمريكية سجل طويل ومحزن فى اختراع الذرائع للعمليات العسكرية والتى تراوحت بين إشاعة الهستيريا المصطنعة بسبب إغراق البارجة مين عام ١٨٩٨ فى ميناء هافانا، وبين استخدام الرئيس ليندون جونسون لحادثة هجوم لم تحدث على مدمرة أمريكية فى خليج تونكين عام ١٩٦٥ لإقناع الكونجرس بالموافقة على شن حملة هائلة لقصف فيتنام الشمالية.

وخلال ستينيات القرن الماضى قدم رئيس هيئة الأركان المشتركة إلى روبرت ماكنمارا وزير الدفاع اقتراحاً يحمل اسم: عملية نورثوودز، ويقضى بأن تقوم القوات المسلحة سرا بإطلاق النار على الأمريكيين الأبرياء فى الشوارع الأمريكية، وإغراق بعض القوارب التى تحمل لاجئين من كوبا. والقيام بهجمات إرهابية فى واشنطن وميامى وغيرهما، ثم بعد ذلك إلصاق التهمة على عملاء كوبيين.

وكانت هناك نية، بعد فشل عملية خليج الخنازير، على تدبير مبرر للقيام بغزوة ثانية لكوبا. وقد وقع كل عضو فى هيئة الأركان المشتركة بالموافقة على المشروع. ولكن ماكنمارا رفض فى صمت أن يعمل به وبعد بضعة شهور أجبر الجنرال ليتمان ليمنتزر رئيس هيئة الأركان على التقاعد^(٣٨).

وفى ٥ فبراير ٢٠٠٣ وقف كولين باول وزير الخارجية أمام مجلس الأمن الدولى لتهينة المكان للحرب بالعرض الذى أسماه المعلومات السرية الأمريكية "القاطعة" الدالة على وجود أسلحة كيميائية وبيولوجية ونووية لدى العراق. وخرج وزير الخارجية عن الموضوع ليحاول مقارنة ذلك بما كان أدلاى ستيفنسون سفير الولايات المتحدة لدى

الأمم المتحدة قد قدمه من صور فوتوغرافية التقطت بواسطة طائرة التجسس بي - ٢ التي كانت تطير على ارتفاع منخفض، وكشفت تلك الصور وجود منصات صواريخ نووية روسية في كوبا. وقد جاء باول إلى مجلس الأمن محملاً بصور فوتوغرافية مكبرة من أقمار التجسس. وكان واضحاً أنه يحاول إضفاء الصداقة على العرض الذي يقدمه فجاء بمدير الاستخبارات المركزية جورج تينت ليجلس على مقعد خلفه مباشرة. وظهر تينت طول الوقت في جميع اللقطات التلفزيونية التي كان باول يتحدث خلالها. ولم ينبس مدير الاستخبارات بكلمة. ولكن بدا أن القصد من حضوره هو التلميح إلى أن كل ما كان باول يقوله يلقي تأييداً مطلقاً من وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية.

وفي حديثه إلى مجلس الأمن أشار باول إلى صورة بالأقمار الصناعية مؤرخة في ١٠ نوفمبر ٢٠٠٢ وقال: "انظروا إلى الصورة التي على اليسار... على اليسار لقطة مكبرة لواحد من الخزانات الكيميائية الأربعة. كذلك فإن الشاشة التي ترونها علامة مميزة فهي مركبة لإزالة التلوث في حالة ما إذا حدث أى خلل. وهذه خاصية مميزة للخزانات الأربعة" وعرض باول صورة أخرى لمركبة تابعة للأمم المتحدة كانت قد وصلت في نفس الوقت إلى الموقع يوم ٢٢ ديسمبر ٢٠٠٢. وقال: "الشاحنات الأربع اختفت... لقد تم إنذار العراق بقرب مجيء المفتشين". وفي ١٤ فبراير ٢٠٠٣ عارض هانز بليكس رئيس مفتشي الأمم المتحدة هذه الشهادة. وقال إن مفتشيه قاموا بعدة زيارات للموقع الذي عرض في صورة باول. وأن الشاشة كانت مجرد شاشة. وقال أيضاً: "منذ وصولنا إلى العراق قمنا بأكثر من ٤٠٠ عملية تفتيش غطت أكثر من ٣٠٠ موقع. وقد قمنا بجميع عمليات التفتيش دون إشعار مسبق، وكان يسمح لنا بدخول هذه المواقع دائماً وعلى الفور، ولم نر أى دليل مقنع في أية حالة على أن الجانب العراقي علم مسبقاً أن المفتشين سيجيئون"^(٣٩).

وفي الأمم المتحدة زعم باول أن سنوات كثيرة مضت حتى يعترف العراق أخيراً بأنه أنتج أربعة أطنان من غاز الأعصاب المميت في إكس. وتكفي نقطة واحدة منه على البشرة لكي تقتل صاحبها.... أربعة أطنان. وجاء الإقرار بعد أن جمع المفتشون مستندات نتيجة لهروب حسين كامل صهر صدام حسين" وكانت قد صدرت تصريحات مماثلة في خطبة للرئيس بوش يوم ٧ أكتوبر ٢٠٠٢. وفي خطبة لديك تشيني نائب الرئيس في ٢٧ أغسطس ٢٠٠٢. وكان كل ما علمه الثلاثة هو أن الفريق حسين كامل

قال أيضا: "بعد حرب الخليج دمر العراق جميع أسلحته الكيميائية والبيولوجية والصواريخ القادرة على حملها إلى أهدافها". وأيد مساعد عسكري فر معه هذه الأقوال. وكانت السى آى إيه، والاستخبارات البريطانية (إم آى - ٦) ورولف إيكويس رئيس فريق مفتشى الأمم المتحدة آنذاك، قد استجوبوا كامل فى الأردن، واتفق ثلاثتهم على إبقاء تصريحاته فى سرية تامة بزعم حرمان صدام حسين من معرفة ما وصل إلى علمهم. وفى يوم ٢٦ فبراير ٢٠٠٣ حصل جلين رانجوالا الخبير فى شؤون الشرق الأوسط بجامعة كيمبريدج على صورة من نصوص تصريحات كامل. من مصادر فى الأمم المتحدة. وفى تلك النصوص قال كامل بصراحة مطلقة إن "جميع الأسلحة - البيولوجية والكيميائية والصاروخية والنووية - قد دمرت" (٤٠) وهذا ما كان يقوله طول الوقت سكوت ريتز كبير الأعضاء الأميركيين فى فريق مفتشى الأمم المتحدة على الأسلحة فى العراق خلال تسعينيات القرن الماضى (٤١).

وكان حسين كامل، الذى فر من العراق فى أغسطس ١٩٩٥، هو المصدر المهم الوحيد للمعلومات عن العراق منذ حرب الخليج الأولى. وفى خطاب بتاريخ ٢٥ يناير ١٩٩٩ إلى مجلس الأمن الدولى، قال رولف إيكويس إن السنوات الثمانى بأكملها الخاصة بمهمة نزع السلاح منذ نهاية تلك الحرب: يجب أن تنقسم إلى قسمين تفصل بينهما الأحداث التى تلت خروج الفريق حسين كامل" وكان كامل، باعتباره صهر صدام حسين، الرجل المسؤول عن برامج أسلحة العراق النووية والكيميائية والبيولوجية والصاروخية. وعندما هرب إلى الأردن أخذ معه عدة صناديق تحتوى على وثائق، معتقدا بأن كشفه عنها سيؤدى إلى الإطاحة بصدام حسين وعندئذ سوف يحل محله. وبعد مضى ستة أشهر أدرك أن خطته فشلت فعاد إلى بغداد ليحاول مصالحة حميه، وبدلا من ذلك أمر صدام بإعدامه. ومنذ عام ١٩٩٥ أخذ كل فريق من المسؤولين الأميركيين يردد المعلومات التى قدمها كامل للاستخبارات الغربية دون أن يذكروا الحقيقة التى تضمنتها والتى قدم بها الدليل القاطع على أن أسلحة صدام لم يعد لها وجود.

ومن بين تصريحات كولين باول وزير الخارجية الوفيرة، هناك تصريح أدلى به فى يوم ٥ فبراير ٢٠٠٣ جانبه فيه الحذر إذ أخذ يكيل المديح للاستخبارات البريطانية لأنها فأجاته بملف يتحدث عن كيفية كشف صدام حسين عن أسلحته. وقال: "أريد أن ألفت انتباه زملائي إلى الورقة الجيدة التى وزعتها المملكة المتحدة.... والتى توضح بالتفصيل

الرائع أعمال الخداع العراقية". وبعد يومين من حديث باول ذكرت الصحف البريطانية - استنادا إلى لمحة مما ذكره رانجوالا بجامعة كيمبريدج - أن نص المستند الذى مدحه باول مسروق من مقالات نشرت فى "الدورية الشهرية للمعلومات العسكرية جينز (Jane's) يو". وتعود إحداها إلى ست سنوات مضت، وكذلك من ورقة كتبها إبراهيم المرعشلى وهو طالب أميريكى من أصل عراقى شيعى يدرس فى معهد مونتيرى للشؤون الدولية وهو مدرسة صغيرة فى كاليفورنيا. وقد نشر المرعشلى مقالته فى عدد سبتمبر ٢٠٠٢ من الدورية الشهرية الخاصة بالشؤون الدولية وهى نشرة علمية إسرائيلية. ولم تقدم الاستخبارات البريطانية على النقل حرفيا من هذه المصادر التى سبق نشرها ودون أن تنسب إليها ما اقتبسته منها، بل كررت نفس الأخطاء المطبعية التيبوجرافية وأخطاء علامات الترقيم الموجودة فى المقالات الأصلية^(٤٢).

وبعد أداء الوزير كولين باول المتدنى أمام مجلس الأمن الدولى، أصر فى حديث له مع بيتر جيننجز مذيع شبكة إيه بى سى الإخبارية على القول: " أعتقد أن لدى معلومات أفضل مما لدى المفتشين. وأعتقد أن لدى مصادر متاحة لى أكثر مما يستطيع المفتشون الحصول عليه"^(٤٣). وقد ثبت أن واحدا من هذه المصادر عبارة عن بضع رسائل بين العراق وإحدى دول وسط إفريقيا وهى النيجر بقصد الزعم بأن النيجر وافقت على بيع اليورانيوم للعراق فى الفترة ما بين ١٩٩٩ و ٢٠٠١. وفى خطاب حالة الاتحاد فى ٢٨ يناير ٢٠٠٣ أشار الرئيس بوش إلى هذا الدليل بقوله إن: "الحكومة البريطانية علمت أن صدام حسين سعى مؤخرا إلى اقتناء كميات كبيرة من اليورانيوم من إفريقيا". وسلم الوزير باول هذه المستندات إلى محمد البرادعى مدير عام الوكالة الدولية للطاقة النووية، باعتبارها برهانا على صحة الاتهامات الأنجلوز أميريكية القائلة بأن العراق أحيا جهوده لإنتاج أسلحة نووية بعد انتهاء الأمم المتحدة من عمليات التفتيش فى عام ١٩٩٨ .

وقد ظهرت مزاعم شراء العراق لليورانيوم على السطح لأول مرة فى تقرير للحكومة البريطانية نشر يوم ٢٤ سبتمبر ٢٠٠٢ ولم يذكر اسم النيجر باعتبارها مصدرا لليورانيوم. وفى ١٩ ديسمبر ٢٠٠٢ أسهبت وزارة الخارجية الأميركية فى شرح المعلومات البريطانية الأصلية، وذكرت لأول مرة إن النيجر هى التى قدمت المادة الانشطارية. ومع ذلك ذكرت صحيفة واشنطن بوست أن مسؤولى الاستخبارات

الأميريكية "أعادوا فحص الوثائق فحوصا شاملا" ورغم ذلك فشلوا في ملاحظة "الأخطاء الصريحة نسبيا" في الرسائل والتي طالت الأسماء والألقاب التي لم تتوافق مع الأشخاص الذين كانوا في مواقع المسؤولية في الوقت الذي زعم أنها كتبت فيه^(٤٤).

وفي يوم ٢٧ مارس ٢٠٠٣ أدلى البرادعي بشهادته لمجلس الأمن قائلا إن "الوكالة الدولية للطاقة النووية استطاعت مراجعة المراسلات القادمة من مؤسسات مختلفة في حكومة النيجر، ومقارنة الصيغة والشكل والمحتويات والتوقيع في هذه المراسلات، بتلك التي في المستندات الخاصة بالمشتريات المزعومة. وبناء على التحليل الدقيق توصلت الوكالة الدولية للطاقة النووية، باتفاق آراء خبراء خارجيين، إلى أن هذه المستندات، التي تشكل أساس التقارير الخاصة بصفقات يورانيوم حديثة بين العراق والنيجر، ليست مستندات أصلية في حقيقة الأمر. ولهذا خلصنا إلى أن هذه المزاعم بالذات لا أساس لها من الصحة"^(٤٥).

والمثال الأخير لتلفيق الحكومة للمعلومات يتعلق بموضوع العلاقة بين العراق وتنظيم القاعدة، ففي يوم ٧ أكتوبر ٢٠٠٢، وفي شهادة أمام لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ، قال جورج تينت مدير وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية إن الوكالة لم تستطع أن تجد أية علاقة بين بغداد وشبكة أسامة بن لادن. ومع ذلك ناقض تينت أقواله في رسالة بعث بها إلى نفس اللجنة يوم ١١ فبراير ٢٠٠٣. وبعد يومين اتهمه راي ماكجفرن، المحلل في الوكالة لنحو سبع وعشرين سنة، بأنه "استسلم للضغوط السياسية"^(٤٦). وأشار ماكجفرن إلى أن تينت كان يوم ٥ فبراير يجلس مثل "تبات غرس في أصيص" خلف باول في مجلس الأمن الدولي، وأنه "لم يبد أي انزعاج ولو مرة واحدة" مما كان يسمعه. وبدلا من ذلك ضمن أن أحدا لن يصدق بعد ذلك البيانات المستندة إلى جهاز الاستخبارات بحجمه الضخم ونفقاته الكبيرة. وكذلك بدا أن الوزير باول عرض نزاهته لشكوك لا مفر منها.

وبعد حرب العراق الثانية لم توجد أية أسلحة غير تقليدية تقترب حتى إلى حد قليل من معايير الكميات أو القدرة المميتة التي تدعيها إدارة بوش. وأشارت تحليلات ما بعد الحرب بقوة إلى أن جماعة صغيرة من المشايخين العاملين لصالح بول وولفويتز نائب وزير الدفاع هي التي لفقت المعلومات بالاعتماد أحيانا على تقارير من منفين عراقيين كانوا بالفعل موضع شك من السى آى إيه ومن وكالة استخبارات الدفاع، وعندئذ نشطوا

فى بيعها لوزير الدفاع ووزير الخارجية والرئيس. وقد أجرى الصحفى سيمور هيرش مقابلة لصحيفة نيويورك مع أحد العاملين داخل أجهزة الاستخبارات الذى قال: " لم يكونوا يحبون المعلومات التى كانوا يتلقونها (من وكالة الاستخبارات المركزية ووكالة استخبارات الدفاع) ولذلك استعانوا بأشخاص كى يكتبوا لهم المعلومات. ولقد كانوا مهوسين وغير ودودين، وتصعب مناقشتهم وكأنهم يتعاملون فى بازار. وكانوا متعسفين وكأنهم مبعوثون إلهيون. وإذا لم تتفق معهم فى رأى يرفضون أن يقبلوا وجهة نظرك" (٤٧).

وليس من المألوف أن يسمح مساعدو ومستشارو رئيس الولايات المتحدة له بإعلان تقرير معلومات مزيفة فى خطاب حالة الاتحاد. بل والأكثر ندرة أن يبقى مدير الاستخبارات المركزية فى منصبه لو حدث مثل هذا الخطأ الفادح. والتفسير الوحيد لذلك هو أن رؤساء المدير السياسيين هم الذين أصدروا إليه الأوامر ليفعل ما يريدونه. وإذا كان الأمر كذلك فمعناه أن كبار مسؤولى الحكومة زوروا الحجج لشن حرب العراق الثانية وارتكبوا جريمة التدليس على الكونجرس والشعب الأمريكى، وفى أية جمهورية ديموقراطية تُعتبر هذه الجرائم قابلة للمحاكمة. إن حقيقة عدم ذكر هذه الأعمال على الأقل إشارة أخرى إلى التدهور السياسى الذى أحدثته النزعتان العسكرية والإمبراطورية.

وآخر أحزان الإمبراطورية هو الخراب المالى. وهو يختلف عن الأحزان الثلاثة الأخرى فى أن الإفلاس لا يكون مهلكا للدستور مثل الحرب التى لا نهاية لها. أو اعتياد الكذب الرسمى. ولكنه ذلك النوع من الحزن الذى سيؤدى حتما إلى حدوث أزمة بغض النظر عما إذا كان رأى العام قد تعرض للترهيب أو للإنكار والتضليل العميق. وأثناء عام ٢٠٠٣ ربما كانت الولايات المتحدة مستعدة عسكريا للحرب فى العراق، وحتى لحربين فى كوريا الشمالية وإيران. ولكنها لم تكن مستعدة اقتصاديا حتى لحرب واحدة منها. بل وأقل استعدادا بالنسبة للحروب الثلاث، ولا لعواقبها على قدم المساواة.

إن الهيمنة العسكرية الدائمة على العالم عمل مكلف. وقد بلغت اعتماداتنا المالية العسكرية التى وُفقَ عليها يوم ٢٣ أكتوبر ٢٠٠٢ مبلغا قدره ٣٥٤.٨ بليون دولار. أما بالنسبة للسنة المالية ٢٠٠٤ فإن وزارة الدفاع طلبت من الكونجرس زيادة المبلغ إلى ٣٧٩.٣ بليون دولار وحصلت عليه بالفعل، إضافة إلى ١٥.٦ بليون دولار لبرامج

الأسلحة النووية التي تديرها وزارة الطاقة، ومبلغ ١,٢ بليون دولار لخفر السواحل. وبذلك يصبح إجمالي هذه المبالغ ٢٩٦,١ بليون دولار. ولا تشمل هذه المبالغ ميزانيات الاستخبارات التي تدير البنتاجون معظمها، ولا نفقات حرب العراق الثانية نفسها، ولا طلب البنتاجون مبلغا خاصا قدره ١٠ بلايين دولار لقتال الإرهاب. وعندما قدمت هذه الميزانية الضخمة غير العادية إلى مجلس النواب قضى الأعضاء المنافقون معظم وقتهم فى سؤال وزير الدفاع عما إذا كان متأكدا أنه لا يحتاج إلى مزيد من الأموال، وأخذوا يعرضون عليه اقتراحات ببرامج أسلحة قد تصبح دواثرهم مواقع لها. وبدا أن الرسالة التي بعثوا بها هي: مهما كان حجم ما تنفقه الولايات المتحدة على "الدفاع" فلن يكون كافيا. وتبلغ الميزانية العسكرية لأكبر دولة تالية فى الإنفاق العسكرى وهى روسيا ١٤٪ فقط من مجمل الإنفاق الأمريكى ويحتاج الأمر إلى جمع كل الميزانيات العسكرية للدول السبع والعشرين الأكثر إنفاقا لكى تتساوى مع إنفاقنا^(٤٨).

وقد بلغت تكلفة حرب الخليج الأولى أكثر من ٦١ بليون دولار. ولكن المملكة العربية السعودية والكويت والإمارات العربية المتحدة وألمانيا واليابان وكوريا الجنوبية وحلفاء آخرين لأمريكا ساهمت بمبلغ ٥٤,١ بليون دولار أى نحو ٨٠٪ من إجمالي المبلغ تاركة لأمريكا مساهمة مالية ضئيلة بلغت ٧ بلايين دولار^(٤٩). وقد ساهمت اليابان وحدها بمبلغ ١٢ بليون دولار. ولن يحدث شيء كهذا مرة أخرى فى وقت قريب. والواقع أن العالم بأسره اتفق عشية حرب العراق الثانية على أنه إذا أرادت القوة العظمى الوحيدة أن تمضى فى سعيها إلى تحقيق انتصار "وقائى" فعليها أن تدفع فاتورة حسابها.

وتتلخص مشكلة سياسات إدارة بوش الأحادية والمركزة على القوة العسكرية فى أن الولايات المتحدة فى الحقيقة تفتقر تماما إلى المال. وتقدر التنبؤات، استنادا إلى ميزانية ٢٠٠٣، العجز المالى الفيدرالى بمبلغ ٤٨٠ بليون دولار، مع استبعاد نفقات حرب العراق. والواقع أن كل ولاية فى الدولة تواجه نقصا ماليا حادا وتتوسل الى الحكومة الاتحادية أن تخرجها من مأزقها وخاصة بأن تدفع نفقات برامج مكافحة الإرهاب وبرامج الدفاع المدنى التي أمر بها الكونجرس. ويقدر مكتب الميزانية بالكونجرس العجز المالى الفيدرالى خلال السنوات الخمس المقبلة بمبلغ مذهل هو ١,٠٨ تريليون دولار فوق دين حكومى قائم فى فبراير ٢٠٠٣ يبلغ ٦,٤ تريليون دولار^(٥٠).

وبنفس القدر الخطير - كما أسلفنا - فإن من الصعب تمويل العجز التجارى المتزايد فى البلاد. وخلال عام ٢٠٠٢ استوردت الولايات المتحدة برقم قياسى هو ٤٢٥,٢ بليون دولار الذى يزيد عما قامت بتصديره. وبوصول العجز إلى نحو ٥% من إجمالى الناتج المحلى فإن هذا العجز يمثل رقما اقتصاديا إحصائيا غير عادى بالنسبة لدولة لديها طموحات إمبراطورية. وفى القرن التاسع عشر أنجزت الإمبراطورية البريطانية فوائض حساب جار هائلة سمحت لها بتجاهل تبعات المغامرات الإمبراطورية الكارثية مثل حرب البوير. وفى عشية الحرب العالمية الأولى كان لدى بريطانيا فائض بلغ ٧% من إجمالى الناتج المحلى.

وبمجرد أن يدخل النفط كعنصر من عناصر التضخم فإن المستقبل يبدو نذيرا اقتصاديا أسوأ فالولايات المتحدة تستورد نحو ٣,٨ بليون برميل من النفط سنويا أونحو ١٠,٦ مليون برميل يوميا. وهذه الكميات المستوردة هى على قمة المستويات التى سبق أن سجلت، وهى تأتى بوتيرة متزايدة من دول الخليج الفارسى. ولكن تصورات إدارة بوش تبين أن اعتماد البلاد المتزايد بنسبة كبيرة على الاستيراد يعود سببه بشكل خاص إلى أن الحكومة لا تنوى فرض برنامج مهم يخصص كفاءة وقود السيارات. ويبدو أن بعض خبراء الاستراتيجية فى البنتاجون يعتقدون أنه مع هزيمة العراق تستطيع الولايات المتحدة ضمان مستقبل إمداداتها النفطية وكذلك السيطرة على المناطق الصناعية الأخرى بتهديد إمداداتها النفطية. ولكن نصيب العراق من الاحتياطات النفطية العالمية المؤكدة يزيد على ١٠% فقط أو نحو ١١٢,٥ بليون برميل. وعلى العكس من ذلك فإن السعودية تمتلك ٢٥% أو ٢٦٢ بليون برميل.^(٥١) ودول الخليج الأخرى التى غالبا ما تتعاون مع السعودية تتحكم فى ٢٠%. كذلك تمتلك السعودية وحلفاؤها ميزة كبيرة أخرى. فهم وحدهم الذين يستطيعون تحقيق إنتاج مريح مقابل نفقات منخفضة للغاية.

وكان أحد الأهداف التى أعلنتها إدارة بوش من شن الحرب ضد العراق هو استبدال الحكم الشمولى هناك - وفى كل مكان فى منطقة الشرق الأوسط الإسلامية - بالديموقراطية. وبدلا من ذلك فإن استراتيجية بوش قد تولد معارضة قوية للحكومات الإسلامية التى ساعدت الحرب أو تسامحت بشأنها مما يؤدى إلى التعجيل بانهايار الحكومة السعودية أو بحكومات المشيخات الأصغر فى منطقة الخليج. والأمر الذى يفوق الاحتمال هو أن أية حكومة فى السعودية تتمتع بشعبية حقيقية سوف تكون

معادية للولايات المتحدة. وأى انقطاع خطير فى إمدادات النفط السعودى سوف يصيب الولايات المتحدة بكارثة اقتصادية حتى ولو كانت تحكم سيطرتها الشاملة على إنتاج نفط العراق^(٥٢).

كذلك تؤدى النتائج الاقتصادية للنزعتين الإمبراطورية والعسكرية إلى تحول منظومة قيمنا عن طريق تحقيق مبدأ "المبادرة الحرة" الذى يعتز به الأميركيون ويعتبرونه مثيلاً للحرية. وقواتنا المسلحة هى المؤسسة البيروقراطية الأضخم بكثير فى حكومتنا. وتنقل النزعة العسكرية رأس المال والموارد من السوق الحر وتقوم بتوزيعها بطريقة تعسفية بناء على أوامر بيروقراطية لا تتأثر بقوى السوق، ولكنها تستجيب كلية لأصحاب النفوذ داخل المؤسسة ولرأسمالية المحاباة. ومثال ذلك أن الحكومة دعت يوم ١٠ مارس ٢٠٠٣ خمس شركات هندسية لتقديم عطاءات لأعمال إعادة بناء عراق ما بعد الحرب. بمن فيهم شركة كيلوج براون آند روت إحدى فروع شركة هالبرتون، وشركة بكتيل جروب. وكما ذكرنا سابقاً فإن شركة براون آند روت هى شركة ديك تشينى نائب الرئيس القديمة. أما شركة بكتيل فإن لها علاقات قديمة بالسي آى إيه وكبار السياسيين فى الحزب الجمهورى تمتد إلى نصف قرن^(٥٣). وفى الواقع تعكس جميع العقود الواردة من القوات المسلحة صفقات بين العاملين داخل المؤسسة العسكرية. ويلخص روبرت هيجز، كبير أساتذة الاقتصاد السياسى فى معهد "إندبندنت إنستيتيوت" المجمع العسكرى - الصناعى كما يلى: هو بالوعة كبيرة لسوء الإدارة والتبديد وانتهاك الحرمات التى لا تصل فقط إلى حد السلوك الإجرامى بل تغوص إلى أعماق هذا السلوك... وتعتمد شركات السلاح الكبرى إلى التهرب من المخاطر العادية للتجارة فى السوق الأصلية فتلقى بالكثير من التكلفة المفرطة على عاتق دافعى الضرائب بينما تستمر فى تحقيق معدلات غير عادية من عوائد الاستثمار^(٥٤).

ومثل ذلك أيضاً عملية تخصيص الاعتمادات لبرنامج الصواريخ الدفاعية. ولم تعد البنتاجون تحدد كمية الأموال التى سوف يتم إنفاقها، ويعتمد الكونجرس ببساطة الأموال العامة لمنحها لوكالة استخبارات الدفاع. وقد بلغت تلك الأموال ٧,٤ بليون دولار عام ٢٠٠٤ من أجل برنامج بحث وتطوير الصاروخ الدفاعى. وقد ابتكرت هذه الوكالة ما أسمته مفهوم "الفريق القومى". ويتكون الفريق من الضباط العاملين فى وكالة استخبارات الدفاع ومديرى شركات لوكهيد مارتن، وبوينج، وتى. آر. ديليو وهذه الشركات

هى الماؤالون الرتيسيون الالن يقررول فاما باملهم كماله الأمال اللل سوف يتم إنفاقلها . وكما يقول فرلء كابلان مراسل مجلة "سلبل": " الفكرة هى أن يعطلنا الكونجرس كتلة أموال فنقوم نحن بقررلر كلففة إنفاقلها علما تكون لءلنا فكرة أفضل عما نقوم به " وهذا هو النمط العاى اللى ىلزلال اءباعه فى كل مناللى اقءصاء الحرب الالئم فى الولاىال المءءة^(٥٥).

ولا ىمء أى شئ من هذا كله بأفة صلة بمبءا "المبالرة الالرة" مهما حملء من أسماء أالرى. وهذه اللامبالاة بكلففة إنفاقل الأموال العامة ءلمر فى النالفة أولئك الالن ىءحملونها، والإفلاس هو إءىء النءالء المءملة. ولكنها أقل ءطورة فى بعض الالاء. والأمر الأكثر إزعاا هو اءءقار الالومة ووزارءالها اللل عهءء إللها مهمة الءفاع القومى. وبمجرد أن ىلرء معجون الأسنان من الأنبوبة ءصعب إعاءءه ءالفة. وألرر أءزان الإمبراطورفة هو الءمار اللى نلقله بأنفسنا واللى ىءءذر إلغاؤه.

وفى عام ١٩٥٢ ءنبا عالم اللاهوء والعلاقل الءولة رالنهولء نلبور بأن "المءءصر" فى الحرب الباردة سوف "لواجه ءءما المشكلة الإمبراطورفة وهى اسءءءام القوة بالمفاهلما الءولة، ولكن من مركز سلطة واءل بعلنه مءفوق ءءا ولا منازع له ءلى ىصبل من الموءء أن ءكمه للعالم سوف ىنءلك المعاللر الأساسية للءءالة"^(٥٦). ومع اعءقلانا بأننا "ربلنا" الحرب الباردة أصبلنا أقل إءراكا لمظالما اللل ارءكبلناها فى ءق الآلرلن، وبءلا من ذلك افءرضنا أن "نوالنا الطللفة" فى الءعامل مع الشؤون الءولة لىسء فى ءااة إلى برهان. وكائء نءلءة عجرءءنا ءلवल مركزنا الكونى إلى نزعة إمبراطورفة مءءفءة ءاماما، وءلवल اءءامانا بالءفاع القومى إلى نزعة عسكرفة مءءفءة ءاماما. وفى ءقءلرى أن هائلن النزعللن أءرءنا ءقءما بعلء الءى، وأن العقباء اللل وقلء فى طرلقلها ءل ءم ءلللءها إلى ءل أن انهلارنا ءل بءا فعلا. وىقءرب هذا الانهلار من أن ىصبل أمرا مءءوما بسبلب رفضنا ءفكلك إمبراطورفة قواعلنا العسكرفة علما اءءفى لرر الاتحاد السوفللىءى، وءل فعلنا للر الملائم على ءفءلرلر ١١ سبءمبر ٢٠٠١ .

والإمبراطورلرل لا ءلوم ونهالاءها عادة مءزئة. وىمءل الأملرلكلون - مءلى - الالن ولءوا قبل الحرب العالمفة الءالفة بمعرفة شلصلفة - وبلءربة شلصلفة فى بعض الالاء - بأنهلار سء إمبراطورلرل على الأقل هى: ألمانيا النازفة، والللان

الإمبراطورية، وبريطانيا العظمى، وفرنسا، وهولندا، والاتحاد السوفييتي. وإذا أدرج أحد جميع سنوات القرن العشرين سيجد أن هناك ثلاث إمبراطوريات كبرى منهارة هي الإمبراطورية الصينية، والنمساوية - المجرية، والعثمانية. وقد أدى مزيج من الإفراط في التوسع، وجمود المؤسسات الاقتصادية، والعجز عن الإصلاح، إلى إضعاف جميع هذه الإمبراطوريات وإصابتها بوهن قاتل في مواجهة حروب كارثية أشعلت الإمبراطوريات نفسها معظمها. ولا يوجد سبب يدعو للاعتقاد بأن الإمبراطورية الأميركية لن تسلك نفس المسار ولنفس الأسباب. وإذا كانت جهود العولة قد أخرت بدايات هذا الانهيار إلى حين، فإن الانتقال إلى النزعتين الإمبراطورية والعسكرية سوف يتكفل بالموضوع.

وفي نفس الوقت لا بد أن ندرك أن أية دراسة لإمبراطوريتنا مازالت عملاً قيد الاكتمال، فعلى الرغم من أننا قد نعرف النتائج الحتمية، فإنها قد يأتى ليس واضحاً تماماً. ومنذ بداية القرن الحادى والعشرين خاضت الولايات المتحدة حربين إمبراطوريتين فى أفغانستان والعراق، وتفكر فى حربين أخريين على الأقل فى إيران وكوريا الشمالية. وعلى مدى ثمانية عشر شهرا بعد وقف المعارك فى أفغانستان كانت قد اعتقلت ٦٨٠ شخصا من ثلاث وأربعين دولة واحتجزتهم فى معسكر فى كوبا دون توجيه أية اتهامات لهم. وأشار قائد المعتقل إلى أنه يخطط لبناء جناح فى المعتقل للمحكوم عليهم بالإعدام وغرفة لتنفيذ عمليات الإعدام. ويقول جوناثان تيرلى أستاذ القانون إن "هذا المعسكر أقيم لإعدام الناس. والإدارة لا تهتم بأحكام السجن لأجل طويلة ضد أناس تعتبرهم من العمدة الصلبة للإرهاب". كذلك لا تهتم بالعمل وفق معايير العدالة المعترف بها دولياً، أو بأن تعتبر نفسها جزءاً من مجتمع من الدول أو مسؤولة أمامه مهما كان تعريف هذا المجتمع^(٥٧).

وتسعى الولايات المتحدة بهمة إلى الحصول على مزيد من النفط والقواعد وخاصة فى منطقة غرب إفريقيا التى من المرجح أن تلعب دوراً فى المستقبل شبيه بدور آسيا الوسطى فى الوقت الحاضر باستثناء أن نفقات النقل من موانئ جنوب الأطلنطى أرخص كثيراً. وقد أعلنت قواتنا المسلحة أنها تخطط لبناء قاعدة بحرية فى ساو تومى وهى جزيرة صغيرة فى خليج غينيا تعاني من فقر مدقع، ولكنها قد تعوم فوق أربعة بلايين برميل من النفط الخام على الجودة. ويتوقع أن تبدأ شركة إكسون موبيل فى

التنقيب فى البحر. وينتسب سكان ساو تومى، البالغ عددهم ١٦٠ ألف نسمة، إلى العبيد الأنجوليين والمنفيين السياسيين البرتغاليين واليهود الذين هربوا خوفا من محاكم التفتيش الإسبانية. وتقوم نيجيريا وأنجولا وغينيا الاستوائية بإمدادنا بنحو ١٥٪ من نفطنا المستورد، أى بما يساوى ما نستورده من المملكة العربية السعودية. ويمكن أن يزيد هذا الرقم إلى ٢٥٪ بحلول عام ٢٠١٥. وتبرز صورة مماثلة فى أميركا اللاتينية حيث يعود واحد من الأسباب الرئيسية لنشر جنودنا فى كولومبيا، إلى حماية مصالحنا النفطية والغازية الغربية فى إقليم أروكا فى المنطقة الشمالية الشرقية^(٥٨).

وفى إشارة واضحة الصفاقة على أحاديثنا العسكرية، نتحدث الآن قيادة قوة الفضاء والمكتب القومى للاستطلاع بصراحة عن رفضهما استخدام الفضاء لأهداف استخباراتية من أية دولة وفى أى وقت، لا من دول معادية فقط بل ومن الدول الحليفة أيضا. وفى أبريل ٢٠٠٣ أثناء انعقاد الندوة القومية للفضاء فى كولورادو وسبرينجز، قال جيمس روش وزير الطيران: " إذا لم يرض الحلفاء عن النموذج الجديد للهيمنة الفضائية، فما عليهم إلا أن يتعلموا كيف يوافقون عليه "، ولن يمنحوا " حق استخدام الفيتو"^(٥٩). وهذه السياسة الجديدة، التى تقرر تطبيقها عام ٢٠٠٤، شملت ضمنا أننا سوف نبدأ فى تدمير أقمار اتصالات واستخبارات تابعة لدول أخرى والتشويش عليها حتى نجبر هذه الدول على الاعتماد علينا.

وهناك أشياء كثيرة فى العالم لشغل وقت الراديكاليين العسكريين والمتحمسين للإمبراطورية فى الوقت الحاضر، ولكن لا يوجد أدنى شك فى أن المسار الذى انطلقنا فيه سوف يقودنا إلى نسخ جديدة من خليج الخنازير، ومن سيناريوهات لحرب فيتنام أعيد تحديثها وأعيد لعبها بسرعة أكبر. وعندما تحدث مثل هذه الكوارث، أو نسخ أخرى منها غير معلومة بعد، - ومن المؤكد أنها سوف تحدث - فإن عالما مشتمزا من خيانة المثل التى ارتبطت بالولايات المتحدة، سوف يرحب بهذه الكوارث بالضبط مثلما فعل معظم الناس عندما تمزق الاتحاد السوفييتى السابق. وقد اختارت الولايات المتحدة لا أن تعيش بحكمة وتبصر فى سلام ورخاء، بل أن تعيش كقوة عسكرية هائلة فى مواجهة عالم غاضب ومقاوم، مثلما فعلت إمبراطوريات أخرى فى القرن الماضى.

وهناك تطور واحد يمكن تصور أنه يستطيع إيقاف عملية التوسع هذه وهو أن يستطيع الشعب السيطرة على الكونجرس وإصلاحه مع إصلاح قوانين الانتخاب

الفاسدة التى جعلت منه منتدى للمصالح الخاصة، وتحويله إلى جمعية أصيلة لنواب يؤمنون بالديموقراطية. ومنع تدفق الأموال على البنتاجون ووكالة الاستخبارات السرية. إن لدينا مجتمعا مدنيا قويا يستطيع - نظريا - التغلب على المصالح الراسخة للقوات المسلحة والمجمع العسكرى - الصناعى. وحتى ذلك الموعد المتأخر يصعب أن نتخيل كيف يمكن إعادة الحياة إلى الكونجرس وتطهيره من فساد المتوطن بالضبط مثلما فعل مجلس الشيوخ الرومانى فى أيام الجمهورية الأخيرة. وإذا فشلنا فى مثل هذا الإصلاح، فإن نيمسيس(*) ربة القصاص والانتقام التى تعاقب العجرفة والغرور سوف تتحرق شوقا إلى لقائنا.

(*) نيمسيس هى إلهة الانتقام عند الإغريق التى تنشر العدل بالقصاص من المجرمين والانتقام منهم.
(المترجم).

مسرد لأهم العبارات والمصطلحات

Agent Orange

العامل البرتقالي :

هو الاسم الرمزي لمبيد على هيئة سائل كيميائي استخدمته القوات المسلحة الأميركية في حرب فيتنام بين عامي ١٩٦١ و ١٩٧١. و هو يؤدي إلى سقوط أوراق الشجر و المزروعات و أشجار الغابات، و الهدف من رشها كشف تحركات المقاتلين الفيتناميين و حرمانهم من أى طعام و من فرص الاختباء. و قد اكتسب هذا الاسم بسبب شريط أصفر يلصق على البراميل المملئة بذلك السائل. و قد استخدمته القوات الأميركية أيضا في رش النباتات في لاوس ومناطق في كمبوديا و في حرب العراق.

Amboinese

الجنود الأمبوانيز :

هم جنود من أهل جزيرة أمبوانا في إندونيسيا عندما كانت تحت الاحتلال. و كانوا يستخدمون في المستعمرات لأداء أدنى و أسوأ الأعمال بدلا من جنود الاحتلال.

Biopiracy

القرصنة البيولوجية :

اتخذت هذه الوسيلة من القرصنة من قبل بعض الشركات للإفلات من قيود اتفاقية حقوق الملكية الفكرية (تريبس) إذ تقوم الشركات والجامعات و مراكز البحوث

باستخدام تقنيات زراعية أو طبية و الحصول على براءات اختراع بها لمنتجاتها و بالتالى على تراخيص بزراعتها أو صناعتها و طرحها فى أسواق العالم الثالث.

Black Budget

الميزانية السوداء :

نوع من الميزانيات السرية التى تضعها وزارة الدفاع الأميركية لأنواع من العمليات والاستخبارات السرية و للقوات الأميركية الخاصة و بحوث الأسلحة. و قد بدأت هذه الحيلة قرب نهاية الحرب الباردة فى أعقاب فضيحة ووترجيت. و أطلق على تلك العمليات "البرامج السوداء".

Brezhnev Doctrine

مبدأ بريجنيف :

أعلن هذا المبدأ لأول مرة فى خطبة الرئيس السوفييتى ليونيد بريجنيف فى المؤتمر الخامس لحزب العمال البولندى يوم ١٢ نوفمبر ١٩٦٨. و قد جاء فيها بالنص: "عندما تحاول قوات معادية للاشتراكية تحويل تطور أية دولة اشتراكية نحو الرأسمالية فلن يكون ذلك مشكلة بالنسبة للدولة المعنية وحدها. بل مشكلة عامة و مصدر اهتمام لجميع الدول الاشتراكية". و قد أعلن هذا المبدأ بعد تدخل القوات السوفييتية فى تشيكوسلوفاكيا و قمع حركة ربيع براج فى أغسطس ١٩٦٨. و اعتبر المراقبون أن هذا الإعلان كان بمثابة تبرير لهذا التدخل و كذلك لتدخل القوات السوفييتية فى المجر عام ١٩٥٦.

Carter Doctrine

مبدأ كارتر :

فى خطاب "حالة الاتحاد الذى ألقاه الرئيس الأمريكى جيمى كارتر يوم ٣ يناير ١٩٨٠، أعلن أن الولايات المتحدة سوف تستخدم القوة العسكرية إذا دعت الضرورة إلى ذلك للدفاع عن مصالحها الوطنية فى منطقة "الخليج الفارسى". و كانت هذه السياسة المعلنة فى الخطاب تمثل رد الفعل الأمريكى على تدخل الاتحاد السوفييتى العسكرى فى أفغانستان عام ١٩٧٩، وتعبيرا عن المخاوف الأمريكية من اقتراب قوات الاتحاد السوفييتى من منطقة الخليج الغنية بالنفط.

Client State

الدولة العميلة :

هى الدولة العالة التى تعتمد على قوة إمبريالية. و مع ذلك فإن هذه الدولة التى تعولها الدولة الأكبر تنمو قدراتها و نفوذها إلى درجة أنها تستطيع إملاء نهج سياسى معين عليها رغم استمرارها فى الاعتماد على دعمها غير المحدود. و خير مثال على ذلك علاقة إسرائيل بالولايات المتحدة.

Containment Policy

سياسة الاحتواء :

سياسة تبنتها الولايات المتحدة الأميركية فى محاولة لحصار النفوذ السوفييتى ومنعه من التمدد إلى خارج المعسكر الشيوعى و العمل على ذلك حتى داخل دول حلف وارسو. و قد ربحت سياسة الاحتواء بالإضافة إلى سياسة الردع الحرب الباردة التى انتهت بانحيار الاتحاد السوفييتى و تفكك حلف وارسو. و كانت سياسة احتواء الشيوعية المبرر الرئيسى الذى لجأت إليه واشنطن للتوسع فى بناء القواعد العسكرية فى أنحاء العالم.

Crony Capitalism

رأسمالية المحاباة :

يعود هذا المصطلح إلى شعب الفلبين إبان حكم فرديناند ماركوس. و يقصد به أولئك الرأسماليون و أنصارهم و المسؤولون فى نظام ماركوس الذين يثرون من خلال عقد الصفقات المشبوهة و الافتقار إلى الشفافية و محاباة الأقارب و الأصدقاء والأنصار.

Cyber technology

التقنية السيبرانية :

هى التقنية التى تعتمد على ما اصطلح على تسميته علم التحكم الآلى أو علم "السيبرنطيقا" و هى الكلمة التى نحتها الدكتور مجدى وهبه فى معجمه: " النفيس " .

Depleted Uranium

اليورانيوم المنضب :

اليورانيوم المنضب - أو اليورانيوم ٢٢٨- يعتبر وفقا لقرار الأمم المتحدة لعام ١٩٩٦ سلاحا للدمار الشامل و هو غير مشروع. و هو عبارة عن النفايات الناتجة عن توليد

الطاقة في المفاعلات النووية. وتشير البراهين التي ذكرتها مصادر أميركية و غربية إلى أن اليورانيوم المنضب هو السبب في حالات سرطان الأطفال و التشوهات في العراق وكوسوفو .

Embedded reporters

تطعيم القوات بالمراسلين :

قبل الهجوم على العراق عام ٢٠٠٣ اخترعت وزارة الدفاع الأميركية حيلة خادعة للسيطرة على ما يجب أن يعلمه الجمهور و لتصوير القوات المسلحة في صورة براءة. فقررت "تطعيم" الوحدات القتالية ذ و هو مصطلح عسكري ذ بنحو ٦٠٠ مراسل ومراسلة ومصور صحفي و مصور تليفزيوني، و السماح لهم بمرافقة القوات، و لكنها حظرت عليهم إرسال أخبار أو معلومات عن القتال إلا بإذن من ضابط القيادة.

Empire

إمبراطورية :

الإمبراطورية في المنظور الكلاسيكي هي وحدة سياسية تسيطر على إقليم واسع النطاق أو يتكون من عدد من الأقاليم أو الدول. و تحكمها سلطة عليا واحدة. و من الإمبراطوريات القديمة منذ فجر التاريخ. نجد الإمبراطورية المصرية. و ما بين النهرين و آشور وفارس. وبلغت ذروة سطوة الإمبراطوريات القديمة مع الإمبراطوريتين الرومانية و البيزنطية ثم الإمبراطورية العثمانية. أما إسبانيا و البرتغال فقد أقامت إمبراطوريتين تجاريتين، بينما أقامت بريطانيا و فرنسا و هولندا إمبراطوريات استيطانية. أما البروفيسور تشارلز جونسون فإنه يرى أن الولايات المتحدة شيدت نوعا جديدا من الإمبراطوريات هو إمبراطورية القواعد العسكرية. و مهما كان نوع الإمبراطوريات قديمها و حديثها فإنها تقوم على إخضاع الشعوب و إذلالها و اغتصاب أراضيها.

Extraterritoriality

الحصانة :

هي الإعفاء من تطبيق القوانين المحلية على الأجانب المقيمين في دولة ما مثل الدبلوماسيين. غير أن هذا المبدأ طبق على الجنود الأميركيين في القواعد العسكرية الأميركية في البلاد الأجنبية الذين يرتكبون جرائم على أرض تلك البلاد، من خلال اتفاقيات عقدها واشنطن مع تلك الدول اسمها "اتفاقيات الحالة القانونية للقوات"

التي تحرم على السلطات المحلية محاكمة أفراد القوات المسلحة الأميركية إلا في حالات خاصة توافق عليها السلطات العسكرية.

Franken Food

أطعمة معدلة الجينات :

هو تعبير ابتكرته جماعة من نشطاء البيئة و الرعاية الصحية و أطلقته على الأطعمة معدلة الجينات لأن الأشخاص و الحيوانات التي تتناولها قد تعاني من حالات الحساسية و مشاكل صحية أخرى.

Gorkha

جورخا :

الجورخا كلمة سنسكريتية تطلق على الجندي النيبالي من أصل هندوسى الذى كان يخدم فى الجيش البريطانى أثناء الاستعمار البريطانى فى القارة الهندية و لذلك ظل الاسم يستخدم فى اللغة الإنجليزية كما هو.

Guernica

جويرنيكا :

جويرنيكا قرية صغيرة فى إقليم الباسك شمال إسبانيا. و قد اختار الزعيم النازى أدولف هتلر هذه القرية لى يستعرض فيها سلاح الجو النازى عضلاته فأغار عليها فى يوم ٢٧ أبريل ١٩٣٧ مستخدما قنابل حارقة جديدة. و قد عبر الفنان الكبير بابلو بيكاسو عن هذه المأساة فى لوحة شهيرة حملت نفس اسم القرية البائسة.

Gulf Syndrome

أعراض حرب الخليج :

ظهرت أعراض لبعض الأمراض على الجنود الأميركيين و بعض المدنيين بعد حرب الخليج عام ١٩٩١، و هى أعراض حادة مثل الشعور بالإعياء و عدم السيطرة على العضلات و نوبات الصداع الحاد و الدوار و فقدان التوازن و اضطراب الذاكرة و آلام العضلات والمفاصل و الاضطرابات الجلدية و مشاكل فى جهاز المناعة و تشوهات نسل هؤلاء الجنود. و بعد إجراء بحوث عديدة تبين أن السبب يعود إلى أنواع الأسلحة الكيميائية و أسلحة اليورانيوم المنضب و الغازات السامة و المبيدات التي استخدمتها القوات الأميركية فى تلك الحرب.

Hegemony

سيطرة دولة على أخرى :

استخدم بعض الكتاب الأمريكيين هذه الكلمة للتعريف بالسيطرة السياسية كبديل للنزعة الإمبراطورية. وقد استخدم هذا المصطلح كثيرا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية و انقسام العالم إلى معسكرين شرقي و غربي. و المعنى العام هو هيمنة دولة قوية على دولة أضعف. و بعد الانشقاق الذي حدث بين جمهورية الصين الشعبية والاتحاد السوفييتي دأبت الصين على وصف السوفييت بالنزوع إلى السيطرة السياسية على دول العالم.

Humanitarian intervention

التدخل الإنساني :

تعبير أطلقته مجموعة أميركية من الأيديولوجيين و هم ليبراليون عولميون ينادون بما أسموه "الحق في التدخل الإنساني". و الفكرة الأساسية التي طرحت هي أن من الممكن أن تنتهك دولة قوية سيادة دولة أخرى أو عزل حكومتها بالقوة لوقف أو منع انتهاكات كبيرة لحقوق الإنسان أو التطهير العرقي أو الإبادة الجماعية أو إرهاب الدولة إلخ. و رغم أن اللجنة الدولية للتدخل و سيادة الدولة وضعت قيودا و شروطا على استخدام هذا التدخل إلا أنه أصبح حجة لغزو دول أخرى مثلما فعلت الولايات المتحدة في العراق و أفغانستان بينما تخلت هي وحلفاؤها خلال ثمانينيات القرن الماضي عن مسؤولياتها تجاه الروانديين و سكان جنوب المكسيك و الشيشان و أهل التبت والكشميريين و التيموريين و الفلسطينيين.

Information War

حرب المعلومات :

هي إحلال البروباجندا الدعائية و التضليل الإعلامي و نفاق النظم الحاكمة محل الصدق و قول الحقيقة. و هي واحدة من أهم أسلحة أصحاب النزوع إلى التسلط الإمبريالي والعسكري. و تتلازم زيادة الأكاذيب الرسمية مع تنامي النزعتين الإمبراطورية و العسكرية. و في خريف عام ٢٠٠١ أنشأ دونالد رامسفيلد وزير الدفاع الأميركي آنذاك "مكتب التأثير الاستراتيجي" في البنتاجون و هي تسمية لما أسماه مسؤولو التخطيط في وزارة الدفاع "حرب المعلومات" و تشمل التضليل و الدعايات السياسية ضد الأعداء الخارجيين و المواطنين المحليين الذين ينتقدون الإدارة و لا

يؤيدون السياسات الرئاسية. إلا أن رامسفيلد عاد و أنشأ منصبا جديدا هو نائب وكيل وزارة الدفاع " للخطط الخاصة" و هو تعبير لتغطية الاسم الحقيقي و هو "عمليات الخداع" بقصد إدارة المعلومات العامة و الحد منها و الهيمنة على مصادر الأخبار والتلاعب بالرأى العام و السيطرة على ما يراه أو يقرؤه. و هذه بالطبع أمور تختلف عن عمليات التضليل العسكرية المعهودة.

Intelsat

إنتلسات :

هى منظمة أقمار الاتصالات الاصطناعية التى أقيمت بناء على اتفاقية دولية. وتتواجد هذه الأقمار فى مدارات ثابتة حتى تحتفظ دائما بنفس الموقع فى الفضاء بالنسبة للكرة الأرضية. و تقوم بإرسال و استقبال ما تتلقاه من المكالمات الهاتفية ورسائل التلكس. و قد أطلقت إنتلسات أول أقمارها الاصطناعية عام ١٩٦٧.

Military Sexual Traumas

الصدمة الجنسية العسكرية :

يمثل الاعتداء الجنسى على المجندات العاملات فى الخدمة العسكرية فى القوات المسلحة الأميركية مشكلة. و تستخدم وزارة الدفاع الأميركية و مكاتب إدارة المحاربين القدماء رمزا معيناً إلى هذه الحالات مكوناً من ثلاثة حروف هى: إم. إس. تى و هى الحروف الأولى لعنوان معناه "الصدمة الجنسية العسكرية" و كان آخر الأرقام التى عرفت مع نهاية القرن العشرين يشير إلى أن نحو ٢٠٠ ألف امرأة يخدمن فى جميع فروع القوات المسلحة الأميركية.

Moral Hazard

مخاطرة أخلاقية :

نشأ هذا المصطلح فى بداية الأمر بين شركات التأمين بمعنى أن شركة التأمين قد تتعرض لخسارة ما بسبب أخلاق المؤمن عليه. ثم انتقل المصطلح إلى عالم البنوك والقروض. و أقدمت البنوك الأميركية فى سبعينيات القرن الماضى على التوسع فى منح قروض ضخمة تزيد عن الحدود المسموح بها طمعا فى مزيد من الأرباح و خاصة من العمليات خارج البلاد ذات المخاطر العالية بما فى ذلك القروض لنظم حكم دكتاتورية أو فاسدة فى دول العالم الثالث. و قبل نهاية السبعينيات نشأت كارثة بسبب تلك المخاطر الأخلاقية.

Nixon Doctrine

مبدأ نيكسون :

يعرف أيضا بمبدأ جوام إذ أن الرئيس ريتشارد نيكسون أعلنه في مؤتمر صحفي في جوام يوم ٢٥ يوليو ١٩٦٩ و مفاده أن الولايات المتحدة تتوقع أن تتولى حليقاتها الدفاع عن نفسها عسكريا. و لكن الولايات المتحدة قد تساعدها في دفاعها عند الطلب. كذلك أعلن نيكسون ما سمي بمبدأ "الفتنة" قائلا إن الولايات المتحدة لديها خطط لزيادة عمليات تدريب جنود فييتنام الجنوبية و إعادة الجنود الأميركيين إلى بلادهم. و تضمن مبدأ نيكسون أيضا ثلاثة محاور الأول أن الولايات المتحدة سوف تحترم جميع اتفاقياتها. والثاني هو أن بلاده سوف توفر درع الحماية إذا هددت قوة نووية دولا حليفة أو دولة تعتبرها واشنطن مهمة لأمنها القومي. و المحور الثالث أن أميركا قد تقدم المساعدة العسكرية و الاقتصادية للدول بناء على اتفاقيات و لكن على الدولة المتلقية للمعونة أن تتحمل مسؤوليتها الأولى في توفير القوة البشرية للدفاع عن نفسها.

Pa de deux

رقصة بين راقصين في الباليه :

في فن الباليه يعنى هذا التعبير رقصة متبادلة بين اثنين من الراقصين و هو بطبيعة الحال تعبير فرنسى. و قد استغله البروفيسور تشالمرز جونسون ببراعة لتصوير قيام الاتحاد السوفييتى بتحركات ترد عليها الولايات المتحدة بتحركات أخرى أثناء الحرب الباردة و كأنهما راقصان يتبادلان التحرك في أحد عروض الباليه.

The Pentagon Papers

أوراق البنتاجون :

هى وثائق سرية لدى البنتاجون كشفت أكاذيب الإدارة الأمريكية أثناء حرب فييتنام. وقد سربها محلل عسكري و موظف سابق فى وزارة الدفاع الأمريكية اسمه دانييل إلسبرج ونشرتها إحدى الصحف الأمريكية. و قد أطلق على هذه الوثائق أيضا "أوراق فييتنام".

Posse Comitatus

قوة البلاد :

عبارة لاتينية معناها قوة البلاد. و قد استخدمت عنوانا لقانون أميركى صدر عام ١٨٧٨ يهدف إلى منع القوات المسلحة من القيام بمهام الشرطة فى أى وقت دون موافقة

الكونجرس أو الرئيس الأميركي. و كانت هذه العبارة نفسها التى تعود إلى القرون الوسطى قد استخدمت لتعبر عن ممارسات المأمور الإنجليزي الذى يستدعى المواطنين لمساعدته فى إلقاء القبض على أحد المجرمين أو على قمع اضطرابات أهلية. و فى القرن التاسع عشر اختصرت العبارة فى أميركا إلى كلمة واحدة هى "پوسى".

The Star Chamber

محكمة النجوم :

محكمة إنجليزية قديمة كان مقرها فى قصر ويستمينستر حتى عام ١٦٤١. و قد أقيمت لمحاكمة الشخصيات البارزة التى لا تستطيع المحاكم العادية إدانتها ثم تحولت إلى سلاح سياسى استغله بعض الملوك فى الخلاص من خصومهم. و كانت المحاكمات تجرى فيها فى سرية تامة و بلا محلفين أو شهود. و لاحق للمحكوم عليهم فى استئناف أحكامها. و قد ألغيت فى عام ١٦٤١. و لكن بقى الاسم فى العصر الحديث لكى يستخدم فى نقد أية محاكمة ذات طابع سياسى أو تنفقر إلى الموضوعية و العدالة.

Sun Tzu

صن تسو :

منذ مئات السنين قبل الميلاد برز قائد عسكري صينى كبير فى ولاية شىء عرف باسم الجنرال صن تسو. و كانت هناك سبع ولايات تتقاتل للسيطرة على الصين. و بوحى من خبرته القتالية ألف كتابا اسمه "فن الحرب" عام ٥٠٠ قبل الميلاد أودع فيه فلسفته فى خوض الحرب و مواجهة الأعداء. و قد اعتبر هذا الكتاب على مر العصور مرجعا مهما فى الاستراتيجية حتى عصرنا هذا حتى أن الجنرال كولن باول وزير الدفاع و رئيس هيئة الأركان الأمريكى السابق قال إنه قرأه و إنه ذى رأى ذى يلهم العسكريين و السياسيين. وحث زملاءه على دراسة هذا الكتاب.

Washington Consensus

إجماع واشنطن :

طرح هذا المصطلح لأول مرة فى عام ١٩٨٩ و صاحبه هو عالم الاقتصاد جون ويليامسون من معهد العلوم الاقتصادية الدولية فى واشنطن، و يقصد به مجموعة من عشر وصفات خاصة فى السياسة الاقتصادية اعتبر ويليامسون أنها تشكل حزمة الإصلاحات القياسية المقدمة للدول النامية التى تمزقها الأزمات من مؤسسات فى واشنطن مثل صندوق النقد الدولى و البنك الدولى و وزارة المالية الأمريكية. و قد رأى

جون ويليامسون بعد ذلك أن هذا المصطلح استخدم بطريقة مختلفة و بمعنى أوسع كمرادف للأصولية السوقية. و قد انتقده إخصائيون مثل جورج سوروس و جوزيف ستيجليتز عالم الاقتصاد الحائز على جائزة نوبل فضلا عن العديد من السياسيين ورجال الاقتصاد فى أميركا اللاتينية و غيرها من دول العالم الثالث. و أصبح هذا المصطلح مرتبطا بالسياسات الليبرالية الجديدة بوجه عام، و أثار جدلا واسعا حول تمديد دورالسوق الحرة و القيود المفروضة على الدولة و النفوذ الأميركي على سيادة الدول.

NOTES

PROLOGUE: THE UNVEILING OF THE AMERICAN EMPIRE

1. Paul Sperry, "Defense Department Orders 273,000 Bottles of Sunblock," *WorldNetDaily*, October 9, 2002, <http://www.worldnetdaily.com/news/article.asp?ARTICLE_ID=29225>.
2. Arthur Schlesinger Jr., "The Immorality of Preventive War," History News Network, August 26, 2002. Also see Jimmy Carter, "The Troubling New Face of America," *Washington Post*, September 5, 2002.
3. "U.S. Soldiers in Prison Handled Well Thanks to SOFA; Even Beefsteak Served; 40 Percent More in Calories Taken by Them than Japanese, with Even Desserts Served at Every Supper," *Asahi Shimbun* (Tokyo), October 11, 2002, p. 39.
4. See, e.g., "The Pentagon's Colonial Pretensions Thrive in Asia," *Los Angeles Times*, November 2, 1995; "Fort Okinawa: *Go-banken-sama*, Go Home!" *Bulletin of the Atomic Scientists* 52:4 (July/August 1996), pp. 22–29; "The Okinawan Rape Incident and the End of the Cold War in East Asia," *California Western International Law Journal* 27:2 (Spring 1997), pp. 389–97; *Okinawa: Cold War Island* (Cardiff, Calif.: Japan Policy Research Institute, 1999) (editor and contributor); "Time to Bring the Troops Home: America's Provocative Military Posture in Asia Makes War with China More Likely," *Nation*, May 14, 2001, pp. 20–22; and "Okinawa between the United States and Japan," in Josef Kreiner, ed., *Ryukyu in World History, JapanArchiv 2* (Bonn: Bier'sche Verlagsanstalt, 2001), pp. 365–94.

5. See Chalmers Johnson, "The CIA and Me," *Bulletin of Concerned Asian Scholars* 29:1 (Jan-Mar. 1997), pp. 34-37. Also see Willard C. Matthias, *America's Strategic Blunders: Intelligence Analysis and National Security Policy, 1936-1991* (University Park: Pennsylvania State University Press, 2001), pp. 297-98.
6. Tim Weiner, *Blank Check: The Pentagon's Black Budget* (New York: Warner Books, 1990), p. 114.
7. Eric Schmitt and Alison Mitchell, "U.S. Lacks Up-to-Date Review of Iraqi Arms," *New York Times*, September 11, 2002.
8. Tom Bowman, "Special Forces' Role May Expand," *Baltimore Sun*, August 3, 2002; Lawrence J. Korb and Jonathan D. Tepperman, "Soldiers Should Not Be Spying," *New York Times*, August 21, 2002; Rowan Scarborough, "Study Urges Wider Authority for Covert Troops vs. Terror," *Washington Times*, December 12, 2002; Scarborough, "Rumsfeld Bolsters Special Force," *Washington Times*, January 6, 2003; and Douglas Waller, "The CIA's Secret Army," *Time*, January 26, 2003. For an excellent summary of the CIA's record in running "secret wars," see "America's Shadow Warriors," *New York Times*, March 3, 2003.
9. Max Weber, *Economy and Society* (1922), in H. H. Gerth and C. Wright Mills, eds. and trans., *From Max Weber: Essays in Sociology* (New York: Oxford University Press, 1958), pp. 233-34. Also see William Pfaff, "Governments Don't Like to Be Accountable," *International Herald Tribune*, September 2, 2002; and Daniel P. Moynihan, *Secrecy: The American Experience* (New Haven: Yale University Press, 1999).

1: IMPERIALISMS, OLD AND NEW

1. Manuel Miles, "The USA Is Not an Empire," <<http://www.strike-the-root.com/miles14.html>>.
2. Robert M. Gates, *From the Shadows: The Ultimate Insider's Story of Five Presidents and How They Won the Cold War* (New York: Touchstone Books, 1996), p. 266. Also see John Tirman, "How the Cold War Ended," *Global Dialogue* 3:4 (Autumn 2001), pp. 80-90. For the White House's version, see George Bush and Brent Scowcroft, *A World Transformed* (New York: Vintage, 1998).

3. Anatoly Dobrynin, *In Confidence: Moscow's Ambassador to America's Six Cold War Presidents (1962–1986)* (New York: Times Books, 1995), p. 620.
4. Quoted by Frances Fitzgerald, *Way Out There in the Blue: Reagan, Star Wars and the End of the Cold War* (New York: Touchstone Books, 2000), p. 410.
5. *Ibid.*, p. 331.
6. Hans-Hermann Hertle, "The Fall of the Wall: The Unintended Self-Dissolution of East Germany's Ruling Regime," in "The End of the Cold War," Cold War International History Project, Woodrow Wilson International Center for Scholars, *Bulletin*, no. 12/13 (Fall/Winter 2001), pp. 133–34.
7. Vladislav M. Zubok, "New Evidence on the 'Soviet Factor' in the Peaceful Revolutions of 1989," in "The End of the Cold War," p. 6.
8. Thomas Blanton, "When Did the Cold War End?" Cold War International History Project, Woodrow Wilson International Center for Scholars, *Bulletin*, no. 10 (March 1998), pp. 185, 191.
9. See Chalmers Johnson, "The Three Cold Wars," in Ellen Schrecker and Maurice Isserman, eds., *Cold War Triumphalism* (New York: New Press, 2004).
10. See Ed A. Hewitt [NSC staff official], "An Idle U.S. Debate about Gorbachev," *New York Times*, March 30, 1989; Michael Wines, "CIA Accused of Overestimating Soviet Economy," *New York Times*, July 23, 1990; and Colin Hughes, "CIA Is Accused of Crying Wolf on Soviet Economy," *Independent*, July 25, 1990. Michael R. Gordon, *New York Times*, January 31, 1990; and *National Security Strategy of the United States*, March 1990, both quoted by Noam Chomsky, *Detering Democracy* (New York: Hill and Wang, 1992), pp. 29–30. My thanks to Professor Chomsky for drawing my attention to these important sources.
11. William A. Galston, "Why a First Strike Will Surely Backfire," *Washington Post*, June 16, 2002.
12. Alfred Vagts, *A History of Militarism* (New York: Meridian, 1959), pp. 14–15, 41.
13. "Battle of the Boffins," *Sydney Morning Herald*, January 4, 2003; and James Dao and Andrew C. Revkin, "Machines Are Filling In for Troops,"

- New York Times*, April 16, 2002. Also see Neil King Jr., "CIA Drones Spotted bin Laden but Couldn't Shoot," *Wall Street Journal*, November 23, 2001; and Eric Schmitt, "Improved U.S. Accuracy Claimed in Afghan Air War," *New York Times*, April 9, 2002. On the excessive complexity and numerous errors of the "precision warfare" aerial guidance systems, see David Wood, "Grisly Accidents Call 'Precision Warfare' into Question," Newhouse News Service, February 7, 2003, <<http://www.newhouse.com/wood020703.html>>.
14. Jonathan S. Landay, "Missile Kills Top bin Laden Associate: Unmanned CIA Plane Hits al-Qaeda Target in Yemen," *San Diego Union-Tribune*, November 5, 2002; Esther Schrader and Henry Weinstein, "U.S. Enters a Legal Gray Zone: Strike in Yemen Raises Thorny Questions of Assassination and the Definition of War," *Los Angeles Times*, November 5, 2002; Robert Schroeder, "Tell the Truth about U.S. Assassination Policy," *Baltimore Sun*, November 14, 2002; Associated Press, "American al-Qaeda Operatives Can Be Killed: Secret Finding by Bush Gives CIA Authority," *Houston Chronicle*, December 3, 2002; Tony Geraghty and David Leigh, "The Name of the Game Is Assassination," *Guardian*, December 19, 2002; Seymour M. Hersh, "Manhunt," *New Yorker*, December 30, 2002, pp. 66–74; and Doyle McManus, "A U.S. License to Kill," *Los Angeles Times*, January 11, 2003.
 15. Sven Lindquist, *A History of Bombing* (New York: New Press, 2001), s.v. pars. 5, 26.
 16. John A. Hobson, *Imperialism: A Study* (New York: Pott, 1902); quoted by Hannah Arendt, *The Origins of Totalitarianism* (New York: Meridian Books, 1958), p. 152. Also see W. G. Beasley, *Japanese Imperialism, 1894–1945* (Oxford: Clarendon Press, 1987), p. 2.
 17. David B. Abernethy, *The Dynamics of Global Dominance: European Overseas Empires, 1415–1980* (New Haven: Yale University Press, 2000), p. 382.
 18. Cited in "History of U.S. Territorial Acquisitions," <<http://www.philani-war.org/territorial.htm>>.
 19. Abernethy, *Dynamics*, p. 22.
 20. Vagts, *History of Militarism*, pp. 14–15.

21. Quoted by John Gerassi, *Los Angeles Times Book Review*, December 16, 2001, p. 7.
22. John M. Collins, "Military Bases," *Military Geography for Professionals and the Public* (Washington: U.S. National Defense University, Institute for National Strategic Studies, March 1998), <<http://www.ndu.edu/inss/books/milgeo/milgeo12.html>>; The Editors, "U.S. Military Bases and Empire," *Monthly Review* 53:10 (March 2002); and Diana Johnstone and Ben Cramer, "The Burdens and the Glory: U.S. Bases in Europe," in Joseph Gerson and Bruce Birchard, eds., *The Sun Never Sets: Confronting the Network of Foreign U.S. Military Bases* (Boston: South End Press for the American Friends Service Committee, 1991), p. 199.
23. Johnstone and Cramer, "Burdens," p. 219.
24. Ibid., p. 200. Also see Andrew Alexander, "The Soviet Threat Was Bogus," *Spectator*, April 20, 2002.
25. DeNeen L. Brown, "Trail of Frozen Tears: The Cold War Is Over but to Native Greenlanders Displaced by It, There's Still No Peace," *Washington Post*, October 22, 2002; and Mike Davis, "Bush's Ultimate Thule," March 14, 2003, <<http://www.nationinstitute.org/tomdispatch/index.mhtml?mm=3&yr=2003>>.
26. Patrick Lloyd Hatcher, "'Base-mania' in Central Asia," *JPRI Critique* 9:3 (April 2002).
27. Rachel Cornwell and Andrew Wells, "Deploying Insecurity," *Peace Review* 11:3 (1999), p. 410.
28. William Arkin, "U.S. Air Bases Forge Double-Edged Sword," *Los Angeles Times*, January 6, 2002.
29. See, e.g., "Bush Plays Caligula while Blair Strews His Path with Rose Petals," *Scotsman*, September 16, 2002.

2: THE ROOTS OF AMERICAN MILITARISM

1. Hyman G. Rickover, *How the Battleship Maine Was Destroyed* (Washington: Government Printing Office, 1976).

2. Stuart Creighton Miller, *"Benevolent Assimilation": The American Conquest of the Philippines, 1899–1903* (New Haven: Yale University Press, 1982), p. 11.
3. "The Spanish American War," <<http://www.smplanet.com/imperialism/splendid.html>>.
4. "A Gift from the Gods," <<http://www.smplanet.com/imperialism/gift.html>>.
5. Amy Forliti, "Camp Commander Relieved of Duties," Associated Press, October 14, 2002; and "'Too Nice' Jail Commander Is Fired," *Sydney Morning Herald*, October 17, 2002.
6. Miller, *"Benevolent Assimilation,"* p. 1.
7. Cited in Howard Zinn, *A People's History of the United States* (New York: Harper & Row, 1980), p. 306.
8. Quoted by Miller, *"Benevolent Assimilation,"* p. 26.
9. Joseph Lepgold and Timothy McKeown, "Is American Foreign Policy Exceptional? An Empirical Analysis," *Political Science Quarterly*, Fall 1995, <<http://www.mtholyoke.edu/tag/intrel/lepgold.htm>>.
10. For the fullest details on the "Farewell Address, Washington's Final Manuscript," see <<http://www.virginia.edu/gwpapers/farewell/>>.
11. Quoted by Ralph Raico, "American Foreign Policy—The Turning Point, 1898–1919: Part I," <<http://www.fff.org/freedom/0495c.asp>>.
12. Elihu Root, *The Military and Colonial Policy of the United States: Addresses and Reports* (Cambridge: Harvard University Press, 1916), pp. 417–40, <http://www.google.com/search?q=cache:aF2E4_mZg9YC:www.shsu.edu/~his_ncp/RootGS.html+Elihu+Root&hl=en>.
13. *Parameters* (U.S. Army War College Quarterly) 31:1 (Spring 2001), inside back cover.
14. Arthur S. Link, "Woodrow Wilson Biography," <<http://www.gi.grolier.com/presidents/ea/bios/28pwils.html>>.
15. See Peter van den Maas, "The American Tradition in Diplomacy," <<http://odur.let.rug.nl/~usa/E/kissinger/kiss03.htm>>.
16. "President Woodrow Wilson's War Message, April 2, 1917," <<http://www.lib.byu.edu/~rdh/wwi/1917/wilswarm.html>>.
17. Alistair Cooke, "Letter from America: The Pursuit of Self-Determina-

- tion," <http://news.bbc.co.uk/1/hi/english/world/letter_from_america/newsid_288000/2882_50.stm>.
18. Ibid.
 19. William Pfaff, *Barbarian Sentiments: America in the New Century*, rev. ed. (New York: Hill and Wang, 2000), p. 275.
 20. James A. Donovan, *Militarism U.S.A.* (New York: Charles Scribner's Sons, 1970), p. 10.
 21. James Dunnigan, "A Long American Tradition," *Strategy Page*, August 20, 2001.
 22. United States Civil War Center, "Statistical Summary of America's Major Wars," June 13, 2001, <<http://www.cwc.lsu.edu/cwc/other/stats/warcost.htm>>.
 23. Cordell Hull, *The Memoirs of Cordell Hull*, (New York: Macmillan, 1948), p. 1111; cited by Alfred Vagts, *A History of Militarism* (New York: Meridian, 1959), p. 474.
 24. Donovan, *Militarism U.S.A.*, pp. 114–15.
 25. Quoted by Telford Taylor, *Sword and Swastika: Generals and Nazis in the Third Reich* (New York: Simon and Schuster, 1952), p. 368.
 26. United States Civil War Center, "Statistical Summary." Also see U.S. Department of Veterans Affairs, Office of Public Affairs, *America's Wars* (Washington, May 2001), <<http://www.va.gov/pressrel/amwars01.htm>>, which gives slightly different totals but offers no figures at all on the Confederate side in the Civil War.
 27. See, in particular, Robert Higgs, "The Cold War: Too Good a Deal to Give Up," *Intervention Magazine Online*, March 2002; and Robert Higgs, "The Cold War Is Over, but U.S. Preparation for It Continues," *Independent Review* 6:2 (Fall 2001). The totals used here are based on the purchasing power of 2002 dollars. For actual amounts in billions of 1996 dollars, compare Martin Calhoun, Senior Research Analyst, Center for Defense Information, *U.S. Military Spending, 1945–1996*, <<http://www.cdi.org/issues/milspend.html>>. Calhoun places military spending for 1950 at \$133.0 billion; for 1953 at \$437.0 billion; for 1968 at \$388.9 billion; and for 1989 at \$376.2 billion.
 28. Peter Pae, "Southland Defense Industry Quietly Heeds War's Drumbeat," *Los Angeles Times*, September 27, 2002. Also see Patrick Lloyd

- Hatcher, *Economic Earthquakes: Converting Defense Cuts to Economic Opportunities* (Berkeley: Institute of Governmental Studies, University of California, 1994).
29. Jonathan Reingold, "Attack of the Pork Barrel Posse," *AlterNet*, April 23, 2002. Also see Julian E. Barnes, Peter Cary, and Christopher H. Schmitt, "Special Investigative Report: War Profiteering," *U.S. News & World Report*, May 13, 2002, pp. 20–34; Gopal Ratnam and Gail Kaufman, "A New Way to Pay for Weapons? Boeing, U.S. Air Force Eye Third-Party Financing for B-52 Work," *DefenseNews.com*, March 31, 2003; Michelle Ciarrocca, "Boeing: 'Forever New Frontiers' or 'The Purse Is Now Open,'" Arms Trade Resource Center, April 4, 2003; and Leslie Wayne, "Creative Deal or Highflying Pork?" *New York Times*, April 20, 2003.
 30. Kelly Patricia O'Meara, "Rumsfeld Inherits Financial Mess," *Insight-Mag.com*, August 2001.
 31. See John Dower, *War without Mercy* (New York: Pantheon, 1987); and Sheila K. Johnson, *The Japanese through American Eyes* (Stanford: Stanford University Press, 1991).
 32. William Manchester, "The Bloodiest Battle of All," *New York Times Magazine*, June 14, 1987.
 33. See William Rivers Pitt, "Think the Days of the Draft Are Gone? Think Again," *Truthout/Perspective*, September 11, 2002, <http://www.truthout.com/docs_02/09.12A.wrp.draft.htm>.
 34. See Tom Engelhardt, *The End of Victory Culture: Cold War America and the Disillusioning of a Generation* (New York: Basic Books, 1995), particularly part 3: "The Era of Reversals (1962–1975)."
 35. Christian G. Appy, *Working-Class War: American Combat Soldiers and Vietnam* (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1993), p. 5.
 36. Vagts, *History of Militarism*, p. 463.
 37. See, e.g., Walter V. Robinson, "One-Year Gap in Bush's National Guard Duty," *Boston Globe*, May 23, 2000; Wayne Slater, "Records of Bush's Alabama Military Duty Can't Be Found," *Dallas Morning News*, June 26, 2000; "G. W. Bush Went AWOL," *New Republic*, November 13, 2000; Richard Sisk, "General Raps Plans for Invasion," *New York Daily News*, August 27, 2002; James Bamford, "Untested Administration

- Hawks Clamor for War," *USA Today*, September 17, 2002; Eric Margolis, "Bush Looks for Buddies in Bad Times," *Toronto Sun*, September 29, 2002; George Johnson, "The Chicken Hawks' War," *TomPaine.com*, November 14, 2002; and Linda McQuaig, "What Did Dubya Do in the War, Daddy?" *Toronto Star*, November 17, 2002.
38. H. R. McMaster, *Derelection of Duty: Lyndon Johnson, Robert McNamara, the Joint Chiefs of Staff, and the Lies That Led to Vietnam* (New York: Harper Perennial, 1997), p. 329.
 39. See Frances Fitzgerald, *Way Out There in the Blue: Reagan, Star Wars, and the End of the Cold War* (New York: Touchstone, 2000).
 40. See Chalmers Johnson, "In Search of a New Cold War," *Bulletin of the Atomic Scientists*, September/October 1999, pp. 44–51; and editorial, "China Viewed Narrowly," *New York Times*, June 10, 2001.
 41. Kurt M. Campbell, "China Watchers Fighting a Turf War of Their Own," *New York Times*, May 20, 2000. The *Times* failed to identify Campbell as a former member of the Pentagon establishment.
 42. "Pentagon Lines Up Industry Chiefs for Top Jobs," *Newsday*, June 1, 2001.
 43. Richard Gardner, "Foreign Policy on the Cheap," *Financial Times*, June 8, 2001.
 44. *Newsweek*, June 25, 2001.
 45. Ronald Steel, *Pax Americana* (New York: Viking, 1967), pp. 17–18.

3: TOWARD THE NEW ROME

1. Andrew J. Bacevich, "Different Drummers, Same Drum," *National Interest*, Summer 2001, pp. 74–75.
2. Quoted by Matthew Engel, "Iraqmania Grips the U.S.," *Guardian*, December 5, 2001.
3. Charles Krauthammer, "The Bush Doctrine," *Time*, March 5, 2001. Also see Max Boot, "The Case for American Empire," *Weekly Standard*, October 15, 2001; Richard Gwyn, "Imperial Rome Lives in the U.S.," *Toronto Star*, December 9, 2001.
4. Robert D. Kaplan, "Supremacy By Stealth," *Atlantic Monthly*, July/August 2003, pp. 67–83.

5. See Walter Russell Mead, *Special Providence: American Foreign Policy and How It Changed the World* (New York: Knopf, 2001). Cf. Christopher Layne, "Masters of the Universe," *Washington Post*, December 23, 2001.
6. National Security Archive, "State Historians Conclude U.S. Passed Names of Communists to Indonesian Army, Which Killed at Least 105,000 in 1965–66," July 27, 2001, <<http://www.gwu.edu/~nsarchiv/NSAEBB/NSAEBB52/>>; BBC News, "U.S. Blocks Indonesia History Revelations," July 28, 2001; George Lardner Jr., "Papers Show U.S. Role in Indonesian Purge," *Washington Post*, July 28, 2001; Isabel Hilton, "Our Bloody Coup in Indonesia," *Guardian*, August 1, 2001; and Jaechun Kim, "U.S. Covert Action in Indonesia in the 1960s," *Journal of International and Area Studies* 9:2 (December 2002), pp. 63–85.
7. See Thomas Blanton, "When Did the Cold War End?" and attached documents, in Cold War International History Project, Woodrow Wilson International Center for Scholars, *Bulletin*, no. 10 (March 1998), pp. 184–91.
8. Quoted by Emily Eakin, "'It Takes an Empire,' Say Several U.S. Thinkers," *New York Times*, April 2, 2002.
9. A good analysis of the backgrounds of the neocon defense intellectuals is Michael Lind, "How Neoconservatives Conquered Washington—and Launched a War," *New Statesman*, April 7, 2003, <<http://www.antiwar.com/orig/lind1.html>>. Also see Philip Gold, "There Are Some Unflattering Truths to 'Neocons,'" *Seattle Post-Intelligencer*, May 11, 2003.
10. Paul Kennedy, "The Perils of Empire," *Washington Post*, April 20, 2003.
11. See, e.g., Lewis H. Lapham, "The American Rome: On the Theory of Virtuous Empire," *Harper's*, August 2001, pp. 31–38; Richard Gwyn, "Imperial Rome Lives in the U.S.," *Toronto Star*, December 9, 2001; David Chandler, "Imperialism May Be Out, but Aggressive Wars and Colonial Protectorates Are Back," *Observer*, April 14, 2002; Samuel Brittan, "Liberal Imperialism Is a Dangerous Temptation," *Financial Times*, April 11, 2002; "Building 'Empire' Shouldn't Be Goal," *Jacksonville Daily News*, October 15, 2001; Mark Weisbrot, "Should We

- Police World?" *Philadelphia Inquirer*, April 13, 2001; William Pfaff, "America's Imperial Instinct," *International Herald Tribune*, April 8, 2002; John Pilger, "Behind the Jargon about Failed States and Humanitarian Interventions Lie Thousands of Dead," November 23, 2001, <<http://pilger.carlton.com/print/88462>>; and Hugo Young, "A New Imperialism Cooked Up over a Texan Barbecue," *Guardian*, April 2, 2002.
12. Sebastian Mallaby, "The Reluctant Imperialist: Terrorism, Failed States, and the Case for American Empire," *Foreign Affairs* 81:2 (March/April 2002), pp. 2–7.
 13. See the Report of the International Commission on Intervention and State Sovereignty, *The Responsibility to Protect* (Ottawa: International Development Research Centre, 2001). Also see Ernst B. Haas, *Beware the Slippery Slope: Notes toward the Definition of Justifiable Intervention*, Policy Papers in International Affairs no. 42 (Berkeley: Institute of International Studies, University of California, 1993); Stanley Hoffmann, *The Ethics and Politics of Humanitarian Intervention* (Notre Dame: University of Notre Dame Press, 1996); and Samantha Power, *A Problem from Hell: America and the Age of Genocide* (New York: Basic Books, 2002).
 14. "U.S. Said Violating International Treaties," Reuters, Washington, April 4, 2002.
 15. David Moberg, "Courting Disaster," *In These Times*, June 10, 2002.
 16. Carola Hoyos, "Milosevic War Crimes Trial Threatened by U.S. Demand," *Financial Times*, June 12, 2002. See also David Teather, "U.S. Threat to Wreck Treaty System," *Guardian*, May 6, 2002; Neal A. Lewis, "U.S. to Renounce Its Role in Pact for World Tribunal," *New York Times*, May 5, 2002; and Lewis, "U.S. Rejects All Support for New Court on Atrocities," *New York Times*, May 7, 2002.
 17. The legislation is H.R. 4775, 107th Cong., 2nd sess.: "A bill making supplemental appropriations for further recovery from and response to terrorist attacks on the United States for the fiscal year ending September 30, 2002, and for other purposes." Also see Expatica News, The Hague, "U.S. Invasion Proposal Shocks MPs," June 10, 2002, <<http://www.expatica.com/block.gif>>; "Dutch Citizens Up in Arms

over U.S. Congressional Act That Would Protect U.S. Officials or Service Personnel from War Crimes Convictions in The Hague,” National Public Radio, *Morning Edition*, June 14, 2002.

18. Elizabeth Becker, “On World Court, U.S. Focus Shifts to Shielding Officials,” *New York Times*, September 7, 2002; “U.S. Fears Prosecution of President in World Court,” Reuters, November 15, 2002.
19. See, e.g., Conn Hallinan, “America’s War Criminals,” *San Francisco Examiner*, July 10, 2001; Marcus Gee, “Is Henry Kissinger a War Criminal?” *Toronto Globe & Mail*, June 11, 2002.
20. William Burr and Michael L. Evans, eds., “East Timor Revisited: Ford, Kissinger, and the Indonesian Invasion, 1975–1976,” National Security Archive, December 6, 2001, <<http://www.gwu.edu/~nsarchiv/NSAEBB/NSAEBB62/>>. Also see Agence France-Presse, “U.S. Endorsed Indonesia’s East Timor Invasion: Secret Documents,” December 7, 2001; Jim Wolf, Reuters, “U.S. Agreed to Indonesia’s Invasion of E. Timor, Documents Reveal,” *San Diego Union-Tribune*, December 20, 2001.
21. See, e.g., Jim Mann, “Unilateralism Dead? That’s a Myth Perception,” *Los Angeles Times*, October 24, 2001; and Michael Byers, “The World according to Cheney, Rice, and Rumsfeld,” *London Review of Books*, February 21, 2002.
22. Nicholas Watt, Richard Norton-Taylor, and Oliver Burkeman, “Camp X-Ray Row Threatens First British Split with U.S.,” *Guardian*, January 21, 2002; Caroline Daniel, “Legitimacy of U.S. Detentions Challenged,” *Financial Times*, December 3, 2002; Neil A. Lewis, “Guantánamo Prisoners Ask for Rights,” *New York Times*, December 3, 2002; Jane Sutton, “A Year Later, Guantánamo Prisoners Still in Limbo,” Reuters, January 10, 2003.
23. William D. Hartung, “Making the World Safe for Nuclear Weapons,” May 14, 2002, <www.CommonDreams.org>; Richard Butler, “Nuclear Testing and National Honor,” *New York Times*, July 13, 2001; and Rebeca E. Johnson, “Who’s for a Nuclear Free-For-All?” *Disarmament Diplomacy*, no. 58 (June 2001).
24. *International Herald Tribune*, July 14, 2001.

25. Michael J. Glennon, "How War Left the Law Behind," *New York Times*, November 21, 2002.
26. "America as Sparta," *Boston Globe Online*, March 12, 2002.
27. Alan W. Bock, "War and Peace and Liberty," *Orange County Register*, September 16, 2002.
28. Edward Alden, "A Spaceman in the Pentagon," *Financial Times*, August 25–26, 2001; and James Dao, "A Low-Key Space Buff," *New York Times*, August 25, 2001.
29. See Seumas Milne, "The Innocent Dead in a Coward's War," *Guardian*, December 20, 2001; Roberto J. Gonzales, "Ignorance of Casualties Isn't Bliss," *San Diego Union-Tribune*, January 4, 2002; Fairness and Accuracy in Reporting, "NYT Buries Story of Airstrikes on Afghan Civilians," January 9, 2002, <<http://www.fair.org/activism/nyt-niazi-kala.html>>; and Marc Herold, "Counting the Dead," *Guardian*, August 8, 2002. Also see Herold's Web sites for the raw data and further analysis: (1) "Dead Afghan Civilians: Disrobing the Non-Counters," <<http://www.cursor.org/stories/noncounters.htm>>; and (2) "Herold's Research," <<http://pubpages.unh.edu/~mwhero1d/>>. The United Nations estimates that American bombing killed about 5,000 civilians directly and that up to 20,000 other Afghans died through the disruption of drought relief and the bombing's other indirect effects. See Jonathan Steele, "Counting the Dead," *Guardian*, January 29, 2003. The leaked U.N. report is available online at <<http://www.casi.org.uk>>.
30. Loring Wirbel, "NRO, Space Command, NASA Tout Common Language of 'Space Supremacy' at Conference," *Global Network against Weapons and Nuclear Power in Space*, April 11, 2002.
31. Ibid.
32. On the so-called fourth generation of warfare, i.e., one dominated by space-based warfare and "asymmetric" threats such as terrorism, see Peter J. Boyer, "A Different War: Is the Army Becoming Irrelevant?" *New Yorker*, July 1, 2002, pp. 54–67.
33. See Joseph Kay, "Bush Administration Renews U.S. Drive to Militarize Space," July 25, 2001, <http://www.wsws.org/articles/2001/jul2001/spac-j25_prn.shtml>; Rob Larson, "Space for Rent: A Free Society

Militarizes Space,” August 23, 2001, <<http://www.independen.com/2001/Aug09.01/profit.html>>; “The Final Frontier: The U.S. Military’s Drive to Dominate Space,” *Colorado Springs Independent*, December 13, 2001, <<http://www.csindy.com/csindy/2001-12-13/cover.html>>; and Theresa Hitchens, “U.S. Space Policy: Time to Stop and Think,” *Disarmament Diplomacy*, no. 67 (October-November 2002). Also relevant are: Carlton Meyer, “Preparing for War in Space,” *G2mil: The Magazine of Future Warfare*, June 2001, <<http://www.g2mil.com/June2001.htm>>; Charles Aldinger, “U.S. Likely to Put Arms in Space—Air Force Chief,” Reuters, August 1, 2001; Hu Xiaoming, “U.S. Will Probably Deploy Weapons in Outer Space,” *People’s Daily* (Beijing), August 3, 2001; Steve Boggin, “Space—The Final Frontier in a New and Terrifying Arms Race,” *Independent* (London), August 8, 2001; Bill McAllister, “AFA Grad May Lead Era of Space Warriors,” *Denver Post*, August 12, 2001; “U.S. Missile Experts Meet to Save the Nation—and Make a Few Bucks,” *Space Daily*, August 26, 2001, <<http://www.spacedaily.com/news/010826123032.51ofx47q.html>>.

34. For details on the British death camps and statistics on the number who died, see Paul Harris, “‘Spin’ on Boer Atrocities,” *Observer*, December 9, 2001. Also see BBC News, “Imperialism in the Dock—The Boer War,” November 10, 1999.
35. Quoted by Kay, “Bush Administration.”
36. See Jason Vest, “The Dubious Genius of Andrew Marshall,” *American Prospect*, February 15, 2001; and Nicholas Lemann, “Dreaming about War,” *New Yorker*, July 16, 2001, pp. 32–38.
37. Nora K. Wallace, “Without Space, We’re Back to World War II,” *Santa Barbara News-Press*, April 23, 2003, <<http://globalsecurity.org/org/news/2003/030423-space-war01.htm>>.
38. Gail Kaufman and Gopal Ratnam, *Space News*, June 13, 2001. For other reports on attempts to cover up the BMD’s failings, see William J. Broad, “Missile Contractor Doctored Tests, Ex-Employee Charges,” *New York Times*, March 7, 2000; Broad, “Pentagon Classifies a Letter Critical of Antimissile Plan,” *New York Times*, May 20, 2000; Broad, “M.I.T. Studies Accusations of Lies and Cover-Up of Serious Flaws in

- Antimissile System," *New York Times*, January 2, 2003; Broad, "U.S. Seeks Dismissal of Suit by Critic of Missile Defense," *New York Times*, February 3, 2003; Arianna Huffington, "Blowing the Whistle on Bad Science," *AlterNet.org*, March 14, 2002; Bradley Graham, "Secrecy on Missile Defense Grows," *Washington Post*, June 12, 2002; and Graham, *Hit to Kill: The New Battle over Shielding America from Missile Attack* (New York: Public Affairs, 2001).
39. Lawrence F. Kaplan, *New Republic*, March 12, 2001. Kaplan is a senior editor at the *New Republic*. He is coauthor with William Kristol of the neoconservative book *The War over Iraq* (San Francisco: Encounter Books, 2003).
 40. Jim Walsh, "The Two Faces of Bush on Defense," *Los Angeles Times*, May 1, 2001.
 41. Bill Keller, "Missile Defense: The Untold Story," *New York Times*, December 29, 2001.
 42. U.S. Department of Defense, *Report of the Commission to Assess the Ballistic Missile Threat to the United States*, July 15, 1998. For implementation of this report, see Donald H. Rumsfeld, *2001 Quadrennial Defense Review*, June 22, 2001, "classified contents removed," p. 13.
 43. Paul Wolfowitz, "Remembering the Future," *National Interest*, Spring 2000, p. 36. For the 1992 background, see David Armstrong, "Dick Cheney's Song of America: Drafting a Plan for Global Dominance," *Harper's*, October 2002, pp. 76–83; and Tom Berry and Jim Lobe, "The Men Who Stole the Show," *Foreign Policy in Focus*, Special Report, October 2002.
 44. Quoted by Quentin Peel, "Face It, The Cold War Is Over," *Financial Times*, August 20, 2001.
 45. See Wen-ho Lee (with Helen Zia), *My Country versus Me* (New York: Hyperion, 2001); and Dan Stober and Ian Hoffman, *A Convenient Spy: Wen-ho Lee and the Politics of Nuclear Espionage* (New York: Simon and Schuster, 2001).
 46. William Arkin and Robert Windrem, "The U.S.-China Information War," August 20, 2001, <<http://www.msnbc.com/news/607031.asp?cp1=1>>.

47. *Asahi Shimbun* (Tokyo), April 25, 2003 (in Japanese).
48. Office of the Deputy Under Secretary of Defense (Installations and Environment), *Base Structure Report (A Summary of DoD's Real Property Inventory)* (Washington: Department of Defense, 2002), s.v. "South Korea."
49. Bruce Cumings, *Korea's Place in the Sun: A Modern History* (New York: Norton, 1997), p. 153. Also see Doug Bandow, *Tripwire: Korea and U.S. Foreign Policy in a Changed World* (Washington, DC: Cato Institute, 1996).
50. Jim Lea, "S. Korean Protesters Hurl Rocks, Eggs at Camp Casey," *Stars & Stripes*, July 21, 2002; K. T. Kim, "Trial of U.S. Soldiers to Open to Media Only," *Korea Times*, November 8, 2002; James Brooke, "First of 2 G.I.'s on Trial in Deaths of 2 Korean Girls Is Acquitted," *New York Times*, November 21, 2002; Don Kirk, "2nd U.S. Sergeant Is Cleared in the Death of 2 Korean Girls," *New York Times*, November 23, 2002; BBC News, "S. Koreans Stage Huge Anti-U.S. Rally," December 14, 2002; Robert Fouser, "Putting Alliance to a 'Democracy Test,'" *Korea Now*, December 14, 2002; Tim Shorrock, "Roh's Election Victory and the Widening Gap between the U.S. and South Korea," *Foreign Policy in Focus*, January 7, 2003; Jaewoo Choo, "Vigils in Korea: U.S. Alliances on Trial," *Asia Times*, January 7, 2003; and Peter S. Goodman and Joohee Cho, "Anti-U.S. Sentiment Deepens in S. Korea," *Washington Post*, January 9, 2003.
51. Barbara Demick, "A Less Intrusive Presence for Troops in South Korea," *Los Angeles Times*, April 2, 2003.
52. Walter Pincus, "CIA Head Predicts Nuclear Race: Small Nations Pursuing Arms," *Washington Post*, February 12, 2003.

4: THE INSTITUTIONS OF AMERICAN MILITARISM

1. Brian Kennedy, "Uncle Sam Wants You to Play This Game," *New York Times*, July 11, 2002; Steve Osunsami, "Simulated Sniping: U.S. Army Recruits Teens with Internet Game," ABC News, October 31, 2002; and Steve Rubenstein, "Military Recruits Motivated by Promises of Perks, Not Patriotism," *San Francisco Chronicle*, December 13, 2002.

2. See the following official Web sites: <www.nhra.com> and <www.goarmy.com>. Also see Chris Grenz, "Dragster an Army of One," *Topeka Capital-Journal*, May 24, 2001; Jeff Wolf, "Army Mixes Recruiting, Racing," *Las Vegas Review-Journal*, April 8, 2002. For a photograph of "The Sarge," see *Popular Mechanics*, 2002, <http://popularmechanics.com/automotive/motor_sports/2002/2/go_army/index.p-html>.
3. David Wood, "Shaky Economy Alters Equations of Risk in Today's Military," *San Diego Union-Tribune*, April 27, 2003.
4. Doug Rokke, "Gulf War Casualties," September 30, 2002, <<http://www.traprockpeace.org>>; Karsten Strauss, "When the Dust Settles," ABC News, May 5, 2003; Scott Peterson, "A Rare Visit to Iraq's Radioactive Battlefield," *Christian Science Monitor*, April 29, 1999; and Peterson, "Remains of Toxic Bullets Litter Iraq," *Christian Science Monitor*, May 15, 2003.
5. Susanna Hecht, "Uranium Warheads May Leave Both Sides a Legacy of Death for Decades," *Los Angeles Times*, March 30, 2003; Neil Mackay, "U.S. Forces' Use of Depleted Uranium Is 'Illegal,'" *Glasgow Sunday Herald*, March 30, 2003; Steven Rosenfeld, "Gulf War Syndrome, the Sequel," *TomPaine.com*, April 8, 2003; "UK to Aid DU Removal," BBC News, April 23, 2003; Frances Williams, "Clean-Up of Pollution Urged to Reduce Health Risks," and Vanessa Houlder, "Allied Troops Risk Uranium Exposure," *Financial Times*, April 25, 2003; Jonathan Duffy, "Iraq's Cancer Children Overlooked in War," BBC News, April 29, 2003.
6. Office of the Assistant Secretary of Defense for Force Management Policy, *Population Representation in the Military Services* (Washington: Department of Defense, November 2000), <<http://dticaw.dtic.mil/prhome/poprep99/>>.
7. Leonel Sanchez, "Hispanics Overrepresented in Combat Roles, Report Says," *San Diego Union-Tribune*, March 28, 2003; "Baja Upset at U.S. Army Bid to Recruit in Tijuana," *San Diego Union-Tribune*, May 9, 2003; Mark Stevenson, "U.S. Army Recruiter Crosses Mexico Border," Associated Press, May 9, 2003; "Green Card Marines," *Los Angeles Times*, May 25, 2003.
8. Adam Clymer, "Service Academies Defend Use of Race in Their Admissions Policies," *New York Times*, January 28, 2003.

9. U.S. Department of Defense, "News Transcript: Background Briefing on the All Volunteer Force," January 13, 2003, <http://www.defenselink.mil/news/Jan2003/t01132003_t113bkgd.html>; Earl Ofari Hutchinson, "Echoes of 'Fragging,'" *San Francisco Chronicle*, March 27, 2003; and Kimberly Hefling, "Military Trial Urged in Kuwait Fragging," *Washington Times*, June 21, 2003.
10. Marie Tessier, *Women's ENews*, posted on *AlterNet.org*, April 8, 2003.
11. Michael Janofsky, "Top Air Force Officer, at Academy, Issues Warning," *New York Times*, March 8, 2003.
12. Roland Watson and Glen Owen, "Kitty Hawk Captain Loses Control," *Times Online*, "World News," September 4, 2002.
13. Norman Solomon, "Media Sizzle for an Army of Fun," *Media Monitors*, July 8, 2002, <<http://www.mediamonitors.net/solomon85.html>>.
14. Kevin Heldman, "On the Town with the U.S. Military in Korea," *Z Magazine*, February 1997, <<http://www.zmag.org/zmag/articles/feb97army.html>>.
15. Ibid.
16. Marianne Szegedy-Maszak, "Death at Fort Bragg," *U.S. News & World Report*, August 12, 2002, p. 44.
17. Bill Vann, "The Fort Bragg Murders: A Grim Warning on the Use of the Military," *World Socialist Web Site*, August 2, 2002.
18. Colin Soloway, "I Yelled at Them to Stop," *Newsweek*, October 7, 2002, <<http://www.msnbc.com/news/814576.asp>>; and Dan Plesch, "Failure of the 82nd Airborne," *Guardian*, December 19, 2002. Also see Marc W. Herold, "Vietnam Redux," October 31, 2002, <http://www.cursor.org/stories/vietnam_redux.htm>, where full citations to Afghan incidents are given.
19. Associated Press, "Marine Corps Cancels Annual Sniper Meet," October 23, 2002.
20. John M. Broder, "Arizona Gunman Chose Victims in Advance," *New York Times*, October 30, 2002.
21. Roland Watson and Glen Owen, "Kitty Hawk Captain"; and "Kitty Hawk Captain Dismissed Over Crewmen's Incidents," *Yomiuri Shim-bun* (Tokyo), September 4, 2002.
22. Heldman, "On the Town."

23. Ibid. Also see Associated Press, "Uncle Sam Wants Your Kid," December 3, 2002; and Suzanne Goldenberg, "Parents Furious as Pentagon Slides Recruiting Officers into Classrooms," *Guardian*, December 5, 2002.
24. See "Military Escalates Assault on Civilian Schools," Committee Opposed to Militarism and the Draft, *Draft Notices*, May–July 2001, <www.comdsd.org>; Carl Campanile, "New Law Lets Army Get Info on High School Kids," *New York Post*, July 17, 2002; David Goodman, "No Child Unrecruited: Should the Military Be Given the Names of Every High School Student in America?" *Mother Jones*, November–December 2002; Helen Thomas, "Military Recruitment: An Invasion of Privacy," *TheJacksonChannel.com*, November 18, 2002.
25. George Fisher, "Power over Principle," *New York Times*, September 7, 2002. Also see Rebecca Trounson, "Law Schools Bow to Pentagon on Recruiters," *Los Angeles Times*, October 12, 2002.
26. Lawrence H. Suid, *Guts and Glory: The Making of the American Military Image in Film* (Lexington: University Press of Kentucky, 2002), p. 8.
27. Nancy Bénac, "More Movies with Pentagon Help," Associated Press, May 16, 2001.
28. V. Dion Haynes, "Hollywood Boosts the Military," *Chicago Tribune*, May 27, 2001.
29. Claudia Eller and Richard Natale, "Hit Status Elusive Target for 'Pearl Harbor,'" *Los Angeles Times*, June 17, 2001. Also see Simon Davis, "U.S. Critics Attack 'Pearl Harbor' as Ultimate Hollywood Bilge," *London Telegraph*, May 26, 2001; and Todd McCarthy, "'Pearl Harbor,' a Film That Will Live in Infamy," Reuters, May 25, 2001.
30. Dana Calvo, "Military Using Its Promotional Arms in Theaters," *Los Angeles Times*, October 15, 2002.
31. Rupert Wingfield Hayes, "Doubts Set In on Afghan Mission," BBC News, September 28, 2002. Also see James W. Crawley, "The War News—With No Last Names Allowed," *San Diego Union-Tribune*, October 21, 2001.
32. See Carol Brightman, "U.S. Military Plans the War of Words," *Los Angeles Times*, February 16, 2003; and Ralph Blumenthal and Jim Rutenberg, "Journalists Are Assigned to Accompany U.S. Troops," *New York Times*, February 18, 2003.

33. *Time*, April 16, 2001; *Honolulu Advertiser*, April 16, 2001; as cited by John Kifner, "Despite Sub Inquiry, Navy Still Sees Need for Guests on Ships," *New York Times*, April 23, 2001. Also see Tony Perry, "Sub Skipper Is Forced into Retirement," *Los Angeles Times*, April 24, 2001.
34. Tony Perry, "Morale Likely a Factor in Decision on Sub Crew," *Los Angeles Times*, April 4, 2001.
35. Phil Patton, "Exposing the Black Budget," *Wired*, November 1995, <http://www.wired.com/wired/archive/3.11/patton_pr.html>.
36. George Caldwell, "U.S. Defense Budgets and Military Spending," Library of Congress, March 1992, <<http://www.loc.gov/rr/news/militaryspending.html>>; Bill Sweetman, "In Search of the Pentagon's Billion Dollar Hidden Budgets," <<http://www.geocities.com/Athens/Crete/2546/black.html>>; and Dan Morgan, "Classified Spending on the Rise; Report: Defense to Get \$23.2 Billion," *Washington Post*, August 27, 2003.
37. Sweetman, "In Search."
38. *Ibid.*
39. John Kelly, Chris Kridler, and Kelly Young, "Billion Dollar Question: Where Has All the Air Force's EELV Money Gone?" *Florida Today*, August 25, 2002.
40. Robert Windrem, NBC News, "Military Role Grows on Home Front," April 18, 2001, <www.msnbc.com/news/546844.asp?Osp=n5b5z1>. Also see editorial, "Domestic Law Enforcement Is Not a Job for the Military," *Atlanta Journal-Constitution*, July 19, 2002.
41. See, in particular, Alan W. Bock, *Ambush at Ruby Ridge: How Government Agents Set Randy Weaver Up and Took His Family Down* (Irvine, Calif.: Dickens Press, 1995).
42. *Boston Globe* and Associated Press, "New Command Being Set Up to Defend North America," *San Diego Union-Tribune*, April 18, 2002; Eric Schmitt, "General Backs More Policing Power for Military," *San Diego Union-Tribune*, July 21, 2002; David Johnston et al., "Administration Begins to Rewrite Decades-Old Spying Restrictions," *New York Times*, November 30, 2002; Robert Dreyfuss, "Bringing the War Home," *Nation*, May 26, 2003.

43. U.S. Department of Defense, "Homeland Security," *Defense Link*, February 6, 2003, <<http://www.defenselink.mil/specials/homeland/>>.
44. "Defense Takeover," *Financial Times*, April 8, 2002.
45. Eric Lichtblau and James Risen, "Broad Domestic Role Asked for CIA and the Pentagon," *New York Times*, May 2, 2003.
46. Jeanette Steele, "Corps' War with Law: Marines Say Protection of Species Hurts Combat Training," *San Diego Union-Tribune*, September 26, 2002; and Esther Schrader, "Defense Seeking Greater Latitude," *Los Angeles Times*, July 15, 2002. Also see Katharine Q. Seelye, "Defense Dept. Forum Focuses on Environment," *New York Times*, February 6, 2003; Jennifer Lee, "Military Seeks Exemptions on Harming Environment," *New York Times*, March 6, 2003; Andrew Gumbel, "Pentagon Seeks Freedom to Pollute Land, Air and Sea," *Independent*, March 13, 2003.
47. Charlie A. Beckwith, *Delta Force* (New York: Dell Books, 1985), p. 268.
48. Stratfor Global Intelligence Update, "Foreign Policy and the U.S. Military," July 9, 2001 <http://www.worldnetdaily.com/news/article.asp?ARTICLE_ID=23554>.
49. Dana Priest, "A Four-Star Foreign Policy: U.S. Commanders Wield Rising Clout, Autonomy," *Washington Post*, September 28, 2000. Also see Dana Priest, *The Mission: Waging War and Keeping Peace with America's Military* (New York: Norton, 2003).
50. Dana Priest, "Standing Up to State and Congress," *Washington Post*, September 30, 2000; Karen DeYoung, "Powell Says U.S. to Resume Training Indonesia's Forces: Terrorism Fears Overtake Concerns about Army Abuses," *Washington Post*, August 3, 2002.
51. Daniel Siegel and Joy Hackel, "El Salvador: Counterinsurgency Revisited," in Michael T. Klare and Peter Kornbluh, eds., *Low-Intensity Warfare* (New York: Pantheon, 1988), pp. 112–35. Also see Cynthia J. Arnson, "Window on the Past: A Declassified History of Death Squads in El Salvador," in Bruce B. Campbell and Arthur D. Brenner, eds., *Death Squads in Global Perspective: Murder with Deniability* (New York: St. Martin's Press, 2000), pp. 85–124.
52. Priest, "Standing Up."
53. Eric Schmitt and Thom Shanker, "Pentagon Sets Up Intelligence Unit," *New York Times*, October 24, 2002.

54. Canadian Broadcasting Corp., "Experts Doubt Iraq, al-Qaeda Terror Link," November 1, 2002.
55. Linda Robinson, "Moves That Matter: In the Intelligence Wars, a Pre-emptive Strike by the Pentagon Surprises Many in Congress," *U.S. News & World Report*, August 12, 2002, p. 18. Also see Leona C. Bull, "Rivalry between Defense Department, CIA Reportedly Growing," *Journal of Aerospace and Defense Industry News*, November 1, 2002, p. A6; Pat M. Holt, "U.S. Intelligence: Seeing What It Wants to See in Iraq," *Christian Science Monitor*, November 7, 2002; Robert Dreyfuss, "The Pentagon Muzzles the CIA," *American Prospect* 13:22 (December 16, 2002); and Eric Schmitt, "Pentagon Draws Up a 20-to-30-Year Antiterror Plan," *New York Times*, January 17, 2003.
56. Robert Schlesinger, "Expanding Role of Defense Department Spurs Concerns; Some Say Officials Overstep Bounds, Limit other Agencies," *Boston Globe*, June 8, 2003; Schmitt and Shanker, "Pentagon Sets Up Intelligence Unit."
57. Greg Miller, "Wider Pentagon Spy Role Is Urged," *Los Angeles Times*, October 26, 2002.
58. Patrick Martin, "Billions for War and Repression: Bush Budget for a Garrison State," *World Socialist Web Site*, February 6, 2002.
59. Tim Weiner, *Blank Check* (New York: Warner Books, 1990), p. 178.
60. Ibid., pp. 172–98; and Stephen D. Goose, "Low-Intensity Warfare: The Warriors and Their Weapons," in Klare and Kornbluh, *Low-Intensity Warfare*, p. 87.
61. Martin, "Billions for War"; and Rowan Scarborough, "Commandos Resist Loss of Purchasing Authority," *Washington Times*, October 17, 2002.
62. Tom Bowman, "Special Forces' Role May Expand," *Baltimore Sun*, August 3, 2002; Pamela Hess, "Panel Wants \$7 Billion Elite Counter-Terror Units," *United Press International*, September 26, 2002; and William M. Arkin, "The Secret War: Frustrated by Intelligence Failures, the Defense Department Is Dramatically Expanding Its 'Black World' of Covert Operations," *Los Angeles Times*, October 27, 2002.
63. *New York Times*, op-ed, August 21, 2002.

64. Greg Miller, "Military Wants Its Own Spies," *Los Angeles Times*, March 4, 2003.

5: SURROGATE SOLDIERS AND PRIVATE MERCENARIES

1. See A. J. Langguth, *Our Vietnam: The War, 1954–1975* (New York: Simon and Schuster, 2000), pp. 184–85. Peter Schweizer, a research fellow at the right-wing think tank, the Hoover Institution, located on the campus of Stanford University, advocates that the United States solve its military manpower needs by creating an American version of the French foreign legion. See his "All They Can Be, except American," *New York Times*, February 18, 2003.
2. See Tamar Gabelnick, "Security Assistance after September 11," *Foreign Policy in Focus* 7:4 (May 2002); and North American Congress on Latin America, "15,000 Latin Americans Trained by the U.S. Military Last Year," June 27, 2002, <<http://www.nacla.org/bodies/body29.php>>.
3. Lora Lumpe, "U.S. Foreign Military Training: Global Reach, Global Power, and Oversight Issues," *Foreign Policy in Focus*, Special Report, May 2002.
4. See, for example, reports of the U.S. Special Forces attack of January 24, 2002, on the Afghan village of Uruzgan. After killing at least nineteen villagers, the Americans, wearing masks, took twenty-seven men prisoner. They bound and tortured them for several days and then shot some of the bound prisoners in the back. It turned out that none of them were members of the Taliban or al-Qaeda. One officer said, "We are sorry. We committed a mistake bombing this place." The CIA distributed reparations money to the families of those killed (Molly Moore, "Villagers Released by American Troops Say They Were Beaten, Kept in 'Cage,'" *Washington Post*, February 11, 2002).
5. Quoted in Victoria Garcia, "U.S. Foreign Military Training: A Shift in Focus," Center for Defense Information, "Terrorism Project," April 8, 2002.
6. On the roles of the CIA and the Pentagon in the overthrow of democracy

- in Brazil and the fostering of military takeovers in Uruguay, Chile, and Argentina, see A. J. Langguth, *Hidden Terrors* (New York: Pantheon, 1978).
7. Alfred W. McCoy, *The Politics of Heroin: CIA Complicity in the Global Drug Trade* (Chicago: Lawrence Hill Books, 1991), p. 306.
 8. Linda Robinson, "America's Secret Armies: A Swarm of Private Contractors Bedevils the U.S. Military," *U.S. News & World Report*, November 4, 2002; James Gerstenzang, "Vinnell Corp., Targeted in Riyadh Before, Loses 9 More Workers," *Los Angeles Times*, May 14, 2003.
 9. Dana Priest, "U.S. Instructed Latins on Executions, Torture," *Washington Post*, September 21, 1996. Also see Raymond Ker, "CIA and School of the Americas," *MediaMonitors*, November 26, 2001, <<http://www.mediamonitors.net/raymondker3.html>>.
 10. The Athenaeum, "The Sepoy Mutiny—India, 1857," <<http://www.lexicorps.com/sepoy.htm>>.
 11. George Crile, *Charlie Wilson's War: The Extraordinary Story of the Largest Covert Operation in History—the Arming of the Mujahideen* (New York: Atlantic Monthly Press, 2003).
 12. See International Consortium of Investigative Journalists, "Making a Killing: The Business of War," October 28, 2002, a segment of a Center for Public Integrity eleven-part series, <<http://www.public-i.org>>; Deborah Avant, "Private Military Companies Part of U.S. Global Reach," *Progressive Response* 6:17 (June 7, 2002); Robinson, "America's Secret Armies"; Esther Schrader, "U.S. Companies Hired to Train Foreign Armies," *Los Angeles Times*, April 14, 2002; James Dao, "U.S. Company to Take Over Karzai Safety," *New York Times*, September 19, 2002; Leslie Wayne, "America's For-Profit Secret Army," *New York Times*, October 13, 2002; David Isenberg, "Security for Sale in Afghanistan," *Asia Times*, January 6, 2003; and Isenberg, "There's No Business like Security Business," *Asia Times*, April 30, 2003.
 13. Quoted in Lumpe, "U.S. Foreign Military Training."
 14. Robinson, "America's Secret Armies"; and John J. Lumpkin, "Spy Plane Too Costly for Operations," Associated Press, August 28, 2002.
 15. Halliburton Company Web Site, "Halliburton Awarded Services Con-

- tract to Support Troops in Balkans," February 18, 1999, <<http://www.freerepublic.com/forum/a371d59862125.htm>>.
16. Kathleen Hennessey, "A Contract to Spend," *Mother Jones*, May 23, 2002; "The Biggest Camp There Is: Houses Being Built for 5,000 Personnel at Camp Bondsteel," September 27, 1999, <<http://www.freerepublic.com/forum/a38deddd77282.htm>>; Global Security Organization, "Camp Bondsteel," <www.globalsecurity.org/military/facility/camp-bondsteel.htm>. Also see Ivana Avramovic, "Civilians Take Over Security at Bosnia's Task Force Eagle Base Camps," *Stars & Stripes*, August 17, 2002.
 17. Robert Bryce, "The Candidate from Brown & Root," *Austin Chronicle*, August 28, 2000.
 18. Lee Drutman and Charlie Gray, "Cheney, Halliburton and the Spoils of War," *Citizen Works*, April 4, 2003, <<http://www.corpwatch.org/issues/PID.jsp?articleid=6288>>.
 19. See, inter alia, Robert Caro, *LBJ: Master of the Senate* (New York: Knopf, 2002); Knut Royce and Nathaniel Heller, "Cheney Led Haliburton to Feast at Federal Trough," Investigative Report, Center for Public Integrity, <http://www.public-i.org/story_01_080200_txt.htm>; Martin A. Lee, "Reality Bites," *San Francisco Bay Guardian*, November 13, 2000; Jeff Gerth and Don Van Natta Jr., "In Tough Times, a Company Finds Profits in Terror War," *New York Times*, July 13, 2002; Frank Rich, "The Road to Perdition," *New York Times*, July 20, 2002; and Molly Ivins, "Dirtied by Iraqi Oil," *Creators Syndicate*, September 5, 2002.
 20. Paul Stuart, "Camp Bondsteel and America's Plans to Control Caspian Oil," *World Socialist Web Site*, April 29, 2002.
 21. James K. Galbraith, "The Unbearable Costs of Empire," *American Prospect* 13:21 (November 18, 2002).
 22. Tech. Sgt. Theresa McCullough, "U.S. Tankers Deploy to Bulgaria," *Air Force Link*, November 21, 2001; Ian Traynor, "Payback Time for America's Allies as GIs Set Up Camp in the New Europe," *Guardian*, March 4, 2003; Doug Sanders, "Ex-Enemy Helping U.S. Fight in Iraq," *Globe and Mail*, March 20, 2003; Global Security Organization, "Burgas

Airport," <<http://www.globalsecurity.org/military/facility/bugas-ap.htm>>.

23. Global Security Organization, "Camp Doha," <<http://www.globalsecurity.org/military/facility/camp-doha.htm>>.
24. "Top 200 Contractors 2000," *Government Executive Magazine*, August 1, 2000.
25. Global Security Organization, "Camp Doha."
26. Patrick E. Tyler, "Two U.S. Computer Workers Are Shot, One Fatally, Near Army Base in Kuwait," *New York Times*, January 22, 2003; Craig D. Rose and Penni Crabtree, "Tapestry Solutions Is a Software Supplier," *San Diego Union-Tribune*, January 22, 2003; Kenneth Brede-meier, "Thousands of Private Contractors Support U.S. Forces in Persian Gulf," *Washington Post*, March 3, 2003.

6: THE EMPIRE OF BASES

1. Center for Defense Information, "The Global Network of United States Military Bases," *Defense Monitor* 18:2 (1989).
2. U.S. Senate Subcommittee on Security Agreements and Commitments Abroad, Committee on Foreign Relations, December 21, 1970; quoted in *Monthly Review* 53:10 (March 2002).
3. Office of the Deputy Undersecretary of Defense (Installations and Environment), *Base Structure Report (A Summary of DoD's Real Property Inventory)* (Washington: Department of Defense, 2002); and U.S. Department of Defense, Washington Headquarters Services, Directorate for Information, Operations, and Reports, *Worldwide Manpower Distribution by Geographical Area*, September 30, 2001, <<http://web1.whs.osd.mil/DIORCAT.HTM#M05>>. The best unofficial sources on the American empire of bases are William R. Evinger, ed., *Directory of U.S. Military Bases Worldwide*, 3rd ed. (Phoenix: Oryx Press, 1998); and the database of the Global Security Organization, <www.globalsecurity.org>.
4. Charles Glass, "Diary," *London Review of Books*, February 21, 2002, p. 37.
5. William M. Arkin, "The Underground Military; Israel: Capital of

- Classified Bases,” *Washington Post*, May 7, 2001. Also see Agence France-Presse, “U.S. May Use Israeli Army Bases against Iraq,” September 9, 2002.
6. Michael Moran, “G. I. Joe as Big Brother,” MSNBC, April 6, 2001, <<http://www.msnbc.com/news/546845.asp?Osp=n5b4b4>>.
 7. Statement for the Record of Lt. Gen. Michael V. Hayden, USAF, Director, National Security Agency, and Chief, Central Security Service, before the Joint Inquiry of the Senate Select Committee on Intelligence and the House Permanent Select Committee on Intelligence, October 17, 2002. On Intelsat, see Renae Merle, “U.S. Probes Military Use of Commercial Satellites,” *Washington Post*, December 6, 2002.
 8. The main sources are Patrick S. Poole, *Echelon: America’s Secret Global Surveillance Network*, <<http://fly.hiwaay.net/~pspoole/echelon.html>>; Duncan Campbell, *Development of Surveillance Technology and Risk of Abuse of Economic Information*, Working Document for the Scientific and Technical Options Assessment (STOA) Program of the European Parliament (Luxemburg: European Parliament, October 1999); Niall McKay, “Lawmakers Raise Questions about International Spy Network,” *New York Times*, May 27, 1999; Associated Press, “U.S.-Led Spy Net in Japan,” *Washington Post*, June 27, 2001; Duncan Campbell, Richard Norton-Taylor, David Pallister, and Jamie Wilson, “The Lessons for the U.S.: Money Can’t Buy Safety from Terrorism,” *Guardian*, September 15, 2001; Tatsushi Doi, “In-depth Study of Echelon,” *Sankei Shimbun* (Tokyo), May 16, 2001; Doi, “Intelligence Activities in Taiwan,” *Sankei Shimbun*, May 30, 2001; Hiroaki Horiuchi, “Echelon Has Been Intercepting Japanese Diplomatic Telegrams since 1981,” *Mainichi Shimbun* (Tokyo), June 27, 2001; and “Echelon,” *Tokyo Shimbun*, August 26, 2001. (The last four articles are in Japanese.)
 9. Joseph Gerson and Bruce Birchard, eds., *The Sun Never Sets: Confronting the Network of Foreign U.S. Military Bases* (Boston: South End Press, 1991), p. 16; Public Radio News Services, Melbourne, Australia, Transcript, “The CIA in Australia, Part 3,” October-November 1986, <http://serendipity.magnet.ch/cia/cia_oz/cia_oz3.htm>; and Andrew Clark, “Kerr Briefed on CIA Threat to Whitlam,” *Sunday Age*, October 15, 2000, <<http://www.ozpeace.net/pinegap/kerrsbriefing.htm>>.

10. "Spy Agency Taps into Undersea Cable," *Wall Street Journal Online*, May 22, 2001. The USS *Jimmy Carter* is scheduled to go into service tapping underseas optical fiber cables in 2004.
11. Campbell, *Development of Surveillance Technology*, pp. 48–50; Evinger, *Directory of U.S. Military Bases Worldwide*; and Vernon Loeb, "Espionage Demands Prod Navy on Sub Construction," *Washington Post*, July 5, 2002.
12. Mark Thomas, "If the French Had Asked for Military Bases in Britain, We'd Be Torching Citroens and Picketing Patisseries," *New Statesman*, April 9, 2001; and Diana Johnstone and Ben Cramer, "The Burdens and the Glory: U.S. Bases in Europe," in Gerson and Birchard, *The Sun Never Sets*, p. 210.
13. Gerson and Birchard, eds., *The Sun Never Sets*, p. 16. In January 2003, the British defense secretary made the decision, without a vote of Parliament, to allow the United States to upgrade and use its secret base at Fylingdales in northern Yorkshire as part of its proposed missile defense network (Associated Press, *New York Times*, January 16, 2003).
14. Evinger, *Directory of U.S. Military Bases Worldwide*, p. 291.
15. Richard Norton-Taylor, "Embarrassed U.S. Blocks Case against Peace Fighter," *Guardian*, June 29, 2002.
16. Poole, *Echelon*, p. 13; Interview with James Bamford, author of *Body of Secrets*, in *WorldNetDaily*, June 24, 2001, <http://www.worldnetdaily.com/news/article.asp?ARTICLE_ID=23342>; and CBS News, *60 Minutes*, "Ex-Snoop Confirms Echelon Network," New York, February 27, 2000 (transcript posted March 1, 2000).
17. See Yorkshire Campaign for Nuclear Disarmament, "Menwith Hill, Commercial Espionage," <<http://cndyorks.gn.apc.org/mhs/index.htm>>. Also see Jeffrey Richelson, "Desperately Seeking Signals," *Bulletin of the Atomic Scientists* 56:2 (March-April 2000), pp. 47–51; American Civil Liberties Union's special Web site <www.echelonwatch.org>; Stuart Miller, Richard Norton-Taylor, and Ian Black, "Worldwide Spying Network Is Revealed," *Guardian*, May 26, 2001; Rupert Goodwins, "Echelon: How It Works," *ZDNet UK*, <<http://news.zdnet.co.uk/story/0,,t269-s2079849,00.html>>; and ZDNet's "Echelon Bibliography," <<http://www.zdnet.co.uk/news/specials/2000/06/echelon/>>.

18. For the simplest explanation of one-time pads, see Francis Litterio, "Why Are One-Time Pads Perfectly Secure?" <<http://world.std.com/~franl/crypto/one-time-pad.html>>.
19. 60 Minutes, "Ex-Snoop Confirms Echelon Network."
20. Derrick Z. Jackson, "A Nation Changed—and Unchanged," *Boston Globe*, September 11, 2002; Dara Colwell, "The SUV-Terrorism Connection," *AlterNet.org*, October 15, 2001; Terry Golway, "Time to Junk Gas-Guzzling SUV's," *New York Observer*, November 12, 2001, p. 5; Ian Roberts, "Car Wars," *Guardian*, January 18, 2003; Jeff Plungis, "SUV Tax Break May Reach \$75,000," *Detroit News*, January 20, 2003; and Keith Bradsher, *High and Mighty: SUV's—The World's Most Dangerous Vehicles and How They Got That Way* (New York: Public Affairs, 2002).
21. Federation of American Scientists, "Smedley Butler on Interventionism," <<http://www.fas.org/man/smedley.htm>>; and Hans Schmidt, *Maverick Marine: Gen. Smedley D. Butler and the Contradictions of American Military History* (Lexington: University Press of Kentucky, 1987), p. 2 et passim.
22. Energy Information Administration, U.S. Department of Energy, *Caspian Sea Region: Reserves and Pipelines Tables*, June 2002. Also see Dale Allen Pfeiffer, "The Forging of 'Pipelineistan': Oil, Gas Pipelines High Priority for U.S. in Central Asian Military Campaigns," *From the Wilderness.com*, July 11, 2002.
23. Michael T. Klare, "Oil Moves the War Machine," *Progressive*, June 2002; and Klare, "Oiling the Wheels of War," *Nation*, October 7, 2002, pp. 6–7. For other estimates of Caspian Sea oil and gas reserves, see Ahmed Rashid, *Taliban: Militant Islam, Oil, and Fundamentalism in Central Asia* (New Haven: Yale University Press, 2000), pp. 144–45; Stephen Kinzer, "A Perilous New Contest for the Next Oil Prize," *New York Times*, September 21, 1997; and "Russia Appears to Be Leading in Caspian Sea Resources Export Race," *Alexander's Gas & Oil Connections* 6:18 (September 25, 2001).
24. "How Oil Interests Play Out in U.S. Bombing of Afghanistan," *Drill-bits & Tailings* 6:8 (October 31, 2001); Pratap Chatterjee, "Afghan Pipe Dream: Is the U.S. War on Terrorism Really a War for a Caspian

- Natural Gas Pipeline? Maybe Yes, and Maybe No," *CorpWatch*, June 28, 2002.
25. The Editors, "U.S. Military Bases and Empire," *Monthly Review* 53:10 (March 2002), quoting the U.S. State Department from the *New York Times*, December 15, 2001.
 26. Phar Kim Beng, "Oil Needs Drive China West," *Asia Times*, November 20, 2002; Sabrina Tavernise, "Putin Will Focus on Energy in Visit to China This Week," *New York Times*, December 2, 2002. Also see Kang Wu and Fereidun Fesharaki, "Managing Asia Pacific's Energy Dependence on the Middle East: Is There a Role for Central Asia?" *Analysis from the East-West Center*, no. 60 (June 2002).
 27. J. Eric Duskin, "Permanent Installation: Thousands of U.S. Troops Are Headed to Central Asia, and They're Not Leaving Anytime Soon," *In These Times*, March 29, 2002; Robert G. Kaiser, "U.S. Plants Footprint in Shaky Central Asia," *Washington Post*, August 27, 2002.
 28. Chatterjee, "Afghan Pipe Dream." Also see Jeff Gerth, "Bribery Inquiry Involves Kazakh Chief, and He's Unhappy," *New York Times*, December 11, 2002; and Joshua Chaffin, "The Kazakh Connection: How Money Buys Access to the Politicians and Power-brokers in Washington," *Financial Times*, June 26, 2003.
 29. Bob Woodward, *Bush at War* (New York: Simon & Schuster, 2002), p. 340; and Mike Allen, "CIA's Cash Toppled Taliban," *Washington Post*, November 16, 2002.
 30. Colonel Stanislav Lunev, "Welcoming Our New Ally, Uzbek President Karimov," *NewsMax.com*, March 11, 2002; Robert Burns, "Rumsfeld Meets C. Asian Leaders," *Washington Post*, April 28, 2002; Ahmed Rashid, "Central Asia Trouble Ahead," *Far Eastern Economic Review*, May 9, 2002; Duskin, "Permanent Installation"; Kari Huus, "Critical Ally Calling, with Baggage," *MSNBC.com*, September 24, 2002; Yonatan Pomrenze, "Uzbekistan Basks in U.S. Spotlight," *MSNBC.com*, September 24, 2002.
 31. See Kinzer, "Perilous New Contest."
 32. Sabrina Tavernise, "Kazakhstan Reaches Oil Accord with Foreign Group," *New York Times*, January 28, 2003.

33. Carla Marinucci, "Chevron Redubs Ship Named for Bush Aide; Condoleezza Rice Drew Too Much Attention," *San Francisco Chronicle*, May 5, 2001.
34. Andrew Jack and David Stern, "Pipeline Plan for Borjomi Valley Is Approved," *Financial Times*, December 3, 2002. Also see Jay Hancock, "Is Bush Pro-Azeri or Just Pro-Oil?" *Baltimore Sun*, April 2, 2001; Armen Georgian (Agence France-Presse), "U.S. Eyes Caspian Oil in 'War on Terror,'" *ZNet*, May 1, 2002; Georgian, "Guzzling the Caspian," *Christian Science Monitor*, September 27, 2002.
35. See Kaiser, "U.S. Plants Footprint."
36. Georgian, "U.S. Eyes Caspian Oil." Also see Misha Dzhindzhikhashvili (Associated Press), "Plan for U.S. Troops in Georgia Irks Russia," *San Diego Union-Tribune*, February 28, 2002; and Patrick Martin, "U.S. Troops Deployed to Former Soviet Republic of Georgia," *World Socialist Web Site*, March 1, 2002.
37. Patrick Martin, "U.S. Planned War in Afghanistan Long before September 11," *World Socialist Web Site*, November 20, 2001. Also see James Risen, "New Breed of Roughnecks Battles over Caspian Oil Fields," *Los Angeles Times*, May 24, 1998; and Pierre Abramovici, "Background to Washington's War on Terror," *Le Monde Diplomatique*, January 2002.
38. Steven Levine, "UNOCAL Quits Afghanistan Pipeline Project," *New York Times*, December 5, 1998; Rashid, *Taliban*, p. 160; Jennifer Van Bergen, "Zalmay Khalilzad and the Bush Agenda," *Truthout*, January 13, 2001, <http://www.truthout.org/docs_01/01.14A.Zalmay.Oil.htm>; "Vital Statistics: Greasing the Machine—Bush, His Cabinet, and Their Oil Connections," *Drillbits & Tailings* 6:5 (June 30, 2001); Daniel Fisher, "Afghanistan: Oil Execs Revive Pipeline from Hell," *Forbes*, February 4, 2002; Larry Chin, "Players on a Rigged Grand Chessboard: Bidas, UNOCAL, and the Afghanistan Pipeline," *Online Journal*, March 6, 2002; Halima Kazem, "Afghanistan Eyes a Pipeline, but Prospects Look Dim," *Eurasianet*, June 6, 2002; and "Joe Conason's Journal," *Salon.com*, December 3, 2002, <<http://www.salon.com/poitics/conason/2002/12/03/bush/print.html>>.
39. Jacob Weisberg, "Bush's Favorite Afghan," *Slate*, October 5, 2001,

<<http://www.slate.msn.com/?id=1008402>>; and Wayne Madsen, "Afghanistan, the Taliban, and the Bush Oil Team," January 10, 2002, <<http://www.democrats.com/view2.cfm?id=5496>>.

40. Rashid, *Taliban*, p. 163.
41. Levine, "UNOCAL Quits." Also see Mary Pat Flaherty, David B. Ottaway, and James V. Grimaldi, "How Afghanistan Went Unlisted as Terrorist Sponsor," *Washington Post*, November 5, 2001.
42. "Pipelineistan: The Rules of the Game," *Alexander's Gas & Oil Connections* 7:4 (February 21, 2002).
43. Allen, "CIA's Cash."
44. Kaiser, "U.S. Plants Footprint."
45. Martin Walker, "Bases, Bases Everywhere," United Press International, December 23, 2001; Kamran Khan, "Pakistan Wants Its Airbases Back," *News*, Pakistan, January 11, 2002; and Anwar Iqbal, "U.S. Flew 57,800 Sorties from Pakistan," United Press International, May 19, 2003.
46. Duskin, "Permanent Installation."
47. Eric Schmitt and James Dao, "U.S. Is Building Up Its Military Bases in Afghan Region," *New York Times*, January 9, 2002.
48. Edmund L. Andrews, "A Bustling U.S. Air Base Materializes in the Mud," *New York Times*, April 27, 2002. Also see Global Security Organization, "Manas International Airport, Ganci Air Base, Bishkek, Kyrgyzstan," <<http://www.globalsecurity.org/military/facility/manas.htm>>; Burns, "Rumsfeld Meets"; Patrick Martin, "U.S. Bases Pave the Way for Long-Term Intervention in Central Asia," *World Socialist Web Site*, January 11, 2002; Duskin, "Permanent Installation"; and Steven Lee Myers, "Russia to Deploy Air Squadron in Kyrgyzstan, Where U.S. Has Base," *New York Times*, December 4, 2002.
49. Ahmed Rashid, "New Wars to Fight," *Far Eastern Economic Review*, September 12, 2002. Also see Global Security Organization, "Khanabad, Uzbekistan," <<http://www.globalsecurity.org/military/facility/khanabad.htm>>; "U.S. Indicates New Military Partnership with Uzbekistan," *Wall Street Journal*, October 15, 2001; Schmitt and Dao, "U.S. Is Building Up"; Martin, "U.S. Bases Pave the Way"; Duskin, "Permanent Installation"; Andrews, "Bustling U.S. Air Base"; Baglia Bukharbaeva (Associated Press), "U.S. Still Digging In at Secret Forward

Base," *San Diego Union-Tribune*, May 29, 2002; and Sean Gonsalves, "War on Terrorism Has Oily Undercurrent," *Seattle Post-Intelligencer*, September 3, 2002.

50. Chatterjee, "Afghan Pipe Dreams"; "USA Pledges Not to Abandon Central Asia after Afghan War," BBC, from Interfax-Kazakhstan News Agency, December 19, 2001; and George Monbiot, "America's Imperial War," *Guardian*, February 12, 2002.

7: THE SPOILS OF WAR

1. The number of domestic bases is taken from William R. Evinger, ed., *Directory of U.S. Military Bases Worldwide*, 3rd ed. (Phoenix: Oryx Press, 1998).
2. "The Monroe Doctrine Declared, 1823," <<http://campus.northpark.edu/history/WebChron/USA/MonDoc.html>>; and "Monroe Doctrine," <<http://gi.grolier.com/presidents/ea/side/mondoc.html>>.
3. Harry Magdoff, introduction to *Remaking Asia: Essays on the American Uses of Power*, ed. Mark Selden (New York: Pantheon, 1974), p. 4.
4. Ronald Steel, *Pax Americana* (New York: Viking, 1968), p. 10.
5. Garrett Moritz, "Explaining 1898: Conquest of Empire in the Gilded Age," <<http://www.gtexts.com/college/papers/s4.html>>; and Stuart Creighton Miller, "Benevolent Assimilation": *The American Conquest of the Philippines, 1899–1903* (New Haven: Yale University Press, 1982), p. 3. A thought-provoking book that throws doubt on Turner's frontier thesis is Andro Linklater, *Measuring America: How An Untamed Wilderness Shaped the United States and Fulfilled the Promise of Democracy* (New York: Walker & Co., 2002).
6. "U.S. Intervention in Latin America," <<http://www.smplplanet.com/imperialism/teddy.html>>; and "The Roosevelt Corollary to the Monroe Doctrine," <<http://www.uiowa.edu/~c030162/Common/Handouts/POTUS/TRoos.html>>.
7. Zoltan Grossman, comp., "A Century of U.S. Military Interventions," <<http://zmag.org/CrisesCurEvts/interventions.htm>>.
8. David B. Abernethy, *The Dynamics of Global Dominance: European Overseas Empires, 1415–1980* (New Haven: Yale University Press, 2000), p. 86.

9. John M. Collins, "Military Bases," *Military Geography for Professionals and the Public* (Washington: U.S. National Defense University, Institute for National Strategic Studies, March 1998), <<http://www.ndu.edu/inss/books/milgeo/milgeoch12.html>>; and Kenneth Hunt, *NATO without France: The Military Implications*, Adelphi Paper no. 32 (London: Institute for Strategic Studies, December 1966).
10. Keith B. Cunningham and Andreas Klemmer, *Restructuring the U.S. Military Bases in Germany: Scope, Impacts, and Opportunities. Report 4* (Bonn: Bonn International Center for Conversion, 1995), p. 6.
11. Ibid., p. 10.
12. Ibid., p. 14.
13. Michael Goldfarb, "Origins of Pax Americana," <<http://www.insideout.org/documentaries/pax/notebook.asp>>. Also see Mark Landler, "Germans Near Bases Don't Hate U.S., Just the Noise," *New York Times*, February 17, 2003.
14. Evinger, *Directory of U.S. Military Bases Worldwide*, p. 255.
15. See Ken Silverstein, "Police Academy in the Alps: The Tax-Supported Marshall Center Offers More Fun and Games Than War Games," *Nation*, October 7, 2002, pp. 17–22; Rick Emert, "Army Cranking Out New Facilities," *Stars & Stripes*, December 14, 2002; David Rennie, "Pentagon Plans NATO Blitz on Germany by Pulling Out," *Sydney Morning Herald*, February 12, 2003.
16. Cunningham and Klemmer, *Restructuring the U.S. Military Bases*, p. 23.
17. Kozy K. Amemiya, "The Bolivian Connection: U.S. Bases and Okinawan Emigration," in Chalmers Johnson, ed., *Okinawa: Cold War Island* (Cardiff, Calif.: Japan Policy Research Institute, 1999), pp. 53–69.
18. See, in particular, Ichiro Tomiyama, "The 'Japanese' of Micronesia," in Ronald Y. Nakasone, ed., *Okinawan Diaspora* (Honolulu: University of Hawaii Press, 2002), pp. 64–68 et passim; Koji Taira, "Okinawa's Choice: Independence or Subordination," in Johnson, ed., *Okinawa: Cold War Island*, pp. 171–85; and Steve Rabson, introduction to *Okinawa: Two Postwar Novellas By Oshiro Tatsuhiro and Higashi Mineo* (Berkeley: Institute of East Asian Studies, University of California, 1989), pp. 1–30.

19. See Kensei Yoshida, *Democracy Betrayed: Okinawa under U.S. Occupation* (Bellingham: Center for East Asian Studies, Western Washington University, 2001), p. 17.
20. *Ibid.*, p. 54.
21. Morton Mintz, "U.S. Stationed A-Bomb Ship 200 Yards off Japan's Coast," *Washington Post*, May 22, 1981; Edwin O. Reischauer, "Japan: The Meaning of the Flap," *Washington Post*, June 5, 1981; and Hans M. Kristensen, *Japan under the U.S. Nuclear Umbrella* (Berkeley: Nautilus Institute, July 1999).
22. Chii Kyotei Kenkyukai (Status of Forces Agreement Research Association), *Nichi-Bei chii kyotei chikujo hihan* (Point-by-point criticism of the Japanese-American status of forces agreement) (Tokyo: Shin Nihon Shuppansha, 1997), pp. 253–56. In Japanese.
23. See, e.g., Takis Michas, "America the Despised," *National Interest*, Spring 2002, pp. 94–102; Anthee Carassava, "Anti-Americanism in Greece Is Reinvigorated by War," *New York Times*, April 7, 2003; and John Brady Kiesling, "Diplomatic Breakdown," *Boston Globe*, April 27, 2003.
24. Quoted by Jim Huck, "1947–1970s, Greece: Helping Fascists in Civil War & Coup," <http://www.ncf.carleton.ca/coat/our_magazine/links/issue43/articles/1947_1970s_greece.htm>.
25. Quoted by William Blum, *Killing Hope: U.S. Military and CIA Interventions since World War II* (Monroe, Maine: Common Courage Press, 1995), p. 216.
26. Seymour M. Hersh, *Kissinger: The Price of Power* (1983); quoted in Blum, *Killing Hope*, p. 220.
27. Helena Smith, "The CIA Claims to Have Changed," *Guardian*, August 28, 2001; "A U.S. History of Greece Is Kept Secret," *Kathimerini* (English ed.), Athens, July 30, 2001.
28. Thomas Patrick Carroll, "Last Tango in Nicosia," *Middle East Intelligence Bulletin* 3:12 (December 2001).
29. William J. Pomeroy, "The Philippines: A Case History of Neocolonialism," in Mark Selden, ed., *Remaking Asia: Essays on the American Uses of Power* (New York: Pantheon, 1974), p. 162.

30. Alva M. Bowen Jr., "The Historical Setting: 1947–1975," in John W. McDonald Jr. and Diane B. Bendahmane, eds., *U.S. Bases Overseas: Negotiations with Spain, Greece, and the Philippines* (Boulder, Colo.: Westview, 1990), p. 74.
31. See Bryan Johnson, *The Four Days of Courage: The Untold Story of the People Who Brought Marcos Down* (New York: Free Press, 1987).
32. Roland G. Simbulan, "How 'The Battle of the Bases' Was Won," <<http://www.boondocksnet.com/centennial/sctexts/simbulan.html>>.
33. Michael Satchell, "Toxic Legacy: What the Military Left Behind," *U.S. News & World Report*, January 24, 2000, pp. 30–31; and Benjamin Pimentel, "Deadly Legacy: Leftover Bombs, Chemicals Wreak Havoc at Former U.S. Bases in Philippines," *San Francisco Chronicle*, July 5, 2001.
34. Dan Murphy, "Long-Term U.S. Strategy Emerges out of Philippines," *Christian Science Monitor*, July 3, 2002; Michael Satchell, "Back to the Philippines: Eight Years after Base Closings, the U.S. Is Rebuilding a Military Relationship," *U.S. News & World Report*, January 24, 2000, pp. 30–31; Doug Bandow, "Instability in the Philippines: A Case Study for U.S. Disengagement," *CATO Institute Foreign Policy Briefing*, no. 64; March 21, 2001; Oliver Teves, "Philippine Base Ready for U.S.-Led Training," Associated Press, *San Diego Union-Tribune*, January 20, 2002; Luis H. Franciá, "U.S. Troops in the Philippines," *Village Voice*, February 20–26, 2002; Jane Perlez, "U.S. Troops Likely to Remain in Philippines Longer Than Planned," *New York Times Service*, *San Diego Union-Tribune*, March 31, 2002; and Tyler Marshall and John Hendren, "U.S. to Leave Philippines Despite Hostage Situation," *Los Angeles Times*, May 27, 2002.
35. Kari Huus, "In Philippines, G.I. Joe Is Back," MSNBC, August 2, 2002, <<http://www.msnbc.com/news/787670.asp>>; BBC News, "U.S. Unwelcome in Southern Philippines," March 17, 2003; Karen DeYoung, "Powell Says U.S. to Resume Training Indonesia's Forces," *Washington Post*, August 3, 2002.
36. Eric Schmitt, "U.S. to Send Nearly 2,000 Troops to Fight Militants in Philippines," *New York Times*, February 20, 2003; and Jim Gomez

- (Associated Press), "Philippines Says U.S. Troops Not Welcome in Combat Patrols," *San Diego Union-Tribune*, April 22, 2003.
37. William Greider, *Fortress America: The American Military and the Consequences of Peace* (New York: Public Affairs, 1998), p. 101.
 38. Haroon Siddiqui, "Real American Agenda Now Becoming Clear," *Toronto Star*, May 4, 2003. Also see Peter Grier, "A Reluctant Empire Stretches More," *Christian Science Monitor*, January 17, 2002; Thom Shanker and Eric Schmitt, "Pentagon Expects Long-Term Access to Four Key Bases in Iraq," *New York Times*, April 20, 2003; Michael R. Gordon and Eric Schmitt, "U.S. Will Move Air Operations to Qatar Base," *New York Times*, April 28, 2003; Eric Schmitt, "U.S. to Withdraw All Combat Units from Saudi Arabia," *New York Times*, April 30, 2003; Esther Schrader, "U.S. Expedites Reshuffling of Europe Troops," *Los Angeles Times*, May 1, 2003; Seth Stern, "New Map for U.S. Outposts," *Christian Science Monitor*, May 1, 2003.

8: IRAQ WARS

1. See Anthony Cave Brown, *Oil, God, and Gold: The Story of Aramco and the Saudi Kings* (Boston: Houghton Mifflin, 1999).
2. On the origins of American oil diplomacy in the Middle East, see Douglas Little, "Opening the Door: Business, Diplomacy, and America's Stake in Middle East Oil," in *American Orientalism: The United States and the Middle East since 1945* (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 2002), pp. 43–75.
3. See Robert Fisk, "New Crisis, Old Lessons: The Suez Crisis Has Haunted British Government for Almost 50 Years," *Independent*, January 15, 2003.
4. Global Security Organization, "King Abdul Aziz Air Base, Dhahran, Saudi Arabia," <<http://www.globalsecurity.org/military/facility/dhahran.htm>>; and Patrick E. Tyler, "Saudis Plan to End U.S. Presence," *New York Times*, February 9, 2003.
5. The indispensable source is Ervand Abrahamian, "The 1953 Coup in Iran," *Science & Society* 65:2 (Summer 2001), pp. 182–215. Also see

- Phillip Knightley, "Iraq Chose Saddam for Good Reason: The West Needs a History Lesson," *Independent*, August 4, 2002; and the important book by Stephen Kinzer, *All the Shah's Men: An American Coup and the Roots of Middle East Terror* (New York: John Wiley & Sons, 2003).
6. C. T. Sandars, *America's Overseas Garrisons: The Leasehold Empire* (Oxford: Oxford University Press, 2000), pp. 287, 293, 299; Robert Burns, "U.S. Building Up Forces at Obscure but Important Air Base in Qatari Desert," Associated Press, June 30, 2002.
 7. Denis F. Doyon, "Middle East Bases," in Joseph Gerson and Bruce Birchard, eds., *The Sun Never Sets: Confronting the Network of Foreign U.S. Military Bases* (Boston: South End Press for the American Friends Service Committee, 1991), pp. 15, 275–307; Sandars, *America's Overseas Garrisons*, pp. 55–59; and BBC News, "Diego Garcia Islanders Battle to Return," October 31, 2002. For a few details on Diego Garcia in 2002, see Office of the Deputy Undersecretary of Defense (Installations and Environment), *Base Structure Report (A Summary of DoD's Real Property Inventory)* (Washington: Department of Defense, 2002), s.v. "British Indian Ocean Territory."
 8. David Morgan, "Ex-U.S. Official Says CIA Aided Ba'athists," Reuters, April 20, 2003, posted on *CommonDreams.org*, May 19, 2003; CBS News, "Profile: Saddam Hussein," April 8, 2003; Richard Sale, "Saddam Key in Early CIA Plot," United Press International, April 10, 2003; "Bush Topples an Old U.S. Ally," *SocialistWorkerOnline*, April 18, 2003.
 9. Michael Dobbs, "U.S. Had Key Role in Iraq Buildup; Trade in Chemical Arms Allowed Despite Their Use on Iranians, Kurds," *Washington Post*, December 30, 2002; and "Arming Iraq: A Chronology of U.S. Involvement," March 17, 2003, <<http://www.rehberg.net/arming-iraq.html>>.
 10. Tony Paterson, "Leaked Report Says German and U.S. Firms Supplied Arms to Saddam," *Independent*, December 18, 2002; *Die Tageszeitung* (Berlin), December 20, 2002; and James Cusick and Felicity Arbuthnot, "America Tore Out 8,000 Pages of Iraq Dossier," *Sunday Herald* (Scotland), December 22, 2002. Also see Russ W. Baker, "Iraqgate," *Columbia Journalism Review*, March/April 1993; Christian Dewar, "Arming Iraq: How George H. W. Bush and Ronald Reagan Helped Iraq Develop Weapons of Mass Destruction," *Democratic Underground*, December

- 13, 2002; Stephen Green, "Rumsfeld's Account Book: Who Armed Saddam?" *CounterPunch*, February 24, 2003; Paul Rockwell, "Who Armed Iraq?" *San Francisco Chronicle*, March 2, 2003; and "Yes, U.S. Helped Iraq Get Chemical, Biological Weapons," *Belleville News-Democrat* (Southern Illinois and St. Louis metropolitan area), April 20, 2003, <<http://www.belleville.com/mld/newsdemocrat/5674107.htm>>.
11. Jeremy Scahill, "What about Those Chemical Weapons? The Saddam in Rummy's Closet," *CounterPunch*, August 2, 2002. For other discussions of the United States' supply of poison gas and germ warfare feeder stocks to Iraq during its 1980s war with Iran, see Eric Margolis, "Old Dreams of Empire Dance in Blair's Head," *Toronto Sun*, March 31, 2002; Patrick E. Tyler, "Iraqi Gas Use Didn't Stop U.S. Aid in '88," (*New York Times News Service*), *San Diego Union-Tribune*, August 18, 2002; Neil Mackay and Felicity Arbuthnot, "How Did Iraq Get Its Weapons? We Sold Them," *Sunday Herald* (Scotland), September 8, 2002; Robert Novak, "Following Iraq's Bioweapons Trail," *Chicago Sun-Times*, September 26, 2002; Matt Kelley, "U.S. Supplied Germs to Iraq in '80s," Associated Press, September 30, 2002; Elson E. Boles, "Helping Iraq Kill with Chemical Weapons," *CounterPunch*, October 10, 2002; Jost R. Hiltermann, "America Didn't Seem to Mind Poison Gas," *International Herald Tribune*, January 17, 2003; Stephen C. Pelletiere, "A War Crime or an Act of War?" *New York Times*, January 31, 2003; and Philip Shenon, "Iraq Links Germs for Weapons to U.S. and France," *New York Times*, March 16, 2003.
 12. Ritt Goldstein, "Oil Wars Pentagon's Policy since 1999," *Sydney Morning Herald*, May 20, 2003.
 13. CBS News, as reported in *New York Times*, September 5, 2002, p. A10; Bob Woodward, *Bush at War* (New York: Simon and Schuster, 2002), pp. 49, 60–61; Chris Bury, "A Tortured Relationship: U.S.-Iraq Relations. Part 2: War," ABC News, September 18, 2002; Michael T. Klare, "Scheduling War," February 12, 2003, <<http://www.nationinstitute.org/tomdispatch/index.mhtml?pid=391>>; and Stephen Fidler, "Just When *Did* the President Decide to Go to War?" *Financial Times*, March 27, 2003.
 14. Robert Kagan and William Kristol, eds., *Present Dangers: Crisis and*

- Opportunity in American Foreign and Defense Policy* (San Francisco: Encounter Books, 2000); and *Rebuilding America's Defenses*, <<http://www.newamericancentury.org/s.v.RebuildingAmericanDefensespdf>>.
- On PNAC and the backgrounds of the neoconservatives in the second Bush administration, see Elisabeth Bumiller and Eric Schmitt, "On the Job and at Home, Influential Hawks' 30-Year Friendship Evolves," *New York Times*, September 11, 2002; Tom Barry and Jim Lobe, "The Men Who Stole the Show," *Foreign Policy in Focus*, October 2002; Steven R. Weisman, "Abrams Back in Capital Fray at Center of Mid-east Battle," *New York Times*, December 7, 2002; Glenn Kessler, "U.S. Decision on Iraq Has Puzzling Past," *Washington Post*, January 12, 2003; ABC News, "The Plan: Were Neo-Conservatives' 1998 Memos a Blueprint for Iraq War?" March 10, 2003; and William O. Beeman, "Military Might: The Man behind 'Total War' in the Mideast," *San Francisco Chronicle*, May 14, 2003.
15. PNAC, *Rebuilding America's Defenses*, p. 51; and Nicholas Lemann, "The Next World Order," *New Yorker*, April 1, 2002, p. 44. I am indebted to John Pilger for drawing my attention to PNAC's activities. See his article in the *New Statesman*, December 16, 2002.
 16. Scott Ritter, "Is Iraq a True Threat to the U.S.?" *Boston Globe*, July 20, 2002. On April 5, 2003, British Home Secretary David Blunkett admitted that no weapons of mass destruction were likely to be found in Iraq because they did not exist. See al-Jazerra (English), April 6, 2003.
 17. PNAC, *Rebuilding America's Defenses*, p. 14.
 18. See Tom Regan, "When Contemplating War, Beware of Babies in Incubators," *Christian Science Monitor*, September 6, 2002; Associated Press, "Not All Iraq Claims Backed by Evidence," December 22, 2002; and Mitchell Cohen, "How Bush Sr. Sold the Bombing of Iraq," *CounterPunch*, December 28, 2002.
 19. See Victoria Samson, "Unmanned Aerial Vehicles: Iraq's 'Secret' Weapon?" Center for Defense Information, Terrorism Project, October 10, 2002.
 20. The most important source on this subject is Seymour Hersh, "A Case Not Closed," *New Yorker*, November 1, 1993.
 21. Stephen Zunes, *Tinderbox: U.S. Foreign Policy and the Roots of Terror-*

- ism (Monroe, Maine: Common Courage Press, 2003), p. 86; Robert Dreyfuss, "Persian Gulf—or Tonkin Gulf?" *American Prospect* 13:23 (December 2002); and Eric Schmitt, "Pentagon Shows Videos of Iraq Firing at Allied Jets," *New York Times*, October 1, 2002.
22. James Harding, Richard Wolffe, and James Blitz, "U.S. Will Rebuild Iraq as Democracy, Says Rice," *Financial Times*, September 22, 2002.
 23. Anthony Sampson, "West's Greed for Oil Fuels Saddam Fever," *Observer*, August 11, 2002. On the younger Bush's dubious past as a member of the board of Harken Energy Corporation of Houston, see "Bush Was Told of Risks before Stock Sale: Harken Memo Went to SEC after Probe," *Boston Globe*, October 30, 2002; and Michael Lind, *Made in Texas* (New York: Basic Books, 2003), pp. 102–3. For a summary of American oil machinations in the Persian Gulf over the past fifty years, see Robert Dreyfuss, "The Thirty-Year Itch," *Mother Jones*, March 1, 2003.
 24. Ed Vulliamy, "Troops 'Vandalize' Ancient City of Ur," *Observer*, May 18, 2003.
 25. Julian Borger, "Anger at Peace Talks 'Meddling,'" *Guardian*, July 13, 2000; Brian Whitaker, "U.S. Thinktanks Give Lessons in Foreign Policy," *Guardian*, August 19, 2002; Jill Junnola, "Perspective: Who Funds Whom?" *Energy Compass*, October 4, 2002; Eric Margolis, "After Iraq, Bush Will Attack His Real Target," *Toronto Sun*, November 10, 2002; Margolis, "Bush's Mideast Plan: Conquer and Divide," *Toronto Sun*, December 8, 2002; Sandy Tolan, "Beyond Regime Change," *Los Angeles Times*, December 1, 2002; Jim Lobe, "Neoconservatives Consolidate Control over U.S. Mideast Policy," *Foreign Policy in Focus*, December 6, 2002; Bill Christison and Kathleen Christison, "Too Many Smoking Guns to Ignore: Israel, American Jews, and the War on Iraq," *CounterPunch*, January 25, 2003; and Michael Lind, "The Weird Men behind George W. Bush's War," *New Statesman*, April 7, 2003, <<http://www.newamerica.net/index.cfm?sec=programs&pg=article&pubID=1189&T2=Article>>.
 26. Dan Plesch, "Weapons of Mass Distraction," *Observer*, September 29, 2002; and Brian J. Foley, "War Cries: Weapons of Mass Distraction," *CounterPunch*, November 8, 2002.

27. On presidential decision making during the Vietnam War, see Daniel Ellsberg, *Secrets: A Memoir of Vietnam and the Pentagon Papers* (New York: Viking, 2002). On Ellsberg's analysis, see Chalmers Johnson, "The Addiction to Secrecy," *London Review of Books*, February 6, 2003. On Karl Rove, see James C. Moore and Wayne Slater, *Bush's Brain: How Karl Rove Made Bush Presidential* (New York: Wiley, 2003).
28. Jay Bookman, "The President's Real Goal in Iraq," *Atlanta Journal-Constitution*, September 29, 2002.
29. Carol Morello, "Saudi Officials Shield U.S. Troop Presence from Public," *Washington Post*, March 22, 2003; and Robin Allen, "Gulf States Keep Lid on Extent of Defense Ties," *Financial Times*, February 18, 2003.
30. Global Security Organization, "Eskan Village," <<http://www.global-security.org/military/facility/eskan-village.htm>>. The Global Security Organization's collection of reports on CENTCOM bases is an invaluable source.
31. Catherine Taylor, "U.S. Air Base Ready for War after Millions in Upgrades," *Christian Science Monitor*, December 31, 2002. Also see Vernon Loeb and Dana Priest, "Saudis Balk at U.S. Use of Key Facility," *Washington Post*, September 22, 2001; Julian Borger, "U.S. Paves Way for War on Iraq; Attack Base to Be Moved into Qatar to Bypass Saudi Objections," *Guardian*, March 27, 2002; Kim Sengupta and Andrew Buncombe, "Saudi Bans Use of Its Air Bases to Attack Iraq," *Independent*, August 8, 2002; and Reuters, "Saudi Says Will Not Help Any U.S. Strike on Iraq," November 3, 2002.
32. "U.S. Military Women Cast Off Abayas," CBS News, January 22, 2002.
33. Eric Schmitt, "U.S. to Withdraw All Combat Units from Saudi Arabia," *New York Times*, April 30, 2003; and Maureen Dowd, "Hypocrisy and Apple Pie," *New York Times*, April 30, 2003.
34. Global Security Organization, "Ahmed al Jaber Air Base," <<http://www.globalsecurity.org/military/facility/ahmed-al-jaber.htm>>.
35. Global Security Organization, "Ali al Salem Air Base," <<http://www.globalsecurity.org/military/facility/ali-al-salem.htm>>.
36. Global Security Organization, "Manama, Bahrain," <<http://www.globalsecurity.org/military/facility/manama.htm>>.

37. Ali Akbar Dareini, "Bahrain Joins Iran in Opposing U.S. Attack on Iraq," Associated Press. August 18, 2002.
38. Gary C. Gambill, "Qatar's al-Jazeera TV: The Power of Free Speech," *Middle East Intelligence Bulletin* 2:5 (June 1, 2000); Andrea Koppel and Elise Labott, "U.S. Pressures Qatar to Restrain TV Outlet," CNN.com, October 3, 2001; Tariq Ali, "Diary," *London Review of Books*, August 22, 2002; and Robin Shulman, "From Ramallah to Oakland: Al-Jazeera Is a Rising Star in the New Information Age," *San Francisco Chronicle*, August 18, 2002. During the second Iraq war, the United States kept up a drumbeat of criticism against al-Jazeera's reporting. See Elizabeth Ptacek, "Backlash against al-Jazeera," *In These Times*, April 4, 2003.
39. 1st Lt. Johnny Rea, 379th Air Expeditionary Wing Public Affairs Officer, <<http://198.65.138.161/military/library/news/2002/06/mil-020611-usaf01.htm>>.
40. Associated Press, "U.S. to Close One Air Base, Upgrade Another," *Washington Times*, May 12, 2003; Global Security Organization, "Al-Udeid Air Base, Qatar," <<http://www.globalsecurity.org/military/facility/udeid.htm>>.
41. Michael Wolff, "Live from Doha," *New York Magazine*, April 7, 2003; Verne Gay, "Brig. Gen. Vincent Brooks, the Face of the War Effort," *Chicago Tribune*, April 10, 2003.
42. BBC News, "U.S. to Expand Abu Dhabi Air Base," May 14, 2003.
43. See "Oman Open to Closer U.S. Military Ties," *WorldNetDaily.com*, January 14, 2002; Ian Bruce, "U.S. to Spend £90m on Air Base in Oman," *Herald*, April 19, 2002; and "Oman Allocates Land for New Base," *World Tribune.com*, April 25, 2002.

9: WHATEVER HAPPENED TO GLOBALIZATION?

1. Hannah Arendt, *The Origins of Totalitarianism* (New York: Meridian Books, 1958), p. 125.
2. World Trade Organization, *Annual Report 1998: International Trade Statistics* (Geneva: WTO, 1998), p. 12. Quoted in Walden Bello, *The Future in the Balance* (Oakland, Calif.: Food First Books, 2001), p. 36.

3. Bruce R. Scott, "The Great Divide in the Global Village," *Foreign Affairs* 80:1 (January/February 2001), p. 160.
4. Manfred B. Steger, *Globalism: The New Market Ideology* (Lanham, Md.: Rowman & Littlefield, 2002), pp. 12–13.
5. For a sunny argument that globalization will undercut the state and usher in a period of lasting peace, see Richard N. Rosecrance, *The Rise of the Virtual State: Wealth and Power in the Coming Century* (New York: Basic Books, 2000).
6. Steger, *Globalism*, p. 54.
7. Bill Clinton, "Remarks by the President on Foreign Policy," invitation-only address in San Francisco, February 26, 1999; and Sonya Ross, "Clinton Talks of Better Living," Associated Press, October 15, 1997. Quoted in Steger, *Globalism*, p. 55.
8. See Bush's press conference after the April 22, 2001, Summit of the Americas in Quebec. Also see Maude Barlow, *The Free Trade Area of the Americas: The Threat to Social Programs, Environmental Sustainability and Social Justice* (San Francisco: International Forum on Globalization, 2001).
9. Oswaldo de Rivero, *The Myth of Development* (London: Zed Books, 2001), p. 138.
10. *Ibid.*, p. 22.
11. Harvey Cox, "The Market as God: Living in the New Dispensation," *Atlantic Monthly*, March 1999, pp. 18–23.
12. Arendt, *Origins of Totalitarianism*, p. 209. On the racism and genocide of the British Empire, see Sven Lindquist, *Exterminate All the Brutes* (New York: New Press, 1996).
13. Joseph E. Stiglitz, "A Fair Deal for the World," *New York Review of Books*, May 23, 2002, p. 24. Also see Stiglitz, *Globalization and Its Discontents* (New York: W. W. Norton, 2002):
14. De Rivero, *Myth of Development*, pp. 3, 9, 24.
15. Quoted in Ha-Joon Chang, *Kicking Away the Ladder: Development Strategy in Historical Perspective* (London: Anthem Press, 2002). Chang is a professor of economics at Cambridge University.
16. On how Japan became the world's second most productive economy, see Chalmers Johnson, *MITI and the Japanese Miracle: The Growth of*

- Industrial Policy, 1925–1975* (Stanford: Stanford University Press, 1982); Linda Weiss, *The Myth of the Powerless State* (Ithaca: Cornell University Press, 1998); and Meredith Woo-Cumings, ed., *The Developmental State* (Ithaca: Cornell University Press, 1999).
17. De Rivero, *Myth of Development*, p. 109; Ted C. Fishman, "Making a Killing: The Myth of Capital's Good Intentions," *Harper's*, August 2002, p. 34.
 18. Thomas Ferguson, "Blowing Smoke: Impeachment, the Clinton Presidency, and the Political Economy," in William J. Crotty, ed., *The State of Democracy in America* (Washington: Georgetown University Press, 2001), p. 233. On the workings of the IMF and the World Bank, see William Finnegan, "The Economics of Empire: Notes on the Washington Consensus," *Harper's*, May 2003, pp. 41–54.
 19. Nicholas Guyatt, *Another American Century? The United States and the World after 2000* (London: Zed Books, 2000), p. 8.
 20. Bello, *Future in the Balance*, p. 49.
 21. John Madeley, *Hungry for Trade: How the Poor Pay for Free Trade* (London: Zed Books, 2000), p. 58; Guyatt, *Another American Century?*, pp. 12, 37.
 22. Lawrence Summers, "The Memo," <<http://www.whirledbank.org/ourwords/summers.html>>. Also see Jonathan R. Pincus and Jeffrey A. Winters, eds., *Reinventing the World Bank* (Ithaca: Cornell University Press, 2002), pp. 13–14.
 23. Jeffrey E. Garten, "The Root of the Problem," *Newsweek*, March 31, 1997. Quoted by Guyatt, *Another American Century?*, p. 185. Also see Garten, "Business and Foreign Policy," *Foreign Affairs* 76:5 (1997), pp. 67–79.
 24. Bello, *Future in the Balance*, p. 52.
 25. *Ibid.*, p. 51.
 26. *Ibid.*, p. xiv.
 27. *Ibid.*, pp. 45, 69; Steve Schifferes, "Doha Trade Deal Unraveling," BBC News, November 10, 2002.
 28. Stiglitz, "Fair Deal for the World," p. 28.
 29. See "WTO Pact on Generic Drugs Blocked by U.S.," *Financial Times*, December 21–22, 2002; and Nicola Bullard, "Is the WTO Collapsing

- under Its Own Ambitions?" *Focus on Trade*, no. 82 (December 2002). For the WTO agreement weakening patent protection on drugs, see World Trade Organization, Doha, Qatar, WTO Ministerial, 2001, "Declaration on the TRIPS Agreement and Public Health," November 14, 2001.
30. Andrew Pollack, "Widely Used Crop Herbicide Is Losing Weed Resistance," *New York Times*, January 14, 2003.
 31. Madeley, *Hungry for Trade*, pp. 100–03.
 32. The most comprehensive treatment of these complex issues is Edith Terry, *How Asia Got Rich* (Armonk, N.Y.: M. E. Sharpe, 2002).
 33. Thomas L. Friedman, *The Lexus and the Olive Tree* (New York: Farrar, Straus & Giroux, 1999), pp. 112–13.
 34. Fishman, "Making a Killing," p. 41, n. 10; David Hale, "Will Argentina Recover without the IMF?" Zurich Financial Services, December 20, 2002. Hale is chief economist for Zurich Financial Services.
 35. De Rivero, *Myth of Development*, p. 17.
 36. Robert Naiman (Center for Economic and Policy Research), "Secrecy at the IFIs [international financial institutions]," *Progressive Response* 5:38 (November 13, 2001); and Bello, *Future in the Balance*, pp. 28–29.
 37. *Focus on Trade*, January 2002; and James Harding, "Globalization's Children Strike Back," *Financial Times*, September 11, 2001.
 38. Robert B. Zoellick, "American Trade Leadership: What Is at Stake?" Institute for International Economics, Washington, DC, September 24, 2001.
 39. Thomas Friedman, "Senseless in Seattle," *New York Times*, December 1, 1999; and Peter Wahl, "European Social Forum," *Focus on Trade*, no. 83 (December 2002).
 40. See J. Bradford DeLong, "The Meltzer Report," <<http://www.j-bradford-delong.net/TotW/meltzer.html>>; Christian Weller, "Meltzer Report Misses the Mark: Commission's Recommendations for World Bank, IMF Need Further Consideration," Economic Policy Institute, Issue Brief 141, April 13, 2000 ; and Bello, *Future in the Balance*, pp. xiv, 60.
 41. Shihoko Goto, "Argentina's Menem Says Woes Not His Fault," *Washington Times*, June 12, 2002.

42. See the important analysis of John Feffer, "Militarization in the Age of Globalization," *Foreign Policy in Focus*, November 6, 2001. Also see William Pfaff, "Bush Team's Military Focus Is Skewing U.S. Foreign Policy," *International Herald Tribune*, June 30, 2001.
43. David Lague, "Gripes over U.S. Grip on Arms Trade," *Far Eastern Economic Review*, September 26, 2002; Kim Kwang-tae, "U.S. to Ditch Korea's Weapons Integration if It Buys Non-U.S. Aircraft in F-X Plan," *Korea Times*, July 22, 2001; Hwang Jang-jin, "Boeing F-15K, with GE Engine, Wins Deal Worth \$4.46 Billion," *Korea Now*, May 4, 2002, p. 24.
44. Larry Rohter, "Jet Purchase Splits Brazil: New Leader Wants Voice," *New York Times*, November 29, 2002.
45. Larry Rohter, "Brazil: U.S. Offers Missiles," *New York Times*, May 24, 2002; Raymond Colitt, "Lula to Use Defense Funds in Famine Fight," *Financial Times*, January 4–5, 2003.
46. Michelle Ciarrocca, "Post 9/11 Economic Windfalls for Arms Manufacturers," *Foreign Policy in Focus* 7:10 (September 2002).
47. Gwyn Kirk and Margo Okazawa-Rey, "Neoliberalism, Militarism, and Armed Conflict," *Social Justice* 27:4 (Winter 2000), p. 9; Charles M. Sennott, "Arms Deal Criticized as Corporate U.S. Welfare," *Boston Globe*, January 14, 2003.
48. Karen Talbot, "The Real Reasons for War in Yugoslavia: Backing Up Globalization with Military Might," *Social Justice* 27:4 (Winter 2000), p. 100.
49. William Greider, "The End of Empire," *Nation*, September 23, 2002.

10: THE SORROWS OF EMPIRE

1. Madeleine Bunting, "Beginning of the End: The U.S. Is Ignoring an Important Lesson from History—That an Empire Cannot Survive on Brute Force Alone," *Guardian*, February 3, 2003.
2. "Bush's United States Military Academy Graduation Speech," *Washington Post*, June 2, 2002; and "Full Text: Bush's National Security Strategy," *New York Times*, September 20, 2002.
3. Ewen MacAskill, "Up to 50 States Are on Blacklist, Says Cheney,"

- Guardian*, November 17, 2001; James Doran, "Terror War Must Target 60 Nations, Says Bush," *Times* (London), June 3, 2002.
4. Arthur Schlesinger Jr., "Good Foreign Policy a Casualty of War," *Los Angeles Times*, March 23, 2003.
 5. Cf. William Pfaff, "Al Qaeda vs. the White House," *International Herald Tribune*, December 28, 2002; Pfaff, "Religiosity and Foreign Policy: When Power Disdains Realism," *International Herald Tribune*, February 3, 2003; Anatol Lieven, "The Push for War," *London Review of Books*, October 3, 2002; and Jack Beatty, "In the Name of God," *Atlantic Monthly*, March 5, 2003.
 6. Stanley Hoffmann, "The High and the Mighty," *American Prospect* 13:24 (January 13, 2003).
 7. Immanuel Wallerstein, "The Righteous War," *Commentary* no. 107, University of Binghamton, February 15, 2003.
 8. Letter of John Brady Kiesling, *New York Times*, February 27, 2003.
 9. Tom Barry, "The U.S. Power Complex: What's New?" *Foreign Policy in Focus*, Special Report, November 2002, n. 11.
 10. See chapter 6 above; and Madhavee Inamdar, "Global Vigilance in a Global Village: U.S. Expands Its Military Bases," *Progressive Response* 6:41 (December 31, 2002).
 11. William M. Arkin, "The Best Defense," *Los Angeles Times*, July 14, 2002; "War Designed to Test New Weapons: Interview with Vladimir Slipchenko," *Rossiyskaya Gazeta*, February 22, 2003, <<http://global-research.ca/articles/SLI303A.html>>.
 12. John A. Gentry, "Doomed to Fail: America's Blind Faith in Military Technology," *Parameters*, Winter 2002–03, pp. 88–103. Also see Mike Davis, "Slouching toward Baghdad," *Tomdispatch.com*, February 26, 2003. For the computer crash of January 2000, see James Bamford, *Body of Secrets: Anatomy of the Ultra-Secret National Security Agency* (New York: Anchor Books, 2002), pp. 451–53.
 13. Gentry, "Doomed to Fail," p. 99.
 14. Jason Vest, "The Army's Empire Skeptics," *Nation*, March 3, 2003, pp. 27–30. Also see Thomas E. Ricks and Vernon Loeb, "Unrivaled Military Feels Strains of Unending War," *Washington Post*, February 16, 2003.

15. See Ira Chernus, "Shock & Awe: Is Baghdad the Next Hiroshima?" *CommonDreams.org*, January 27, 2003. On the proposed Anglo-American use of such weapons as lasers that can blind and stun and microwave beams that can heat the water in human skin to the boiling point, see Antony Barnett, "Army's Secret 'People Zapper' Plans," *Observer*, November 3, 2002. The United States is sponsoring research on chemical and biological weapons that violates the 1972 Biological Weapons Convention and other international treaties. One of the projects is to produce antibiotic-resistant anthrax (Julian Borger, "U.S. Weapons Secrets Exposed," *Guardian*, October 29, 2002; and Thomas Fuller, "Microwave Weapons: The Dangers of First Use," *International Herald Tribune*, March 17, 2003).
16. Julian Borger, "U.S. Plan for New Nuclear Arsenal," *Guardian*, February 19, 2003. Also see Ellen Goodman, "War Is Now the Cover Story for Making More Terror," *Newsday*, March 14, 2002; Tad Daley, "America's Nuclear Hypocrisy," *International Herald Tribune*, October 21, 2002; Jonathan Schell, "The Bomb Is Back," *Sojourners Magazine*, November-December 2002, pp. 20-25, 58-59; Ira Chernus, "Brandishing Nukes—A Self-Defeating Policy," *CommonDreams.org*, February 4, 2003; Dan Stober, "Administration Moves Ahead on Nuclear 'Bunker Busters,'" *San Jose Mercury News*, April 23, 2003; and Noah Shachtman, "Embattled Lab Unveils New Nukes," *Wired*, April 23, 2003.
17. Elaine Scarry, "A Nuclear Double Standard," *Boston Globe*, November 3, 2002.
18. See Marilyn W. Thompson, *The Killer Strain: Anthrax and a Government Exposed* (New York: HarperCollins, 2003); and Chuck Murphy, "Not Iraq, but Anniston, Ala.," *St. Petersburg Times*, March 16, 2003. According to Murphy, the U.S. Army is currently storing in the United States 873,020 pounds of sarin, 1,657,480 pounds of VX nerve agent, and 1,976,760 pounds of mustard gas.
19. "Complete Text of President Bush's State of the Union Address," *Los Angeles Times*, January 28, 2003. Also see Ian Urbina, "On the Road with Murder, Inc.," *Asia Times*, January 24, 2003; Ori Nir, "Bush Seeks Israeli Advice on 'Targeted Killings,'" *Forward*, February 7, 2003.

20. Bob Woodward, *Bush at War* (New York: Simon and Schuster, 2002), pp. 145–46.
21. James Madison, as quoted by Senator Robert C. Byrd (D-West Virginia), October 3, 2002, speaking in opposition to a resolution granting the president open-ended authority to go to war whenever he chooses. See John C. Bonifaz, “War Powers: The White House Continues to Defy the Constitution,” *TomPaine.com*, February 4, 2003.
22. Doug Thompson, “Role Reversal: Bush Wants a War, Pentagon Urges Caution,” *Capitol Hill Blue*, January 22, 2002; quoted by Winslow T. Wheeler, “The Week of Shame: Congress Wilts as the President Demands an Unclogged Road to War” (Washington: Center for Defense Information, January 2003), p. 17.
23. Wheeler, “Week of Shame,” p. 17. Also see Steve Lopez, “Hindsight Casts Harsh Light on Use-of-Force Resolution,” *Los Angeles Times*, March 5, 2003.
24. I am indebted to William Norman Grigg’s analysis in his “Suspending Habeas Corpus,” *New American* 18:14 (July 15, 2002). Also see “Detaining Americans,” *Washington Post*, June 13, 2002; and Nat Hentoff, “George W. Bush’s Constitution,” *Village Voice*, January 3, 2003.
25. Benjamin Weiser, “U.S. to Appeal Order Giving Lawyers Access to Detainee,” *New York Times*, March 26, 2003.
26. Dick Meyer, “John Ashcroft: Minister of Fear,” *CBSNews.com*, June 12, 2002. Also see Geov Parrish, “Hello? Is Anybody Getting This Down?” *WorkingForChange.com*, June 11, 2002; and Edward Alden and Caroline Daniel, “Battle Lines Blurred as U.S. Searches for Enemies in the War on Terrorism,” *Financial Times*, January 2, 2003.
27. For details, see Paul Brodeur, *Secrets: A Writer in the Cold War* (Boston: Faber and Faber, 1997), pp. 159–65. On the CIA’s illegal domestic spying, see Angus Mackenzie, *Secrets: The CIA’s War at Home* (Berkeley: University of California Press, 1997). There is direct continuity between these thirty-year-old assaults on civil liberties and the Bush administration’s 2003 proposal to give the Pentagon and the CIA subpoena powers, which would allow them to demand personal and financial records on people in the United States as part of alleged

- counterterrorism operations. See Eric Lichtblau and James Risen, "Broad Domestic Role Asked for CIA and the Pentagon," *New York Times*, May 2, 2003.
28. James Bamford, "Washington Bends the Rules," *New York Times*, August 27, 2002.
 29. Patrick S. Poole, "Inside America's Secret Court: The Foreign Intelligence Surveillance Court," <<http://fly.hiwaay.net/~pspoole/fiscshort.html>>.
 30. Anita Ramasastry, "Why the Foreign Intelligence Surveillance Act Court Was Right to Rebuke the Justice Department," September 4, 2002, <<http://writ.news.findlaw.com/ramasastry/20020904.html>>. Ramasastry is a professor of law at the University of Washington School of Law in Seattle.
 31. Richard B. Schmitt, "U.S. Expands Clandestine Surveillance Operations," *Los Angeles Times*, March 5, 2003.
 32. Bob Egelko, "Spy Court to Review Prosecutors' Powers," *San Francisco Chronicle*, September 1, 2002; and Anita Ramasastry, "The Foreign Intelligence Surveillance Court of Review Creates a Potential End Run around Traditional Fourth Amendment Protections for Certain Criminal Law Enforcement Wiretaps," November 26, 2002, <<http://writ.news.findlaw.com/ramasastry/20021126.html>>.
 33. "U.S. Considers New Anti-Terrorism Legislation," Reuters, February 7, 2003.
 34. William M. Arkin, "The Military's New War of Words," *Los Angeles Times*, November 24, 2002.
 35. Bob Kemper, "Team Makes Sure War Message Is Unified, Positive," *Chicago Tribune*, April 7, 2003.
 36. "U.S. Lobbyist Helped Draft Eastern Europeans' Iraq Statement," Yahoo News, February 20, 2003.
 37. Pervez Hoodbhoy, "America's Dreams of Empire," *Los Angeles Times*, January 26, 2003; Chris Floyd, "Bush Uses War to Bury Probe of 9/11," *CounterPunch*, March 22, 2003.
 38. James Bamford, *Body of Secrets: Anatomy of the Ultra-secret National Security Agency* (New York: Anchor Books, 2002), pp. 78–91. Also see Bamford, "Bush Wrong to Use Pretext as Excuse to Invade Iraq," *USA*

Today, August 29, 2002; Adam Hochschild, "War or Peace? The U.S. Is Looking for an Excuse to Fight," *San Francisco Chronicle*, January 19, 2003; and Jennifer A. Gritt, "Weapons of Mass Delusion," April 30, 2003, <<http://www.antiwar.com/orig/gritt2.html>>.

39. "Weighing the Evidence," *New York Times*, February 15, 2003.
40. The transcript is online at <<http://www.fair.org/press-releases/kamel.pdf>>. Also see "Star Witness on Iraq Said Weapons Were Destroyed," Fairness and Accuracy in Reporting, *Media Advisory*, February 27, 2003; John Barry, "The Defector's Secrets," *Newsweek*, March 3, 2003; Andrew Gumbel, "Anthrax, Chemicals, and Nerve Gas: Who Is Lying?" *Independent*, April 20, 2003; and "So Where Are They, Mr. Blair?" *Independent*, April 20, 2003.
41. The most useful statement from Ritter is his interview with the PBS television program *Frontline* in 1999, <<http://www.pbs.org/wgbh/pages/frontline/shows/unscom/interviews/ritter.html>>.
42. Jonathan Rugman, "Downing Street Dossier Plagiarized," Channel 4 News, February 6, 2003, <http://www.channel4.com/news/2003/02/week_1/06_dossier.html>; and Alexander Cockburn, "The Great 'Intelligence Fraud,'" *CounterPunch*, February 15, 2003.
43. "U.N. Inspectors: U.S. Used Forged Reports," *Guardian*, March 8, 2003.
44. Joby Warrick, "Some Evidence on Iraq Called Fake," *Washington Post*, March 8, 2003; Stephen Fidler, "Niger Documents Fake, Says ElBaradei," *Financial Times*, March 8–9, 2003; Louis Charbonneau, "'Proof' That Iraq Sought Uranium Was Fake," Reuters, March 7, 2003; Bob Drogin and Greg Miller, "Intelligence Value in Iraq Questioned," *Los Angeles Times*, March 8, 2003; Mark Phillips, "Inspectors Call U.S. Tips 'Garbage,'" *CBSNews.com*, February 20, 2003; Congressman Henry A. Waxman to President George W. Bush, March 17, 2003, <http://www.house.gov/waxman/text/admin_iraq_march_17_let.htm>; Dana Priest and Karen De Young, "CIA Questioned Documents Linking Iraq, Uranium Ore," *Washington Post*, March 22, 2003; and Seymour M. Hersh, "Who Lied to Whom?" *New Yorker*, March 31, 2003, pp. 41–43.
45. Quoted by Ray Close, "A CIA Analyst on Forging Intelligence," *CounterPunch*, March 10, 2003.

46. Ray McGovern, "CIA Director Caves In," *CommonDreams.org*, February 13, 2003.
47. Seymour M. Hersh, "Selective Intelligence," *New Yorker*, May 12, 2003, pp. 44–51. Also see Paul Harris, Martin Bright, Taji Helmore, and Ed Helmore, "U.S. Rivals Turn On Each Other as Weapons Search Draws a Blank," *Observer*, May 11, 2003; Barton Gellman, "Frustrated, U.S. Arms Team to Leave Iraq; Task Force Unable to Find Any Weapons," *Washington Post*, May 11, 2003; and Harold Meyerson, "Enron-like Unreality," *Washington Post*, May 13, 2003.
48. Thom Shanker and Richard W. Stevenson, "Pentagon Wants \$10 Billion a Year for Antiterror Fund," *New York Times*, November 27, 2002; Leslie Wayne, "Rumsfeld Warns He Will Ask Congress for More Billions," *New York Times*, February 6, 2003. Llewellyn H. Rockwell Jr., "War and the Economy," *Mises.org*, March 10, 2003.
49. David R. Sands, "Allies Unlikely to Help Pay for Second Iraq Invasion," *Washington Times*, March 10, 2003.
50. Edmund L. Andrews, "Federal Debt Near Ceiling; Second Time in 9 Months," *New York Times*, February 20, 2003.
51. David Hale, "Are the Financial Markets Ready for One War or Two?" Zurich Financial Services, March 12, 2003.
52. Vincent Cable, "The Economic Consequences of War," *Observer*, February 2, 2003.
53. Laton McCartney, *Friends in High Places. The Bechtel Story: The Most Secret Corporation and How It Engineered the World* (New York: Ballantine, 1989); "U.S. Invites Bids for Iraq Reconstruction Work," Reuters, March 10, 2003; Joshua Chaffin, "Halliburton's Links Sharpen Bids Dispute," *Financial Times*, March 27, 2003; Oliver Morgan and Ed Vulliamy, "Cronies Set to Make a Killing," *Observer*, April 6, 2003; Stephen Glain, "Halliburton Unit Could Make \$7 Billion," *Boston Globe*, April 11, 2003; and David Ivanovich, "Pentagon Defends Halliburton Job," *Houston Chronicle*, April 10, 2003.
54. Robert Higgs, "Free Enterprise and War, a Dangerous Liaison," Independent Institute, January 22, 2003, <<http://www.independent.org/tii/news/030122Higgs.html>>.
55. Fred Kaplan, "Star Wars Spending Spree," *Slate*, November 7, 2002;

- and Seymour Melman, "In the Grip of a Permanent War Economy," *Bear Left!*, March 9, 2003, <<http://www.bear-left.com/original/2003/0309permanent.html>>.
56. Reinhold Niebuhr, *The Irony of American History* (New York: Scribner, 1952); quoted by Joseph C. Hough Jr., "President's Newsletter," Union Theological Seminary in the City of New York, March 2003.
57. "U.S. Plans Death Camp," *Herald Sun* (Australia), May 26, 2003, <news.com.au>; "Guantánamo Courtrooms Being Prepared," *Los Angeles Times*, June 2, 2003.
58. Michael Klare, *Resource Wars: The New Landscape of Global Conflict* (New York: Owl Books, 2002); Ken Silverstein, "The Crude Politics of Trading Oil," *Los Angeles Times*, December 6, 2002.
59. Loring Wirbel, "U.S. 'Negation' Policy in Space Raises Concerns Abroad," *EETimes*, May 22, 2003.

المؤلف فى سطور

تشمالمرز جونسون

البروفيسور تشالمرز آشبي جونسون أستاذ غير متفرغ للعلاقات الدولية فى جامعة كاليفورنيا فى سان دييجو. و قد خدم باعتباره ضابطا بحريا فى اليابان و كوريا الجنوبية. وكان مستشارا لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية من عام ١٩٦٧ حتى عام ١٩٧٣. ورأس مركز الدراسات الصينية فى جامعة كاليفورنيا عدة سنوات، و هو أيضا رئيس معهد بحوث السياسة اليابانية، الذى شارك فى إنشائه (و مكانه الآن فى جامعة سان فرانسيسكو). و قد ألف عدة كتب أحدثها ثلاثية يتناول فيها الإمبراطورية الأمريكية. و لد المؤلف عام ١٩٣١ وحصل على شهادته الجامعية الأولى فى العلوم الاقتصادية عام ١٩٥٣، ثم على شهادتى الماجستير و الدكتوراه فى العلوم السياسية فى عامى ١٩٥٧ و ١٩٦١ على التوالى من جامعة كاليفورنيا، بيركلى.

المترجم فى سطور:

بدأ حياته العملية صحفيا بمكتب " الجمهورية " فى الإسكندرية، و عمل بإذاعة القاهرة مديعا ثم كبيرا للمذيعين فى إذاعة صوت العرب، ثم ملحقا إعلاميا بالسفارة المصرية فى لبنان. كما عمل مراسلا لإذاعتى صوت العرب و القاهرة فى لبنان و سوريا و الأردن واليمن و وسط أوروبا، و خبيرا إعلاميا و مستشارا فنيا و رئيسا للشؤون العربية و الدولية، ومسؤولا عن تدريب الإذاعيين و الصحفيين فى عدد من الصحف والإذاعات العربية. ترجم و ألّف وأخرج عددا كبيرا من الأعمال الدرامية و البرامج الثقافية لمعظم الإذاعات العربية ومنها إذاعة البرنامج الثانى الثقافى بالقاهرة، كما ترجم عددا كبيرا من الكتب السياسية و الأدبية فى الصحف العربية. و هو فى الوقت الحالى محاضر بكلية الإعلام بجامعة مصر الدولية.

التصحيح اللغوى: محمد المصرى
الإشراف الفنى: حسن كامل

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب